المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

ميراث الترجمة

وليام هاولز

ما وراء التاريخ

ترجمة وتقديم: أحمد أبو زيد

تقديم هذه الطبعة: محمد الجوهرى

1700

ما وراء التاريخ

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1700
- ما وراء التاريخ
- وليام هاولز
- أحمد أبو زيد
- محمد الجوهرى
- 2011

هذه ترجمة كتاب:
Back of History
by: William Howells

" صدر هذا الكتاب بالتعاون مع الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية"

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

ما وراء التاريخ

تــأليــــف : ويليام هاولز

تــرجمـــة وتقديم : أحمد أبوزيد

تقديم هذه الطبعة : محمد الجوهرى

2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هاولز، وليام
ما وراء التاريخ: تأليف: وليام هاولز ، ترجمة وتقديم: أحمد أبوزيد، تقديم هذه الطبعة: محمد الجوهرى
القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١١
٦٠٤ ص ، ٢٤ سم
(أ) أبوزيد ، أحمد (ترجمة وتقديم)
(ب) الجوهرى؛ محمد (تقديم هذه الطبعة)
(جـ) العنوان ٣٠٧,١٤٠٣

رقم الإيداع ١٦٥٦٣ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى: I.S.B.N 978 - 977- 704 - 245- 1

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ويلا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

مقدمة هذه الطبعة

بقلم/ محمد الجوهرى

هــذا عمــل نــادر فــى تميزه، فهو من أهم الكتــب فى مجالــه وهــو: الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو الطبيعية Physical Anthropology، والتى أصبحت تسمى مؤخرا بالأنثروبولوجيا البيولوجية Biological Anthropology. وهو متميز بسبب مؤلفه الذى يعد واحدا من أكبر علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية على الصعيد العالمى، كما ظل كبيرهم على الإطلاق لعدة عقود فى الولايات المتحدة إبان القرن الماضى. وهو متميز بسبب مترجمه كبير علماء الأنثروبولوجيا العرب الأستاذ الدكتور أحمد أبوزيد أستاذ الأنثروبولوجيا الذى يكمل بعد شهور قليلة العام التسعين من عمره المديد. وبسبب مسئولياته فى تأسيس العلم لم يشتغل طوال حياته الأكاديمية منذ ١٩٥٦ وحتى اليوم إلا بترجمة ثلاثة من أمهات الأعمال الأنثروبولوجية: الغصن الذهبى لجيمس فريزر (مع نخبة من زملائه)، وكتاب الأنثروبولوجيا الاجتماعية لإيفانز بريتشارد، وهذا الكتاب الذى نقدم له اليوم. وستشتمل كلمتى هنا على هذه العناصر الثلاثة أذكر نبذة عن كل منها، لأنها تلخص كما أسلفت أهمية هذا الكتاب وتميزه وجدارته بإعادة الطبع بعد هذه السنوات الطويلة على صدوره لأول مرة.

أولاً: الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو الطبيعية

وهي التي أصبحت تعرف اليوم باسم الأنثروبولوجيا البيولوجية. وقد ظل هذا التخصص غريبا على أقسام الاجتماع خصوصا، وعلى كليات الآداب عموما في الجامعات المصرية على امتداد عمرها الذى جاوز المائة عام. فموضوعها ومصطلحاتها تدخل - في جانب كبير منها - في تخصصات البيولوجيا والفسيولوجيا وعلم الوراثة، كما تدخل بعض موضوعاتها - كما سنرى - في ميدان الجغرافيا، وعلم السكان، ودراسات التطور والبيولوجيا الاجتماعية، وعلوم البيئة، والحفريات القديمة... إلخ. ولكن التأمل الدقيق لمسائل الأنثروبولوجيا وقضاياها يبين أنها ليست سوى قسم من ثلاثة أقسام يضمها جميعا تخصص علم الأنثروبولوجيا العامة: الأنثروبولوجيا البيولوجية هي ركيزته، والثقافية هي أشهر فروعه، والأنثروبولوجيا الاجتماعية هي أقربها إلى عموم الناس لأنها أوثقها اتصالاً بعلم الاجتماع.

وقد تعرضت الأنثروبولوجيا البيولوجية خلال الثلاثين سنة الماضية لقدر من التغير والتخصص يفوق ما شهده أى فرع آخر من فروع الأنثروبولوجيا، سواء من حيث درجة تعقد المشكلات التى تدرسها وتنوعها، أو دقة أساليب البحث التى تستخدمها، وكان الجانب الأكبر من الأنثروبولوجيا الفيزيقية يقوم في الماضى على الملاحظات المورفولوجية والقياسية الموحدة عن الهياكل العظمية، وكذلك عن الشعوب المعاصرة وأقارب الإنسان الأقربين من العالم الحيوانى. كما كانت الأنثروبولوجيا الفيزيقية تقوم فى تلك المرحلة على استخدام بعض التحليلات الإحصائية البسيطة نسبيا. وكانت قامات الأفراد، وأحجام الجمجمة والأبعاد الجسمية المختلفة تقاس، وتصنف الشعوب طبقا لبعض المعايير الواضحة (الظاهرة) استنادا إلى المتوسطات التى كانت تحجب مدى التنوع القائم. أما المعلومات الإضافية اللازمة فكانت مقصورة على الدراسة التشريحية والفسيولوجية المقارنة، وعلى دراية محدودة بعلم الحفريات البشرية، وتصور مبسط لنظرية مندل فى الوراثة.

أما اليوم فقد أصبحت الأنثروبولوجيا البيولوجية - إزاء اهتمامها ببعض المشكلات المتخصصة - تعتمد اعتمادا كبيرا على البيولوجيا الجزئية، وعلى بعض الأساليب الحديثة مثل الهجرة الكهربية (للدقائق المعلقة) Electro Phoresis، ودراسة الهيموجلوبين، والمعالجة الرياضية المعقدة لعلم الوراثة. لقد كان من شأن زيادة تنوع وتعقد المهارات اللازمة لدارس الأنثروبولوجيا الفيزيقية أن ظهرت بعض مجالات البحث الأكثر تخصصا، والتى لم يكن من الممكن الإحاطة بها على الوجه الأكمل فى كتاب تمهيدى فى علم الأنثروبولوجيا. ومن هذه المجالات على سبيل المثال: الدراسات الإيكولوجية التى تتناول العلاقات بين بعض العوامل مثل المناخ، والارتفاع، وتوزيع الموارد وتوزيع السكان وكثافتهم، وتأثير العوامل التكيفية والانتخابية التى تتدخل فى تشكيل الوعاء الوراثى العام للسكان، وتتداخل هذه العوامل بدورها تداخلاً معقدا مع الظواهر الثقافية والاجتماعية. ويرتبط علم الفسيولوجيا البيئى - من وجهة النظر الإيكولوجية - ببعض الموضوعات مثل التكيف مع الحياة فى الارتفاعات العالية، كما تمس من بعض النواحى مشكلة انعدام الوزن فى الفضاء الخارجى. ومن موضوعات الاهتمام المتصلة بهذا الميدان: موضوع أنماط النمو عند الصغار، وآثار التغذية، والعلاقات بين شكل الجسم وشكل الأداء الوظيفى البيولوجى والثقافى على السواء. كما تتضمن بعض جوانب الدراسة فى ميدان الأنثروبولوجيا الطبية الذى يتناول دور العوامل البيئية والوراثية فى التأثير فى المرض وعلاجه.

وهناك عديد من جوانب الدراسة فى البيولوجيا البشرية التى يتوفر على دراستها متخصصون فى فروع أخرى من العلم. غير أن ما يميز دارس الأنثروبولوجيا البيولوجية ويجعل ميدان دراسته جزءا متصلاً من ميدان الدراسة الأنثروبولوجية العامة اهتمامه بالتنوع البشرى والتكيف، وظاهرة الثقافة بالذات. فمن الواضح أن الإنسان يشترك فى كثير من السمات البيولوجية مع بقية العالم الحيوانى. وقد تعرض الإنسان وأسلافه لبعض التغيرات البيولوجية من أجل التكيف

مع الظروف البيئية الجديدة أو المتغيرة. على أن أسلاف الإنسان استطاعوا عند نقطة معينة من تاريخهم تطوير القدرة على صنع الثقافة، مما أتاح لهم زيادة أكبر فى تنويع وفى سرعة الاستجابات التكيفية. ولم يقتصر فضل الثقافة على الإنسان فى أنها مكنته من التكيف مع الضغوط والإمكانات البيئية الجديدة دون حاجة إلى المرور بعمليات التكيف البيولوجى البطيئة، وإنما يبدو فضلها عليه كذلك فى أنها قد زادت من قدرته على التحكم فى مختلف جوانب بيئته، وقد أتاحت هذه القدرة التكيفية الجديدة للإنسان أن ينمو عدديا، وأن يشغل عديدا من البيئات الأكثر تنوعا كما أتاحت له القدرة على التأثير فى سرعة تطوره البيولوجى واتجاه هذا التطور.

وتنقسم البحوث العديدة المتنوعة فى الأنثروبولوجيا البيولوجية إلى ميدانين رئيسيين هما: دراسة الإنسان كنتاج لعملية التطور، ودراسة وتحليل الجماعات البشرية. ورغم أن المناهج المستخدمة فى هذين الميدانين تتباين أشد التباين فى أغلب الأحوال، فإن النتائج يرتبط بعضها ببعض أوثق الارتباط. وكثيرا ما تسهم المعلومات المتحصلة من أحد فرعى الدراسة فى إلقاء الضوء على موضوع مشترك هو التنوع البشرى، وهذا الموضوع بدوره ذو أهمية جوهرية لفهم عملية التكيف الإنسانى، التى تمثل مشكلة أساسية فى كل من الأنثروبولوجيا الفيزيقية والثقافية على السواء.

ولاشك أن فهم الإنسان كنتاج لعملية التطور يتطلب قدرا من فهم تطور جميع أشكال الحياة، وكذلك فهم طبيعة الحياة نفسها ولو أن المتخصص فى الأنثروبولوجيا البيولوجية يركز الجانب الأكبر من اهتمامه على تاريخ السمات الفيزيقية للإنسان القديم. ولذلك يفتش فى أنحاء الأرض كافة بحثا عن آثار للإنسان القديم، ويقوم بإجـــراء مقارنات دقيقة بين بعض هذه الأشكال الأولى للإنسان وبعضها الآخر من ناحية وبينها وبين الإنسان الحديث من ناحية أخرى. وعن طريق هذه المقارنات يستطيع تعقب سمة بنائية معينة، أو مجموعة بأكملها من السمات، منذ أقدم الجماعات البشرية التى ظهرت فيها حتى الجماعات التى تعيش

فى عصرنا الحاضر. وقد نستطيع بفضل هذه الدراسات أن نكتشف متى ظهرت سمة معينة لأول مرة. وكيف انتشرت بين الناس بعد ذلك. كما نستطيع فى حالات أخرى أن نلاحظ اختفاءها التدريجى. وفى حالة الدراسة التاريخية لمجموعات من السمات الفيزيقية نستطيع أن نلاحظ ظهورها عند جماعة بشرية معينة لأول مرة، ثم ماذا حدث لهذه السمة أو لمجموعة السمات هذه عندما اختلطت الجماعة التى ظهرت بينها بجماعات أخرى مختلفة عنها فيزيقيا. ورغم الثغرات العديدة التى لا تزال موجودة فى التسلسل التاريخى الذى يعيد المتخصص فى الأنثروبولوجيا البيولوجية رسم صورته أمامنا، فإن بوسعه الإجابة عن بعض التساؤلات – ولو جزئيا على الأقل – مثل: متى، وأين ظهرت أقدم الكائنات البشرية لأول مرة؟ كيف كانت هيئة تلك الكائنات البشرية، وكيف تتشابه أو تختلف بعضها عن بعض؟ كيف تغيرت السمات الفيزيقية للإنسان خلال الفترة التى عاشها على الأرض؟

والملاحظ أن البشر المعاصرين يتشابهون بعضهم مع بعض تشابها كاملا فى البناء الأساسى. رغم الفروق بينهم فى المظهر الخارجى. فكل الجماعات البشرية المعاصرة تنتمى إلى نوع واحد – هو الإنسان العاقل – تاريخه معروف لنا معرفة جيدة. أما فى عصور ما قبل التاريخ البعيدة فيبدو أنه كانت هناك أنواع أخرى، بل وربما كانت هناك أجناس أخرى أيضا. بل إننا إذا توغلنا إلى فترة سحيقة فى التاريخ، فسوف نكتشف أنه كانت هناك فترة لم يكن فيها وجود لأى شكل بشرى على الإطلاق. ولذلك فإن دراسة العمليات التى من خلالها تطور الإنسان من أسلافه، وكذلك عمليات التغير المستمرة التى ما زالت تعمل على تغيير شكله الجسمى بالتدريج، كل ذلك يمثل هو الآخر جزءا من الأنثروبولوجيا البيولوجية. وبفضل هذه الدراسات نعرف كيف أصبح الإنسان – تدريجيا – مختلفا عن سائر الحيوانات، وكيف اكتسب السمات الجسمانية التى تميزه اليوم. كما نعرف من خلال هذه الدراسات أيضاً كيف تباين الناس فيما بينهم، ونقف على بعض العوامل المسئولة عن التنوع اللانهائى فى الأشكال البشرية.

وتنقسم دراسة التغيرات التطورية فى بعض الأحيان إلى دراسة التطورات الكبرى، ودراسة التطورات الصغرى. ويتطلب كلا القسمين قدرا من المعرفة بمبادئ التطور العام لأشكال الحياة المختلفة وبطبيعة الحياة نفسها. ولو أن المتخصص فى الأنثروبولوجيا البيولوجية يركز اهتمامه على أشكال الحياة الأقرب إلى الإنسان، أعنى عند الرئيسات. ومن شأن المقارنة بين أشكال الحياة القائمة والأشكال الحفرية أن تلقى ضوءاً متزايدا على تطور كثير من السمات البيولوجية البشرية المميزة وعلى دلالتها. وينصب اليوم اهتمام خاص على دراسة السلوك البشرى وسلوك أشباه البشر، وعلى الضوء الذى يمكن أن تلقيه مثل هذه الدراسات على كثير من جوانب الحياة الاجتماعية عند الإنسان وعلى ظهور الثقافة.

ثم إن البشر لا يعيشون فى فراغ، وإنما هم فى تفاعل مستمر مع البيئة التى يعيشون فيها. ولا تضم البيئة بالطبع مجرد الأرض، والبحر، والهواء والعناصر الطبيعية العديدة الأخرى، وإنما تضم – علاوة على هذا – الكائنات الحية العديدة المتنوعة التى تشارك الإنسان فى عالمه. ولذلك فإن أى دراسة للإنسان لا يمكن أن تستكمل مقوماتها إذا هى أغفلت هذه العلاقة بينه وبين البيئة فى كل زمان وكل مكان، ونحن نريد أن نعرف بالضبط كيف أثرت البيئة، ومازالت تؤثر فى البناء الجسمى للإنسان. ولذلك فإن الوجه الثالث المهم للأنثروبولوجيا البيولوجية يتمثل فى دراسة سبل تفاعل الإنسان مع البيئة التى يعيش فيها، وآثار هذا التفاعل على طبيعته البيولوجية. وهكذا يمكن أن يضيف هذا البُعد إلى معرفتنا بالظروف التى عملت على تنوع الأشكال البشرية.

ومن الأجزاء المهمة والحديثة نسبيا فى الأنثروبولوجيا البيولوجية دراسة العمليات الفعلية التى عن طريقها تحدث التغيرات البيولوجية فى الإنسان. وكانت إحدى المراحل المبكرة فى دراسة هذا الموضوع تتضمن دراسة نمو الإنسان من الحمل إلى البلوغ وتأثير الظروف البيئية المختلفة على هذا النمو. أما المرحلة الأحدث فى هذه الدراسة فتقوم على دراسة الوراثة البشرية، أعنى ميكانيزمات

الوراثة، وأساليب تعديـل الصفات الوراثية، وأساليب تكيف الكائنات البشرية بيولوجيا مع الظروف الجديدة، سواء على مستوى الفرد الواحد أو على مستوى النوع بأكمله.

وقد تحققت اليوم بعض أوجه التقدم المهمة فى علم الوراثة من خلال التحليلات السكانية. إذ من الواضح أن الإنسان لا يعيش منفردا على الإطلاق، وإنما هو يحيا منتميا إلى أسرة، أو قبيلة، أو دولة، أو أمة. بل إنه حتى فى أكثر المجتمعات البشرية انعزالاً تحدث تفاعلات من نوع أو آخر بين القبائل، والدول، والأمم المنفصلة بعضها عن بعض. ومن شأن ذلك أن يؤثر هو الآخر فى البناء الجسمى للإنسان، وفى التغيرات التى يتعرض لها هذا الجسم. ومن الواضح أن الشعوب التى تعيش منعزلة بعضها عن بعض نسبيا تتغير ببطء شديد فى شكلها الجسمانى، على حين نلاحظ أن الجماعات التى تتصل مع شعوب عديدة متباينة جسمانيا يمكن أن تطرأ عليها تغيرات جذرية فى البناء الجسمى فى خلال فترة زمنية قصيرة نسبيا. على أن الاتصالات التى تتم بين شعوب مخالفة يمكن أن تخلق بعض المشكلات المتعلقة بطبيعة ودلالة الفروق بين الناس. من هذا مثلاً أنه قد يطلب من المتخصص فى الأنثروبولوجيا البيولوجية أن يجيب على بعض التساؤلات مثل: ماذا يحدث عندما تتزاوج جماعات مختلفة بعضها عن بعض؟ هل تتميز بعض أنواع البشر بأنها أرقى – فطريا – من الأنواع الأخرى؟ هل هناك أية علاقة بين النمو الفيزيقى للإنسان ومزاجه؟ أو ذكائه؟ أو اتجاهاته الخاصة؟ أو سلوكه بوجه عام؟

وهناك فرع حديث نسبيا من الأنثروبولوجيا البيولوجية يختص بدراسة تطور السلوك. حيث تعمل الدراسات المقارنة لسلوك الرئيسات – وهى المجموعة التى ينتمى إليها الإنسان أيضا من الناحية البيولوجية – تعمل على إلقاء الضوء على أصول الحياة الاجتماعية عند الإنسان والبدايات الأولى للثقافة. فالثقافة هى أبرز السمات المميزة للإنسان (بمقارنته بالسعادين والقردة العليا)، وإن كانت

الدراسات الحديثة توضح أن الإنسان ليس منفردا حتى فى هذه الناحية؛ إذ نلمس عند الرئيسات (وعند حيوانات أخرى أحيانا) نوعا من السلوك الثقافى الشديد البساطة. وتوضح كذلك الدراسات التى أجريت على سلوك الرئيسات أن ثقافة الإنسان قد نمت وتطورت ببطء، لكنها أصبحت عند نقطة معينة من الأهمية بحيث أخذت تؤثر فى اتجاه التطور البيولوجى البشرى وسرعته.

إننا لن نستطيع أن نعرض فى هذا المقام تفصيلاً لكل مشكلات الأنثروبولوجيا البيولوجية ومناهجها. وقد حاولنا فيما سبق أن نقدم للقارئ فكرة عن آفاق هذا الميدان بصورة عامة كل العمومية، وأن نوضح العلاقة بينه وبين سائر موضوعات الدراسة الأنثروبولوجية(*).

ثانياً: المؤلف: ويليام هاولز (١٩٠١-١٩٨٢)

مؤلف كتابنا هذا "ما وراء التاريخ" هو الأستاذ وليام هاولز William Howells أستاذ الأنثروبولوجيا الطبيعية بجامعة هارفارد بأمريكا، وهى الجامعة التى تلقى فيها علومه وتتلمذ على أيدى بعض كبار العلماء الأمريكيين من أمثال هوتون Hooton وتوزر Tozzer ونال منها درجاته العلمية فى الأنثروبولوجيا. وكان هاولز يشغل قبل انتقاله إلى هارفارد منصب أستاذ الأنثروبولوجيا العامة وما يعرف باسم الدراسات الحرة المتكاملة Integrated Liberal Studies بجامعة ويسكونسن لمدة عشرين عاما (من ١٩٣٤ حتى ١٩٥٤). وبالإضافة إلى التدريس تولى هاولز لبعض الوقت منصب رئيس الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية American Anthropological Association كما تولى رئاسة تحرير "المجلة الأمريكية للأنثروبولوجيا الطبيعية" American Journal of Physical Anthropology، وهى من أمهات المجلات

(*) انظر المزيد حول الموضوع فى محمد الجوهرى وزملاؤه، الأنثروبولوجيا، قضايا الموضوع والمنهج، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٨ (الفصل الأول).

الأنثروبولوجية فى العالم، ويختار رئيس تحريرها دائما من بين كبار العلماء. وفى أواخر أيامه عمل أمينا لمتحف بيبودى Peabody الشهير بجامعة هارفارد. والواقع أن هاولز يعد أحد أساطين الأنثروبولوجيا الطبيعية فى العالم وبخاصة فى أمريكا، بل إن هناك من يعتبره عميد الأنثروبولوجيين الطبيعيين فى وطنه؛ وربما لا ينازعه فى ذلك سوى الأستاذ واشبورن Sherwood L. Washburn أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة كاليفورنيا. وقد لمع اسم هاولز فى محيط العلماء والمتخصصين فى الأنثروبولوجيا الطبيعية منذ ظهر كتابه الأول Mankind So Far، ثم توطد مركزه بصورة قاطعة بعد أن ظهر كتابه الثانى The Heathens وكذلك المقالات العديدة التى نشرها فى المجلات العلمية. ولاشك أن تلك الجهود العلمية الرصينة قد أسهمت فى توضيح أهمية الأنثروبولوجيا الطبيعية فى المجتمع الحديث، فضلاً عن توفيقه فى تقريب هذا التخصص العلمى الرصين لجمهور القراء المثقفين والمهتمين.

ثالثاً: المترجم: أحمد أبوزيد (من مواليد ١٩٢١/٥/٣)

الدكتور أحمد أبوزيد ليس أول علماء الأنثروبولوجيا العرب، ولا هو أكثرهم إنتاجا... وإنما هو – بلا جدال – أعلاهم مقاما وأقواهم تأثيرا. وفى هذه اللحظة من تاريخ حياتنا الأكاديمية فى مصر وسائر بلاد العرب، ربما يكون من المهم الإشارة إلى أن أحمد أبوزيد قد أعطى البحث العلمى – وفى الحقيقة العمـل الميدانى فى الحقل الأنثروبولوجى – الوزن الأول بين اهتماماته، وأنفـق عليه من عمره وجهده ما لم ينفقه متخصص آخر فى العلم الأنثروبولوجى فى وطننا الكبير الممتد من المحيط إلى الخليج. ولا يجوز أن نمل من تكرار هذه الحقيقة ولفت النظر إليها لأن هذا التكريس الكامل للبحث هو الذى جعل أحمد أبوزيد ذلك العملاق العظيم، الذى نشرف بانتمائه إلى العلم الأنثروبولوجى العربى. والاشتغال بالبحث العلمى هو أساس تكوين العالم، وهو عدة الأستاذ المعلم. فالمعلم صاحب الخبرة البحثية السيئة أو الناقصة، سيكون بالقطع معلما قاصرا، ومؤلفا هزيلاً أو ناقلاً. أما أستاذنا

فلم يتوان طوال مراحل حياته العلمية عن ممارسة البحث الميــداني، والانغمــاس - إن بنفسه أو بإشرافه على فرق بحثية - في العمل الميداني، وضرب القدوة والمثل على نحو ما نطالع تفصيلاً في بعض فصول هذا الكتاب.

أما الصفة الرسمية اللصيقة بالأستاذ الدكتور أحمد أبوزيد فهي صفة الأستاذ المعلم، التي لازمته طوال حياته وستظل تلازمه إلى ما شاء الله. وقد أسهم بنشــر نور العلم وتقديم القدوة والمثل في جامعات: مصر، وليبيا، والكويت، وغيرها. والجامعة هي المنبر الذي يمكّن الأستاذ الحق من تأسيس مدرسة علمية، وقيادة حركة تغيير لمسار العلم، والإسهام - بصفة عامة - في تغيير وتجديد حركة مجتمعه.

ويلفت نظرنا في رحلة أبوزيد العلمية أنه لم يكن من بين الغالبية التي انحصرت خبراتها وانحبس أداؤها داخل جامعاتها أو حتى في إطار الأستاذية الجامعية وحدها. كما أنه لم يكن من الأقلية النادرة التي اغتربت - في الداخل أو في الخارج - فعملت في جامعة أجنبية، وانحصرت داخلها كذلك. لقد جمع أحمد أبوزيد بكفاءة نادرة بين الخدمة الوطنية للمؤسسة الأكاديمية العربية، والخبرة الفنية التي حصلها في الجامعة الأمريكية بالقاهرة سنوات طويلة من عمره، وعندما أمسك ميزان العدل - في هذه النقطة - فقد ضرب المثل للأستاذ الذي يشع وطنية وتقديسا للواجب، دون أن يحرم نفسه وعلمه وطلابه ثمرات الانفتاح الفكري، الذي هو في الحقيقة إحدى ثمار العلم الأنثروبولوجي نفسه.

ويشترك أحمد أبوزيد مع كثيرين من أساتذة العلوم الاجتماعية، في ميادين علوم الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والتاريخ... إلخ في الإسهام بدور بارز على امتداد حياتهم في ممارسة العمل العلمي داخل مراكز البحوث المتخصصة. يشهد على ذلك أداؤه داخل المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية (بدءا من بحث الثأر، وحتى بحث رؤى العالم) على امتداد أربعة عقود. كما يؤكد ذلك دوره النشط في مركز البحوث الاجتماعية التابع للجامعة الأمريكية بالقاهرة... وغيرها من هيئات البحث العلمي الاجتماعي.

ولكن المؤكد أن أحمد أبوزيد يتفوق على سائر أساتذة العلوم الاجتماعية فى اضطلاعه بتأسيس أهم وأكبر المجلات الثقافية رفيعة المستوى، وأوسعها جميعا انتشارا على النطاق العربى. لقد كانت "عالم الفكر" إبداعه الأكبر، وهى التى استأثرت بالقسط الأوفى من وقته وجهده، كما أنها هى التى فتحت له، ثم فتحت لنا من خلاله، نافذة عريضة مشرقة على الفكر الإنسانى الرفيع وإبداعاته فى شتى الميادين. وقد استن فى تحريره للمجلة سنة حميدة أن يقيم أساس كل عدد من أعدادها على "ملف" فى موضوع معين، يقدم له بدراسة ضافية، ويستكتب فيه أعلام ذلك التخصص. وفى ثنايا ذلك قدم إلى القارئ العربى المثقف - إلى جانب الرواد والأعلام - عشرات الأقلام النابهة، التى سرعان ما تحول أصحابها إلى نجوم فى سماء الثقافة العربية. وقد نشر المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية - فى فترة إدارة ناهد صالح - تلك الدراسات التى صدر بها أغلب الأعداد الخاصة لمجلة عالم الفكر فى مجلدين تناهز صفحاتهما الألف ثلاثمائة صفحة. إنه إسهام قائم برأسه يستحق أن توقف عليه دراسة مستقلة، نرجو أن نسارع بها لتزداد الفائدة من طبعها وتقديمها إلى دوائر أوسع وأوسع من القراء المثقفين.

لا شك أن تأجيل الحديث عن بعض إنجازات أحمد أبوزيد لا يعنى أنها أقل مما تناولناه من إنجازات، ولا هى من الأمور المعتادة والمنتظرة من كل أستاذ جامعى مرموق ومثقف عريق التكوين شامل النظرة. نعم لقد ألف، كما يؤلف أغلب الأساتذة، وترجم الكتب والمقالات، كما يترجم كثر من زملائه .. ولكنه مع ذلك لم يؤلف شيئاً مثل سائر المؤلفات، ولم يترجم كسائر الترجمات، وثبت أعماله العلمية يؤكد لنا ذلك بكل جلاء.

وغنى عن البيان أن أحمد أبوزيد قد أنجز عددا كبيرا من الأعمال العلمية الوفيرة كما والفائقة التميز كيفا. كما شارك وأشرف على عدد من البحوث

والدراسات والرسائل العلمية. وقد نشر مركز البحوث والدراسات الاجتماعية بكلية الآداب، جامعة القاهرة سفرا ضخما عن أحمد أبوزيد وحياته وأعماله، يمكن للقارئ أن يستزيد بالرجوع إليه(*).

(*) ناهد صالح (محرر)، بحوث فى الأنثروبولوجيا العربية. مهداة إلى الأستاذ الدكتور أحمد أبوزيد رائد الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٢.

ماوراء التاریخ

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف : وليام هاولز

أستاذ علم الأنثروبولوجيا بجامعة هارفارد وقد حقق شهرة كبيرة كعالم ومؤلف فى هذا العلم .

ولد بمدينة نيويورك وتخرج فى جامعة هارفارد . قام بتدريس الأنثروبولوجيا فى جامعة ويسكونسن لمدة عشرين عاماً حتى عام ١٩٥٤ حيث انتقل إلى جامعة هارفارد . عمل رئيساً لرابطة علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين ، ورئيس تحرير مجلة American Journal of Physical Anthropology ، ويعمل حالياً أمينا المتحف بيبودى Peadbody الشهير بجامعة هارفارد . ويعتبر هذا الكتاب ثالث كتاب له بعد The Heathens و Mankind So Far .

المترجم وصاحب المقدمة : الدكتور أحمد أبوزيد

أستاذ الاجتماع والأنثروبولوجيا المساعد بجامعة الاسكندرية . حصل على ليسانس الآداب (١٩٤٤) من قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية بجامعة الاسكندرية ، ثم الماجستير (١٩٥٣) ، ودكتوراه الفلسفة (١٩٥٦) من معهد الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة أكسفورد . زميل بمعهد الأنثروبولوجيا الملكى لبريطانيا وارلنده الحرة وعضو بالمعهد الأفريقى الدولى بلندن . عمل لعدة سنوات خبيرا بمنظمة العمل الدولية بجنيف لشئون البدو والمجتمعات القبلية فى أفريقيا .

قام بدراسات حقلية استغرقت سنوات عدة بين قبائل البدو فى صحراوات الشرق الأوسط وشمال أفريقيا (فى نيجيريا وسييرا ليونى) وكذلك فى جنوب

السودان . كما حضر عدداً كبيراً من المؤتمرات الدولية التى تناقش مشكلة الأنثربولوچيا والاجتماع وبخاصة مشكلة توطين البدو .

من مؤلفاته بالعربية : تايلور (مجموعة نوابغ الفكر الغربى ١٩٥٨) — ودراسات أنثربولوچية فى المجتمع الليبى (١٩٦٣) ، وبالانجليزية : النظم الاجتماعية فى الواحات الخارجة — والبداوة والتوطين فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا — والمجتمعات القبلية فى الصحراء الغربية المصرية وصحراء سوريا — فضلا عن عدد كبير من المقالات فى كلتا اللغتين .

مصمم الغلاف : محمد طلعت المصرى

محلل كيماوى بشركة الحديد والصلب .

صمم عدة أغلفة لكتب المؤسسة .

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

المجتمعات الجديدة

العالم الجديد

المد والبروز — الخطوة الثالثة

مقدمة المترجم

لعله لم يأت على الإنسان وقت كان أحوج فيه مما هو الآن إلى معرفة نفسه ودراسة تراثه وثقافته وفهم النظم الاجتماعية المختلفة التي ترسم له سلوكه وتصرفاته وتحدد علاقاته مع غيره من الناس . فقد أحرزت العلوم الطبيعية — بالمعنى الواسع — تقدماً هائلا في كل الميادين ، وأفلح العقل البشرى فى أن يكشف الكثير من خفايا الكون ويهتك كثيراً من أسراره فى الوقت الذى ظلت جوانب عديدة من حياة الإنسان نفسه غامضة مغلقة لا نعرف عنها سوى القليل ؛ بل إن هناك مجتمعات وثقافات بأسرها لا نكاد نعرف عنها شيئاً على الإطلاق رغم الاهتمام المتزايد فى السنوات الخمسين الأخيرة بدراسة المجتمع البشرى فى كثير من أنحاء العالم ، وبخاصة دراسة المجتمعات القبلية الصغيرة المنزوية فى الجهات النائية ، لمعرفة نظمها وثقافاتها وتقاليدها بل وتاريخها حيثما أمكن . ولقد كان الإنسان دائماً بتكوينه الجسمى ونظمه وثقافاته المتنوعة أشد الكائنات الحية تعقداً وأكثرها طرافة . فهو خلق فريد بين الكائنات العضوية ، يمثل مرحلة فريدة فى تطور الحياة يمكن تسميتها بالمرحلة البشرية الاجتماعية . وبذلك لا يمكن اعتباره مجرد عضو فى عائلة أو رتبة من رتب الثدييات ، لأنه يمتاز عنها جميعاً بكثير من الخصائص الفيزيقية والاجتماعية والثقافية . فمن الناحية الفيزيقية مثلا يمتاز بكبر حجم المخ واعتدال القامة والمشى المنتظم على رجلين اثنتين مما ترتب عليه تحرر اليدين وإمكان استخدامهما فى العمل وبالتالى اكتساب مهارات يدوية لا نجد لها مثيلا عند بقية الرئيسات ، وقد أدى ذلك بدوره إلى ارتقاء مراكز الفهم والذكاء فى المخ . كذلك هو يمتاز عنها جميعاً بأنه يعيش طيلة حياته فى مجتمع منظم متماسك . صحيح أن بعض القردة العليا يعيش فى جماعات على درجة معينة من التنظيم ويقوم بينها نوع من التعاون فى الحياة اليومية ، ولكن المجتمع البشرى ينفرد بوجود النظم الاجتماعية الواضحة المعالم التى ينتظم بمقتضاها سلوك الأفراد والجماعات التى تدخل فى تكوينه ،

مثل نظام الزواج والقرابة والنظام الدينى . وأخيراً ينفرد الإنسان من دون الكائنات الحية كلها بتراث ثقافى طويل ينتقل من جيل إلى آخر ويتمثل فى أبسط صوره فى العادات والتقاليد الموروثة علاوة على الفنون والصناعات المختلفة التى مهما يبلغ من سذاجتها وبساطتها فإنها تتطلب قدراً معيناً من المهارة والذكاء والقدرة على الابتكار لا تتوافر لبقية الرئيسات . وتأتلف هذه الأمور المختلفة فى كل واحد متماسك بحيث يستلزم الأمر الإلمام بها وأخذها كلها فى الاعتبار إذا أريد فهم الإنسان ككائن عضوى يعيش فى مجتمع له نظمه وثقافته .

ومن هنا نشأت الحاجة إلى علم شامل للإنسان لا يكتفى بدراسة ناحية واحدة أو مظهر واحد من نواحى أو مظاهر حياته المعقدة كما هو شأن العلوم الاجتماعية الجزئية كالاقتصاد أو السياسة ، أو يقصر اهتمامه على دراسة تكوينه الفيزيقى فحسب ، وإنما يحيط بكل خصائصه ومقوماته البيولوجية والاجتماعية والثقافية سواء فى الماضى السحيق أو الماضى القريب أو فى الوقت الحاضر . وهذا العلم هو الأنثربولوجيا العامة أو علم الإنسان العام General Anthropology . فمجال الأنثربولوجيا العامة إذن مجال واسع ومعقد . ولذا كنا نجد أنه على الرغم من حداثتها النسبية فقد ظهرت فيها مدارس ونظريات ومناهج متعددة بل ومتعارضة أحياناً ، ولا تزال تظهر فيها للآن بعض التخصصات الجديدة الناشئة عن الرغبة فى التعمق فى فهم بعض جوانب معينة بالذات من طبيعة الإنسان ومراحل تطوره وعلاقته بالكائنات الأخرى ومركزه فى العالم ونشأة نظمه الاجتماعية ووظائفها فى المجتمع وتطور ثقافاته المختلفة وعلاقة بعضها ببعض .

ولكن مهما يكن من تعقد مجال الأنثربولوجيا واتساعه فإنه يمكن التمييز فيه بين ثلاثة فروع رئيسية يظهر كل منها كعلم مستقل له تفرعاته المختلفة ،

ولكنه يكرس جهوده لدراسة جانب واحد من الجوانب الثلاثة الأساسية التي تؤلف معا ماهية الإنسان .

أما الفرع الأول ، وهو الذى يعرف عادة باسم الأنثربولوجيا الفيزيقية أو الأنثربولوجيا الطبيعية Physical Anthropology فيهتم بالإنسان من حيث هو كائن عضوى حى ، ولذا فهو يدرس نشأته الأولى وتطوره عن الرئيسات السابقة والخطوات والمراحل التى مر بها هذا التطور والمشابهات أو الاختلافات الفيزيقية بينه وبين بقية الرئيسات . ومن أهم الموضوعات التى يهتم بها هذا الفرع مشكلة تصنيف السلالات البشرية الموجودة حالياً ، معتمداً فى ذلك على قياس بعض الخصائص الفيزيقية مثل شكل الجمجمة وارتفاع القامة ولون البشرة ونوع نسيج الشعر ، وكذلك دراسة الخصائص السلالية المتوارثة وتداخل السلالات بعضها فى بعض وامتزاجها . وقد حظى هذا الموضوع بالذات بكثير جداً من عناية وجهود الأنثربولوجيين الطبيعيين وظهرت فيه كتابات ونظريات عديدة ، ومع ذلك لم يتمكن العلماء من الوصول إلا إلى بعض نتائج قليلة مؤكدة . كذلك لا تزال الجهود والبحوث مستمرة لمعرفة ما إذا كانت هناك علاقة بين الصفات الجسمية السلالية من ناحية والخصائص العقلية ونوع السلوك والأخلاق من ناحية أخرى . وإن لم يكن ثمة ما يدل للآن دلالة قاطعة على وجود مثل هذه العلاقة التى افترض بعض الكتاب وجودها تحت تأثير ظروف سياسية معينة بالذات بقصد تبرير السياسات التى تقوم فى الأصل على التفرقة بين السلالات البشرية كما هى الحال فى اتحاد جنوب أفريقيا مثلا . ولكن لعل أهم موضوع تعنى به الأنثربولوجيا الطبيعية هو العمليات التطورية التى اكتسب الإنسان بمقتضاها بعض الخصائص التشريحية التى تميزه عن القردة العليا وأشباه البشر من الرئيسات ، مثل الوقفة المنتصبة واتساع الحوض والمشى على رجلين وكبر حجم المخ وتعقده بشكل أمكن معه أن ينسق بين

مختلف الاستجابات والأفعال وأن يتذكر ويفكر ويتخيل ويتوقع أحداث المستقبل ثم القدرة على الكلام ، وهي كلها أمور لها أهميتها القصوى بالنسبة للإنسان من حيث إنها تؤثر تأثيراً واضحاً على قدراته وتوجيه نشاطه وتقرر وتحدد نوع الحياة التي يحياها . فقد كان من نتيجتها مثلا أن استطاع الإنسان أن يستخدم يديه في العمل على ما ذكرنا من قبل ، وأن يصنع مختلف الأدوات والآلات والأسلحة ، وأن يتصل بغيره من الناس ويعيش معهم في مجتمع منظم تحكمه قوانين خلقية قوية مما لا نجد له مثيلا عند الرئيسات الأخرى .

والفرع الثاني من فروع الأنثربولوچيا هو الأنثربولوچيا الاجتماعية Social Anthropology التي تدرس الإنسان من حيث هو كائن اجتماعي يعيش في مجتمعات متماسكة لها قوانينها ونظمها وأنساقها الاجتماعية المتمايزة . فالأنثربولوچيا الاجتماعية تعنى بدراسة السلوك الاجتماعي الذي يتخذ شكل نظم واضحة مثل الأسرة وروابط القرابة والنظام السياسي والعلاقات الاقتصادية والعبادات الدينية والإجراءات القانونية وما إلى ذلك، كما تهتم بتحليل العلاقات المتبادلة بين هذه النظم المختلفة التي تؤلف ما يعرف باسم البناء الاجتماعي Social Structure . وقد كانت الأنثربولوچيا الاجتماعية في بدء ظهورها كعلم مستقل تقصر اهتمامها على دراسة النظم الاجتماعية السائدة في المجتمعات البسيطة التي اصطلح على تسميتها بالمجتمعات البدائية، وهي المجتمعات التي تمتاز ببساطة بنائها الاجتماعي وصغر مساحتها وقلة عدد سكانها وسذاجة الآلات والأدوات التي تستخدمها في حياتها اليومية وقلة أو عدم التخصص المهني فيها وعدم معرفتها بالكتابة بحيث ينتقل تراثها كله عن طريق الرواية من جيل لآخر كما هو الشأن بين أهالي استراليا الأصليين والهنود الحمر والمجتمعات القبلية في أفريقيا . ولكن لم يلبث هذا الفهم أن تغير وأخذ الأنثربولوچيون الاجتماعيون يوسعون اهتمامهم ويمدونه إلى المجتمعات

المتقدمة المعاصرة والمجتمعات التاريخية التي توجد عنها معلومات كافية . وقد ظهرت بالفعل فى السنوات الأخيرة دراسات هامة على كثير من المجتمعات المحلية فى الأمم ذات الحضارات العريقة مثل مصر والهند والصين واليابان، بل وظهرت أيضاً فى أوروبا والولايات المتحدة . ومع ذلك فإن مفهوم الأنثروبولوجيا الاجتماعية لا يزال يرتبط أساساً فى الذهن بدراسة المجتمعات الإقليمية الصغيرة ذات البناء الاجتماعى البسيط نسبيا والذى يتيح للباحث ملاحظة الحياة الاجتماعية ككل واحد متماسك، ودراسة العلاقات الاجتماعية فى تفاعلها وتداخلها .

وأما الفرع الثالث الرئيسى من فروع الأنثروبولوجيا العامة فإنه يعنى بوجه خاص بدراسة ثقافات الشعوب المختلفة وبخاصة ثقافة الشعوب « البدائية » أو البسيطة ، ولذا أطلق عليه اسم الأنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology . وثمة تعريفات كثيرة للثقافة Culture لعل أبسطها وأوفاها بالغرض فى هذا المقام هو تعريف العالم الأنثروبولوجى البريطانى إدوارد بيرنت تايلور Edward Burnett Tylor الذى يعرفها بأنها « ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والتقاليد وكل العادات والقدرات الأخرى التى يكتسبها الفرد من حيث هو عضو فى مجتمع معين » . ومهما تختلف تعريفات « الثقافة » فى ألفاظها فإنها تجمع على أن كلمة « ثقافة » لا تتضمن أية أحكام قيمية . فحين نتكلم عن ثقافة شعب من الشعوب ، فالمقصود ببساطة هو طرائق المعيشة وأنماط السلوك وكل التراث الروحى أو المادى (مثل الآلات والملابس) الذى انحدر من الأجيال السابقة .

وبذلك يمكن الكلام عن ثقافة الزولو أو النوير مثلا بنفس الطريقة التى نتكلم بها عن الثقافة الصينية القديمة أو ثقافة العصر الحجرى القديم . وقد كانت الأنثروبولوجيا الثقافية تهتم دائماً بمعرفة نشأة العناصر الثقافية

وتحاول تتبع تاريخها وتطورها وانتشارها من مكان لآخر والطرق التى سلكتها فى ذلك الانتشار ، وذهب العلماء فى ذلك مذاهب شتى كثيراً ما كان يداخلها شىء غير قليل من الظن والتخمين . وعلى أية حال فإن الأنثربولوچيا الثقافية تهتم بدراسة تفاصيل التعبيرات الثقافية التى ينطوى عليها سلوك الأشخاص أكثر مما تهتم بالنظم الاجتماعية أو العلاقات البنائية التى يحتاج فهمها إلى درجة عالية من التجريد ، وإن كان التمييز بين الثقافة والمجتمع أمراً عسيراً لأنه حين يحاول العالم الأنثربولوچى أن يدرس أحد المجتمعات فإن الذى يدرسه فى حقيقة الأمر هو السلوك الظاهر المشخص الذى يشمل المجتمع والثقافة معاً .

بيد أن الأنثربولوچيا العامة — وبخاصة الأنثربولوچيا الاجتماعية والأنثربولوچيا الثقافية — كثيراً ما تستعين ببعض العلوم « الإنسانية » الجزئية الأكثر تخصصاً والتى تقتصر على دراسة نواح معينة محددة بالذات من حياة الإنسان مثل الإثنولوچيا Ethnology وعلم آثار ما قبل التاريخ Prehistoric Archaeology واللغويات العامة General Linguistics وربما كانت الإثنولوچيا هى أقرب هذه العلوم الجزئية إلى الأنثربولوچيا نظراً لأنها تعنى فى المحل الأول بدراسة نفس الفئة من الشعوب والمجتمعات التى تهتم بها الأنثربولوچيا الثقافية والاجتماعية ، أى الشعوب « البدائية » . وقد أدى ذلك إلى كثير من التداخل بل ومن الخلط أحياناً بين موضوعات هذه العلوم الثلاثة ، وإن كان مجال الإثنولوچيا يكاد يقتصر الآن على تصنيف الشعوب على أساس خصائصها ومميزاتها السلالية والثقافية وتفسير توزعها الجغرافى نتيجة للهجرات واتصال الشعوب بعضها ببعض .

ويهتم علم آثار ما قبل التاريخ بإعادة تركيب تاريخ الشعوب والثقافات المختلفة مستعيناً فى ذلك بالبقايا والمخلفات البشرية والثقافية القديمة ، كالآلات والأدوات التى كان يستخدمها الإنسان المبكر وغيرها من المواد

التى يكشف عنها فى الترسيبات الجيولوجية . وعلى الرغم من كثرة عمليات الحفر والتنقيب فإنه لا تزال معلوماتنا عن إنسان ما قبل التاريخ طفيفة نسبياً إلا فيما يتعلق بثقافته المادية ومع ذلك فإن ما عثر عليه حتى الآن من مخلفات يلقى بعض الضوء على الحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية التى لازمت تطور هذه الثقافة المادية وإن كان الغموض لا يزال يكتنف النظم السياسية والعقائد الدينية لدى الإنسان المبكر ، والتى يصعب تماماً التعرف عليها بشىء من الدقة والتفصيل من مخلفاته المادية ، ومن هنا كنا نجد بعض العلماء حين يريدون التعرف على البدايات الأولى للتفكير السياسى أو الدينى يستعينون بمعلوماتهم عن أشد الشعوب الحالية بداوة وتأخراً ، على زعم أنها تمثل بشكل أو بآخر المراحل المبكرة للتطورات البشرية والاجتماعية والثقافية . والواقع أن هذه الطريقة كانت هى المنهج الشائع اتباعه بين علماء الأنثروبولوجيا فى القرن التاسع عشر الذين كانوا يعتقدون أن المجتمعات الإنسانية المختلفة الموجودة فى ذلك الحين تمثل تمثيلا دقيقاً فيما بينها كل المراحل التطورية التى مر بها الإنسان منذ نشأته الأولى حتى العصر الحديث وبذلك لم يجدوا بأساً فى أن يفترضوا أن أنماط الحياة والسلوك السائدة بين أهالى استراليا الأصليين أو سكان جزر الأندمان مثلا تشبه كل الشبه تلك الأنماط التى كانت تسود فى بدء ظهور المجتمع البشرى . ولكن هذه طريقة لا تخلو من بعض العيوب ويقوم عليها كثير من الاعتراضات والمآخذ لأنها تعتمد على التاريخ الظنى أو التاريخ التخمينى أكثر مما تعتمد على الوقائع المشخصة والأدلة اليقينية .

أما اللغويات العامة فإنها تهتم بتسجيل وتحليل الأصوات والمفردات والتراكيب اللغوية فى مختلف لغات العالم وتقارنها إحداها بالأخرى لمعرفة ما بينها من علاقات متبادلة واستعارات وما طـــرأ عليها من تغيرات فى الماضى ، على أساس أن ذلك قد يؤدى إلى اكتشاف العوامل الاجتماعية

والثقافية التى أدت إلى هذه التغيرات ، وبالتالى إلى معرفة العلاقات الاجتماعية التى كانت تربط بين تلك الشعوب .

ومهما يكن من شىء ، فخليق بالباحث المتخصص فى أحد الفروع الرئيسية التى تنقسم إليها الأنثربولوجيا العامة أن يلم إلماماً واسعاً بالفروع الآخرين وأن يكون على صلة أيضاً بالعلوم « الإنسانية » الجزئية المساعدة إذ ليس من شك فى أن ذلك الإلمام يساعد مساعدة فعالة على فهم موضوع التخصص بصورة أوفى وأعمق وأدق . ومن هنا كنا نجد أنه إلى جانب الكتب والدراسات الكثيرة التى تعالج فرعا واحداً من فروع الأنثربولوجيا قام كثير من العلماء ، وبخاصة المشتغلين منهم بالتدريس فى الجامعات ، بالتأليف فى ميدان الأنثربولوجيا العامة رغبة فى التعريف بأهم المشكلات التى تنطوى عليها تلك الوحدة المعقدة المتكاملة التى تتألف من الإنسان والمجتمع والثقافة .

وربما كان هذا الاتجاه أوضح فى أمريكا منه فى أى بلد آخر يهتم بدراسة وتدريس الأنثربولوجيا . ولقد ظهر فى أمريكا ، وبخاصة فى السنوات العشر الأخيرة ، عدد كبير جداً من كتب الأنثربولوجيا العامة بلغ بعضها حد الروعة فى عرض مشكلات ذلك العلم بطريقة مشوقة جذابة ولكنها بعيدة كل البعد عن الإسفاف وعن التبسيط المبتذلين . ومن هذه الكتب العامة الرائعة الكتاب الذى ألفه المرحوم الأستاذ رالف لينتون Ralph Linton باسم The Tree of Culture ونقله إلى العربية منذ وقت قريب الأستاذ الدكتور أحمد فخرى بعنوان « شجرة الحضارة »[1] . ومنها أيضاً الكتاب الذى نقدم ترجمته الآن للأستاذ وليام هاولز William

---

(١) نشر هذا الكتاب بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر فى ثلاثة أجزاء ظهر الجزء الأول منها فى عام ١٩٥٨ والثانى فى عام ١٩٦٠ والثالث فى عام ١٩٦١ .

Howells . وقد كان من الطبيعى أن تعانى هذه الكتب العامة الشاملة شيئاً من النقص فى محاولتها الإحاطة بمختلف نواحى العلم المتشعبة . ولعل أظهر هذه العيوب هو ما يضطر إليه الكاتب من الإيجاز الشديد فى بعض الأحيان بحيث يعجز عن توضيح بعض المسائل التى قد يدق فهمها على غير القارىء المتخصص . وثمة عيب آخر يتمثل فى أن معظم هذه الكتب يميل إلى تخصيص حيز أوفى وأكبر لإحدى تلك النواحى الثلاث التى تعالجها على حساب الناحيتين الأخريين . وهذا أمر طبيعى ومفهوم على أية حال . فالذين يقومون بتأليف هذه الكتب علماء متخصصون أصلا فى أحد العلوم الأنثربولوجية ، ومع أنهم يلمون إلماماً واسعاً عميقاً كما قلنا من قبل بالعلوم الأخرى فإن كلا منهم يميل بطبيعة الحال إلى توكيد المسائل المتعلقة بموضوع تخصصه ومعالجتها بشىء أكثر من الشرح والتفصيل . والواقع أننا لا نكاد نجد كتاباً من الكتب التى تعالج « الظاهرة الإنسانية » فى عمومها يخلو من هذين العيبين . ويصدق هذا على الكتاب الذى بأيدينا .

ومؤلف «ما وراء التاريخ» هو الأستاذ وليام هاولز أستاذ الأنثربولوچيا الطبيعية بجامعة هارڤارد بأمريكا ، وهى الجامعة التى تلقى فيها علومه وتتلمذ على أيدى بعض كبار العلماء الأمريكيين من أمثال هوتون Hooton وتوزر Tozzer ونال منها درجاته العلمية فى الأنثربولوچيا . وكان هاولز يشغل قبل انتقاله إلى هارڤارد منصب أستاذ الأنثربولوچيا العامة وما يعرف باسم Integrated Liberal Studies بجامعة ويسكونسن . وبالإضافة إلى التدريس تولى هاولز لبعض الوقت منصب رئيس الرابطة الأنثربولوچية الأمريكية American Anthropological Association كما تولى رياسة تحرير « المجلة » الأمريكية للأنثربولوچيا الطبيعية American Journal of

Physical Anthropology ، وهى من أمهات المجلات الأنثربولوچية فى العالم ويختار رئيس تحريرها دائماً من بين كبار العلماء . والواقع أن هاولز يعد أحد أساطين الأنثربولوچيا الطبيعية فى العالم وبخاصة فى أمريكا ، بل إن هناك من يعتبره عميد الأنثربولوچيين الطبيعيين فى وطنه ؛ وربما لا ينازعه فى ذلك سوى الأستاذ واشبورن Sherwood L. Washburn أستاذ الأنثربولوچيا بجامعة كاليفورنيا . وقد لمع اسم هاولز فى محيط العلماء والمتخصصين فى الأنثربولوچيا الطبيعية منذ ظهر كتابه الأول Mankind So Far ثم توطد مركزه بصورة قاطعة بعــــد أن ظهر كتابه الثانى The Heathens وكذلك المقالات العديدة التى كان — ولا يزال — ينشرها فى المجلات العلمية .

وكتاب « ما وراء التاريخ » عرض شائق لقصة الإنسان : ظهوره ونشأته وعلاقته بالرئيسات الأخرى ونظمه الاجتماعية والثقافات التى ارتبطت بظهور الإنسان المبكر ولازمته فى مختلف مراحل التطور منذ البداية حتى ظهور الحضارات القديمة فى مصر والشرق وبلاد اليونان ، ويعرج أثناء ذلك على دراسة كثير من المسائل والمشكلات الحيوية التى لابست اختراع الآلات واكتشاف الزراعة وبداية اللغة ونشوء الدين وتنظيم المجتمع ؛ ويصف مظاهر التغيرات الاجتماعية فى المجتمعات البشرية وانتشار السلالات والثقافات والفروق بينها ثم يتوج هذا كله بدراسة المجتمعات الأكثر تطوراً وارتقاء والتى عرفت الحضارات المتقدمة ونظم الحكم المعقدة ، مثل بيرو والمكسيك والصين ومصر وكريت واليونان ، ويحاول أن ينسج من كل هذا الخليط من المعلومات نسيجاً محكماً من العلاقات المختلفة تلتحم فيــه المقومات الفيزيقية والاجتماعية والثقافية للإنسان . وهو فى ذلك يمدنا بذخيرة هائلة من المعلومات المتشعبة التى

تكشف عن غزارة علم صاحبها وتعمقه فى الميادين التى يكتب عنها .
إلا أن اتساع الموضوع وتشعبه وتعقده فرضت كلها على المؤلف أن يوجز
فى دراسة بعض النقاط إيجازاً شديداً حتى بدت فى صورة مبهمة غير
واضحة ، كما أن المؤلف يخصص الجانب الأكبر من كتابه لدراسة النواحى
الفيزيقية ، بينما يعرض للنظم الاجتماعية فى غير قليل من العجلة : وهذا كما
ذكرنا من قبل موقف مفهوم وله ما يسوغه .

بيد أن المؤلف يزيد من صعوبة الكتاب من زاوية أخرى ، ذلك أنه
اصطنع فى كتابته أسلوباً إنشائياً معقدا يعتمد على الألفاظ الغريبة
والتراكيب اللغوية الملتوية بالإضافة إلى الاستعارات والتشبيهات والتعبيرات
الأمريكية المحلية التى قد تصدم القارىء غير الأمريكى . وقد أدى ذلك فى
بعض المواضع إلى ضياع المعنى العلمى الدقيق فى ثنايا التراكيب الإنشائية
الغريبة المبهمة لدرجة أن القارىء قد يجد نفسه أحياناً فى حيرة مما يقصده
المؤلف بالضبط . ولذا لم تكن ترجمة الكتاب بالأمر السهل الهين وخاصة
أنه يزخر بالمصطلحات العلمية التى لم يتفق بعد على مقابل ثابت لها فى اللغة
العربية . ولكنى وجدت كل عون فى ترجمة هذه المصطلحات من المرحوم
الأستاذ إسماعيل مظهر الذى أعطانى كثيراً من وقته وأمدنى بالكثير من
علمه الواسع وخبرته الطويلة فى ترجمة المصطلحات الأجنبية . ولقد حرصت
رغم ذلك على أن أتقيد بالنص إلا حيث كان يتعذر ذلك . وهذا يفسر ،
إلى حد ما ، ما قد يبدو من مجافاة الترجمة فى بعض المواضع للتراكيب
اللغوية العربية ، كما يفسر اضطرارنا فى مواضع أخرى قليلة — أشرت
إليها — إلى الترجمة بشىء من التصرف .

ولكن هذه الشوائب لا تقلل فى شىء من أهمية الكتاب وقيمته
العلمية . فهو من الكتب القليلة التى أفلح أصحابها — رغم كل

ما كتب فى الموضوع — فى معالجة « الظاهرة الإنسانية » منذ نشأة الإنسان المبكر حتى ظهور الحضارات الراقية بطريقة تجمع بين التشويق والعمق ، وتظهر الإنسان بكل تعقيداته كوحدة متماسكة ومتكاملة ومستمرة عبر الزمن . وعسى أن تسد هذه الترجمة جانباً من النقص الذى تعانيه المكتبة العربية فى ميدان الدراسات الأنثروبولوچية ، وهو ميدان جديد تماماً علينا لم ندخله إلا منذ سنوات قليلة وما زلنا نفتقر فيه إلى الكتب الجيدة المتخصصة والعامة على السواء .

كلمة افتتاحية

إن الابن الحكيم هو الذى يعرف أباه ، والأب الحكيم هو من يعرف شيئاً ذا بال عن موطن نشأتنا الأولى ، والسبب فى أننا نتصرف بطريقة معينة بالذات . فنحن نعيش فى عالم مخوف معقد تحكمه الآلات والحروب ولكننا نعتمد فى حياتنا بعضنا على بعض . وقد أصبحنا « بشراً » بطريقة ما ثم غدونا أناساً متحضرين متمدينين بشكل ما أيضاً . ولكن كيف حدث ذلك؟ إننا نعتقد أن الأرض خلقت من أجلنا ولذا كنا نعتبر أنفسنا خلقاً آخر متميزاً عن بقية الحيوانات الأخرى . ولكننا إذا عاودنا النظر بإمعان فى ذلك الأمر فسوف ندهش لشدة الشبه بيننا وبين تلك الحيوانات سواء فى بنية الجسم أو فى الرغبات والحاجات ، لدرجة أننا قد (نقرص) أنفسنا لنستوثق من أننا « بشر » فوق كل شىء .

والتاريخ لا يخبرنا إلا بأشياء قليلة جداً : ملك حكم قبل ملك ، ثم لا يتذكر شيئاً عن الملوك الذين حكموا قبل خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة مضت ، كما يصعب أن نعرف بطريق مباشر شيئاً عن الطريقة التى كان الناس يصرفون بها أمورهم فى ذلك الماضى السحيق . ولكن قد يمكن أن نبحث ونفتش حولنا أو نحفر فى الأرض منقبين عن أنواع أخرى من المعلومات عن كل عالمنا الحالى المعقد المهوش فندرك منها شيئاً عن بداياته الأولى ونموه وارتقائه وعلاقاته بطبيعتنا الحيوانية . ذلك أن قصة الإنسان هى إحدى قصص الطبيعة .

وليس ذلك بالأمر الهين الذى يسهل فهمه . والواقع أنه كان دائماً يستعصى على الفهم . وقد نجد عند كثير من الشعوب البدائية قصصاً تدور حول الخالق الذى « خبز » الإنسان الأول ببساطة مثلما تخبز الكعكة ، ثم علمه ما يعمل . بل إن فلاسفتنا أنفسهم كانوا يحاولون فى العادة تفسير

العلاقة بين الإنسان والطبيعة بالإشارة إلى الإنسان ذاته وليس بالإشارة إلى الطبيعة . إننا ننظر إلى « أمنـــا الطبيعة » بغير كثير من الاحترام ، كما لو كانت أم شخص آخر وليست أمنا نحن .

وليس ثمة شك فى أن انفرادنا بنوع من الحياة يختلف اختلافاً بيناً عن بقية الطبيعة هو الذى يؤلف ماهية الإنسانية . ولكن هذا هو الجانب الجلى الواضح من المسألة . أما الشىء غير الواضح تماماً للأذهان فهو أن ذلك الاختلاف حدث داخل نطاق الطبيعة ذاتها نتيجة لبعض العمليات والأحداث الطبيعية ، وأن الإنسانية ليست سوى جزء من الطبيعة وأنها كانت دائماً جزءا منها رغم كل اختلافاتها . صحيح أننا نرتدى الملابس كما نحاول بطرق ووسائل أخرى أن نفصل أنفسنا عن الطبيعة ، ولكننا نخدع أنفسنا بسهولة وننسى إلى أى حد تصنع ملابس الإنسان . ونحن نميل على أية حال لأن نجعل اختلافاتنا عن الطبيعة تحجب الروابط الهائلة القوية التى تربطنا بها .

وليس فى هذه الورطة ما يستوجب الدهشة أو الاستغراب . فالطفل البدائى الذى يشب ويترعرع فى غابات استراليا مثلا يشعر شعوراً قوياً بقوة الروابط التى تربطه بالطبيعة كما يحس إحساساً شديداً بقلة حيلته وعجزه عن السيطرة عليها وتسييرها ، كما أن المعتقدات القبلية التى يتلقاها فى شبابه تدله على أن بينه وبين الحيوانات والسماء والرياح وشائج وصلات قرابة متينة . أما عندنا نحن فقد يتقدم الطفل إلى المدرسة تحدوه السعادة والأمل ولكنه سرعان ما يغلب على أمره ويصدم بشدة وعنف قد يدفعانه إلى النكوص على عقبيه حين يرى كثرة ما يجب عليه أن يعرفه عن الإنسان وما يستطيع الإنسان أن يحققه وما حققه بالفعل حتى الآن . لقد صنعنا لأنفسنا عالما بالغ من التعقيد ومن التحكم فينا أن أصبحنا عاجزين عن معرفته . والأمر أشبه بالسمكة الذهبية التى إذا استطاعت التفكير فسوف تعتقد

أنك نفسك تعيش فى إناء تقف هى خارجه فى الماء لكى تطل عليك . والواقع أن فينا نحن شيئاً غير قليل من هذه السمكة .

وتستطيع أن تنظر — مثلما فعل هنرى آدمز Henry Adams — إلى إحدى كاتدرائيات القرون الوسطى مثل كاتدرائية شارترز Charters ، أو إلى إحدى الصحف الحديثة وتفكر فى كل ما يكمن وراءها . فهذه الأشياء وأمثالها هى التى تعتبر معياراً للإنسانية نقيس به الاختلافات بين الأنواع البشرية وكل ما عداها فى الطبيعة . ولكن كيف يمكن إزاء هذا الوضع أن تكون حياتنا جزءاً متكاملا ومنطقياً من الطبيعة ذاتها ؟ التناقض هنا واضح وصارخ ، لدرجة أن القبائل والشعوب المختلفة حاولت أن تخفيه وتحجبه بالأساطير . ومع ذلك فالإنسان وحياته عبارة عن مجموعة من التناقضات بعضها فوق بعض : فهو الحيوان الشعرى بغير شعر ، وهو الحيوان ذو الأربع الذى يدب على رجلين ، وهو الحيوان الأبكم الناطق ، وهو المخلوق الذى يفهم ويدرك مالا يراه ويؤمن بما لا يفهمه . ولا يمكن تفسير الإنسان إلا فى ضوء عدد كبير جداً من الغرائب ، ولكن لن يمكن فهمه بعد هذا كله إلا إذا فهمنا هذه الغرائب ذاتها على أنها غرائب طبيعية .

ولقد اعتدنا أن ننظر إلى التاريخ كتاريخ وإلى البيولوجيا كبيولوجيا وأن نميز بينهما . فتاريخنا المكتوب المألوف يبدأ بالشعوب التى كانت تعرف بالفعل سكنى المدن وتحيا حياة يسهل تخيلها ، بينما يدور تاريخ الحيوان — أو التطور — حول الحفريات والخيول والفيلة والسمك والبروتوزوا (الأوليات) Protozoa . أما إذا أردنا أن ندرس كل تاريخ الإنسان فيجب أن نعرف أولا أنه ليس ثمة حد فاصل حقيقى بين الاثنين ، إذ سوف نبدأ فى عالم بيولوجى حين كان وجود الإنسان عبارة عن وجود حيوانى محض ، وبينما تأخذ خصائصه الإنسانية فى الظهور والتبلور نجد أنفسنا مضطرين إلى تحويل اهتمامنا تدريجا من الإنسان نفسه إلى أفعاله

وأعماله ما دام قد بدأ يأتى بأشياء لا يستطيع غيره من الحيوانات أن يقوم بها . لقد كنا نحسب الزمن فى أول الأمر بملايين السنين ثم أصبحنا نحسبه بآلاف السنين ثم بمئات السنين ، ثم أخذ الحساب يتباطأ بعد ذلك كما أصبح الإنسان نفسه يتغير بدرجة أقل فأقل حتى يصل بنا الحال إلى دراسة أقوام يشبهوننا من كل الوجوه إلا فى طريقة الحياة التى يحيونها . وهنالك ندرك أننا وصلنا إلى بداية التاريخ بمعناها الصحيح .

ولكن يجب أن نتذكر أن هذا التحول هو مجرد تغيير بسيط لأن أفعال الانسان ظلت محكومة إلى حد كبير بطبيعته خلال فترة طويلة من الزمن ، ثم بدأ بعد ذلك يكتسب ببطء القدرة على « معالجة الأفكار » بطريقة جديدة إلى أن أصبحت أفكاره تؤلف بدورها الجزء الأكبر من العالم الذى يحيط به كما هو الشأن الآن . وليس من الممكن أن نفصل فصلا تاماً قصة أفكار الإنسان عن قصة الإنسان نفسه بأكثر مما يمكننا فصل دقات القلب عن القلب ذاته .

طبيعة الحياة البشرية

١

ظهور الجنس البشرى

كان لا بد لنا من أن نمر بالطور الحيوانى قبل أن نصل إلى حالة الإنسانية وهذا هو نفس ما يحدث لأى فرد منا قبل أن يولد ، وكذلك وهو فى فترة طفولته الأولى المبكرة . فلم يتمكن الإنسان من المشى والتفكير واستخدام الآلات إلا لأن بليونا من السنين ـ أو ما يقرب منها ـ قد مهدت له سبيل ذلك . وقد ساعد هذا التطور على تعقد الكائنات الحية البسيطة ، كما ساعد فيما بعد الفقاريات الدنيا على تكوين مختلف الأبنية كالعينين والمخ والهيكل العظمى ، التى استطاعت فى النهاية أن تتطور فى الحيوانات العليا إلى الدرجة التى تستلزمها الحياة البشرية . ولم يكن ليتسنى لنا أن نعتبر أنفسنا بشراً أو أن نسلك هذا السلوك الإنسانى لو لم تكن أمخاخنا وصلت إلى حجمها الحالى ، وأصبحت أيدينا نافعة إلى مثل هذا الحد ، ولو لم يكن فى استطاعة سيقاننا أن تحملنا فى وضع معتدل ونحن نؤدى أعمالنا . بيد أنه لم يكن ليقدر لنا أن نوجد على الاطلاق لولا أن سبقتنا إلى الوجود حيوانات من ذلك النوع القريب كل القرب من الإنسان ، والتى استطعنا نحن أن نظهر منها . والحق أننا ما زلنا نجد كثيراً من خصائص تلك الحيوانات فى أبناء عمومتنا القردة البشرية Anthropoid apes .

وليست بنا حاجة هنا إلى النظر فى الجزء الأكبر من ذلك التاريخ . فالأمر لا يستحق بالتأكيد الرجوع إلى الوراء بليونا من السنين . إنما يكفى ، لأسباب عملية ، أن نبدأ القصة من سبعين مليونا أو خمسة وسبعين مليونا من الأعوام فحسب . وهذا التاريخ التقريبى يحدد بداية الدور الحيوانى الحديث أو العصر الشينوزوى Cenozoic Era (الحقب الثالث Tertiary Period) من الزمن الجيولوجى ، وهو عصر الثدييات . وليس من شك فى أن الجد الأول للإنسان كان قد قطع حتى ذلك الحين شوطاً كبيراً فى التطور . ولكننا

لن نعرض لهذه المسألة بالمناقشة . فحتى فى أولى وأقدم مراحله ، حين كان لا يزال سمكة ، كانت تتوافر فيه كل الملامح الرئيسية وهى : العمود الفقرى والجمجمة والجهاز المخى المركزى وجهاز الدورة الدموية ، بل وأيضاً بوادر الأطراف والرئتين . فلما انتقل من البحر إلى البر اتخذت هذه السمكة شكلا أكثر تطوراً يتمثل فى البرمائيات والزواحف القديمة . والواقع أن بعض هذه الزواحف كانت تحمل معها إمكانيات تطور وتعديل هياكلها ، والقدرة على أداء بعض الوظائف مثل حماية البيضة ، وبذلك استطاعت الانتقال إلى المرحلة الكبرى التالية وهى مرحلة الثدييات .

وكانت هذه الحيوانات الجديدة تحمل صغارها أحياء وتعنى بها بعد الولادة وتغذيها باللبن . يضاف إلى ذلك أنها كانت من ذوات الدم الحار ، كما كانت مزودة بالفراء لتمدها بالدفء ، وبالغدد العرقية لتلطف من حرارة أجسامها . كانت باختصار مخلوقات تتطور وتنمو ببطء حتى وصلت إلى صورة ناضجة معقدة ، كما كانت تحظى فى أخطر مراحل حياتها بكل ما تحتاج إليه من الغذاء وحماية الأبوين ، بحيث وصل تنظيمها الجسمى فى آخر الأمر إلى درجة فريدة من النشاط والقوة ودقة الحواس والاستجابة العصبية والعضلية ، وأن تضم إلى ذلك كله كبر الحجم .

بيد أن ضخامة الجسم كان أمراً مقصوراً على العظايا المهولة (الدينوصور dinosaur) حين ظهرت الثدييات لأول مرة . والواقع أن هذه الثدييات كانت لا تزال صغيرة وبسيطة حين اندثر الدينوصور وبدأ الدور الحيوانى الحديث . ولكن تحقق فى تلك الحقبة ما كان ينتظر لها من أن تصبح فصيلة حيوانية مستقلة . فقد بدأت تتخذ هيئات وأشكالا كثيرة ، وتحاول أن تزيد من حجم أجسامها وأمخاخها ، وأن تنوع نفسها بمختلف الطرق لكى تلائم نفسها مع أنواع الطعام والموطن فى القارات المختلفة بل فى البحر والجو أيضاً . وسوف نشير كثيراً إلى هذه العائلة من الثدييات كما نستدل عليها

من البقايا الحفرية وذلك حين نتكلم عن عملية التطور . ولكننا نود الآن أن ننظر فى بعض مبادىء التطور المتعلقة بقصتنا الرئيسية .

سير التطور

وليس التطور بالعملية البسيطة ، ولكننا نستطيع أن نقول مع داروين إن العامل المسيطر الذى بدونه تصبح العملية كلها خالية من المعنى هو الانتخاب الطبيعى . وليس الانتخاب الطبيعى فى حد ذاته شيئاً واحداً بسيطاً ، بل هو على العكس نتيجة أصلح مواءمة بين مكونات البيئة المحيطة بإحدى السلالات الحيوانية من ناحية وكل خصائص التكوين الجسمى لتلك الحيوانات ذاتها من الناحية الأخرى . فمن بين السلالة كلها إنما تنجح فى البقاء والتناسل وبالتالى فى توريث خصائصها الجوهرية تلك الأفراد التى تفوز بأفضل المميزات الوراثية أثناء عملية المواءمة ، وبذلك تصبح ذريتها أكثر نسبياً من ذرية بقية أفراد السلالة ، ومن هنا كانت السلالة ، ككل ، تميل إلى تعديل نفسها نحو صورة أفضل وأصلح « البقاء للأصلح » . وقد يصل التأثير المتبادل بين الحيوانات وبيئتها فى كل ذلك إلى درجة من التعقيد يصعب معها تحليله تحليلا دقيقا . ولكن الذى لا شك فيه هو أن البيئة المؤثرة الفعالة تتأثر من ناحيتها إلى حد كبير بما يحدثه فيها الحيوان ذاته . فمجرى الماء مثلا — وهذا مثال ساذج — تعتمد عليه السمكة والقندس (ثعلب الماء) فى حياتهما وإن اختلفت طريقتهما فى ذلك ، ولكنه يقف عقبة — صغيرة أو كبيرة — فى وجه الجاموسة أو فأر الحقل . وعلى ذلك فالملامح العارضة (جديدة كانت أو معدلة) التى تظهر بشكل فجائى فى أفراد إحدى السلالات الحيوانية ، وكذلك التغيرات التى تطرأ على البيئة ذاتها ، قد تؤثر فى المركب الكلى وتتيح الفرصة للانتخاب الطبيعى لإحداث تغير فى السلالة يبعدهما عن شكلهما الراهن . وهذه هى الطريقة التى تتطور بها

السلالة والتى تؤدى أيضاً إلى انفصال سلالتين متطابقتين ، فتتجهان اتجاهين مختلفين وتصبحان فى النهاية متغايرتين كل التغاير .

مثل هـــذا التغير التدريجى والتوافق الدائم يعطينا فكرة عن التطور البطىء الذى يبدو هينا فى مظهره ، ولكنه يتألف فى حقيقته من عدد كبير جداً من الخطوات الدقيقة المترابطة التى قد تسير فى اتجاه واحد عام لمسافة طويلة لكى تحقق فائدة دائمة . فالقنادس وسمك الصيل والدلفين أسلمت كلها نفسها — ولكن بدرجات مختلفة — للعوم والسباحة ، وبالإضافة إلى كل ما أحرزته فى ذلك ، فإن الحركات السريعة قد تزداد عند بعض المفاصل فتزداد بالتالى التغيرات الأساسية .

ولنفرض الآن أن إحدى الملامح الموجودة فى سلالة حيوانية ما ، والتى كانت خامدة من قبل وقليلة الأهمية بالنسبة لتلك السلالة ، أو التى كانت تستخدم استخداما معينا بالذات ، حدثت فيها تطورات أو استطاعت على العكس أن تعدل نفسها بحيث تتلاءم مع الموقف الجديد (كالتغيرات البيئية مثلا) . مثل هذه الحادثة قد تفتح أمام تلك السلالة ميادين جديدة كانت مغلقة فى وجهها من قبل . وهذا هو ما حدث ، على نطاق واسع بالنسبة للطيور ، فقد كان الريش يغطى أجسامها ليساعدها على الدفء[1] وذلك قبل أن تستطيع التحليق فى الجو على الإطلاق ، فلما استخدمته فى الطيران ، وجدت عالم الفضاء فسيحا واسعا وأصبحت تؤلف رتبة رئيسية متميزة من الفقاريات . وهذا هو ما حدث أيضاً — وهو مثال أفضل — لبعض الخيول القديمة التى استطالت تيجان أسنانها فى مرحلة من المراحل ووصلت إلى درجة من الحدة ساعدتها على أن تمضغ حشائش البرارى بنفس السهولة التى

(١) ليست الطيور من الثدييات ، بل إنها ظهرت فى وقت متأخر نسبيا من الزواحف ، وإن تكن اكتسبت الدم الحار كالثدييات تماما .

تمضغ بها الأعشاب اللينة التى تنمو تحت الأشجار ، فنزحت عندئذ إلى المروج ، ثم انتشرت فى أعداد كبيرة إلى كل أنحاء العالم تقريباً .

وقد تبدو تلك الانتقالات السريعة كما لو كانت قفزات طويلة لا يتخللها أية خطوات قصيرة ، ولكن هذا غير صحيح . فهى أشبه فى الواقع برحلة ينتقل المرء أثناءها من مكان لآخر بغير تمهل أو تلكؤ إلا إذا كان يبغى أن يلحق به شخص آخر . فالشكل الجديد المكتمل التكيف وكذلك الصورة القديمة التى تطور عنها هما ، فى الواقع ، أكثر صلاحية من كل الأشكال المتوسطة التى تقع بينهما ، والتى لا ترتكز إلى أساس أو قاعدة . وهذا لا يعنى بالطبع أن السلالة كانت تدرك الهدف أو النهاية التى ستتطور إليها فسارعت نحوها ، إنما يمكن تشبيه الأمر ببعض الحيوانات التى كانت تحيا حياة سعيدة مزدهرة فوق إحدى الجزر ، حتى ساقتها أقدامها عرضاً إلى الشاطىء أثناء فترة الجزر ، فقادها ذلك الشاطىء إلى جزيرة صغيرة أخرى حيث أمكن لها أن تعيش وتزدهر وتتكاثر من جديد . ولا بد أن تكون الفترة التى أمضتها على الشاطىء قصيرة ، كما أن الشاطىء نفسه كان معرضاً ولاشك للزوال والاختفاء ، حاملا معه كل الحيوانات التى تمهلت وتلكأت فى الانتقال والعبور .

وعلى ذلك يمكن القول بأنه فى تاريخ التطور كانت التحولات الهامة تحدث أحيانا بسرعة ، كما أنها لم تكن تترك سوى عدد قليل جداً من الحفريات التحولية قد لا يستطاع معها معرفة تلك الأشكال . فقد كانت الطيور الأولى نادرة ، ولكن أمكن العثور ، لحسن الحظ ، على بعض بقاياها . لقد كانت بمثابة النماذج التجريبية إن صح هذا القول . ويمكن للقارىء أن يقارن فى هذا الصدد كل الطائرات التى صنعها الإخوة رايت Wright بكل ما قامت بصنعه شركات بوينج ودوجلاس ومارتن . ومهما يكن من شىء ، فإنه بعد اجتياز ذلك الشاطىء كان الموطن الجديد يدفع المهاجرين على العموم إلى العمل

والتكاثر مثلما فعلت أمريكا تماماً بأبناء وأحفاد المهاجرين الذين وفدوا إليها على السفينة ماى فلاور . وهى فى أثناء ذلك تتشكل وتتنوع لكى تقابل مختلف الاحتمالات . ومن هذه الرتبة ظهرت نماذج جديدة تختلف فيما بينها كل الاختلاف ، حتى يدعم التنافس بينها عددا قليلا منها باعتبارها أقدرها وأصلحها ، بينما تنقرض كثير من هذه الأنواع الأخرى . وكل هذه الظاهرات — أعنى التحولات السريعة التى تحدث من حين لآخر وانقراض الأشكال التحولية وظهور رتب وفصائل جديدة بين الحيوانات التى أفلحت فى العبور ثم اختزال هذه الرتب فى النهاية إلى عدد قليل — تصدق بحذافيرها على أسلاف الجنس البشرى .

تقدم الرئيسات Primates

وإذا عدنا إلى قصتنا الرئيسية لنبحث عن السلف الأول للإنسان فسوف نجده فى موضع ما بين الرئيسات القديمة التى تعتبر الصعابير lemurs والسفال tarsiers الغريبة ذات العيون البيضاوية والأصابع المعروقة والتى تقطن الفلبين وبيرنيو أقرب ذريتها إليها فى الوقت الحالى . فى بداية الحقب الثالث كانت الثدييات لا تزال تمر بمرحلة الانقسام والتفرع إلى فروعها الكبرى المختلفة ولكنها كلها كانت لا تزال مع ذلك صغيرة الحجم وبدائية بوجه عام ، وبالتالى كانت أكثر تشابها فيما بينها مما تبدو عليه الثدييات الآن . ولعل أفضل ما يمثلها من الحيوانات الموجودة حاليا هى الحشريات الدنيا مثل الزناب shrews [1] والخلدان moles وما شابهما . فمن هذه الثدييات ظهرت الرئيسات ، ولم يكن ظهورها نتيجة لحدوث أى تغير أو تقدم أساسى ، بل إنها نشأت نتيجة للاحتفاظ ببعض السمات القديمة وإدخال بعض التحسينات البسيطة عليها . وقد أدت تلك السمات إلى تطور الكف على الخصوص .

---

(١) حيوان شبيه بالفأر طويل الخطم يأكل الحشرات .

بحيث تستطيع القبض على الأشياء بقوة . وأهم هذه السمات هى الأظافر (فقد كان لمعظم الثدييات مخالب فقط) والأصابع الخمس المنفصلة إحداها عن الأخرى تماماً فى كل من اليدين والقدمين ، والقدرة على تحريك الإبهام حركة دائرية بحيث ينطبق على بقية الأصابع ، ثم الذراع التى يمكن تحريكها بسهولة ويسر بفضل نمو وتطور عظمة الترقوة وعظمتى الساعد .

وفيما عدا ذلك ، لم تكن الرئيسات تنفرد بأية ميزة غير عادية . ولقد ساعدتها هذه الصفات العامة على أن تستفيد من كل مظاهر حياة الغابة وخيراتها الطبيعية . وقد انتشرت الرئيسات فى أمريكا الشمالية وأوروبا على الخصوص خلال عصر الباليوسين ، وهو القسم الأول من الأقسام الخمسة التى ينقسم إليها الحقب الثالث . وقد عثر بالفعل على عدد كبير جداً من الصعابير والسفال الحفرية . بيد أن تلك الأيام الهانئة كانت قد مرت وانتهت حين شارف عصر الإيوسين — وهو القسم الثانى — على نهايته ، إذ انقرضت الرئيسات الدنيا من أمريكا ولم تعد توجد إلا فى مناطق متفرقة من أفريقيا وجنوب آسيا . صحيح أنه حدثت طفرة تطورية واحدة فقط فيها ، ولكنها جاءت متأخرة جداً كما انحصرت فى مدينة مدغشقر المنعزلة فلم تتأثر بها الحيوانات فى القارات . ومن المحتمل أن يكون لانكماش المناخ المدارى صلة قوية بانقراضها ، ولكن من المحتمل أيضاً أن تكون هى ذاتها قد لقيت منافسة عنيفة فى معاشها من الحيوانات الأخرى التى انحدرت من أصل أحدث من أصولها . وربما كان بعضها يتمتع بقدرات أكثر تخصصاً كما هى الحال عند القواضم مثلا ، كما يحتمل أخيراً أن بعضها كان يكتفى بإدخال شىء من التعديل والتحسين على صورته الأصلية ثم يكرر نفسه فى ذريته التى تؤلف الرئيسات العليا ، أى الحيوانات التى تشبه السعادين ، والتى تتألف منها بقية تلك الفصيلة من الثدييات .

والسعدان أكثر من الصعبور قرباً إلى الإنسان من جميع النواحى .

فهو أضخم منه فى العادة ، إن صح اعتبار ضخامة الجسم من مظاهر التفوق ولو أن هناك صعايير ضخمة . وتمتاز أيدى السعادين على العموم بسهولة الحركة وبالمهارة الفائقة ، كما تتجه عيونها صوب الأمام ، وبذلك تستطيع أن تدرك ببصرها كل ما يدور حولها . وإذا كانت معظم الثدييات تتميز بقوة حاسة الشم ، فإن الرئيسات العليا تفوقها جميعا فى الإبصار . فقد استطاعت أن تنمى عندها القدرة على الرؤية المزدوجة المجسمة (تقدير المسافات) والحساسية الفائقة للألوان . وكثير من أنواع السعادين يكشف عن درجة عالية من الذكاء ، كما أنها كلها تمتاز بسرعة الإدراك وبالنشاط الجم وبالتلاؤم التام مع موطنها الرئيسى — أى الأشجار — حيث تجد كل حاجتها من الأزهار والبراعم والأوراق والفاكهة والبذور والحشرات . ولا تنفرد السعادين بأية مميزات جسمية خاصة (إذا استثنينا المؤخرات القبيحة التى توجد فى بعض الأنواع) . ومع ذلك فإنها تمثل مستوى عاليا من التنظيم فى طريقة الحياة التى تعتمد على استخدام المخ والأيدى والتى تعتبر أخص مميزات رتبة الرئيسات . فليس من العسير إذن أن نفترض أنها ازدهرت بسرعة فى الغابات المدارية حتى انتزعتها فى النهاية من الصعايير والسفال .

ولكن كيف ظهرت هذه الرئيسات ؟ من سوء الحظ أن هناك نقصاً كبيراً فى معلوماتنا عن هذه النقطة ، فلم يعثر إلا على عدد قليل من حفريات الرئيسات العليا الأولى . وحتى هذه ليست من النوع التحولى أو الانتقالى . إنها تنتمى إلى الأشكال الأكثر تقدماً . وعلى أية حال فإنه يبدو أن ثلاثة فروع قد تطورت فى ثلاثة أماكن مختلفة فى أواخر الإيوسين وبعده بقليل .

ومن أحدث هذه الفروع ، وهو الفرع الذى ظهر فى أمريكا الجنوبية ، ظهرت سعادين العالم الجديد كالقشة marmoset والسعدان العنكبوتى والعواء

والحودل cebus أو الموسيق الجائل [كما يسمى] وكثير غيرها . وينتمى إلى تلك المجموعة كل السعادين التى تتأرجح من ذيولها .

وقد تطور الفرع الثانى — الذى يبدو أنه لا يتصل بالسعادين الأمريكية بأية صلة — فى العالم القديم وظهرت منه كل سعادين أفريقيا وآسيا . وتدل الحفريات ، رغم قلتها وسوء حالها عموما ، على أن الفرعين كانا منفصلين ومنعزلين تماماً أحدهما عن الآخر ، كما أنهما يختلفان من الوجهة التشريحية فمع أنهما ينتميان إلى « الرئيسات العليا » من حيث التركيب إلا أنهما يفترقان فى كثير من التفاصيل . مثال ذلك أن سعادين العالم الجديد تحتفظ فى كل جانب من الفكين بثلاثة من الأضراس الأربعة الأمامية التى كانت توجد عند أسلافها (وهى تماثل الأضراس الخدية عندنا) بينما فقدت سعادين العالم القديم ضرسا آخر واحتفظت بضرسين اثنين فقط . وتتفاوت أنواع هذه السعادين الضخمة تفاوتاً كبيرا كما أنها تنجح فى معيشتها فى شكل جماعات . وينزل بعضها للعيش على الأرض أحيانا ، بل إن البعض الآخر يحيا عليها حياة دائمة . ويظهر ذلك الميل عند الرباح على وجه الخصوص .

الآدميات المنقرضة القائمة

ونكتفى بذلك عن هذه السعادين . فإن الذى يهمنا منها هو الفرع الثالث من الرئيسات العليا وهو ما يعرف باسم « الآدميات hominoids » (وينبغى عدم الخلط بينها وبين « أشباه الإنسان anthropoid ») . ولكن للأغراض العامة يمكن — كما يحدث بالفعل — الإشارة إليها باسم « القردة العليا apes » . وتاريخ هذه المجموعة ليس معروفا على ما كنا نود ، ومع ذلك فلدينا من حفرياتها عدد أكبر وأفضل مما لدينا من حفريات السعادين ، أو لدينا على الأقل ما يكفى لأن نعرف أنها كانت فى الماضى أضخم بكثير مما هى عليه الآن ، وأنها انكمشت وتضاءلت بحيث أصبحت الآن صغيرة نسبياً فى الجسم

مثل الشقفة gibbons والسعالى orang-utans والشمبانزى والغوريلا والإنسان . ومن المؤكد أن هذه المجموعة ظهرت فى العالم القديم ، ولكننا لا نعرف ما إذا كانت ظهرت لأول مرة كجزء من الأورمة ذاتها التى انحدرت منها سعادين العالم القديم . ومعظم الثقات الآن لا يرون ذلك ويعتقدون أنها نشأت نشأة مستقلة . وربما كان انحدار هذين الفرعين فى الأصل من رئيسات دنيا متشابهة هو السبب فى أن الآدميات تشبه سعادين العالم القديم أكثر مما تشبه سعادين العالم الجديد فى كثير جدا من النواحى ، لدرجة أن أضراسها الأمامية تناقصت إلى ضرسين فقط . ويبدو أن التشابه بين القردة العليا وسعادين العالم القديم كان أشد وأقوى فى الماضى .

وثمة حقيقة بارزة ، وهى أنه بينما ظلت السعادين فى نصفى الكرة الأرضية تعتمد على أطرافها الأربعة وتستخدمها جميعاً فى انتقالها بين الأشجار ، سلكت القردة العليا أو الآدميات طريقا مختلفاً وأخذت تحاول أن تسير منتصبة القامة . والواقع أننا نجد فى النصف العلوى لأجسام كل الأنواع الحيوانية الموجودة حاليا عددا من الخصائص التى تكشف بوضوح عن ذلك الاتجاه . وهذه الخصائص هى : انتصاب الرأس فى وضع عمودى ، وارتكاز الكتفين العريضتين فى تناسب على جانبى الجذع ، وانبساط الصدر الذى توجد فيه عظام الترقوة الطويلة وعظام القص العريضة ، ثم الأجهزة الباطنية المدلاة فى وضع رأسى . بيد أنها لا تتبع عادات واحدة وإنما وجهت ذلك الميل العام لاعتدال القامة ثلاث وجهات مختلفة استخدمتها فى المشى والحركة . أما الطريقة الأولى فتتبعها الشقفة التى تستخدم أيديها فى الأرجحة والانتقال فى سرعة ويسر ورشاقة وبطريقة منتظمة أشبه بإيقاع رقصات الفالس . ويمكن أن نسمى هذا النوع من الانتقال والحركة بالقفز باستخدام الساعدين . ويستطيع الحيوان أن يقطع فى الوثبة الواحدة مسافة كبيرة . والشق من الحيوانات الصغيرة (وكبار الحجم منها لا تأمن على نفسها القيام بمثل هذه

الحركات البهلوانية) وهى تمتاز بالرشاقة والمرونة والليونة . وقد استطالت أذرعها وأصابعها إلى حد كبير ، ولكن اليد ذاتها ظلت ضيقة وكزة . وعلى العموم فإن الشقفة كيفت ووامت نفسها بشكل ملحوظ لذلك النوع من الحركة والانتقال .

وتؤلف القردة الكبيرة الأنواع الثلاثة الأخرى وهى السعلاة فى بورنيو وسومطرة ، والشمبانزى والغـــوريلا فى أفريقيا الاستوائية . والشمبانزى أصغر من الإنسان فى الحجم ، أما السعلاة فإنها تماثله فى الجرم ، بينما تفوقه الغوريلا فى ذلك إلى حد كبير جدا . وهى كلها ، وبخاصة السعلاة ، تجيد الأرجحة باستخدام سواعدها وتؤدى ذلك فى همة ونشاط . إلا أن الأرجحة هنا ليست بمجرد سلسلة من القفزات المتتابعة كما هى الحال عند الشقفة ، بل إن فيها كثيرا من التدبر والإحكام ، كما أن الحيوان يقوم أثناءها بكثير من الحركات الرياضية وهو يتسلق فروع الأشجار . وزيادة على ذلك فإن الغوريلا والشمبانزى تمضيان كثيرا من الوقت فوق الأرض . وسواعد هذه القردة طويلة وقوية نسبيا ، وقد تبلغ حدا كبيرا من الضخامة عند السعلاة المكتملة النمو . وعلى العموم فإن حياة تسلق الأشجار تركت آثارها فى تركيب أجسامها ذاته .

أما الإنسان فليست له — أخيرا — أية صلة بحياة الشجر ، وإنما هو يستخدم الوسيلة الثالثة للانتقال من مكان لآخر ، وأعنى بها المشى على الأرض على ساقيه الطويلتين القويتين . وأيا ما يكن الأمر ، فإنه يشارك فى نفس الاتجاه أو التكيف الأساسى نحو اعتدال القامة مثل قردة الشجر . والواقع فإن كل الآدميات تتشابه إلى حد كبير جدا فى الأساسيات . فهى كلها — باستثناء الشق طبعا — تمتاز الآن بالضخامة وطول فترة الحياة وكبر المخ ، كما أنها تتمتع بدرجة عالية جدا من الذكاء إذا قيست ببقية الحيوانات .

ولم يكن الأمر كذلك دائما . إذ لابد أن الآدميات ، كجماعة ، بدأت كحيوانات صغيرة من أسلافها الرئيسات الدنيا التى لا نستطيع تحديدها بالضبط . وربما كان ذلك فى عهد الفجر الحديث (الإيوسين) . فقد عثر على قطعة صغيرة من فك حفرى يرجع إلى ذلك التاريخ ، ويبدو أنه ينتمى إلى قرد بدائى صغير (القرد الشخيصى Amphipithecus) كان لا يزال يحتفظ بثلاثة أضراس أمامية . أما أين بدأ بالضبط الميل لاعتدال القامة فلا بد أن يظل فى الوقت الحاضر على غموضه وإبهامه . وربما كان هذا الميل قديما جدا ومستمدا من الهيئة ذاتها التى كانت تتخذها الأسلاف الأولى أو ربما كانت القردة العليا القديمة أقل تمسكا بحياة الشجر من السعادين وأكثر استعدادا للتنقل بين الأشجار والأرض .

ومهما يكن من شىء فإن أحد فروع القردة العليا ، وهو الشقققة ، افترق فى عصر مبكر وهو يمارس حركاته البهلوانية . وقد عثر على فك حيوان ، يرجح أن يكون شقاً صغيرا بدائياً ، من عهد الضحى الحديث (الأوليجوسين) حوالى منتصف العصر الشينوزوى (الدور الحيوانى الحديث) . ولكن القردة الضخمة لم تعرف إلا فى أوائل الميوسين (العهد الحديث الأوسط) أى حوالى الثلث الأخير من الشينوزوى . ولعل أطرف هذه القردة هو المعروف باسم « القنصل » الذى لا يزال متمسكا ببعض العادات والسمات التقليدية المحافظة . وفى ذلك الوقت كانت القردة العليا تؤلف أسرة مزدهرة ومنتشرة فى كل أنحاء العالم القديم . وقد عثر فى بعض الرواسب المتأخرة قليلا على كثير من الأسنان والفكوك التى تكشف عن وجود أنواع مختلفة تشبه القردة الكبيرة التى تعيش حالياً فى الغابات والتى تمتاز بأنيابها الضخمة وأضراسها الحادة الأطراف التى تلائم الفواكه الخشنة الجافة وسيقان الخضراوات البرية . (ويعرف الشكل الحفرى الرئيسى باسم قرد الشجر (Dryopithecus) .

هذا الوصف الموجز يعطينا فكرة مقتضبة عن أصل وماضى القردة التى نشاهدها فى حدائق الحيوان ، ولكنه لا يعرفنا بأصل الإنسان وماضيه ، لأنه لا يبدو من المحتمل (كما كان يظن فى الماضى) أن أحـــد تلك القردة المتأرجحة الكبيرة هجر الأشجار بكل بساطة وبدأ يعتدل فى وقفته على قدميه ويغفل استعمال أنيابه فأصبح بالتالى نوعاً من البشر . بل المحتمل ، على العكس من ذلك ، أن الطريق الرئيسى الذى سلكته الآدميات تفرع فى القديم إلى فرعين كان أحدهما يؤدى إلى حياة الشجر بينما يؤدى الثانى إلى حياة الأرض ولقد رأينا كيف أن الشقة لابد أن تكون قد افترقت فى وقت مبكر ، وأخذت تكيف نفسها شيئاً فشيئاً مع أسلوبها الخاص فى الأرجحة باستخدام الساعدين ، على عكس ما هو متبع بين القردة الأخرى الأكثر شيوعا والتى تفوق الشقة فى الحجم بكثير . فقد ظلت كلتاهما متمسكة بالطرق العادية المألوفة التى تتطلب حسن التدبير والتقدير فى التنقل بين الأشجار كذلك يبدو أن الجانب المقابل للشقة انسلخ منه فرع ثالث يتألف من القردة العليا التى كانت لا تزال صغيرة والتصقت بالأرض تماماً لأنها لم تكن تلائم الغابات أو الأحراش ، بل تفضل الحياة فى المروج والمناطق الخلوية .

الإنسان القرد فى جنوب أفريقيا

والواقع أنها أصبحت تمشى منتصبة القامة كالإنسان تماماً . وليس من شك فى أن النصف العلوى من أجسامها كان مركبا على نفس الصورة الآدمية الأساسية التى تتلاءم وتتفق مع اعتدال القامة . أما النصف الأسفل فقد خضع — ابتداء من الخصر — لبعض تغيرات جوهرية لكى يلائم أيضاً مجموعة الأوضاع الجديدة . وعلى ذلك تكون فى العمود الفقرى التجويف القطنى ، وهو التواء إلى الوراء فوق الحوض مباشرة ، ليساعد على

استقامة واعتدال النصف العلوى من الجسم . أما الحوض نفسه فقد أصبح أكثر انخفاضاً واتساعا واتخذ شكلا مختلفاً كل الاختلاف عن حوض قردة الشجر ؛ وهو تغير هام لأنه يساعد العضلات على أن تتخذ وضعاً من شأنه حفظ الجذع فى ذلك الوضع العمودى المنتصب ، كما يزيد من الناحية الأخرى من تماسك العضلات القوية الموجودة فى العجز والتى تجذب الساق بقوة إلى الخلف حين يخطو الإنسان بقوة إلى الأمام . ولن نستطيع أن نفهم

منظر جانبي لعظمة الفخذ اليسرى عند الشمبانزى والإنسان القرد والإنسان

بدقة الفرق بين وظيفة هذا الترتيب عند الإنسان وما نجده عند القردة إلا إذا نظرنا إلى الشمبانزى مثـــلا وهو يحاول أن يسير منتصب القامة ولاحظنا الصعوبات التى يقاسيها .

وقد طرأ تغير جوهرى آخر على القدم ؛ فلم تعد إصبع القدم الكبرى، التى تقابل الإبهام فى الرئيسات العليا ، قادرة على الالتفاف بحيث تنطبق على الأصابع الأخرى ، وإنما امتدت نحو الأمام بحذائها ، وإن ظلت مع ذلك تفوقها جميعاً فى الأهمية . وقد ساعد ذلك على انتظام عظام الجزء الأوسط من القدم فى شكل قنطرة قوية لا يوجد بها غير مفصل واحد عند مقدمة القدم . ولهذه الخاصة أيضاً أهمية كبيرة بالنسبة للمشى الصحيح ، لأنه يجعل الخطوات أقوى وأوسع . ولك أن تتخيل كيف تكون حال الجرى

بطريقتنا الخاصة ولكن على أقدام القرد ذات المفاصل غير المحكمة ، حيث يستخدم الكعب وليس مقدمة القدم كنقطة ارتكاز .

وبالإضافة إلى الأدلة المستمدة من طبيعة تشريح الجسم البشرى عن تاريخ تلك القردة الأرضية ،نجد هناك شواهد أخرى تمدنا بها تلك المجموعة الهائلة من الحيوانات الحفرية التى عثر عليها فى حالة جيدة فى السنوات الأخيرة بجنوب أفريقيا . وهذا الإنسان القرد يعرف رسميا ، مع الأسف ، باسم إنسان جنوب أفريقيا القرد Australopithecinae وبعض هذه القردة كانت تماثلنا فى الحجم تقريباً ، ولكن بعضها الآخر كان أصغر منا بشكل

شكل يبين جمجمة إنسان وجمجمة إنسان قرد وجمجمة شمبانزى

ملحوظ . وربما لم يكن ارتفاعها يزيد على ١٢٠ سنتيمترا . كذلك كانت تلك القردة تعيش فى المناطق الخلوية وتقتات ، على ما يبدو ، بمختلف أنواع الطعام بما فيها اللحم . ولم يتيسر حتى الآن تركيب نموذج كامل لهيكلها العظمى ، وإن أمكن معرفة شكل الحوض عن طريق فحص عدد منها . وليس ثمة شك فى أن عظام الفخذ فيها تشبه عظام فخذ الإنسان الحديث ، رغم أن هذه الأخيرة تختلف اختلافا بينا عن مثيلتها فى القردة العليا ، مما يدل دلالة قاطعة على أن بقية الجسم كان يتفق مع طريقة المشى التى ينفرد بها الإنسان ؛ أعنى المشى على قدمين اثنتين .

وللوهلة الأولى تبدو جمجمة الإنسان القرد مشابهة لجمجمة القردة العليا ولكن هذا راجع فى الحقيقة إلى صغر حجم المخ وضخامة الفكين .

والأمر يحتمل على أية حال معاودة النظر فيه . فالمخ أصغر بكثير من مخ الإنسان وإن كان حجمه يتراوح بين حجم مخ الغوريلا وبين شيء أكبر قليلا من أمخاخ القردة العليا كلها . كذلك يميل الرأس إلى الارتفاع نسبياً ، كما تدل مواضع علامات عضلات العنق من الخلف وكذلك فتحة الحبل الشوكى على أن وضع الرأس كان يميل إلى الانتصاب والاستقامة بشكل لا يتوافر عند القردة الحالية ، وإن كان اقل استقامة مما هو عليه عند الإنسان الحديث .

ويبلغ الفكان فى بعض أفراد تلك الفصيلة قدراً كبيراً من الضخامة ، إلا أنه يلاحظ أنهما — وكذلك صفا الأسنان — يكونان أعرض فى الخلف ويأخذان فى الضيق فى المقدمة، كما أن الأسنان القواطع تميل إلى الصغر ، بينما لا تنطبق الأنياب بعضها فوق بعض بدقة كما هى الحال عند الإنسان تماما . فكأن الإنسان يرتبط بالقردةالعليا ارتباطاً قويا فيما يتعلق بتفاصيل ودقائق تيجان الأسنان ، وبخاصة الأضراس ، بينما هو يختلف عن السعادين فى ذلك . وهذه فى الواقع إحدى الوسائل الرئيسية التى يمكن أن نتعرف بوساطتها على أية قطعة حفرية . ولكن على الرغم من هذه المشابهات الآدمية فإن لكل من الإنسان والقردة العليا صفاته ومميزاته الخاصة التى تتعلق بالأضراس ؛ وفى ذلك نجد أنه على الرغم من ضخامة أسنان الإنسان القرد فإنه يقف فى صف واحد مع الإنسان .

وأخيراً ، فقد أجرى فحص دقيق لعدد كبير من التفاصيل الصغرى فى تركيب الجمجمة والتى تختلف فى جمجمة الإنسان عنها فى جمجمة القردة الحالية، فوجد هنا أيضاً أن التشابه فى طريقة المشى المعتدل عند كل من الإنسان القرد والإنسان ليس مجرد مصادفة ، وإنما مرده بالأحرى إلى القرابة القوية بين الاثنين .

وعلى ذلك فإن إنسان جنوب أفريقيا القرد يكشف لنا عن كثير من الحقائق الطريفة . فهو يبين لنا مثلا — وهذا أمر كان يمكن تخمينه — أنه كان هناك فرع مستقل من القردة الأرضية يحتمل أن يكون تطور من إحدى رتب الآدميات القديمة العامة التى ننتسب نحن أيضاً إليها . كذلك هو يبين أن النقطة الجوهرية فى التطور كانت هى طريقة المشى والملامح البدنية المتعلقة بها وليس أى شىء متعلق بالمخ أو الفكين . فقد كان ذلك التحول فى الوظيفة هو النقطة التى سببت انقسام الآدميات وأدت إلى ظهور ذلك الفرع الذى نشأ منه الإنسان الحديث فى آخر الأمر . وهكذا أصبح الإنسان القرد هو أهم الحلقات المفقودة : فنحن نستطيع أن نصفه بأنه قرد يمشى كما يمشى الإنسان ، أو بأنه إنسان له مخ وفكان تماثل فى حجمها مخ القردة العليا وفكيها .

ومع ذلك فإنسان جنوب أفريقيا القرد ليس حلقة متوسطة بالفعل — فهو لا يؤلف « حلقة مفقودة » مباشرة بيننا وبين الشمبانزى ، بل هو بالأحرى حلقة بيننا وبين أسلاف أقدمَ وأسبق من ذلك . إنه ينتمى إلى الفصيلة الحيوانية التى ننتمى نحن إليها . ولقد ذكرنا أن « الآدميات » تشمل كل الرئيسات العليا التى تختلف عن السعادين والتى تتميز بالمشية المعتدلة وبعدد من العلامات الأخرى التى تتلازم معها مثل شكل الأسنان. وهناك كلمة أخرى مختلفة بعض الشىء وهى « أشباه البشر hominid » . وهى تطلق على كل فصائل « الإنسان » المعروفة — الحديث منها أو الحفرى — بغض النظر عن حجم أمخاخها ، وهى تقابل فى ذلك كلمة «قرديات Pongid» التى تطلق على القردة البشرية الضخمة[1]. وواضح أن الاختلاف التطورى الأساسى بينهما ينحصر فى تمسك أحدهما بالمشى وارتباط الثانى بالتعلق

---

(١) المصطلحان مشتقان من العائلتين اللتين تنقسم إليهما الآدميات (Hominoidea) وهما Pongidae أى القرديات و Hominidae أى البشر .

بالأشجار وواضح أيضاً أن القردة البشرية هى من « أشباه البشر » بكل معانى الـكلمة .

ولسنا نعرف ، لسوء الحظ ، شيئاً أكثر من ذلك عن تاريخ أشباه البشر . وحتى الحفريات التى عثر عليها فى جنوب أفريقيا ترجع إلى عصر حديث جداً ؛ مليون سنة أو أقل . ومن الجائز أنها كانت تخلفت عن تلك المرحلة ذاتها التى مر بها أسلافنا نحن ، أو من مرحلة أقدم قليلا منها . ولـكن متى ظهر بالفعل فرع أشباه البشر ؟ يظن البعض أن ذلك حدث منذ عهد قريب ، بينما يذهب البعض الآخر إلى حـــد القول بأن أشباه البشر والقرديات لم يكونا شيئاً واحداً فى وقت من الأوقات وأنهما نشآ كفرعين منفصلين من الرئيسات الدنيا التى تشبه الصعابير ، والتى كانت توجد فى عصر الإيوسين ولـكن هذه نظرة متطرفة نظراً لـكثرة نواحى الشبه بين الفرعين ، سواء فى الشكل العام أو فى التفاصيل .

وقد نتوقع وجود بعض الفوارق الجوهرية كتلك التى نشاهدها فى النصف الأسفل من الجسم حين نأخذ فى اعتبارنا التحول الأساسى من حالة التعلق بالأشجار إلى حالة المشى على الأرض . وهذا فى الواقع هو أحد تلك المواقف الانتقالية (التى شبهناها بالشاطىء المعرض للمد والجزر) التى تتعرض لحدوث طفرات تطورية سريعة فيها ؛ حيث إن الشاطىء — أو الأرض المتوسطة الانتقالية — سيصبح مقفرا وغير صالح . ولقد أتم الإنسان القرد اجتياز تلك المرحلة ، وصح لنا بذلك أن نتوقع زوال وانمحاء المعالم القديمة بحيث لا يبقى هناك إلا بعض فرص ضعيفة جداً للعثور على بقايا الأشكال الأولى . والزمن على أية حال ، كفيل كما هى العادة ، بأن يكشف لنا عما خفى . وقد يمكن أن نقول — وهذا مجرد تخمين — إن الانقسام أو التفرع الأساسى حدث فى وقت غير قريب جداً ولـكنه غير موغل فى القدم . وذلك لأنه يبدو أن إنسان جنوب أفريقيا القرد

والإنسان الحديث يشتركان فى كثير من التفاصيل الصغيرة التى قد تبدو عرضية ولكنها تميزهما عن القردة البشرية بحيث يمكن القول إن فرع أشباه البشر كان يتطور برمته تطوراً مستقلا منذ وقت طويل وليس منذ الأمس القريب فقط .

وكل المناقشة السابقة تدور حول هذا السؤال الطريف : متى وكيف وصلنا إلى حالة الإنسانية ؟ ولقد رأيتم إلى أى حد يمكن الإجابة عن ذلك . والواقع أن السؤال ذاته ليس له أهمية كبيرة . فالإنسان « الحديث » ليس قديماً وليس كذلك أيضاً أسلوب حياته . إلا أنه يجب علينا ، إن أردنا دراسته ، أن ندرك أن طبيعته ووجوده لم يصبحا على ما هما عليه إلا تدريجا وبيطء ؛ وهذه هى إحدى الحقائق التى أود إبرازها فى هذا الكتاب ولكننا نستطيع أن نقول ، وهذه نقطة هامة : إننا بدأنا ندخل الطور الإنسانى حين أصبحنا من « أشباه البشر » ، أى حين بدأنا نمشى ، مع كل ما يترتب على المشى من نتائج . وكان ذلك فى وقت ما من الحقب الثالث . ومنذ ذلك الحين ونحن دائبون على تحسين ذلك بطرق شتى سأعرض لها فيما بعد . ولقد أتقن الإنسان القرد فن المشى ، ويبدو أنه كان قد بدأ يباشر مهمة حيوية أخرى هى تكبير حجم مخه حين انقرض واختفى من الوجود .

ولعل أهم من هذا كله أن نسأل : ما معنى أن « يصبح » الكائن إنساناً ؟ لقد كنا حتى الآن نعالج ناحية واحدة فقط من المسألة وهى الناحية البنائية التطورية البحت . لكن قد يكون من الخير أن نفهم معنى هذا التراث الفيزيقى فى ضوء ماضينا كله . فلقد أخذنا من الثدييات تنظيمها الجسمى المرن الرائع ، ومن الرئيسات أطرافها الامامية البسيطة المستقيمة وقدرتها الفائقة على القبض على الأشياء وإمساكها ، وكذلك طريقة الرؤية عندها . وأخذنا من الآدميات

عيونها الرائعة واستعداد أجسامها للوقفة المعتدلة ، فكأن الإنسان الحديث يجمع وحده بين المخ الكبير الحجم والفكين الصغيرين والرأس المرتفع المعتدل ، والجسم المهيأ تماما لطريقة المشى المعتدل . ولا يقتصر ذلك التهيؤ على الجذع وحده ، بل يصـــدق على الحوض والساقين والقدمين . وأهم من ذلك ، فإن لدينا إلى جانب المخ المخالب الأمامية التى كانت الرئيسات تستخدمها فى القبض على الأشياء ، ولكن بعد أن تحررت كلية — وليس تحرراً جزئيا كما هو الشأن عند القردة السعادين — من الطرق القديمة التى تستعمل فيها فى الانتقال . إن لدينا بكل بساطة مخ الإنسان ويده .

٢
معنى المجتمع

ليس من شك فى أن الإنسانية تعنى شيئاً أكثر من جسم بشرى ومخ كبير الحجم . والواقع أن جانب الإنسانية الذى عرضنا له فيما سبق يمكن دراسته فى الإنسان الميت مثلما ندرسه فى الإنسان الحى ، إن لم يكن بطريقة أفضل . ولكننا نصل إلى التطور الإنسانى حين نسلك سلوكا إنسانيا . وهنا أيضاً نجد أن لنا أساساً واسعاً من الطبيعة ذاتها .

ومن الواضح أن لنا نفس الحاجات الحيوية التى للحيوانات العليا الأخرى . فنحن نحتاج إلى الطعام وإلى التنفس بشىء من الانتظام ، كما نحتاج إلى الدفء — على الأقل فوق درجة معينة . كذلك يوجد فينا نداء الجنس الذى يذكرنا دائماً بضرورة تجديد النوع الذى تنتمى إليه . وقد وجد كثير من الثدييات ، وبخاصة الرئيسات العليا ، أن من الخير لها أن ترتبط وتتعاون معاً لاشباع تلك الحاجات فعاشت فى زمر اجتماعية . ومن الواضح أيضاً أن النشاط الجنسى عملية مشتركة ولكنها قد تتم عرضاً وبدون سابق تدبر . بيد أن كثيراً من الحيوانات تنتظم فى جماعات أكثر تحديداً وتميزاً من أجل تربية الصغار والحصول على الطعام وحماية نفسها وما إلى ذلك . وسوف نرى أن السعادين أمكنها أن تعيش حياة أكثر نجاحا فى هذه الناحية ، وأن ميولها الاجتماعية ليست إلا تكيفاً تطوريا هاما كما هى حال أيديها وعيونها وبقية تكوينها الجسمى . فهى تبين لنا إذن — باعتبارها من أبناء عمومة الإنسان التى تحيا حياة اجتماعية متقدمة — أن الميول الاجتماعية تعتبر ناحية أساسية فى الإنسان . ومن الأفضل أن نلاحظ السعادين الحية ونراقب مظاهر نشاطها ، بدلا من الجرى وراء التصورات الواهية النظرية عن تطور الغريزة الاجتماعية فى الإنسان القديم الذى انقرض منذ عهد طويل .

ولدينا بعض دراسات ممتازة يمكن الرجوع إليها . فقد لاحظ الأستاذ زوكرمان Zuckerman مثلا أفعال وتصرفات مستعمرات الرباح baboons فى حدائق الحيوانات فى لندن وباريس وميونخ ، حيث كان يترك لها أمر تصريف شؤونها بنفسها ، وقام بتدوين مذكرات عن مشاهداته . ومع أن ما رآه كان أعمالا كريهة فيها قسوة ووحشية إلا أن لها دلالتها ومعناها . فقد رأى ، مثلما يرى غيره من رواد حدائق الحيوانات ، أن الرباح حيوان ضخم شديد البطش ، وأن الذكر أضخم بشكل واضح من الأنثى ، وأنه لا يتردد فى استغلال هذه الميزة ، كما أنه يسيطر على الأنثى سيطرة تامة . وتتفاوت الذكور أيضاً فيما بينها فى الحجم والشراسة كما ينشب بينها كثير من القتال والنزاع . إلا أنه لاحظ أن تلك الاشتباكات أقل مما كان يمكن توقعه ، كما أنها لا تتخذ شكل المبارزة أو النزال الذى لا يخرج منه حيا سوى فرد واحد جريح ، بل شاهد بدلا من ذلك مثالا لطيفاً من تلك « المناقرة » التى تحدث فى حظيرة الدجاج . فكل رباح هو فى ذاته حيوان باغ جبار ، ولكن كل جبار منها يعرف من النظرة الأولى الحيوان الذى يفوقه فى البطش والجبروت فيذعن له عادة فى سكون ، بحيث يسيطر فى النهاية رباح واحد ، بينما يقنع الآخرون بالخضوع والاستسلام . والواقع أن هناك نوعاً من التفاضل فى المكانة والمنزلة تبعاً لدرجة السيطرة يسود الجماعة كلها . وبذلك نجد أن الجماعة تسودها حالة تعايش أو حالة هدنة .

وتنظيم الجماعة ذاتها ، وكذلك العلاقات بين الجنسين ، تعبر كلها عن هذا الميل المتطرف للسيطرة . فالذكور المسيطرة تستحوذ على كل الإناث . وفى الوقت الذى لا تكون للبعض إلا « زوجة » واحدة يكون للبعض الآخر « حريم » صغير خاص . وهذا الوضع شبه دائم فى عمومه . وقد يمكن لنا أن نقيس درجة السيطرة النسبية التى يتمتع بها أحد تلك الذكور القوية من اتساع دائرة نفوذه . وليس واجب الذكر مقصوراً على مجرد فرض نفوذه

على زوجاته العديدات بصفة دائمة بحيث لا يبتعدن عنه بأكثر من أقدام قليلة ، أو أن يقبعن إلى جانبه فى صبر وهو يلتهم طعامه حتى يمتلىء . وإنما يتعين عليه أيضاً أن يكون له إلى جانب هذا كله من النفوذ والقوة ما يكفى لأن يطرد الذكور الأخرى التى قد تحوم حول حريمه . ومن حسن حظ الذكر بغير شك أن الذكور الأخرى التى تتمتع بمثل نصيبه — أو بنصيب أكبر — من القوة والسيطرة يكون لديها ما يكفيها من الإناث . ولكن ما موقف الذكور الزائدة التى تقبع فى أسفل السلم ؟ إنها تعيش عيشة العزوبة والتبتل . ومع ذلك فمن الغريب حقاً أنه يسمح — من أجل الرفقة والصحبة — للرباح الأعزب أن يلتحق بجماعة الحريم كصديق — بالمعنى الدقيق — للعائلة . وما دامت تصرفاته وسلوكه تظل بريئة ومنزهة عن النزعات الرومانتيكية فإن الهدوء يظلل الجماعة . والواقع أن الموقف العام يتميز بالهدوء والسلم ولا تحدث فيه اضطرابات كبرى إلا حين تحدث حالة وفاة فى الجماعة ، إذ قد يحاول الرباح الأرمل من ناحية أن يعوض خسارته على حساب « حريم » رباح آخر ، كما أنه حين يموت الرباح الذكر من الناحية الأخرى فإن التهافت على طلب أيدى أرامله قد يصل إلى الذروة فى العنف والشراسة .

ونستطيع أن نتبين من هذا كله أن جماعات الرباح يكون لها دائماً بناء محدد محكم إلى أبعد حد ، وأنها تحيا حياة « اجتماعية » جداً ، إذا سمحتم لأنفسكم بالتحرر قليلا من تقديركم المعتاد لتلك الكلمة . فجماعة الرباح تبدو للزائر العابر صورة بشعة من صور الإرهاب الشامل . ولكن ذلك له فوائده ، وأستطيع أن أقول إن أولى تلك الفوائد هى أن عنصر السيطرة يساعد الجماعة على أن تعيش وتؤدى وظائفها كجماعة مثل تربية الصغار والحصول على المنافع الأخرى التى يمكن تحقيقها بالمعيشة فى جماعة ، على ما ذكرت ، دون أن تتعرض لخطر الزوال من جراء وحشية أعضائها الكبار فى الحجم

والأكثر نموا . ولكنها فى الوقت نفسه تسمح ببقاء تلك الوحشية وقوة القتال ذاتها من أجل توجيه الجماعة والدفاع عنها حين تحتم ذلك ظروف الحياة الطبيعية ذاتها .

ولكن كلمة « اجتماعى » تعنى هنا أكثر من ذلك . فقد بين زوكرمان شيئا على جانب كبير من الأهمية ، إذ لاحظ أن الرباح لا ينتقل أبداً بمفرده أو يتجول على غير هدى ، وإنما هو يتقيد دائما فى تحركاته بغيره من أفراد الجماعة . فالطفل يرتبط بالطبع بأمه ، والأنثى ترتبط بالذكر إذ تراعى كل أنثى أن تكون دائما على مقربة من سيدها ليحميها من الحيوانات الشاردة ، ولينسق أفعالها مع أفعاله ، والذكر يرتبط بالأنثى فيرقبها بعين الرعاية أو الشهوة ، كما أن الذكر يرتبط بالذكر فيراعى كل الفوارق الضئيلة فى المركز ويبدى كثيراً من الحرص والحذر فى سلوكه وتصرفاته . وبالجملة فإن سلوك أى رباح فى أية لحظة من اللحظات يكون أشبه شىء بمجموع تلك العلاقات المعقدة مضافا إليها شخصية الرباح نفسه وكذلك حاجاته فى تلك اللحظة المعينة بالذات . أو أن الأمر يبدو كما لو كان لكل ذكر من الذكور شحناته ومجالاته الكهربية الخاصة التى تتفاعل وتعمل كلها معا من أجل رسم وتحديد طريقة سلوك أعضاء الجماعة .

وقد أمكن ملاحظة مثل هذه العلاقات المعقدة وتتبعها بدقة عند السعادين الأخرى ، وبخاصة عند المكاك الهندى rhesus macaques . بل إن بعض علماء الإثنولوچيا المدققين لاحظوا الشىء نفسه أثناء دراستهم لبعض الجماعات الإنسانية البسيطة مثل سكان استراليا الأصليين ؛ ولكن بدلا من أن يتكلموا عن دور الأسنان والأنياب فى تلك العلاقات ، كان كلامهم ينصب على القواعد والعادات الخاصة بفوارق الجنس والسن . وقد لا تثير هذه الأمور دهشة الروائيين وكتاب المسرحيات ، أما علماء الاجتماع فقد عكفوا منذ بعض الوقت على تحليل مثل ذلك النمط من السلوك المتبادل بين الأشخاص

وذلك بين سكان إحدى المناطق التى تعتبر من أكثر جهات العالم تحضرا (وهى هارڤارد ، إن كان لا بد لكم من أن تعرفوا) . واستعانوا فى سبيل ذلك بكثير من المعدات مثل أجهزة التوقيت والحجرات التى أعدت خصيصاً لذلك الغرض . ولكن هذه قصة أخرى . وكل ما يهمنا هنا هو أنه لا بد من وجود مثل ذلك العنف أو الشدة فى السلوك والمشاعر بين أفراد الجماعة الواحدة من جماعات الرباح ، رغم كل ماتتميز به الجماعة من تنظيم وتوافق .

العواء الطروب

وربما كان الرباح أشد الرئيسات — باستثناء الإنسان — خبثاً وأكثرها دهاء . ولكنه على أية حال ليس نموذجا للسعادين كلها . وإن كان بعضها — كالمكاك الهندى — لا يقل عنه كثيراً فى القسوة الذهنية أو الفيزيقية . وقد قام الأستاذ كاربنتر Prof. Carpenter بدراسة السعادين العاوية وا كتشف أنها أقل عدواناً بالنسبة للإنسان وبالنسبة لبعضها البعض . ومن المستحيل من الناحية العملية دراسة جماعات الرباح فى الغابة دراسة دقيقة لأنها لا تبيح للإنسان أن يقترب منها ، كما أنها سريعة الانتقال والحركة . أما السعادين العاوية فإنها لا تقطع سوى مسافات قصيرة ، فهى تعيش فقط فوق الأشجار ولا تنزل أبداً إلى الأرض . وترتبط كل جماعة منها ارتباطاً قويا بموطنها — وهو عبارة عن رقعة من الغابة تقل مساحتها عن الميل المربع — فلا تفارقه أبداً تحت الظروف العادية . وتعتبر السعادين العاوية من أكبر السعادين فى العالم الجديد . ومع أنها لا تخلو من النزعات العدوانية إلا أنها تفضل النباح على العض . فتفاحة آدم عندها متضخمة تضخما كبيراً ، وبفضل ذلك الصندوق الصوتى الشاذ يستطيع الذكر أن يخرج أصواتا راعدة عالية كفيلة بإثارة الأعصاب حتى أعصاب الشخص الذى يعرف طبيعتها ومصدرها .

وقد ذهب كاربنتر إلى جزيرة بارو كولورادو Barro Colorado فى بحيرة

جاتون Gatun فى قناة بنما وأمضى بضعة شهور يعمل فى دأب وبدقة فى مراقبة وتسجيل أحداث الحياة بين كثير من جماعات السعادين العاوية . ولقد رأى ، مثلما رأى زوكرمان ، أن أعضاء الجماعة الواحدة من تلك السعادين تدخل فى علاقات متبادلة دائمة ، وأنها تنتقل من مكان لآخر ويتصرف بعضها إزاء بعض تبعاً لفوارق السن والجنس والمستوى الاجتماعى العام ، أى تبعاً لاختلافات وتقلبات المعيشة الاجتماعية . ولكنه على العكس من زوكرمان لاحظ وجود نوع من النظام المتجانس الهادىء فى كل جماعة ، وأن التعاون هو القاعدة ، وأنه لم يكن ثمة أى أثر للسيطرة أو الميول العدوانية .

ولقد كان يحق لنا أن نصف السعادين العاوية بأنها من أكلة زهر اللوتس لو أنها كانت تأكل اللوتس بالفعل ، ولكنها تأكل فى الواقع كل شىء آخر من هذا القبيل كالأزهار والبراعم والثمار . وهى تمضى كل حياتها بين الأكل واللعب والنوم والمرح . وتمتاز مواطن إقامتها بأنها أقاليم غنية ، ولذا فهى تستطيع أن تنتقل من نوع معين من الأشجار إلى نوع آخر مثلما ننتقل نحن من صنف من الطعام إلى صنف آخر أثناء الأكل . بل إن هناك أشجاراً معينة بالذات تخصصها للنوم . وتتم كل انتقالاتها وتحركاتها بالطابع خلال فروع الأشجار ، فتخطو من شجرة لأخرى حيث تتشابك الأغصان . وليس هذا دائماً بالعمل السهل الهين حتى بالنسبة للسعادين التى تجيد فن التسلق والقفز . ولذا كانت الطريقة التى تنظم بها الجماعة انتقالها بين الأشجار هى خير تصوير لنوع التعاون الذى يسودها .

وتتقدم الجماعة فى شكل (طابور) . وتحمل الأمهات أصغر أولادها ، أو هى ترعاها وتعنى بها بشكل من الأشكال . أما معظم الذكور الأكبر سناً — وعددها قليل — فإنها تنتشر فى المقدمة حين يكون ثمة شك وتردد حول أى الطرق ينبغى للجماعة أن تسلكها أو أفضل وسيلة للانتقال إلى

الشجرة التالية ، فيبحث كل ذكر عن طريقة لذلك . ولكن البحث لا يتخذ شكل المنافسة بين الذكور على الرغم من أن ذلك يعطى الذكر فرصة للسيطرة على الجماعة ككل . فإذا عثر أحدها على طريق صالح ، فإنه يخرج من فمه صوتاً عاليا فتكف السعادين الأخرى فى الحال عن البحث وينتظم الجميع من ورائه فى صف واحد . أما إذا سقط أحد الصغار أثناء الرحلة من فوق الشجرة إلى أرض الغابة المخيفة ، فإن الذكور تتجمع فى الحال على الأشجار فوق تلك البقعة ثم تأخذ كلها فى العواء لتخيف اليغور (النمور الأمريكية jaguars) وتبعدها . ولكن هناك ملاحظة واحدة : إنى أتكلم هنا عن التعاون وليس عن الشهامة أو المروءة . ومن هنا كانت الذكور تقنع بالعواء بشدة وقوة ، بينما يسمح للأم وحدها بالنزول إلى الأرض لتسترد مبعث فخرها وقرة عينها .

ويظهر السلوك التعاونى بشكل واضح فى الحياة العادية « للعائلة » بحيث لا نجد فيه أية عناصر للخلاف أو التنافر . والظاهر أن السعادين العاوية تميل إلى التنظيمات الرتيبة حتى إننا نستطيع أن نقول إن الجماعة كلها عبارة عن (أسرة) واحدة كبيرة ، وأنها تحيا معا حياة سعيدة . ويفوق عدد الإناث البالغات فى الجماعة عدد الذكور ، وإن تكن أسباب ذلك غير واضحة ، ومع ذلك فإنها لا تعرف نظام الحريم الموجود فى جماعات الرباح ، أى إنه لا توجد أية ارتباطات دائمة من هذا القبيل ، بل إن كل العلاقات التى تقوم بين الذكور والإناث لأغراض جنسية تكون قصيرة الأمد . وعلى ذلك فإن جميع الذكور يعتبرون من الناحية العملية مجرد « رجال يترددون على البيت » ولا يعتبرون أزواجا . وإذن فليس من بينهم « آباء » ، وإنما هم جميعا « أعمام » . فكأن الجنس يحقق وظيفته الجوهرية دون أن يخلق المتاعب ، كما أنه لم يعد مصدراً للتنافس أو تعبيراً عن التسلط والسيطرة سواء بين الذكور أو الإناث .

والآن دعنا نرقب إحدى جماعات السعادين العاوية فى حوالى منتصف النهار بعد أن تكون قد فرغت من التهام وجبة الصباح التى تستغرق وقتاً طويلا وهدأ جوعها . حينئذ سوف نجد أن الذكور التى تقدمت بها السن بدأت تستشعر الحاجة إلى الإغفاء والنوم، فاستلقت هنا وهناك على الأغصان واسترخت فى أوضاع مريحة ، بينما انصرفت الأمهات للعناية بشؤون صغارها كأن تعكف مثلا على تعليمها ماذا تأكل وكيف تأكل ، وقد تتجمع كلها فى شىء من اللهفة والاضطراب حول إحدى الإناث التى وضعت مولوداً جديداً — وهذا حدث يبدو أن له القدرة على إشاعة الارتباك بين الإناث فى كل الرئيسات . والعواء ينمو ببطء شديد كما هى الحال تماما بين كل السعادين والقردة العليا وعند الإنسان . فالصغار تحملها أمهاتها لمدة عام تقريباً بعد الولادة ولا تستقل تماما إلا بعد حوالى ثلاثة أعوام . ويبدى شباب الجماعة كثيراً من النشاط والحركة، كما أنها تلعب معاً باستمرار وتمارس كثيراً من المزاح الخشن ، فتتجاذب من أذنابها وتتشاجر ويطارد بعضها بعضا . فسلوكها أقرب إذن إلى سلوك الطلاب الصغار الذين يتسمون بكثير من الود والألفة . أما إذا زاد العنف عن الحد، وبخاصة إذا ندت عن أحدها صرخة ألم فقد يزجر أحد الذكور الكبيرة محذراً فتهدأ الأمور . ويجب ألا نأخذ ذلك على أنه علامة على ضجر الكبار من عبث الصغار ، إذ الواقع أن هذه الذكور الكبيرة تبدى — فى غير ذلك من الأحوال — كثيراً من التسامح والحنو ، فتسمح للصغار مثلا بأن تتعلق بأجسامها ، وبأن تأتى بكل ما يثير الضيق ويسبب الإزعاج . وبينما يستطيع الرجل عندنا أن ينهى مثل هذا الموقف المزعج بأن ينهر الصغار ويأمرهم بالابتعاد عنه ، فإن العواء حين يريد أن يتخلص من تلك الشياطين الصغيرة فإنه يشاركها فى عبثها ولعبها بعض الوقت حتى تبدأ فى الاشتباك والعراك فيما بينها من جديد كما هى عادتها ، فيتمكن هو من الانسحاب ويتتبع الموقف بإحدى عينيه بينما يغفو بالعين الأخرى . وبذلك يبدو العواء الذكر على درجة لا تبارى من البشاشة

والوداعة . ولكن يجب أن نتذكر أنه لا يمضى مثلنا يومه فى العمل المتعب الشاق فى المكاتب .

كذلك تبدو السعادين العاوية — فى ضوء علاقاتها العائلية — لطيفة رقيقة بطبيعتها إلى حد العجز . ولكن الأمر ليس كذلك تماما ؛ إذ كلما اقتربت الذكور الصغيرة من البلوغ أخذت دلائل الميل إلى القتال تتسلل إلى تلك العلاقات القديمة التى تقوم على العبث والمزاح . ولسنا نقصد بذلك أن القتال يزداد شيئا فشيئا بين الذكور الشابة ، وإنما المقصود أنها تقلل من لعبها معا بالتدريج . والأهم من ذلك أن الصفاء الذى يسود الجماعة الواحدة يقابله عداء صريح مطلق بين الجماعات المختلفة ، وهو عداء تقوم فيه الذكور بالدور الرئيسى . وقد سبق أن ذكرت أن لكل جماعة موطنها الخاص الذى تحميه وتدافع عنه ضد كل جماعات السعادين العاوية الأخرى . ولكنها — وهذا أمر غريب حقا — لا تقف مثل هذا الموقف من غـــيرها من أنواع الحيوانات أو السعادين المختلفة . فإذا أغارت إحدى تلك الجماعات على أرضها تصدت لها الذكور وخذت تعوى وتنبح فى وجهها بعنف وشدة فتقابلها ذكور الجماعة المغيرة بمثل عوائها ونباحها . أى إن السلاح الوحيد الذى يستخدم فى المعركة هو العواء ، دون أية حاجة لإراقة الدماء . وتنتهى المعركة بانسحاب الغزاة آخر الأمر إلى موطنها الخاص، إما لشعورها بالغربة وإما لضعف مركزها نتيجة لوجودها فى مكان غير مألوف من الغابة . وعليه فإن الجماعة الأصلية تحتفظ ، ليس فقط بمصدر طعامها ، بل وتحتفظ أيضا بتماسكها وكيانها ، ما دامت الجماعات المختلفة تعيش فى عزلة تامة بفضل ما بينها من عداء متبادل .

ولكن كيف يتسنى لهذا الغضب ولتلك الميول العدوانية — التى تظهر بكل هذه الشدة حين تلتقى الجماعات الغريبة — أن تقمع وتكبت ، وبخاصة عند الذكور ، داخل الجماعة الواحدة ؟ من الواضح أن هذا يتم نتيجة للتربية

الاجتماعية التي يخضع لها الصغار أثناء نشأتهم وتقدمهم في السن . ففي مثل هذه الجماعات المغلقة يعرف الصغير الناشيء جميع أعضاء المجتمع معرفة وثيقة ويصدق ذلك بوجه خاص على أنداده في العمر التي يمضى معها الجانب الأكبر من حياته في ذلك العراك اليدوى العابث الذى ينم عن قوة الصداقة . فالمواءمة بين مختلف الشخصيات وتنظيم الملاقات ، وهى مهمة معقدة ، تؤدى إلى كبت التنافس الطبيعى بين الذكور وإزالة النفور بين أفراد الجماعة رغم ما قد يكون بينهم من تباعد . ولكن ذلك العداء لا يلبث أن يثور في الحال لظهور أية جماعة غريبة . ويمكن رد كل سلوك السعادين العاوية إلى ذلك النمط من التربية التي تتلقاها في الصغر وتحقيق التجانس والانسجام : أعنى اختفاء التنافس على الجنس ، واشتراك أفراد الجماعة المحددة في اللعب ، وتعاون الذكور في توجيه الجماعة ، وفي العواء ضد الجماعات الأخرى المغيرة ، وكذلك العواء لإنقاذ الصغار التي تسقط من فوق الشجر .

وليست الحياة الاجتماعية مسألة كمالية وإنما هي ضرورة . ولكي نفهم ذلك يخلق بنا أن ننظر إلى حال الغريب الوحيد . فالأستاذ كاربنتر لم يشاهد أنثى تعيش بمفردها أبدا ، ولكنه كان يصادف أحياناً ذكراً ضالا شريداً وإن لم يدر تماما كيف صار إلى تلك الحالة . وكان يبدو واضحاً أنه لم يكن سعيداً بوحدته ، لأنه كان يحاول جاهداً أن ينضم إلى إحدى الجماعات ، وهو أمر عسير التحقيق ، لأن الذكور كانت في العادة تعوى في وجهه حتى تطرده . أما إذا استطاع الصمود — وهو خليق بذلك — لأربعة شهور أو خمسة ، فإن المقاومة ضده كانت تقل بالتدريج حتى تتلاشى تماما ويسمح له بالانضمام إلى الجماعة . لقد تبنته الجماعة لأنه خضع في الواقع — ولكن بشكل موجز — لكل ما يخضع له العواء العادى طيلة الفترة التي يستغرقها نموه وتنشئته ، وأصبح بفضل تمسكه وصبره مألوفاً ومعروفاً لدى أفراد الجماعة كما لو كان ولد ونشأ فيها ، فلم يعد منظره يثير عداء أفرادها .

وهذه الواقعة تلخص لنا ميل السعادين العارية إلى التآلف الاجتماعى وتوضح لنا شعور الفرد بحاجته لأن يعيش فى جماعة . فهى تبرز من ناحية العداء الطبيعى الموجود بين تلك السعادين — والذكور منها بوجه خاص — كما تبرز من الناحية الأخرى التأثير المضاد الذى يخلقه ترابط الجماعة ، وكذلك « الشعور الجمعى » الذى ينشأ من عملية التربية الطبيعية ويعمل بطريقة لا شعورية .

ولو نظرنا إلى الرباح والعواء معاً لرأينا أنهما يكادان يقفان على طرفى نقيض فى مسألة التنظيم الاجتماعى عند الرئيسات العليا . ولكن قد تكون لهذا التضاد دلالة أعمق نظراً للمشابهات التى تكمن وراءه . فهذان النوعان من السعادين يشتركان — بأكثر مما قد يبدو فى الظاهر — فى بعض عناصر السلوك الهامة ، ولكنهما يختلفان فى ميل كل منهما نحو بعض تلك العناصر دون البعض الآخر . وبينما نرتاع لتلك القسوة الذميمة التى تسود مجتمع الرباح ، فإننا ننظر بارتياح إلى السعادين العاوية السعيدة التى تعيش — كما قد يبدو لنا — وفقاً لتلك النصائح والإرشادات الرقيقة التى كنا نلمسها ونعجب بها فى أعمال الأجيال السابقة أكثر مما نراعيها نحن فى سلوكنا ونشاطنا . ولكن هذا أقرب إلى دراسة نظمنا الأخلاقية وآدابنا فى ضوء سيكولوچيا الحيوان — وهى عادة شائعة وطريفة — ولكنها خطرة . ولكل من الرباح والعواء استعداد قوى للعدوان والسيطرة كما أن لكل منهما قدرة الرئيسات على التكيف سواء من الناحية السيكولوچية أو السلوكية (المزاجية) بالنسبة لغيره من أفراد نوعه . ولكن صادف أن الرباح يميل بطبيعته البيولوچية إلى الناحية الأولى — أى العدوان — بينما كبتت هذه النزعات عند العواء بشدة بفضل الاتجاه الثانى . وهذا ذاته يؤثر فى « تنظيم » العلاقات الاجتماعية لدى كل منهما . ففى مجتمع الرباح يحتل كل فرد مكاناً معيناً بالذات فى الترتيب الاجتماعى الدقيق المحكم ، كما أن الزواج يقوم على

نوع من تعدد الزوجات الذى هو مجرد صورة واحدة من صور التعبير عن السيطرة . أما جماعة السعادين العاوية فيسودها الترابط والتماسك الساذجان ويساعد على ذلك الضغط الخارجى (الذى يتمثل فى الجماعات الغريبة) بينما يقتصر دور السيطرة فى تميز الأفراد بإعطاء الذكور الكبار فرصة مراقبة أفعال الجماعة وتنظيمها . أما « الزواج » فيقوم على الإباحية أو شيوعية النساء . وثمة مسألة هامة جديرة بالملاحظة وهى أن كلا من النوعين « له » تنظيم محكم جداً يؤدى وظيفته فى دقة وكفاية فى كلا المجتمعين . وليس لنا أن نفضل أى التنظيمين أو أن نقول إن الإباحية — مثلا — تلائم مجتمع السعادين العاوية . فنحن لا ننتسب إلى فصيلة العواء أو الرباح ، كما أنهما لا ينتميان إلى الجنس البشرى .

الشق الغيور : لا وجود لثلاثة معاً

ومع ذلك فنحن من الرئيسات ، وإن كنا أقرب من ناحية التكوين الجسمى ومن ناحية السلالة إلى القردة العليا منا إلى تلك السعادين . وقد بدأنا لحسن الحظ نعرف الشىء الكثير عن سلوك بعض هذه القردة . فبعد أن فرغ كاربنتر — وهو أكثر ممثلينا فى الخارج نشاطاً لدى أقاربنا من الحيوانات الأخرى — من دراسة السعادين العاوية رحل إلى سيام ليدرس الشقة gibbons . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ، لأن الشق ، كالعواء ، يعيش فقط فوق الشجر فى الأدغال الوعرة المتشابكة . ولكن الشق ، كالعواء أيضاً حيوان « متوطن » بمعنى أن لكل جماعة من الشقة إقليمها أو « وطنها الخاص الذى تقيم داخل حدوده . وعلى ذلك أمكن لكاربنتر أن يقيم بعض الستائر فى بعض المواقع الاستراتيجية ويرقب منها نفس الجماعات يوما بعد يوم ويتابعها بصبر من فوق الأرض . وقد اكتشف كاربنتر أن الشقة تعيش فى شكل عائلات يتألف كل منها من زوجين تقوم بينهما علاقات زوجية دائمة ويعيش معهما أطفالهما (وهى تولد كل عامين تقريباً

فى المتوسط) التى لم تصل إلى مرحلة البلوغ . وقد تضم الأسرة الواحدة أربعة او خمسة أطفال . ولكن قبل أن نتسرع ونستخلص من ذلك أن الشققة حيوانات « مونوجامية[١] » بالمعنى المفهوم لنا — أى بحكم العرف والتقاليد — ينبغى لنا أن نلق عليها نظرة أكثر دقة وتفحصاً .

تميل الشققة إلى صغر الحجم ، وهى فى عمومها لطيفة جذابة ولكنها تستطيع أن تصبح متوحشة ضارية بل وخطرة حين تستخدم أنيابها الحادة المدببة . ولا توجد اختلافات كبيرة بين الجنسين سواء فى الحجم أو فى توكيد الذات . وتظهر السيطرة بدرجة معتدلة داخل العائلة ، ولكنها تزيد حين تلتقى جماعتان منها وينشب بينهما نزاع صوتى حول مشكلة الحدود . ولكن أهم ما يميزها هو النفور القوى الواضح بين أى فردين بالغين من نفس الجنس . والواقع أن كاربنتر لم يكد يرى شقاً واحداً بالغا — ذكراً كان أو أنثى — يكون زائداً على الجماعة حتى ولو كان ابنها أو ابنتها . فواضح إذن أن الذكر يميل إلى طرد كل ذكر آخر كما هى الحال عند الرباح ، بل إن هذا يسرى على الطرفين ، بمعنى أن الأنثى تطارد كل الإناث الأخريات بحيث لا نجد أمامنا فى النهاية سوى اثنين فقط . فالأمر يبدو إذن كما لو كان زواج الشق يتم نتيجة لعملية الطرح أو الإبعاد ، أكثر منه نتيجة لعملية الجمع أو إضافة عضو جديد كما هى الحال بيننا . ولكن ليس من الإنصاف تماما أن نقول ذلك . فقد شاهد كاربنتر بين الشققة أزواجاً وأصدقاء تبدى بعضها إزاء بعض كثيراً من المودة والسرور الواضحين ، بل وترحب إحداها بالأخرى بعد الغيبة القصيرة بشىء أشبه بالابتسامات والأحضان . (والقردة المتأرجحة تستخدم ذراعا واحدة وكلتا الساقين حين تحضن ، أما فيما عدا ذلك ، فطريقتها تشبه طريقتنا إلى حد كبير) . وعلى ذلك فإنه يبدو أن الارتباط يقوم على أمور أخرى غير مجرد العلاقة الجنسية .

---

(١) المقصود بالمونوجامية عند علماء الأنثربولوجيا والاجتماع اكتفاء الرجل بالزواج من امرأة واحدة فى وقت واحد « المترجم »

وتكشف لنا الشقة ، ولكن بدرجة أقل وضوحا ، عن نفس عناصر السلوك المتبادل بين الأشخاص التى سبق أن رأيناها عند السعادين . فهناك من ناحية العدوان أو الميل للسيطرة الذى يعطى بعض الحيوانات درجة معينة من القدرة على التحكم فى الجماعة ، كما يضفى على الجماعة كلها نوعا من التنظيم الطبيعى الذى يساعدها على التصرف بنجاح . وهناك من الناحية الأخرى الميل للتآلف أو التكيف القوى والتماسك ، أى الارتباط فى الجماعة ذاتها كوحدة متميزة عن غيرها من الجماعات . وهذه العناصر لا تلقى درجة واحدة من التوكيد كما هى الحال فى الأنواع الأخرى تماما . فتشابه الجنسين تقريباً فى الحجم ، وحب السيطرة ينتج عنه نمط للزواج أو المعاشرة يختلف عما نجده عند الرباح . ولكن نوع التجمع الموجود عند الشقة يتمتع ولكن بطريقته الخاصة ، بنفس الدرجة من الجمود والإحكام اللذين يميزان أنواع التجمعات الأخرى ، كما أنه يعبر بنفس الموضوع عن طبيعة ذلك الحيوان الخاصة . أما عند القردة العليا الأخرى ، وبخاصة الشمبانزى ، فإننا نجد شيئاً مختلفاً ، إذ تتميز العلاقات الشخصية بشىء من التراخى والتفكك مما يسمح بوضعها ضمن فئة أخرى أكثر تقدماً .

الشمبانزى المتجول

ولقد أمكن دراسة الشمبانزى فى أدغال أفريقيا بفضل الجهود الجبارة التى بذلها الدكتور نيسن Nissen . فملاحظة الشقة ليست من أعمال الأطفال ، أما ملاحظة الشمبانزى فإنها أشق من ذلك وأصعب . إذ ليست الشمبانزى من الحيوانات المتوطنة ، فهى لا تستقر فى بقعة واحدة بعينها ، وإنما هى حيوانات متجولة بمعنى الكلمة ، كما أنها تنتقل أثناء رحلاتها بسرعة ، وغالباً ما يتم انتقالها فوق الأرض . وينتشر أفراد الجماعة الواحدة — سواء فى حالة الراحة أو الطعام أو حتى الحركة — انتشاراً كبيراً بين الأشجار أو على الأعشاب والحشائش اللينة بحيث يصعب جداً رؤية أى فرد منها

على حدة . والميزة الوحيدة التى نقدمها للشخص الذى يريد دراستها هى تلك الضوضاء الدائمة التى تصدر عنها أثناء ثرثرتها وصراخها أو قرعها جذوع الشجر . ولكن هذه الميزة ذاتها تصبح عديمة القيمة إذا شعرت بأن هناك من يرقبها ، فهى تكره ذلك كراهية عميقة ، فتتوقف كل الأصوات ثم تولى الأدبار هاربة بأسرع ما تستطيع وتختفى فى الحال . وبذلك كان نيسن عاجزاً تماماً عن أن يدرس أية جماعة واحدة بالذات دراسة منهجية متكررة ، ولم يستطع بالتالى أن يقدم لنا عن سلوكها اليومى إزاء بعضها بعضا مثل تلك المعلومات الهائلة التى حصل عليها كاربنتر . ومع ذلك فإنه مما يثير الإعجاب أن يكون قد تمكن من الحصول على معلومات ذات قيمة على الإطلاق . والنقطة الأساسية فى اكتشافاته — فيما يتعلق بالسلوك الاجتماعى — هى أن الشمبانزى تنتقل فى جماعات تتألف من ثمانية أو تسعة فى المتوسط ، وإن كان بعضها يضم أحياناً عدداً أكبر أو أقل من ذلك ، وأنه ليست فى نظام المعاشرة والزواج عندها ما يثير الدهشة على الرغم من قلة عدد الذكور البالغة عن عدد الإناث لدرجة أنه قد لا يوجد فى الجماعة سوى ذكر بالغ واحد ، وأن الصفاء والتعاون يطبعان كل تصرفاتها . ولم يذكر نيسن شيئاً عن وجود علامات التنافس أو النفور بين الجماعات المختلفة . والواقع أنه كان مقتنعاً بإمكان اختلاط أية جماعتين منها معا لبعض الوقت ثم انفصالها بعد ذلك . كذلك لم يذكر شيئا عن وجود علامات حب السيطرة بين أفراد الجماعة وإن كان من الصعب ملاحظة ذلك فى مثل هــــذه الظروف . والحق أن كتاباته تترك إحساساً قوياً بأن الأفراد تتمتع بالاستقلال والتحرر فى تحركاتها ، بمعنى أنها كانت تتجول حيثما تريد ، وإن كانت تحرص مع ذلك على اتصال بعضها ببعض بوساطة الأصوات الصاخبة التى تصدرها .

ومن حسن الحظ أننا لسنا مضطرين إلى الاعتماد على مثل تلك الشواهد والأدلة التى نحصل عليها عن طريق التلصص واستراق السمع لكى نزيد معرفتنا بطبيعة الشمبانزى . فقد درست الشمبانزى السجينة دراسة مركز

من نواح عديدة جداً ، وذلك لأن الصلة القوية التى تربطها بنا تعطيها أهمية غير عادية . والعيب الوحيد الذى يعيب هذه الدراسات هو أن القردة السجينة لا تحيا بعد كل شىء حياة عادية . ونحن جميعاً نعرف أنها حيوانات عاطفية وحساسة للغاية ، ولن يحتاج المرء إلى خبرة طويلة بالشمبانزى لكى يدرك مدى تعلقها بغيرها من أفراد فصيلتها ومن الكائنات الأخرى القريبة منها كالإنسان واعتمادها عليها ، ولكن من الصعب إبراز معنى ذلك فى إيجاز ، وقد نستطيع أن نذهب إلى حد القول أن الشمبانزى تشبه الإنسان وبخاصة فى درجة ارتباط سلوكها بعضها ببعض . فالميل للسيطرة متوافر عندها ، إذ يميل الذكر الذى يتميز بكبر الحجم إلى أن يسيطر على إحدى الإناث . ولكن هذا الوضع قابل للتغير ، لأن الأنثى تستطيع أن تستغل مزايا جنسها مؤقتاً لإخضاع الذكر الذى تكون له السيادة فى العادة . وزيادة على ذلك فإن عامل السيطرة يكون أقل وضوحا هنا عنه بين السعادين . والإحساس الذى يخرج به المرء هو أن الأفراد الأكثر قوة وإيجابية ليست دائماً أشدها عدواناً ، وأن تفاعل الشخصيات قد يبلغ درجة من التعقيد تشبه ما نجده عند الإنسان . وبقول آخر ، فإن جماعة الشمبانزى — كغيرها من جماعات الرئيسات الأخرى — لها نظام محدد يترتب أفرادها بمقتضاه ويوجه نشاطها ويتحكم فيه ولكنه يعتمد فى الوقت نفسه على اعتبارات أخرى غير مجرد الوحشية والقسوة . ومن الخطر أن نصف تلك السمات بأنها سمات إنسانية ، ولكنها تتخذ شكل التودد والحيوية العامة والاعتداد بالنفس وما إليها ، كما أن الصداقات والعداوات الخاصة تظهر بينها بجلاء . وأستطيع أن أقول إن الأستاذ يركيس Prof. Yerkes — وهو من أكبر الثقات عن الشمبانزى — لم يتردد قط فى توكيد « إنسانية » شخصية واستجابات الشمبانزى .

والقردة العليا الأخرى تدعم هذا التحليل . ولكننا لا نكاد نعرف شيئاً عن سلوك الهبار ، كما أن معلوماتنا عن سلوك الغوريلا ناقصة جداً . فلو أنك ألقيت بنفسك بين بعض الشمبانزى البرية مثلا ، فإنها سوف تفر

هاربة فى الحال وبذلك ينتهى عملك لذلك اليوم . أما إذا ألفيت بنفسك بين جماعة من الغوريلا فمن المحتمل جداً أن تلقى إحداها بنفسها عليك ، وبذلك ينتهى عمل حياتك كلها . ومع ذلك فقد تمكن بعض البحاث المدربين على الملاحظة من تتبع الغوريلا بحذر وحكمة خلال الأدغال ، ومع ذلك جاءت النتيجة ضحلة ضئيلة ، لأن الغوريلا — كالشمبانزى — تتحرك بسرعة وتقطع مسافات طويلة ، وإذا سمحت لها بأن تحيد قليلا عن نظرك فأغلب الظن أنك لن تراها بعد ذلك على الإطلاق . ومن المؤكد أن الغوريلا تعيش فى جماعات بعضها كبير . والظاهر أن تلك الجماعات لا تقف إحداها موقف العداء من الأخرى، كما أن الذكور البالغة يسودها السلام والتعاون . وقد شوهد بعضها ذات مرة وقد انهمك فى تبادل النباح بنشاط وفى الضرب على صدورها وهى تتشاور فيما يمكن عمله بالعلماء الذين كانوا يزورونها فى ذلك الوقت ، مما قد يوحى بوجود زعامة مشتركة كتلك التى نجدها عند القردة العاوية ، وليس مجرد تلك السيطرة الآلية التى توجد عند بعض السعادين . وإلى وقت قريب كانت تربية الغوريلا السجينة تعتبر عملا شاقا لدرجة أنه لم يمكن الحصول من ذلك المصدر إلا على قليل جداً من المعلومات المتعلقة بسلوكها المتبادل . ومع ذلك فليس ثمة شك فى أنها تشبه الشمبانزى (وتشبهنا نحن أيضاً) شبهاً جوهرياً . والفارق الوحيد هو أن الغوريلا تعانى كثيراً من الكبت على العموم، بينما لا يعانى الشمبانزى العادى أى كبت على الإطلاق .

ولكن ما معنى هذا كله بالنسبة لنا ؟ إن المعنى يكمن فى فهم طبيعة المجتمع عند الرئيسات العليا . فهى كلها حيوانات تحتاج إلى أن تعيش فى جماعة . فالشمبانزى الوحيد — كما يقول كوهلر Köhler — ليس شمبانزى حقيقياً على الإطلاق . فهو أقرب إلى المسجون سجناً انفرادياً . كذلك تتمتع تلك الرئيسات العليا بقدرتها الفائقة على تكوين الجماعات وعلى تهذيب وتعديل سلوك إحداها بالنسبة للأخرى بوساطة عملية تعلم حقيقية ، ولكنها تربط

وتمزج بالتدريج شخصيات الأفراد التى تؤلف تلك الجماعة المعينة لكى تخلق منها كلا محكم النسج . والظاهر أن السيطرة تبسط الأشياء. وقد تزيد من قدرة وكفاءة الجماعة مثلما يفعل النظام فى الجيش . ولكن مهما يكن من شىء ، فإن مثل هذا النسج السيكولوجى يعطينا مجتمعاً بمعنى الكلمة ، وليس مجرد مجموعة من أفراد الحيوانات .

ويختلف هذا المجتمع بالطبع كل الاختلاف عما يسمى بمجتمعات الحشرات التى تكون أفعالها غرزية بحتة وجزءاً من تركيبها نفسه كالرأس أو الساقين تماماً ، كما أنه لا يوجد أى اختلاف أو تكيف بين أفرادها . ومع أن العلاقات الاجتماعية ، وكذلك بعض الظاهرات المعينة مثل ظاهرة السيطرة ، تشيع بكثرة لدى الحيوانات العليا إلا أنها توجد خارج الرئيسات فى صورة مبدئية أولية ، وذلك لأن الرئيسات أكثر استعداداً بطبيعتها لاستخدامها . فالرئيسات العليا من ناحية تتناسل طيلة العام ، ولذا فإن حماية الصغار تمثل مشكلة دائمة بالنسبة لها ، كما أنها تمتاز — من الناحية الأخرى — بكبر حجم أمخاخها وبالذكاء . ولقد اعتدنا أن ننظر إلى المخ والذكاء كأداتين لإجراء العمليات الحسابية فى الرأس وممارسة المنطق . وإنهما لكذلك فى الحقيقة ، ولكن هـــذه نظرة ضيقة للغاية . إنما المخ الكبير يعنى فى المحل الأول وجود تنظيم عصبى دقيق ومتطور ، كما أن الذكاء المرتفع يعنى قبل كل شىء — فى نظرى — القدرة على التصرف بنجاح وعلى نطاق واسع جداً وعلى ذلك فالذكاء المرتفع يشمل تلك الناحية التى تمتاز بها الرئيسات ، وهى القدرة على إجراء عمليات التكيف المعقدة بين أفراد الحيوانات وضم تلك الحيوانات ذاتها فى شكل مجتمع . والسعادين والشقشقة تفعل ذلك ، ولكن أنماطها الاجتماعية جامدة بعض الشىء ، كما أن السيطرة تلعب دوراً ملحوظاً فى كثير من الأنواع . أما الشمبانزى فيبدو أنها تكشف — كما ذكرت من قبل — عن درجة أكبر من المرونة فيما يتعلق بوضع الفرد وعلاقاته بغيره ، وإن كانت تحتفظ مع ذلك بقدر هائل من الترابط والتماسك داخل

الزمرة الاجتماعية . وأعتقد أن هذا يرجع إلى تمتعها بدرجة عالية جداً من الذكاء . وقد كان هذا إذن هو نوع المجتمع والاتجاه الذى يسلكه فى تطوره لكى يصل إلى المجتمع البشرى .

ولن نستطيع أن نفهم العلاقات الإنسانية حق الفهم إلا إذا أدركنا أن نظمنا الاجتماعية الأساسية تقوم على مجموعة قوية من الميول الطبيعية — التى تكونت خلال تطورنا « البيولوجى » — لأن نتصرف بالشكل الذى نتصرف به فعلا . وقد بينت لنا الرئيسات الأخرى نوع تلك الميول : حاجة الفرد إلى أن يعيش فى مجتمع وأن يقيم علاقات محددة ومعقدة ولكن دائمة ومؤكدة مع غيره من الأفراد . أما التنظيم الذى عملنا نحن — من حيث كوننا كائنات بشرية — على تطويره بالتدريج فلم يجبرنا على الاندماج معاً فى جماعات ، كما أنه لم يعين لنا مستوياتنا الاجتماعية المختلفة وإن كان قد نظم ووجه نوع الحياة الذى كنا سنسلكه على أية حال وجعله أكثر فائدة وجدوى . فالإنسان — كغيره من الرئيسات — حيوان اجتماعى ويعيش فى مجتمع بحكم طبيعته .

٣
الثقافة : كيف نسلك

يتضح مما سبق أن الإنسان قريب كل القرب فى طبيعته الفيزيقية والاجتماعية من الرئيسات . ولولا بعض الأشياء الأخرى التى فعلها والتى تميزه عن بقية أقاربه لانتهى هذا الكتاب هنا ، ولكنه يفعل ذلك : فكل فعل تقريباً يصدر عنه أثناء اليوم بطوله هو شىء تعجز القردة العليا — وهى أذكى الحيوانات الأخرى — عن القيام به ، ذلك لأن الإنسان مخلوق له ثقافة .

ولست أبغى من ذلك مجرد الترفع والتباهى ، على أمل أن الغوريلا لن تكتشف ما أقول . كذلك لست أحاول أن أزعم أن تربيتنا أفضل ، أو أننا نقدر الفنون الجميلة أكثر منها ، لأن الثقافة بالمعنى الصحيح شىء أوسع من هذا بكثير ، ولأن الناس جميعاً يعيشون بها ، حتى وإن اختلفت حظوظهم منها . فالثقافة تتألف ، بكل بساطة ، من كل المخترعات والعادات والتقاليد التى أوجدتها الإنسانية منذ القدم . إنها كل ما يساعد على تحقيق الإنسانية .

ولولا الثقافة لكنا مجرد نوع آخر من أنواع الحيوان ، أى نوع من القردة العليا ، تعيش كبقية الأنواع فى جماعات صغيرة لها كل خصائص المجتمعات ، ولكنها مجتمعات بدون ثقافة . فكل زمر أو مجتمعات الشمبانزى تتصرف بأسلوب واحد، سواء فى طريقة الأكل أو النوم فوق الشجر أو التجول ، بل وفى علاقاتها الاجتماعية الصاخبة . وهذه كلها أمور مميزة للشمبانزى ، حددتها لها طبيعتها وقدراتها العامة . أما حالة الإنسان فتختلف عن ذلك . فكل مجتمع بشرى له رصيد إضافى من السلوك يغطى ويخفى تلك الخصائص الأولى ويعدل منها . وهـــذا الرصيد الإضافى هو ما نسميه بالثقافة . وزيادة على ذلك ، فإن هذه الطبقة العلوية لا تتشابه

أبداً فى أى مجتمعين متمايزين لأنها ليست فطرية كما أنها لا تصبح أبداً جزءاً من التكوين نفسه ، أى إنها ليست فى ذاتها خاصية بيولوچية . صحيح أنها « تورث » — وهذه نقطة هامة — ولكن كما تورث الأملاك لا كما تورث العيون الزرق . فالثقافة إذن هى كل تلك الأشياء التى لا تورث بيولوچيا .

وبدلا من ذلك ، تتألف الثقافة من كل الأشياء التى قبلها الإنسان كطريقة للعمل أو التفكير ، وبالتالى كل ما يعلمه الإنسان لغيره من الناس . وذلك لأن هذه هى الوسيلة التى تنتقل بها الثقافة ، كما أنها ـ وهذه مسألة حيوية ـ هى الطريقة التى تتغير بها وتنمو وتتطور . الثقافة هى المعرفة برمتها وكذلك تنظيم السلوك ، والاثنان من خصائص الإنسان . وهى تعلم وتتعلم ما دامت غير فطرية . وقد يتم التعليم والتعلم بطريقة مباشرة ، تماما كما هى الحال فى تعليم الحساب فى المدرسة . ولكنها قد تتم بطريقة خفية غير ملحوظة كما هى الحال فى اكتساب بعض الاتجاهات والمواقف من الوالدين والأصدقاء بطريقة لا شعورية وغير متعمدة . ولكن هـــذا لا يهم . فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى له القدرة على أن يعلم ويتعلم كل ذلك القدر الهائل من الألفاظ التقليدية . فالحيوانات تستجيب — كما يعرف علماء النفس — للمؤثرات طبقاً لطبيعتها وحاجاتها ، وكذلك تبعاً لخبرتها أو تعلمها الشرطى (مثال ذلك كلاب بافلوف الشهيرة التى كان يسيل لعابها كلما دق جرس العشاء مثلما يسيل وقت العشاء تماما) . كذلك حالنا نحن أيضاً . ولكننا وحدنا نملك ذلك الحاجز الإضافى الذى نشارك فيه اجتماعياً والذى يقف بيننا وبين أفعالنا . ولما كنا نحن وحدنا نستطيع أن نعلم الثقافة ونتعلمها ، فإننا أيضاً الوحيدون بالطبع الذين نستطيع اختراع الثقافة أو خلقها بالفعل . وأياً ما يكن من بساطة الثقافة حين ظهرت لأول مرة ، فإن مجرد ظهورها يعنى أنه لن تكون هناك نهاية لتعقيدها .

ولنضرب بعض الأمثلة البسيطة المستمدة من إحدى الثقافات البشرية

البالغة البساطة . إن عصا الحفر التي من نوع معين مثلا والتي تستخدم في اقتلاع الخضراوات البرية من الأرض بقصد أكلها هي ثقافة . كذلك الحال بالنسبة لارتداء جلود الحيوانات طلباً للدفء ، وبالنسبة لفكرة تعيين زعيم حربي للجماعة ، أو فكرة الزواج . وقد نجد عند القردة العليا ما يجعلنا نذهب إلى أنها تملك مثل هذه الأشياء أو تستخدمها . فهي تستخدم العصا مثلا في الحال، وهي في القفص إذا نحن زودناها بالعصي وأعطيناها شيئاً مثيراً لكي تستخدم العصا من أجله . ولعلكم تكونون شاهدتم سعلاة orang- في حديقة الحيوان وهي تحاول أن تستخدم في بهجة وسرور غرارة من الخيش الخشن كغطاء لها . ونحن نعلم أن كثيراً من الرئيسات تعرف الإذعان والخضوع لأحد الحيوانات المسيطرة وتتلقى أوامرها منه ، كما أن الشقة تعرف نظام المعاشرة الدائمة الذي يقوم بين فردين اثنين فقط . ومع ذلك فهناك فارق وهو أن مجتمعات الشقة المختلفة ليست لها حرية الاختيار . فنوع المعاشرة السائد فيها لا يتغير أبداً ، إذ تحكمه العوامل البيولوجية الخالصة وليست البيولوجية مضافا إليها الأوضاع التقليدية ، أي إنه موجود في طبيعتها ذاتها . وهذا هو السبب في أنه لا يمكن مقارنة المونوجامية عندها بالمونوجامية عند الإنسان ، أو اعتبار المعاشرة عندها زواجاً . وهذا نفسه يصدق على مسألة السيطرة والزعامة عندها . أما فيما يتعلق بالعصا فإن الشمبانزي يستطيع استخدامها بطرق خاصه به ؛ بل إنه قد يبتكرها بنفسه ، والواقع أنه كثيرا ما تكتسح مستعمرات الشمبانزي السجينة نزوات عارمة تستخدم فيها العصا لإيقاع الأذى والشر بغيرها . ولكن هـــذا يحدث في الحقيقة بطريق المصادفة والعرض ، أي إنه لا يخلق عمداً ولا يحتفظ به ولا يورث ، بل ولا يمكن فهمه كأساس رتيب منتظم في حياة الشمبانزي .

أما الإنسان فإنه يستعمل هذه الأشياء ، ليس كمادة فحسب ، بل وأيضاً

كأفكار . فعصا الحفر ليست مجرد عصا قد يصادفها حوله ، وإنما هي عصا « للحفر » تستخدم في اقتلاع « الخضراوات » من الأرض . صحيح أنه قد يرحب باستخدامها أحياناً في تأديب زوجته ، ولكنه حين يفعل ذلك يدرك أنه يضربها « بعصا الحفر » . وزيادة على ذلك فإن الشيء المهم ليس هو العصا ذاتها بقدر ما هو نمط العصا ، وهو نمط للسلوك . فالزمرة الاجتماعية هي التي تملكها ، وقد نعرف شخصاً معيناً يستخدم عصا الحفر للحصول على الخضراوات كما نعرف أفضل انواعها . وهذا النمط المعروف الذي ينتج عنه عصا الحفر هو العنصر الثقافي الفعلي . والشيء نفسه يمكن قوله عن الملابس المصنوعة من الجلد ، وعن الزعيم الحربي ، وعن شكل الزواج . وللإنسان القدرة على حفظ هذه الأفكار وتغييرها والإضافة إليها . وعلى ذلك فليس من الإسفاف أن نقول إن الفارق بين قصر بكنجهام وأحد الكهوف الذى يعرف سكانه إشعال النار إلى جانب المدخل أقل – بشكل ما – من الفارق بين ذلك الكهف وكهف آخر لا يستطيع سكانه إشعال النار .

المخ واستمراره

ولكن كيف يتسنى للإنسان أن يمارس الثقافة فى الوقت الذى تعجز فيه القردة عن ذلك ؟ هذا راجع بغير شك إلى تفوقه فى قوة المخ فأمخاخنا تكبر عن أمخاخ القردة العليا بثلاث مرات تقريبا ، وهو اختلاف هائل . صحيح أن لنا جميعا نفس النمط العام من الدماغ – أو الطبقة الخارجية التى تشرف على الحواس وتتحكم فى العضلات والعمليات العليا . فالبصر والسمع والأكلة التى تحدث فى فروة الرأس و (فرقعة) أصابع القدم ، كل منها له جزء خاص به فى المخ . وحول هذه الأجزاء الخاصة توجد مناطق أخرى لها وظائف أوسع ، إذ تختزن فيها الأشياء التى سبق رؤيتها أوسماعها ، أو تحفظ فيها الأنماط الخاصة بفعل من الأفعال مثل فرقعة الأصابع . وفى بعض أجزاء هذه المناطق الخاصة بالتداعيات – وهى أجزاء تمارس وظائف

أعم من كل ما رأينا — يتم تكوين علاقات أوسع بين تلك الأشياء المحددة المختلفة . فالمسألة أشبه إلى حد ما بالانتقال من « حجرة المراسلات » — التى تظل مشغولة طيلة ساعات العمل بتصريف ما يرد إليها وما يصدر عنها من رسائل — إلى مكاتب الإدارة ومنها إلى معمل البحوث الأكثر هدوءاً والذى يستطيع أن يشرف على مصادر العمل ليخرج بأفكار ووسائل جديدة لتنفيذ العمليات . وتمتاز مناطق التداعى فى الرئيسات العليا باتساعها وفى هذه الأجزاء من المخ حدث أصلا كل التوسع الإنسانى الرائع .

ومن المؤسف أن نقول إن دراسة هـــذا النوع من المسائل من أشق الأمور وإننا لا نعرف للآن إلا قليلا جداً عن المخ وعملياته فى وقت العمل أو أثناء اللعب . بيد أن الشمبانزى تعطينا — فى عملها ولعبها — فكرة واضحة عن الناتج الأخير وعن عناصر الذكاء التى تكمن وراء قدرة الإنسان على الثقافة . فالشمبانزى — بخاصة — تكشف لنا عن المواضع التى تتخلف القردة فيها عنا وتلك التى نتفوق نحن فيها عليها . ولذا كان يجب علينا — كما يقول يركيس — أن نحمد للشمبانزى وجودها ، وخاصة أنها صالحة للتجارب المعملية بل وتتحمس لها بوجه عام ، كما أنها تشبهنا إلى كل هذا الحد . فنحن نعلم أنها تسمع نفس الأصوات تقريبا ، وترى بنفس الطريقة كما تتمتع بقدرة كاملة على رؤية الألوان وعلى الرؤية المجسمة . وهى تشبهنا أيضا فى ضعف حاسة الشم وفى قدرتها على الإمساك باليدين . ففى القردة العليا وحدها نستطيع أن نجد نوعا من الإنسانية تقرب منا كل القرب وذلك لاعتمادها على أمخاخها الصغيرة الحجم .

ولا نكاد نجد ما هو أكثر إمتاعا من قراءة ما كتب عن أفعال الشمبانزى . ويستوى فى ذلك القصص التى تدور حول الشمبانزى التى تعيش فى البيت وبطاقات التقارير الخاصة بالاختبارات الدقيقة التى تجرى عليها . ولكننى أترك — آسفا — هذه الأمور لتعالجها الكتب الأخرى ،

وأكتفى هنا بذكر بعض الملاحظات عن النتائج . فالشمبانزى من أمهر القردة على التقليد والمحاكاة ، فهى تقلد بعضها بعضاً كما تقلد الإنسان . ويرجع ذلك إلى قدرتها على ملاحظة أنماط كاملة من الأفعال وتقليدها بكل سهولة وبهذه الطريقة تستطيع أن تتعلم عاداتنا الدنيا كالتدخين والبصق . ولقد شاهد كوهلر أحد تلك القردة الإنسانية التى تعانى من تلك الدوافع التى تكلم عنها مارك توين Mark Twain فى قصته توم سوير Tom Sawyer (١) . فقد كان الشمبانزى يراقب باهتمام بالغ أحد العمال وهو يقوم بدهان جدران حظيرة ، وحين انصرف الرجل لبعض الوقت تاركا إناء الطلاء نهض القرد فى الحال وقام بطلاء صخرة كبيرة فى الساحة . والمهم فى الأمر أنه أتم عمله بدرجة عالية من الإتقان .

ومن هنا كان من المستطاع تدريب الشمبانزى على كل الأشياء ، وبخاصة تلك التى تكون مهيأة لها بحكم طبيعتها ما دامت تلك الأشياء تثير اهتمامها أو أمكن إغراؤها هى ذاتها ورشوتها للقيام بها . ولقد خطر لكوهلر أن يكل إليها أمر الإشراف بنفسها على شئون مساكنها فأطلق أحدها ليجمع قشر الموز من الساحة آخر النهار . وحمل الشمبانزى السلة وأخذ يقوم بهذه المهمة فى المرة الأولى كأى بواب مجد نشيط . وفى اليوم التالى بدأ يشعر أن ذلك أشبه شىء بالعمل ، وبعد أربعة أو خمسة أيام لم يكن فى الإمكان إقناعه بأن يجمع قشر الموز ، سواء بطريق الحيلة أو التهديد أو حتى بالعنف . وللشمبانزى قدرة فائقة على التذكر وعلى التعرف إلى الناس وإلى القردة الأخرى بعد مرور فترات طويلة ، كما أنها تتذكر حلول الألغاز بدون صعوبة ولذا يرى يركيس أنه لا يجب اعتبارها عاجزة تماما عن الثقافة . فقد لاحظ أنه حين أنشئت مستعمرة القرود فى أورانج بارك Orange Park بفلوريدا (وتعرف الآن باسم معامل يركيس) دربت القردة الأولى على طريقة

---

(١) بتصرف . « المترجم » .

استعمال نافورات الشرب . ولكن لم تلبث القردة أن قلد بعضها بعضاً على مر السنين بحيث لم تعد ثمة ضرورة لتعليم وتدريب الأجيال التالية .

ولكن هذا كله يبين فقط ما يمكن للشمبانزى أن تفعله بفطرتها وتجيد فعله، أى الأشياء التى تتفوق فيها على غيرها من الثدييات التى تجيدهى أيضاً أداء هذه الأفعال بيد أنه لا يكشف لنا عن تلك الحيوانات فى أوج وأعلى قدراتها العقلية، كما أنه لا يبين عيوبها ونقائصها . والواقع أن هذا هو ما ترمى إلى اختباره المشكلات الدقيقة العويصة . فمن المعروف أن الطريقة النموذجية لتعلم الحيوان هى طريقة المحاولة والخطأ : فالفأر حين يوضع فى متاهة يحاول أن يخرج منها ، ويكرر تلك المحاولات . وفى أثناء ذلك تتقوى بالتدريج حركاته الصحيحة بفضل ما يصادفها من نجاح ، بينما تقل خطواته وحركاته غير الموفقة ، نتيجة لما يصادفها من فشل وإخفاق، وبذلك تزداد حركاته الموفقة زيادة كبيرة إلى أن ينتهى الأمر به إلى عدم الوقوع فى أية أخطاء . وهذا نوع بسيط من التعلم وحل المشكلات وهو — من الناحية العملية — نوع من التفكير باستخدام العضلات أو باستخدام جزء من المخ الذى يتحكم فى العضلات . وهو فى ذلك يكون أشبه بالتفكير — أو عدم التفكير — الذى نستخدمه نحن للوصول إلى بيوتنا من محطة الأتوبيس بعد أن نكون فعلنا الشيء نفسه عشر سنوات .

ولندرس الآن إحدى المشكلات . وهى مشكلة قديمة ولكنها تصلح هنا ، وقد وضعت للشمبانزى عدة مرات . وكان الطعم الذى وضع له هو إصبع موز يعلق بعيداً عن متناول القرد بحيث لا يستطيع الوصول إليه إلا إذا أحضر صندوقين — يقدمان له — ووضع أحدهما فوق الآخر ثم صعد فوقهما . أما طريقة المحاولة والخطأ فلن تحل المشكلة ، اللهم إلا إذا تدخلت الزلازل فى الأمر ، لأن الوسيلة الوحيدة فى ذلك ستكون هى القفز نحو الطعم، وتكرار ذلك حتى يضطر فى النهاية إلى الكف عن المحاولة

نتيجة للإرهاق أو اليأس. وهذا هو كل ما يمكن للكلب مثلا أن يفعله بل إنه هو كل ما سوف يفعله. كذلك تعتبر هذه المشكلة صعبة بالنسبة للشمبانزى ولكن معظمها يستطيع حلها. ويرى كثير من العلماء أن حلها دليل على تقدم العمليات العقلية من مجرد المحاولة والخطأ إلى الاستبصار مما يعنى محاولة تعديل المنشطات الممكنة بحيث تلائم الموقف فى المخيلة وليس فى الواقع، كما تعنى بلا شك استخدام أجزاء من المخ تكون أقل اتصالا بالنشاط العضلى البحت.

ولنر الآن كيف يحاول الشمبانزى أن يصل إلى حل مثالى لهذا الموقف المشكل. إنه قد يقوم ببعض قفزات قليلة لتقدير المسافة ولكنه سوف يلاحظ بسرعة أنها لن تثمر ولن توصله إلى الموزة. وهذا ذاته، وليس مجرد الإخفاق أو الفشل العضلى البحت، هو الذى سيجعله يكف عن القفز بل إنه قد لا يقفز على الإطلاق. وقد يتبع ذلك ما يدل على أنه يركز انتباهه بصفة مستمرة على الموزة. وقد تمر فترة طويلة قبل أن يحاول القيام بعمل آخر. وعلى أية حال فلا بد أن تأتى اللحظة حينما توحى إليه خبرته السابقة بالصناديق باستخدام أحد الصندوقين. وإقدام القرد على تنفيذ ذلك مباشرة يكشف عن أن الحل كان عقلياً حقاً، أى أن أفعال القرد ليست عشوائية وإنما تصدر عن الفطنة والإدراك. وحين يكتشف القرد أن ارتفاع الصندوق لا يزال دون المطلوب يتملكه الغضب والحنق فى الحال مما يدل دلالة واضحة إيجابية على أن الحل كان يوجد برمته فى رأسه بقصد النجاح أما التجاوز إلى استخدام الصندوق الآخر فإنه مجرد تكرار لما حدث من قبل ويتبع نفس الخطوات ولكن خطواته تكون فى هذه المرة أكثر ثباتاً وتحديداً.

التجريدات والرموز

وهذا مثال صحيح لما يمكن للقرد أن يفعله فى كثير من الاختبارات

التى لا تستطيع الحيوانات الأخرى — باستثناء السعادين — مواجهتها بحال . فعيون الشمبانزى « ترى » الموقف كله مثلما تراه عيون الكلب (وإن يكن بدرجة أكمل من ناحية اللون والعمق وهى مسألة هامة بكل تأكيد) . ولكن الشمبانزى نفسه يفهم منه أكثر مما يفهم الكلب لأن مخه قادر على استخدام عدد أكبر من الأشياء بالنسبة للموقف . ويجدر بنا أن نلاحظ أنه لا يستجيب مباشرة لما يراه بالقفز المتكرر مثلما تفعل الثدييات فى العادة كما أنه لا يستجيب نتيجة لخبرته وتدريبه كأن يدق الجرس لأنه حين يفعل ذلك يكافأ بتقديم الطعام له وإنما هو يستخدم أيضاً — ولكن بدرجات مختلفة من الشعور — بعض العناصر المجردة التى يحتويها الموقف مثل المسافة التى تفصله عن الموزة والتى لا يمكن أن يقفزها بالفعل وقابلية الصندوق للنقل وملء تلك المسافة الفاصلة . ثم هو فى الوقت نفسه يشعر بذاته — إن صح هذا القول — بحيث يتخيل نفسه قادراً على الوصول إلى السقف فى الوقت الذى يخفق فيه فى الوصول إلى الموزة على عكس ما كان يتوقع حين استخدم الصندوق الأول .

فالقردة تستطيع إذن عمل التجريدات واستخدامها إلى درجة كبيرة . وقد تظهر هذه القدرة بشكل أوضح فى أنواع أخرى من الاختبارات كما هى الحال مثلا فى إدراك الشمبانزى مبدأ اختبار الصندوق الأوسط أو الباب الأيمن بغض النظر عن عدد الصناديق أو الأبواب الموجودة بالفعل . كذلك يبدو أنها أكثر تفوقا فى التعرف على الأشياء التى تبدو خالية من المعنى بالنسبة للقطة أو الكلب .

ولكن من الواضح أن عملية التجريد عند القردة تخضع للقيود والضوابط . فمهارتها الواضحة الجلية ترجع إلى حد كبير إلى قدرتها الفائقة على التعلم والتذكر عن طريق الحواس وهى عملية عقلية مألوفة لدى الثدييات ولنضرب مثلا المشكلة التالية : أتيح لقرد أن يرى الطعام يوضع فى صندوق

معين ضمن مجموعة صناديق مختلفة ثم نقل بعد ذلك إلى حجرة أخرى وتكرر نفس الشيء أمامه عدة مرات فى عدد من الحجرات . وبعد فترة من الزمن أطلق سراح القرد لكى يبحث عن الطعام . وهذا الاختبار يبين مدى قوة الذاكرة عند الشمبانزى ولكنه يبين أيضاً أن القرد سوف يعتمد ما أمكنه ذلك على مكان الصندوق المطلوب بدلا من أن يعتمد على أية صفة من صفاته الأخرى وهذا يربطه ببقية الحيوانات التى تستجيب بالطريقة نفسها (هذا طبعاً على فرض أنها تعمل من الذاكرة ولا تعتمد على رائحة الطعام نفسه) فهو ينجح باستخدام بصره وذاكرته ولكن ما يفعله بهما يشبه فى الحقيقة إلى حد كبير ما تفعله الكلاب البوليسية بالرائحة . فلو فرضنا أن مواضع الصناديق غُيرت بعد أن يكون رآها ، فمن المحتمل جداً أن يجرب الصندوق الذى يجده مكان الصندوق الأصلى بينما ندرك نحن فى الحال أنه حدثت تغييرات فى موضع الصندوق المستدير المغطى بالورق الأحمر اللامع مثلا وموضع الصندوق المربع المغطى بالقماش الأخضر . فواضح إذن أننا نتذكر اللون وكذلك بعض الخصائص الأخرى المجردة التى تتعلق بشكل الصندوق والمادة المصنوع منها ، ولذا فنحن نستطيع أن نتعلم بسرعة كيف نحل مثل هذه الاختبارات إن كان الحل يتضمن أى صندوق لامع أو أى صندوق دائرى . والشمبانزى تستطيع ذلك أيضاً ولكنها تبدى إزاءه درجة أكبر من المقاومة ومن التبرم ، إذا قارنا ذلك بقدرتها على استخدام العلامات والإشارات الملتصقة بالمكان .

فالقردة تستطيع إذن أن تستخدم التجريدات وبخاصة إذا كانت مرتبطة بالمشكلات العيانية ارتباطا قويا ، أما تجميع التجريدات واستخدامها بمهارة وبراعة — أى التفكير المجرد — فهو عمل أكثر صعوبة ، وفيه يمتاز الإنسان على كل ما عداه . فنحن نستطيع أن نتحكم فى أفكارنا أو تجريداتنا بأن نستخدم رموزاً تمثلها وبخاصة الكلمات . فنحن مهيأون لاستخدام مثل هذه

الرموز بعكس القردة التى تعتبر عاجزة جداً رغم ما يبدو من تفوقها على الحيوانات الأخرى . فبدون وجود شىء يمثل الفكرة — أو التجريد — ويرمز لها يكون من الصعب نشرها وتطبيقها فى مجال آخر كما يكون من المستحيل بالطبع نقلها إلى الغير .

مثال ذلك أن الشمبانزى يمكن تدريبه على معرفة الألوان والاستعانة بها فى حل المشاكل كما يظهر من الحالة التالية . ضع أمام الشمبانزى رقعة ملونة باللون الأحمر أو الأخضر ، بحيث يصاحب ظهور الرقعة الحمراء الضغط على زر معين وظهور الرقعة الخضراء الضغط على زر آخر . وسيكون من السهل عليه أن يعرف الفرق بين اللونين إذا تمكن من اعتبارهما بمثابة علامات أو إشارات مباشرة . فإذا تركناه بعد ذلك فترة قصيرة من الزمن ثم وضعنا أمامه شيئاً أحمر فسوف يعرف ذلك اللون بمجرد أن يراه . وهذا معناه أنه تكونت عنده بشكل من الأشكال فكرة عن اللون يطبقها على الأشياء الأخرى التى ليست لها علاقة باللون فى ذاته ، أى أنه يستطيع أن يتذكر اللون كحقيقة فحسب[1] . وهذه عملية سهلة بالنسبة لنا . فنحن نستطيع أن نفكر فى « الأحمر » بطريقة شعورية أو لا شعورية ولكنها تعتبر مشكلة عويصة بالنسبة للشمبانزى . ومن الواضح أن استخدام الرموز على الإطلاق مسألة لا تكاد تكون فى وسعه ، أما فيما عدا ذلك فإن قدرته تقف عند حد الرموز المتصلة بالوضع أو المكان ، وهو أمر تقدر عليه الحيوانات الأخرى .

ونستطيع أن نقول بكل صراحة إنه لا بد من أن تظل هذه المسائل غامضة وغير واضحة فى الوقت الحاضر ، إذ لم يكد أشد علماء النفس خبرة ودراية أن يتعدوا الأطراف الخارجية لمجاهل المخ والطريقة التى يعمل بها . ومع ذلك فلا بد لنا من أن نحاول وصف قدرة الإنسان على استخدام

---

(١) ترجمت بتصرف لإزالة بعض الغموض فى عبارة المؤلف — المترجم .

الثقافة . فمن الواضح أننا نصوغ الرموز ونستخدمها بسهولة ويسر ، وأن هناك ما يدل على أن القردة تفعل ذلك بالكاد ، وأن ما يميزنا عليها هو كبر حجم المخ عندنا بدرجة كبيرة . ومن الواضح أيضا أن هـذه الأمور أعنى التجريدات والرموز التى نشير إليها — توجد فى المنطقة التى تفصل بين الأحداث الى تقع لنا ورد الفعل الذى يصدر عنا إزاء هذه الأحداث. وبذلك فإن هذه التجريدات والرموز توجه سلوكنا وتساعد على جعله سلوكا « إنسانيا » أو غير حيوانى . وإلى قدرتنا فى هذه المسائل يرجع كل الفضل فى تمكننا من تكوين أنماط السلوك التى تؤلف الثقافة ثم تمسكنا بتلك الأنماط وخضوعنا لها . وأخيراً فإن الثقافة ذاتها لم تكن لتوجد على ما هى عليه — أى يقتصر وجودها على جماعة حيوانية متماسكة بحيث تؤثر فيها ككل ويتمسك بها أفرادها جيلا بعد جيل — لو لم نكن نحن أنفسنا حيوانات اجتماعية .

فمن الجلى إذن أننا نستمد صفتنا الإنسانية من مصادر وأصول حيوانية طبيعية . إذ لولا اليدان والعينان التى أخذناها من الرئيسات العليا لما قدر لنا أن نوجد ، ولولا أننا كنا أحد الرئيسات الاجتماعية لما كانت لنا ثقافة . بل إن هذه الثقافة لم تكن لتظهر لولا محاولتنا لتكبير حجم مخ الآدميات — رغم كبر حجمه فى الأصل — أو بقول آخر لولا أننا أصبحنا قادرين على استخدام التجريدات والرموز وحملها إلى أبعد من النقطة التى تقف الشمبانزى عندها فى ذلك . لقد جئنا إلى الوجود بفضل هذه الأشياء خلال عملية تطور مباشر انحدرنا أثناءها فى خط واحد مستمر من أسلافنا الرئيسات البسيطة . ولكن تفاعل هذه الأشياء فينا هو الذى يعطينا الثقافة وهى شىء جديد فى طبيعته .

الثقافة خاصية إنسانية

وقد تم ذلك بالتدريج ولم يحدث فجأة . فالثقافة لها بداية . وهناك ثغرة

واسعة جداً تفصلنا نحن – كما تفصل أى شخص حى – عن القردة الموجودة حالياً بحيث لا نجد أمامنا سوى الافتراضات عن الخطوات التى مررنا بها . ونحن نعرف من جماجم البشر الذين عاشوا فى ذلك الماضى البعيد أنهم كانوا أشد منا بدائية كما كانت ثقافاتهم أكثر تأخراً ولكننا لا نخرج من هذا بالشىء الكثير لأننا لا نستطيع إخضاعهم للاختبارات مثلما نفعل بالقردة لنرى مدى قدرتهم الحقيقية على الثقافة .

ولقد كانت الثقافة تنمو وتتطور باستمرار . ومنذ البداية الأولى استخدم الإنسان الثقافة لحل مشكلاته وتيسير أمور الحياة وهـــذا أيضاً يؤكد طبيعتها الخاصة . فهى طريقة جديدة – وعقلية إلى حد كبير – للوقوف فى وجه البيئة . وإذن فهى تختلف اختلافاً جوهرياً عن الأسلوب القديم الذى كان يقضى بتغير صورة الجسم أو الإمكانيات الفطرية استجابة للانتخاب الطبيعى ، مما كان يربط الإنسان إلى الطبيعة برباط وثيق . فالثقافة وسيلة للتخلص من الطبيعة وإقامة طبقة وقائية بين الإنسان وبينها سواء اتخذت هذه الطبقة شكل أشياء حسية كالملابس والمنازل ، أو شكل اختراعات يقبلها الإنسان بطريقة لا شعورية كالعرف والعادات الاجتماعية والمعتقدات الدينية التى تجعل الحياة أكثر جدوى وسعادة . وربما كان طرف الإسفين يتمثل فى أشياء مثل استعمال الهراوات والنار واللغة . ولسنا نعرف على وجه التحديد شيئاً كثيراً عن دقائقها وتفاصيلها ، ولكن من المؤكد أن كل عناصر الثقافة كانت تتوافر فيها ، وأنها ساعدت على تحسين حال الإنسان عن طريق زيادة قوته مثلا (الأسلحة) أو توسيع مجال طعامه (الطهو) ، وما إلى ذلك .

ومن مثل هذه النقطة بالطبع بدأت الثقافة تنمو وتنتشر انتشاراً كبيراً حتى أصبحت بمثابة وسادة متضخمة تقوم بين الإنسان وبيئته . ولكن يجب أن ننتبه إلى ما يحدث الآن : كلما تضخمت الوسادة « أصبحت » هى ذاتها

تؤلف بيئة الإنسان . ويجب ألا ننظر إلى الثقافة على أنها رصيد من الأفكار البارعة التى نختار منها ما نشاء لنحقق به خيرنا ومصالحنا أو سعادتنا . بل الأمر على العكس من ذلك تماما . لقد اخترع الإنسان الثقافة ولكنها لم تلبث أن سيطرت عليه فى الحال واصبح ينفذ ما تمليه هى عليه سواء كان يعرفه أو لا يعرفه .

ولم يكن الناس يشعرون فى أى وقت شعوراً قوياً بما نسميه الثقافة . فقد بدأت الثقافة منذ عصور ما قبل التاريخ ويبدو أنها كانت موجودة دائماً وبذلك كانوا يأخذونها كتحصيل حاصل . والواقع أنها ظهرت ونمت من مجموع المخترعات والتوافقات التى أوجدها الناس أنفسهم ، كما أنها لم تكن لتسلك طريقاً واحداً بالذات فى أى مجتمعين مختلفين . ولذا فنحن لا نجد مجتمعين لهما نفس الثقافة ، كما أن كل مجتمع يعتقد أن ثقافته هى الطريق السوى الواضح للسلوك والتصرف . وليس هـذا مجرد نوع من التفضيل أو الإيثار وإنما هو يرجع إلى أن المجتمعات البشرية تقوم — على العكس من المجتمعات الحيوانية — على ثقافتها الخاصة وأنها لا تستطيع الاستمرار فى الوجود كمجتمعات إنسانية بدون تلك الثقافات الخاصة التى كانت تدعمها باستمرار .

ولكن لماذا يتعين على كل مجتمع أن تكون له ثقافته الخاصة ؟.. لأن المجتمع يتألف بالضرورة من عدد من الأفراد وكل فرد ينشأ سجين ثقافته وليس فى استطاعته أن يهرب منها . فلم يعد الإنسان يولد كمجرد حيوان اجتماعى كما يولد الشمبانزى ، بل إنه يولد فى عالم معقد لم يصنعه هو ، وبين فئة من الناس لم يخترهم لنفسه . فالثقافة إذن — من الناحية العملية — هى كل بيئة . إنها قد تتركه يتنفس حسبما يتراءى له ، ولكنها تتدخل حتى فى تعيين ماذا يأكل وكيف يأكل . إنه يصبح مخلوقاً « ذا ثقافة » بالضرورة ، وبالضرورة أيضاً تكون ثقافته هى ثقافة المجتمع الذى ينتمى إليه ، وليست ثقافة أى مجتمع آخر .

وأنا مقتنع بأن أحداً منكم لن يجرؤ على النزول إلى الشارع فى ملابس فلاح من الجر أو كاهن من التبت أو حتى فى ملابس أجداده . ولكن ما وجه الاعتراض على الظهور بتلك الملابس ؟ إنها قد تحقق نفس الدفء ونفس الراحة . ولكن لا بأس عليك . إنك كنت على صواب فى امتناعك من ارتدائها ، إذ ليس من الطبيعى أن ترتدى مثل تلك الملابس الآن . وهناك أسباب وجيهة لذلك . فالثقافة تحتوى من الأشياء على أكثر مما يمكن للفرد أن يعيد اختراعه أو يراجعه بطريقة مُرضية ، كما أنها تؤلف كلا واحداً متماسكا ؛ والفرد يحتاج إليها كلها وليس إلى أجزاء ونتف منها . وهو لا يستطيع أن يعيش خارجها بأية طريقة معروفة .

ولكن لقد بدأ الموضوع يتعقد ويصبح مجرداً . وهناك أشياء أخرى كثيرة يمكن أن تقال عن طبيعة وسير الثقافة الإنسانية ، ولكننى لن أزيد هنا شيئاً على ما قلت ، لأننى سوف أعالج تاريخ الثقافة فيما بعد . أما هنا فقد حاولت أن أبين العلاقات بين الثقافة والمجتمع ، وفوق كل شىء مكان كل منهما فى تطور الإنسان .

٤
اللغة : كيف نتكلم

هناك اختلاف آخر ملحوظ بين الإنسان والقردة العليا بل وكل الحيوانات الأخرى ، وهو أننا نتكلم على العكس منها ، أى أن عندنا لغة . ولو كان سيجفريد سمع الطيور تتكلم بعد أن تذوق نبات دم التنين لتخمر ذلك النبات ، لأن اللغة — بالمعنى الدقيق — ثقافة ، وبذلك فهى ليست فى مقدور البهائم .

ولكن هذا لا يعنى أنها لا تتصل أو تتفاهم . فالحيوانات تدرك بالفعل ما ينتاب غيرها من حالات الاهتياج أو الانفعالات أو تنقل الانتباه من موضوع لآخر وتتصرف تبعاً لذلك . والرئيسات — كما هى العادة — تفوق غيرها فى ذلك أيضاً . ويقول العارفون بحياة الشمبانزى إن من أروع ما يمكن رؤيته عندها هو طريقة فهم أحد المواقف ثم محاولة توضيحه لأفراد الجماعة بوساطة بعض الاتجاهات والأوضاع والإيماءات والتعابير الوجهية الخفيفة . وثمة ما يدل على أن هذه القدرة تساعدها — كزمر اجتماعية — مساعدة فعالة على التعاون فى بيئتها الطبيعيـة ، وهو مظهر آخر من مظاهر « ذكائها » العالى . ويخبرنا نيسن مثلا أن أحد القردة الشمبانزى اكتشف مكانه بينما كان بقية أفراد الجماعة مختفية بين أغصان الأشجار ، فإذا به يصعد بسرعة إلى حيث يوجد زملاؤه . ولم ير نيسن ما حدث هناك ، ولكن الجماعة كلها هبطت من الشجر ثم رحلت بسرعة من غير أن تحاول التحقق بنفسها من وجوده .

والواقع أن للقردة وسائل أكثر تحديداً للاتصال والتفاهم . فالأمهات مثلا تشير بإيماءة منها إلى صغارها فتصعد فوق الشجر حين تريد هى الذهاب إلى مكان آخر . ولكن الاتصال الصوتى يعتبر بغير شك إحدى الوسائل

الأساسية . فالقردة العادية لا تعوى فحسب بل إنها تصدر أصواتاً معينة لتبين أنها عثرت على طريق صالح للانتقال من شجرة لأخرى مثلا ، وتقرقر حين يثير خوفها شيء مريب ، وتزمجر حين يلجأ الصغار إلى العنف فى لعبها وهكذا وفى كل من هذه الحالات تستجيب القردة الأخرى بما يتفق تماماً مع الصوت وقد استطاع كاربنتر أن يميز أكثر من خمسة عشر صوتاً مختلفاً عند القردة العادية، يستخدم كل منها فى موقف معين بالذات . كما وجد عند الشقشقة عدداً أقل من ذلك بعض الشيء . أما الشمبانزى فعلى الرغم من شدة ميلها للضجة والضوضاء فإنه لا يبدو أن وسائل الاتصال والتفاهم عندها متطورة أو منظمة . ومن المحتمل أن يكون لها طرق أخرى للتعبير أقل ظهوراً وأكثر مرونة .

وقد تكون كل هذه النواحى فى الحيوان خليقة بالإعجاب كما قد تكون مفيدة للنوع فى ذاته ، ولكنها فى مجموعها تظل متميزة عن اللغة . فتلك الأصوات والإيماءات ليست كلمات وإنما هى مجرد علامات أو إشارات . إنها — ببساطة — لا تنقل المعلومات (التجريدات) وإنما هى بالأحرى تلائم موقفاً معيناً وتتطلب القيام بعمل معين بالذات له علاقة به .

ولنذكر مثلا آخر من الشمبانزى النشيطة المجتهدة ببن نقطة القطع . . تعلق بضع حبال فى صندوق توضع به بعض أصابع الموز كطعم بحيث يمكن الوصول إليها (أى جذبها نحو قضبان القفص) إذا قام قردان بشد حبلين مختلفين فى وقت واحد . ويهدف ذلك الاختبار إلى معرفة مدى قدرتهما على التعاون فى العمل . وقد احتاج الأمر إلى تعليم القردين طريقة شد الحبال ، ولكن بعد أن تمكنا من ذلك ، فإنهما أبديا كثيراً من المهارة فى ملاحظة أحدهما الآخر وفى تنظيم شد الحبلين فى وقت واحد . فإذا وضع الصندوق بعد ذلك أمام أحد القردين فقط فإنه يأخذ فى البحث عن قرد آخر يستطيع بقليل من الإشارات وحركات الوجه أن يدرك مهمة

الحبال وبذلك يستطيعان الحصول على الموزة بعد قليل من المحاولات البسيطة .

أما إذا استعان بقرد آخر ليست له دراية بالمشكلة ، فإنه لن يستطيع رغم كل ما يبديه من جهود ومن حركات وإشارات عنيفة هوجاء أن يوحى إليه بما يرغب فيه ، وإنما يقف الاثنان عاجزين تماماً ، وذلك لأن الإشارات والحركات تخلو تماماً من كل معنى رمزى ، كما أنها تتعلق فقط بطريق مباشر بشىء يدخل فى نطاق تجربة وخبرة أحد القردين دون الآخر . بل إنه لم يكن فى مقدور القرد الأول أن يعبر عن رغبته بحركات وإيماءات رمزية ناجحة . وليس من شك فى أن الرجل القديم — رغم تأخره الذهنى — كان يستطيع بسهولة إن وجد نفسه فى مثل هذا الموقف أن يسأل شخصاً آخر أن يجذب أحد الحبلين بينما يقوم هو بجذب الحبل الآخر .

ومن التسرع أن نسقط الشمبانزى من حسابنا اعتماداً على ذلك فحسب ، إذ الواقع أنه كلما زادت معرفتنا بها وضح لنا أنها تملك كثيراً جداً من شروط ومتطلبات الكلام ، كالقدرة على الإدراك وتركيب المتداعيات وإدراك حاجتها إلى الاتصال بغيرها وما إلى ذلك ؛ ولكنها فقط لا تنطق . فالقردة « فيكى » مثلا التى كان يربيها منذ ولادتها الدكتور كيث هايس Keith Hayes وزوجته فى أورانج پارك كانت تحب الخروج للنزهة فى السيارة . وكان من عادة الزوجين فى أول الأمر أن يحملا معهما فى تلك النزهات عدداً كبيراً من نوع خاص من المناشف وا كتسبت القردة هذه العادة بسرعة لدرجة أنها كانت تسارع بإحضار عدد منها وتعرضها عليهما كلما شعرت برغبتهما فى الخروج للنزهة . بل إنها ظلت تلجأ إلى هذه اللعبة حتى بعد أن كف الزوجان عن أخذ المناشف معهما . ولما أخفى الزوجان المناشف عنها كلية بحيث لم تعد تستطيع الحصول على إحداها ، بدأت تبحث

عن أى شىء آخر يشبهها حتى عثرت على بعض المناديل المصنوعة من الورق فاستخدمتها فى التعبير عن رغبتها

بيد أن اللغة — بالمعنى الصحيح — تعتمد على الرموز وليس على الإشارات . وقد عرف الأستاذ هرسكوفتز Prof. Herskovits اللغة بأنها « نسق من الرموز الصوتية التعسفية يمكن بها لأعضاء الزمرة الاجتماعية التعاون والتفاعل » . فالكلام يعتمد على القدرة على عمل التجريدات بكثرة وسخاء والتعبير عن تلك التجريدات برموز معينة ، ثم استخدام تلك الرموز فى سرعة وطلاقة .

ولنأخذ الآن نموذجاً لحديث واقعى . لنفرض أنك — باعتبارك رب أسرة — أردت أن تزيل الشعور بالرتابة والسآمة أثناء العشاء بأن تقص بعض الأخبار التافهة فتقول مثلا « لقــد رأيت سيارة نقل مقلوبة على الطريق وقت العصر » . وستكون عندك أثناء ذلك صورة بصرية قوية وحية عن الحادث ، بل قد تعاودك بعض الأحاسيس مثل حرارة النهار . وسوف تتذكر مكان وقوع الحادث من الطريق ، وأن السيارة كانت سيارة نقل خضراء ، وأن الليمون الهندى (جريب فروت) المهروس كان يملأ المكان كله ، وهكذا . ولن تستطيع أن تنقل إلى من معك هذا كله فى اقتضاب ، ولكنك ستأخذ الملامح الأساسية تجردها من المنظر كله مع استبقاء عنصرى المكان والزمان والموضوع العام فقط .

وسوف تجد أنك تتصيد وتستخدم الرموز التى اعتاد كل من تعرفهم من الناس أن يربطوها بتلك التجريدات . وحتى يتم ذلك فإن الرموز تتألف من بعض حركات معقدة جداً يقوم بها اللسان والفك والشفتان بينما تهتز الحبال الصوتية . وينتج من ذلك كله صوت منغوم يتردد فى حجرة الطعام ويقع على طبلة أذن زوجتك وأطفالك ويصل إلى المنطقة السمعية من المخ فى شكل رموز مألوفة من السهل معرفتها . وتتخذ تلك الرموز فى هذه الحالة

صورة أنماط صوتية . وتنبه هذه الرموز فى مخ زوجتك وكل طفل من أطفالك التجريدات المرتبطة بها ، كما تسبب توالى الصور البصرية لعربات النقل المقلوبة على الطريق ، ولكنها تكون صوراً لعربات مختلفة فى أشكالها وعند أجزاء مختلفة من الطريق .

وكانت الغاية من هذا الحديث هى إعطاء بعض المعلومات فقط وليس الحث على القيام بعمل من الأعمال . ومع ذلك فقد يؤدى إلى استجابات مختلفة مثل « لا تتشعبطوا أبداً على عربات النقل يا أطفال » أو « هل مات أحد يا أبى ؟ » ، أو قد تعود الحجرة إلى الموسيقى اللطيفة المنبعثة من رنين السكاكين والشوك وقد كان يمكنك أن تستخدم عدداً أكبر من التجريدات من ذلك المنظر كما كان يمكنك ترتيب الرموز بطرق وأشكال عديدة مختلفة . ولكن أيا ما يكن الأمر فإنك قدمت بعملك هذا مثالا لكل عملية نقل التجريدات من فرد لآخر بوساطة الرموز الصوتية . وثمة فارق كبير بين هذا الفعل وبين الثرثرة التى تصدر عن الببغاوات .

ولكن الأمر لا يبدو كما لو كانت الرئيسات الأخرى خرساء تماماً أو تنقصها الأحبال الصوتية أو غير ذلك من أدوات الكلام . فالمسألة بعيدة عن ذلك كل البعد . فالغوريلا والشمبانزى بوجه خاص تستخدم اصواتها دائماً فى الأدغال فى شكل أنواع مختلفة من الصراخ والهمهمة ، ولو أن هذه تكون فى الأغلب أصواتاً حركية بسيطة . وزيادة على ذلك فقد أمكن تعليم عدد من القردة الشمبانزى — وبخاصة فيكى — فى أورانج بارك على نطق واستخدام بضع كلمات قليلة (وقد حدث شىء من هذا القبيل بالنسبة لسعلاة orang قبل ذلك بسنوات) . والكلمات المعيارية هى « papa » و « mama » و « cup » (١) ولم تجد تلك القردة أية صعوبة فى

(١) آثرنا نقل هذه الكلمات الثلاث كما هى بدون ترجمة ما دامت القردة تنطقها فى صورتها الإنجليزية .

فهم مدلول هذه الكلمات (وكثير غيرها) أو فى استخدامها بطريقة صحيحة . ولكن هذا أيضاً لا يعنى بالطبع أن الكلمات هى بالنسبة لها أكثر من مجرد إشارات .

وأحب أن أسارع فأقول إنه لم يكن يقصد بذلك التعليم إدخال الكلام إلى « شعب » الشمبانزى أو تدعيم وتقوية العلاقات بين الإنسان والشمبانزى أو حتى تحقيق ذلك الدافع القاسى الذى يبدو أنه خطر لكوهلر وأعنى به التغلب على مشكلة الخدم ، كما أننا لا نتوقع أن يؤدى ذلك التعليم إلى ظهور أى شىء جذاب فى ميدان القصص التى تدور حول حياة الحيوانات ، إنما كان القصد منه هو دراسة أساس ميكانيزم اللغة الإنسانية عن طريق اختبار قدرات الشمبانزى وحفزها إلى أبعد حد ممكن لكى نتعرف الأسباب التى تمنعها من الكلام . وقد دلت النتيجة على أن النطق — أى إخراج أصوات منظمة حتى ولو كانت على درجة كبيرة من البساطة مثل كلمة cup (كتعبير عن صيحة السرور أو الاهتياج مثلا) يحتاج إلى مجهود عنيف . فهى تنطقها بمشقة وفى صوت مهموس . وقد ظهر الاختلاج واضحاً فى كلام قرد واحد منها على الأقل . والشمبانزى رغم حبها الواضح للضجيج لا تميل إلى اللغة بطبعها مثلما يميل البط للماء . فليس لديها أى دافع طبيعى لأن تزيد حصيلتها من الألفاظ وتلم بها ، كما أن ذلك ليس بالأمر السهل الهين ، وإنما هى تحتاج بدلا من ذلك إلى التدريب المستمر حتى يمكنها الاستمرار فى استعمال الكلمتين أو الثلاث الكلمات التى تعلمتها أولا بصعوبة .

وليس من شك فى أن الأنماط العضلية لصياغة الكلمات صعبة ولكن من العسير أن نتصور أن هذه الصعوبة كانت تقف أمام الشمبانزى لو كانت لديه المرونة أو الحاجة إلى استخدام الكلمات . أما الذى يبدو عسيراً شاقاً للغاية فهو تلك الناحية الأخيرة ، أعنى استخدام الكلمات . وقد يبدو

هذا غريباً إذا أعتبرنا مدى قدرة الشمبانزى على نقل الأفكار البسيطة بطرق ووسائل أخرى . وإذن يمكن القول إن استخدام الكلمات هو طريقة صعبة لأداء ما يعمله الشمبانزى فعلا بسهولة ولكن بوسائل أخرى . والظاهر أننا تعلمنا فى كل حالة تلك القيود والتحديدات المفروضة على الشمبانزى ذاته وعدم رغبته فى أن يستخدم تلك الإشارات غير الفطرية المصطلح عليها (أى الكلمات) بحيث تتطور حتى تصبح رموزاً عقلية كما نستعملها نحن .

ونظرتنا إلى اللغة من هذا المستوى الحيوانى تؤكد طبيعتها كبناء من التجريدات والرموز ، وأنها تشبه بالضرورة بقية الثقافة . والحق أنه ليس هناك مثال أفضل من اللغة يمكن الاعتماد عليه فى محاولة تحليل وتعريف الثقافة بطريقة علمية ، إذ تتوافر فى اللغة كل الخصائص الرئيسية المميزة للثقافة وتعبر عنها بوضوح أكثر من أى مظهر آخر . فاللغة تتألف من أنماط من السلوك المتعارف عليه ، وهو العنصر الذى اعتمدت عليه هنا فى تعريف الثقافة . لذلك لا يمكن للغة أن توجد بغير مجتمع . وليس هناك شخص له لغته الخاصة به وحده لأن ذلك يعتبر مجرد (شفرة) وليس لغة . واللغة يرثها المجتمع لا الأفراد كما أنها ليست حقيقة بيولوجية . وتختلف اللغة من جماعة لأخرى ولو أنها تؤدى وظيفة واحدة بالنسبة لها جميعاً . وكما أنه لا توجد ثقافة واحدة بل عدة ثقافات ، كذلك لا توجد لغة واحدة بل عدة لغات . وأخيرا فاللغة تستطيع أن تتغير - بل وتتغير بالفعل — بأسرع مما تحدث التطورات البيولوجية ، وتتبع فى ذلك قواعد مختلفة .

الأصوات وقواعد النحو والمعنى

يميل الرجل العادى إلى أن يفترض وجود جانب موروث فى الكلام ، لأن كل الهنود مثلا يستطيعون أن ينطقوا كلمة « إغ » ولأن الفرنسيين

يتعلمون الفرنسية بسهولة أكثر مما يفعل الانجليز أو الأمريكان . والفكرة الأولى لغو وهراء بغير شك . أما فيما يتعلق بالفكرة الثانية فإننا - ببساطة - لا نقدر كما ينبغي تلك الجهود التي بذلناها لكي نتعلم كيف ننطق لغتنا نحن. فنحن لا نتكلم بالأشياء التي وضعت في أفواهنا لنتكلم بها ، وإنما نتكلم بالأسنان التي خلقت لمضغ الطعام وباللسان والشفتين التي وضعت لتحريك الطعام وتقليبه أثناء المضغ . والذي يدعو إلى العجب حقاً هو أنه على الرغم من كثرة كلامنا أثناء الأكل فإن الأسنان لا تعض الشفتين واللسان بأكثر مما يحدث فعلا . وقليل من التأمل في هذه الأخطار كفيل بأن يقنعنا بما أخفقت فيه نصائح أمهاتنا وهو ضرورة الامتناع عن الكلام والفم ممتلىء بالطعام .

وتستطيع هذه الآلة العجيبة المتماسكة أن تضع بالفعل مئات الأصوات وهي أكثر بكثير مما تستطيع أية لغة استخدامه وتحتفظ في الوقت نفسه بأية درجة من التماسك والاطراد . والواقع أن معظم اللغات لا تستخدم إلا ثلاثين أو أربعين صوتا فقط — وهي نسبة ضئيلة — وبهذه الأصوات الخاصة بأية لغة معينة يستطيع المرء أن يصل إلى درجة عالية جداً من المهارة والحذق ، دون أية حاجة إلى استخدام مئات الأصوات الأخرى الممكنة . وقد تستخدم لغة أخرى — كاللغة الفرنسية مثلا — مجموعة مختلفة من الأصوات ، فيمضي الأطفال الفرنسيون الصغار طيلة النهار من كل يوم في التدرب على عدد من الحروف المتحركة الخفيضة بينما يهملون تعلم صوت « ث » الذي يساعدنا نحن في نطق كلمة « ثخين » مثلا[1]. فلا عجب إذن إن ظننتم أن أفواههم لها بالفعل شكل مختلف .

---

(١) يذكر المؤلف في الأصل كلمتين هما thick أى غليظ أو ثخين (كما ترجمت هنا) و thin أى رفيع . — المترجم .

ولكن الأصوات هى أقل الأشياء اختلافاً بين اللغات . أما الكلمات فقد لا يكون بينها أى تشابه على الإطلاق : فالتجريد الواحد يمكن التعبير عنه بعدد لامتناه من الرموز المختلفة مما يؤكد الطبيعة الرمزية والثقافية للغة . أما النحو فإنه يخضع لقيود وتحديدات أكثر ، إذ يجب أن تكون لكل لغة طريقتها الخاصة فى ترتيب وتجميع الكلمات ، ما دامت بعض تلك الكلمات تشير إلى أشياء ، والبعض الآخر يشير إلى أفعال ، والبعض الثالث يشير إلى صفات وهكذا. بيد أن هناك أنواعاً كثيرة متباينة من قواعد النحو أيضاً . ولعلكم تكونون درستم اللغة اللاتينية أو على الأقل ما يكفى لأن تعرفوا أن الصيغ المختلفة للكلمة — وهو ما يؤلف إعرابها (كما هى الحال فى الفعل أحب amo, amas, amat) لها صلة وثيقة بمعناها ، فإذا كنتم تعرفون اللاتينية فأغلب الظن أنكم سوف تعتبرون أنفسكم محظوظين للغاية إذا كانت لغتكم هى الإنجليزية التى هى أبسط بكثير جداً فى هذا الصدد والتى كاد الإعراب يختفى منها تماماً . صحيح أننا ما زلنا نستطيع التعرف على طبيعة كثير من الكلمات من صيغتها وبخاصة من نهاياتها (مثلا —ed,—ing,—ly) ولكننا لم نعد على العموم نغير شكل الكلمة بسبب معناها . وعلى أية حال فنى اللغات اليونانية واللاتينية والفرنسية والألمانية والروسية وغيرها تصرف الأفعال دائماً تبعاً لاختلاف الشخص والزمان والحالة[1] . ولذا كان يتحتم تغيير الكلمة ذاتها لتتلاءم مع كل الأوضاع الأخرى ، لدرجة أنه قد يكون للكلمة الواحدة أربعون شكلا مختلفاً يتعين على المرء معرفتها واستعمالها جميعاً .

ولقد أصبحت اللغة الإنجليزية لغة عازلة isolating بشكل قوى واضح .

(١) يعمد المؤلف إلى ضرب أمثلة من اللغة الإنجليزية أو غيرها من اللغات الأوروبية لتوضيح مايقول . ونظرا لاستحالة نقل هذه الأمثلة إلى اللغة العربية تبين الهدف الأصلى منها ، فقد آثرنا حذفها من الترجمة . وسوف نشير إلى المواضع التى حذفت منها بعض العبارات الإنجليزية بوضع عدد من النقط — المترجم .

فهى تعطى لكل كلمة على حدة معنى مستقلا بذاته، كما تعتمد على الأفعال المساعدة. ويعتبر هذا نعمة بالنسبة للأطفال فى المدرسة وفى نظر علماء النحو الثائرين، ولكنه يأتى عبئاً إضافياً على الإعراب أو الترتيب الصحيح للكلمات وكذلك على معنى الجملة ككل. فإذا نطقت مثلا كلمة flee وحدها دون أن تهجاها، فإنك سوف تحار لأنك لن تعرف إذا ما كان المقصود منها الإشارة إلى «الطيران» أو إلى «البرغوث»، كما أنك لن تعرف إذا ما كانت فعلا أو اسماً، أو إذا ما كانت فاعلا أو مفعولا، مذكراً أو مؤنثاً. ولكنك قد لا تهتم بشىء من ذلك. وعلى أى أية حال فإن الأجرومية الإنجليزية ذاتها لا تهتم.

وليست الإنجليزية فريدة فى هذا الاتجاه العام. فاللغة الصينية وغيرها لغات عازلة: ولكن إذا كانت الإنجليزية لغة قليلة الإعراب إذا هى قورنت باللاتينية، فإن هناك لغات فى الجنوب الغربى من المحيط الهادى تظهر اللاتينية أمامها فقيرة حقاً. فبعض قبائل أستراليا وغينيا الجديدة عندهم صيغ ليس للفعل الماضى فحسب، بل وللماضى القريب والماضى البعيد أيضاً، كما أن لديهم صيغة للمستقبل القريب وأخرى للمستقبل البعيد بعض الشىء. وقد تزيد هذه الاختلافات فى الصيغ والحالات على السبعين. كذلك لا تعرف هذه اللغات المفرد والجمع فحسب، وإنما المفرد والمثنى والثلاثة والجمع، كما أن الفعل نفسه قد يتضمن ليس الفاعل فقط كما هى الحال فى اللاتينية (amo، أنا أحب) بل والمفاعيل أيضاً . . . وهذا يختلف أيضاً عن عملية الالتحام التى لا تعرفها الإنجليزية فالإسكيمو يميلون إلى ربط الكلمات بحيث يلصقون معظم الجملة فى كلمة واحدة.

ولم تعد هناك أجناس فى الإنجليزية ففى اللاتينية أو الألمانية تنقسم الأسماء إلى مذكر ومؤنث ومعادل. ويجب أن تتفق الصفات مع الأسماء فى ذلك. أما فى الإنجليزية فإن الأسماء لا تنقسم إلى هذه الفئات أو المراتب،

بينما نجد فى الفرنسية صيغاً خاصة بالمذكر والمؤنث . وتفرق لغات البانتو فى أفريقيا بين عدة أجناس أو طبقات من الأسماء بينما تأخذ معظم كلمات الجملة إشاراتها من الاسم . ويصل الأمر إلى درجة مثيرة فى بوجانقيل فى جزر سولومون حيث تميز اللغة بين ما لا يقل عن عشرين جنساً حتى تستقيم. كذلك توجد فى ذلك الجزء المتخلف من العالم (أستراليا أيضاً) لغات وطنية تذهب إلى حد تصريف الظرف كما يصرف الفعل .

تواريخ وتغييرات

فكأن هناك إذن حيلا لغوية كثيرة متنوعة تستطيع اللغات أن تختار قواعدها منها بنفس الطريقة التى تختار بها أصواتها . وهذه القواعد النحوية تمتاز — كالأصوات — بأنها شديدة التحديد ، وأنها تحكم اللغة بيد من حديد . وقد بينت كيف أن تلك القواعد قد تصل إلى درجة عالية من التعقيد وإن تكن قواعد اللغة الإنجليزية بسيطة . والواقع أن هناك أسباباً عديدة تجعل الإنجليزية فريدة فى هذه الناحية بين اللغات القريبة منها . فقد خضعت لكثير من التغيرات العنيفة أثناء تاريخها ، إذ بدأت فى الأصل كلسان جرمانى ، ثم استوردها الأنجلوسكسونيون إلى بريطانيا قبل عام ٥٠٠ ميلادية ، وفرضت على الأهالى الذين كانوا يتكلمون الكلتية (ولكنهم لم يقبلوها تماماً حينذاك) والذين كانوا قد تعلموا على أيدى الرومان من قبل فأصبحوا بمرور الزمن قادرين على كتابتها ثم أتى الدنماركيون وحاولوا بدورهم أن يتخذوها لساناً لهم ، وقد أضافوا إليها بعض الكلمات الشائعة . وأصبحت الإنجليزية القديمة لغة الكتابة الأدبية فى ذلك العصر ، وبدأ الإعراب يختفى منها . ولكنها قاست كثيراً على أيدى النور منديين الغزاة ، واختفت من الناحية العملية بحيث لم تعد تستعمل فى الكتابة ، وأصبحت الفرنسية هى لغة الحديث والكتابة معاً عند الطبقات الأكثر رقياً .

ولكن لم تلبث الإنجليزية أن انتشرت وذاعت بعدئذ ودخلها عدد كبير جداً من الكلمات الفرنسية وتهدم بناؤها النحوى إلى حد كبير . وقد زادت ذخيرتها اللفظية فى عصر شيكسبير زيادة كبيرة ، واقتبست كثيراً من الألفاظ المنمقة الطنانة حتى صارت قواعد النحو على ما هى عليه الآن . ولكن التغيرات مع ذلك ظلت قائمة مستمرة .

وهكذا كان من الأهمية بمكان أن تشيع الإنجليزية بين جماعات جديدة تجذبها وتشدها وتمسخها ، أو تصقلها وتطوعها للاستعمال . وتظهر هذه الأهمية بشكل واضح فى حالة وجود عدد كبير من الجماعات الجديدة التى تستطيع اصطناعها كوسيلة للتخاطب فيما بينها ...وربما كان أحدث تلك الجماعات هم العبيد الذين جلبوا من أفريقيا بعد أن انتزعوا من لغاتهم القبلية المختلفة عن طريق مزجهم بغيرهم من الناس ، ثم لم يتلقوا بعد ذلك أى تعليم منهجى فى اللغة الجديدة . وعلى أية حال ، فهناك ما يدل على وجود تبسيطات أخرى فى الإنجليزية وذلك فى المناطق التى يسكنها الزنوج بأمريكا ، كما هى الحال مثلا فى أغانى الكاليبسو . وقد سمعت فى إحدى رحلات الصيد فى الجنوب خادماً زنجياً يسأل « That lady, where she gun? » وهذا انتصار رائع للانعزالية التى ترفض كل إمكانيات الإعراب التى تقدمها الـ s' فى الجملة العادية التى تقول « Where's that lady's gun? » ، فهل يعتبر هذا بادرة لما ستكون عليه إنجليزية المستقبل ؟

ونستطيع مما سبق أن نتبين أن اللغة الإنجليزية ، كغيرها من اللغات ، تتمتع بنصيب كبير من المرونة : وهذه صفة تصدق على الثقافة عموماً . وقد مرت الإنجليزية ببعض التغيرات الفذة ، ومن حسن الحظ أننا نعرف الشىء الكثير عن ماضيها . وحتى لو لم يكن لدينا شواهد مكتوبة لما عجزنا عن استنتاج الكثير مما حدث والتعرف إلى مصدر هذه اللغة عن طريق دراسة بنائها وقواعدها ، وعن طريق ملاحظة انه رغم الشحنة الهائلة — وبخاصة

شحنة الكلمات الخيالية — التى تلقتها من الفرنسية ، فإن الألفاظ الأساسية لأسماء الأشياء العادية جرمانية فى طبيعتها .

والشىء نفسه يمكن عمله فى كل اللغات ، مكتوبة كانت أو غير مكتوبة . ويكون ذلك أسهل إذا كانت قواعد النحو فيها خالية من تلك التغيرات التى نجدها فى الإنجليزية . واللغات تتحول وتتغير باستمرار . فقد تحولت اللغة اللاتينية مثلا حين استقرت فى عدة أماكن مختلفة إلى الفرنسية والأسبانية والإيطالية والرومانية . ولكنها فى تغيرها تظل متماسكة وتتبع قواعد محددة ، أى إنها رغم تحولها وتغيرها تميل بشدة لأن تخضع نفسها لقواعد دقيقة . وهذا يصدق بوجه خاص على الأصوات . فلن تجد أى صوت يتغير فى كلمة واحدة فحسب ، و إنما على العكس من ذلك يتغير فى كل الكلمات التى يدخل فى تركيبها . بل ومن الأرجح أن يمتد ذلك التحول إلى بعض الأصوات الأخرى المرتبطة به من حيث طريقة صياغة الفم لها .

وعلى ذلك فإن عدداً كبيراً جداً من الكلمات المختلفة إنما يرجع اختلافها كلية إلى أن الناس أحدثوا تغيراً ثقافياً ضئيلا فى طريقة وضع اللسان أو طريقة التنفس أثناء النطق . فالكلمة الألمانية Teufel (أى شيطان) هى devil بالإنجليزية ، و Taube بالألمانية (عامة) هى dove بالإنجليزية ، وكل t من هذا القبيل فى الألمانية تحل محلها d فى الإنجليزية ، بينما كل d يحل محلها th (كلمة « Donner » رعد « الألمانية تتحول إلى thunder) . وهذه ظاهرة عامة . ونضرب مثالا واحداً لذلك من إحدى اللغات غير الأوروبية وهو حرف « ت » فى لغة ساموا الذى يتحول إلى « ك » فى لغة هاواى مع حدوث بعض التحولات الأخرى .

وبهذه الطريقة يمكن الكشف عن وجود مشابهات حقيقية ، كما يمكن تصنيف اللغات فى عائلات . فإذا كانت التغيرات طفيفة كان ذلك دليلا على قوة الروابط بينهما ، وعلى أن انفصال إحداها عن الأخرى لم يتم منذ عهد

بعيد . أما إذا كانت الاختلافات أو الفوارق كبيرة بحيث لا يمكن بحال مطابقة الألفاظ ، فإنه قد يمكن الاستعانة ببعض القواعد النحوية العامة أو بعض طرق تصنيف الكلمات أو استعمالاتها للتدليل على وجود علاقة بعيدة تكاد تكون مفقودة . ومثل هذا العمل قد يكون مدعاة للتشكك . فمجموعة اللغات الهندو أوروبية الكبرى التي تنتمي الإنجليزية إليها تترابط كلها بسهولة لأنه يمكن تتبع كثير من الكلمات في كل لغاتها بما في ذلك اللغة السنسكريتية التي تعتبر من أقدم صور تلك المجموعة وأكثرها تطوراً . ولكن هذا هو كل ما يمكن عمله هنا . بينما لا توجد سوى بعض الإشارات السريعة الغامضة — إن كان ثمة إشارات أو دلائل على الإطلاق — إلى الطريقة التي يحتمل أن تكون تلك العائلة المتماسكة ارتبطت بوساطتها ببعض اللغات الأخرى في العالم القديم، مثل الفصيلة العضوية المعروفة باسم الأورال والتاى Ural - Altaic . ولكننا نجد في الكفة الأخرى أن لغة الباسك الذين يسكنون البرانس تقف مستقلة تماماً بنفسها ولا ترتبط بأية لغة أخرى ، فقد تخلفت عن بعض اللغات المجهولة التي كانت تسود قبل أن تزحف الهندأوروبية من الشرق وتغطي أوروبا الغربية كلها . وقد نصادف عند الهنود الحمر موقفاً وسطاً ، أو أكثر اعتدالا ، يتمثل في أن بعض العائلات اللغوية التي انتشرت انتشاراً كبيراً مثل لغة الألجونكوين أو لغة الاسكيمو المتجانسة توجد جنباً إلى جنب مع عدد كبير من اللهجات الصغرى المنعزلة أو اللغات المستقلة بذاتها . وهذا يهيء الفرصة لإمكان قيام بعض العلاقات الغامضة المبهمة بينها ، مما يساعد علماء اللغة على الاستمرار في المناقشة والجدل .

ولكن يجب أن يدفعنا ذلك إلى الاعتقاد بأنه لو كانت لدينا وثائق أفضل، ولو توافرت عندنا الوسائل الصالحة للكشف عن العلاقات بين اللغات ، لأمكن لنا أن نربط نهائياً جميع اللغات بعضها ببعض لنصل بذلك في آخر الأمر إلى إعادة تركيب اللغة الأصلية للجنس البشري كله .

وليس من شك فى أن وجود طرائق أفضل للتحليل سوف يساعد على الرجوع بفروع العائلة اللغوية إلى أزمنة أبعد فى الماضى ، وعلى التقريب بينها فى بعض الحالات . ولكن تبقى بعد ذلك حقيقة واضحة وهى أن اللغات تتغير ، وأن ذلك التغير يحدث بسرعة فائقة بحيث تبدو محاولة استرجاع كل الخطوات التى مرت بها أشبه شىء بمحاولة الاحتفاظ بالأثر الذى تتركه الباخرة فى الماء وهى تمخر عباب البحر . ويذهب العلماء إلى أن العائلة الهندو أوروبية ظهرت لأول مرة منذ حوالى ستة آلاف سنة فقط ، بينما اللغة فى ذاتها أقدم من ذلك بكثير جداً . وأغلب الظن أن اللغات والعائلات والأنماط اللغوية صيغت وأعيدت صياغتها مرات عديدة قبل أن يأتى الوقت الذى ظهر فيه شىء يمكن عن طريق المقارنة المباشرة اعتباره الأصل الذى انحدرت عنه إحدى اللغات الحية .

وهذا على أية حال هو كل ما ينبغى على أن أستخلصه من التغيرات الواضحة الثابتة ومن كل ذلك التنوع والتباين اللذين نشاهدهما فى اللغات الحديثه . وأنا أذهب هذا المذهب رغم أن بعض المظاهر الثقافية الأخرى ، كالآلات مثلا ، كانت أقل قدرة على الانتقال والتغير . أما اللغة فإنها أكثر تحرراً ومرونة ، وبذلك فهى تستطيع أن تتشكل وأن تنحدر من جيل لآخر مثلما تنتقل العقائد الخارقة من غير أن يفطن الناس الذين يتكلمونها إلى ذلك . ومهما يكن من شىء فإن كل ماسوف نعرفه عن اللغات سيكون مقصورا على نوع الناس الذين يسكنون العالم الآن .

وثمة مسألة أخرى طريفة عن اللغات لا ينبغى إغفالها . إننا نعرف أن بعض الشعوب الموجودة حالياً شعوب « متوحشة » لها ثقافات بسيطة ، وتحيا حياة بدائية ، ويبدو أفرادها كما لو كانوا من طلائع البشر أو من الحفريات الحية . بيد أن الدراسة الدقيقة للتكوين العضوى تبين أننا جميعاً ننتمى فى الواقع إلى نوع واحد من البشر هو « الإنسان العاقل homo sapiens » .

كذلك تبين اللغة بطريقة واضحة أن لدينا جميعاً نفس النوع من القابلية للثقافة ، لأننا كلنا نستعمل اللغة بنفس الطريقة تقريباً . فمن العبث أن ندرس البوشمن المتأخرين مثلا على أمل أن نجد فى لغتهم شيئاً أ كثر أصالة وبداثية مما نجده فى لغاتنا ويشير إلى العهود المبكرة من حياة اللغات . فليست هناك لغات بدائية الآن . ولغات الشعوب ذات الثقافة البدائية قد تكون — أولا تكون — معقدة فى صيغها ، ولكنها فى جملتها تكون أ كثر تعقداً من اللغة الإنجليزية ، كما أنها تتفق معها فى خضوعها للنحو وفى قدرتها على التعبير عما يطلب منها ، ويستوى فى ذلك التعبير عن المشخصات أو المجردات . ولكن قد لا يكون فيها — بطبيعة الحال — كلمات للأشياء التى لا توجد فى ثقافاتها . لقد ساعد المخترعون الغربيون على تضخم قواميسنا بشكل هائل ، ولكن فى الوقت نفسه تجد أن لغة الإسكيمو تعرف عشرين كلمة دقيقة — أو أ كثر — لحالات الجليد المختلفة ، كما أن سكان جزيرة توكلاو Tokelau فى الشمال الغربى من پولينيزيا عندهم تسعة أسماء لمختلف مراحل نضج جوز الهند الذى يعتبر طعامهم الرئيسى . وعلى أية حال فإن عدد الكلمات لا يعتبر خاصة حقيقية للغة فى ذاتها .

وليس من شك فى أن اللغة كانت فى وقت من الأوقات مختلفة وأ كثر قصوراً أو بساطة مثلما كانت أمخاخ البشر أصغر فى الحجم . ولكننا لا نستطيع أن نحفر الأرض بحثاً عن اللغات مثلما ننقب عن الهياكل العظمية . ولذا فليس أمامنا سوى التخمين عن بداياتها . وقد يبدو منطقياً أن نقول إن أشد أنواع البشر بدائية — وهم الآدميات من فصيلة الإنسان القرد — كانوا يصدرون قدراً كبيراً من الأصوات المعبرة المستمرة ، على ما يفعل الشمبانزى تماماً ، ثم أخذ المحتوى الرمزى يزداد بالتدريج فى تلك الأصوات بازدياد القدرة العقلية لتلك الحيوانات على تكوين وصياغة الرموز . ولسنا نستطيع أن نقول متى حدث ذلك بالضبط ، كما أننا لا نعرف

نوع المخ اللازم لتلك العملية . ولذا فلن نستطيع أن ننظر إلى جمجمة حفرية ونقول « لقد كان يتكلم » (من الواضح أنه لا يمكن الاستدلال على ذلك من الفك) .

ولكن الكلام — بالمعنى الحقيقي — لا بد أن يكون ظهر في نفس الوقت الذي بدأت فيه أولى بوادر الثقافة على العموم ، لأن اللغة والثقافة شيء واحد إلى حد كبير . والواقع أنه لما كانت الثقافة مسألة اجتماعية ، ولما كانت اللغة ضرورية للتعبير عن الأشياء المجردة ، فإنه يصعب علينا أن نتصور كيف كان يمكن للثقافة أن تتعدى مرحلة المحاكاة الخالصة وقياس الأفعال البسيطة — وهي المرتبة التي تعلو مباشرة على الشمبانزي — دون أن تسير اللغة معها جنباً إلى جنب .

الصيادون القدماء - الخطوة الأولى

٥

الآلات المبكرة : العصر الحجرى القديم الأدنى

ليس ثمة أمل فى أن نكشف عن خصائص اللغة الأولى . كما أننا لن نستطيع الحصول على معلومات كثيرة عن البدايات الأولى لجوانب الثقافة الأخرى . ومع ذلك فهناك فارق بين الموقفين وهو أن الجانب الاقتصادى أو المادى للثقافة يترك وراءه آثاراً حسية يمكن أن تبدأ منها دراستنا لتاريخ الثقافة .

ولكن من الواضح أن ذلك لن يعطينا — على أفضل الأحوال — إلا تاريخاً مبتسراً للثقافة . وتستطيع هنا أن تتخيل نفسك واحداً من تلك الآدميات المحدودة المهارة ذات الأنياب البارزة وأنك مصمم على أن تصبح إنساناً . حينئذ ستجد أنك أقدر بطبيعتك على استخدام الآلات من الشمبانزى لأن يديك أكثر تناسباً وتمتازان بقصر الأصابع والقدرة على الحركة كما أنهما أكثر رشاقة . يضاف إلى ذلك أن ساعديك أقل قوة وأسنانك أقل بروزاً مما يجعل للآلة الصغيرة التى تمسكها بيدك قيمة كبيرة حين تهاجم الإنسان القرد أو الوحوش ، أو حين تحاول كسر غلاف الفواكه البرية الجافة .

كذلك ستجد أنك فى ذلك العصر البلايوسينى[1] مضطر إلى الاستعانة فى أول الأمر بكل ما يصادفك من أشياء كقطع الخشب والحجارة ، ثم قد

---

(١) — عصر البلايوسين Pliocene هو العصر الخامس من العصور الستة التى تنقسم إليها الحقبة الشينوزوية (الدور الحيوانى الحديث) . وينبغى عدمُ الخلط بينه وبين عصر الباليوسين Paleocene الذى هو أول عصور تلك الحقبة . وهذه العصور الستة هى (مرتبة من الأقدم إلى الأحدث) : الباليوسين والأيوسين والأليجوسين والميوسين والبلايوسين ثم البلايستوسين . ويقدر العلماء أن الحقبة كلها استغرقت حوالى سبعين مليون سنة . — المترجم .

يتراءى لك — أو لأحد ذريتك — أن تحتفظ بإحدى تلك العصى لأنها كانت صالحة وملائمة لأغراضك بدلا من أن تطرحها جانباً بعد أن تفرغ من استعمالها ثم تنساها تماما . وأخيراً قد يقوم أحد أحفادك — ربما بعد عشرة آلاف جيل — ليس فقط بمحاولة تشذيب عصا جديدة بل باستخدام قطعة حادة من الصخر ليجعلها صالحة للاستعمال ، بل قد يصل به الأمر إلى أن يقدر شكل العصا ذاته ويدرك فوائدها بوضوح ، وبذلك يعكف هو وأقرانه على تكرار تلك العملية .

وهذا لا يتفق تماماً مع الفكرة القائلة بأن « أج Ug » إنسان الكهف ضرب أحد الدببة بشدة بالعصا ولأول مرة فأخذته الدهشة لمهارته فى ذلك وأسرع ليعلن لغيره من سكان الكهوف عن مدى ما يمكن للمرء أن يفعله بالهراوات . فالمسألة عكس ذلك تماما . بمعنى أن عملية اكتساب « الإنسان » المبكر جداً للثقافة لا بد أن تكون قد تمت بالتدريج المتناهى وليس عن طريق الوثبة أو الطفرة كما أنها كانت مجردة تماما من كل إدراك أو تفطن واضح للفوائد التى كان يمكن اجتناؤها ، حتى ولو كانت تلك الفوائد ذاتها حافزاً كبيراً على استمرار العملية . ولقد ذكرت أن اللغة كانت فى بدايتها مجرد أصوات أو ثرثرة طبيعية لم تلبث أن اكتسبت معانى محددة بالتدريج . كذلك قد يكون من الإنصاف أن ننظر إلى الثقافة على أنها كانت مجرد أدوات تستعمل (بالطريقة التى تستعمل بها عند القردة العليا أحيانا) ، ولكنها أخذت تكتسب بالتدريج معنى أعمق بالنسبة للشخص الذى يستخدمها . وهذا المعنى هو الذى يعطى الأدوات نمطها الخاص ويساعد بالتالى على ظهور شىء محدد يمكن أن يُعزى إلى جماعة معينة بالذات . ولقد شوهدت القردة العليا وهى تشذب الأغصان مثلا بانتزاع الفروع الصغيرة منها ، وأيضاً وهى تقضم أطراف العصى لتجعلها مدببة . ولكنها لم تكن تفعل ذلك أبداً إلا حين تجابهها مشكلة من المشكلات وليس لكى تلائم نمطاً موجوداً لديها من قبل .

ولكن لنعد بك إلى أقدم أيامك لنرى أى الأشياء كنت تستطيع استخدامها والإفادة منها . لا شك أنك كنت تستخدم الأخشاب وقرون الوعول والعظام والأحجار المدببة الحادة للقطع وكذلك الأصداف والأشواك ومخالب الحيوانات وما إليها ، كما كنت تستخدم أيضاً الخيوط المصنوعة من النباتات المتسلقة ومن أمعاء وجلود الحيوانات . ولم يكن اعتزازك بعملك يدفعك إلى المغالاة لكى تخرج مثلا أوانى دقيقة الصنع أو جميلة رائعة إن كان لديك ما يمكن أن يفى بالغاية مثل طرف قرن طبيعى أو غلاف إحدى ثمار جوز الهند . إننى أرمى من وراء ذلك إلى أن أقول إن الثقافة — أعنى طرائق وأنماط استخدام الأشياء — ظلت على درجة كبيرة من البساطة والسذاجة لفترات طويلة قبل أن يتمكن الإنسان من صنع الأشياء المعقدة التى تختلف اختلافاً كبيراً فى شكلها عن الأشياء الطبيعية . وعلى ذلك فحتى لو أمكن العثور على مثل تلك الأدوات القديمة جداً — ومعظمها كان قابلا للتلف — فليس من الضرورى أبداً أن نتمكن من التعرف إليها . ولا تزال الشعوب البدائية الحالية تستخدم — إلى جانب آلاتها المصنوعة — كثيراً من الأشياء التى يتخذونها من الطبيعة مباشرة حين يلائمهم ذلك . فهم يستخدمون مثلا نوعا معيناً من الأصداف البحرية لقص الشعر ، كما يستخدمون الأحجار فى الرماية بالمقاليع وهكذا .

وهذا معناه أن بدايات الثقافة يكتنفها الغموض والظلام . ولكن من المؤكد أنها استغرقت فترة طويلة من الزمن . ولسنا نعرف عنها شيئاً مؤكداً ، وكل ما نستطيعه بصددها هو التخمين كما فعلنا فى الواقع . ولكن هذه طريقة غير علمية . وربما كانت أولى أدوات الثقافة هى الهراوات المصنوعة من العظام التى كان يستخدمها الإنسان القرد فى جنوب أفريقيا ، أو هذا على الأقل هو ما يعتقده مكتشفها الدكتور دارت Dr. Dart . وقد عثر دارت على تلك الحفريات فى بعض الكهوف القديمة التى طمرت بفعل الأتربة التى جلبتها الرياح وكذلك الشظايا المتساقطة من السقف والتى التحمت

كلها فى كتلة واحدة بفعل المياه الأرضية المحملة بالجير ، لدرجة أنها كثيراً ما تحتاج إلى التفجير حتى يمكن تفكيكها . وكان الانفجار يؤدى إلى انهمار وتساقط الصخور المحملة بالحفريات فى كل مكان . وكانت تلك الصخور تشتمل فى معظم الأحوال على بقايا كثير من الحيوانات الأخرى غير بقايا الإنسان القرد النادر . وقد وجد بين تلك الحيوانات عدد من قردة الرباح رغم أنها لم تكن بحكم طبيعتها تسكن الكهوف . ولم يكن يوجد من تلك الحيوانات فى أغلب الأحوال سوى الجماجم المنفصلة عن الهياكل العظمية ، كما كانت معظم الجماجم التى عثر عليها الدكتور دارت مهشمة نتيجة للضرب بأداة غير حادة .

وقد حدثت تلك الكسور حين كانت العظام لا تزال غضة حية ولم تحدث نتيجة لسقوط الشظايا من السقف أو نتيجة للتحطيم أو السحق خلال عملية التحجر البطيئة . ويبدو أن بعض هذه الجماجم كانت قد شقت لاستخراج المخ منها ، بينما يحمل البعض الآخر ببساطة آثار الضربات الهاشمة ، كما أن عدداً منها يحمل آثاراً غائرة مزدوجة غريبة . ويذهب الدكتور دارت إلى أنه ليس هناك ما يمكن أن يسبب كل هذا التحطيم والتهشيم سوى الضربات المتعمدة التى تأتى من أعلى بوساطة هراوة ، وأنه من الواضح أنه لم يكن هناك من يستطيع توجيه هذه الضربات غير الإنسان القرد . بل إن الدكتور دارت يعتقد أنه عثر على الهراوات ذاتها ، وهى عبارة عن الأجزاء السفلى من عظم العضد (الكوع والجزء العلوى من الذراع) عند بعض الحيوانات المجترة الكبيرة — كالجنو wildebeest الأزرق — وهى أصغر بعض الشىء فى الحجم والوزن من الجزء الأسفل لعظمة الفخذ عند الإنسان . وكان يمكن استخدام هذه العظام وهى لا تزال غضة كهراوات خفيفة ممتازة خاصة وأن حافتيها الحادتين عند نهاية الكوع مشطوفتان بدرجة بالغة . وهناك شبه واضح يدعو إلى الارتياب والتساؤل بين شكل هاتين الحافتين من ناحية

وبعض الكسور الغائرة المزدوجة التى وجدت فى جماجم الرباح من ناحية أخرى .

ومن المحتمل أن تكون تلك الكسور حدثت بفعل الضباع . وقد يكون من الصعب جداً البرهنة بطريقة قاطعة على صحة ما ذهب إليه الدكتور دارت ، ولكنه استطاع فى الواقع أن يقدم لنا نظرية قيمة رغم الظروف والملابسات القائمة . ولو صح أن الإنسان القرد كان يبحث فعلا عن ذلك الجزء بالذات من العظام فى جثة الجنو فيقتطع منه قطعة معينة بُغية استخدام الجزء الباقى فى قتل الرباح (أى أن المسألة لم تكن مجرد تصرف ارتجالى سريع يشبه ما فعله شمشون حين استخدم فك الحيوان فى مهاجمة أعدائه) فلن يكون ثمة مفر من أن نقول إن الإنسان القرد كانت له ثقافة .

وليس هناك فى الواقع ما يمنع من قبول ذلك . فمخ الإنسان القرد لم يكن — كما سنرى — أكبر بكثير من مخ القردة العليا ولكنه لم يكن يقل كثيراً عن مخ إنسان جاوه . كما أن نفس تكوينه الفيزيقى الآدمى كان يحتم عليه الاستعانة بالآلات . أضف إلى ذلك أن القدرة على الثقافة لا تتوقف — كما يقول الأستاذ هالويل Prof. Hallowell[١] على حجم المخ فحسب بل وأيضاً على تقدم وتطور بناء الشخصية الذى يرتبط بحجم المخ ، بينما الفارق بين مخ الشمبانزى ومخ الإنسان القرد لا يعكس تماماً كل فوارق واختلافات الشخصية عند الاثنين . ولكن هذه نقطة أخرى معقدة .

وثمة مسألة أخرى تماثل علامات الثقافة فى الأهمية ، وهى أن الإنسان القرد — وشأنه فى ذلك شأن الإنسان الحديث — كان من أكلة اللحوم بعكس القردة التى تعيش حالياً فى الغابات والتى تكاد تكون نباتية خالصة وإن كانت تأكل اللحم بالفعل بعد أن تقع فى الأسر . وشاهدنا على أكل

(١) — A. Irving Hallowell ; " Personality structure and the evolution of man " , American Anthropologist, L 11 (1950) , 159 — 73 .

اللحوم هو بالطبع نفس الحيوان ، أعنى الرباح المهذب . وكل الاحتمالات تؤيد ذلك أيضاً . فجنوب أفريقيا لم يكن يختلف اختلافا جوهرياً سواء فى المناخ أو أنواع الحيوانات عما عليه فى مناطق الفلد وسكانها الآن . فلم يكن يوجد بها كثير من الفواكه أو البراعم والقرون النباتية وما إليها من نباتات الغابة . فضلا عن أن أسنان الإنسان القرد كانت تشبه أسناننا فى الشكل . والظاهر أنها كانت مكيفة بحيث تتلاءم مع مختلف أنواع الطعام وإن كانت أقل صلاحية للأطعمة النباتية الجافة كأسنان القردة البشرية .

وسواء أكانت عظام الجنو هى أبسط المخلفات المعروفة عن جهود الإنسانية ، أم لم تكن ، فإن مجرد بقائها فى حالة جيدة أمر يدعو إلى الدهشة . ولكن كان لابد لتلك العظام أن تتحجر وأن تحل الأملاح المعدنية محل المواد القابلة للتلف والفساد . ومن النادر أن تتوافر مثل هذه الظروف الممتازة الصالحة لذلك . ولكن كان يجب أن توجد هذه العظام جنباً إلى جنب مع جماجم الرباح المهشمة حتى يظهر معناها ، لأنها لا تستطيع بمفردها أن توحى إلينا بأنها كانت آلات . والواقع أن كل الآلات الأخرى القديمة التى استخدمها الانسان كانت تحمل علامات « الصنعة » أو الصقل مما يدل على أنها صنعت لغرض معين ، كما أنها كلها — باستثناء واحدة أو اثنتين — كانت من الحجارة أى من مادة لا تتلف أو تفسد من تلقاء نفسها . ولذا يمكن اعتبارها بمثابة العلاقات الثقافية التى بدأ بها العصر الحجرى بالمعنى الدقيق ، أى العصر الحجرى القديم (الباليوليثى) .

الانحدار البليستوسينى

وبقدر ما نعرف ، فإن هذه الأدوات الحجرية تماثل فى القدم الإنسان القرد أو بعض فصائله . ولكن يجوز أن يكون الذى قام بصنعها نوع آخر من البشر كان يعيش فى ذلك الحين ولكنه كان على درجة أعلى من التقدم . وعلى أية حال فإن من الصعب جداً أن نحدد بدقة عمر الإنسان القرد . فلقد

عثر على حفرياته فى خمسة أماكن مختلفة ولكن قردة الرباح كانت تنتمى فى كل من هذه الأماكن الخمسة إلى رتبة أو نوع مختلف تماماً . ومع ذلك فإن بقايا الرباح وغيره من الحيوانات بل ومكونات الرواسب ذاتها توحى كلها بأن تلك الرواسب تؤلف سلسلة واحدة متصلة تبدأ من نهاية أحد الأطوار الرطبة (الطور الكاجيرى) (Kageran) وتنتهى ببداية الطور التالى (الطور الكامازى) (Kamasian) وهما يعاصران تقريباً بداية العصر الجليدى فى المناطق الأخرى . أما فى جنوب أفريقيا فلم يكن للعصر الجليدى آثار عنيفة . فلم يطرأ على المناخ والعوامل الأخرى المرتبطة به والتى تؤثر فى الحياة الحيوانية سوى تغير ضئيل تدريجى فى الماضى القريب ، وعلى ذلك فلا توجد اختلافات كبيرة تميز الأطوار بعضها عن بعض وتوضح العلاقات الزمنية بينها .

ولم يكن الأمر كذلك فى الشمال أو فى معظم أنحاء الدنيا . فلقد تميزت بداية العصر الجليدى — أى البليستوسين — منذ حوالى مليون سنة بزحف مسطحات واسعة من الجليد من المناطق المرتفعة والسهول الشمالية مؤلفة بذلك أول عهود الجليد الكبرى . ولم تعرف بالضبط حتى الآن الأسباب التى أدت إلى ظهور تلك الفترة من التغيرات المناخية العنيفة . ولكن أفضل النظريات تقول إنه حدثت بعض تقلبات طفيفة فى الحرارة الواصلة من الشمس مما كان له تأثير قوى بالغ على المرتفعات وسلاسل الجبال الحديثة التى كانت آخذة فى الارتفاع فى الحقب الثالث المتأخر مثل جبال روكى والألب وهيمالايا وغيرها . وكانت تلك القمم العالية تمتاز بشدة البرودة كما كانت تؤثر فى الرياح المشبعة بالرطوبة فتجعلها تسقط كميات كبيرة من الثلج عليها . فكأن حدوث ذلك الانخفاض القليل فى معدل حرارة الشمس أدى إلى ازدياد الثلاجات التى بدأت تزحف نحو المناطق الأكثر انخفاضاً وتنشر البرودة القارسة فى قارات بأكملها . ثم انعكست العملية بعد ذلك ، وبدأ

الجليد يتقهقر حتى اختفى ، وارتفعت الحرارة إلى درجة أعلى مما هى عليه الآن .

وقد تكرر ذلك أربع مرات ، كما كان كل عصر من عصور الجليد الأربعة ينقسم بدوره إلى عدد من المراحل الداخلية تبعاً لتقلبات درجة البرودة وشدتها . ولم تكن المسألة تشبه بالضبط حركة ارتفاع المد وانخفاضه ، وإنما كانت أشبه بالمد الذى يرتفع ، ثم يتردد ويتوقف بعض الوقت ، ثم ينخفض قليلا ليعود إلى الارتفاع من جديد ، ثم يختفى كلية ويظل مختفياً فترة أطول مما ينبغى أو مما يتوقع من المد . وقد حدث ذلك بوجه خاص فى الانحسار الجليدى الثانى ، أى فى الفترة الثانية التى تفصل بين العصور الجليدية .

وقد أدى زحف الثلاجات بطبيعة الحال إلى دفع مناطق الحرارة والمناخ أمامها نحو الجنوب . فالأراضى القريبة من الجليد كانت جرداء مجدبة ومناطق تندورا كما هو الحال الآن فى أقصى شمال كندا وسيبريا . ويأتى بعدها مناطق تغطيها غابات التنوب والشربين ثم الغابات المعتدلة أو الأراضى المغطاة بالأعشاب والحشائش . وقد تزحزحت هذه المناطق نحو الجنوب فى الأطوار الجليدية وتعرضت المناطق التى لا يسقط عليها الثلج للأمطار الغزيرة . وبانتقال المناطق المناخية كان لا بد من أن تنتقل أيضاً الحيوانات التى تعتمد عليها . وفى أوائل البليستوسين بدأ عدد كبير من الأجناس والأنواع الحيوانية — وبخاصة الفصائل الحديثة من الخيول والفيلة والإبل والماشية — تتخذ شكلا جديداً متطوراً يختلف عن الأشكال الأصلية التى انحدرت منها وكانت هذه الأنواع وغيرها تتقدم نحو الأمام أو تتراجع إلى الخلف تبعاً لتغيرات المناخ ، وهذا هو السبب فى أننا نعثر على حفريات الفيلة والأسود فى انجلترا وحفريات الوالرس walrus (حيوان بحرى) فى چورچيا وثيران المسك musk oxen فى أركنساس .

وبتقدم العصر الجليدى انقرض كثير من تلك الأنواع كما انقرضت الأنواع الأقدم منها . ولكن كل مرحلة تركت وراءها رواسب تضم مجموعات مختلفة من الحيوانات . وهذه الحقيقة مع ما نعرفه عن دور الثلاجات المتتابعة فى ترسيب الرمال والحصى فى وديان الأنهار أو ارتفاع وانخفاض سواحل البحار وشواطىء البحيرات قد توضح لنا الكثير عن عمر الآلات الحجرية التى عثر عليها فى تلك الرواسب ذاتها . وتنقسم الحيوانات على الخصوص إلى ثلاثة أقسام رئيسية هى : حيوانات البليستوسين الأدنى (ويشمل الطور الجليدى الأول وفترات الانحسار التى تخللته) وحيوانات البليستوسين الأوسط (الطور الجليدى الثانى وفترات الانحسار فيه) وحيوانات البليستوسين الأعلى (الطوران الجليديان الثالث والرابع وفترات الانحسار فيهما) . ومن سوء الحظ أن تجميع كل هذه الحقائق وبخاصة من مختلف بقاع العالم ومحاولة ربطها معاً أمر أشد تعقيداً مما قد يبدو لأول وهلة ، كما أن هناك قدراً كبيراً من التردد والشك بخصوص تحديد موضع بعض البقايا البشرية فى أطوار العصر الجليدى .

بساطة الأدوات وبطء التغير

ولننظر الآن إلى صناعة الأدوات الحجرية . إن أقدم هذه الأدوات يرجع إلى بداية البليستوسين رأساً ، بل يحتمل أن تكون ظهرت بالفعل قبل الزحف الجليدى الأول . وكانت حينذاك عبارة عن آلات قاطعة بسيطة للغاية يصنعونها من الحصيات الكروية بعد كسرها للحصول على حد مرهف وقد وجدت هذه الآلات فى شمال أفريقيا . وبعدها بقليل ظهرت آلات أخرى مصنوعة من الحصى أيضاً ولكنها تكشف عن درجة على من الإتقان وذلك فى شرق أفريقيا (الثقافة الكافية Kafuan) وجنوبها (ثقافة ماقبل الستلنبوش *Pre-Stellenbosch*)
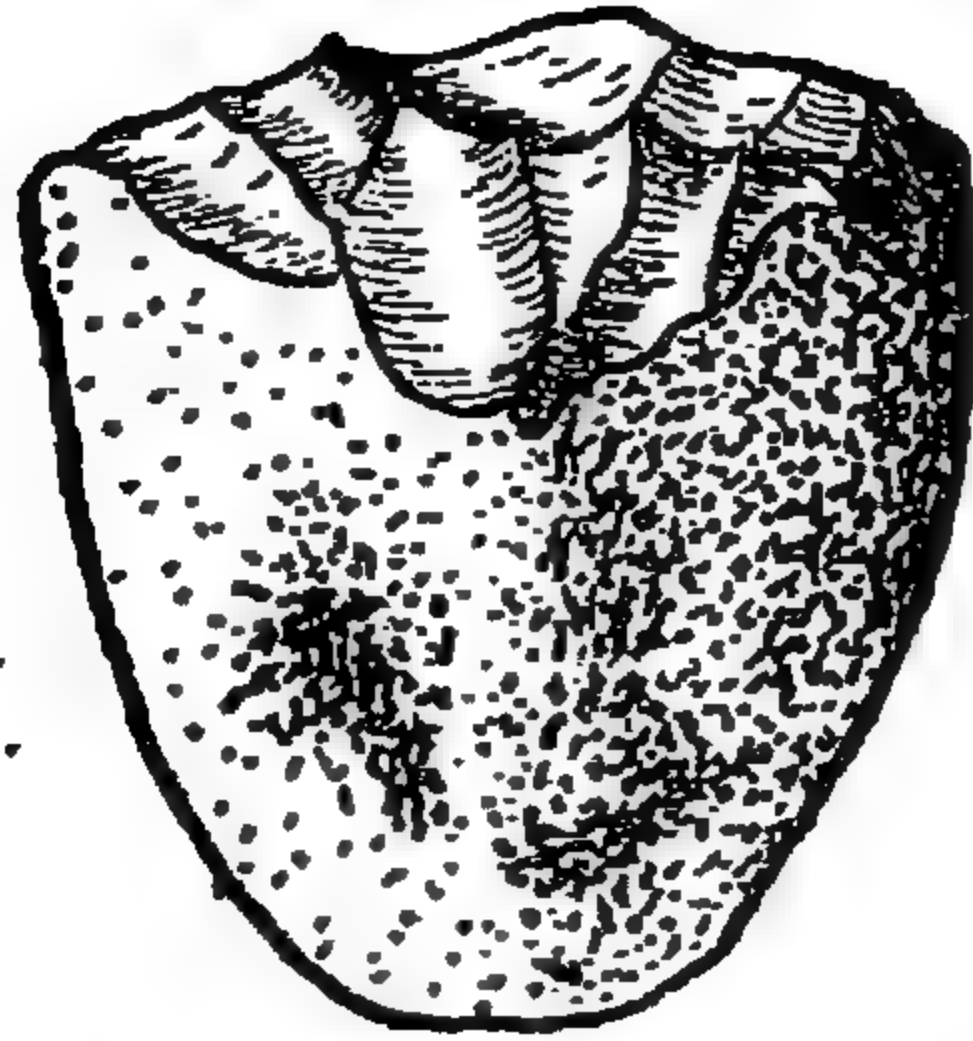
آلة مصنوعة من حصاة ترجع الى أوائل البليستوسين

وجاء بعد ذلك نوع آخر من الآلات فى أوروبا وفى كل أنحاء أفريقيا وهى فأس اليد الآبيفيلية Abbevillian hand-axe ويحتمل أنها ظهرت فى الوقت ذاته الذى كانت تصنع فيه الآلات السابقة. وعلى أية حال فإنها ترجع إلى الفترة الدافئة الأولى من العصر الجليدى على الأقل. ولكى تأخذ فكرة عن شكل فأس اليد تستطيع أن تتخيل قلادة أو قرطا من الطراز القديم مصنوعا من حجر الحشت أو الياقوت الأصفر على شكل الكمثرى ولكنها مفرطحة بعض الشىء بحيث تكون لها حافة واضحة حولها، وان قشرتها الخارجية تحتفظ بالشىء الكثير من الخشونة وعدم الانتظام، وأن طول الأداة كلها من الطرف السميك إلى الطرف الرفيع يبلغ حوالى سبع بوصات، وأنها مصنوعة من الصوان. وكلمة «فأس اليد» تسمية قديمة، ولكنها لا تعنى أننا نعرف الطريقة التى كانت تستخدم بها أو أنها كانت تمسك فعلا باليد أو أن أيدى الناس الذين صنعوها كانت أضخم وأقوى حتى يمكنهم استخدامها كسلاح يمسك باليد الواحدة. فنحن على ثقة من أنهم لم يكونوا يستخدمونها بهذه الطريقة لأنها كانت من ثقل الوزن بحيث يصعب هزها مثلما نفعل بالفأس العادية ذات المقبض أو اليد. ومن الجائز أنها كانت تستخدم باليدين معا لاقتلاع الجذور والخضراوات البرية. وربما كانت تستخدم لكسر غلاف الفواكه الجافة أو غلاف جوز الهند، وبذلك كانت

تقوم بالمهمة التى تعجز عنها أنياب أجدادنا غير النائتة . ولكننا لاندرى تماماً . وقد نستطيع فى يوم من الأيام أن نعرف وظيفتها إذا توافرت
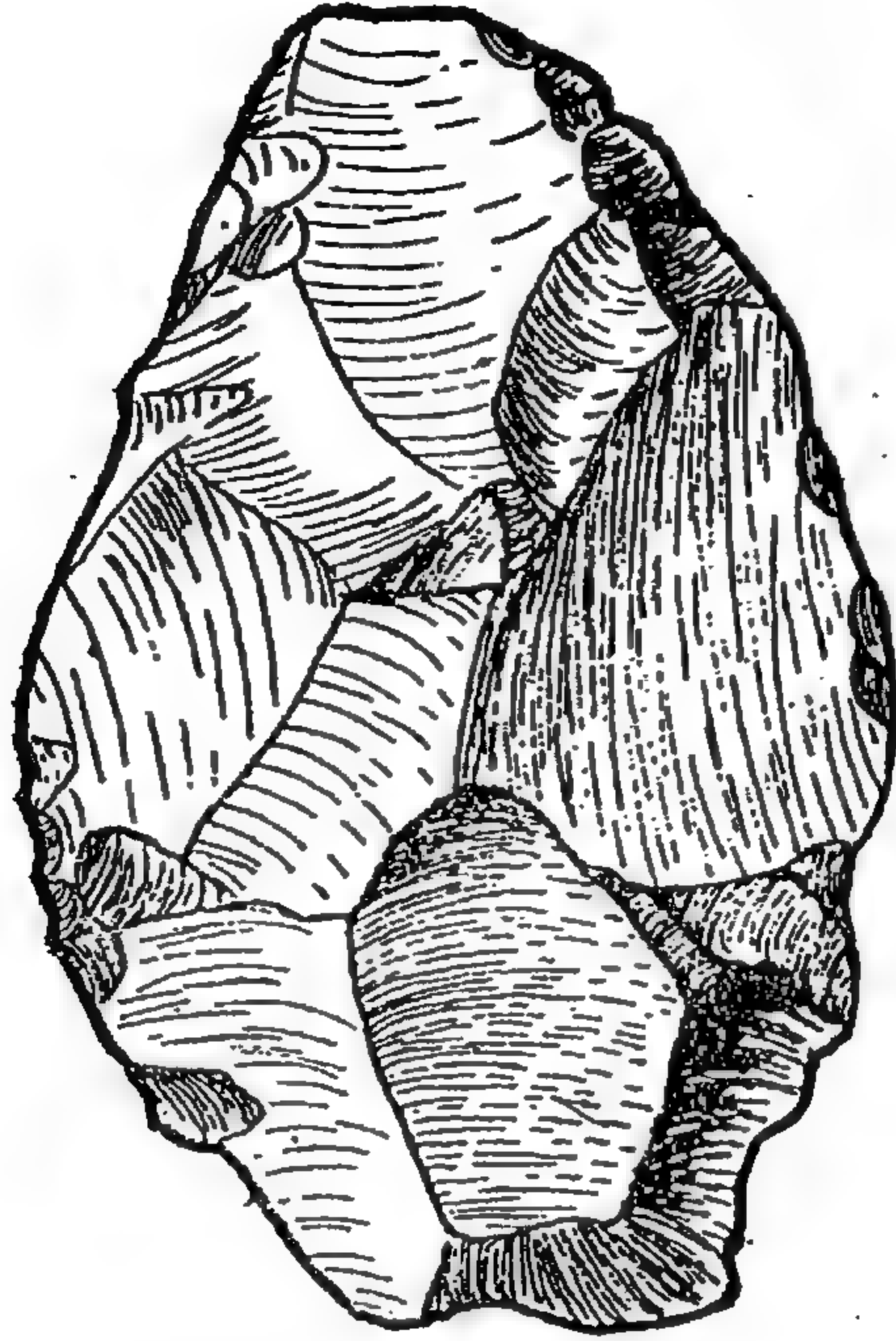
فأس يدوية أبيفلية

لدينا معلومات أفضل عن البيئة التى ظهرت فيها . ويبدو أن ظهورها كان يتلازم على العموم مع الجو الدافىء والمناخ المعتدل . ولاغرابة فى ذلك ، إذ ربما كانت الشعوب البدائية فى تلك العصور تحاول الابتعاد بقدر الإمكان عن الثلاجات .

وفى الوقت ذاته كانت الشظيات والشطفات الفجة المصنوعة من الصوان تستخدم فى التقطيع أو التقشير والحك . وكان يوجد إلى جانبها بغير شك أدوات أخرى من الحجارة ذات أشكال غير واضحة بحيث أثارت كثيراً من الجدل بين علماء الآثار حول تحديد طبيعتها ، كما كان يوجد كثير من الأدوات المبهمة العرضية التى لا يمكن التعرف عليها إطلاقاً كآلات . وكان الناس يتبعون فى تشكيل كل هذه الأدوات أبسط الوسائل الممكنة . وأهم هذه

الوسائل هو طرق الشيء المراد تشكيله وتشظيته بصخرة أخرى . أما فى حالة صنع فأس اليد مثلا فكانت تستخدم إحدى عمليات الشطف والتشظية الأكثر دقة وإتقانا ، فكانت الآلة ذاتها تمسك بكلتا اليدين ثم تطرق فوق قطعة حجر أخرى من الحجارة تستخدم بمثابة سندان وبذلك كان يمكن الحصول على شطفات كبيرة . وأغلب الظن أن هذه الطريقة هى أول مايطرأ على بال الإنسان الحديث رغم كل تقدمه العقلى إذا أراد أن يقوم بمثل هذا العمل . ولكننى لا أعتقد أنه يتمسك بها عهودا طويلة قبل أن يبتكر ذهنه وسائل أخرى أفضل منها . وعلى أية حال فقد أمكن إدخال مثل هـــذه التحسينات بعد لأى وطول مثابرة ومعاناة وبطء شديد استغرق مئات الآلاف من السنين .

وبعد أن جاء الطور الجليدى الثانى وانقضى ، دخل على شكل فأس اليد فى أوروبا وأفريقيا بعض التحسينات والتقدم فيما يعرف باسم الصناعة الآشولية Acheulean فأصبحت أكثر استواء وأخف وزنا ، كما بدأت تميل على العموم إلى الشكل البيضاوى وتكشف عن درجة أعلى من الإتقان فى الصنعة ، كذلك أصبحت أطرافها أكثر استقامة وحدة نتيجة لاستخدام مطارق من العظام أو الخشب فى صنعها وتشكيلها . وكان الطرق بهذه المطارق على أطراف الآلات دائما يعطى شطفات أكثر انتظاما من تلك التى كان يحصل عليها باستخدام المطرقة المصنوعة من الحصى المدبب . أما الآلات المشطوفة التى كانت شائعة فى أوروبا والتى تعرف باسم الآلات الكلاكتونية Clactonian (نسبة إلى Clacton-on-sea فى إنجلترا) فقد ظلت على حالها من الفجاجة والسذاجة .

وقد ظهرت فى ذلك الوقت — ولأول مرة — آلات حجرية فى الشرق الأقصى : فى الصين وبورما والملايو وجاوة . وكانت الآلات المصنوعة من الحصى هى أقدم ماعرفته الصين : والطراز العام لأدوات الشرق الأقصى

كله يشبه هذه الآلات . لقد كانت كلها عبارة عن مكاشط ذات أحجام معقولة ولها حافة مشطوفة تمتد على طول أحد جوانبها وتؤلف شيئاً مختلفاً
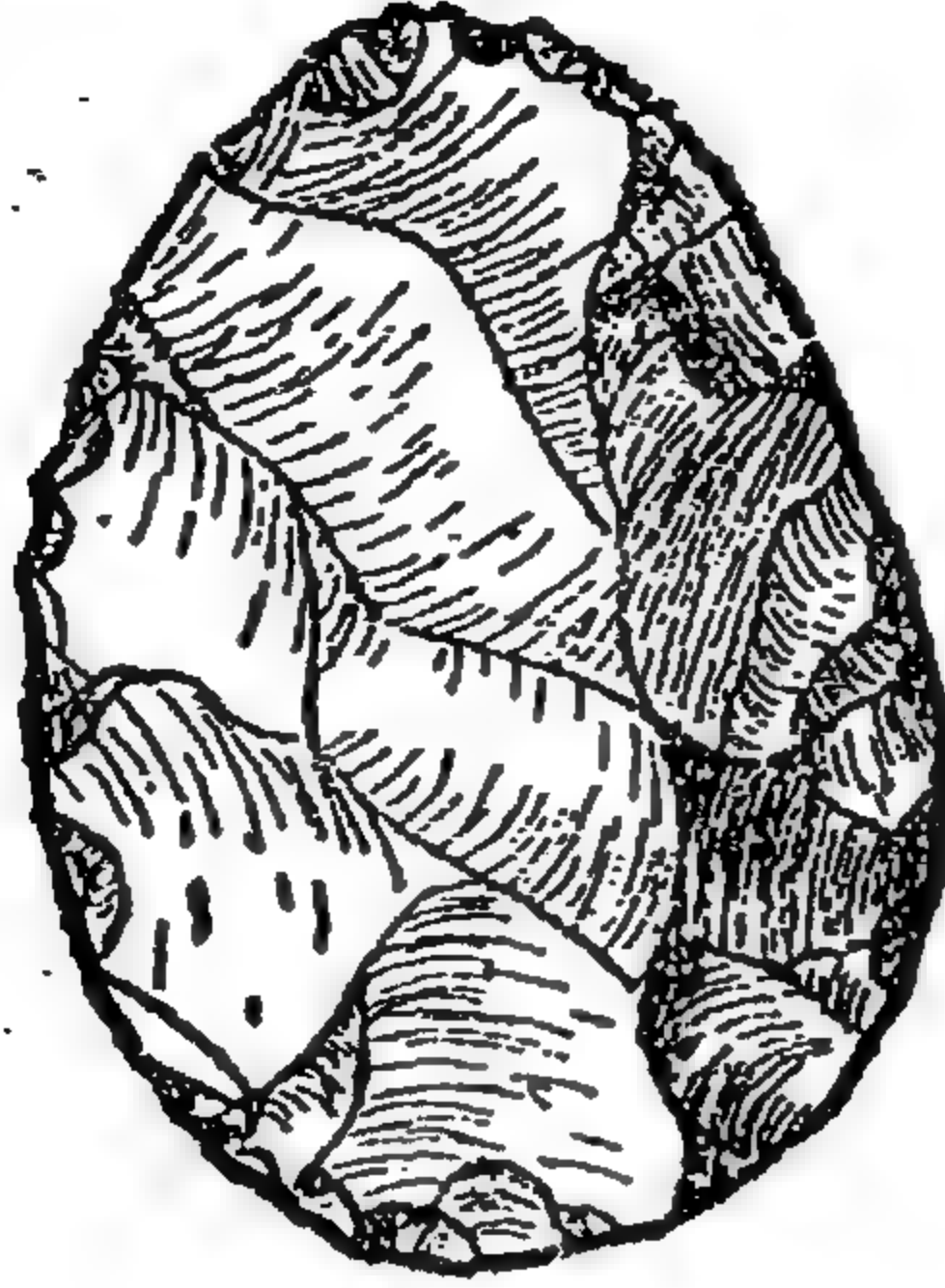
فأس يدوية أشولية

تماماً عن فأس اليد ذات الوجهين التى كانت تصنع فى الغرب . وقد كانت هناك بعض اختلافات محلية فى تفاصيل تلك الآلات نشأت — إلى حد ما — من نوع الحجر المستخدم فى صنعها . (ففى بورما كانت المكاشط والمقاطع
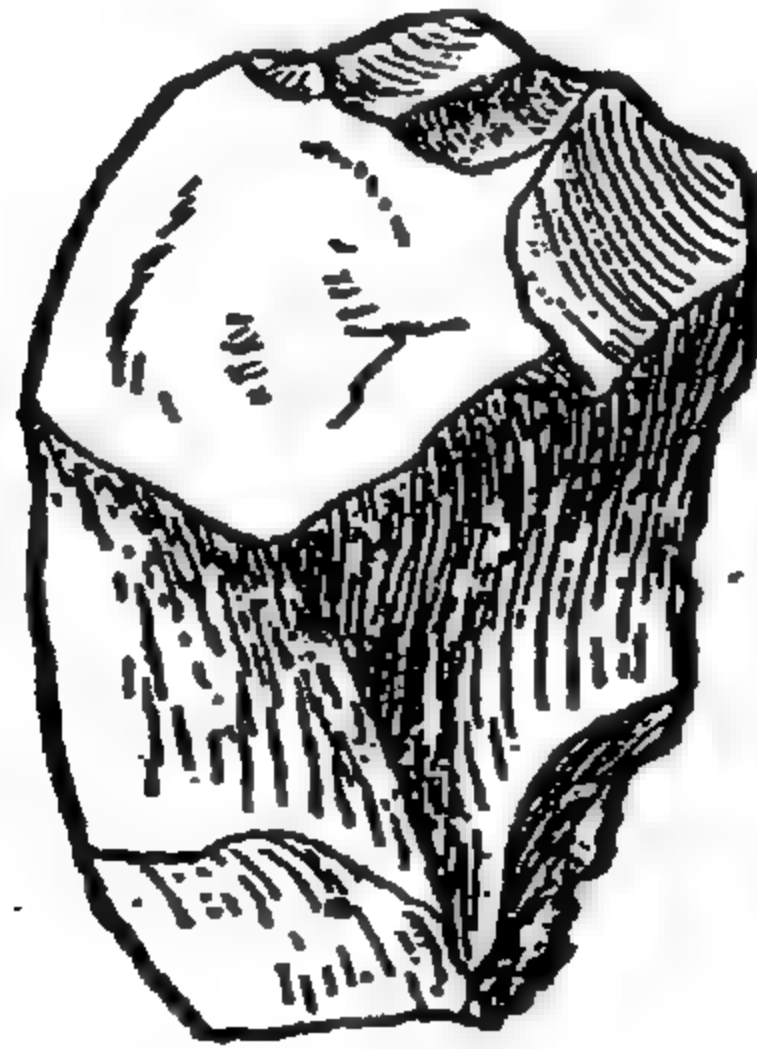
مكشط من أحد كهوف بكين

تصنع من الخشب المتحجر) كذلك كانت هناك بعض الآلات المشطوفة ، بيد أن المنطقة كلها تقف مستقلة ومتميزة تماماً عن الغرب . وتعتبر الهند هى آخر حدود تلك المنطقة . وزيادة على ذلك فإنه يبدو أنها بدأت متأخرة وأنها تباطأت وتخلفت فى تطورها كما حدث لجنوب أفريقيا منذ ذلك الحين .

أفكار جديدة عن الشطف

فى أواخر تلك الفترة ، أى البليستوسين الأوسط ، حدث تقدم آخر فى طريقة الشطف فظهرت الطريقة الليڤالوازية Levalloisian . فالآلة المشطوفة على عكس الآلة المصنوعة من حصاة — وكذلك فأس اليد تصنع من شطفه رقيقة تفصل هى ذاتها عما يسميه العلماء « اللب Core » والطريقة الليڤالوازية سهلت الحصول على ذلك الشكل عن طريق الإعداد والتمهيد لذلك : ففى البداية كانت قطعة اللب تشطف على هيئة صدفة السلحفاة ثم يهيأ فيها جزء مسطح مستو كما لو كانت كشطت رأس السلحفاة وكشطت معه جزءاً من القشرة الصدفية . وبالطرق على هذا السطح المستوى الذى يعرف باسم « الرصيف » بشىء من العناية والبراعة ينفصل تاج صدفة السلحفاة فى شكل شطفه أو قشرة ملساء من أحد وجهيها ولكنها خشنة مموجة من الوجه الآخر . ويمكن استخدام
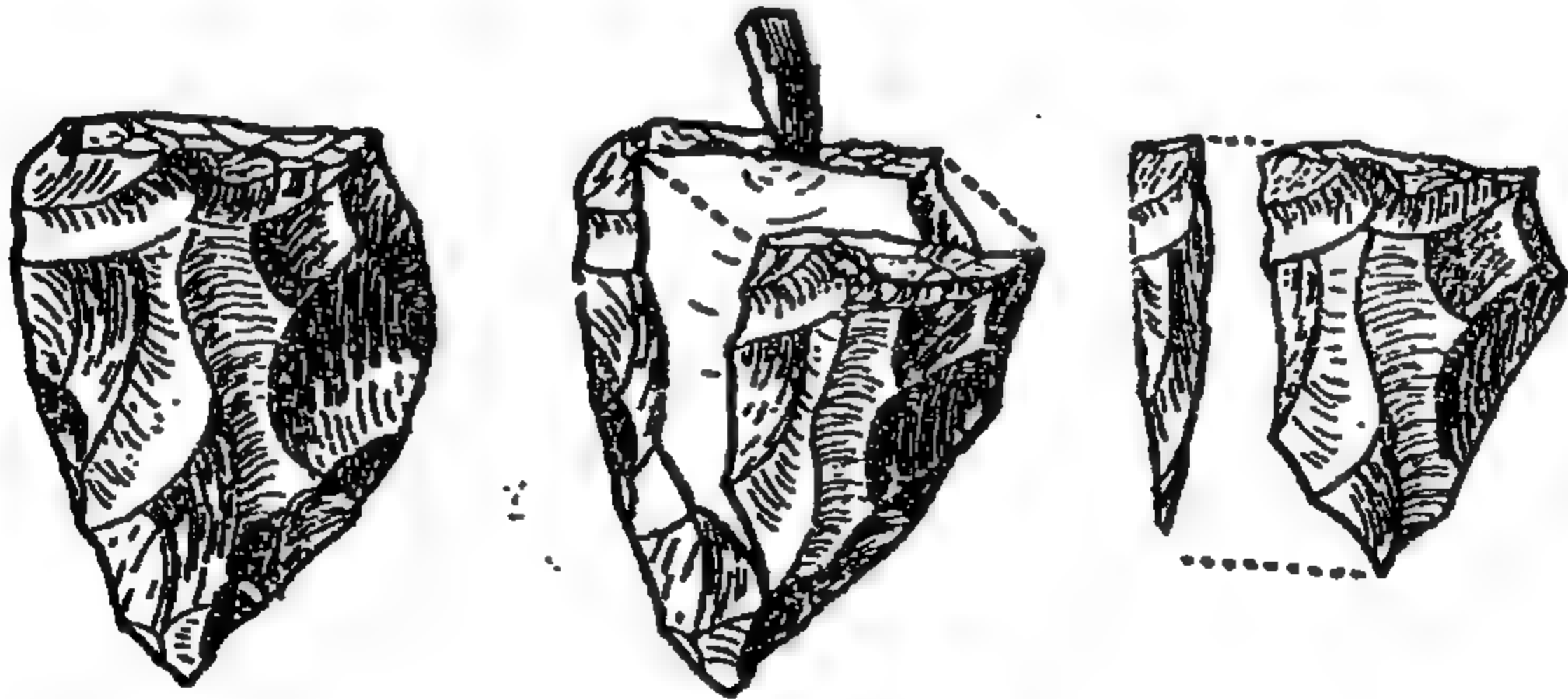
صنع شطفة بالطريقة الليڤالوازية

هذه الشطفة — من الناحية العملية — كرأس حربة غير مصقولة أو سكين أو مقشرة بحسب الأحوال . وتعتمد الطريقة الليڤالوازية إلى حد كبير على التحكم الهائل فى الصورة الأساسية للآلة ولذا كانت تعتبر فكرة هامة بالنسبة لمستقبل صناعة الأدوات الحجرية .

وبعد ذلك أيضاً أمكن لشعوب العصر الموستيرى صنع شطفات مماثلة ولكن بطريقة أخرى لإستخدامها كآلات ، وكان يستخدم فى ذلك لب

من نفس النوع العام، ولكن الشطفات كانت تصنع مباشرة عن طريق الطرق من الطرف تجاه الوسط أو « القبة ». وكانت تلك الشطفات تستخدم بعد ذلك بدلا من الغائها كما كان يحدث من قبل حين كانت تعتبر مجرد خطوة فى سبيل إعداد « القبة » لعمل شطفه من النوع الليفالوازى، ثم تشذب الشطفة كلها بتكسير الشظيات الثانوية . وهذا فى حد ذاته يعتبر طريقة فنية جديدة .

وهذا يؤدى بنا إلى آخر وأرقى طور من أطوار الثقافة الإنسانية فى العصر الحجرى القديم الأدنى الذى استمر فترة طويلة، وأعنى به الانحسار الجليدى الثالث والجزء المبكر من الزمن الجليدى الأخير . فخلال هذه الفترة التى تزيد على نصف المليون سنة فقدت الآلات الحجرية كثيرا من خشونتها

سن موستيرية
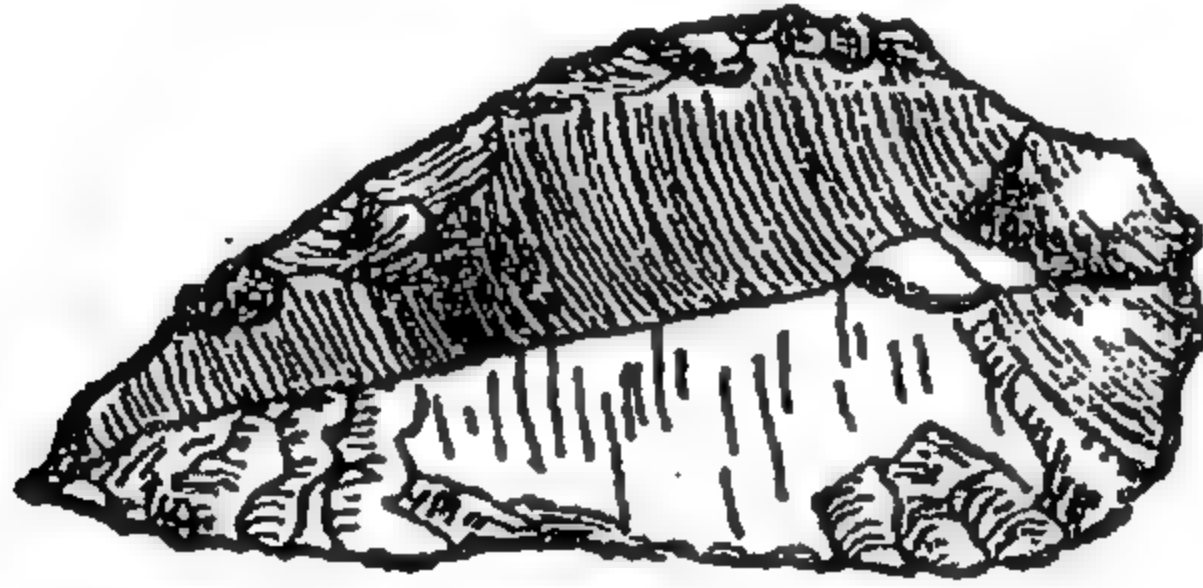
وفجاجتها الأولى واتخذت أشكالا محددة وأصبحت أكثر تأثيرا، ولو أنها لم تبلغ أبدا فى ذلك مابلغته رؤوس السهام التى يصنعها هنود أمريكا . ولقد انتشرت الطريقة الليفالوازية انتشارا واسعا كما انتشرت الطريقة الأشولية التى أصبحت تستخدم فى صنع نوع من الفؤوس اليدوية الصغيرة نسبيا التى تتميز بطابع خاص . وظهرت إلى جانب هذه الآلات صناعة أحدث، هى الموستيرية التى ترتبط بعض الشىء بالطريقتين الآخريين بل ويحتمل أن يكون علاقة أيضاً بطريقة الشطف القديمة البسيطة التى أصبحت تستخدم أيضا للحصول على شطفات ثانوية جيدة . وفى أوروبا الغربية ارتبطت الطريقة الموستيرية بأواخر عهد إنسان نياندرتال، وهكذا أخذت كل تلك الطرق

المختلفة فى صناعة الصوان تتقارب بعضها من بعض لتنتج آلات متوسطة أو صغيرة ولتساعد على قيام بعض الاختلافات والمميزات فى المناطق المختلفة ولكن الأساليب أو الطرز الرئيسية كانت لا تزال منتشرة فى مناطق واسعة تغطى كل أوروبا ومعظم أفريقيا وتمتد متغلغلة فى الشرق الأدنى وأواسط آسيا والهند. أما الشرق الأقصى فقد تمسك بمكاشطه القديمة ولم تظهر هناك ابدا فأس اليد أو طريقة الشطف الليفالوازية.

وعلى ذلك فإن كل مانعرفه عن الثقافة منذ البداية حتى نهاية العصر الحجرى القديم ينحصر — من الناحية العملية — فى الصناعات الحجرية، أوهذا على الأقل هو كل مايمكن دراسته بطريقة منهجية. والظاهر أن العظام وقرون الوعول لم تستعمل بحال، وهو أمر يدعو إلى الدهشة. ومن الجائز أنها تحللت تماما فى كل الرواسب القديمة جدا. ولكن هذا ليس الجواب الكامل إذ كان يمكن أن تبقى فى كهوف بكين التى ترجع إلى الفترة الدافئة الثانية من العصر الجليدى خاصة بعد أن عثر فيها على مقادير وفيرة من قرون الوعل والعظام فى شكلها الطبيعى غير المصنوع. (وقد استخدم الإنسان بعضها، ولكن المشكوك فيه هو ما إذا كان تعمد تشكيلها وصنعها). كذلك استخدمت الشعوب الموستيرية السندان المصنوع من العظام فى صناعاتهم الحجرية كما استخدموا بعض العظام المشقوقة الخشنة كالآت للسلخ. وهذا على مايبدو هو كل شىء.

أما بقية ما يمكننا أن نقوله فيتألف من بعض المعلومات المتفرقة والتخمينات العشوائية. ففى أول الأمر لم تبعد الثقافة الإنسان عن الطبيعة كثيراً. فاقتصاده لم يكن يختلف فى الحقيقة عن اقتصاد القردة العليا: فقد كان يجمع ما تقدمه الطبيعة ويقتات به، وكان ينفق فى ذلك كل وقته. ومن الجائز أنه كان «يجمع» اللحم أيضاً — على الأقل حتى مرحلة الإنسان القرد — وليس النباتات فقط. ولكننا نستطيع أن نكون فكرة صحيحة بعض الشىء عن طعامه فى المرحلة المتقدمة قليلا فى بعض الأماكن مثل كهوف بكين حيث وجدت عظام الحيوانات جنبا إلى جنب مع بذور

الفواكه ، كما وجد شيء أكثر أهمية من ذلك وهو الفحم الخشبي ، مما يدلنا على أن إنسان بكين كان فى تلك الفترة الدافئة الثانية يستخدم النار بالفعل. والطبخ هو عامل هام مساعد للهضم . وهذه ثقافة بكل معانى الكلمة .

ومن المحتمل أن هؤلاء البشر لم يكونوا يستخدمون الكهوف كمأوى وملجأ إلا عرضاً، كما كان يفعل الإنسان القرد . ولسنا ندرى إذا ما كانوا قد عرفوا الملابس ، ولكن يحتمل أن الحياة لم تصل إلى تلك الدرجة من الشكلية إلا بعد ذلك بكثير عند شعوب العصر الموستيرى لأنهم كانوا يعيشون قرب الثلاجات ولأن أدواتهم توحي بأنهم كانوا يعرفون الصناعات الجلدية . وهناك سمات أخرى تدل على الاهتمام بالرسميات . فلم يكن عند الشعوب الموستيرية فنون، ولكن كان عندهم ولا شك أفكار دينية . فقد تركوا لنا فى الكهوف السويسرية ما يشبه الأضرحة المشيدة من جماجم الدببة التى كانوا يقتلونها ، كما كانوا يدفنون موتاهم على عكس إنسان بكين . فلقد كان لإنسان بكين لسوء الحظ أفكار مختلفة عن « الدفن » : لقد كان يأكل بعضهم بعضاً ويشقون قصبة الساق والجماجم ثم ينثرون الفضلات المريعة حول الكهف لكى نعثر نحن عليها فى هذا القرن . وهم يشبهون فى ذلك — على ما يظهر — الإنسان القرد الذى تحمل بعض جماجمه نفس نوع الجروح التى تحملها جماجم قردة الرباح التى كانوا يستخدمونها فى طعامهم ، وهى جروح تنتج عن الضرب بهراوات العظم .

ومهما يكن من أمر ما قد نكشفه — أو ما لا نكشفه — عن الثقافة فى مرحلة الفجر الطويلة ، فالشيء الذى يسترعي الانتباه حقاً هو ذلك البطء المؤسف الذى تم به تغير الثقافة وتقدمها . ولقد استعرضت فى هذا الفصل الذى يعالج العصر الحجرى القديم الأدنى كل العصر الجليدى تقريباً . ومما يدعو إلى الدهشة أن ثقل الوزن والفجاجة اللذين كانا يميزان معظم الآلات القديمة استمرا وقتاً طويلا من الزمن حتى بعد أن تأثرت حياة الناس تأثراً قوياً بتلك الآلات وأفادت منها . ولكن ربما تكون حيرتكم قد قلت بعد أن عرفتم إنسان ذلك العصر .

٦

الإنسان المبكر

إن ما نعرفه عن آلات العصر الحجرى القديم الأدنى يفوق بكثير جداً مانعرفه عن الأقوام الذين صنعوا تلك الآلات . فحفريات الإنسان المبكر نادرة للغاية ، ولايزال هناك كثير من النقاط الغامضة عن الطريق الذى سلكته الإنسانية فى تطورها فى عصر البليستوسين ، بل وأيضاً عن الأسلاف الحقيقيين الذين انحدرنا نحن منهم .

وقد تكون لدينا بعض المعلومات الصحيحة عن مرحلة إنسان جنوب أفريقيا australopithecine . فنحن نعرف مثلا أن ذلك السلف الدخيل الطارىء — أياً ما تكن قرابته إلينا — كان أصغر بعض الشىء فى الحجم من الإنسان الحديث، وأنه كان يمشى منتصب القامة، كما يدل على ذلك شكل عظام الحوض وبعض أجزاء هيكله العظمى التى عثر عليها . كذلك نعرف أن جمجمته كانت ترتكز فى وضع معتدل على العموم فوق عموده الفقرى ، وأن مخه كان يحتل موضعاً أكثر ارتفاعاً منه عند القردة العليا ، بينما كان وجهه يمتد إلى أسفل بشكل واضح .

ومع ذلك فقد كان رأس إنسان جنوب أفريقيا يبدو أقرب إلى رؤوس القردة العليا . فقد كان الفكان — حتى فى النماذج الصغيرة — يتميزان بالضخامة والصلابة كما كانا يبرزان فى بعض الحالات بروزاً شديداً . كذلك كان الفك الأسفل فى الأنواع الكبيرة عريضاً عند الجانبين بشكل غريب وتبرز منه أضراس كبيرة : أى إن الفكين كانا يشبهان فكى القردة فى الحجم لا فى الشكل خاصة وأن الجزء الخلفى منهما كان عريضاً بدلا من أن يميل إلى الامتداد والاستطالة ، وكذلك لعدم وجود تلك الأسنان الأمامية العريضة النائتة

التى توجد فى فكى الغوريلا والشمبانزى . وقد كان المخ قريبا من حجم مخ القردة العليا وإن لم يكن يماثله تماما ؛ فقد كان يتفاوت بين حوالى ٥٠٠ أو ٦٠٠ سم^{٣} من ناحية (وهو أقصى ماوصلت إليه أمخاخ الغوريلا) وحوالى ٨٥٠سم^{٣} من الناحية الأخرى . هذا طبعا إذا جاز لنا أن نعتمد على التقديرات الدقيقة التى بنيت على بعض النماذج التالفة ، وهى زيادة هائلة تعلو كثيرا على مانجده فى كل أنواع القردة العليا . وتعتبر هذه الزيادة خطوة هامة فى سبيل الاقتراب من رقم ١٤٥٠ (تقريبا) الذى نجده عند الرجل الأمريكى العادى فى الوقت الحاضر .

وقد وجدت كل حفريات إنسان جنوب أفريقيا فى ركن واحد من أفريقيا . ولكن عثر على بعض البقايا التى تشبهها فى أماكن أخرى متفرقة ؛ فقد وجدت أحد تلك الأجزاء مثلا فى مكان ما من شرق أفريقيا كما وجدت بعض أجزاء أخرى فى أحد مخازن العقاقير فى هونج كونج . ففى تلك المخازن التى تنتشر فى الأحياء التى يسكنها الصينيون تباع الحفريات (عظام التنين) للناس فيسحقونها ويتناولونها كدواء . وقد عرف ذلك عالم الحفريات الهولندى الدكتور فون كونيجزڤالد Dr. von Koenigswald فأصبح من أفضل عملائها ، لا لأنه يعانى اضطرابا فى المعدة ، ولكن لأن ذلك كان يتيح له الفرصة لفحص عدد كبير من الأسنان الحفرية التى كانت تجلب من داخل الصين ، على أمل أن يعثر بينها على أنواع جديدة . ولقد اشترى من هونج كونج ثلاثة أضراس على الأقل كانت تنتمى بغير شك إلى كائن قريب الشبه بالإنسان — كالإنسان القرد مثلا — وهى من نفس النمط الرئيسى الذى تنتمى إليه أضراس الآدميات ، أى القردة العليا والإنسان ، لأنها تتميز بتلك التيجان العالية والأطراف غير الحادة التى تعتبر من خصائص أضراس الفرع البشرى من تلك السلالة . وقد أطلق على صاحب هذه الأسنان المجهول اسم « الإنسان العملاق Gigantopithecus لأن أسنانه كانت أكبر وأضخم من كل أسنان الرئيسات التى عثر عليها .

كذلك وجد كونيجزڤالد فى جاوة قطعة من فك أسفل به بضعة أضراس خلفية . ومع أنها كانت أصغر من القطعة السابقة إلا أنها كانت أكبر فى الحقيقة من كل الأجزاء التى كان قد عثر عليها حتى ذلك الوقت ، وذلك باستثناء بقايا إنسان جنوب أفريقيا وقد اعتقد كونيجزڤالد أنها ترجع إلى الفترة الدفيئة الأولى (وربما إلى الطور الجليدى الثانى) من البليستوسين. ويمتاز ذلك الجزء الحفرى بالصلابة وبكبر مقاييسه عما نجده لدى الغوريلا ، ولكن مقدمته كانت غير مدببة وتميل إلى الاستدارة على ما نجد فى فك إنسان جنوب أفريقيا ، كما أن الأسنان كانت من النوع نفسه ، ويحتمل أنه كان ينتمى إلى فصيلة أخرى من الإنسان القرد الذى كان يستوطن الشرق الأقصى ، أو ربما كان ينتمى إلى نوع أكثر تقدما من الإنسان القرد وأكثر قربا إلى الإنسان الحديث . وقد أطلق عليه اسم « الإنسان الضخم أو الهـائل Meganthropus » . وقد أثار العثور على تلك الأسنان فى عام ١٩٤١ فزعا يماثل ما أثاره ظهور الإنسان العملاق ، كما أثار كثيرا من الحديث والجدل حول « عملاق جاوة الذى يبلغ ارتفاعه تسع أقدام » والواقع أنه ليس لذلك « العملاق » وجود على الإطلاق إلا فى سجلات وملفات الجرائد والصحف . وكلما اكتشفت بعض الحفريات البشرية أو حفريات جديدة لإنسان جنوب أفريقيا أخرج رؤساء تحرير الصحف ذلك العملاق من ملفاتهم ونفخوه مرة أخرى – كما لو كان لعبة من لعب الشاطىء – ليعقدوا المقارنات ويثيروا المشاعر والخواطر .

وكان من نتائج العثور على الإنسان الضخم والإنسان العملاق أن اعتقد الدكتور ڤايدنرايخ Dr. Weidenreich أيضا أن الإنسان على العموم مر فى أوائل حياته بمرحلة كان يمتاز فيها بضخامة الجسم إلا أن معاودة النظر فى الإنسان القرد وبخاصة فى الأنواع التى كشف عنها حديثا تبين لنا أنه كثيراً ما كان يحدث فى فرع الآدميات البدائية أن تحتفظ الأفراد الصغيرة

الحجم – أو على الأقل تلك التى لا يزيد حجمها على الحجم العادى – بفكوك ضخمة . والواقع أن كل الحفريات المعروفة تشير إلى أن حجم الإنسان الحالى لا يكاد يختلف عما كان عليه فى أى وقت مضى، وأنه كان يحتفظ بهذا الحجم تقريبا طيلة عصر البليستوسين .

والحق أن هياكل الإنسان القرد أو ما يعرف منها لا تختلف عن هياكل الإنسان الحالى إلا قليلا جدا ، ولكن عظام الجمجمة تكشف عن فوارق واضحة فى التفاصيل . ولقد ذكرت أن هياكلها كانت تميل إلى الانتصاب والاعتدال اللذين يعتبران من الخصائص المميزة للإنسان . ثم طرأ عليها بعد تلك المرحلة شىء من التعديل بحيث اتخذت حفريات الهياكل البشرية الأخرى صورتها الحالية . وفيما عدا ذلك اقتصر اثر التطور البشرى على الرأس وحده ،وانحصر ذلك فى عملية تكبير المخ وتصغير حجم الأسنان ، وصحب ذلك كله بعض تغيرات أخرى مثل ضمور الوجه ، كما أصبحت قمة الجمجمة أقل سمكا وغلظة ، واكتمل اتزان وضع الرأس على العمود الفقرى .

الإنسان القديم فى الشرق الأقصى

ونستطيع أن ننتقل من ذلك إلى إنسان جاوة Pithecanthropus الذى لم يحرز فى هذا النوع من التقدم إلا النزر اليسير . فعظمة الفخذ عنده تشبه عظمة الفخذ فى الإنسان الحديث وتقاربها فى الحجم مما قد يدفعنا إلى الظن بأن بقية هيكله العظمى – إذا قدر لنا أن نعثر عليه فى يوم من الأيام – سيكون فى الأغلب من الطراز نفسه . بيد أن رأس إنسان جاوه يكشف عن ملامح أكثر وحشية وأشد تأخراً . فمع أنه يمثل طورا متميزا وأكثر تطورا من جمجمة إنسان جنوب أفريقيا ، إلا أنه يشبهها فى نتوء منطقة الفم نتيجة لضخامة الفك وكبر الأسنان (لأن الوجه كله يميل إلى الانحدار

والاستطالة عند القردة العليا) وإن كان ذلك النتوء أقل نسبياً عند إنسان جاوه ، كما أن مخه أكبر قليلا جداً بحيث لا يكاد يترتب عليه شيء ذو بال. ومن الجائز أن يكون حجم مخ الذكور قد وصل إلى حوالى ٩٠٠ سم٣ . وقد يمكن — بشيء من التسامح — أن أقول إن المظهر العام للجمجمة كان أقرب إلى شكل الجمجمة البشرية منه إلى جمجمة الإنسان القرد ، رغم أنها كانت تحتفظ ببعض الملامح البدائية المتأخرة . مثال ذلك أن تجويف المخ كان أكثر انخفاضا ، كما أنه لا يوجد أى أثر يدل على وجود الجبهة .وكانت جدران التجويف المخى أسمك ، وأغلظ منها عند الإنسان أو القردة العليا أو إنسان جنوب أفريقيا . وهذه نقطة أخرى ساعدت الدكتور فايدنرايخ على الاعتقاد بأن السلف الأول للإنسان كان عملاقا . كذلك كانت الأسنان الأمامية عند إنسان جاوة كبيرة نسبيا ونانئة مع وجود فجوة فى جانبى صف الأسنان العلوى لكى يدخل فيها طرف الناب السفلى — وهى سمة تنفرد بها القردة العليا دون الإنسان أو إنسان جنوب أفريقيا — مما يؤكد أن مقدمة الفم كانت عريضة وأشبه بفم القردة العليا .

وتتألف بقايا إنسان جاوة من عدد من عظام الساق ، وبعض الأجزاء الرئيسية من خمس جماجم (إحداها لطفل صغير) ، وعدد كبير من الأسنان وبعض عظام أخرى. وقد عثر عليها كلها فى شطوط الأنهار فى أماكن متفرقة فى وسط جاوة . والمعتقد أنها تنتمى إلى طبقات ترجع إلى الفترة الدافئة من الطور الجليدى الأول وإلى الطور الجليدى الثانى . أو ربما كانت ترجع

ثلاث جماجم لإنسان جاوة وإنسان بكين وإنسان صولو

إلى فترتين مختلفتين من الطور الجليدى الثانى .وعلى أية حال فإنها تنتمى إلى فترة طويلة جدا من الزمن . وعلى ذلك فمن المحتمل أن يكون إنسان جاوة قد عاصر فى المكان والزمان الإنسان الضخم، الذى يفوقه بداءة وتأخرا . كما يحتمل أن تكون فصائل إنسان جاوة التى ظهرت فيما بعد أكثر تطورا وتقدما — ولكن بدرجة طفيفة — من الفصائل الأولى المبكرة . ولكن ليس هـــذا بالأمر المؤكد ، إذ لم تعثر حتى الآن على أية قرائن ثقافية فى طبقات الرواسب التى وجدت فيها تلك العظام . والملاحظ على أية حال أن أشد المكاشط سذاجة فى جاوة ينتمى إلى الطور التالى مباشرة ، أى إلى الفترة الدافئة الثانية من العصر الجليدى . ونستطيع أن نقول إنها كانت من صنع أحفاد ذلك الكائن البشرى الذى حصلنا على عظامه .

ثم جاء إنسان كهوف بكين (إنسان الصين Sinanthropus) بعد إنسان جاوة مباشرة وكان ذلك فى أواخر الفترة الدافئة الثانية من العصر الجليدى . وليس هناك جديد فى الأدوات التى عثر عليها فى كهف متسع ملىء بعظامهم ذاتها ، فهى من نفس الطراز العام للمكاشط التى كانت تستعمل فى الشرق الأقصى كله . أما العظام البشرية ذاتها فقد وجد منها مقادير لا بأس بها ، إذ أمكن الحصول على أجزاء كثيرة متفاوتة الحجم لحوالى أربعين شخصا مختلفين . وقد ظهر من فحص أجزاء عظام الفخذ أنها من الطراز الحديث من حيث الشكل ، كما هى الحال عند إنسان جاوة ، وإن كانت أثقل فى تركيبها بعض الشىء .

وتكفى نظرة واحدة إلى الجمجمة لأن ندرك على الفور أنها تشبه فى أساسها جمجمة إنسان جاوة وأنها مجرد صورة معدلة منها . فالجمجات العظمية كبيرة ضخمة ؛ كما أنها تشبه إلى حد كبير فى شكلها العام جمجمة إنسان جاوة. ولكن حجم مخ الذكور كان يصل إلى حوالى ١١٥٠ سم٣ — أى إنه كان قريبا من حجم المخ الصغير جدا عند الإنسان الحديث . أما الجمجمة ذاتها فكانت أقل سمكا وغلظة مع وجود بعض علامات وآثار تدل على أن

عضلات العنق التى كانت تحمل الجمجمة من الخلف كانت أصغر فى الحجم . كذلك يدل الشكل العام للجمجمة على وجود نتوء خفيف ولكنه واضح فى المقدمة وهو يشير إلى موضع الجبهة . ويشبه الوجه فى عمومه وجه إنسان جاوة ، ولكن الفم كله يبدو منكمشا صغيرا . وتنتظم الأسنان الصغيرة فى قوس تشبه ما نجده عند الإنسان . كما يميل الفك إلى الصغر وقلة الانحدار فى المقدمة . ولم يكن للذقن — بالمعنى الدقيق للكلمة — وجود . وإن كان ثمة على الأقل نتوء خفيف فى موضعه من الفك . وعلى العموم فإن الفك لم يكن متراجعا بنفس الدرجة التى نجدها عند إنسان جاوة . لقد كان نصيب إنسان بكين من الذقن مثل نصيبه من الجبهة . ولم يكن نصيبه من أيهما بالشىء الكثير .

فالتشابه العائلى بين إنسان جاوة وإنسان بكين واضح إذن . وقد عاش فى جاوة أيضاً — ولكن فى زمن متأخر — إنسان آخر يحتمل أنه كان من نفس العائلة . كان ذلك أثناء الفترة الدافئة الثالثة من العصر الجليدى . أو ربما فى أثناء الطور الجليدى الرابع والأخير . أى فى الجزء الأخير من العصر الحجرى القديم على العموم . ونعنى به إنسان صولو Solo man وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه وجد فى ظروف قاسية فى نجاندونج Ngandong على نهر صولو . وهى تبعد أميالا قليلة فقط عن ترينيل Trinil — على الصولو أيضاً — حيث عثر على أول نماذج إنسان جاوة . وكان كل ما عثر عليه منه هو عظمى ساقين وإحدى عشرة جمجمة . وذلك فى أحد شواطىء النهر القديمة . والأكثر من ذلك أن تلك الجماجم كانت فارغة وخالية تماما من كل مكونات الوجه والفك . فلم يعثر حتى على سن واحدة . وكانت قواعدها كلها مهشمة نحو الداخل ، كما كان معظمها مقلوبا فى الحصى والرمال . ولعل فى ذلك ما يشير إلى ممارسة أكل اللحوم البشرية . ويبدو أن نماذج الصناعة الحجرية التى عثر عليها فى تلك الرواسب ضاعت فى أثناء احتلال اليابان لجاوة زمن الحرب .

وهنا أيضا نجد أن عظام الساق كانت رغم ضخامتها من الطراز الحديث، كما كانت الجماجم أغلظ بشكل واضح وأكبر من كل النواحي ، من جماجم إنسان جاوة القديم . ولكن حجم المخ ذاته كان أصغر مما يوحي به مظهر تلك الجماجم ، إذ لم يكن يزيد على مخ إنسان بكين إلا قليلا .
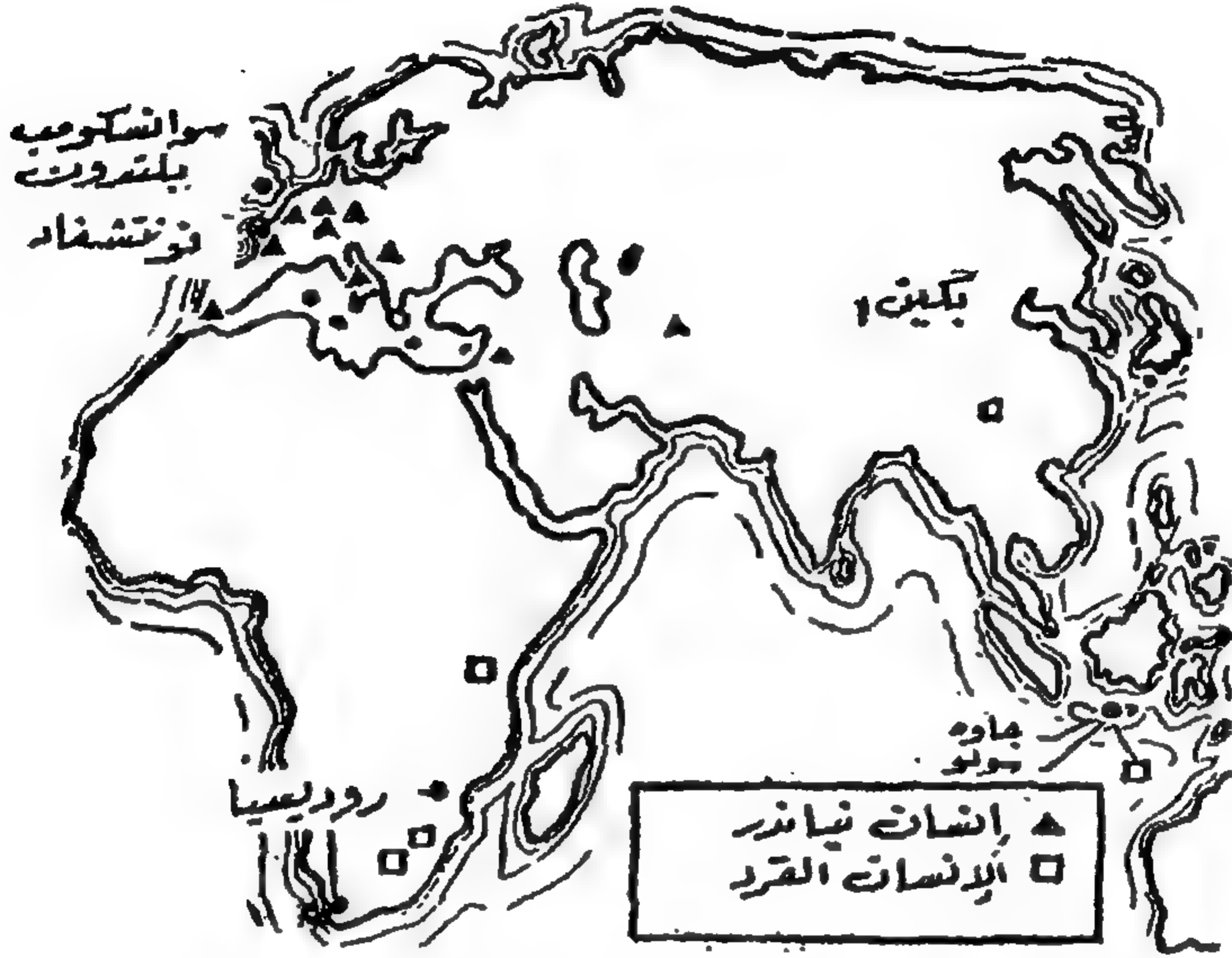
خريطة المواقع التي عثر فيها على الإنسان الحفري

كذلك كانت تلك الجماجم — وهي في ذلك تتفق مع الجماجم الأخرى التي وصفتها — مزودة بحواجز ضخمة من العظام تمتـــد مستعرضة فوق الحاجبين ، وكانت الجبهة ذاتها تنحدر إلى الوراء انحدارا شديدا تكاد تختفي معه . وتوجد في الناحية الخلفية بعض علامات واضحة تدل على ارتكاز الرأس بشكل اكثر اتزانا فوق العمود الفقري . وعلى العموم فإن جمجمة إنسان صولو تبدو كأنها احد الأشكال التي تطورت في تاريخ متأخر من جمجمة إنسان جاوة ، ولكنها لم تتخذ نفس الشكل الذي اتخذته جمجمة بكين . وهذا هو ما ذهب إليه في الحقيقة الدكتور فايدنرايخ . فقد اعتبرها سلالة مباشرة ظهرت في جاوة بعد ظهور إنسان جاوة الأصلي ببضع مئات من السنين . ولكننا لن نستطيع تأويل إنسان صولو على الوجه الصحيح إلا إذا عثرنا على وجهه وأسنانه .

وعليه فيمكن القول بأن بأيدينا الآن بقايا لا بأس بها لثلاثة أنواع من إنسان الشرق الأقصى ، وهي ترجع إلى أزمنة مختلفة تمتد من أوائل عصر البليستوسين حتى أواخره . ولكن الظاهر أنها كلها تنتمي إلى طراز واحد. بيد أننا لا نستطيع أن نرى الآن تماما الصلة بينها وبين بقية أنواع الإنسان القديم . وينبغي أن نتذكر أن صناعة الآلات الحجرية في الشرق الأقصى كانت متميزة أيضا عنها في الغرب وعلى أية حال فالحفريات المهمة الأخرى تأتي كلها من الطرف الآخر للعالم القديم ، أعني من أوروبا والجهات المتاخمة من آسيا ، وذلك باستثناء نوعين اثنين منها عثر عليهما في أفريقيا .

أفريقي أو ما شابه ذلك

ولا يزال أحد هذين النوعين غامضاً لأن كل ما لدينا منه هو قطعة مقوسة من عظام الفك وأنف مكسور (وليس من الضروري أنهما لشخص واحد) وعدد من الأسنان المتآكلة . وقد وجدت هذه الأجزاء في منطقة ترسيبية واحدة بجنوب أفريقيا واعتبرت ممثلة لإحدى فصائل الإنسان القرد . وأطلق عليها بروم Broom وروبنسون Robinson — اللذان اكتشفاها — اسم « إنسان تل Telanthropus » . وقد اعتقد البعض أنها أجزاء أنثى صغيرة لإحدى فصائل الإنسان القرد التي تعيش في تلك المنطقة . وكان هناك لحسن الحظ نماذج أخرى كثيرة لهذا الإنسان القرد — وكلها في حالة جيدة — بحيث اقتنع روبنسون — بعد قيامه بأخذ المقاييس الدقيقة والتحليل — بأن أجزاء « إنسان تل » تختلف كل الاختلاف عن تلك الفصائل ، وأنها أكثر منها تقدماً . وباختصار فإن روبنسون يعتقد أنها تمثل بوادر نوع جديد من الإنسان القديم يمكن مقارنته بشكل ما بإنسان جاوه ، وأنه كان يعيش — كما هي حال إنسان جاوة والإنسان الضخم — جنباً إلى جنب مع نوع آخر من الإنسان القرد أكثر منه تأخراً . ولكننا لن نستطيع أن نعرف شيئاً كثيراً عن إنسان تل حتى نعثر على بعض بقاياه الأخرى .

أما النوع الأفريقى الآخر فهو إنسان روديسيا Rhodesian Man، وهو على جانب كبير من الغموض ومن الأهمية، لأسباب مختلفة. فقد اكتشفت أول جمجمة له — وكانت فى حالة جيدة ولكن ينقصها الفك الأسفل — عام ١٩٢١ أثناء القيام ببعض أعمال التعدين تحت الجزء الخلفى المنحدر لأحد الكهوف القديمة فى بروكن هيل Broken Hill حيث يحتمل أن يكون ألقى بها شخص آخر من أفراد إنسان روديسيا أيضاً. ومن المؤكد أنه لم

جمجمة إنسان روديسيا من بروكن هيل

يكن مدفونا. وكان يوجد إلى جانبها بعض عظام بشرية لشخصين آخرين على الأقل. وهى تتألف من بعض عظام الحرقفة وعظمة العجز وبعض عظام الساق التى لا تختلف عن عظامنا نحن. وفى عام ١٩٥٣ عثر على النصف العلوى لجمجمة ثانية وقد تحطم إلى عدد كبير من الأجزاء والشظايا حيث كشفتها الرياح بالقرب من سالدنها Saldanha شمالى مدينة الكاب على مسافة بعيدة من بروكن هيل، وهى تشبه إلى حد كبير فى مظهرها الجمجمة الأولى.

فمن الواضح إذن أن إنسان روديسيا كان يستوطن معظم —إن لم يكن كل — جنوب أفريقيا. ولكن متى كان ذلك؟ لقد وجد فى سالدنها، عدد كبير من الأدوات الحجرية من طراز عصر البليستوسين الأوسط ومابعده، ولكننا لا نستطيع أن نربط عن ثقة ويقين بين أجزاء تلك الجمجمة وأى من تلك الطرز. فقد تكون الجمجمة أقدم أو أحدث منها. ولا توجد فى

بروكن هيل أية علامات أو شواهد موغلة فى القدم (رغم أن المنطقة لم تتعرض لكثير من التغيرات التى حدثت فى عصر البليستوسين). فعظام الحيوانات التى وجدت تكاد كلها تكون لأنواع حديثة، كما أن الآلات الحجرية التى عثر عليها فى الكهف توحى (مثل الحيوانات) بأن جمجمة بروكن هيل ترجع إلى تاريخ متأخر، أى إلى عصر البليستوسين الأعلى، أو ربما إلى حوالى الوقت الذى عاش فيه إنسان صولو. وثمة ظاهرة عجيبة: ذلك أنه بالقرب من كل من هاتين الفصيلتين من البشر (إنسان روديسيا وإنسان صولو) كانت توجد بعض قطع من الحجارة الكروية التى يظن أنها أحجار بولاس bolas التى تشد إحداها إلى الأخرى بخيوط قصيرة من الجلد لتؤلف مقذافاً يستطيع القاذف الماهر أن يعرقل به سيقان الصيد، حتى الطيور ذاتها فى أثناء تحليقها.

ولكن يجب ألا نعلق على ذلك أهمية أكبر مما يجب، لأن أحجار البولاس كانت سلاحاً واسع الانتشار فى ذلك الوقت وبعده (وإن لم تعد تستخدم الآن فى أفريقيا). بيد أن ذلك قد يدل على أن إنسان روديسيا وجد — مثل إنسان صولو — فى أواخر العصر الحجرى القديم الأدنى. أضف إلى ذلك أن جمجمة بروكن هيل تذكرنا بجماجم إنسان صولو من عدة وجوه: أولها ذلك الحاجز العظمى الهائل المستقيم الذى يمتد فوق العينين، وهو أضخم ما عرف من نوعه عند الإنسان. ويقع التجويف المخى وراء ذلك الحاجز، وهو صندوق منخفض له حافة ناتئة بعض الشىء كما هى الحال عند إنسان صولو، فى حين لا يكاد يوجد للجبهة أى أثر على الإطلاق. ويأتى وراء ذلك حافة حادة من العظام الخاصة بعضلات العنق، ويدل وضعها فى تلك الصورة على أن الرأس كان يرتفع فى وضع عمودى مستقيم إلى حد كبير. وزيادة على ذلك فإن الجمجمة ذاتها كانت أخف وزناً وأعمق تجويفاً، وكان حجم المخ يصل إلى حوالى ١٣٠٠ سم٣. ومن الصعب أن نتأكد مما إذا كان الوجه يشبه وجه إنسان صولو، ولكنه كان على العموم عريضاً جداً وغير

بارز للأمام رغم شكله البدائى . كذلك كانت الأسنان تنتظم فى قوس قصيرة مستديرة من الطراز الحديث، بعكس الحال عند إنسان جاوة أو إنسان بكين ، ولكنها كانت كبيرة متآكلة وتالفة إلى أبعد حد . وتمثل هذه الجمجمة فى عمومها طرازاً بدائياً ظل موجوداً طيلة عصر البليستوسين ، وهو طراز له ملامحه الخاصة المتميزة . وبعض هذه الملامح كان على درجة معينة من التقدم والتطور ، فكان حجم المخ مثلا — على الأقل — قريباً من مخ الإنسان الحديث .

شجرة عائلة إنسان النياندر

وكل ما نعرفه عدا ذلك عن الأقوام الذين عاشوا فى العصر الحجرى القديم يرجع إلى منطقة أخيرة هى أوروبا وآسيا الغربية : وهو يدور فى معظمه حول قصة إنسان النياندر (نياندرتال Neanderthals) . ولكن يرتبط بهذه القصة ويدخل فى تكوينها مشكلة أصل الإنسان الحالى ، وهى مشكلة عويصة ومحيرة.

وعلى عكس التطورات التى حدثت فى الشرق الأقصى وقع معظم أحداث القصة فى وقت متأخر نسبياً ؛ فثمة نوع واحد مبكر من الإنسان نستدل عليه من فك هيدلبرج (بألمانيا) ويعتبر من أقدم بقايا الإنسان فى العالم كله (إذا استثنينا فصائل الإنسان القرد) ، لأنه يرجع إلى الفترة الدافئة الأولى من العصر الجليدى . (ويعتقد البعض أنه أحدث من ذلك) . وبذلك فلا يماثله فى القدم — إن كان ثمة ما يماثله على الإطلاق — إلا أقدم فكوك إنسان جاوة . ولكنه يختلف عنها كل الاختلاف بحيث لا يمكن أن نخطىء ونعتبره أحدها . فهو لا يماثلها فى الضخامة ، كما أنه أقصر منها وأعمق نسبياً. كذلك تعتبر الأسنان صغيرة بعض الشىء بالنسبة للفك ذاته ، فهى أقرب إلى الأسنان الحديثة فى الحجم والشكل . فالفك كله يعتبر — ببساطة — طرازاً مختلفاً عن فك إنسان جاوة . فهو أقرب إلى أن يكون أحد الفروع

التى تطورت بشكل مباشر من النوع العام الذى يضم إنسان جنوب أفريقيا القرد، أو هو أقرب إلى إنسان تل المهشم الذى يحمل له بعض أوجه الشبه .

ومن الناحيـة الأخرى فقد يكون فك هيدلبرج ممثلا لأحد الأسلاف الأولى للنياندرتال . وهـذه فى الواقع هى النظرة العامة التى ينظر بها إليه ، وذلك لوجود بعض أوجه الشبه بينهما ، ثم لعدم توافر ما يدل على عكس ذلك . فإحدى جماجم النياندرتال ــ وقد عثر عليها فى شتاينهايم Steinheim بألمانيا ــ ترجع إلى الطور الجليدى الثالث ، فى حين ترجع بقية الجماجم إما إلى الفترة الدافئة الثالثة (الأخيرة) من العصر الجليدى ، وإما إلى أوائل الطور الجليدى الرابع (الأخير) . ويجب أن نميز مؤقتاً بين الجماجم القديمة والجماجم الأكثر حداثة ، لأن ثمة اختلافاً جوهرياً بينها .

فأما النماذج القديمة التى ترجع إلى الفترة الدافئة الثالثة فقد كانت تشغل حقبة طويلة من الزمن ومساحة كبيرة من الأرض . إذ وجدت فى ألمانيا

جماجم للإنسان الحديث ولإنسان جبل الكارميل ولإنسان النياندر الغربى .

وإيطاليا ويوغوسلافيا وفلسطين . وثمة بعض اختلافات طفيفة بينها ،وهذا أمر غير مستغرب . ولكن ليس هناك أى وجه للشبه بينها وبين نماذج الإنسان التى سبق وصفها ، وإنما هى تكشف عن مزيج من السمات التى قد نصفها بأنها سمات بدائية وبعض السمات المتقدمة (بالنظر إلى أنفسنا) . فأمخاخها لم تكن أصغر من أمخاخنا نحن ، إذا أخذت فى متوسطها، كما يتخذ الرأس لأول مرة شكلا قريباً من شكل رؤوسنا من حيث ارتفاعها فوق مستوى الأذنين وامتداد جدرانها الجانبية فى شكل رأسى نسبيا ووضوح

الجبهة . ويظهر هذا فى بعض الأفراد دون البعض الآخر . ولكن تجويف المخ كان ينتهى دائماً ، وبغير استثناء ، من الأمام بحافة ناتئة تمتد فوق العينين مؤلفة عظام الحاجبين ؛ كما كان الوجه نفسه ينم عن درجة من الوحشية النسبية ، ولو أن منطقة الفم لم تكن بارزة بذلك الشكل البدائى الذى رأيناه عند إنسان جاوة وإنسان بكين ، وإنما كان يمتد كله بدلا من ذلك إلى الأمام وتظهر فيه فى موضع الأنف فتحة واسعة بشكل غريب . أما شكل الفك فيختلف من حالة لأخرى ؛ فهو يميل فى بعض الحالات إلى الطول والبدائية وتبرز منه أسنان ضخمة ، ويظهر فيه فى بعض الحالات الأخرى شىء أقرب إلى الذقن البارز الناتىء .

وهكذا نجد فى النياندرتاليين القدامى نوعا من البشر أشد سذاجة وفجاجة ، ولاريب ، من نوع الإنسان الحديث وإن كانوا يشبهونه فى كثير من السمات ، ولكن بغير انتظام أو اطراد . ويبدو ذلك أشد وضوحاً عند إنسان جبل الكارميل (فى فلسطين) الذى عاش بعد الأنواع الأخرى بوقت طويل ، أى بعد أن بلغت الفترة الجليدية الرابعة ذروتها . (ومن النماذج المتأخرة أيضا لهذا النوع القديم طفل تشيك تاش Teshik-Tash الواقعة فى جمهورية يزبك شمال أفغانستان) . ويكاد تجويف المخ عند هذه الأنواع من البشر يشبه تجويف أمخاخنا نحن ، ولكنها ظلت تحتفظ بتلك الحجاجات الغليظة والأنوف الكبيرة التى تميز أسلافها الأوائل ، كما تحتفظ عظامها كلها ببعض الخصائص الأخرى البسيطة .

وفى تلك الفترة ذاتها طرأ تطور غريب على إنسان النياندر فى غرب أوروبا ، أعنى فى ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وفرنسا وإسبانيا . فالخصائص التى ذكرتها من قبل تتفق مع الفكرة العامة أو السائدة عن النياندرتال من أنه كان يشبه الإنسان الحالى مع احتفاظ وجهه ببعض الصفات والخصائص البدائية التى لا تظهر بنفس الدرجة من الوضوح فى بقية أجزاء جسمه .

وهذه الفكرة ذاتها تصدق ولكن بشكل أقوى على النياندر تاليين الأواخر أيضاً ؛إذ يبدو من بقاياهم وآثارهم أن إنسان النياندر انتكس وتقهقر بدلا من أن يتطور ويتقدم إلى الأمام . ومن المؤكد أن النياندر تاليين كانوا يؤلفون نوعا غريباً من البشر . فقد كانت رءوسهم الطويلة المنحدرة منبعجة بعض الشيء من الجانبين ومدببة من المؤخرة كما لو كانت قد ضغطت بشدة . والواقع أن قاعدة المخ كلها كانت تميل إلى الاستواء بدلا من أن تكون مقوسة وراء الوجه .

أما المخ ذاته فكان يماثل أمخاخنا فى الحجم ، ويميل الرأس إلى الأمام فوق العنق بدرجة أكبر مما هو عليه فى الإنسان الحديث ، أو حتى بين النياندر تاليين الأوائل . وأما الجبهة فكانت شديدة الانحدار ، وكانت الحجاجات المقوسة فوق العينين تقويساً شديداً تبدو أشبه بحافة النظارة العليا وإن كانت تفوقها فى السمك . وكان الوجه كله يمتد بارزا إلى الأمام ، وبذلك لم تكن عظام الوجنتين « ترتفع » عند الأركان وإنما كانت تنحدر إلى الوراء فى انحناءة لطيفة خفيفة من الأنف الكبير البارز . وكان الوجه طويلا والأسنان تؤلف قوسا عميقة على شكل U ، وكان الفك الأسفل يبدو متراجعا متقلصا ولا يظهر فيه أى نتوء يدل على موضع الذقن .

والأغرب من هذا كله أن عظام الهيكل التى كانت تبدو حديثة تماماً فى كل الأنواع القديمة حتى إنسان جاوة اتخذت هنا طابعا شاذا ، إذ بدت خشنة غليظة ضخمة ، ويتمثل ذلك بوجه خاص فى عظام الأطراف التى كانت مقوسة منحنية وتربطها إحداها بالأخرى مفاصل غليظة ، كما كانت تنفرد بكثير من الخصائص الأخرى المميزة فيما يتعلق بتناسب العضلات وارتباطها بعضها ببعض . وقد أدى ذلك كله إلى ظهور تلك النماذج الفذة من النياندر الذين كانوا يسكنون الكهوف طوال فترة البرودة التى لازمت التقدم الجليدى الرابع .

ولو كانت الأحداث سارت فى الاتجاه المضاد ، لكان من السهل أن نزعم أن ذلك النوع البشرى البدائى الساذج البسيط أدى ، فى الفترة لدافئة الثالثة من العصر الجليدى ، إلى ظهور إنسان النياندر الأكثر تقدما والأقرب شبها بالإنسان الحديث . ولكن الأحداث لم تسر فى ذلك الاتجاه المضاد ، وإذن فلا مفر من أن نفترض أن النياندرتاليين الأواخر الذين كانوا يعيشون فى كهوف أوروبا كانوا فرعا خاصا فريدا انشق على أسلافه الأكثر تقدما . وهو فرع غريب شاذ أكثر مما هو بدائى . إن كان المقصود بكلمة بدائى « القديم وغير المتطور » . وليس فى استطاعتنا الآن أن نفسر ماحدث . ولكن القصة تتضمن أشياء أخرى كثيرة تتعلق بوضعنا نحن منها .

وبعد الموجة الأولى من موجات التقدم الجليدى الرابع وقعت حادثة من أوضح حوادث العصر الحجرى كله . وتغير الوقت تماما . فقد ظهرت فى أوروبا أقوام من نوعنا نحن ، لهم ثقافة متقدمة تقوم على صناعة الأدوات الحجرية وصيد الحيوان . ولو كان هؤلاء الأقوام اكتسحوا القارة كلها بقصد القضاء السريع المبرم على كل من يصادفونه من أفراد النياندرتال لما اختلفت النتيجة كثيراً - بقدر ما يمكن أن نرى الآن — عما حدث بالفعل . فآلاتهم وعظامهم توجد فى الطبقات التى تعلو مباشرة الطبقات التى توجد فيها آلات وعظام النياندرتال فى الكهوف الغربية ، دون أن يكون بين الاثنين أى استمرار أو تداخل . لقد اندثر إنسان النياندر واختفى . ومن المستحيل أن نتصور المسألة على أنها مجرد انتقال بسيط من شعب لآخر ، أو تغير مفاجىء من النياندرتال إلى النوع التالى . ولسنا نعرف ماحدث على وجه الدقة إلا أنه قد يمكن أن نرد ماحدث إلى تفوق النوع الجديد فى الصيد دون أن نحتاج إلى افتراض وجود عداوة بالفعل بين النوعين . ومن الواضح أن الشعب الدخيل الطارىء أتى ولا شك من خارج أوروبا الغربية . والأغلب أنهم جاءوا من الشرق . وإن كنا لا نعرف ذلك أيضاً على وجه اليقين . فلا تزال

هناك أمور كثيرة مجهولة كما أن معرفتنا عن بقية العالم أقل من هذا بمراحل ولكن الموقف العام يبدو متشابها جداً خارج أوروبا فأقوام العصر الحجرى القديم الأعلى كانوا من نوعنا نفسه . وليس ثمة مايدل على وجود أى نوع آخر من البشر فى أى مكان وراء تلك العلامة التى تحدد نهاية الطريق لإنسان النياندر الأوروبى .

ظهور الإنسان العاقل — ولكن متى ؟

ولكن ما هو « نوع » الإنسان الذى ننتمى نحن إليه ؟ إنه ذلك النموذج الفيزيقى الذى يطلق عليه فى العادة اسم « الإنسان العاقل Homo Sapiens» وليس من الحكمة أن نزعم أنه أكثر ذكاء فى حقيقة الأمر من إنسان النياندر الذى يماثله فى حجم المخ . فالشىء الذى يميزنا عن كل هؤلاء البشر الذين ذكرتهم هو ذلك التهذيب الأخير الذى طرأ على الرأس ذاته . فهو يرتكز فى وضع رأسى معتدل فوق عنق رشيق لا تشغل عضلاته مساحة كبيرة أو تتصل بحافة نائتة فى مؤخرة الجمجمة . أما الجمجمة ذاتها فمرتفعة ومجوفة تجويفاً جيداً عند القمة وممتلئة تماماً كما تمتاز جدرانها بالرقة . ويمتد المخ فوق الوجه كله بحيث تكاد الجبهة تكون رأسية . وإن وجدت هناك حجاجات فإنها لا تكون غليظة أو ضخمة بحيث تلتهم نصف الوجه العلوى، وإنما تبدو على العكس من ذلك مجرد أثر خفيف أشبه شىء بالانتفاخ الضئيل على كل من جانبى الخط الأوسط (حيث لا تزال توجد بعض الجيوب) . والوجه ذاته صغير وأكثر رقة منه فى الأنواع الأخرى ومسحوب إلى الداخل أسفل الجبهة مما يترتب عليه بروز قنطرة الأنف وظهور تجويفين غائرين فى عظام الوجنتين على جانبى الأنف . أما الفم فيختلف من سلالة لأخرى من حيث مقدار بروز الأسنان وحجمها ، ولكنه منكمش أكثر مما ينبغى ، كما أن الفك الأسفل متقلص بعض الشىء ، مما يساعد على نتوء الذقن الذى تزيد فى الواقع من صلابة انحناءة الفك ذاته .

ويعتبر ذلك الشكل المحـــدد للرأس والوجه من أهم مميزات الإنسان الحديث . وهو يختلف عما نجده لدى النماذج البشرية الأخرى من حيث كونه أكثر منهـا تقدما وتطورا . ومع ذلك فهناك بعض أوجه الشبه فى التفاصيل بين هذا الشكل وما نجده عند بعض النياندرتاليين المبكرين فى أوروبا ، وكذلك بعض النياندرتاليين الأواخر فى جبل الكارميل بفلسطين، على ما سبق أن بينت .

ولكن من أين أتى الإنسان الحديث . لقد بدأت خيوط اللغز تتجمع الآن .فظهور النماذج الحديثة فى أوروبا وغيرها لم يحدث بشكل مفاجىء فحسب، بل الظاهر أيضا أنها كانت منذ البداية على صورة وهيئة السلالات الحالية التى تعيش الآن فعلا فى مختلف المناطق . وهذا معناه أن ما يعرف الآن باسم إنسان كرومانيون Cro Magnon الذى جاء بعد إنسان النياندر فى أوروبا كان من الجنس « الأبيض » ، أى إنه كان يشبه الرجل الأوروبى الحديث من حيث شكل الجمجمة والوجه . فالجماجم الكبيرة فى جاوة (واجاك Wadjak) أو فى أستراليا (كيلور Keilor)[1] تشبه رءوس الأهالى الحاليين فى القارة الأسترالية . ويرى البعض أن مثل هذا التناظر موجود — وإن يكن بدرجة أقل وضوحا — فى جنوب أفريقيا وفى الصين ، حيث يبدو — فى نظرى أنا على الأقل — أن ثمة تشابها بين ثلاث من جماجم العصر الحجرى القديم الأعلى التى وجدت فى أحد كهوف بكين «من تاريخ متأخر» ورأس السلالات قبل المغولية . ولكنها من نوع يصعب تصنيفه بدقة . ولعلها كانت وهى مكسوة باللحم أشبه برءوس الهنود الحمر . فعلى أى أساس نستطيع إذن أن نفسر ذلك كله ؟

---

(١) الواجاك لفظ يستخدم للإشارة إلى جمجمتين كبيرتين ترجعان إلى الفترة الدافئة الثالثة من العصر الجليدى ، وقد وجدتا فى جاوه . أما كلمة كيلور فتشير إلى جزء حفرى من أستراليا يحتمل أنه يرجع أيضا إلى تلك الفترة الدافئة الثالثة . المترجم

لدى الدكتور فايدنرايخ Weidenreich ،عالم الحفريات البشرية العظيم تفسير سهل لذلك ؛ فهو يرى أن كل شكل من الأشكال السلالية الحديثة ظهر وتطور فى مكانه الخاص من العالم . فإنسان جاوة تطور إلى إنسان صولو ثم إلى الأستراليين ذوى الجماجم الضخمة نسبيا ، وإنسان بكين الذى كانت أسنانه وفكه تتميز ببعض المغولية تطور إلى الجنس المغولى، وإنسان روديسيا انحدرت منه أجناس وسلالات جنوب أفريقيا . وإنسان النياندر القديم ظهر منه الجنس الأبيض، بل إن هذا يصدق أيضا على الزمن . وعلى ذلك فالإنسان الحديث ليس سوى آخر صورة متطورة نشأت عن تطابق عدة سلالات لكل منها تاريخها المستقل .

ولكن هناك بعض اعتراضات قوية على هذه النظرية أهمها أن التطور فى خطوط مختلفة (التى ترتبط كلها معا رغم اختلافها) لا يتم فى الحقيقة بهذه الطريقة تماما . بل إنه قد لا يحدث فى كل مكان . والواقع أن التشابه الفيزيقى —وبخاصة فى ملامح الهيكل العظمى — بين الأجناس والسلالات البشرية الحالية أقوى بكثير جدا مما نجده فى أى خط واحد من تلك الخطوط المختلفة التى يفترض الدكتور فايدنرايخ أنها تفرعت منها .

وثمة نظرة تعارض نظرة فايدنرايخ تماماً وترى أن الأنواع البشرية المبكرة أخذت تتفاضل وتتغاير تدريجاً وفى شىء من البطء فى مختلف أنحاء العالم، (وهو نمط التطور المألوف) وأن الانتخاب الطبيعى والانتقاء كانا يتلازمان مع حجم المخ واتزان وضع الرأس ، كما أن بعض الفروع كان أسرع من البعض الآخر فى ذلك التطور التقدمى ، وكان أسرعها جميعاً فى ذلك فرعنا نحن . وقد انقرضت كل هذه الفروع — ما عدا الفرع الأخير — واندثرت إلى حد كبير جدا . ونحن نقول « إلى حد كبير جدا » لاحتمال وجود قدر غير معروف تماما من العناصر التى استطاعت الصمود والاستمرار فى البقاء والاختلاط بغيرها . وبقول أبسط فإن الإنسان العاقل نشأ

بالضرورة من مصدر واحد محدد معين وليس من مصادر كثيرة ، رغم كل ما قد يقال من أنه اختلط فى أنحاء مختلفة ببقايا الفروع الأخرى المناظرة .

ويذهب أحد اتجاهات هذه النظرية إلى أن الإنسان الحديث تطور بشىء من السرعة فى أواخر العصر الحجرى القـــديم الأدنى من النياندرتاليين المبكرين الذين يفصحون فى الواقع عن بعض أوجه الشبه معنا فى شكل الرأس والوجه . والفكرة هنا هى أن أحد فرعى تلك السلالة أفلح فى أن يتخلص من حجاجاته الغليظة وأسنانه الضخمة ومن نصف وجهه وبعض السمات الأخرى فى مكان غير معروف من العالم ، بينما تخلف الفرع الآخر — وهو فرع النياندرتال الأوروبى المتأخر — عن ركب التطور واحتفظ برأسه المفرطح العجيب وأطرافه المقوسة وبقية ملامحه المميزة .

وقد يكون فى هذا العرض شىء من الغلو ، كما أنه لا يدخل فى الاعتبار بعض الحفريات الأخرى التى لم أشر إليها من قبل . فلا يزال فى الإمكان أن نفترض أن الإنسان العاقل لم ينحدر من النياندرتال فى عصر حديث جدا وإنما كان له بالأحرى فرع عائلى مستقل تماماً عنه وعن بقية أنواع البشر ، أما الدليل القاطع على ذلك فيتوقف طبعا على العثور على جماجم من الطراز الحديث ، ولكنها ترجع إلى العصر الحجرى القديم الأدنى . والظاهر أنه أمكن العثور بالفعل على مثل هذه الجماجم .

وقد وجدت إحدى هذه الجماجم فى سوانسكومب Swanscombe بانجلترا حيث عثر فى إحدى طبقات الحصى الغائرة على شاطىء نهر التيمس على قطعتين من عظام رأس امرأة شابة تبعدان إحداهما عن الأخرى بمسافة قصيرة . والمعتقد أن الطبقة ذاتها تكونت أثناء الفترة الدافئة الثانية من العصر الجليدى (أى بعد فك هيدلبرج بوقت طويل ، ولكن قبل أن تظهر كل أنواع النياندرتال بوقت طويل أيضا) ، كما أن الآلات الحجرية التى عثر عليها مع تلك الجمجمة ترجع إلى أواسط الفترة الأشولية مما يؤيد ذلك التاريخ نفسه .

وهاتان العظمتان هما العظمة الجدارية parietal اليسرى (الجزء العلوى من الجدار الجانبى للجمجمة) وعظمة القذال occipital (المؤخرة والقاعدة) ، وهما أسمك قليلا من أن تكونا لامرأة حديثة ، وإن يكن هذا غير مستحيل . ومظهر الجمجمة بدائى بعض الشىء ، بمعنى أنها « أشد بدائية من أن تكون للإنسان العاقل » . أما فيما عدا ذلك فإن جزء الجمجمة المؤلف من القمة والمؤخرة فيشبه ما قد يوجد فى الجماجم الحديثة . فهو يختلف كل الاختلاف عما نصادفه عند كل أقوام العصر الحجرى القديم الأدنى ، مثل أقوام الشرق الأقصى وإنسان روديسيا وكل النياندرتاليين تقريباً ؛ وإن يكن من الصعب تمييزه تمييزا قاطعا عن الأجزاء التى تقابله عند بعض النياندرتاليين المبكرين وبخاصة عند إنسان شتاينهايم الذى يبدو تجويف مخه حديثا بعض الشىء رغم صغره . وقد وجدت جمجمة سوانسكومب بدون الجبهة والوجه ، وعلى ذلك فلا يمكن القول بأن مقدمتها لم تكن تحمل ملامح وتقاطيع النياندرتال . والواقع أن بعض العلماء يجزم بأنها كانت تحمل تلك التقاطيع بالفعل ، بينما يرى البعض الآخر أن الجمجمة بشكلها الراهن تشير بقوة إلى نوعنا نحن أنفسنا بشكل لا يمكن معه أن نزعم أنها من النوع النياندرتالى . وعند هــــذا الحد تقف المسألة .

وقد وجدت أجزاء من جمجمتين أخريين فى أحد كهوف فونتشفاد Fontéchevade (شارنت Charente) بفرنسا مع بعض أدوات من طراز معين يعرف باسم صناعة الطاى Tayacian وأجزاء من عظام بعض حيوانات المنطقة الدافئة . والمعروف على وجه التحقيق أن هذه الصناعة ترجع إلى ماقبل الفترة الموستيرية (وقد وجدت الآلات الموستيرية متراكمة فوق هاتين الجمجمتين فى ذلك الكهف بالذات) . وقد أجمعت الآراء على أن تلك الأشياء التى عثر عليها ترجع إلى الفترة الدافئة الثالثة من العصر الجليدى ؛ فكأنها ظهرت إذن فى وقت متأخر جــــدا عن البقايا التى عثر عليها فى سوانسكومب ، ولكنها كانت بالتأكيد أسبق على معظم — إن لم يكن كل

— البقايا النياندرتالية . وأحد هذين النموذجين ، وهو يتألف من قمة الجمجمة يشبه مانجده فى الإنسان الحديث وكذلك عظام سوانسكومب ، كما أن فيه مايدل بجلاء على أن الجبهة كانت رأسية . وأما النموذج الثانى فهو مجرد جزء من الجبهة فوق الأنف ، ولكنه جزء رفيق دقيق ورأس ولا تكاد تظهر فيه أية علامات للحجاجات ، وإن بدت فيه بعض آثار خفيفة ضئيلة حتى بالنسبة للمرأة الحديثة . ومن المستحيل تماما أن نفكر فى وضع مثل هذه الجمجمة مع إنسان النياندر — سواء المبكر أو المتأخر — فى فئة واحدة . وإذن فلا مفر من القول بأن أنواع البشر ذوى الجباه وتجاويف المخ الحديثة كانوا يعيشون فى وقت واحد مع إنسان النياندر المعروف — إن لم يكن قبله . بل إنهم كانوا يعيشون بالفعل حين كان النياندرتاليون لا يزالون تحت التطور .

وثمة نماذج أخرى من أوروبا وشرق أفريقيا يحتمل أنها لأوائل الإنسان العاقل . ولكن ليس هناك مايدل دلالة قاطعة على أنها قديمة قدم نماذج سوانسكومب أو فونتشقاد مثلا . ومن الغريب حقا أننا لم نعثر على مقادير أكبر من بقايا ذلك الإنسان العاقل — لو صح إن كان موجوداً بالفعل فى تلك العهود المبكرة — إن قورن ما وجدناه عنه بذلك القدر الهائل الذى عثرنا عليه من بقايا النياندرتاليين فى الفترة الدافئة الثالثة من العصر الجليدى وفى الطور الجليدى الرابع . ولكن يجب أن نتذكر أنه إذا كان النياندرتاليون يسيطرون فى ذلك الحين على أوروبا ، فإن هذا معناه أنهم كانوا يحتلون ذلك الجزء من العالم الذى حظى بأكبر قدر من عناية وجهود الباحثين عن الإنسان الحفرى . أما الحفريات التى عثر عليها فى بقية أنحاء العالم ، أو التى ترجع إلى عصور أشد تبكيرا ، فهى أقل من ذلك بكثير جدا .

أكذوبة بلتدون

ومن حسن الحظ أن أمكن الكشف عن حقيقة مشكلة بلتدون Piltdown

المريبة ومحوها بالتالى من الصورة العامة . وقد أزيح عن كاهل علماء الأنثروبولوجيا عبء ثقيل حين ظهر بعد أربعين عاما من الجدل ومن الشقاء أن الفك الذى عثر عليه فى بلتدون كان مجرد أكذوبة . وقد كان الناس يظنون فى وقت من الأوقات إمكان وجود كائن مثل « إنسان بلتدون » له جمجمة إنسان وفك قرد . ولكن ذلك نفسه لم يلبث أن بدا أمرا بعيد الوقوع فى ضوء كل المعلومات التى أمكن الحصول عليها من دراسة الفكوك البدائية التى عثر عليها فى جاوة وفى جنوب أفريقيا ، إذ أصبح من الواضح أن أسلاف الإنسان — مهما بعدوا فى الزمن — لم يكن لهم قط تلك الذقون أو الأسنان الأمامية التى نجدها فى القردة الحالية . وقد كان هذا ذاته هو ما يجادل فيه فك بلتدون[١] .

ومن الطبيعى جدا أن يعتبر العلماء « الأجزاء الحفرية » أشياء ثمينة للغاية ، وأنه لا يمكن بالتالى إخضاع مكوناتها للاختبارات والفحوص القاسية . وعلى ذلك فحين أراد الدكتور أوكلى Dr. Oakley — من المتحف البريطانى قسم التاريخ الطبيعى — أن يفحص فى عام ١٩٥٠ مادة الفلورين الموجودة فى فك بلتدون ليحسب مقدار عمره ، نزع قدرا ضئيلا جدا منها بوساطة مثقب

(١) يعزى اكتشاف إنسان بلتدون إلى المحامى الانجليزى تشارلس داوسن Charles Dawson الذى كان يتخذ من دراسة طبقات الأرض هواية خاصة ويمارس الحفر والتنقيب فى مقاطعة سسكس Sussex حيث كان يعيش . وكان الشائع قبل افتضاح أمره أنه عثر مصادفة فى عام ١٩٠٨ على حفرة يستخرج منها نوع من الصوان كان يعرف أن الإنسان القديم يستخدمه فى صناعة آلاته وأدواته ، ولم يلبث أن كشف فى الحفرة قطعة عظام من جمجمة امرأة من نوع إنسانى بدائى . وفى عام ١٩١١ كشف عن قطعة أخرى من نفس الجمجمة وبذلك استعان بالعالم البريطانى سير آرثر سميث وودورد Sir Arthur Smith Woodword حيث عثرا معا على قطع أخرى من العظام المتحجرة لأنواع حيوانية منقرضة . بيد أن الشكوك كانت تلازم تلك الاكتشافات رغم أن داوسن أمكنه التغرير ببعض العلماء مثل وودورد وكذلك العالم الفرنسى الأب بروى Abbé Breuil ، ولم يلبث الدكتور فاينر أن كشف عن الخدعة كلها على ما يروى المؤلف .

المترجم

الأسنان . وقد زاد ذلك الفحص الجزئى الناقص من غموض المسألة ، إذ ثبت منه أن تلك البقايا حديثة نسبيا فى العمر ، وأصبحت المشكلة فى النهاية لا تطاق بالنسبة للدكتور ڤاينر Weiner[1] والأستاذ لجروكلارك LeGros Clark — وهما من أكسفورد — واستبد بهما الشك المتزايد ، فأقدما فى عام ١٩٥٣ على اختبار تلك الخدعة الموقرة وفحصها لأول مرة على أنها تضليل وتمويه متعمدان . وفى نوفمبر من السنة نفسها أمكنهما أن يعلنا أن الفك — رغم كل مظهره القديم ورغم أسنانه « الآدمية » المتآكلة — كان من العظام الحديثة ، وأن أسنانه بردت بيد آدمية . وأن من الواضح أنه كان مجرد قطعة من فك بغام صغير أجرى عليها كثير من التعديل والتزييف .

ولكن إذا كان من الميسور صنع مثل هذا الفك المزيف بشىء من المهارة والتمويه والخداع بحيث يبدو أشبه بفك البغام ، فماذا يمكن أن نقول عن أجزاء الجمجمة ذاتها ؟ الواقع أن الجمجمة تشبه إلى حد كبير — من حيث الحجم والشكل — الجماجم الحديثة ذات الجباه المرتفعة والحجاجات الضئيلة ، ومع ذلك كانت عظامها غليظة بشكل يثير الدهشة فى حالة رثة ، مما يدعو إلى الظن بأنها كانت قديمة بعض الشىء . ولكن هل كانت الجمجمة نفسها شيئا حفريا له قيمته وأهميته ؟ كلا بالطبع . صحيح أن عمرها قد يقدر ببضعة آلاف من السنين (إذ يحتمل أنها كانت نموذجا فاسدا من أحد قبور العصر الحجرى الحديث) ولكن الأساتذة أوكلى وڤاينر ولجروكلارك اكتشفوا أنها لونت بدهان ثم دفنت فى حصى بلتدون . وقد أثبتت البحوث والاختبارات الكيماوية الدقيقة وكذلك اختبارات الأشعة أن كل الحيوانات الحفرية والآلات الحجرية التى وجدت معها لم تكن تتناسب وذلك المكان على الإطلاق . (هذا على الرغم من أن معظمها كان حفريات حقيقية) .

وهذا معناه ان يدا شريرة تعمدت جمع تلك الأجزاء معا ثم تمويه وتزييف المكان كله بمهارة وبراعة .

---

(١) راجع القصة كلها فى كتابه The Piltdown Forgery

وكان هذا حلا سعيدا موفقاً بالنسبة لعلماء الأنثروبولوچيا . لأنه أزال من الموقف كله العنصر الوحيد غير المفهوم . ومن المؤكد أنه لا توجد حالة غش وتضليل أخرى مماثلة فيما يتعلق بالإنسان القديم . ولكن كيف يمكن تجميع بقية الصورة ؟ إن الأمر يبدو كما لو كانت أصول الإنسان الحديث ترجع إلى العصر الحجرى القديم الأدنى . ولكن الدليل على ذلك ضعيف. ولقد تغيرت الأمور تماما فى العصر الحجرى القديم الأعلى ، فقد عثر على عدد كبير من الهياكل العظمية — من أوروبا بوجه خاص — وهى كلها بالطبع للإنسان العاقل . ويبدو أن سكان أوروبا الذين نشير إليهم على العموم باسم الكرومانيون هم من الجنس «الأبيض » من حيث شكل الجمجمة والوجه. ومنذ ذلك الوقت استوطن هذا « الطراز » أوروبا وشمال أفريقيا والشرق الأدنى باستمرار . ولكننا لا نعرف أين كانوا يقطنون قبل ذلك (أعنى حين كان النياندرتاليون يقطنون أوروبا) ، كما أننا لا نعرف علاقتهم بالأشكال السابقة مثل إنسان فونتشڤاد . وثمـــة موقف مماثل لذلك فى أستراليا فى الطرف الآخر من نصف الكرة الأرضية حيث تنتمى كل «الجماجم » الحديثة المبكرة إلى الطراز الأسترالى .

أما بخصوص بقية العالم القديم فلا يوجد أى شىء على الإطلاق يتعلق بالأصول القديمة للسلالات الحديثة . ولذا فليس أمامنا لملء هذا الفراغ إلا التخمين والتفكير النظرى . ولقد قدم الدكتور كون Coon وزملاؤه حججا قوية للتدليل على أن بعض الخصائص المميزة للجماعات البشرية نشأت نتيجة لاستجاباتها التطورية الحديثة لمواطنها الخاصة . ومن الأمثلة على ذلك الوجه العريض المسطح المكتنز وفتحة العين المائلة الضيقة عند الشعوب المغولية — وبخاصة الإسكيمو وسكان شمال سيبيريا — لحماية العينين ومسالك الأنف من برد المنطقة القطبية القارس . (وقـــد انتقل ذلك الوجه إلى المناطق الأكثر دفئاً نتيجة للهجرات) . وليس من شك فى أن هذه المبادىء تصدق على كثير من الملامح . وقد يبدو من السهل للوهلة الأولى أن نرد

البشرة السمراء مثلا إلى زيادة ضوء الشمس فى المناطق المدارية ، ولكن كون يؤكد أن فحص الشواهد والأدلة بعناية ودقة لم يسمح بإطلاق مثل تلك التفسيرات الدقيقة فى الوقت الحاضر . أما إذا اعتمدنا على خصائص الهيكل العظمى وحده فسوف تصبح الأمور حينئذ أكثر صعوبة . والحقيقة هى أننا مازلنا فى حاجة إلى كثير من الشواهد والبينات حتى نستطيع أن نتتبع السلالات البشرية المعروفة عبر الزمن .

وأما بخصوص الجنس البشرى ككل ، فلقد رأينا أن الرأس خضع لبعض تطورات جوهرية أثناء العصر الحجرى القديم الأدنى (معظم البليستوسين) ، إذ تطور المخ والوجه من مرحلة إنسان جنوب أفريقيا إلى ما نجده عند الرجل الحالى، وإن كانت معلوماتنا عن شجرة العائلة ككل لا تزال قليلة جداً . وقد يكون من الإنصاف أن نرد بساطة وسذاجة الآلات البشرية المبكرة وكذلك البطء الشديد فى تحسينها فى أول الأمر إلى ضعف قوى الأمخاخ الصغيرة ، وإن يكن من الخطأ المبالغة فى استخدام هذه الفكرة . فلا تزال معلوماتنا عن نوع الآلات التى صنعها كل نوع من أنواع البشر ضئيلة للغاية ، كما أن إنسان سوانسكومب وإنسان فونتشفاد وإنسان النياندر — وهم جميعاً من أصحاب الأمخاخ الكبيرة نسبيا — لم يدفعوا الأمور بقوة إلى الأمام ، ولو أن عجلة التقدم كانت تزداد سرعتها طيلة الوقت . أضف إلى ذلك أن أية ثقافة لا بد أن تقوم وتنمو على أساس ثقافة أخرى ، وأن الثقافة المتناهية البساطة هى نوع من السجن الذى يصعب جداً التحرر منه . والشيء الوحيد الذى نعرفه عن يقين هو أن الإنسان العاقل انتشر فى وقت متأخر من البليستوسين وسيطر على ثقافة العصر الحجرى القديم الأعلى بكل ما تمتاز به من سمو ورفعة على الثقافات السابقة .

٧

نهاية العصر الحجري

لو ذهبت إلى بلدة مونتنياك Montignac في جنوب غرب فرنسا واجتزت الجسر المقام على نهر فيزير Vézère ثم سرت فى الطريق الذى يدور حول التل صاعداً نحو قمته فسوف تجد نفسك فى النهاية أمام مدخل كهف لاسكو Lascaux . وتستطيع أن تهبط إلى الكهف على درجات من الخرسانة لتتفرج عليه بسهولة ، فقد عمقت الأرض وأضىء الكهف بطريقة مسرحية رائعة من أجل راحتك ومتعتك . ولم تكن الأمور على مثل هذه السهولة واليسر بالنسبة للصيادين الذين نقشوا على جدران الكهف وفى ضوء المشاعل منذ حوالى عشرين ألف سنة صور الحيوانات التى كانوا يقتنصونها ومع ذلك جاءت رسومهم على درجة من الإتقان والإبداع كفيلة بأن تجعلك تذكرها ما حييت — إن كان فيك مثقال ذرة من الذوق والحس .

وسوف تواجهك فى الكهف صور بعض الثيران الضخمة المنقطة ، كما ستشاهد فى أحد الممرات رسوماً أقرب إلى الفن الصينى تمثل بعض الخيول الصغيرة وهى تقفز ، وقد رسمت باللون الأحمر أو اللون الضارب إلى الصفرة ، كذلك سترى حول الكهف الرئيسى كله وفى الممرات المتفرعة منه صور حيوانات أخرى نقشت على أرضية بيضاء طبيعية بالألوان الأحمر والبنى والأصفر والأرجوانى والأسود . فهناك مثلا صف من رؤوس الغزلان ذات القرون والظباء الصغيرة ، وكذلك صورة لكركدن وأخرى لجاموسة وحشية جريحة وقد تدلت أحشاؤها من الجرح . وتكشف رسوم هذه الحيوانات كلها عن كفاية وموهبة خارقتين . فهى ليست رسوم أطفال أو مجرد تخطيطات عابثة ، بل هى أعمال فنية صدرت عن رجال يعرفون كيف يرسمون ويعرضون مشاهداتهم ، مستخدمين فى ذلك ألواناً متباينة كانوا يصنعونها

من مختلف أنواع التراب الطبيعى أو الفحم الحيوانى بعـــد مزجها بشحم الحيوان .

وقد قام برسم هذه الصور أقوام أواسط العصر الحجرى القديم فى غرب أوروبا . فإذا ما انتهيت من زيارتك لكهف لاسكو وانصرفت ، فسوف ترى إلى أسفل واديا زاخرا بالحيوانات الضخمة ، وكان يعتبر من أوسع وأهم الأودية فى أواخر عصر البليستوسين ، ولاتزال تنتظمه حتى الآن الكهوف والمغارات التى كان يأوى إليها الصيادون . وبعض هذه الكهوف يضم الشىء الكثير من أعمال النقش أو الحفر أو النحت . وهكذا نصل فى النهاية إلى « إنسان الكهف » الذى طالما سمعتم عنه. فقد كان النياندرتاليون الأواخر يقطنون الكهوف ، بل إنهم كانوا يعيشون فى هذه الكهوف بالذات ، أما الذين أشرفوا على نقشها وزخرفتها بمثل هذه الروعة والفخامة فهم أقوام العصر الحجرى القديم الأعلى .

ومهما يكن من شىء فإن كلمة « إنسان الكهف » تسمية غير موفقة بعض الشىء . ولقد اعتادت الأجيال المتتابعة من التلاميذ أن يسمعوا أن « أجدادنا كانوا يسكنون فى الكهوف » ، وأصبحت المسألة مثارا للدعابة والسخرية مثل « قشرة الموز » أو « الحموات » . ومن المؤكد أن أقوام الكرومانيون وزملاءهم كانوا يسكنون الكهوف ، بل وكانوا يفعلون ذلك عن رضا

حصان من كهف لاسكو بفرنسا

وطيب خاطر ، إذ عثر فيها على هياكلهم العظمية وعلى نفاية ومخلفات مساكنهم . كذلك كان هناك ، ولا يزال للآن ، أقوام آخرون يستخدمون الكهوف لأسباب مختلفة . ولو كان علماء الآثار عندنا تركوا الأشياء على ماهي عليه لوجد علماء القرن التالي بغير شك طبقة من زجاجات المياه الغازية فوق الطبقات الأخرى فى أرض مساكنهم . ومن المؤكد أنه لو كانت شعوب العصر الحجرى القديم يسكنون فى الكهوف فقط لنجمت عن ذلك أزمة مخيفة فى المساكن ، ولكنهم كانوا يقيمون أيضا فى الخيام ، وكذلك فى مأوى خاص تحت الأرض ، بل وأيضا فى أكواخ من الأغصان والأعشاب كانوا يأوون إليها فى الصيف — كما قد توحى بعض الصور .

والواقع أنه من الصعب أن نخرج من دراسة جماجمهم وأدواتهم التافهة الساذجة بصورة ذهنية واضحة عن حياة القنص أو عن نوع الحياة اليومية التى كانت سائدة عند تلك الشعوب البسيطة فى العصر الحجرى القديم الأدنى . والأمر يختلف عن ذلك تماما فيما يتعلق بالعصر الحجرى المتأخر الذى نعرف الشىء الكثير عن شعوبه التى لم تندثر فى الحقيقة من الوجود تماما ، إذ تمثلهم الآن الشعوب « المتوحشة » الموجودة حاليا . ولقد ذكرنا من قبل أن هؤلاء الأقوام كانوا منذ البداية من النوع الحديث ، وأنهم يستخدمون أساليب « حديثة » فى القنص ، ويلجأون إلى أنواع مختلفة من الحيل ، كما كانوا أقدر على ابتكار عناصر الثقافة من النياندرتاليين أو غيرهم من البشر .

ولا جدال فى أنهم كانوا صيادين مهرة ، وأنهم كانوا فى تلك الأزمنة الجليدية يعتمدون فى معاشهم اعتمادا خاصا على اللحم دون الخضراوات . فقد كان اللحم متوافرا فى تلك العصور بمقادير كبيرة جدا تبدأ من حجم الماموث إلى الكركدن الذى كان يكسوه الصوف حينذاك (فى الأطوار الأكثر تبكيرا وفى المناطق الأشد برودة) إلى الجاموس الوحشى والماشية البرية الضخمة إلى الرنة والخيول الصغيرة نسبيا التى كانت توجد فى تلك

الأحقاب ، ولكن قد تكون هذه صورة غير دقيقة لطعامهم ، لأن معظم معلوماتنا متعلق بأوروبا وأمريكا الشمالية (إذ يشمل ذلك زمن وصول هنود أمريكا) حيث كان المناخ يتأثر تأثرا بالغا بالثلاجات ، بينما لم تحظ بقية أنحاء العالم بالدراسة الكافية . وعلى أية حال فإن أفريقيا كلها وجنوب وشرق آسيا كانت متخلفة بعض الشيء فى النمو الثقافى .

هذا الطور الجديد كله — أعنى ظهور الصيادين المتقدمين فى كل مكان — ينتمى إلى نهاية البليستوسين وبداية الأزمنة بعد الجليدية . وكانت سهوب التندرا الفسيحة المغطاة بالطحالب والأعشاب القصيرة أو بحشائش الاستبس بدأت تنكمش ، بينما استمرت طبقات الجليد بعض الوقت ثم انحسرت فى آخر الأمر لتحل محلها الغابات فى المنطقة المعتدلة الحديثة الظهور وتمتد هذه الفترة ما بين حوالى عام ٣٠,٠٠٠ ق . م وحوالى عام ٦٠٠٠ ق . م . وكلا التاريخين غير دقيق . الأول لأن من المستحيل معرفته على وجه التحديد ، والثانى لأنه يعين نهاية مرحلة القنص الخالصة فى بقعة واحدة فقط (هى الشرق الأوسط) حين بدأت الزراعة . ومنذ ذلك الحين أخذت تلك المرحلة تختفى من مختلف البقاع وإن بقيت مع ذلك بعض أماكن قليلة تمارس الصيد . وتشمل هذه الفترة العصر الباليوليثى الأعلى Upper Paleolithic والعصر الميزوليثى Mesolithic ، وهما تسميتان قديمتان لما نسميه الآن بالعصر الحجرى القديم (الأعلى) والعصر الحجرى الوسيط على التوالى ، ولا يكاد يكون لهذه التفرقة أى معنى الآن ، ومع ذلك ظل هذان الاسمان يستعملان لسبب أو لآخر .

ولقد كان جديرا بالصناعات الأساسية أو الوسائل الفنية لصناعة الأحجار خلال العصر الحجرى القديم الأدنى أن تتبع كلها أسلوبا واحدا عاما ينتشر فى مساحات واسعة من الأرض ويستمر فترات طويلة من الزمن كما هو شأن التقاليد الأشولية والباتشالوازية على الأقل . ولقد ظهر خلال الفترة القصيرة

التى استغرقها العصر الحجرى القديم الأعلى أشـــكال كثيرة من الآلات الحجرية وغيرها من الأدوات ، كما ظهر عدد أكبر من الثقافات المختلفة التى نشأت على ما يبدو وسط جماعات ثقافية كبيرة متمايزة . وقد يكون من الغلو أن نسمى هذه الجماعات « قبائل » ، وإن كانت هذه التسمية تعطينا فكرة تقريبية عن طبيعتها ، ولقد درج علماء الآثار فى الماضى على أن يتكلموا عن «فترات» أو« أدوار» العصر الحجرى القديم الأعلى فى أوروبا ولعلكم سمعتم عنها ، وهى الدور الأورينا كى Aurignacian والدور السوليترى Solutrean والدور الجدلينى Magdalenian . أما الآن فإنهم يتكلمون بدلا من ذلك عن أقوام مختلفين بعض الاختلاف ولهم ثقافات متمايزة كانت تتعاصر أو تتتابع فى الزمن فى أوروبا أو فى بعض أجزائها تبعاً لمجىء افواج جديدة من المهاجرين ، أو ظهور تأثيرات جديدة ، أو نتيجة لحدوث تغيرات لجائية . (ويمكن مقارنة ذلك بما نجده عند بعض الجماعات الرئيسية عندهنود أمريكا كالاختلافات مثلا بين هنود البلينز وهنود البويبلو) — ولكن سلسلة الأحداث الرئيسية ظلت على ما كانت عليه ، كما لا يزال للمصطلحات القديمة بعض المعنى والفائدة وإن كان علماء الآثار الحاليون يكتشفون وجود تجمعات أكثر تعقيدا أثناء محاولاتهم إقامة التمييزات الدقيقة بين الصناعات الحجرية وتحديد مواقعها على الخريطة وملاحظة كيف يرتبط بعضها ببعض فى طبقات الأرض فى كثير جدا من مراكز الحياة القديمة .

وتتلخص النظرة الحالية فى أنه كان هناك أسلوبان مبكران هما الأسلوب البيريجوردى Perigordian وهو يشمل الChatelperronian والGravettian والأسلوب الأورينا كى . ويتألف كل منهما من فترات متتابعة معقدة فى ذاتها بعض الشىء . أما « الدور » السوليترى السابق فالظاهر أنه كان — على العكس — فترة تقدم قصيرة نسبيا ازدهرت فيها بعض الأفكار القديمة التى يحتمل أنها كانت من أصل أفريقى ، والتى تطورت على الخصوص فى

شرق أوروبا وفي إسبانيا. ولكن هذه الطفرة في الصناعات الحجرية لم تستمر إلا قليلا. ويعتبر الدور المجدليني آخر الأطوار في غرب أوروبا. أما إذا أردنا تحديد المراحل النهائية في أوروبا ككل، فإن الصورة تصبح أشد تنوعاً، إذ سيدخلها عدد من الثقافات المحلية المترابطة أو الموروثة وذلك في الشمال والشرق. وقد عاشت كلها حتى نهاية العصر الحجري القديم.

المهارة في الصناعة الحجرية

وقد أصبحت صناعة الآلات الحجرية في ذلك العصر أقرب إلى الفن منها في أي عهد سابق بعد أن طرأت عليها بعض تجديدات حديثة، وبدلا من أن تكون هناك أنواع قليلة من الآلات أصبح لتلك الثقافات بالفعل عشرات من الصيغ والأشكال، ولكنها كلها بدأت بنفس الطريقة. فقد كانت تصنع من شطفة ذات جوانب متوازية تعرف باسم النصل blade. ففي الصناعة
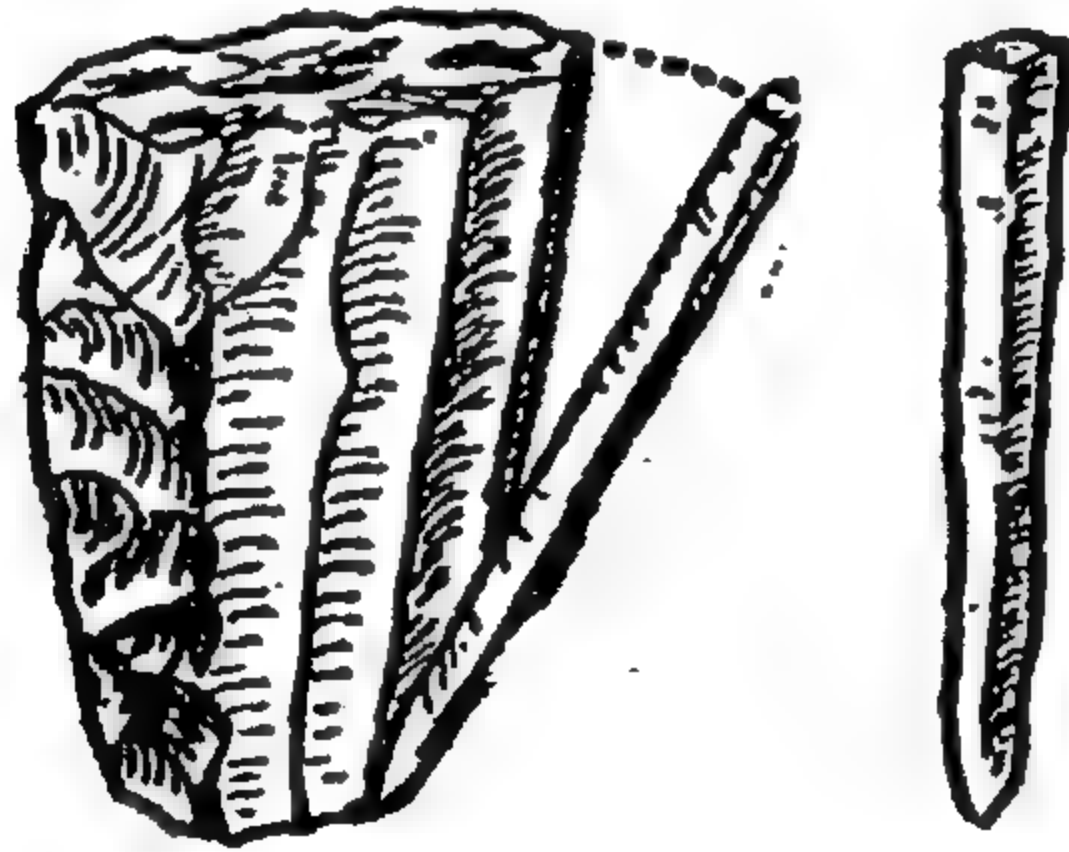
صناعة النصال بطريقة الشطف

الليفالوازية كانت تعد قطعة من اللب أو النواة Core بحيث تبدو أشبه بصدفة السلحفاة، ثم تفصل منها الشطفة التي سوف تستخدم كآلة. وبهذه الطريقة الجديدة كانت النواة تشكل بحيث تبدو أشبه بقذيفة المدفع المتوسطة، ثم تشطف منها شطفة مستطيلة بحيث تتجه من حافة الطرف الغليظ نحو الطرف المدبب بطول الجانب، وكان هذا يعطينا في النهاية نصلا طويلا ذا حدين مرهفين للغاية ولكن طرفه يميل إلى الانحناء قليلا إلى الداخل. ويحتمل أن

هذه العملية كانت تتطلب من الصانع أن يمسك النواة على قطعة من الجلد حتى يمكنه توزيع الضغط حسب الطلب ، وأن يستعين بأزميل من العظم ومطرقة من الحجارة يستخدمها بحذق ومهارة فى توجيه الضربة الفاصلة من الاتجاه الصحيح إلى الموضع الصحيح على الطرف الغليظ . وبذلك كان يمكنه أن ينزع من النواة الجيدة عدداً كبيراً جداً من النصال واحدا بعد الآخر مثلما ننزع أوراق الخرشوف ، بحيث لا يكاد يبقى من النواة ذاتها شىء آخر الأمر.

وزاد من قيمة ذلك التقدم فى صنع النصال ما حققه الإنسان من نجاح فى تشذيبها باستخدام ما يعرف باسم طريقة الشطف بالضغط pressure flaking . فبدلا من تشظية جزء صغير من الشطفة بالطرق عليها أصبح فى الإمكان فصلها بالضغط على الشطفة بأداة صغيرة من العظم . ولم يكن ينتج عن عملية الضغط أى تفتت فى الشطفة ذاتها ، كما أصبح من الميسور استخدام قوة الضغط المناسبة على الموضع المناسب باختلاف الشظيات . وبذلك يمكن القول إن عملية تشكيل الأداة فى صورتها النهائية كانت أشبه باستخدام المدية بدلا من الفأس فى البرى .

وكانت الشطفات الفجة التى تشطف من النواة بمثابة المادة الغفل التى تستخدم — بعد تهذيبها بالضغط — فى صنع كل أنواع الآلات . فقد يحتاج المرء إلى مدية مثلا ، ولكنه لن يستطيع استعمال النصل الحاد غير المشذب لأنه قد يقطع أصابعه فى الوقت الذى يقطع به قطعة اللحم التى أمامه ولذا كان لابد له من أن يقلل من حدة إحدى الحافتين بتكسيرها أو بردها وقد تكون الحافة القاطعة ذاتها مرهفة وحادة جدا بحيث تتكسر وتتقصف منها أجزاء صغيرة فى الطعام ولذا كان لابد من تقويتها هى أيضا بتشذيبها بطريقة الضغط حتى تغلظ مع احتفاظها فى الوقت ذاته بدرجة معينة من الحدة بحيث تصلح للاستعمال . وقد أمكن صنع نوع من المكاشط له حافة أقل حدة وأكثر انحدارا لاستخدامها فى التقشير والحك وكذلك فى سلخ

الحيوانات مع المحافظة بقدر الإمكان على الجلد من التلف. ويعتبر المكشط الطرفى end scraper من المكاشط السهلة الاستعمال، وكان يصنع من شطفة
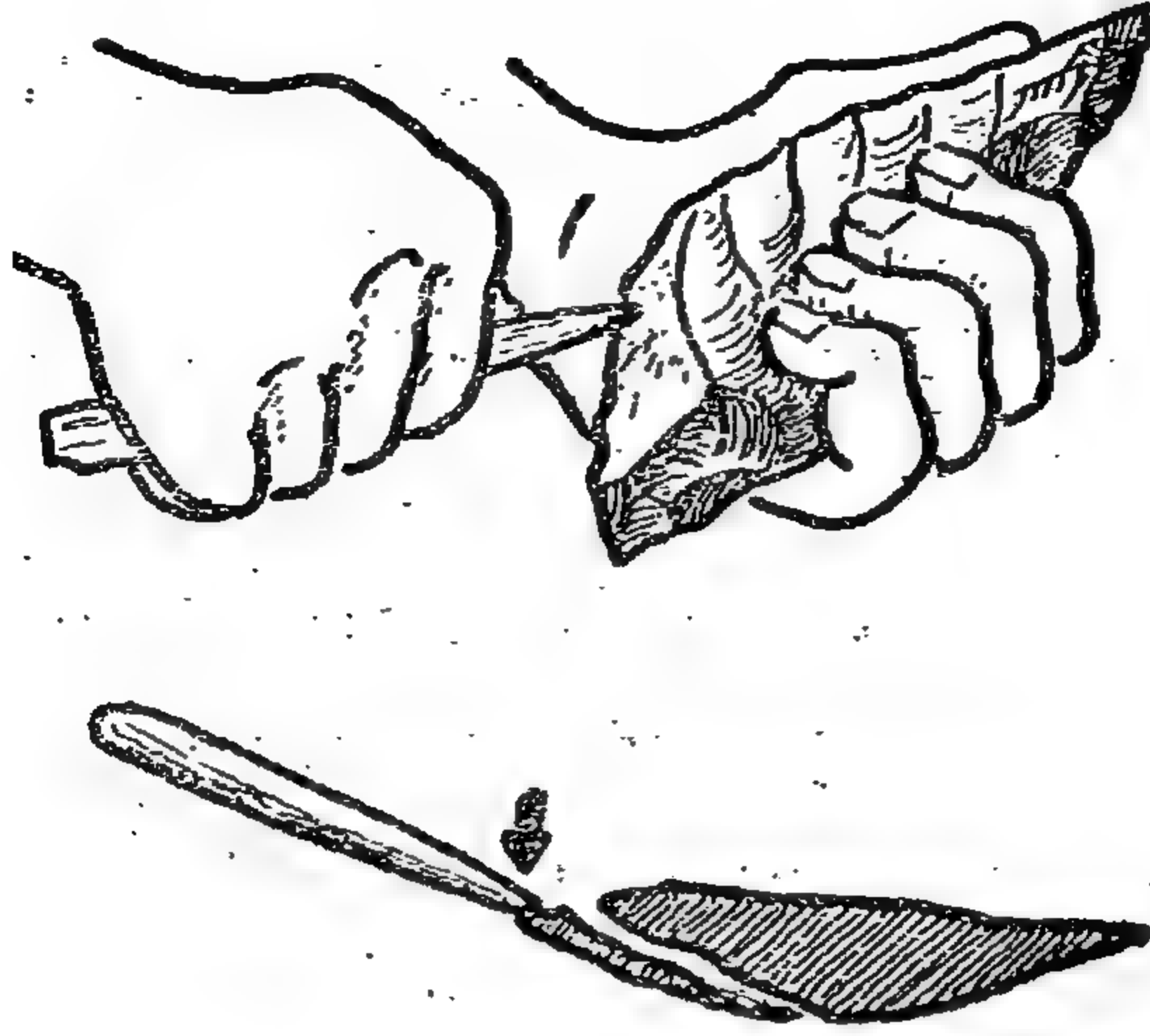
طريقة بسيطة للتشذيب بطريقة الضغط

ذات جوانب متثلمة ولكن لها حافة مستديرة جيدة الشطف. أما رءوس الرماح فكانت تصنع بتشذيب كلا الجانبين بحيث يلتقيان معا فى النهاية عند الطرف ثم تشكيل الآلة حسب الطلب.
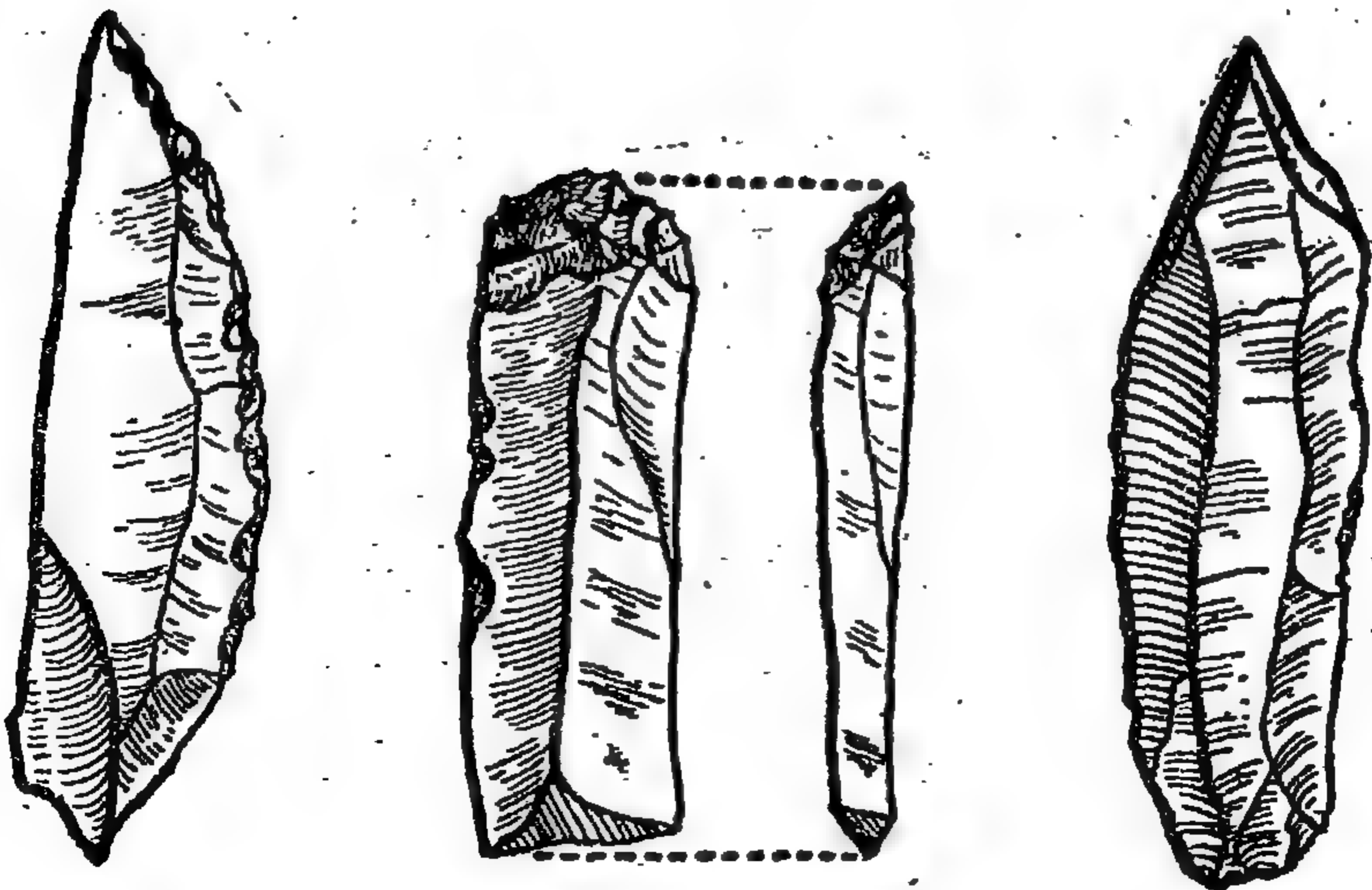
آلات نصلية من العصر الحجرى القديم. إلى اليسار سكين. فى الوسط مكشط. إلى اليمين آزميل أو منحت

وهذه كلها آلات أساسية نافعة . ولكن العصر الحجرى القديم الأعلى أبرز لنا — علاوة عليها — مجموعات جديدة كاملة من الآلات الحجرية الثانوية التى كانت تستخدم لتشكيل الخشب والعظام والاستفادة منها فى صنع الآلات والأدوات اللازمة . ومن هذا القبيل المكاشط الحجرية المقعرة التى كانت تستعمل لتنظيف القصبات التى تركب عليها رءوس الرماح وكذلك المثاقب التى كانت تستخدم فى ثقب العظام والخشب . ولكى يتسنى الاستفادة من كل هذه المواد فى صنع مختلف الأدوات والآلات كان لا بد من توافر عدد كبير جدا من شتى أنواع الأزاميل الصغيرة أو المناحت التى كانوا يحصلون عليها بفصل شطفة من النصل ، مع مراعاة أن تتم عملية الشطف فى الاتجاه المضاد ، أى فى عكس الطرف المدبب ، بحيث تترك كتفا لها حافة قاطعة ضيقة . ويعتبر هذا الأزميل أو المنحت أهم مايميز تلك الثقافة كلها . ولعلكم بدأتم تدركون الآن كيف استطاع الإنسان بفضل كل هذه الآلات وأمثالها — أن يهيء لنفسه حياة أطيب وأهنأ مما كانت عليه فى الماضى .

هذه إذن هى الصورة العامة لآلات العصر الحجرى القديم الأعلى وهى كلها تدل على المهارة ولكنها تكشف أيضا عن السذاجة فى الصنعة التى قد تصل إلى حد الإهمال الظاهر فى بعض الأدوات المجدلينية . أما الثقافة السوليترية (التى انتشرت فى كل أنحاء أوروبا لفترة قصيرة من الزمن) ، فإنها على العكس من ذلك تماما تفصح عن درجة عالية من المهارة والإتقان والتناسب (السيمترية) . ومن أروع الصناعات السوليترية فى فرنسا رءوس الحراب (المسنونات أو المدببات) التى كانت تصنع على شكل ورق الغار ، والتى كانت تشطف بحيث يبدو سطحها متموجا ، مما يدل على مدى الكمال الذى بلغته تلك المسنونات فى الشكل ، كما ينم عن الخبرة والإجادة والحذق فى الصنعة التى تمكن لصاحبها أن يفصل شظيات رقيقة طويلة بالضغط من الحافة تجاه خط الوسط بحيث توازى كل شظية منها الشظيات التى تجاورها وتماثلها

تماما ، وبذلك يبدو سطح الآلة أشبه بتموجات الماء أو الرمل . ومن الواضح أن الشعوب السوليترية كانوا يعشقون صناعة الحجارة كفن . ولم يظهر ما يمكن مقارنته بصناعتهم إلا فى قليل جداً من الأماكن مثل أوروبا ،
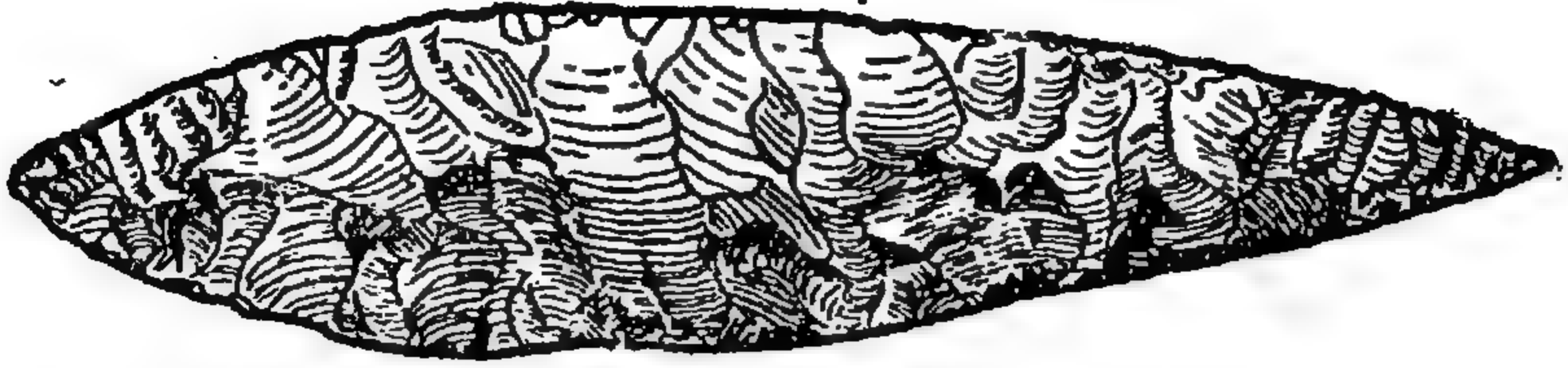
مسنون سوليترى

ومصر فى العصر الحجرى الحديث ، وكذلك عند بعض الهنود الحمر . فهى أعمال فذة لا تخضع الأساليب التى كانت سائدة حينئذ فى صناعة الأوانى فى أوروبا . وربما كان ظهورها راجعاً إلى التأثر ببعض التقاليد أو الأساليب الأفريقية فى الشطف بطريقة الضغط . والظاهر أن إسبانيا احتضنت ذلك الأسلوب فى بداية ظهوره ، كما أنه ظهر لآخر مرة فى المجر فيما بعد .

رأس حربة مجدلينى مصنوع من العظام

وعلى ذلك فلم يكن قانصو الحيوانات فى العصر الحجرى القديم الأعلى يكتفون بصنع ما يلزمهم من آلات دقيقة متناسقة من الحجارة ، بل إنهم استخدموا أيضاً فى ذلك العظام والعاج والقرون التى لم يكن فى مقدور أقوام العصر الحجرى القديم الأدنى أن يشكلوا منها آلات نافعة مفيدة . ولقد اكتفوا فى بادىء الأمر بصناعة مديات أو مسنونات ساذجة للحراب والمزاريق وكذلك صناعة الحرز والمثاقيب والدبابيس والإبر . ثم زادت

أهمية الآلات المصنوعة من العظام والقرون بشكل واضح فيما بعد عند الشعوب المجدلينية وبخاصة بعد استخدام رأس الهاربون (حربة صيد البحر)، التي كانت تزود بصف من الخطاطيف على طول أحد جانبيها أو كلا الجانبين.

ويبين الهاربون نوع التقدم الذي أحرزته صناعة الأسلحة في ذلك الوقت. وربما كان الرمح ذو السن المصنوع من الصوان هو أول وأمضى سلاح، ولكن لم يلبث أن أدخلت عليه التحسينات في أواخر العصر الحجري القديم الأعلى. وكان المقصود من المسنون ذي الخطاطيف الذي كان يصنع من العظام أو من القرون والذي يطلق عليه اسم رأس الهاربون، (ويبدو أن المسنونات المجدلينية كانت كلها من هذا النوع)، أن ينفصل عن قصبة الرمح حين يرشق في الحيوان. ولذا كان (رأس الهاربون) يربط بحبل يظل في يد القانص (حتى يستخدمه بعد ذلك في سحب القنيصة). وهذه هي الطريقة التي يستخدمه بها الإسكيمو في صيد سمك الصيل والنرويجيون في صيد الحوت، وربما كان المجدلينيون يستخدمونه في صيد الرنة. ومهما يكن من أمر فقد كان لديهم سلاح آخر له شأنه وخطره وأعني به قاذفة الحراب.

وتتألف القاذفة من قصبة يقبض عليها الصياد بكلتا يديه من أحد
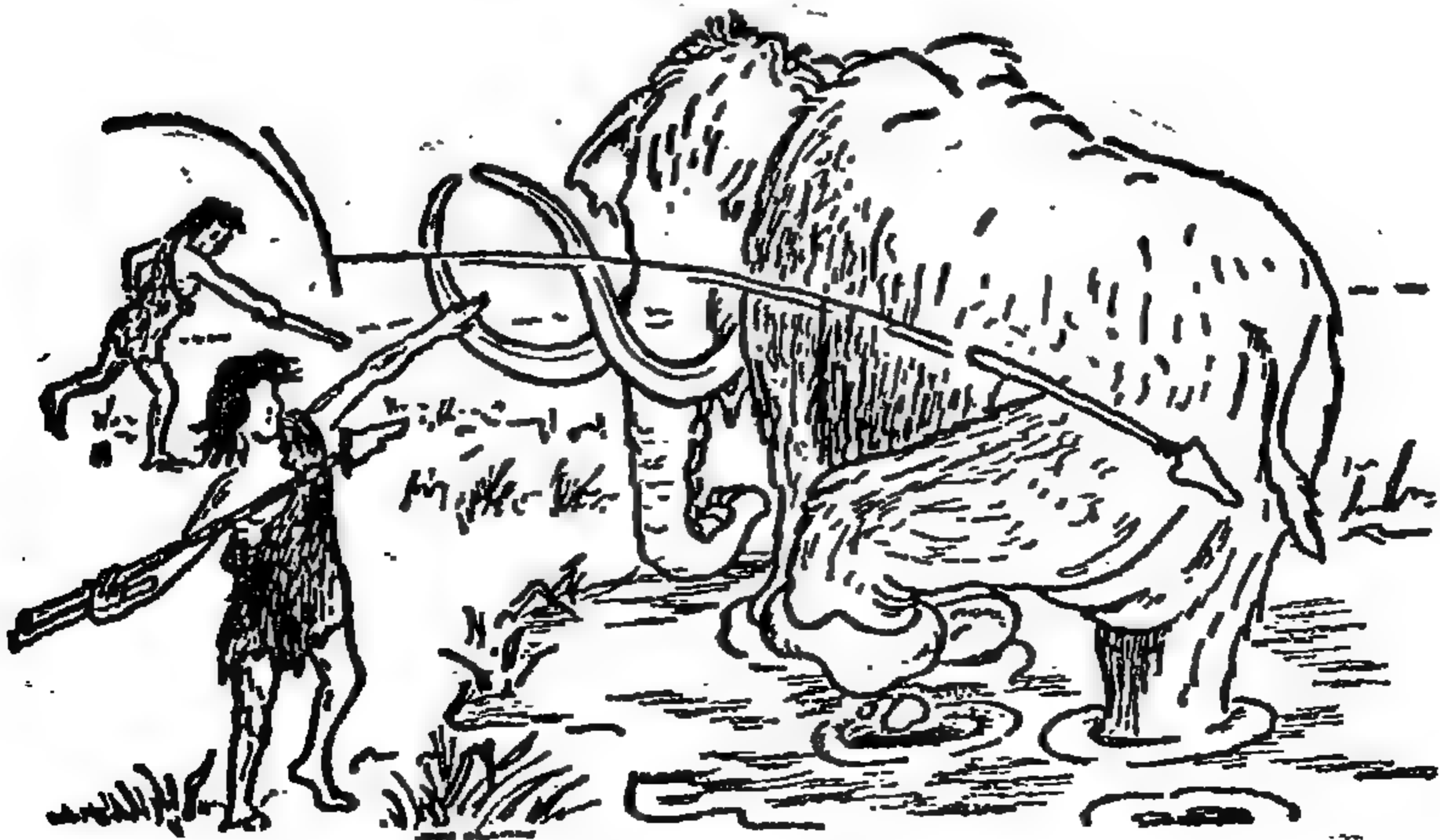
طريقة استعمال قاذفة الحراب

طرفيها كما يمسك فى الوقت نفسه بقصبة الحربة أو المزراق ، وكان يوجد فى طرف القاذفة فك أو ثقب تثبت فيه قاعدة الحربة ، فحين يقذف الصياد حربته فإن القاذفة تجذب معها ذراعه إلى الأمام ، وهذه الحركة التى تشبه حركة السوط تضيف قوة هائلة إلى الرمية . وقد تستطيع أن تفهم ما كان يحدث لو حاولت أن تسقط بعض التفاح الأخضر من فوق الشجر بأن تضربه بطرف عصا رفيعة . وليس من السهل تسديد هذا السلاح أو تصويبه إلى الهدف بإحكام ، على الأقل بالنسبة للمبتدئين . وهذا السلاح يزيد من قوة الرمية ولكنه لا يطيل المسافة التى يقطعها الرمح ، كما أنه يساعد الرمح ذاته على أن يغوص ويخترق أجسام الحيوانات الضخمة مثل الثيران الوحشية (البيسون) أو حصان البحر (الوالرس walrus) ، ويلحق بها إصابات بالغة خطيرة لا يفلح الرمح العادى الذى يقذف باليد فى إحداثها إلا فى حالات قليلة .

وليس من شك فى أن أقوام العصر الحجرى القديم كانوا يستخدمون الزبى pittraps ، وربما كان عندهم فخاخ أخرى أشد تعقيداً ولكن لم يعثر على أجزائها . ولسنا نعرف على وجه التأكيد إذا ما كانت القسى والسهام اخترعت قبل نهاية العصر الحجرى القديم . وحتى على فرض وجودها فإنها لم تكن تستخدم حينذاك على نطاق واسع . ومن المحتمل أيضاً أنهم كانوا يمارسون قليلا من صيد السمك بالشص من الأنهار ، ولكنهم لم يكونوا يستخدمون صنانير حقيقية وإنما كانوا يستخدمون نوعاً من السدود البسيطة الضيقة من الطرفين ويثبت الشص فى منتصفها . كذلك كانوا يلتقطون السمك بوساطة حراب صغيرة مزودة بعدد من الخطاطيف .

وعلى ذلك فقد كان الرجل الأوروبى فى العصر الحجرى القديم الأعلى ميسور الحال إلى حد كبير ، لأنه كان يصنع ما يلزمه من الأدوات والأسلحة المتقنة ، كما كان اللحم متوافرا بكثرة ولا يمنع المرء من الحصول عليه إلا الجبن أو الخور . فقد كانت هناك مقادير هائلة من الحيوانات الضخمة

فى أوائل ذلك العصر . كما ظهرت الرنة فى أواخره ، وهى كلها من حيوانات السهول والمناطق الخلوية . ولقد كان فى جعبته بلا شك كثير من الحيل التى كان يلجأ إليها — علاوة على الأسلحة — فى القنص ، فكان يدفع القنيصة من فوق الأكمات أو إلى الأماكن الضيقة الحرجة . كذلك كان يجيد صيد الطيور والحيوانات الصغيرة . وقد عثر فى كثير فى الأماكن التى كان يغشاها على مقادير كبيرة من عظام طائر الطهيوج grouse القطبى والأرانب . ولكننا لا نعرف شيئاً عن موقفه بالنسبة للخضراوات فى تلك الأصقاع المتجمدة . ولكن يحتمل أنه استغنى عنها إلى حد كبير ، أو أنه كان يأكل محتويات أحشاء الرنة التى كان يقتنصها .

وعلى أية حال فقلما كان يتعرض للجوع . ولسنا نعرف إلا القليل جداً عن مسكنه . وأقصى ما يمكن أن نقوله عن مشكلة الملبس هو أنه كان يرتدى بعض الملابس ، بدليل كل تلك الإبر التى عثرنا عليها وكذلك نظراً للبرد الشديد . أما حياته الاجتماعية فلا تزال لغزاً غامضاً ، ولكنه خلف لنا شيئاً واحداً رائعاً ، وهو الفن .

فى الكهوف

وأحد الأشكال الأولى المبكرة كان نوعاً من «الفن» الغامض المبهم فى نظرنا نحن . وهو عبارة عن تماثيل صغيرة منحوتة من الحجر أو العاج . وقد أطلق على تلك التماثيل اسم «ڤينوس» — من باب التهكم فيما أعتقد . فالتسمية لا تعنى أنها جميلة حقاً وإن كانت تعطينا فكرة عنها على أية حال . وقد لا تكون هذه التماثيل من الأعمال الفنية الخالدة ولكنها ليست مجرد لهو وعبث . ورءوس التماثيل عبارة عن كرات مستديرة خالية من الرشاقة والذوق فى العادة ، كما أن الأجزاء التى بين العنق والركبتين فيها غلو ومبالغة لا يمكن تبريرهما ، بحيث قد يمكن وصفها بأنها «شهوانية» . ولكن قد تكون «سمينة» صفة أقرب إلى الصحة . ويزعم بعض الكتاب أنها صنعت فى الأصل

فينوس فيلندورف

لتكون تعاويذ للخصوبة ، أو شيئاً من هذا القبيل . ولكننا نعرف أن الصيادين لايهتمون فى العادة بزيادة نسلهم وأن العكس هو الصحيح ، وعلى ذلك فقد لا تكون شيئاً أكثر من مجرد صور خليعة مبتذلة — وإن تكن بريئة — من العصر الحجرى القديم . وعلى أية حال فإن بعضها يدل على درجة عالية من الحذق والمهارة التى تنم عن شىء من الذوق الفنى .

أما الصور فأمرها يختلف عن ذلك تماماً . وكانت ترسم باللون الأسود فى أول الأمر ثم استخدمت الألوان الأخرى فيما بعد وبلغت ذروة الكمال الفنى فى الفترة المجدلينية . ولعل ألطف تلك الرسوم هى النقوش الموجودة فى كهف الطميرة (التاميرا Altamira) على الساحل الشمالى لإسبانيا ، وهى تمثل بعض الثيران الوحشية (البيسون) والخيول والخنازير البرية . ومن الواضح أنها رسمت فى تاريخ متأخر عن رسوم كهف لاسكو . ولكن مجال المفاضلة بين الاثنين — أو حتى بين غيرهما من كهوف فرنسا وإسبانيا — ضئيل (رغم وجود بعض الاختلافات فى الأسلوب) . كذلك

كان الفنانون يمارسون النحت البارز والرسم على جدران المآوى الصخرية. وأخيرا فإن الثقافة المجدلينية شاهدت كثيراً من الحفر والنحت فى الأعمال الفنية الصغيرة الدقيقة المصنوعة من العظام والعاج والقرون. ويتمثل بعض هذه الأعمال فى تشكيل الأدوات مثل مقابض وأطراف قاذفات الحراب التى كانت تصنع على هيئة حيوان أو طائر. ولكن يبدو أن البعض الآخر كان يقصد به الفن فقط.
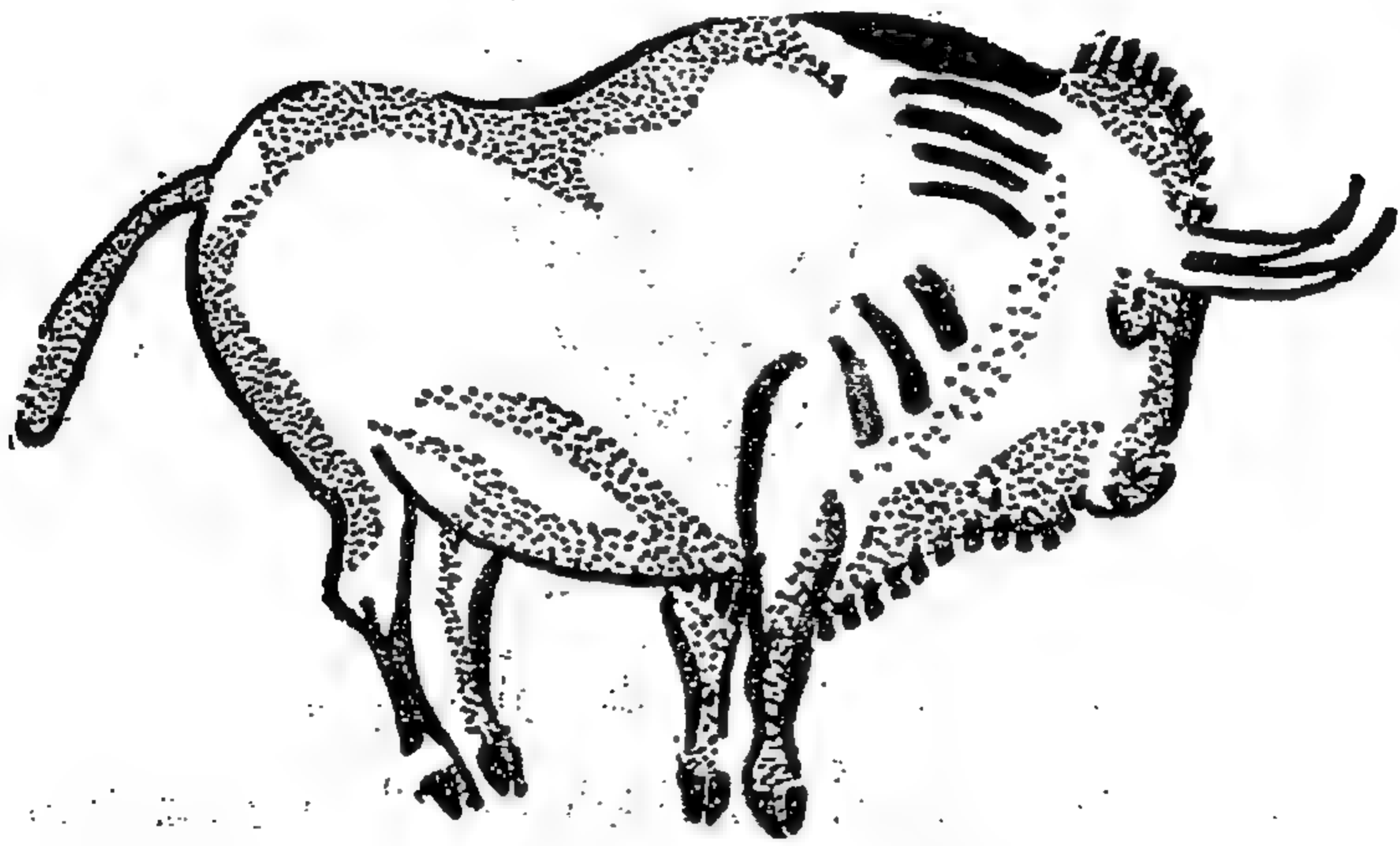
ثور وحشى من سقف الطميرة بإسبانيا، وقد استخدمت فى الأصل الألوان الأحمر والأصفر والأسود

والذى يدعو إلى الدهشة هنا هو درجة الإتقان البادى فى تلك الأعمال. صحيح أن هناك أمثلة على العجز والقصور، ولكننا لن نجد أبدا كهوفا بأكملها - مثلا - أفسدها عمل المبتدئين أو الرسومات التافهة الرخيصة، كما لا نجد بين القطع الصغيرة المنقوشة كثيراً من الأشكال التمهيدية الأولية. وقد عثر الدكتور موفيوس Movius على حصاة كبيرة مغطاة بصور الحيوانات التى نحتت إحداها فوق الأخرى، وهو يذهب إلى أنها كانت بمثابة «كراسة» الرسوم التمهيدية عند الفنان الحديث. والواقع أن نسبة كبيرة من هذه الرسوم كان منذ البداية عمل أساتذة، أى رجال بلغت إحساساتهم الفنية والجمالية مستوى رفيعاً من السمو والرقى يماثل ما نجده عند كبار فنانينا.

وهم خليقون بذلك أن يثيروا فى نفوس الرسامين المبتذلين فى الوقت الحاضر ما يثيره فيهم أعمال الفنانين المجيدين المحدثين من شعور بالخزى والعار . فإذا تذكرنا أن المجدليفيين كانوا ، بعد كل شىء ، بشراً كغيرهم من البشر فإنه يظل من العسير علينا أن نفهم كيف استطاعوا أن يحققوا كل ذلك النجاح القاطع المطرد دون أن يتركوا كثيرا من آثار محاولاتهم وأخطائهم الأولى .

وقد كانت الصور على الخصوص عملا جديا رصيناً . من الممكن على الأقل أن نخمن الغرض الذى رسمت من أجله ، فقد كان غرضهم منها هو الحصول على « سحر الصيد » وليس إقامة متاحف الفن . إنها وسيلة دينية يستطيع بها الصياد أن يتحكم فى الصيد ، فهى توجه القنيصة ذاتها أو « تصيبها » بما تحمل من قوى سحرية ، كما أنها قد تزيد من نسل الحيوانات وقدرتها على التكاثر ، فالموضوع الغالب فى تلك الصور هو حيوانات الصيد ؛ وكثيرا ما ترسم تلك الحيوانات وقد رشقت الحراب فيها بالفعل . أما كل ما عداها من موضوعات — كالنباتات مثلا أو الأشخاص — فقلما تظهر فى صورهم ، بل إن بعض تلك الصور كانت تصور الأشخاص أحيانا أثناء القنص أو فى حالة التربص والترقب للقنيصة . (توجد فى إسبانيا صورة لرجل — أو لعلها صورة امرأة — يتسلق شجرة ليسرق العسل من النحل) . وأخيرا فإن الصور كانت ترسم فى العادة فى الأروقة الخلفية المظلمة من الكهف وليس فى الأجزاء الأمامية التى تستعمل فى الحياة اليومية ، مما يدل بالتأكيد على أنها رسمت لغرض خاص . وليس هذا مجرد تخمين ؛ فالمعروف أن الصياد البدائى فى وقتنا الحاضر يستخدم نوعا من سحر الصيد يشبه ذلك .

وتؤلف الصور والرسوم مناظر رائعة ، وهى مصدر لكثير من المتعة كما هى مصدر للمعرفة ولكن بدرجة أقل ؛ إذ نستطيع أن نعرف منها أنواع الحيوانات التى كانوا يصطادونها فى ذلك الحين ، وكذلك بعض المخلوقات الأخرى التى اندثرت . ولكنها لا تكاد تخبرنا بشىء عن الناس أنفسهم .

فصور الأشخاص تظهر — بعكس صور الحيوانات — فى شكل تخطيطات أولية سريعة . كذلك هى لا تعطينا أية معلومات واضحة عن الملابس (وهى تستوى فى ذلك مع تماثيل ڤينوس الصغيرة) وإن كان بعضها يصور لنا أجسام الرجال وقد غطيت بالشعر الكثيف . إلا أنه قد يكون من الخطأ أن نعتقد أن جميع أجسام الرجال كان يغطيها الشعر فى ذلك الوقت، كما أن من الخطأ أن نقول إن أجسام جميع النساء كانت سمينة مكتنزة بالشحم. وقليل من المناظر الإسبانية تصور مشاهد القنص والقسى والسهام ، وهذه حقيقة لها دلالتها (ولكن ربما كانت هذه الرسوم الإسبانية ترجع إلى تاريخ متأخر . أعنى إلى العصر الحجرى المتوسط) بينما كثير من رسوم كهف لاسكو تصور موضوعات غريبة مبهمة كما تظهر فيها أشياء تشبه البيوت ولكنها قد لا تكون بيوتا على الإطلاق . وهذا هو كل ما نستطيع أن نقوله عنها .

وكانت طبقات الجليد تنحسر طيلة ذلك الوقت عن شمال أوروبا ولم تلبث بعد أن استقرت فترة أخيرة من الزمن فى شبه الجزيرة الاسكنديناڤية — أن تلاشت تماما حوالى عام ٨٠٠٠ ق . م . وكان بعض ثدييات البليستوسين مثل الماموث قد انقرض قبل ذلك بوقت طويل كما انقرض البعض الآخر كالبيسون والحصان الآسيوى من أوروبا، بينما هاجرت الرنة — وهى ملك الأزمنة الجداليدية — مع الثلاجات إلى الشمال حيث موطنها الحالى. وتحولت السهول الفسيحة إلى مناطق تكسوها الغابات ويقطنها الظبى الأحمر والخنزير البرى ، وأصبح القنص أكثر صعوبة على العموم نظرا لانتشار الغابات وتناقص الحيوانات الضخمة المكتنزة باللحم . وقد عانى سكان أوروبا من جراء ذلك الشىء الكثير .

أساتذة الصيد فى العصر الحجرى الوسيط

ومهما يكن من شيء فقد انتهت ثقافة العصر الحجرى القديم الأعلى وجاء بعدها ما يعرف باسم ثقافة العصر الحجرى الوسيط التى نشأت من ناحية ، من بقايا الثقافات السابقة ، كما يحتمل أنها تأثرت من الناحية الأخرى ، بثقافات العصر الحجرى القديم الأعلى التى ظهرت فى شمال أفريقيا فى وقت متأخر .
وينظر بعض العلماء إلى ثقافة العصر الحجرى الوسيط بشيء من الاشمئزاز على أساس أنها تمثل مرحلة تدهور من حياة قنص الحيوانات الضخمة التى كانت تسود فى أواخر العصر الحجرى القديم . ولكن الواقع أن هناك قدرا كبيرا مشتركا بين صيادى العصر الحجرى الوسيط والصيادين البدائيين فى العصر الحديث . فقد كان يتعين عليهم موازنة طعامهم وعاداتهم، مما اضطرهم إلى الاستعانة بكثير من المخترعات الجديدة — وهذا فى صفهم بالطبع — وبكثير من الأطعمة والمأكولات التى كان أسلافهم يأنفون منها .

ولقد لجأوا — أولا — إلى وسائل جديدة فى القنص ، وإحدى هذه الوسائل أو الآلات هى القسىّ والسهام التى قد تكون وجدت فى الأزمنة الحجرية القديمة ولكنها لم تكن تستخدم كثيرا على أية حال . والقوس أداة رائعة عجيبة لأنها تحل مشكلة الحصول على القوة الضاربة الهائلة التى تصيب بإحكام وعن بعد ، وهى مشكلة أخفقت فى حلها قاذفة الحراب . فحين يشد المرء القوس فإنه يركز فيه كل قوى ذراعيه وكتفيه لكى يطلقها بسرعة خاطفة كما يحدث فى إطلاق البندقية ، بدلا من أن يطلقها ببطء على ما يحدث فى قذف الحربة التى لا يمكن أن يركز فيها كل تلك القوة ، وبذلك يندفع السهم بسرعة تشبه اندفاع الرصاصة .

ففى الأزمنة الميزوليثية إذن أصبحت القوس هى السلاح الرئيسى ، وكان يستخدم معها (ليس فقط السهام المدببة المعروفة) بل وأيضا السهام ذات

الرءوس التى تشبه طرف الأزميل ، وكذلك السهام الخشبية ذات الرأس الغليظ ، لكى تصعق الطيور أو الحيوانات الصغيرة فتصرعها دون أن تقطع جلودها . وقد وجد عندهم أيضاً « إختراع » آخر له أهمية بالغة فى الصيد ، وهو الكلب . ولسنا نعرف أصل الكلب على وجه الدقة ، بل إننا لا نعرف إذا ما كان الإنسان هو الذى اخترع الكلب أو إذا كانت الكلاب هى التى اخترعت الناس — أعنى أى الاثنين بدأ الصداقة أولا . والكلاب مخلوقات أنيسة لطيفة ، والأغلب أنها كانت تحوم حول مخيمات الإنسان فى انتظار فضلات طعامه . وقد قبلها الإنسان على هذا الوضع ، ثم سمح لها بعد ذلك بأن تصاحبه وتلازمه حتى ظهر نفعها وفائدتها فى الصيد ، وذلك قبل أن يستأنسها ثم يقوم على تربيتها بوقت طويل ، والواقع أن الكلاب وصلت إلى ذلك المركز بالفعل فى بعض الثقافات المحدثة التى تقوم على صيد الحيوان .

بيد أن العائد القليل الذى كان يعود على الناس من صيد البر دفعهم — ثانياً — إلى الاهتمام بالبحر وبما يمكن أن يحصلوا عليه منه . ولقد كانت المحار تستخدم فى الطعام منذ عهود بعيدة ، ولكن سكان السواحل فى ذلك العصر اعتمدوا عليها اعتمادا كبيرا حتى تكونت طبقات سميكة من أصدافها حيث كانوا يجلسون للأكل ، ويظهر ذلك على وجه الخصوص فى البرتغال واسكنديناقيا . كذلك أصبحت أسماك البيق Pikes التى تصاد بالحراب من الأنهار ، طعاما رئيسيا بعد أن كانت لا تؤكل إلا فى القليل النادر . وقد عثر بين المخلفات الميزوليثية على صنانير حقيقية خاصة بصيد السمك مما يدل على أهمية هذه الطريقة فى الصيد . كذلك استخدمت القوارب وأمكن للناس بفضلها أن يصطادوا من البحر بسهولة ، كما أمكنهم صيد أسماك الصيل فى الشمال باستخدام الهاربون والشص ، بالإضافة إلى استخدام الشباك والأفخاخ التى عثر على الكثير من بقاياها . وأخيرا فإن الحيتان الجانحة كانت تعتبر بمثابة الثروة الطائلة التى تهبط على أقوام العصر الحجرى الوسيط على غير انتظار

أو توقع (وقد عثر على بعض الآلات من ذلك العصر مع هيا كل عدد كبير من الحيتان) . وعلى أى حال فإن هذا كله مجرد صورة سريعة ناقصة عن طعام البحر فى العصر الحجرى الوسيط، ولكن ينبغى ألا يقلل هذا من أهميته أو من أهمية المخترعات والمعدات الكثيرة المتعلقة به .

يضاف إلى هذا كله أن الشعوب الميزوليثية لابد أن تكون قد استكملت طعامها عن طريق « الجمع » باعتباره عملا متميزاً عن القنص . ومن الصعب أن نتكلم عن هذه المسألة ، ولكننا نعرف أنهم كانوا يأكلون الجوز والفواكه البرية، لأن بعض هذه الثمار تفحمت مما ساعدها على البقاء ضمن مخلفات بيوت ذلك العصر .
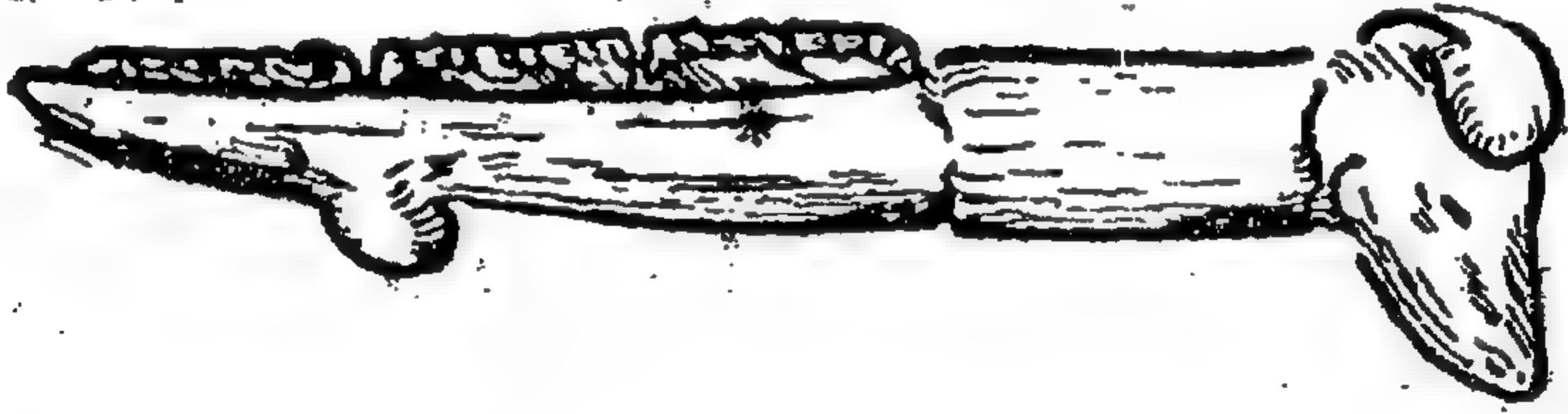
نصال أو مفصلات صغيرة من الأزمنة الميزوليثية كانت تستعمل فى الآلات ، فى أعلى – منجل ناتوفى Natufian من فلسطين. فى الوسط – سهم مستعرض من الدانمارك . فى أسفل – رأس حربة من ماجلموز Maglemose بالدانمارك .

ولكن ماذا عن بقية ثقافة العصر الحجرى الوسيط ؟ من الثابت أن الناس كانوا يقيمون فى خيام وأكواخ مختلفة الأشكال باختلاف المناطق .

وقد اضطر أقوام العصر الحجرى القديم فى كثير من الأماكن إزاء ندرة الخشب إلى استخدام ضلوع الماموث فى تسقيف مساكنهم التى كانوا يقيمونها تحت الأرض وإلى استخدام عظامها كوقود. ولكن الغابات الحديثة التكوين بدأت تمد أقوام العصر الحجرى الوسيط بكثير من الخشب. والواقع أن من أهم آلات ذلك العصر فأسا من الحجارة كانت تستخدم فى قطع الأخشاب، وهى تختلف عن فأس اليد وتكاد تشبه الفأس الحقيقية المعروفة لنا. فقد كان لها مقبض أو يد تستند عليها، كما كان لها حد قاطع يصنعونه بفصل شطفة كبيرة بعرض الحافة كلها. وثمة خاصية أخرى تميز الصناعة الحجرية فى العصر الميزوليثى، وهى الاعتماد على مختلف أنواع المفصلات الصغيرة أو النصال القزمية المصنوعة من الصوان والتى كانت تستخدم كرءوس أو خطاطيف للسهام، كما كانت تركب على قطعة من العظم للحصول على نصل سكين مركب، أو على آلة مدببة.

هذا النوع من الثقافة يبين لنا أن تلك الشعوب التى كانت تعيش على الصيد والجمع كانت تتمتع بقدر كبير من المهارة وسعة الحيلة والدهاء. وقد ساعدها ذلك على مغالبة الظروف الشاذة التى سادت فى أواخر العصر الجليدى، ثم على تكييف نفسها مع عالم يشبه عالمنا نحن إلى حد كبير. وقد عمت الأرض كلها تقريبا حينذاك ثقافات من ذلك الطراز العام. فالتقدم الطويل المطرد الذى حققه هؤلاء الصيادون فى انتقالهم من مرحلة استخدام القوة والعنف التى كان يعيش فيها إنسان جنوب أفريقيا إلى مرحلة الاعتماد على الحيلة وعلى المهارات المختلفة فى عصور ما بعد الجليد، بدأ يخف ويتوقف. وقد سادت فى أوروبا — كما فى غيرها من الأماكن — أنماط مختلفة من الثقافات الميزوليثية. فالثقافة الأزيلية Azelian المبكرة المبعثرة والتى قد لا تكون شيئاً أكثر من صورة متأخرة من الثقافة المجدلينية أنتجت أشكالا رديئة من الهاربون والحصى المنقوش بخطوط ورسومات مبهمة.

وقد كانت الثقافة التاردنية أوسع تلك الثقافات انتشارا ، بينما كانت ثقافة ماجلموز ثقافة مستنقعات وبذلك اقتصر انتشارها على أوروبا الشمالية ، وأمكنها أن تستغل حياة الماء إلى أبعد حد كما استخدمت الفؤوس فى الصناعات الخشبية ، بما فى ذلك قطع الأشجار للحصول على دعائم يقيمون عليها مساكنهم فوق الأرض الرخوة على حافة المستنقع .

كذلك كانت توجد ثقافات محلية أخرى . وقد عثر على بقايا أوان فخارية رديئة الصنع ترجع إلى أواخر تلك الثقافات ، ولكننا لانعرف تماماً إذا ما كانت صناعة الفخار تعتبر من الصناعات الميزوليثية فيما يتعلق بأوروبا ، ولكن الشعوب الزراعية فى الشرق الأدنى كانت تصنع تلك الأوانى وتستخدمها بالفعل فى ذلك الحين . وكل ما نستطيع أن نقوله فى هذا الصدد أن تلك الصناعة تسربت إلى أطراف أوروبا منذ ما تسرب الخرز الزجاجى إلى الهنود الحمر . والحقيقة هى أن أوروبا لم تكن مهدا لظهور الحضارة أو الثقافة الراقية ، وإنما استقبلها بمرور الزمن وإن سبقت فى ذلك بعض أجزاء العالم الأخرى ، أما فى العصر الحجرى الوسيط الذى امتد فى أمريكا حتى بعد عام ٤٠٠٠ ق . م فإن الأوروبيين كانوا لا يزالون مجرد أهال متأخرين .

٨
آخر الأحياء من الصيادين

حين بدأت الزراعة — التى جاءت المدنية فى أعقابها — تنتشر وتتسع دائرتها مثلما تتسع تموجات الماء حين نلقى فيه قطعة من الحجر ، أخذت الشعوب الميزوليثية فى جميع أنحاء الأرض تتراجع أمامها أو تصطنعها مهنة لها . واستمر ذلك لعدة آلاف من السنين فى مختلف المناطق ، إلى أن جاء العصر الذى شاهدت فيه الثقافة الأوروبية نهضتها فى العصور الوسطى واندفعت من موطنها الخاص لتعم العالم كله . ولم يلبث الأوروبيون بسوقهم العالمية ، أن امتصوا — أو هدموا — المجتمعات الموجودة فى كثير من الأنحاء وبخاصة فى أمريكا . ولكن حتى فى الوقت الذى قاموا فيه بأولى مخاطراتهم ، أى حوالى عام ١٤٩٢ ، وجدوا أن فلول تلك الجماعات كانت قد تعرضت لهجوم بعض الشعوب « البدائية » الأخرى التى ضيقت عليهم الخناق وبالغت فى مطاردتهم بحيث ابتعدوا — فى واقع الأمر — ولو مؤقتا عن مواطن الأذى والخطر . وقد ساعدهم ذلك نفسه على البقاء بشكل لم يتح لكثيرين غيرهم . والواقع أن هذه الجماعات وكذلك طريقة حياتها لم تبدأ فى الاندثار والاختفاء تماما إلا فى هذا العصر الحديث بعد أن وجدنا نحن أنفسنا وسائل وأسبابا نتذرع بها لكى نتغلغل فى بقية أركان الأرض .

وهذا معناه أن هذه الجماعات كانت فى عام ١٤٩٢ جماعات « هامشية » بكل معانى الكلمة . فبعضها كان (هامشيا) لبعده وانعزاله ، إذ أنها توجد فعلا فى أطراف العالم مثل جماعات البوشمن فى جنوب أفريقيا ، وأهالى أستراليا الأصليين ، وسكان جزر الأندمان فى خليج البنغال ، وسكان تيرا دلفويجو فى الطرف البعيد لأمريكا الجنوبية . أما معظمها فكان (هامشيا) من حيث الموارد وموطن الإقامة . والواقع أنه لم يقدر لها البقاء للآن

إلا أنه ليس لأحد مطمع فيها تملكا ، ولأن نوع ثقافتها الذى يقوم على مجرد الجمع هو الوسيلة الوحيدة للعيش فى تلك الأماكن كما هى الحال فى آخر معاقل البوشمن فى صحراء كلهارى ، أو فى الأراضى الجدبة والأصقاع القطبية فى سيبريا وأمريكا . فليس فى استطاعة أى إنسان أن يحصل من المنطقة القطبية على أكثر مما يحصل عليه الإسكيمو الأقوياء الأذكياء فعلا بكل وسائلهم العجيبة التى يقهرون بها البرد والثلج ؛ ومن هنا لم ينازعهم فيها أحد . أما هنود نيو إنجلند — وهم أرقى منهم ثقافة — فكانت أرضهم الطيبة تجود بزراعة الحنطة التى كانوا يقدمونها للحجاج Pilgrims[1] فأين راحت قرى ماساسويت Massasoit الآن ؟

فلول الثقافات التى تقوم على الصيد فى العصور الحديثة

البوشمن : الصيادون القزامى فى جنوب أفريقيا

وتستطيع هذه الجماعات التى أمكنها الصمود والبقاء — والتى أشرت إلى بعضها — وبخاصة الجماعات التى تحيا تحت ظروف طيبة نسبيا أن تعطينا

(١) تطلق كلمة «الحجاج» على جماعات البيوريتان البريطانيين الذين أسسوا مستعمرة بليموث Plymouth فى ماساشوستس Massachusetts عام ١٦٢٠.

المترجم

صورة حية عن العصر الحجرى الوسيط ، وأن تبين لنا طبيعة ومعنى الثقافة التى ترتكز على خليط من الجمع والقنص . فالبوشمن الذين كادوا ينقرضون من جنوب أفريقيا يرجعون فى واقع الأمر إلى العهود الأركيولوجية القديمة وإن تكن بعض الحلقات غير واضحة الوضوح الكافى . إذ من المؤكد أنهم كانوا فى وقت من الأوقات يحتلون كل جنوب القارة ، ومن الجائز أنهم وصلوا إلى شرقها أيضاً . وقد اهتموا خلال كل تاريخهم برسم الصور على الكهوف والجدران . وهى تشبه إلى حد كبير ما نجده فى الكهوف الأوروبية. صحيح أنه قد لا تتوافر فيها ميزات أروع رسوم الكهوف الأوروبية ولكنها أشبه من الناحية الأخرى رسوم شرق إسبانيا شبها قويا ، إذ أنها تصور الحيوانات والأشخاص فى مشاهد مليئة بالحياة والحركة وتستخدم فى ذلك ألوانا مختلفة . وترقد تحت الأدوات المصنوعة من الحجارة أو العظام التى خلفها البوشمن المحدثون فى الكهوف ، ثقافات حجرية أخرى من عهود متتابعة ترجع إلى العصر الحجرى القديم الأدنى .

ومع ذلك فلسنا نعرف على وجه التحقيق إلى أى عهد من هذه العهود ينتمى البوشمن ولا ما إذا كانوا هم الذين قاموا بنقش الرسوم المبكرة ، أو حتى المتأخرة ، كذلك نحن لا نعرف شيئا عن الأصل الأول للبوشمن أو سبب تكوينهم الجسمانى الغريب . فقد ظهر إنسان روديسيا قبلهم بوقت طويل ، كما كانت توجد فى الأزمنة الحجرية القديمة العليا أنواع أخرى حديثة من البشر كانوا أكبر من البوشمن فى الحجم وإن لم يختلفوا عنهم تماما فى تفاصيل الجمجمـــة .

والبوشمن شعب غريب يتميز أفراده بضآلة الحجم وتميل بشرتهم إلى اللون البنى المشوب بالصفرة . وهم يكادون يقاربون أقزام الكونغو فى القامة ، كما أن شعرهم من النوع الصوفى الشديد التجعيد ؛ ولكنهم يختلفون عن الزنوج فى أن وجوههم مثلثة ومسطحة بعض الشىء . كما تشبه عيونهم العيون

المغولية . وتمتاز نساء البوشمن بميزة غريبة ألا وهي القدرة على اكتناز وتكوين الشحم فوق الإليتين بحيث تتضخمان وتبرزان إلى الخلف بشكل لانجده عند أي كائن بشري آخر . وينمو هذا التضخم في الأوقات التي يتوافر فيها الطعام عندهم ، ثم لا يلبث أن يضمر ويضمحل حين يشح الطعام. وهذه الخاصية ، التي تشبه مانجده عند الإبل ، توحي بأن أسلاف البوشمن عملوا على تطويرها كنوع من الاستجابة للظروف القاسية وذلك أثناء عزلتهم الطويلة عن بقية الجنس البشري في جنوب أفريقيا . ولكن ليس هناك تفسير أكيد لها . وعلى أية حال فلا يزال هناك احتمال أن يكون البوشمن فرعا قديما من « الإنسان العاقل » يجوز أنه امتزج قليلا بالأقزام أو الزنوج .

ومنذ عهد غير موغل في القدم نزح الهتنتوت Hottentots بأبقارهم ومواشيهم إلى بلاد البوشمن القديمة . والظاهر أن الهتنتوت أنفسهم ظهروا نتيجة لامتزاج الزنوج والبوشمن وأنهم حصلوا على مواشيهم من الشمال . ولقد أخذوا يرعون مواشيهم في أراضي الصيد التي يملكها البوشمن الذين ثاروا لأنفسهم بأن اقتنصوا الماشية والهتنتوت على السواء، ثم أتى من بعدهم زنوج البانتو Bantu Negroes وشيدوا قرى أكثر تماسكا من مساكن الهتنتوت، وحلوا محل الاثنين جميعا ، وعملوا على إضعاف البوشمن وإبادتهم . ثم لقي البوشمن آخر أعدائهم من الهولنديين الذين جاءوا إلى بلادهم عن طريق رأس الرجاء الصالح بأبقارهم وأغنامهم ، فلما اصطادها البوشمن أخذ الهولنديون يقتلون — في مقابلها — البوشمن أنفسهم وحيواناتهم البرية . ولم يمض وقت طويل قبل أن يصبح كل ما في أيديهم هو المنطقة الشمالية المجدبة القاسية حيث تقع صحراء كلهاري وهو المكان الذي تقبع فيه فلولهم الآن.

ويتجول البوشمن في زمر وجماعات صغيرة ، أو حتى في شكل عائلات بحثاً عن الصيد ، ويغيرون مواطن إقامتهم تبعا لمواسم هجرة الحيوان . والواقع أن معظم تفكيرهم يدور حول مشكلة الطعام وبخاصة في موطنهم

الفقير الحالى ، كما تنحصر حياتهم فى البحث عنه [1] .

بيد أنهم يوسعون دائرة طعامهم — أولا — بعدم المفاضلة بين أنواع الطعام . وهذا معناه أنهم يكادون يأكلون أى شىء يستطيعون هضمه ، فهم لا يقتصرون على أكل الحيوانات المفضلة لديهم — أى الأنواع الكبيرة من فصيلة الظباء — بل هم يأكلون أيضاً الأسود والضباع والفيران والثعابين السامة والسحالى والعقارب والضفادع والحشرات والديدان وكل أنواع البذور والثمار والدرنيات .

وهم يوسعون دائرة طعامهم — ثانياً — بعدم احتفالهم كثيرا بحالة الطعام . فهم يستطيعون أن يأكلوا اللحم المتعفن وبيض النعام القديم الفاسد على ما يدعى الأوروبيون . ولقد أثار ذلك حيرة الكثيرين ممن شاهدوه . والواقع أن البوشمن يجدون لذة حقيقية فى تناول الأشياء التى نعتقد نحن أنها قد تودى بهم .

---

(١) سوف أعرض فى الأجزاء التالية من هذا الكتاب لدراسة الشعوب المتأخرة فى جميع أنحاء العالم ، وسوف أصف أحوالهم حين اتصل بهم الأوروبيون الذين تركوا لنا بعض الكتابات عنهم ، ولكن قبل أن يؤدى ذلك الاتصال إلى تغيير حياتهم التقليدية تغييراً جوهرياً . ولا يزال بعض هذه الشعوب يحيا فى تلك المرحلة ذاتها ، ولكن البعض الآخر تجاوزها منذ عام ١٩٠٠ بينما اندثر البعض الثالث تماما منذ عدة أجيال . بيد أن هذه القبائل تمثل فى عمومها الماضى الحى الذى يختلف بعض الشىء عن الماضى الأركيولوجى من ناحية، وعن الشعوب التاريخية — أى الأطوار الثابتة كالإمبراطوريات والأباطرة — من الناحية الأخرى . ولما كنا سنقارن هذه الشعوب بعضها ببعض ، فإننى سوف أستخدم صيغة المضارع إلا حيث يستحيل ذلك . وقد أطلق الأستاذان شابل Chapple وكون Coon على ذلك اسم « المضارع الإثنوجرافى » الذى يعتبر رخصة أدبية ووسيلة للتغلب على الحيرة — كلمة « نحن » التى يعمد إليها محررو الصحف . ويجب ألا تؤخذ صيغة المضارع حرفياً ، إذ قد تشير إلى الحاضر القائم الآن أو إلى خمسين أو ثلثمائة سنة مضت . ولكنها محاولة لدراسة هذه الشعوب والثقافات العامة كما لو كانت كلها خاضعة للدراسة والفحص الآن بالفعل ولكن فى صورتها وحالتها القديمة . ومع ذلك فلن يمكننى أن أتجنب استخدام صيغة الماضى دائما وبخاصة فى الحالات التى تكون القبيلة فيها قد « اعتادت » شرب الدم مثلا . وعلى أية حال فإننى أرجو أن تكون التغييرات العرضية فى صيغة الفعل مفهومة مقبولة لدى القراء .

وهم يوسعون دائرة طعامهم — ثالثا — بأن يأكلوا بشراهة ونهم كلما وجد طعام . ثم هم يقنعون — على عكس ذلك — بوجبة ضئيلة جدا إن اضطروا لذلك ، بل إنهم قد يظلون بغير طعام على الإطلاق لفترات طويلة من الزمن . ولقد شاهد كثير من الناس شخصين اثنين من البوشمن يأتيان على شاة كاملة أو على كميات مماثلة من لحوم الحيوانات المتوحشة فى نصف يوم . وحين أقول هنا «شاة كاملة » فإننى لا أعنى الأجزاء التى نفضلها نحن فحسب، وإنما أعنى أيضا الأمعاء وما إليها . (وهذا النوع من الشره والنهم فى تناول كل ما يمكن أكله بغير تمييز أمر مشاهد عند كثير من الصيادين الرحل فى كل أنحاء العالم) . ولا مراء فى أن هذا عمل فذ وليس بمجرد شىء يمكن لأى إنسان أن يقوم به بغير تدريب وترويض طويلين وهو أقل ما يمكن أن يوصف به . وهذا هو الوقت الذى تتضخم فيه مؤخرات النساء الناتئة ولعلكم تذكرون هنا تماثيل ڤينوس الصغيرة فى العصر الحجرى القديم الأعلى وكيف أنها كانت كلها تمثل نساء صغيرات ولكن على جانب كبير من السمنة والبدانة. ويرى بعض الدارسين أن هذه السمنة المفرطة ليست سوى مظهر واحد لتلك السمة التى تعرف باسم التألى أو كبر الإلية Steatopygia على الرغم من أن منظرها أقرب فى الحقيقة إلى البدانة العامة . (والواقع أن هذه البدانة تلائم المناخ البارد أكثر مما يلائمه وجود كتلة واحدة ضخمة فى أحد أجزاء الجسم) . وعلى أية حال فمن الجائز أن هذه التماثيل تصور فتيات خليعات من العصر الحجرى القديم، كما يجوز أن الجمال الصحى المثالى فى ذلك العصر الجليدى كان يتمثل فى المرأة السمينة الجيدة التغذية والتى تعكس — بشكل ما — آمالهم والتماسهم للطعام .

ويمكننا أن نرى من ذلك أن البوشمن استطاعوا على العموم بفضل مرونتهم فيما يتعلق بمسائل الطعام أن يكيفوا أنفسهم مع تقلبات موارد الغذاء عندهم بطريقة قد يصعب على غيرهم تحقيقها . ولكن كيف أمكنهم

تنظيم أنفسهم بشكل قاطع واضح حتى يحصلوا على الطعام ؟ الواقع أنهم رغم استعدادهم لتناول كل مايصادفهم من طعام فإنهم يفضلون الخضراوات البرية ولحوم بعض الحيوانات المتوحشة التى يخرجون — إما فرادى وإما جماعات — لقنصها، ويشتركون معا فى أكل القنيصة بغض النظر عن قنصها. (وهذه سمة أخرى من السمات المميزة لكل الجماعات البدائية التى تعيش على القنص) .
أما المرأة فإنها تخرج كل صباح من المخيم لتجمع الثمـــار البرية كالتوت والبرقوق والبطيخ البرى وكرنب البرارى وغير ذلك من ألوان الأبصال والدرنات وما إليها، وتستخدم لاقتلاعها فى الأغلب عصا حفر ثقيلة. وتصحب المرأة فى ذلك الأطفال من جميع الأعمار ليساعدها الكبار منهم فى الجمع. أما الرجال فإنهم يتولون أمر الصيد باعتباره عملا شاقا قد يتطلب منهم التوغل بعيدا فى الخلاء.

ويعرف البوشمن كثيرا من أسلحة الصيد. فهم يستخدمون — إلى حد ما — الرماح فى قنص الحيوانات الكبيرة كالزرافة، كما يستخدمون فى صيد الطيور وبعض الحيوانات الصغيرة نوعا من الهراوات الغليظة لها رأس ضخم ويبلغ طولها حوالى قدمين أو ثلاث أقدام فيصوبونها فى مهارة وحذق نحو القنيصة. ولكن عدتهم الرئيسية فى القنص هى القوس الصغيرة التى يطلقون بها السهام المسمومة، وهى فى العادة سهام خفيفة لها سن منفصلة من الخشب الصلب فى طول كف اليد. وتسقط قصبة الرمح حين ترشق السن فى جسم الفريسة، وبذلك يمكن استردادها. ولكن لبعض السهام رءوساً من الحجارة المدببة (وقد استخدم الزجاج والحديد أخيرا) . وقلما تفضى هذه القسى والسهام الخفيفة — فى حد ذاتها — إلى الموت، ولكن للسم تأثيراً قوياً فعالا. ويقوم البوشمن بتركيبه من سم الثعابين واليساريع وبعض الأعشاب والجذور السامة فيطبخون الخليط حتى يغلظ ويصبح له قوام هلامى شمعى تغمس فيه رءوس السهام أيا كان نوعها. وليس من

الضرورى أن يظهر مفعول السم فى الحال ، فذلك يتوقف بالطبع على حجم الحيوان وعلى طبيعة الإصابة. فقد يقتل الظبى الصغير فى التو واللحظة ولكنه يحتاج إلى بضع ساعات ليقضى على الظبى الكبير مما قد يضطر الصياد إلى مطاردته واقتفاء أثره لمسافة طويلة .

وثمة فارق كبير بين تصورنا للصيد وتصور البوشمن له . فخبرتنا بالغابات قليلة تثير الاستهزاء والسخرية ، فالصياد الأمريكى يظل يتخبط فى الغابة على غير هدى ، حتى تصطدم قدماه بحيوان أو يعثر بطريق المصادفة على طائر يكون غافلا عن بدء موسم الصيد والقنص فيطلق النار عليه . وهو فى ذلك إما أن يقتله أو يجرحه فقط فيفر منه ، وإما أن يثير فزعه فيهرب إلى المقاطعة المجاورة . فإذا أفلح فى قتل القنيصة فإنه يطلق فى العادة أحد كلاب الصيد لكى يحضر جسمها اليه . وقد يسعده الحظ فيخرج فى رحلة صيد إلى أفريقيا فيكتشف له الصيادون المدربون من الأهالى أنفسهم موقع أحد الحيوانات فيرميه بمسدس يكاد يصلح لتعطيل دبابة . أما أسلحة البوشمن من سموم وغيرها فإنها أضعف وأقل فتكا ، سواء من ناحية المدى أو القوة الضاربة . أضف إلى ذلك أنه مضطر إلى الاستعانة ، بجانب الأسلحة ، بخبرته ومهارته الواسعتين اللتين تثيران الإعجاب .

فالرجل عند البوشمن يتمتع فى المحل الأول بنصيب كبير من المعرفة والعلم . فهو يعرف كل شىء عن الحيوانات التى يتعامل معها وعن سلوكها وعن الطريقة التى يتغلب بها عليها كما يعرف كيف يستفيد من كل ما حوله فى الحصول على أدق المعلومات بطريقة تتضاءل بجانبها مهارة شرلوك هولمز نفسه . إننا ننظر ، إلى الخلاء الممتد أمامنا فلا نرى فيه شيئاً . ولكن ذلك الفراغ ذاته يبدو فى نظره مليئا بالعلامات والإشارات كالنفق بالنسبة لنا . وقد يكون من الصعب علينا حتى أن نتصور كيف تبدو هذه الأشياء ذاتها مختلفة أمام ناظريه فنحن لم نتلق مثل ذلك التدريب الطويل . إن بصره ينفذ ببساطة خلال تنكرات الطبيعة . فهو يشير إلى لا شىء فى الأفق البعيد

ويقول : هذا حمار وحش . وتنظر أنت فى ذلك الاتجاه ربما على أمل أن
ترى صورة مصغرة لحمار الوحش كما نعرفه فلا ترى شيئاً . والواقع أنه هو
نفسه لم ير حمار الوحش ، وإنما رأى شيئا يختلف عن حمار الوحش كل
الاختلاف ولكنه يعرف أنه حمار وحش أو أنه صدر عن وجود حمار
وحش بعيد . أما عن الأشياء القريبة فإنه يستطيع أن يتبع أحد الحيوانات
من آثاره، أو من العلامات العارضة الضئيلة جدا التى يخلفها . بل إنه يستطيع
أن يستدل منها على ما إذا كان ذلك الحيوان جريحا ومدى خطورة الجرح
ثم يقتفى ذلك الأثر بالذات لمسافات طويلة دون أن تصرفه عنه الآثار
الأخرى التى قد تختلط به .

ومثل هذه المقدرات — وإن بدت غير معقولة لنا — أمور عادية توجد
أيضا عند غيرهم من الشعوب التى تعتمد على قنص الحيوان . فسكان أستراليا
الأصليون يماثلونهم فى هذه البراعة . وأحب أن أقص عليكم قصة من تييرا
دلفويجو ومؤداها أن لوكاس بريدجز Lucas Bridges — وقد ولد ونشأ فى
Beagle Channel زكى أحد هنود الأونا — وكان عمره ستة عشر عاما —
لحاكم مدينة أوشوايا Ushuaia الأرجنتينى لكى يقص له أثر أحد المجرمين
الفارين من السجن . ولما كان من أهم الأعمال التى تمارس فى تلك المنطقة قطع
أخشاب الوقود والبناء من الغابات المحيطة ثم سحبها بوساطة الثيران ، فإننا
نستطيع أن نتصور حالة الأرض حول المدينة حيث تختلط آثار أقدام
الثيران بآثار مئات المجرمين والجنود والمدنيين . وقد اطلع الصبى الأونى
على صورة المجرم الهارب وعلى حذاءيه (وهما طبعا غير الحذاءين اللذين كان
يلبسهما وقت هروبه) كما زود بقليل من التفاصيل المتعلقة بارتفاع قامته
ووزنه ثم أطلق ليعمل . ومرت بضعة أيام لم يكن الصبى يظهر أثناءها إلا فى
أوقات تناول الطعام كما لم يمكن معرفة أى شىء منه . وعلى أية حال فإنه لم يكن
يجيد الكلام بالإسبانية . وفى الوقت الذى بدأ الحاكم — الذى كان مرتابا

فى أمره منذ البداية — يقرر أن ذلك المخبر السرى كان يستغله وأنه كان يضيف وزنا جديداً إلى جسمه من طعام الجيش، بدر من الصبي نفسه ماعزز تلك الشكوك فيه، إذ اختفى عن الأنظار كلية . ولكنه عاد بعد أسبوع وقدم تقريره الكامل فى كلمات قاطعة: « إن المجرم لم يهرب على الإطلاق،وحدث أن عثر بطريق المصادفة على السجين فى ذلك المساء نفسه مختبئاً بين أكوام الخشب الموجودة خارج السجن مباشرة . والذى حدث هو أن الصبي الهندى عكف على دراسة وفحص جميع الأماكن المجاورة للمدينة وكذلك الدروب والسبل المؤدية إلى القريتين اللتين تقعان على بعد خمسة عشر ميلا إلى الشرق والغرب حتى تأكد من أنه لا يوجد بين آلاف آثار الأقدام أثر واحد لشخص واحد لم يره هو بنفسه على الإطلاق .

ولكن لنعد إلى جنوب أفريقيا . إن أكبر مشكلة تواجه الصياد عند البوشمن هى الاتصال بقنيصته والاحتفاظ بها فى الوقت الذى يعمل جاهدا للقضاء عليها بقوسه الصغيرة المسمومة، ولذا كان يتعين عليه أن يكتشف مكان القنيصة، وأن يقترب منها بحيطة وحذر وفى أناة وصبر حتى لا ينكشف أمره، ولذلك فقد يخفى نفسه تماما حتى لا يقع بصر الفريسة عليه أو تشم رائحة وجوده فى الجو، أو قد يتخفى فى شكل أحد الوحوش غير الضارية التى تتحرك فى كسل واسترخاء فى المنطقة . ثم هو يحرص أخيراً على أن يوجه ضربته نحو الفريسة دون أن يصدر عنه ما ينم عليه . وقد تكون الإصابة أقل وأضعف من أن تدفع الحيوان حتى إلى الركض والجرى، وحينئذ يتعين على الصياد — كما يحدث للاعب البلياردو الماهر — أن يعد العدة لتوجيه ضربة أخرى إلى ذلك الحيوان نفسه أو إلى حيوان آخر بطريقة تترك الحيوان فى حيرة من أمر الهرب والطريق الذى يسلكه فى هروبه . وقد يتنكر الصياد فعلا فى هيئة حيوان بأن يربض تحت جلد ذلك الحيوان بحيث لا يكشف إلا عن ساقيه حتى يبدو أشبه بالنعامة (ويصور أحد الرسوم الجلدلينية رجلا يضع قرنين على رأسه، ولعله كان يكمن للصيد على تلك الهيئة).

وعلى أية حال فإن من المفيد جدا أن يقترب الصياد ما استطاع قبل أن يطلق قذيفتـــــه.

وخليق بالحيوان الجريح أن يركض هاربا بسرعة تفوق بالطبع سرعة الإنسان. ولكن يتعين على الصياد أن يقتفي أثره ويتعقبه ولو اقتضاه ذلك بضعة أيام يقطع فيها مسافة طويلة، لأن الصياد عند البوشمن أقدر على تحمل المشاق من الفريسة سواء أكان أصابها بسهامه المسمومة إصابة بالغة أم لم يصبها. وحتى نتبين أهمية المهارة البشرية الخالصة وقوة الاحتمال فى هذا النوع من القنص يكفى أن نذكر أن الصياد هناك يستطيع بالفعل أن يطارد الظبى الأفريقى Springbock — حتى ولو لم يكن جريحا — إلى أن يقتله وذلك بأن يتعقبه بحيث لا يترك له أية فرصة للراحة وبخاصة فى الجو الحار إلى أن تؤدى الرمال الساخنة إلى انفصال حوافره فيعجز تماما عن الحركة.

هذا هو الجانب الخلاب من حياة القنص. ولكن للبوشمن وسائل أخرى كثيرة. فهم يستعينون بالكلاب فى القنص كما يستخدمون الفخاخ والزبى والمهاوى Deadfalls والشباك فى صيد الحيوان والحراب والسم فى صيد السمك من الأنهار. ومن وسائلهم أيضاً أن يغطوا موارد الماء بفروع الأشجار ثم يحولوا الماء فى مجرى صناعى إلى حفرة مزيفة يضعون فيها السم ليقتلوا الحيوانات حين ترد لتشرب.

فإذا ما نظرنا إلى بقية ثقافتهم فلن نجد شيئاً كثيراً. فالملابس قد تبدأ بعصابة الرأس التى تتخذها النساء للزينة، بينما يستخدمها الرجل لحمل الأشياء الصغيرة ورؤوس السهام. ويلى ذلك مساحة كبيرة عارية من الجسم حتى نصل إلى مئزرين صغيرين تسدلهما المرأة على عورتيها أو إلى غطاء من الجلد يلبسه الرجل لنفس الغاية. كذلك يلبس البوشمن إزارا من الجلد حين يشتد البرد وليحمل فيه الأطفال الصغار، أما بيوتهم — إن استخدموها على الاطلاق بدلا من المآوى الصخرية ومصدات الريح — فهى عبارة عن

أكواخ صغيرة مؤقتة تقام من فروع الأشجار التى تثبت فى الأرض ثم تغطى بالحشائش أو بالحصير المصنوع من النباتات العشبية أو بالجلود .

ذلك لأن البوشمن لايستقرون فى مكان . وهم حين ينتقلون يحملون معهم كل متاعهم فيحمل الرجل أسلحته ، وتحمل المرأة كل شىء آخر : الأطفال الصغار والجلود الزائدة وأخشاب الوقود وقشر بيض النعام الذى يستعمل لحمل الماء وربما بعض الأوانى الفخارية الساذجة.أما الطعام فلا يمكن الاحتفاظ به لأكثر من يوم أو نحو ذلك حتى ولو أرادوا تخزينه ، ولقد رأينا فكرتهم عن أفضل موضع يوضع الطعام فيه وهو المعدة .

ومن هنا لم تكن للممتلكات الخاصة أهمية بالغة بالنسبة لهم، إلا أن لديهم فكرة واحدة واضحة عن الملكية ، ألا وهى ملكية الموطن الذى يعيشون فيه والموارد التى يحتويها . ويعتبر التعدى على ذلك الموطن بمثابة تهديد مباشر للحياة، ولذا كانوا يتمسكون بمواطنهم ويدافعون عنها فى عنف ووحشية تشبهان ما وجدناه بين السعادين العاوية . وتتحرك كل جماعة منهم داخل منطقتها الخاصة وتحارب من أجلها . كذلك يحرص البوشمن فى الصحراء أشد الحرص على الاحتفاظ بموارد مياههم سرا خاصا بهم .

والحياة الاجتماعية عند البوشمن بسيطة . فالزمرة الواحدة تتألف من عدد قليل من العائلات التى قد لاتعيش دائما معا فى إقليمها الخاص. وباستثناء رئيس العائلة فإننا لا نكاد نجد شخصا واحداً يمكن أن يطلق عليه كلمة « رئيس » . وقد يقيم البوشمن بعض الحفلات لمناسبة الزواج ولكننا قد لانجد أية علامة من علامات التكلف والرسميات . وهذا أمر مألوف عند كل الشعوب التى تعيش على القنص، فكثيراً ما يبدأ الفتى والفتاة — بكل بساطة — فى المعيشة معا وتكوين أسرة ثم تربية الأطفال : وإذا كان فى وسع الرجل أن يكفل أكثر من زوجة واحدة وأراد ذلك فله مايريد . ومهما يكن من شىء فقد يكون فى هذا ما يدل على عدم احتفالهم بالرسميات

ولكنه لايدل أبداً على عدم فهمهم لمعنى الزواج . فروابط القرابة عندهم واضحة ومحددة بكل دقة، كما أن الاتصال الجنسي بين المحارم يعد — كما هو الشأن فى كل المجتمعات البشرية — من الأمور البعيدة عن الذهن . كذلك يتحاشى الزوج أن يبدى أى اهتمام (بحماته) . ومع أنه يباح للرجل أن يتزوج من الزمر والجماعات الأخرى مما قد يؤدى إلى خلق علاقات وروابط خارجية فالمجال الاجتماعى للبوشمن ينحصر فى الجماعة الصغيرة التى ينتمى إليها والتى تعيش وتصطاد فى إقليمها الخاص وتقوم بحفلاتها الخاصة حيث يقوم الأفراد بالرقص والغناء ورواية القصص أثناء الليل . ولا يكاد يوجد أثر للدين : فهم قد يقدسون القمر، كما قد يظهرون — على الخصوص — شيئاً من الاحترام والرهبة لنوع معين من الحشرات عندهم وقد يعتقدون فى الفأل وغيره من الخرافات ، كما يستعينون بالسحر فى الصيد، وأخيراً فإنهم يعتقدون أن الأمراض تنشأ نتيجة لدخول نوع معين من الأرواح الشريرة الصفراء الدقيقة فى الجسم . ولكننا لانجد عندهم أية طقوس أو شعائر هامة تؤثر فى حياتهم .

روابط القرابة المعقدة فى أستراليا

فى الطرف الآخر من الكرة الأرضية يعيش زنوج أستراليا الأصليون عيشة تشبه عيشة البوشمن ويعتمدون على موارد مماثلة — وهذا معناه أن صلاتهم بالطبيعة وكذلك طرق مقاومتهم الثقافية تشبه إلى حد كبير ما نجده بينهم كما أنهم يتجولون فى شكل زمر صغيرة داخل مناطق الصيد المحددة لكل زمرة، ولكن البوشمن فى أفريقيا — ومثلهم فى ذلك مثل أغلبية الصيادين البدائيين — لا يتمتعون بأى تنظيم اجتماعى واضح عدا العائلة ومجموعة العائلات (الزمرة) ، بينما يوجد عند أهالى أستراليا بعض الأفكار الاجتماعية المتطورة التى يجب الاعتراف بأنها معقدة بشكل غير عادى ، والتى تؤدى وظيفة ديبلوماسية كما تزودهم بنوع من الفلسفة .

والمقصود بذلك نسق القرابة الأسترالى . ولكن لننظر إلى أقاربنا نحن أولا . إن كلمة « أم » أو « أب » تطلق عندنا على شخص واحد . أما كلمة « أخ » أو « جدة » فيمكن أن يقصد بها أحد اثنين ، أو أكثر من الناس . كذلك كلمة « uncle » قد يقصد بها « أخو الأب » « أو » « أخو الأم »[1] على السواء أو حتى أحد أنسبائهما المباشرين ، بل وكثيراً ما تطلق من الناحية العملية على أشخاص لا يمتون إلينا بصلة القرابة على الإطلاق . بينما كلمة « cousin » لها معنى أقل تحديداً من هذا كله . أما الأستراليون فهم أكثر دقة وتخصيصا ، فهم يشيرون إلى « ابنة أخي الأب » بكلمة خاصة تميزها عن « ابنة أخي الأم » (بينما يطلق الأوروبيون عليهما كلمة واحدة هي cousin) ، بل إن عندهم كلمة خاصة « بابنة ابن أخت أبي الأب » . ولكنهم من الناحية الأخرى أكثر منا تعميما : فأخو الأب مثلا ينظر إليه من الناحية الاجتماعية على أنه « أب » آخر وليس مجرد « عم » وعلى ذلك فأبناء وبنات ذلك « الأب » يعتبرون « إخوة » و « إخوان » لك وليسوا مجرد أبناء عم وتبعا لهذه القاعدة يصبح للأب (أى الوالد الحقيقى) نفسه عدد كبير من « الإخوة » (ليسوا فى الواقع إخوة حقيقيين) الذين يعتبرون بالتالى « آباء » لك كما يعتبر

---

(١) يفضل علماء الأنثروبولوجيا استخدام الصيغ الوصفية فى مصطلحات القرابة لكى تدل بدقة على درجة القرابة بين أى شخصين ، وبذلك فهم لا يتكلمون عن العم أو الخال وإنما يقولون « أخو الأب » أو « أخو الأم » ، ولا يتكلمون عن « بنت بنت الخالة » وإنما عن « بنت بنت أخت الأم » وهكذا . وإلى جانب هذه المصطلحات الوصفية يوجد ما يعرف باسم المصطلحات التصنيفية التى بمقتضاها تطلق الكلمة الواحدة على عدد كبير من الناس وهو نوع من المصطلحات سائد فى أستراليا على ما سنرى . ويجب عدم الخلط بين المصطلحات التصنيفية وما نجده فى اللغة الإنجليزية مثلا من استخدام كلمة uncle لعدد كبير من الناس ، أو ما نجده عندنا نحن من مناداة من نحترمهم من الناس بكلمة « يا عمى » ، لأن من شروط المصطلحات التصنيفية أنها تفرض نوعا معينا من الواجبات والحقوق على الأفراد الذين تطلق عليهم كأن يحرم الزواج بأى فتاة تعتبر « أختا » للشخص . أما ما نجده عندنا فهو مجرد تعبير عن الاحترام أو الإعزاز .

(المترجم)

أبناؤهم وبناتهم «إخوة» لك و«أخوات» ، وهكذا حتى تظن نفسك فى « بهو المرايا » . ولكن هل هذا يبدو معقدا ؟ إنه كذلك بل وأكثر من ذلك ولكننا نقف عند هذا الحد . وفى الإمكان أن نرسم خريطة كاملة تبين كيف ترتبط كل هذه المصطلحات القرابية بعضها ببعض وأين تتكرر . ولسنا نعنى بذلك أن الأستراليين أنفسهم يعلقون مثل هذه الخرائط ليسترشدوا بها أو قد مر بخاطرهم مجرد فكرة رسمها ، إنما نحن نعنى فقط أنهم يعرفون التسمية الحقيقية لكل شخص ، كما نعنى أن هذا النوع من الروابط يمكن أن يمتد ويتسع حتى يشمل الزمر الأخرى ، وقد يشمل حتى الجماعات القبلية إذا احتاج الأمر إلى ذلك .

ويرجع ذلك التعقد إلى أن الزواج عندهم يتداخل ويلتحم مع ذلك النسق . فالرجل لايتزوج — بطبيعة الأمر — من أخته ، بل إن بعض القبائل تفرض عليه أن يسلك معها بطريقة معينة فيها كثير من التكلف ، وأن يكلمها بطريقة رسمية كما تحرم عليه أيضا الزواج بأية واحدة من «أخواته» الأخريات مهما بعدت درجة القرابة الحقيقية بينهما ، وإلا اعتبر ذلك نوعا من الزنا بالمحارم ، بيد أن هناك من الناحية الأخرى شكلا من الزواج المفضل للرجل وهو الزواج بابنة الخال التى لاتعتبر « أختا » للرجل رغم درجة قرابتها القريبة وإنما تعتبر بالأحرى « زوجة محتملة » أو « زوجة متوقعة » فالخال أو أخو الأم لايعتبر حما « أو » أبا للزوجة ، ومن المحتمل بغير شك ألا يكون للرجل ابنة خال ليتزوج منها كما أنه من غير المعقول أن ننتظر من النسق كله أن يهيىء الأمور بحيث يتوافر العدد المطلوب من الإناث أو من كلا الجنسين ، ولكن هناك مع ذلك فتيات أخريات كن سيعتبرن «أخوات» لتلك « الزوجة المحتملة » أو « المتوقعة » لو أنها وجدت بالفعل بالتالى فإنهم يعتبرون — بمقتضى ذلك النسق التصنيفى — « زوجات محتملات » أو « زوجات متوقعات » لذلك الرجل . وفى الحالات التى يتعين على الرجل

الزواج من أكثر من امرأة فإنه يكون لكل زوجة من زوجاته مثل هذا النوع من العلاقة . والنتيجة العملية من هذا كله هو أن الناس ينقسمون هناك إلى فئات تحدد لهم — وكذلك لأبنائهم — الأشخاص الذين يحل لهم أو يحرم عليهم — الزواج منهم . (وليس هذا هو النسق العام فى أستراليا). والواقع أن هناك أنساقا أخرى أكثر تعقيدا كما أن هذا النوع من أنساق القرابة والزواج المفضل يوجد فى مجتمعات أخرى غير أستراليا وربما كان يوجد عند قدماء اليونان .

والواقع أن تنظيم الزواج هو مجرد ناحية واحدة من ذلك . فمثل هذا التخطيط المتشعب المتفرع قد يبدو أمرا شاذا غريبا لو كان الغرض الوحيد منه هو إرشاد الناس إلى اختيار زوجاتهم . إنما هو على العكس يهدف إلى وضع جميع الأفراد فى علاقات مرسومة محددة بعضهم بالنسبة للبعض، كما يحدد لكل منهم طريقة سلوكه تجاه الآخرين وما يجب أن يتوقعه منهم نتيجة لذلك . وليس من شك فى أن كل شخص يعرف تماماً والديه وإخوته الحقيقيين ومن إليهم أما سلوكه إزاء « الآباء » الآخرين البعيدين فهو صورة باهتة لأنماط السلوك التى يتبعها نحو أبيه وإخوته الحقيقيين . وبهذه الطريقة يمتد النسق وراء كل الحدود والقيود بحيث يستطيع المرء أن ينتقل آمنا مطمئنا بين الزمر والجماعات الأخرى، وهو أمر بالغ الأهمية فينشىء علاقات مع أقوام أغراب عن طريق العثور على إحدى الروابط أو الحلقات أو — إذا اقتضى الأمر — ادعاء وجود مثل هـــذه الرابطة . وهذا هو ما كنت أعنيه من الكلام عن « البناء الدبلوماسى » فالعلاقات ووسائل الاتصال تمتد وتتشعب وبذلك تيسر أمور السفر والتجارة والتزاوج، كما تقلل بالتالى من أثر العزلة الطبيعية المفروضة على الزمر المنفصلة . فالمسألة إذن مسألة حياة وأمن، وليست مجرد مسألة ذوق ولياقة .

ويقف الأستراليون من الطبيعة عموما موقفا مشابها لذلك ، فيقيمون

روابط قرابة مع الكون كله مثلما يجعلون من أنفسهم أقارب بعضهم لبعض، فهم أشد شعوب الأرض إيمانا بالنظام الطوطمى . ويعتقد أهالى أستراليا أن أسلافهم الأبطال كانوا يعيشون فى الأزمنة البعيدة السحيقة حين كانت الأشياء لا تزال تحت التكوين بالشكل الذى تبدو عليه الآن . وتعتبر تلك القصص والأساطير بمثابة « الكتاب المقدس » لهؤلاء الزنوج كما أن شعائرهم وطقوسهم عبارة عن دراما راقصة يسترجعون فيها أحداث تلك الأزمنة السحيقة من جديد ويحيون بها — مرة أخرى — الطبيعة والإنسان على السواء . ومن هؤلاء الأسلاف ظهرت الناس والحيوانات بمعنى أن أرواح القنغر (الطوطمية) قد تولد إما فى شكل الناس القناغر وإما فى شكل الناس الذين ينتمون إلى (طوطم) القنغر والذين يحرم عليهم بذلك أكل لحمه . وليس هذا هو كل شىء ، فللجماعات الزواجية وغيرها من التجمعات طواطمها أيضاً بل إن (الطواطم) تتغلغل فى الطبيعة كلها لدرجة أنهم يميزون بين الأشياء بحسب (طواطمها) . وحتى ملامح البيئة ذاتها تعتبر من صنع هؤلاء الأبطال ، فتلك الصخرة مثلا إنما خلقت من عظام بطل معين ورواسب الكحول الأحمر تكونت من الدماء التى أراقها بطل آخر وهكذا . وأخيرا فإن الأستراليين يعرفون كل الطرق والدروب المقدسة التى سلكها أسلافهم فى رحلاتهم .

وعلى ذلك فإن تلك البلاد الفقيرة المغطاة بالشجيرات لا تعتبر مجالا حيوياً للصيد بالنسبة للأهالى فحسب ، بحيث تكشف لهم عمليا عن خباياها (مثلما تفعل بالنسبة للبوشمن فى جنوب أفريقيا) وإنما تؤلف أيضا عالم الروح الذى يكونون بأجسامهم ونفوسهم جزءاً منه ، فهى موطن أسلافهم ومستقر أرواحهم الطوطمية . وفيها يشعرون بالأمن والوفاق مع الطبيعة ، كما أنهم بفضل شعائرهم الدينية يعرفون كيف يحافظون على ذلك الوضع مما يساعد الأرواح الحيوانية على التوالد فيتوافر الصيد بالتالى . فإذا خرجوا من نطاق مواطنهم ، فإنهم يحسون بالغربة التامة وبالتعاسة ، ويشعرون بالخطر .

وفيما عدا هذا التنظيم الاجتماعى (والدينى) تبدو حياة الأستراليين ساذجة. فالزمرة الواحدة تضم حوالى أربعين شخصا — أى بضع عائلات فقط — وحين يجد من الأمور ما يحتاج إلى اتخاذ قرار بشأنه فإن شيوخ هذه العائلات يجتمعون للنظر فيه. ومن حين لآخر تجتمع بعض هذه الزمر التى تقوم بينها روابط قرابة بقصد الاشتراك فى بعض المراسيم أو الحفلات. ويمكن أن نطلق على هذه الجماعات الكبيرة كلمة « قبيلة » على اعتبار أن لها لغة مشتركة وعادات متماثلة إلى حد كبير لا لشىء آخر.

ومن هذه الاحتفالات التى يجتمعون لها، الحفلات الخاصة بتكريس الفتيان، أى تأهيلهم لحياة الرجولة. وتكاد هذه الحفلات تكون عنصراً ثقافيا عاما، ولكنه واضح بوجه خاص عند أبسط الشعوب. والعادة أن الصبية يعزلون أثناء مراسيم التكريس بحيث يعيشون فى الغابة ويخضعون لبعض القيود أو التحريمات القاسية التى تتعلق على الخصوص بمسألة الطعام. كذلك قد تجرى لهم بعض العمليات الجراحية البسيطة كما يتعرضون لأنواع شتى من التعذيب أو التخويف والإرهاب ثم يلقنون بعد ذلك التعاليم والقواعد الخلقية الخاصة بالعشيرة وكذلك (فى العادة) الأسرار الدينية، ويشرف أفراد الجماعة من الذكور البالغين على تلك الطقوس أو قد يقومون بدور الكائنات العليا الفائقة للطبيعة. ويمارس البوشمن فى جنوب أفريقيا طقوسا مشابهة لهذه إلى حد كبير. وفى هذه المناسبة يلقن الصبية فى أستراليا التراث المتعلق بأسلافهم الطواطم، والذى كان يعتبر سرا خفيا عليهم من قبل والذى يظل أبدا سراً مغلقا على النساء كما تجرى لهم عملية الختان أو بعض التشويهات الأخرى كأن تخلع إحدى أسنانهم. وعلى العموم فسواء كانت العادات متعلقة بالتكريس تمارس بقصد سيىء (وهو أمر بعيد الاحتمال) أو بنية حسنة، فإنها تعتبر وسيلة عنيفة للتربية والإعداد لمرحلة النضج. فهى تهز الصبى بعنف وتدفعه دفعا إلى احترام التراث والتقاليد والعرف وإلى الشعور

بمسئولياته كرجل وكذلك إلى تقدير المسئوليات التي سيضطلع بها في حياة القنص ، ذلك لأن حرمان الصبي من الطعام يعد عند الشعوب التي تعيش على صيد الحيوان من أبرز العناصر العنيفة في شعائر التسكريس كلها [١] .

والتشابه كامل بين الملامح العامة للاقتصاد الأسترالي واقتصاد جماعات البوشمن في جنوب أفريقيا . فالزمر الصغيرة تنتقل من مخيم لآخر بحثا عن الصيد. أما مساكنهم وملابسهم فبسيطة وقليلة إلا في جنوب القارة حيث يضطرهم البرد إلى السكنى في أكواخ من كتل الخشب وإلى لبس الجلود بدلا من الاكتفاء بقطعة صغيرة من فراء الأوبوسوم opossum يلفونها حول الوسط أو الرأس وهم يعيشون على القنص وبخاصة قنص الجلبانيات مثل فصيلة القنغر والأوبوسوم (ولم يكن هناك قبل عصر الاكتشاف أية ثدييات خاصة مميزة ماعدا كلب الدنجو البرى الذي كان يستخدم في الصيد والذي يحتمل أن يكون أتى لأول مرة مع الأهالي الأصليين أنفسهم) ، ولكن قائمة الأشياء التي يعتمدون عليها في طعامهم طويلة ، كما هي الحال عند البوشمن . وتقوم النساء باقتلاع نبات اليام وغيره من الخضراوات الطبيعية ، بينما يقوم

(١) يجب التفرقة بين نوعين من شعائر التسكريس : الشعائر الجماعية وهي الأغلب ، والشعائر الفردية وهي تمارس عند عدد قليل من القبائل سواء في أستراليا أو أفريقيا أو عند الهنود الحمر . ويعتبر الختان أهم عنصر في الشعائر الجماعية وإن كنا نجد بعض القبائل في شرق أفريقيا على الخصوص يستبدلون بالختان إجراء بعض العمليات الجراحية الأخرى كما يقول المؤلف مثل تشليخ الجبهة والرأس أو خلع بعض الأسنان . وقد يتعرض الشبان في بعض المجتمعات إلى أنواع التعذيب أقل قسوة من هذه ، كالجلد بالسياط مثلا أو الوخز بالأشواك والشجيرات الشوكية أو إجبار الفتية على تناول طعام ساخن ملتهب أو حرمانهم من الطعام إما لفترة معينة يحددها العرف وتختلف من مجتمع لآخر . وهي كلها تهدف إلى اختبار قوة احتمال الشبان في ة الصعاب التي سوف يصادفونها في حياتهم وخاصة حين يخرجون للصيد . أما شعائر التسكريس الفردية فالأغلب أنها لا تنطوي على مثل هذه العناصر العنيفة وإنما يكتفى فيها بمطالبة الفتى بطعن أحد الثيران القوية ، بشرط أن يقتله من الطعنة الأولى . ويعتبر التسكريس على العموم بمثابة الرخصة التي بمقتضاها يصبح الفرد لأول مرة في حياته عضواً كاملا في المجتمع فيحتل مركزاً اجتماعياً محدداً وينفصل عن مجتمع النسوة ، ويلحق بمجتمع الرجال ، كما يخوله بعدها مباشرة وظيفته الجنسية . (المترجم)

الرجال بالصيد . أما آلاتهم وأدواتهم فإنها — فى حالتها الراهنة — تجمع بين أدوات العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الوسيط . فعندهم الحراب وقاذفات الحراب (ولكنهم لايعرفون القسى والسهام) وهناك البومرانج (الهراوة الأسترالية الضخمة التى تقذف ولكن لايقصد بها أن تعود إلى الرامى بل أن تصدم الحيوان فتشله أو تقتله — أما النوع الذى يعود إلى الرامى فيقصد به التسلية فقط) . وعندهم أيضا الشباك لصيد الطيور أو السمك والفخاخ المصنوعة من الخيوط والحبال وكذلك القوارب فى المناطق التى بها الماء . وتشمل صناعتهم الحجرية كثيراً من الطرز والأساليب من العصر الحجرى القديم كله، وليس من شك فى أن الأهالى وفدوا فى الأصل من آسيا ثم انعزلوا فى استراليا لعدة آلاف من السنين (وربما لفترة أطول من ذلك بكثير) ولكننا لانعرف بالضبط من أين جاءوا ولا متى جاءوا .

ثقافة الصيد ومجتمع الصيادين

فالأستراليون إذن كالبوشمن شعوب بسيطة تعيش على التجول للبحث عن الطعام وهم يكملون النقص البادى فى أسلحتهم ببراعتهم الفائقة فى الصيد كما يحذقون فن الأكل بشراهة ونهم أو عدم الأكل على الإطلاق . وقد نستطيع الآن أن نستعرض الشعوب الأخرى التى تعيش على القنص والجمع فى كل أنحاء العالم، ولكننا سوف نرى فى الحال أن كثيراً من ملامح حياتهم الأساسية سوف تظهر وتتكرر فى مثل هذه الدراسة . ولسنا نعنى بذلك أن ثقافاتهم كلها متماثلة أو أنها كلها على مستوى واحد بالذات . فلقد رأينا الفرق بين التنظيم الاجتماعى عند البوشمن وعند الأستراليين وكذلك الفرق بين أسلحتهم، وبالمثل نستطيع أن نقابل قسى البوشمن الضعيفة بالقسى الطويلة (التى قد يبلغ طول بعضها أكثر من تسع أقدام) وبصناعة السهام المعقدة عند هنود السيريونو Sirionó فى شرق بوليفيا أو بالقسى المعقوفة فى جزر الاندمان Andaman أو بنادق النفخ عند الساكاى Sakai فى شبه جزيرة

الملايو . فكل هذه الأسلحة تتضمن كثيرا من الابتكار الخاص ، كما أنها أدوات بعيدة كل البعد عن البساطة .

أضف إلى ذلك أنه بينما يعيش البوشمن والأستراليون فى أجواء متقاربة فى طبيعتها، فقد يكون لغيرهم من الصيادين بيئات جد متباينة ووسائل مختلفة أيضاً للتغلب على تلك البيئات ، فبعض القبائل قد تتوافر لها فرص واسعة منوعة كما هى الحال فى جزر تييرادلفويجو مثلا حيث يمارس هنود الأونا قنص الحيوان على الأرض باستخدام القوس والسهم ، بينما يفضل جيرانهم من قبائل الياغان yahgan استخدام الحراب والسكى بالقرب من الشواطىء وفى القوارب، كما يعتمدون فى معاشهم اعتماداً كبيراً على بلح البحر والسمك والطيور . ويبدى بعض القبائل درجة عالية من التخصص فى مهنة الصيد كما هو شأن هنود شمال كندا الذين يعيشون على صيد نوع معين من الوعول يعرف باسم الكاريبو caribou بينما يميل البعض الآخر إلى الجمع أكثر مما يميلون إلى القنص ، كما هى الحال عند بعض هنود غرب الولايات المتحدة وكاليفورنيا السفلى ، حيث تؤلف الفواكه الجافة والخضراوات بأنواعها الغذاء الرئيسى .

ولكن ثمة أوجه شبه كثيرة بين سلوك الصيادين فى كل مكان ، وقد سبق أن عرضنا لبعض الأمثلة على ذلك مثل الالتزام العام بأن ينزل الصياد عن جزء من القنيصة للآخرين ،وهو نفس الالتزام الذى يحتم على الناس فى قارب النجاة اقتسام الطعام فيما بينهم والأكل بشراهة وبهم حين يتوافر الطعام والبراعة الفائقة فى استخدام كل المهارات فى الصيد . كذلك توجد أوجه شبه فى الحياة الاجتماعية . ونحن نعرف أنه ليس هناك ما هو أسوأ من التسرع فى تقرير وجود « قواعد » عامة فى الثقافة أو التاريخ على الرغم مما قد يكون فى ذلك من طرافة، لأن هذا سيؤدى بنا فى الحال إلى

الكلام عن وجود « مراحل » فى « تطور الزواج » كما لو كان الزواج لفصيلة من الأرانب . ومع ذلك فليس من الصعب أن نرى أن ظروف حياة الصيد ذاتها لابد — من الناحية المنطقية — أن تشكل مجتمعات الصيادين طبقا لبعض الأنماط الرئيسية .

وربما كانت لديكم فى وقت من الأوقات فكرة عن هؤلاء «المتوحشين» جميعا تصور الرجل منهم فظا شهوانيا لا تحكمه قيود، ويحيا حياة قذرة دنسة كلها ضجة وصخب ، وأنه أقرب فى مشاعره ورغباته إلى البهائم وأقرب فى وجداناته وذكائه إلى الأطفال ، وهذا بعيد عن العدل والإنصاف كل البعد سواء بالنسبة لهم هم أنفسهم أو بالنسبة للفهم الصحيح للإنسانية والثقافة مع أنه صحيح أن هؤلاء «المتوحشين» بعيدون عن المدنية إلى أبعد حد وأنهم يمثلون أدنى منزلة بين المجتمعات المعروفة، ولكن يجب ألا ننسى أنهم يمثلون نهاية العصر الحجرى لا بدايته .

ولا مراء فى أن جانبا كبيراً من حياتهم الظاهرة الملموسة تؤيد هذه الفكرة السيئة عنهم . فإذا كانت النظافة تأتى فى المرتبة التالية مباشرة للقداسة أو الطهارة، فيجب ألا نحاول التفكير فى تحديد موضعهم . وليس هناك ما يحبب أبدا النظر إليهم ، وهم يزدردون فى شراهة اللحم المتعفن أو أمعاء القنغر ، كما أن للمرء العذر كل العذر فى أن يتحاشاهم ويبتعد عنهم حين يفكر فى نفسه وقد غاص فى جسمه فجأة أحد سهامهم دون أن يكون قد صدر منه ما يستدعى ذلك . فهم لا يثقون كثيراً بالأغراب ، أو بأى شخص لا ينتمى إلى جماعتهم الخاصة كما يحددونها هم .

ولكن يجب ألا يثير ذلك فينا فكرة لا مبرر لها عن وحشيتهم وقسوتهم وغبائهم لأن عند هؤلاء الصيادين فكرة واضحة جدا عن الصواب والخطأ فى نطاق جماعاتهم الخاصة . كما أنهم يستجيبون للقيود والقواعد المتعلقة

بثقافتهم بنفس الدقة التى نستجيب نحن بها لقيود وقواعد ثقافتنا . فهم ليسوا قساة مجرمين بالطبيعة، كما أن أكل اللحم البشرى أمر غير معروف من الناحية العملية بين هؤلاء الصيادين الذين هم أشد الناس تعرضا للمجاعات (اللهم إلا فى القتل السحرى) بل إن الأمر يصل بالبوشمن إلى حد الامتناع عن أكل الرباح، نظرا للشبه القوى بينه وبين الإنسان . كذلك هم لا يعرفون قنص الرءوس البشرية head-hunting، لأن هذه العادة هى وعادة أكل اللحم البشرى من صفات الثقافات الأكثر تقدما (ولو أن بعض أسلافنا فى أوروبا فى العصر الحجرى الوسيط كانوا يقنصون الرءوس كما كان إنسان بكين بالطبع يأكل لحم أخيه إنسان بكين) . ويراعى البوشمن بدقة قواعد وتنظيمات الزواج، كما أن قاعدة التحاشى بين الرجل وحماته (وهو نوع من آداب السلوك التى تؤكد أهمية هذه الملاقات وتمنع من نشوب المنازعات الخطيرة) تنتشر انتشارا واسعا بينهم . أما الحفلات الصاخبة التى يباح فيها التحرر من القيود الجنسية فى مواسم معينة أثناء الاجتماعات الكبيرة فإنهم يفهمونها على وجهها الصحيح، ولا يسمحون بقيامها فى غير تلك المناسبات . كذلك لا يمكن أن نعتبر ذلك التدريب العنيف الذى يطبق أثناء شعائر التكريس ضرباً من التعذيب أو «السادية» من جانب الشيوخ وكبار السن، لأنه على العكس يهدف إلى زيادة القدرة على كبح النفس وتحمل المسئولية، وهى أمور نعتبرها نحن من مظاهر التدين .

ونحن نخطىء أيضا إذا اعتبرناهذه الشعوب أرقى بخطوة واحدة فى حياتها العامة من القردة العليا . ولقد سبق أن ذكرنا أن حياتهم الاقتصادية التى تقوم على الجمع البسيط الساذج تشبه فى أساسها ماتجده عند تلك القردة، وهذا أمر لا سبيل إلى الشك فيه ومع ذلك فالهوة التى تفصل بينهم وبين هذه القردة لا يمكن اجتيازها لأنهم بشر ولأن لهم ثقافة . وسذاجة الثقافة تساعد على إبراز الملكات البشرية كالقدرة على التحمل واستساغة جميع أنواع الطعام

والذكاء الذى يتطلبه فن قص الأثر بكل ما فيه من مشقة وصعوبات . وهذه القدرات تكشف لنا عن مدى خطورة وسعة حيلة الإنسان كحيوان يقف وحيدا أعزل إلا من يديه . ولكن كل التراث والمهارات (وهى شىء أكبر من مجرد « المكر الحيوانى ») هى ثقافة فى ذاتها ، شأنها شأن الأسلحة أو التعاون فى الصيد وفى الأكل . ورغم فجاجة وتأخر ذلك القدر الضئيل من الثقافة، فإنه أتاح للإنسان فى العصر الحجرى ، الوسيط أن يغزو العالم بأسره . فليس هناك حيوان كبير آخر يستطيع أن يعيش فى كل أنحاء الأرض كالإنسان . بل إن الكلب نفسه كثيرا ما يعتمد عليه اعتمادا تاما .

كذلك ليست الثقافة الاجتماعية عند هذه الشعوب ثقافة أولية أو مبدئية، وليست كذلك لغاتهم أيضا . فقد تكون ثقافتهم بسيطة ولكن المهم هو أنها تؤلف سلوكا ثقافيا ناضجا حقيقيا، كما أن باستطاعة هؤلاء الصيادين استخدام الوسائل الفنية والنظم الأكثر تعقيدا إذا أرادوا . وإذا رجعنا إلى السعادين العاوية فسوف نجد أنها تتعلم كيف تؤدى كثيرا من الأعمال، كأن تركب فوق ظهور أمهاتها، وأهم من ذلك كله أن تعيش فى سلام مع أعضاء الزمرة. أما بقية أفعالها فهى غريزية إلى حد كبير . وعلى أية حال فإن العداوة بين الزمر ثابتة لا تتغير ، كما أن عزلتها بعضها عن بعض هى عزلة تامة . وقد ترتبط الزمر البشرية أيضا بأقاليم معينة، كما تحرص أشد الحرص على مناطق الصيد الخاصة بها . فهنود الأونا لا يحبون الاختلاط، وهم على أتم الاستعداد لقتل أعضاء الجماعات الأخرى وسلبهم زوجاتهم (ولو أن هذه ليست هى الطريقة المعتادة للحصول على الزوجات). أما الأستراليون فلديهم نظام للقرابة ينظم العلاقات بين الزمر ويخلق بينها نوعا من «الاتصال» لم يكن لينشأ وينمو فى ظل مهنة الصيد التى يمارسونها . فالوسائل الثقافية التى من هذا النوع متوافرة إذن ، ولكن الأستراليين يستخدمونها بعكس هنود الأونا . وتراعى كل المجتمعات التحريمات الخاصة بالاتصال الجنسى بالمحارم ، وهذا أيضا يؤدى إلى توسيع

نطاق الروابط الاجتماعية . فلو تزوج كل رجل من أخته لضاعت عليه فرصة الارتباط بعائلة جديدة ، ولفقدت الزمرة كلها بالتالى عنصرا هاما فى ربط أعضائها بعضهم ببعض، وتقيم المجتمعات الأكثر تطورا لهذه الاعتبارات وزنا كبيرا ، ولكن هذا لا يعنى أنها عديمة الأهمية هنا .

وعلى ذلك فإن آخر الأحياء من الصيادين يؤلفون موضوعا عجيبا للدراسة وليس ثمة شك فى أنهم يستحقون الإشفاق والرثاء أكثر مما يستحقون الاحتقار أو الازدراء، فنحن نراهم يصارعون ضد كل قيود البيئة الطبيعية الفجة وضد العزلة المفروضة على الجماعات الصغيرة ، ولكنهم يمثلون لنا من الناحية الأخرى الإنسان — الإنسان الحديث — أسيرا لمتاعب نوع من المعيشة أقل وأدنى بكثير جدا من ذلك الذى هيأه تطوره الذهنى وطبيعته السيكولوجية لأن يحياه .

النزاع الحديثون - الخطوة الثانية

٩
الزراع الأوائل : العصر الحجرى الحديث

بانتهاء الزمن الجليدى بدأت الشعوب التى كانت تعيش على قنص الحيوان تنتشر فى كل أنحاء العالم الصالحة للسكنى ، ماعدا الجزر البعيدة الداخلة فى المحيط الهادى، وربما بعض الأماكن الفقيرة المجدبة مثل جرينلند وبافينلند ، حتى إنها جابت — لفترة من الزمن — السهول الممتدة بين بريطانيا والدنمارك والتى ترقد الآن تحت بحر الشمال . وقد عمل هؤلاء الصيادون على الاستفادة — ما أمكن — من الطبيعة ، فاقتاتوا بذلك على كل ماكانوا يصادفونه من أنواع الطعام، بما فيها الأطعمة التى تحتاج إلى معالجة خاصة قبل أن تؤكل مثل ثمار الكون « البلوط » acorns ، كما استعانوا فى كثير من الجهات بمختلف المخترعات المعقدة من أسلحة وحيل للصيد. وذلك رغم بساطة ثقافتهم التى كانوا يحملونها برمتها فى أدمغتهم ، أو فوق رءوسهم أثناء تجولهم .

وحوالى عام ٦٠٠٠ ق .م. ، وفى مكان ما من الشرق الأدنى (بقدر ما نعرف) بدأت طريقة الحياة « النيوليثية » ولا يزال العلماء يطلقون عليها هذا الاسم (ومعناه « العصر الحجرى الحديث » مثلما تشير كلمة «ميزوليثى» إلى العصر الحجرى الوسيط، وكلمة «باليوليثى» إلى العصر الحجرى القديم) ، لأن الأنثروبولوجيين الأوائل كانوا يرون كل شىء فى ضوء الصناعات الحجرية . وقد اعتبروا تلك «الفترة» هى عصر الفؤوس الحجرية المصقولة. ولكن الكلمة تعنى بالأحرى حالة من الثقافة توصل فيها الإنسان إلى زراعة « الغذاء » وتربيته ، ولم يكتف بجمعه أو قنصه . أى إن الطعام أصبح مستأنساً أليفاً، بعد أن كان بريا وحشيا . ولو تعين علينا أن نختار أعظم وأجل تغير واحد طرأ على التاريخ البشرى كله حتى وقتنا الحاضر لكان

هو استئناس الطعام وتدجينه . وأنا أعنى هنا بالطبع التغير الناشىء عن التطور الثقافى، باعتباره متميزا عن التغير البيولوجى كانتصاب القامة واكتساب القدرة تدريجيا على استخدام الثقافة واللغة فى المحل الأول . ولست أعنى أن هذا التغير كان مباغتا أو عنيفا بالنسبة للشعوب التى تعرضت له كما لو كانت الأضواء سلطت عليها فجأة . صحيح أنه تضمن بعض عناصر العنف والمباغتة، ولكن ذلك لم يظهر إلا فى وقت متأخر جدا ، كما انحصر فى النتائج فقط ، على اعتبار أن كل الأشياء الأخرى التى استطعنا تحقيقها إنما بدأت منه .

وحوالى عام ٤٠٠٠ ق . م . كانت القرى الزراعية قد انتشرت انتشارا واسعا فى الشرق الأدنى فى كل المساحة الممتدة من حوض الفيوم فى مصر (على مقربة من النيل من ناحية القاهرة والأهرام) إلى فلسطين وسوريا حتى العراق فإيران . ولم تكن القرى كلها متشابهة بحال ، ولكننا نستطيع مع ذلك أن نعطى صورة سريعة لثقافتها : كان الناس يعيشون فى بيوت من اللبن أو من الطين والفروع الصغيرة ، ويقومون بزراعة القمح والشعير ويستخدمون لحصدها مناجل مستقيمة يصنعونها بتثبيت صف من النصال الصوانية فى قطعة من الخشب أو العظام . وكانوا يخزنون المحصول (فى بعض الجهات) فى صوامع أو فى (بورات) تحفر فى الأرض وتبطن بالسعف ،
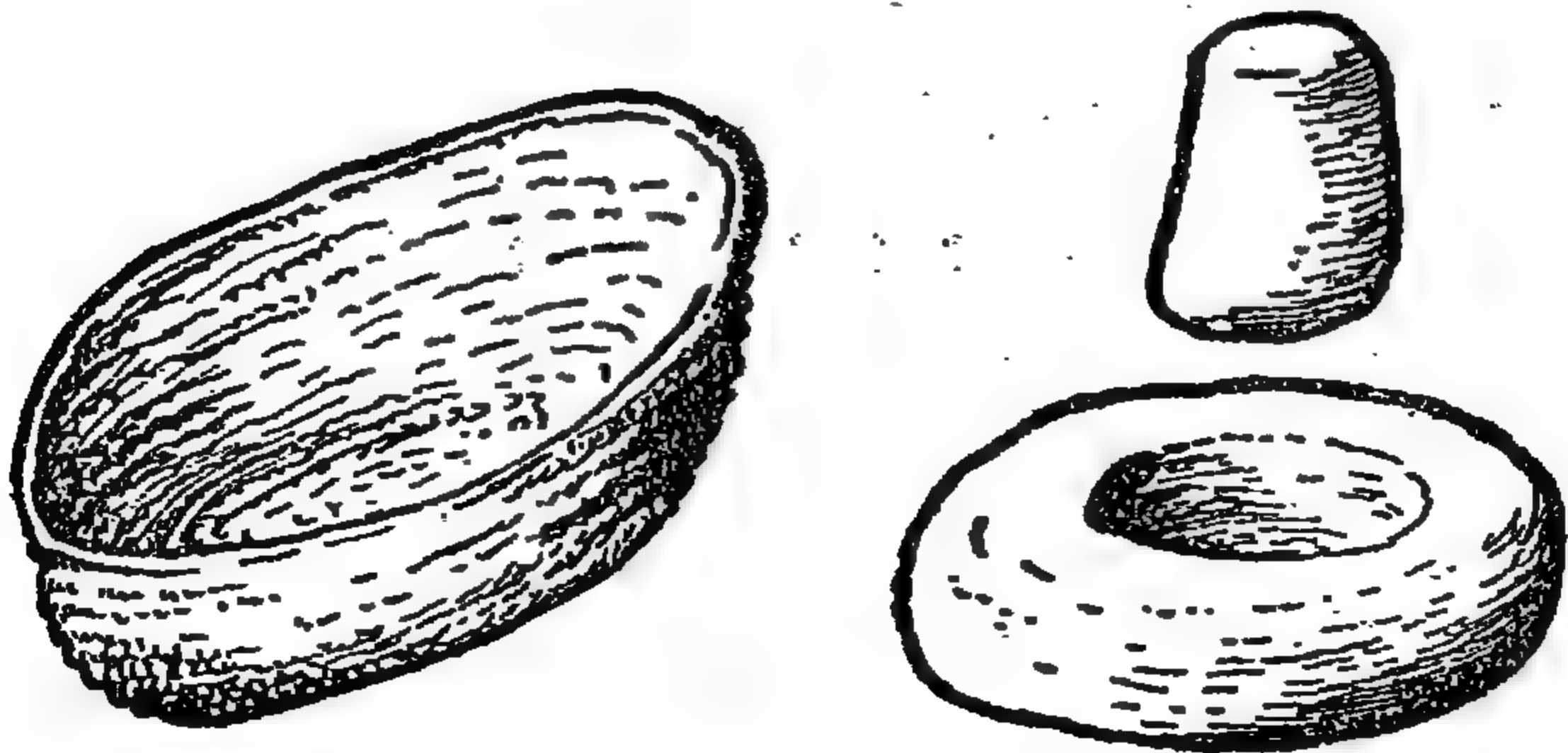
سلة وطاحونة يدوية من العصر الحجرى الحديث

وكانوا يطحنون الغلال على طاحونة يدوية دوارة مصنوعة من الحجارة

أو على رحى حجرية أو فى هاون ليصنعوا خبزهم . كذلك كانوا يهتمون بتربية الأبقار والأغنام والماعز والخنازير (بل والكلاب أيضا ، ولو أنه يجب أن نتذكر أن الكلب كان من «مخترعات» العصر الحجرى الوسيط، وأنه كان يستخدم للصيد وليس للحراسة) ولكنهم كانوا يصيدون إلى جانبها الحيوانات البرية والطيور والسمك (فى الفيوم على الخصوص) لاستكمال طعامهم . وأخيراً فإنهم كانوا يعرفون صناعة الأوانى والأوعية الفخارية ونسج الملابس من الكتان .

فهذه إذن ثقافة لا يمكن لأصحابها أن يحملوها معهم أينما ذهبوا حتى ولو تركوا وراءهم البيوت والصوامع . ولم يمكن للآن تعيين مكان نشأتها بالضبط ، ولكن لابد أنها نشأت لأول مرة فى ذلك الجزء نفسه من العالم، أعنى الشرق الأدنى . وتدل التقديرات الراديوكاربونية (١) radiocarbonic على أن تلك المنطقة كان يسكنها حتى حوالى ٦٠٠٠ ق . م . بعض الشعوب

---

(١) يمكن تقدير هذه التواريخ بالاستعانة ببقايا المواد النباتية أو الفحم النباتى وكذلك إلى حد ما — بالبقايا الحيوانية كالمحار . وتعتمد تلك التقديرات على كربون ١٤ وهو أحد نظائر الكربون ذات النشاط الإشعاعى الذى تقدر دورته النصف عمرية بـ ٥٥٦٨ سنة . فهو إذن ينحل بمعدل معروف مثل كل العناصر المشعة. ويوجد كربون ١٤ فى الغلاف الجوى بنسبة ثابتة فى كل أنواع الكربون وبذلك يدخل فى تكوين كل الأنسجة الحية بنسبة ثابتة . وحين يموت النسيج فإن كربون ١٤ يبدأ فى التحلل بحيث لا يكاد يتبقى منه بعد حوالى خمسة وعشرين ألف سنة إلا جزء ضئيل جدا يصعب قياسه بدقة ، وعلى ذلك فإن النسبة المتبقية من الكربون المشع فى قطعة من الخشب أو فى بعض حبوب القمح تدلنا بالتقريب على الزمن الذى ماتت فيه . ويمكن تشبيه المسألة بقدح موضوع تحت صنبور بحيث يظل القدح مملوءا مادام الصنبور مفتوحا. فإذا ما أغلقت الصنبور بدأ الماء يتبخر من القدح حتى يتلاشى تماما . ففى أثناء عملية التبخر نستطيع أن نقيس المدة التى مرت على إغلاق الصنبور . أما بعد ذلك فان كل ما يمكننا معرفته هو أن الوقت اللازم للتبخر قد انقضى . ولذا فان من الصعب الاعتماد تماما على التواريخ والتقديرات الراديوكربونية إلا بالنسبة الخمسة والعشرين ألف سنة الأخيرة أو ما يقرب منها، بل ان هذه التواريخ لاتعتبر دقيقة بمعنى الكلمة إذا تجاوزنا العشرة الآلاف سنة الأخيرة .

الميزوليثية التى كانت تمارس القنص ، وأن واحدة من أقدم القرى التى اكتشفت حتى الآن بنيت حوالى عام ٥٠٠٠ ق. م. أو ربما قبل ذلك، لأنها كانت على حالة عادية جدا من التقدم ، مما يعنى أن مرحلة التكوين كانت أسبق على ذلك ببعض الوقت . والواقع أنه من السهل علينا أن نتصور الفلاحين فى تلك الفترة التكوينية الأولى وهم يغادرون قراهم — التى نصفها بأنها « نيوليثية » — ويخرجون فى رحلات لقنص الحيوان ؛ ثم يتركون فى الكهوف أثناء هذه الرحلات بعض البقايا والمخلفات التى نكتشفها نحن ونصفها بأنها « ميزوليثية » .

وتوجد هذه القرية العتيقة — قرية چارمو Jarmo — فى منطقة التلال المطلة على وادى دجلة والفرات بالعراق ، وكانت تتألف من عدد من المنازل البسيطة التى بنيت جدرانها من الطمى المكبوس . وقد عمرت القرية فترة طويلة من الزمن، لأنه أمكن للعلماء التعرف على ثمانية مدرجات (أو طبقات) متتالية فى ذلك الموقع . وقد عثر على حبوب القمح والشعير بجوار المعدات والأدوات المنزلية التى كانت تستخدم فى صنع الدقيق وبخاصة الرحى اليدوية ، كما عثر على عظام عدد من الأبقار والأغنام والخنازير والكلاب .

وقد يكون من الصعب التدليل على مدى استئناس هذه الحيوانات، إلا أن هناك على العموم نسبة كبيرة من الدواب الأليفة الأساسية بينما تؤلف كل عظام الحيوانات المتوحشة — أى التى حصلوا عليها بالقنص — حوالى خمسة فى المائة فقط من المجموع كله . وأحد ملامح تلك المنازل هو وجود أوعية من الطفل كانت تستخدم لإيقاد النار فيها (مداقىء) . وفيما عدا ذلك لا يوجد ما يدل على معرفتهم بالأوانى الفخارية اللهم إلا فى المدرجات أو الطبقات العليا ، أى فى قمة موقع القرية حيث وجدت بعض شقفات من الفخار المكسور من صنف ردىء . كذلك ليس هناك ما يدل أبدا على أنهم

عرفوا النسيج . فهم إذن مجموعة من الفلاحين الأوائل الذين لم يزاولوا الصناعتين المميزتين للشعوب « النيوليثية » وهما صناعة الفخار والنسج . ولكنهم كانوا يعرفون زراعة الحبوب وتدجين الحيوان .

وقد وجد ما يماثل ذلك تماما فى أريحا Jericho القديمة بفلسطين، حيث يحتمل أن تكون أقدم المدرجات أو الطبقات معاصرة لقرية چارمو . كما يحتمل أنها بنيت بأيدى أحفاد الشعوب التى سكنت تلك المنطقة فى العصر الحجرى الوسيط، ولكن أريحا العتيقة كان لها بالفعل كل خصائص المدينة الحقيقية . فقبل أن يتوصل السكان إلى صناعة الفخار مثلا كانوا قد بنوا لمدينتهم سورا من الحجارة الغفل . ولا يزال ذلك الحائط قائما لم يفلح فى هدمه الجيوش أو الملوك . وقد اكتشف ذلك الحائط تحت أنقاض أريحا الأحدث التى بنيت فيما بعد، وكانت معروفة على أيام يسوع .

ظهور الزراعة

وليس فى هذا كله ما يكشف لنا عن الطريقة التى تمت بها عملية التدجين، ولذا كان لا بد من الاستعانة بعض الشىء بالخيلة . أقصد التخيل الصحيح الدقيق، لا التخيلات والتوهمات التى تصور لنا أحد عباقرة العصر الحجرى الوسيط يقفز من نومه ذات صباح وهو يهتف « لِمَ لم أفكر فى هذا من قبل؟ »، ثم يعكف من فوره فى جد على إنشاء حديقة يزرعها بكل ماهو جميل ونافع . لأن الذى حدث بالفعل شىء يختلف تماما عن ذلك . فعلى الرغم مما يبدو من أن الإنسان توصل بسرعة — بمقاييس العصر الحجرى القديم — إلى فكرة زراعة الحبوب، فالواقع أن ذلك لم يتحقق إلا بعد كثير من الأحداث والخطوات العارضة ، ولم يتم إلا على أيدى نفس الشعوب التى كانت تعيش على الجمع والالتقاط .

وهناك ما يدل دلالة قاطعة على أن صيادى العصر الحجرى الوسيط

عرفوا كل أنواع الطعام الطبيعى واقتاتوا بها بالفعل ، وأنهم كانوا — فى أمريكا وفى غيرها من البقاع — يستخدمون البذور الصالحة للأكل . ولا جدال فى أن كثيرا من شعوب ذلك العصر كانوا يترقبون نضج المحصولات البرية ، ويحتمل أنهم استقروا منذ عهد مبكر فى المناطق التى تنمو فيها تلك المحصولات ليقوموا على الأقل بتطهيرها من الحشائش وإبعاد الطيور عنها . ففى الشرق الأدنى مثلا يبدو أن الشعوب الناتوفية Natufian فى فلسطين كانت لهم ثقافة ميزوليثية من طراز متأخر جدا ، ولكنهم كانوا مع ذلك يعرفون المناجل ، مما قد يعنى أنهم كانوا يحصدون الأعشاب والحبوب البرية على نطاق واسع . ونحن نعرف أن هذه الحبوب من قمح وشعير وذرة (وهى حبوب عشبية يدخل ضمنها الصرغم ، وكانت تستخدم منذ أقدم العصور) تعمر طويلا إن أحسن تخزينها ، وأن ثمة ما يؤكد أهميتها ويجذب الناس دائما إلى المناطق التى تجود زراعتها فيها ، أو إلى الأماكن التى تستخدمها الجماعات المنجولة لتخزين حبوبها . إذا فرضنا أن الناس استطاعوا بالتدريج أن يكتشفوا وسائل أخرى لتنمية المحصول فأقاموا إلى جانبه أو عمدوا إلى نقل الحبوب الناضجة إلى أحد مخيماتهم الرئيسية ثم حدث أن تبعثر جزء من تلك الحبوب على الأرض فنمت هناك ، فإن ممارسة زراعة هذا النوع من الطعام عن عمد وقصد تصبح أمرا لا مفر منه . وقد تكون العملية كلها حدثت ببطء شديد . بل ربما كانت عسيرة جدا بالنسبة لعدد كبير من أنواع الخضراوات البرية . ومن المحتمل أيضا أن الخصائص المميزة لتلك الحبوب مثل نموها السنوى (من حيث هى تختلف عن الفواكه التى تنضج فوق الأشجار) وقيمتها الغذائية العادية وفوق كل هذا قابليتها الفائقة للتخزين — قد ساعدت كلها الفلاح البدائى فى عملية الاستئناس أو التدجين اللاشعورية[1] .

---

(١) يقدم لنا الأستاذ ساور C. O. Sauer فرضا مختلفا تماما مؤداه أن الشعوب المستقرة التى كانت تمارس صيد السمك من البحار أو الأنهار لجأت إلى نشر الدرنات والفسائل لتزيد النباتات المزروعة بالفعل بدلا من البذور ، وإن الذى دفعها إلى ذلك هو — إلى حد ما — حاجتها إلى الألياف اللازمة لصنع الشباك أو للحصول على سم السمك .

وقد يعتقد البعض أنه يمكن تحديد البقعة التى حدث فيها ذلك إذا عرفنا الموطن الطبيعى للحبوب ذاتها ، ولكن الحبوب لسوء الحظ تنمو برية فى كثير جدا من جهات الشرق الأدنى وشمال أو شرق أفريقيا بحيث يستحيل علينا ذلك . والشىء نفسه يصدق على الحيوانات ، بل إنه ينطبق عليها بوجه خاص ، لأنه بمجرد أن ترسخ فكرة استئناس الحيوانات ويفلح الناس فى إدخال أو نقل الماشية إلى مواطن جديدة يصبح من السهل استئناس بعض الفصائل المحلية المتوحشة فى تلك المناطق الجديدة ذاتها كوسيلة لزيادة حجم القطعان. والظاهر أن هذا هو ما حدث للماشية والخنازير فى أوروبا مثلا، وقد يدفعنا هذا إلى الاعتقاد بأن عملية الاستئناس حدثت لأول مرة فى كل أنحاء العالم، وليس فى مكان واحد رئيسى ، ولكن هناك مع ذلك احتمالات قوية بأن استئناس الماشية تم فى الشرق الأدنى ، شأنه فى ذلك شأن تدجين القمح والشعير وغيرهما من النباتات القديمة كالكتان .

ومما يبعث على الدهشة حقا أن الحيوانات الرئيسية ، أى الماشية والغنم والماعز والخنازير ، تظهر كلها معا فى أدنى الطبقات الأركيولوجية فى جارمو — أقدم القرى . وهذا هو نوع الدليل الذى قد يوحى بأن بداية العصر الحجرى الحديث كانت أسبق بلا جدال على تأسيس جارمو التى أنشئت حوالى عام ٥٠٠٠ ق . م، وربما قبل عام ٦٠٠٠ ق . م . وعلى أية حال فمن المحتمل أن يكون تدجين الحبوب حدث قبل استئناس الحيوانات .

ذلك أن جوهر الحياة الزراعيـــة الريفية هو وجود قرية ، وممارسة الزراعة ، أعنى الاستقرار فى مكان واحد . فالزرع هو الذى يظل قائما فى موضعه ، مما يضطر الناس إلى البقاء بجانبه ، أما الحيوانات فتنتقل من مكان لآخر . فإذا كان الناس أنفسهم يحيون حياة التجول والقنص، فلن يتاح لهم من الوقت ما يستطيعون معه العناية بالدواب . وقد يجلب الصيادون أحيانا بعض الحيوانات الحية إلى الخيم، ويحتفظون بها لوقت الحاجة ولكنهم

لا يبقون عليها إلا فترة قصيرة جدا . فرد الفعل الحقيقى عند الصياد نحو الحيوانات التى يقتات بها هو قتلها . وقد كان هذا هو موقف البوشمن من ماشية الهتنتوت وماشية الهولنديين . كما أن هنود السيوكس Sioux فعلوا الشىء نفسه حين حاول البيض توطينهم وإمدادهم بالأبقار .

واستئناس الماشية لا يعنى مجرد إمساكها فى حظيرة أو حتى ترويضها ، إنما يعنى بالأحرى جعلها تتناسل بنجاح فى الوقت الذى تعتمد فيه على الإنسان . وهذا معناه أن يعتمد الإنسان فى معيشته على شىء آخر إلى أن تتناسل وتنمو وتدر اللبن . ومن العجيب أن يقنع المرء بقنص الأرانب أو الغزلان إذا توافرت أمامه الثيران أو الأغنام . ولسنا نعرف بالطبع ما كان يحدث بالفعل سنة ٦٠٠٠ ق . م ، فربما كانت هناك ظروف خاصة ، إلا أننا نعرف أن الرعاة الرجال فى سيبيريا يمارسون عملية تدجين واستئناس الرنة . ولكن لهؤلاء أيضا ظروفهم الشاذة . والظاهر على العموم أن تدجين الماشية المتوحشة يتم ببطء وصعوبة ، مما قد يدل على أن الذين قاموا به هم الشعوب المستقرة ، وليست جماعات الصيادين .

ولكن لننتقل إلى الكلام عن صنع الفخار والنسج ، لأن الاثنين ظهرا فى قرى العصر الحجرى الحديث فى وقت مبكر نسبيا ، وقد يلقيان بعض الضوء على طبيعة الحياة فى ذلك العصر .

الأوانى الفخارية والأنوال

كان الفخار هو أول اللدائن ويحتاج فى صنعه إلى أنواع مختارة بعناية من الطفل ، يضاف إليه الماء ليتحول إلى معجون . ولا بد من تطويع الطفل قبل تشكيله بإضافة نوع ما من الرمال أو الحصى (إلا إذا كان يحتوى عليهما بالفعل) أو غيرهما من المواد وذلك لسببين : لمنعه من أن يكون من الليونة بحيث يستحيل استعماله على الإطلاق ، ولجعله مساميا بعض الشىء حتى

يمكن للماء أن ينفصل عنه بالتجفيف أو الإحراق دون أن يتعرض للكسر، وحين يجف المعجون تماما فإنه يكون مجرد فطيرة مصمتة من الطين التى يجب إحراقها لتغيير طبيعتها الكيمائية ، وهذا يؤدى إلى إخراج كل الماء الذى يدخل من الناحيـــة الكيمائية فى تكوين الطفل، كما يزيل المواد النباتية والحيوانية ويغير الطفل ذاته .

ويصبح الفخار بذلك قابلا للاستعمال كما يكتسب قدرة هائلة على مقاومة الماء والنار العاديين ، ويمكن زخرفة الفخار وتزيينه بطرق شتى : بالتشكيل أو بالرسوم السطحية المختلفة التى تنقش — والطفل لا يزال رطبا — باستخدام العصى أو الأختام أو الأوتار ، أو بإحداث حزوز وخطوط فيه بعد أن يجف ، أو بالرسم عليه، أو بصقله وتمليسه (تبطينه بطبقة خاصة أشد نعومة) قبل إحراقه ، وغير ذلك من الوسائل . والأوانى الفخارية سهلة الكسر، ولكن شقفات الفخار تظل إلى الأبد . ولذا كان علماء الأركيولوجيا يفضلون الفخار على كل ما عداه ، لأنهم يستطيعون تتبع مختلف القبائل والثقافات والعصور عن طريق أساليب صنعه وزخرفته .

أما الناس أنفسهم فيحبون الفخار لفائدته العالية فى حفظ الطعام وفى الطهو على الخصوص ، ذلك أن الغلى يعتبر من أهم الطرق لجعل الخضراوات والحبوب صالحة للأكل بكميات أكبر ، ولكن محاولة الغلى فى قدور من الخشب أو البوص الهندى أو عن طريق إسقاط الصخور الملتهبة فى الماء الذى يوضع فى حفرة بالأرض مبطنة بالجلد هى وسائل لا تفى بالغرض تماما . وقد يستعاض عنها كلها باستخدام السلال المغطاة بطبقة من الطفل . وقد يكون اختراع الفخار ظهر نتيجة لاحتراق بعض تلك السلال بطريق المصادفة .

وليست صناعة الفخار مسألة بسيطة ، فهى تتضمن فى الحقيقة عدة

اختراعات شأنها فى ذلك شأن صناعة القسى ، والسهام وكذلك شأن نسج الأقمشة الحقيقية . ولقد كانت صناعة السلال والحصر والشباك معروفة فى العصر الحجرى الوسيط (وربما فى العصر الحجرى القديم) كما أنها — حتى حين تكون معقدة بعض التعقيد — يمكن صنعها باليد أو بالاستعانة ببعض الأدوات البسيطة مثل أدوات صنع الشباك . والواقع أنك إذا شددت وترا بين قائمين وعلقت فيه خيوط السدى ، فإنك تستطيع أن تنسج فيها خيوط اللحمة الداخلية والخارجية بأصابعك وأن تصنع بذلك قطعة طويلة من القماش . ولكن هناك طرقا أفضل من هذه .

ففى الإمكان مثلا تعليق كل خيوط السدى من قضيب صلب ، ثم تربط بعض الأثقال فى أسفل كل مجموعة من تلك الخيوط فتشدها بعض الشىء بحيث يصبح من السهل تمرير خيوط اللحمة فيها . بل فى الإمكان تثبيت قضيبين فى أعلى وفى أسفل ، بحيث يؤلفان إطاراً حقيقيا يساعد النسّاج على لف القماش الذى ينتهى من صنعه أولا بأول . كذلك يستطيع النسّاج أن يستعين بمشط لدفع آخر خيط من خيوط اللحمة إلى جوار الخيوط الأخرى ، ثم يعقد كل ثانى خيط فى السدى إلى عصا تعرف باسم النير ، بحيث إذا رفعت تلك العصا إلى أعلى بحركة واحدة فإنها تلحم خيوط السدى الصحيحة ، كما يمكن تمرير الوشيقة (الماكوك) بينها كلها بدفعة واحدة ، بدلا من أن يضطر إلى القيام بذلك العمل المضنى الذى يتطلبه تمرير خيوط اللحمة فوق وتحت كل خيط من خيوط السدى على حدة . وهذا يعطينا نولا يدويا كاملا ، وكل ما عملناه نحن فى هذا المضمار ، هو أننا أخرجنا من ذلك النول اليدوى آلة أو مكنة . لقد أمكن لشعوب العصر الحجرى الحديث أن تصل بالأشياء إلى مثل هذه النقطة ، والواقع أنها استطاعت أن تكتشف كل الوسائل الفنية الأساسية للنسيج ، مثلما قامت بتدجين كل النباتات الصالحة للأكل واستئناس جميع الحيوانات التى نعرفها .

ويحتاج النسج بالطبع إلى الألياف ، وهذه كانت تتوافر فى الكتان ثم فى القطن والصوف بعد ذلك (إذ لم يكن الشعر الذى يغطى الأغنام الوحشية يصلح للغزل إلى خيوط ، ولم تظهر الفروة الصوفية إلا بعد الاستئناس) ولذا كان النسيج يعتمد اعتمادا كبيرا على مواد من العصر الحجرى الحديث كما كان يزود الإنسان فى الوقت نفسه بغطاء أفضل من الجلود التى كان يتدثر بها معظم صيادى الحيوانات . ولكن الأهم من ذلك هو أن النسج — ومثله فى ذلك مثل صنع الفخار — يشير إلى ظهور نوع جديد من المتاع المنزلى الذى لا يمكن حمله ونقله من مكان لآخر بسهولة . فالأنوال لا تتفق مع السفر والتجول، وليس كذلك أيضا الأوانى الفخارية . إنما هى على العكس من ذلك علامة على ظهور الحياة المستقرة التى تعتبر إحدى الحقائق المركزية فى كل ما أفلح فى تحقيقه إنسان العصر الحجرى الحديث[١] .

معنى الفلاحة

وهذا يؤدى بنا باختصار إلى الكلام عن معنى ما يطلق عليه اسم « الثورة النيوليثية » . فإذا نظرنا إلى المسألة كلها نظرة عامة للتعرف إلى الآثار المميزة التى تركتها حياة القنص من ناحية ، وحياة الفلاحة من الناحية الأخرى فى الثقافة فسوف نجد أن ثمة أمورا هائلة وقعت بالفعل . فظهور القنص ثم الزراعة معناه — كما هى الحال فيما يتعلق بظهور الثقافة عموما — تحرر الإنسان من أحد الروابط التى تربطه بالطبيعة وانطلاقه من قيود موارد الطعام الطبيعية .

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن بعض صيادى الحيوانات مثل البوشمن يصنعون — أو يشترون — الأوانى الفخارية ، وأن الفخار كان معروفا بين سكان أوروبا و أواسط أفريقيا وشرق آسيا وفى أمريكا الشمالية فى أواخر العصر الحجرى الوسيط . ولكننا لا نعرف على وجه التحقيق ما إذا كان الفخار وجد بالفعل فى أى مكان قبل تدجين النباتات لأول مرة .

ولقد عرفنا طريقة حياة الجماعات البسيطة التى تعيش على الجمع والقنص ورأينا أن لدى هذه الجماعات أفكارا ساذجة عن حفظ الطعام . كذلك رأينا أن بعضها — كالأستراليين والشعوب الجدالينية — تمارس بعض الشعائر الدينية بقصد توفير حيوانات الصيد . ولكن هذا مجرد تفكير ينم عن التمنى . فالطبيعة — لا البشر — هى التى تتحكم فى الصيد ، وهى تضطرهم إلى التنقل من مكان لآخر ، كالسعادين العاوية ، دون أن يستطيعوا عمل أى شىء حيال ذلك . فهم لا يستطيعون تخزين الطعام ، وبمجرد أن ينتهوا من تناول طعامهم يبدءون فى التفكير فى الوجبة التالية . ولا يوجد حول أى نجع من النجوع سوى قدر معين من الحيوانات البرية والنباتات الصالحة للأكل ، وذلك بسبب توازن الطبيعة . حتى إذا تجاوز الناس فى استهلاكهم لتلك الحيوانات أو النباتات حدودا معينة بالذات نضبت تلك الموارد بدرجة خطيرة بحيث يصعب استعادة قواها فى ذلك الموسم على الأقل . ولكن ماذا يفعل أهل ذلك النجع ؟ إنهم يحملون متاعهم ويرحلون إلى مكان آخر يتوافر فيه الصيد . وإذن فلابد أن تكون لتلك الزمرة مساحات واسعة من الأرض حتى يمكن تجديد قوى تلك الموارد وإعادة بنائها ، ولابد لها أيضا من ان تحافظ على مواردها ضد أى اعتداء . كما لابد لها أخيرا من أن تتحرك ، وتتحرك بغير توقف .

ولكن ماذا عن كثافة السكان ؟ لما كان الناس انفسهم يؤلفون بالفعل جزءا من توازن الطبيعة فإن عددهم يتحدد بحسب موارد وإمكانيات الموطن فى أسوأ سنواته — وليس أفضل — ولذا كان لابد من تبعثر السكان وتفرقهم نسبيا .

ثم ماذا عن حجم الزمرة ؟ الواقع أن هذا النمط من الحياة يمكن أن يحياه أبسط أنواع العائلة ، بحيث يتولى الرجل مهمة القنص وتقوم المرأة بجمع الخضراوات والحشرات وجلب الماء وأخشاب الوقود وبغير ذلك من الأعمال

ولكن هذا معناه ألا تجد العائلة من يمد لها يد العون إن احتاجت إلى المساعدة. أما الجماعات الأكبر حجما فتستطيع أن توفر لنفسها قدرا أكبر من الحماية، فضلا عن قيامها بالصيد بطريقة مثمرة، سواء كان ذلك عن طريق التعاون فى مطاردة الأرانب أو ازدياد فرص العثور على أحد الحيوانات الكبيرة الذى يكفيهم جميعا والاشتراك فى قنصه. وعلى أية حال فسرعان ما يصل حجم الزمرة إلى الحد الذى يصبح فيه عبئا على مورد الطعام، بمعنى أنها لا تجد ببساطة ما يكفيها من غذاء فى محيط نشاطها حول النجع أو أنها تصبح عاجزة عن الحركة السريعة والانتقال إلى أماكن أخرى بعيدة بعداً كافيا للتنقيب عن الموارد التى تحتاج إليها. والواقع أن الزمر لا تستطيع أن تجتمع معا فى الاجتماعات القبلية إلا على فترات متباعدة جدا بحيث يوافق ذلك موسم نضج أحد المحصولات البرية مثل التين الشوكى cactus pears أو بعض أنواع الجذور والدرنات حتى يجد الجميع طعامهم أثناء فترة الاجتماع. أما فيما عدا ذلك فلا بد للزمر التى تضم الواحدة منها حوالى خمسين شخصا من أن تعيش متباعدة بقدر الإمكان(١).

ولقوانين الطبيعة أحكامها القاسية العنيفة. وكثير من تلك الشعوب ينزل على حكم الضرورة فتقتل أبناءها بمجرد الولادة لأن الأم عندها من الأطفال العدد الذى تستطيع الإشراف عليه وتوجيهه، كما أن معظمها يهجر المرضى والشيوخ العجزة بقسوة ليواجهوا الموت بردا أو جوعا. لأنهم لو بذلوا فى أحوال نادرة أية جهود من أجل هؤلاء الشيوخ فإن هذا يكلفهم فى الحقيقة

---

(١) حين ينمو حجم الزمرة أكثر من اللازم بحيث يصعب عليها الانتقال بالسرعة المطلوبة، فإنها تنقسم إلى زمر صغيرة تتفرق فى أنحاء مختلفة بحثا عن الطعام. ويعتبر ذلك الانقسام الذى يحدث من حين لآخر فى الزمرة الواحدة من أهم مميزات العشائر الأسترالية بل وكل الجماعات التى تعيش على الجمع والقنص — المترجم.

الشيء الكثير . ولكن هذه التصرفات لا تدل على الغلظة والوحشية ، فقد يبدو أنهم يقبلون ذلك الوضع فى هدوء وعن طيب خاطر . والواقع أنهم غير مخيرين على الإطلاق فى تصرفاتهم ، ولا حتى فى تبريرهم لتلك التصرفات .

فهؤلاء إذن بشر مثلنا وقعوا — دون أن يدركوا ذلك — فى شرك نوع من الحياة يمنعهم من تطوير مخترعاتهم المادية أو علاقاتهم الاجتماعية ، والواقع أن جماعات الرحل الصغيرة لن تستطيع الترقى والتحضر مادامت عاجزة حتى عن تكوين عائلات كبيرة الحجم . ولذا كان يتعين عليها أن تتخلص أولا من حياة التجول ومن العزلة ومن القيود التى يفرضها عليها صغر حجمها ، وأن تتحرر من ربقة السعى الدائب وراء الطعام الذى يجعلها تكاد تقضى حياتها كلها إما فى الصيد وإما فى الاستعداد للصيد مما يمنعها بالتالى من التخصص وتوجيه طاقاتها وجهات محددة ، بحيث لا تجد لديها إلا نوعا واحدا من تقسيم العمل ، وهو صيد الحيوان بالنسبة للرجل وجمع النباتات بالنسبة للمرأة . ولكنها استطاعت التخلص من هذا كله حين ظهر الاستئناس والتدجين . فقد اختل توازن الطبيعة المعتاد وأخذ الطعام ينمو ، ليس بفعل الطبيعة ولكن بفعل الإنسان ، وتحولت النجوع والمخيمات المكونة من عشرات الأفراد لحسب إلى قرى تتألف من المئات .

ولكن المجتمعات التى تضم الآلاف لم تظهر دفعة واحدة . ولقد كان ذلك هو التغير الأساسى — من الناحية المثالية — ولكنه تم بالتدريج بحيث كان هناك دائما كثير من التداخل . فهنود السيريونو Siriono الذين يعيشون على القنص والتجول فى شرق بوليفيا يتعرضون فى العادة لكثير من المجاعات ، لدرجة أن حديثهم يدور فى معظمه إما عن الطعام وإما عن التنازع على الطعام أو استجداء الطعام من بعضهم بعضا . (وربما كان السيريونو هم أقل الصيادين تمسكا بالشرف حتى إنهم قد لا يأكلون إلا بعد أن يتقدم الليل

لكيلا يشاركهم أحد فى طعامهم) . ومع ذلك فإنهم يزرعون القمح وبعض الخضراوات فى مساحات صغيرة حول منازلهم أو الأماكن التى يتوقعون أن يصطادوا بالقرب منها . ولكن ذلك لا يكفى لإنقاذهم من حظهم التعس . وكثير من الشعوب النيوليثية تمارس قنص الحيوان وصيد السمك على نطاق واسع ، كما أن الشعوب الأكثر بداوة لا تستطيع — كما سنرى فيما بعد — حتى أن تستقر فى مكان بالذات لمدة طويلة ، نظراً لبساطة طرق الزراعة المستخدمة عندهم . والواقع أننا نستطيع أن نرى — حتى فى الآثار ذاتها — طبيعة تطورهم التدريجى .

الفلاحون فى حوض الدانوب

بعد مرحلة الفلاحة النيوليثية التى لم نكتشف أصولها بعد ، انتشرت القرى فى كل أنحاء الشرق الأدنى . وقد أخذت شعوب العصر الحجرى الوسيط (الميزوليثى) تمارس تلك الفنون المستحدثة ببطء شديد تبعا لسريان الأفكار الجديدة وتقدمها نحو الغرب فى غابات أوروبا . وبدأت بعض أنواع الفخار الردىء الصنع تظهر فى أكوام المحار فى اسكنديناوه . (فى ثقافة ارتبولا Ertebolle التى يغلب عليها الطابع الميزوليثى) كما وجدت بعض عظام متناثرة لحيوانات مستأنسة بين مخلفات الثقافة الكامبينية الفرنسية [١] . وقد أخذ سكان تلك القرى التى ترجع — إلى حد ما — إلى العصر الحجرى القديم يتجهون تدريجيا نحو صناعة الفؤوس الحجرية الميزوليثية التى تمتاز حدها المرهف المصقول ، بدلا من الحافة المشطوفة القاطعة . وهذه الفؤوس المشحوذة تصلح إلى حد كبير جدا لقطع الأشجار

---

(١) نسبة إلى Le Compigny على السين بفرنسا . ويطلق الاسم على طراز من الصناعة الحجرية التى ظهرت فى زمن متأخر ووجد عدد منها على سطح الأرض بشمال فرنسا . وقد اتخذت هذه الصناعة الحجرية أشكالا وطرزا كثيرة واستمرت فى بعض جهات فرنسا حتى نهاية العصر الحجرى — المترجم .

لأنها لا تكسر بسهولة كما أنها تغوص فى الخشب بشكل أفضل وأعمق . وهى تبين على أية حال أن صناعة الخشب بدأت تبرز كمهنة مستقلة متميزة من أجل تطهير الأرض من الغابات وبناء البيوت . والواقع أن شحذ وتهذيب الآلات الحجرية وكذلك إجادة تشظيتها أصبحا فيما بعد من أوضح مميزات العصر الحجرى الحديث فى أوروبا .

ولكن الأطوار المبكرة لتلك الفترة كانت مجهولة إلى حد كبير نتيجة لقلة الاتصالات، سواء عن طريق الهجرة أو التجارة . فاستيطان أوروبا على نطاق واسع بدأ فى وقت متأخر عن ذلك على أيدى « الدانوبيين » الذين يطلق عليهم هذا الاسم، لأنهم تقدموا على طول الدانوب من الطرف الجنوبى الشرقى للقارة . وقد حدث ذلك حوالى عام ٢٧٠٠ ق.م. حين كانت مصر قد دخلت بالفعل فى أعظم عصورها وبدأت تشيد الأهرام . ويحتمل أن يكون الدانوبيون جاءوا من تركيا أو ربما من جنوب روسيا . وكانوا يتقنون صناعة الفخار ويزينونه فى أول الأمر بعمل حزوز فيه غائرة ملتوية، ثم استخدموا بعد ذلك نقوشا أخرى . والواقع أنه يمكن لعلماء الآثار أن يدرسوا هجراتهم قبيلة قبيلة عن طريق الاستعانة بهذا النوع الجديد من الأدلة والشواهد .

وقد جلب الدانوبيون معهم زراعة الحبوب وكذلك حيوانات المركز النيوليثى الأول فى جنوب غربى آسيا . وكان للخنازير أهميتها وفائدتها لأنها كانت تستطيع الحياة والتكاثر فى غابات تلك الأزمنة، وكذلك كانت الحال بالنسبة للماشية . أما الأغنام فإنها تفضل المناطق المنبسطة الخالية، ولذا لم تظهر قيمتها وأهميتها إلا فى مرحلة متأخرة . وقد أقام الدانوبيون فى ألمانيا وبولندا قرى كثيرة بنوا جدران منازلها المتينة من الخشب أو اللبن، وغطوا سقوفها بالقش والطين . ويبدو أن أرضها كانت مصنوعة من الخشب، وأنها كانت مرفوعة فوق أعمدة . وتمتاز تلك البيوت بالرحابة والاتساع إذ كان

طول الواحد منها يصل إلى مائة قدم ، كما كانت بيوت بعض القرى أكثر اتساعا فى أحد الطرفين لسبب غير مفهوم . وقد مرت فترة طويلة جدا من الزمن قبل أن تشهد أوروبا منازل أفضل منها .

بيد أن الأمور لم تكن دائما سهلة ميسرة بالنسبة للفلاحين الدانوبيين ، فلم تكن عندهم محاريث وإنما كانوا يتبعون فى فلح الأرض طرقا بدائية تعرف عندعلماء الجغرافيا باسم « الزراعة المتنقلة » وعند علماء الأنثروپولوچيا باسم « القطع والإحراق » . ولا تزال هذه الطريقة متبعة للآن فى بعض جهات قليلة كما أنها كانت شائعة جدا فى بداية عهد استعمار أمريكا . وتقوم هذه الطريقة على قطع الأشجار أو حزها ثم تركها حتى تجف وتموت ، وبعد ذلك تحرق الأخشاب والأوراق دون أن تجتث أصول الجذوع ثم تقلب التربة الطبيعية — التى تكون اكتسبت بعض الخصوبة من الرماد — باستخدام الفؤوس أو العصى ، (وكانت عند الدانوبيين رءوس فؤوس حجرية على شكل « قالب الحذاء ») وتبذر البذور بين بقايا تلك الجذوع . ولم يكن الناس يستخدمون السباخ أو أى نوع آخر من طرق التسميد . وربما كانت
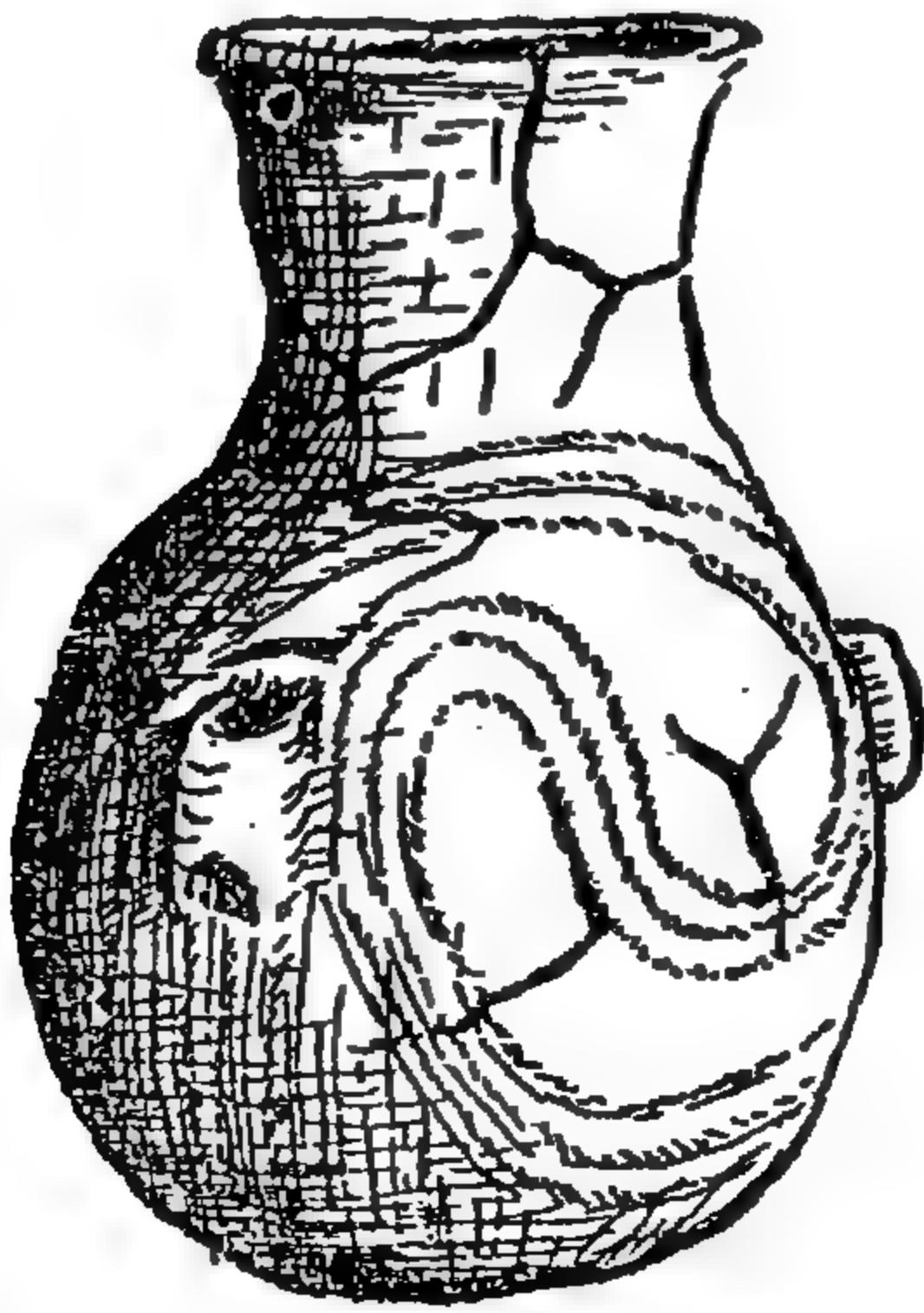
إناء من الخزف من أوائل عهد الدانوبيين

هذه العملية تعطيهم تربة صالحة للزراعة ولكنها كانت تنهك الأرض بسرعة كان يتحتم عليهم تطهير رقعة جديدة من الأرض بعد كل محصول أو محصولين وهجر الرقعة المنهوكة حتى تنمو الأشجار فوقها من جديد بعد سنوات . وهكذا كان الأمر ينتهى بالدانوبيين إلى استهلاك كل الغابات البكر المحيطة بهم ، ثم لا يجدون بعدها مفراً من الانتقال إلى مكان آخر . ومن هنا كانوا يقنعون ببناء القرى دون المدن لأنهم كانوا كالصيادين مضطرين إلى الانتقال ولو مرة واحدة فى كل جيل .

زد على ذلك أن الحبوب من النباتات النهمة التى تستنزف قوى التربة بسرعة، ولذا كانوا يتحركون هم أيضا بسرعة، وبذلك استوطنوا جزءا كبيرا جدا من أوروبا الوسطى . وكانوا يختارون الإقامة إلى جانب الغابات البلوطية غير الكثيفة التى تنمو فى الأماكن ذات التربة الطميية الناعمة (أو المكونة من اللويس loess الناعم) التى تصلح لرعى الماشية والخنازير والتى يمكن عزقها بالفأس البسيطة بدون مشقة . ولقد تتبعوا تلك التربة حتى وصلوا إلى وادى الرين ووادى الموز، ولكنهم اضطروا إلى التقهقر إلى بقايا الأدغال المقطوعة أمام زحف الشعوب النيوليثية فى أوروبا وانتشارهم (وذلك لأن الغابات الشمالية الدائمة الخضرة كانت غير صالحة مطلقا لمثل هذا النوع من الفلاحة) وبذلك زادت أمورهم سوءا . فقد كانت الأرض أشد صلابة بالنسبة للفلاحة كما كانت تربية الماشية مشكلة عويصة لقلة العلف فلم تكن أوروبا تغطيها المراعى الفسيحة الممتدة . وعلى الرغم من كل ما بذله هؤلاء الفلاحون من جهود فقد ظلت الغابات تنمو من جديد فوق التربة المنهوكة . والواقع أنه لم يستطع إزالتها كلية وإلى غير رجعة سوى الفأس المصنوعة من الصلب وذلك فى العصور الوسطى .

سكان البحيرات السويسرية

فى عام ١٨٥٣ انخفضت بحيرات سويسرا إثر حدوث حالة جفاف غير معهود ووصل منسوبها إلى ما دون المستويات المعتادة بكثير ، فانكشفت بذلك قواعد بعض الأعمدة القديمة الموجودة بكثرة فى عدد من الأماكن قرب الشاطىء . وقد تم بذلك الكشف عن مئات من القرى التى كان يسكنها سكان البحيرات السويسرية المشهورون الذين بدءوا فى بناء تلك القرى لأول مرة فى العصور النيوليثية قبيل عام ٢٠٠٠ ق.م. وقد استمرت عملية البناء طيلة العصر البرونزى ، ولكن القرى المبكرة تعطينا صورة رائعة عن الحياة السائدة فى الجزء الأخير من العصر الحجرى الحديث بعد أن انتشرت تلك الثقافة فى أوروبا ، ذلك أن الناس كانوا يقيمون بيوتهم على أعمدة وقوائم مرتفعة عن سطح الماء ثم يمدون معابر توصل إليها وتحيط بها . وكان يسقط قدر كبير من أدواتهم فى الماء فاحتفظ به الطمى بعد أن غطى بطبقة خارجية بفعل النار أو الماء . وبهذه الطريقة أمكن لكثير من الأدوات الخشبية والطعام المتفحم والقماش والشباك والحصر وما إليها أن تبقى دون أن تتلف أو تبلى ، كما كان سيحدث لها لو أنها تركت بين مخلفات وبقايا إحدى القرى التى تقام على اليابسة . وبذلك أمكننا أن نعرف مدى تنوع أدواتهم المنزلية كالصحاف الخشبية والأمشاط وكثير من الأشياء الأخرى فضلا عن الطواحين الحجرية العادية ومختلف وسائل نسج الملابس. كذلك أتيح لنا أن نعرف طريقة تجميع أدواتهم وآلاتهم وكيف كانوا يصنعون للفأس الحجرية مثلا يدا من الخشب ثم يثبتون (جلبة) مصنوعة من القرن الصلب بين الحجر واليد الخشبية حتى لا تنفلق .

ولسنا نعرف تماماً سبب معيشة الناس فوق الماء . فالمساكن المرفوعة على عمد كانت تبنى أيضاً فوق اليابسة فى جهات أخرى ، وإذن فليس ثمة

شيء غامض أو خاص عن تلك الثقافة ذاتها . وربما كان السبب هو الرغبة فى تقليل مضايقات الحشرات والديدان والقاذورات . ولا يبدو أنهم كانوا يعتمدون كثيراً على صيد السمك وإن كانوا يصطادون البط والطيور المائية والبرية الأخرى وكذلك الأيل الايرلندى elk والثيران الوحشية، وكانت لديهم كل الحيوانات المستأنسة المعروفة كما كانوا يعرفون الكتان والقمح والشعير (ولكن الشوفان والشيلم لم يكونا معروفين فى قرى العصر الحجرى الحديث) .

فى ذلك الوقت إذن كان معظم سكان أوروبا إما من الفلاحين الوافدين من الشرق ، وإما من الشعوب الميزوليثية التى تعلمت الزراعة . ولم يستمر أسلوب الحياة الميزوليثى إلا فى الشمال حيث كان من الصعب على الفلاحين أن يعيشوا هناك.

بناة المناضد الحجرية

ولقد سلك هؤلاء الوافدون سبلا عديدة فى هجرتهم، ولم يقتصروا على طريق الدانوب وحده . ومن أحدث المظاهر أو الاتجاهات الثقافية التى سادت فى العصر الحجرى الحديث — وأكثرها غرابة فى الوقت نفسه — الاتجاه الذى يمثله بناة مناضد الدفن (المغليث megalith) . ويبدو أن ذلك الاتجاه الثقافى نشأ أول الأمر فى حوض البحر المتوسط ، أو ظهر على الأقل نتيجة لبعض التأثيرات الوافدة من هناك . وربما كانت له علاقة بالأفكار التى كانت راسخة حينذاك فى مصر عن الأهرام ومدافن الموتى . وقد انتشر بطول الساحل الأوروبى المطل على المحيط الأطلسى، ولكنه بلغ أقصى عنفوانه فى فرنسا والجزر البريطانية واسكنديناوه .

وقد قامت تلك الأقوام بتشييد آثار ونصب من الحجارة الضخمة غير

المشذبة تعرف الآن باسم الدولمين dolmen أو المنهير menhir أو النصب الماثلة أو مدافن العمالقة أو القبور التى على شكل ممرات أو المهرمات المقرنة أو الركام المستطيل وغير ذلك كثير . وبعض تلك الآثار لا يزيد على أن يكون قبوا ساذجا بسيطا مؤلفاً من قائمين رأسيين من الحجارة يمتد فوقها أفقيا حجر ثالث ويزن كل حجر منها عدة أطنان ، والبعض الآخر كان يلحق به — وراء القبو — عدد من الغرف بها بعض الهيا كل العظمية المدفونة ، بينما كان للبعض الثالث ممشى طويل أو حتى فناء أو ساحة أمام البوابة وغرفة الدفن ، مما يوحى بأنها كانت تستخدم فى إقامة الشعائر ، ربما لفترة معينة من الزمن ، أو أن لها علاقة بالموتى . وكانت كلها تغطى فى النهاية على العموم بالحجارة والتراب بحيث تبدو أشبه بالأكمة والركام البيضاوى الشكل .

وأغرب مناضد الدفن تظهر فى شكل صفوف طويلة من القوائم الحجرية الضخمة المنفصلة توجد فى كرنك Carnac ببريتانى ، وكذلك فى شكل حلقات ضخمة من الحجارة توجد بانجلترا . ولا يعرف أحد ماذا كان يحدث فيها ولذا يمكنكم أن تتخيلوا عنها ما تشاءون . ولكن الحقيقة الواضحة هى أن الشعوب التى أقامت تلك المناضد كانت تخضع لنوع من العبادة القوية المسيطرة ، لأن تشييد مثل هذه الأبنية الضخمة يستلزم ولا شك مجهودا بشريا هائلا (من النوع الذى لا يستطيع صيادو الحيوانات مثلا القيام به) ويتطلب تكويم التراب على شكل منحدر مائل حتى يمكن تثبيت القوائم فى مكانها ثم رفع النضد الأفقى فوقها ، كما يحتاج إلى كثير من الوسائل والحيل الهندسية مثل اللفات الأسطوانية .

كان هذا كله يحدث حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . وبعده بقليل ، فى عصر يختلف عن عصرنا نحن فى الثقافة بقدر ما يبعد عنه فى الزمن . ومع أن
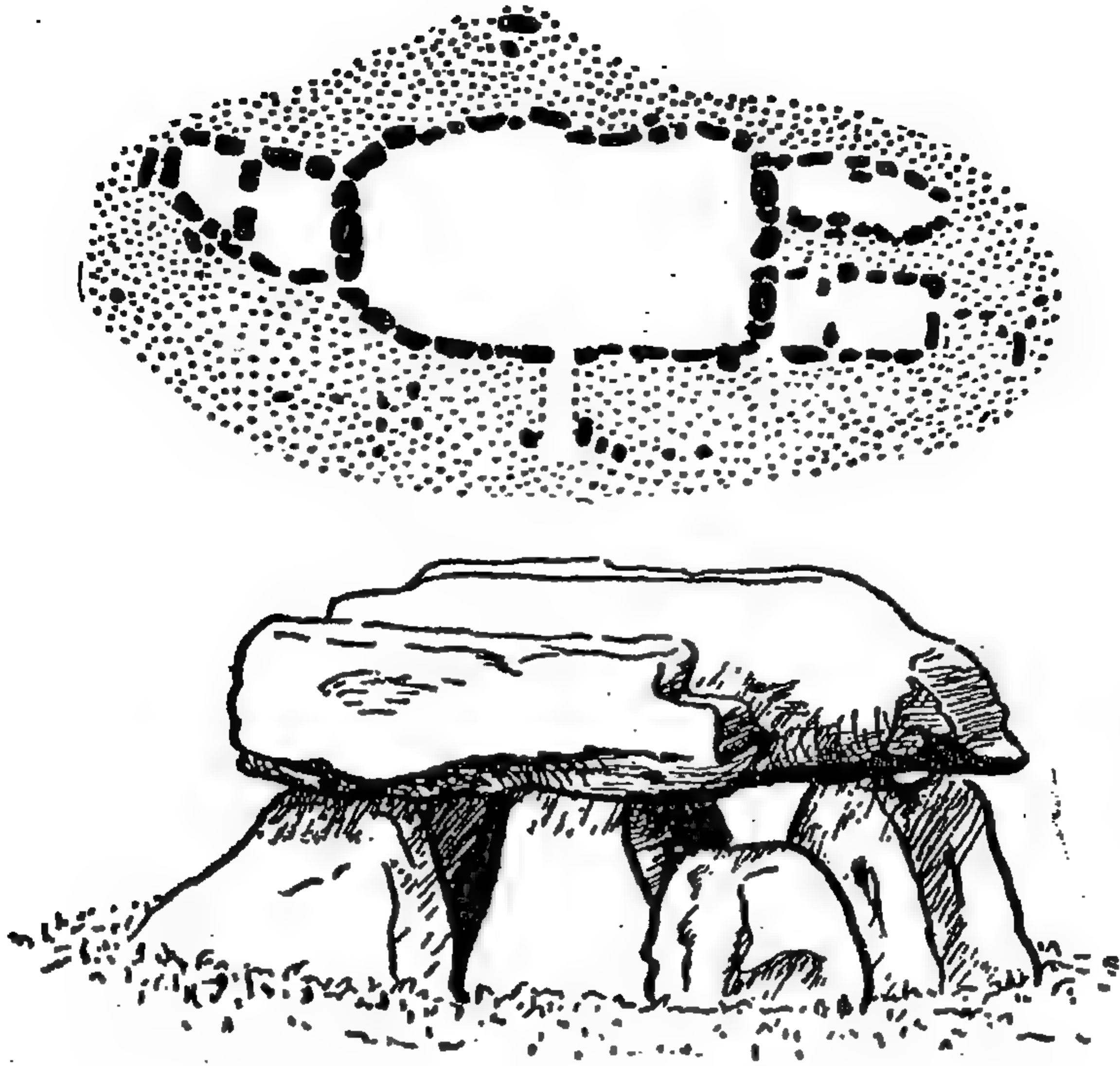
شكل يبين أحد مناضد الدفن وعليها النضد العلوى فى أعلى شكل تخطيطى
لإحدى الروابى الضخمة فى أيرلندا وبها ساحة وعدة غرف للدفن

بعض الجهات — التى كانت مساحتها تنكمش وتقل بالتدريج — ظلت لوقت طويل تتبع أسلوبا للحياة يكاد يماثل أسلوب الحياة فى العصر الحجرى الحديث، فإن أوروبا ككل أخذت تبتعد فى العصور التالية عن مصدر ثقافتها الأول ، أعنى الشرق الأدنى ، وذلك حين حقق كل منهما درجة عالية من الثقافة . أضف إلى ذلك أن أوروبا لم تكن المكان الوحيد خارج جنوب غربى آسيا الذى انتشرت فيه ثقافه العصر الحجرى الحديث . فقد اتجهت تلك الثقافة أيضاً نحو الجنوب الشرقى وتغلغلت فى أفغانستان وغرب الهند — وإن كانت معلوماتنا عن ذلك لا تزال ضئيلة — كما توغلت عبر آسيا كلها حتى وصلت إلى الموطن الشمالى الأصلى للصينيين . ويعتبر اشتغال الفلاحين هناك بتربية الماشية والخنازير وزراعة القمح والذرة منذ أقدم العصور دليلا وبينة على تلك الصلة البعيدة القديمة مع الشرق الأدنى .

شمال أفريقيا : تذكار من العصر الحجرى الحديث

وقد امتدت شعبة نيوليثية أخرى فى جنوب البحر المتوسط أكثر مما انتشرت عبره أو شماليه ، وتوغلت هذه الشعبة عبر مصر وعلى طول ساحل أفريقيا الشمالى الذى يشبه الريفييرا . وقد كان لشمال أفريقيا حتى فى أواخر العصور الحجرية القديمة علاقات — سلالية على الخصوص — بأوروبا أكثر منها ببقية أفريقيا . فمعظم السكان من البيض وفيهم كثير من الشقر . وساعد على استمرار تلك الرابطة القرابية الفضفاضة استعمار الشرق لها إبان العصر الحجرى الحديث ، وقد اعتنق البربر القدماء الإسلام على أيدى الفاتحين العرب ، واتخذوا القرآن كتابا لهم ، كما أنهم يستخدمون الآن البنادق والحاريث وغيرها من مخترعات ما بعد العصر الحجر الحديث . ومع ذلك فإنهم لا يستطيعون حتى أن يصهروا معادنهم بأنفسهم بحيث يمكن القول إنهم لم يبلغوا بعد — من الناحية الفنية — عصر المعادن . فلا تزال الجماعات الأكثر تأخرا عندهم تحتفظ إلى حد كبير بأسلوب الحياة فى قرى الشرق الأدنى أثناء العصر الحجرى الحديث .

ويعتبر البربر فى بلاد وعرة إلى حد ما بمنطقة الريف وفى الجزائر . وهم يقيمون فى قرى كثيرة تتألف من منازل من الحجر والطفل ، ولها دعائم من الخشب ، ويتكون بعض تلك المنازل من طابقين ، ولكنها طوابق منخفضة بعض الشىء ، وعلى أية حال فإن البربر لا ينقلون معهم مسا كنهم لأنهم يشتغلون بزراعة الحدائق على نطاق واسع ، كما أن أراضيهم تجد كفايتها من الماء مما يدفعهم إلى الاستقرار فى مكان واحد ، ولكنهم يمارسون أعمالا أخرى كثيرة غير الفلاحة ، وتلقى الماشية منهم كل عناية ويستفيدون من ألبانها ولحمها وجلودها ، ولكنها مع ذلك حيوانات عجاف هزيلة ، وللماعز والضأن أيضا أهمية كبيرة عندهم . والبربر مسلمون وعلى ذلك فليس من اللياقة أن نبحث ، فيما إذا كانوا يأكلون لحم الخنزير

على الإطلاق ، وهم على أية حال يرفضون الكلام فى مثل هـذا الموضوع . ولكن الظاهر أن بعضهم يقوم بتربية الخنازير بالفعل ، ويوجد عند البربر كل الحبوب المعروفة بما فيها الشيلم الذى ينمو على سفوح التلال الفقيرة والشوفان الذى ينمو بريا ويقومون هم بجمعه . وإلى جانب هـــذا النمط المألوف يزرعون الخضراوات فى حدائقهم ، ولكن الأهم من ذلك هو مهارتهم الفائقة فى فلاحة البساتين حيث يباشرون تربية أشجار الزيتون والتين والبندق والليمون والتفاح والكمثرى والبرقوق والخوخ والمشمش ، كما يستخدمون فوق ذلك كله كثيراً من أنواع الطعام البرى مثل الزيتون البرى والكرن والكرنب والتوت والهليون asparagus والكرفس والفطر mushrooms وما إليها ويعتبرونها أقدم الأطعمة إطلاقا .

فهم يذكروننا إذن بأنه فى العصور النيوليثية — بالمعنى الدقيق للكلمة — كانت موارد الطعام عند شعوب الشرق الأدنى (إن لم يكن عند شعوب أوروبا) أوسع بكثير جدا مما قد يستدل عليه من دراسة الآثار . كذلك يبينون لنا بوضوح إلى أى حد يمكن للحياة الاجتماعية أن تتعقد فى القرى الكبيرة عنها فى الزمر التى تعتمد على القنص . وسوف نرى فيما بعد الأشكال المختلفة التى قد تتخذها تلك الحياة الاجتماعية . وربما كانت عادات سكان منطقة الريف أقرب إلينا من العادات الشائعة فى الثقافات الأخرى . مثال ذلك — وهم يشبهون هنا الجماعات التى تعيش على القنص — أنهم يدعمون مسألة الحصول على القوت بالالتجاء إلى وسائل وممارسات معينة مثل نظام المشاركة على المحصول وجمع عسل النحل ، كما أن عندهم بعض النظم الخيرية الرتيبة . كذلك هم يسمحون لغيرهم بجمع والتقاط الحبوب التى تسقط اثناء الحصاد . والواقع أن الرجل الفقير المحتاج يستطيع إذا مر بشخص يعمل فى حديقته أن يدخل إلى الحديقة فيساعده فى العمل نظير وجبة طعام يقدمها له .

ولا تتكون المدن هناك من العائلات الصغيرة التى نعرفها فى الغرب ،

ولا من تلك التنظيمات المعقدة المروعة التى نجدها عند الأستراليين ، بقدر ما تتكون من العائلات الممتدة التى تضم بيوت وأسر عدد من الإخوة(١) ويطلق على هذه العائلة الكبيرة كلمة «العرق» فى بلاد الريف، ويباشر العرق مسائل البيع والشراء وما شابه ذلك من أمور . وتؤلف كل مجموعة من هذه العائلات الكبيرة ما يعرف باسم « العظمة » ، وقد تشمل « العظمة » القرية كلها أو الجانب الأكبر منها ، فهى نوع من « ما فوق العائلة » أو « العائلة العليا Super-family » لها مجلس يشرف على تصريف شؤونها . وتوجد فوق ذلك مجالس أخرى للمقاطعات ثم أخيرا مجالس للقبائل(أما فى منطقة القابيل بالجزائر فتوجد برلمانات محلية بدلا من هذه المجالس) .

وإلى جانب هذا كله يوجد عند البربر نسق متطور جدا من القوانين الخاصة ، كما أن لديهم شريعتهم الخاصة بالشرف . ويقول آخر : إن البربر يحبون الجدل والقتال ، ولهم فى ذلك تقاليد تشبه أفضل ما عندنا . وهم محامون مفوهون ، وكثيرا ما تجتمع المجالس عندهم لفض المنازعات وهى تتوقع بل وترغب فى إنهاء النزاع بشكل سلمى ؛ ولكن الطريقة القانونية التى يعجب الناس بها لن تؤدى إلا إلى ارتفاع حرارة « العظمات » المتنازعة ثم إلى الاشتباك بالبنادق وسقوط عدد من القتلى والجرحى فى كل أنحاء المدينة .

---

(١) المقصود بالنمط الغربى للعائلة هنا العائلة المؤلفة من الأبوين وأبنائهما الصغار الذين لايلبثون أن ينفصلوا عنهما بالزواج . أما العائلة الممتدة extended family فيقصد بها العائلة الكبيرة التى تتألف من عدد كبير من الأفراد بزوجاتهم وأولادهم وأولاد أولادهم بحيث يؤلف الجميع وحدة اجتماعية واقتصادية متماسكة على ماهى الحال فى الريف عندنا — المترجم .

١٠
انتشار السلالات الحديثة

لو دققنا النظر فى الطريق الطويل الذى سلكه الإنسان فى أوروبا لرأينا أنه أتى بعد النياندرتاليين أقوام من شعوب العصر الحجرى القديم الأعلى كانوا يحتفظون بتلك الجماجم الضخمة التى تميز الجنس الأبيض وكانوا محصنين ضد الأجواء المتغيرة التى كانت تسود حتى نهاية العصر الحجرى الوسيط ، ثم لرأينا — ولكن بدرجة أقل وضوحا — نشأة الفلاحة فى الشرق الأدنى فى مصر وانتشارها غربا عبر البحر المتوسط ، وشمالا فى غابات أوروبا على أيدى جماعات جديدة من البيض أيضا .

ولقد كان يسعدنا حقاً أن تكون لدينا عن أفريقيا أو آسيا معلومات على مثل هذا الوضوح . ولكن مع الأسف ليس لدينا من ذلك شىء . وينبغى أن نعترف بهذه الحقيقة حتى ندرك قلة المعلومات الصحيحة التى بأيدينا . والواقع أننا نجد أنفسنا عند هذه النقطة من القصة — أعنى ظهور العالم الحديث بفضل الفلاحة — عاجزين فى كثير من المواضع بسبب جهلنا . فنحن لا نعرف على وجه التحديد كيف نشأت الضروب أو السلالات البشرية الحديثة ، وكيف توزعت ، كما أننا لا نعرف تماما كيف بدأت الثقافات المختلفة — وبخاصة الفلاحة — وكيف انتشرت ، ولا إلى أى حد كان أصحابها (الفلاحون الدانوبيون مثلا) يتولون نقلها ، أو إلى أى حد كانت هى ذاتها تنتقل ببساطة من شعب لآخر .

والسلالات تمثل بالطبع مشكلة قائمة بذاتها . وهى مشكلة ترجع إلى ما قبل العصر الحجرى الحديث بكثير . وقد خضعت السلالات لكثير جدا من التوزيع والتقسيم والاختلاط إبان العصر الحجرى الحديث ذاته ، مما أدى

إلى صورة الجنس البشرى فى العصور التاريخية المعروفة. والمعروف أن النماذج السلالية تتغير بفعل المبادىء البيولوجية لا المبادىء الثقافية ، ولذا كانت تتغير ببطء شديد . وترجع أصول السلالات إلى ما قبل بداية العصر الحجرى القديم الأعلى على الأقل ، وقت أن استقرت الشعوب البيضاء فى أوروبا ووقت أن كانت النماذج السلالية الأخرى التى تنتمى كلها إلى الشكل الحديث (الإنسان العاقل) تقطن — على ما يبدو — فى أنحاء أخرى من العالم . أما كيف نشأت بالضبط الأرومة المشتركة فلا يزال ذلك محل خلاف شديد، وقد عرضنا لهذه المشكلة من قبل . وقد حاول بعض العلماء أن يلتقوا مع نظرة الدكتور فايدنرايخ المتطرفة فى منتصف الطريق فذهبوا إلى أن بعض أنواع الإنسان الحفرى فى العصر الحجرى القديم الأدنى اختلطت بالإنسان العاقل المبكر (أى نوع الإنسان الذى ننتمى نحن إليه) ، فظهرت سلالاتنا المختلفة نتيجة لذلك التهجين . ولكننى شخصياً أشك فى حدوث مثل هذه النتائج الخطيرة وخاصة أن جماجم السلالات الحالية متشابهة بدرجة لا يستقيم معها ذلك الاحتمال .

أصول السلالات

وعلى أية حال فالسبب فى ظهور السلالات البشرية — وغيرها من السلالات الحيوانية — هو التطور . والمقصود بذلك أن ينقسم شعب ما — بطريقة ما — إلى شعبين لا يتزاوجان بدرجة تكفى لإبطال تأثير النزعة الموجودة فى كل منهما إلى التغير ، وبالتالى إلى الاختلاف عن الآخر ، إلى أن تتكون لكل منهما ملامح فيزيقية متميزة ومتوارثة . وهناك سببان لقيام ذلك الاختلاف (علاوة على الاختلاط بالشعوب الأخرى) وهما : الزحزحة الوراثية والملاءمة الطبيعية .

أما الزحزحة الوراثية فردها إلى المصادفة البحت . فقد تظهر إحدى

السمات الوراثية بشكل تلقائى — ولأسباب معقدة — أو يزيد انتشارها فى جماعة من الجماعات، أو قد تتضاءل أو تزول تماما، لا لشىء إلا لأنها ذات طابع محايد، وأنها لا تتأثر إلا بطريق المصادفة فى الوراثة. ومن هذه السمات بعض ملامح شكل الرأس وكذلك مكونات مجموعتى الدم المعروفتين (ا، ب) إذ أن أهميتها لا تظهر إلا حين ينقل الدم من شخص إلى آخر. وعلى ذلك فقد تفضى الزحزحة الوراثية إلى تباعد هذين الشعبين فى تلك الملامح، لأنه قلما يتاح لهما المشاركة فى كل التغيرات التى تحدث مصادفة فى كل منهما على حدة.

وأما الملاءمة الطبيعية، وهى ثانى السببين، فأمرها معروف لنا من نظرية داروين عن الانتخاب الطبيعى. وهو يعنى — بعكس الزحزحة الوراثية — أن التغير يتم تبعا لفائدته ونفعه فى تحقيق تلاؤم الشعب وتكيفه بطريقة أفضل مع بيئته الخاصة. وبذلك قد يصبح الشعبان المتشابهان فى الأصل متباينين من الناحية السلالية — أعنى فى بعض الملامح الفيزيقية — نتيجة لمعيشتهما فى موطنين مختلفين. (وهذا لا يمنع من استمرار عمل الزحزحة الوراثية طيلة الوقت ذاته، وليس من شك فى أن اختلاط السلالات بعد أن تكون اتخذت بالفعل أشكالها المتمايزة يؤدى إلى ظهور نماذج سلالية أخرى. ولكن الزحزحة الوراثية والملاءمة الطبيعية تستطيعان فيما بينهما تحقيق جميع الخطوات اللازمة لإيجاد أشد سلالات الإنسان العاقل اختلافا وتباينا بدون الحاجة إلى الاستعانة بأية عوامل خارجية مثل إنسان النياندر أو إنسان الصين. ولذا فإننى أفضل أن أترك هؤلاء الأقوام راقدين فى قبورهم التى ترجع إلى العصر الحجرى القديم الأدنى.

ولكن من الصعب فى الوقت نفسه أن نتبين أثر الملاءمة الطبيعية فى السلالات البشرية. والواقع أننا لم نستطع التعرف على سير التطور إلا فى عدد قليل من أشكال الحياة البسيطة، وبخاصة ذباب الفاكهة. وأقصى ما نستطيع عمله هنا، هو أن نفحص مختلف نماذج الشعوب الموجودة حاليا

ثم نقرر كيف استطاع كل منها أن يتلاءم بوجه خاص مع نوع معين بالذات من المناخ.

فمن الثابت مثلا أن الوزن يختلف اختلافا ملموسا باختلاف درجة الحرارة. فسكان المناطق الباردة يميلون إلى السمنة، كما تميل أطرافهم إلى القصر والاكتناز، بينما يميل سكان المناطق الحارة إلى النحافة والضمور. وامتلاء أجسام الشعوب الأولى معناه قلة سطح الجلد الذى يفقد الحرارة وكثرة كمية الدهن الذى يحتفظ بتلك الحرارة، بينما تزيد مساحة سطح الجلد عند الفئة الثانية من الشعوب زيادة كبيرة بحيث تشع منه الحرارة مثلما تشع من المشعاع (الراديباتور) الجيد. (ويعرف المبدأ الأساسى بين علماء التاريخ الطبيعى باسم «قاعدة برجمان Bergmann's rule) ويبدو أن ذلك أصبح مسألة وراثة سلالية فى بعض الجماعات. ففى النطاق الصحراوى الشديد الحرارة يعيش كل من البدو فى بلاد العرب والطوارق فى الصحراء الكبرى وكلاهما من الجنس الأبيض. (وهم جميعا يحمون أنفسهم من حرارة الشمس بارتداء الملابس بل وبتغطية الوجه ذاته عند الطوارق)(١) كذلك يعيش الدنكا والشيلوك فى منطقة النيل الأبيض، وهم من أصل زنجى (ولا يرتدون أى ملابس على الإطلاق). وتمتاز هذه الشعوب كلها بالنحافة المفرطة. ويعتبر النيليون أطول شعوب الأرض جميعا، وهم فى ذلك يقفون على طرفى نقيض مع بعض سكان أقصى الشمال مثل الإسكيمو الذين يمتازون بامتلاء

---

(١) الإشارة هنا إلى العادة المتبعة عند الطوارق من ارتداء لثام من القماش يخفى معالم الوجه ماعدا العينين. ولذا يطلق عليهم أحيانا «الملثمون». وقد اختلفت الآراء فى منشأ هذه العادة. ويرى بعض العلماء أن اللثام وسيلة لوقاية الوجه من رمال الصحراء ولكن يلاحظ أن اللثام لا يرتديه إلا الرجل البالغ حين يصل إلى سن معينة بينما لا ترتديه المرأة أو الصبى، كما أن الرجل لا يخلع لثامه قط حتى حين يأكل أو حين يكون داخل الخيمة بعيداً عن الحرارة وعن الرمال، ويعتبر من العار أن يطلع غيره من الناس على صورة وجهه الحقيقية — المترجم

الجسم وقصر الأطراف على الخصوص [1].

يكاد يكون من المؤكد — على ما سنرى بعد قليل — أن الوجه المسطح ذا العينين الضيقتين الذى يمتاز به الإسكيمو هو أيضا نوع من الملاءمة الطبيعية ، الغرض منها وقاية العينين والأنف من البرد الشديد القارس . وبالمثل يمكن القول : إن بعض الملامح السلالية الأخرى — مثل البشرة الداكنة الواقية فى المناطق المدارية ، أو البشرة الفاتحة فى المناطق الشمالية الملبدة بالغيوم حيث يكون لضوء الشمس الصحى قيمة عالية جدا — هما أيضا استجابتان للبيئة . ولكن الواقع أن هناك صعوبات كثيرة تعترض سبيل وضع تفسيرات بسيطة لمعظم تلك السمات ، كما أننا لا نعرف على أية حال سوى القليل عن معناها البيولوجى الحقيقى . وقد يكفى هنا أن نقول إن تفسيرنا لها بأنها نوع من الملاءمة المباشرة لا يرتفع — مهما بلغ من القوة — إلى منزلة البرهان العلمى ، بقدر ما هو احتكام إلى المنطق . وسوف نعرف يوما ما على وجه اليقين كيف ظهرت الاختلافات السلالية ؛ وهو الأمر الذى نجهله الآن .

السلالات السمراء فى المناطق المدارية

ولكن لننظر بدلا من ذلك إلى السلالات البشرية الموجودة الآن بالفعل لنرى إذا كان يمكن تصنيفها فى أنماط . إن أول ما يسترعى الانتباه هو أن

---

(١) يذهب الأستاذ رالف لينتون إلى أن ثمة استثناءات من هذه القاعدة ، ويقول فى كتابه « شجرة الحضارة » (ترجمة الأستاذ الدكتور أحمد فخرى . القاهرة ١٩٥٨ . الجزء الأول صفحة ٥٧) إن أطول السلالات البشرية المعروفة لدى الباحثين فى العلم — رغما عن أنها ليست أنحفها أجساما — تتمثل فى سكان السهول من اسكتلندة الذين يعيشون فى مناخ أبعد ما يكون عن المناخ المدارى ، بينما نجد أيضا أقزام الكونغو يشبهون قبائل الإسكيموفى شكل أجسامهم المكتنزة . ولكن بالرغم من هذه الاستثناءات فالتعميم السابق صحيح فى الكثير من الحالات — المترجم .

المناطق المدارية فى العالم القديم — أعنى أفريقيا جنوبى الصحراء والهند والجزء الغربى من المحيط الهادى وأستراليا — هى فيما يبدو موطن السلالات السمراء. فشعوب تلك المناطق تمتاز ببشرتها الملونة تلوينا عميقا وبعيونها ذات اللون البنى القاتم أيضا. وسوف يذكرنا هذا فى الحال بالطبع بالفكرة التى تربط بين اللون القاتم وشدة الشمس الاستوائية لحماية أنسجة الجسم وباطن العين من الأضرار التى تنجم عن زيادة الضوء القوى. ولكن ينبغى أن نلاحظ أن هذه المنطقة ليست أشد جهات العالم تعرضا للشمس إذا نحن أدخلنا فى الاعتبار العوامل الأخرى. صحيح أن بعض أجزائها عبارة عن صحراء (كما هى الحال فى أستراليا) إلا أنه لا يدخل فى نطاقها صحراء بلاد العرب ولا الصحراء الكبرى، كما أن مساحات فسيحة منها تغطيها السفانا والأحراش، بل إن جزءا كبيراً منها أيضا — ويبدو أنه هو الجزء المركزى — عبارة عن غابات مطيرة رطبة ولكنها ظليلة. والأغلب أن تلك الغابات كانت أكثر كثافة فى الماضى، أى حين كانت السلالات البشرية تتفاضل وتتمايز إحداها عن الأخرى. وإذن فليس فى هذا ما يؤيد الحجة بأن سمرة البشرة نتجت ببساطة عن كثرة التعرض للشمس، ثم أصبحت بعد ذلك إحدى الملامح السلالية استجابة لزيادة الضوء زيادة بالغة. وللدكاترة كون Coon وجارن Garn وبيردسل Birdsel آراء طريقة فى هذه المشكلة. فهم يرون أنه قد تكون هناك مزايا وفوائد أخرى تعود على سكان المناطق المدارية من اسمرار البشرة (مثل مقاومة أنواع معينة من الأمراض). ولكن هذه آراء دقيقة ومبهمة يصعب علينا فهمها فى ضوء معلوماتنا الراهنة.

أما زنوج أفريقيا فيبدو أن موطنهم الصحيح هو غابات حوض الكونغو

---

(١) Races : A Study of the Problems of Race Formatian in Man

وعلى طول ساحل غينيا ، وهى كلها قريبة من خط الاستواء ، رغم أن الشعوب المتزنجة تكاد تحتل كل أفريقيا جنوب الصحراء . ويمتاز الزنوج — بالإضافة إلى لون البشرة الداكن — بالشعر الصوفى والشفاه الغليظة المنتفخة ، وهما سمتان مميزتان ينفردون بهما عن كل الشعوب الأخرى . ومن المؤكد أنهما ليستا من السمات البدائية ، كما أنهما توحيان بأن ذلك الفرع من الجنس البشرى قد استقل لفترة قصيرة من الزمن بتطوره السلالى الخاص . وربما كان الشعر الصوفى مظهرا من مظاهر الملاءمة وأن القصد منه حماية الرأس من الحرارة الشديدة . أما القصد من غلاظ الشفتين — باعتباره مظهرا آخر للملاءمة — فلا يعلمه إلا الله .

والله وحده أيضا هو الذى يعلم تاريخ الجنس الزنجى . ولكن يوجد فى ميلانيزيا — ابتداء من غينيا الجديدة حتى فيجى شرقا — شعوب من نفس الطراز ولكنها اختلطت بالسلالات السمراء الأخرى اختلاطا شديدا . أما فيما بين أفريقيا وميلانيزيا — وهى منطقة تزيد على عرض آسيا — فلا يوجد أدنى أثر لتلك السلالات .

وهذا لا يصدق على المتزنجين ، وهم فرع من الزنوج يشاركونهم فى كل مقوماتهم السلالية الأساسية عدا الحجم . فهم قصار القامة ويشتغلون عادة بصيد الحيوان . ويعتبر انتشارهم فى كل تلك المنطقة المدارية المترامية من أغرب ما تكشفه لنا دراسة السلالات . فلقد سمعنا جميعا عن أقزام الكونغو الذين يجوبون الغابات لقنص الحيوانات ثم يستبدلون بصيدهم الأدوات الحديدية والخضراوات من الزنوج سكان القرى . ولكن القليل منا من يعرف أن هؤلاء المتزنجين يؤلفون سكان جزر الأندمان الواقعة فى الجانب الآخر من المحيط الهندى تجاه بورما ، كما أنهم يوجدون فى جبال شبه جزيرة الملايو وفى جهات كثيرة من الفلبين ، بل وفى غينيا الجديدة . كذلك توجد آثار قاطعة تدل عليهم فى أنحاء متعـــددة أخرى من ميلانيزيا

وأستراليا وجزر الهند الشرقية. وأخيراً ، وقد يكون هذا هو أهم مافى الموضوع ، فإن ثمة ما يدل عند أشد شعوب الهند تأخرا على أن سكانها الأصليين كانوا من السلالات السمراء ، وأن المتزنجين كانوا عنصرا غالبا فى تلك السلالات .

ولكن ما الذى أدى إلى قيام هذا الوضع الغريب الذى يكاد يجعل للمتزنجين أهمية فى تاريخ السلالات تفوق أهمية الزنوج؟ هناك عدة تفسيرات لذلك ، ولكنها تتراوح على العموم بين الغموض والمحال . فمن الصعب أن نقول مثلا إنهم بقايا ومخلفات أحد الأزمنة القديمة التى امتازت شعوبها بضآلة الجسم ، وذلك لأن جميع البشر الذين عاشوا فى عصر البليستوسين — على الأقل — كانوا يماثلوننا فى الحجم ، وعلى ذلك فلا بد أن الإنسان العاقل — فى أقدم صوره وأشكاله — كان له نفس ذلك الحجم . وهذا معناه أن المتزنجين هم الذين انكمشت أحجامهم بطريقة ما . وليس من شك أيضا فى أن المتزنجين والزنوج ينتمون إلى أصل واحد مشترك ما دامت لهم نفس السمات الخاصة الواضحة ، إلا أنه من الصعب فى الوقت نفسه أن نقول إنهم زنوج تضاءلت أحجامهم فى أماكن معينة من العالم بتأثير البيئة مثلا . بل إن حدوث مثل هذا الضمور أو الانكماش فى مكان واحد فحسب — لا بد أن يبدو أمرا شاذا غريبا . ولذا فقد يكون من الأصوب أن نقول إن المميزات الخاصة بالمتزنجين — مثل الأجسام الصغيرة والبشرة السمراء والشعر الصوفى والشفاه الغليظة وما إليها — تطورت كلها معا ، وإنهم انتشروا فى المنطقة المدارية ثم أخذت أجسامهم تنمو وتكبر بعد ذلك فى مكان أو مكانين حتى تعود إلى الحجم الطبيعى ، وظهر بذلك ما نسميه الآن بالزنوج . أو لعل الأقرب إلى الواقع (ومع ذلك فهو يعانى بعض القصور) أن نفترض أن أحد الأجناس الزنجية الأساسية تطور فى مكان ما — قد يكون الهند — وافترق منه فرع مبتور غير مكتمل النمو ، ثم هاجر

الفرعان عبر المنطقة المدارية إلى أفريقيا غربا وإلى المحيط الهادى فى الشرق، ولكن المتزنجين كانوا أسبق فى الوصول إلى عدد أكبر من الأماكن والمعيشة فيها. وهذا مجرد تخمين، والفصل يقوم كله على التخمينات. فأنا أحاول هنا أن أضع نمطاً لا أن أكتب قصة لايمكن كتابتها فى الوقت الحاضر.

وليس هذا على أية حال هو نهاية الحديث فى السلالات ذات البشرة الداكنة؛ إذ لا تزال هناك سلالة أخرى تتمثل فى أهالى أستراليا الأصليين، وإن لم يكن ثمة مايدل على ارتباطهم ارتباطاً قويا بالزنوج أو بالمتزنجين. صحيح أنهم يشبهونهم فى لون البشرة ولون العينين القاتم وكذلك فى كبر حجم الأسنان ونتوء منطقة الفم بعض الشىء، ولكن هذه كلها قد تكون رواسب لبعض الملامح البدائية القديمة التى احتفظت بها هاتان السلالتان أكثر مما هى دليل وبينة على انحدارهما من أصــــل واحد، وخاصة أن الأستراليين يحتفظون ببعض السمات الأخرى التى قد تكون بدائية — مثل غزارة الشعر فى الوجه والجسم، والشعر المموج أو المجعد أو المستقيم تقريبا، والحجاجات الناتئة والجباه المتراجعة إلى الوراء. ومن المؤكد أن هذه كلها ليست من سمات السلالات الزنجية، بل هى من خصائص السلالات البيضاء. وإذن فهناك على الأقل سبب وجيه للاعتقاد بأن الأستراليين أقرب إلى البيض منهم إلى الزنوج.

والواقع أن معظم علماء الأنثروبولوچيا يتبعون هوتون Hooton فى تصنيفه لهم كأحد الفروع البدائية للجنس الأبيض. ولكننى أفضل أن أعتبرهم صورة عتيقة — بوجه عام — للإنسان العاقل. وأنهم أقرب إلى تمثيل ذلك الإنسان من سائر الشعوب الحالية، وأنه بدلا من أن نقول إن الأستراليين سلالة بيضاء بدائية فإننى أفضل أن أقول إن البيض أستراليون متطورون. وهذا يسمح لنا بالذهاب إلى حد القول بأن الزنوج أيضا أستراليون متطورون، ولكنهم سلكوا فى تطورهم اتجاها آخر.

والأهم من هذا كله أن الأستراليين كانوا يعيشون بالفعل فى بلادهم ذاتها منذ زمن طويل . ولقد سبق أن رأينا النمط القديم لثقافتهم . وهناك عدد كبير من الجماجم المتحجرة — وبخاصة الجمجمة المعروفة باسم جمجمة كيلور Keilor — التى تدل على قدم نموذج السلالة الأسترالية فى أستراليا ذاتها . وقد يكون من الصعب تحديد تاريخها ، ولكن الدراسة الدقيقة تدل على أن تلك الحفريات وجدت منذ بضعة آلاف من السنين ، وأن قدم الثقافة الأسترالية لم يأت عرضا . ثم هناك أيضا جماجم واجاك المشهورة التى عثر عليها فى جاوة ، وهى من الطراز الأسترالى ، وربما كانت ترجع إلى العصر الحجرى القديم الأعلى ؛ أى إنها عاشت ذلك العصر فى أوروبا ، فإنها توحى بأن جزر الهند الشرقية كان يسكنها فى الماضى ذلك النوع من الإنسان .

ويوجد هذا الطراز الآن فى أستراليا فقط بطبيعة الحال ؛ ولكن طابعه السلالى يظهر بوضوح فى الجزر الواقعة شمالى تلك القارة وشرقيها — أى كاليدونيا الجديدة وغينيا الجديدة وبريطانيا الجديدة — بين كل ذلك الخليط الذى تتألف منه شعوب ميلانيزيا . كذلك توجد آثار خفيفة له فى بعض الأماكن الأخرى — منها الهند — حيث تظهر ضعيفة واهنة بين فلول أقدم السكان . والواقع أننا لو اكتفينا بفحص المظهر الخارجى — كأن ندرس شكل الأنف وتكوين الشعر وكذلك بعض الدلائل المستمدة من خصائص الدم — وهذا تقريبا هو كل ما يمكن استخدامه — لوجدنا أن الأساس الأصلى فى الهند يبدو كما لو كان مؤلفا من عنصرين ، هما الأستراليون والمتزنجون .

ولذا كان الأستراليون يوجدون فى الشرق حيث وفدوا من آسيا منذ زمن بعيد ، مثلما يوجد المتزنجون فى كل المناطق المدارية والزنوج فى أفريقيا وميلانيزيا ؛ ولكن الموطن الأول للزنوج لايزال مشكلة محيرة . ولكى

نزيد من صعوبة المسألة نشير إلى البوشمن الذين يقطنون جنوب أفريقيا ، وهم شعب آخر يشبه الأستراليين فى قدم ثقافتهم التى تقوم على القنص وفى ادعائهم الإقامة فى موطنهم الحالى منذ أزمان سحيقة . وعلى الرغم من أحجامهم التى تميل إلى الصغر وشعرهم الشديد التجعيد فإنهم يختلفون اختلافا كبيرا عن الزنوج وعن الأقزام . ومع ذلك فهناك بعض أوجه شبه فى فصيلة الدم، مما يشير إلى وجود نوع من العلاقة أو من الاختلاط كما سبق أن ذكرت. ولكن ما أهمية ذلك كله بالنسبة لأصل البوشمن ؟ لنعترف فى صراحة وتواضع بأننا لا نعرف .

البيض والمغوليون والهنود

كل هذه الشعوب المدارية والجنوبية تفصلها عن الأجزاء الشمالية من العالم القديم حواجز مختلفة كالصحارى فى إفريقيا وبلاد العرب وسلسلة جبال الهملايا العظيمة . ولكن الجبال وحدها هى التى تقف سدا منيعا ، لأن التغيرات المناخية كانت قد مكنت الإنسان فى وقت من الأوقات من سكنى المناطق الصحراوية الحالية . وعلى أية حال فهناك ثغرات تتخلل ذلك الحاجز فى الصين وفى الشرق الأدنى . ومع ذلك فإن الأصول السلالية الكبرى — أى السلالات البيضاء والمغولية — توجد شمالى ذلك الحاجز .

ويقطن البيض بطبيعة الحال فى أوروبا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط، ولكنهم أخذوا فى القرنين الأخيرين يزحفون إلى مواطن الشعوب الأخرى فى جميع أنحاء العالم . بيد أن هذه عادة قديمة لأنهم فعلوا ذلك نفسه منذ بضعة آلاف من السنين فى الهند حين نزحوا من إيران وأفغانستان وتغلبوا على السكان الأصليين ذوى البشرة الداكنة وكونوا بذلك الهند الحديثة التى تتعدد فيها الألوان مع غلبة العنصر الأبيض فيها . بل إنهم فعلوا الشىء

ذاته فى أوروبا قبل ذلك بآلاف السنين حين أبادوا النياندرتاليين المساكين إبادة تامة .

وواضح أن البيض يتمتعون جميعا ببشرة فاتحة ، ولكن بعضهم ذهب بعيدا فى ذلك ، على ما يظهر فى حالة الشقرة ، بمعنى أن البشرة الناصعة البياض والعيون الزرق والشعر الأشقر تظهر — كلها معا فى الأغلب — بكثرة حول أحد المراكز الهامة فى شمال وشرق أوروبا ، كما قد يوجد بعضها دون البعض الآخر فى مناطق أخرى . وربما كان السبب فى ظهور البشرة الفاتحة الأساسية، وكذلك الشقرة الزائدة هو — كما ذكرنا من قبل — فائدة البشرة الرقيقة — أو على الأقل عدم ضررها — فى الأجواء الملبدة بالغيوم التى خيمت على أوروبا وآسيا إبان الفترة الطويلة التى استغرقها الانحسار الجليدى الأخير وبعد انتهائه أيضا . ولكن حتى لو صح ذلك فليست لدينا فكرة محددة عن مدى السرعة التى قد تتم بها التغـــيرات التطورية

المناطق الرئيسية للنماذج السلالية الأساسية (مع التبسيط الشديد)

— حتى مثل هذا التغير الطفيف . فلسنا نعرف مثلا إذا كانت الشقرة قد شاعت بسرعة بين شعوب العصرين الحجرى الوسيط والحديث أو أنها

قد بدأت فى الظهور والانتشار فعلا بين أوائل الغزاة الذين كانوا يصنعون النصال فى العصر الحجرى القديم الأعلى . وعلى الرغم من كل هذه الحيوانات الرائعة التى رسمها فنانو العصر الحجرى القديم، فلم يعثر إلا على صورة واحدة متقنة لرجل رسمت بالنحت البارز وترجع إلى العصر المجدلينى . وقد عثر عليها عام ١٩٤٩ فى آنجل سير آنجلان Angles - sur - Anglin بفرنسا ، وهى لرجل أبيض ذى عينين سوداوين وشعر أسود كذلك (وأنف ضخم) . ولكن هذا لا يدل على شىء ، لأن معظم الفرنسيين الآن لهم نفس هذه السمات .

وللصينيين أيضا عيون سود وشعر أسود كما يحتفظون بكثير من السمات المميزة للسلالات المغولية ، مثل الشعر المستقيم المسترسل واللحية الخفيفة المتناثرة ، وأهم من هذا كله الوجه المسطح ذو الأنف الأفطس الصغير والعيون المائلة بسبب انثناء الجلد فوق الركن الداخلى لفتحة العين . وليس لكل الصينيين تلك الملامح ، كما أنه ليس لكل الاسكندينافيين شعر أشقر وعيون زرق . أضف إلى ذلك أن المركز الحقيقى لهذا النوع من الوجه المغولى المتطرف يوجد — على ما يبدو — فى سيبيريا وفى المناطق القطبية التى يسكنها الإسكيمو . ولقد دلل الأساتذة كون وجارن وبيردسل بدقة على أن تلك السحنة هى الشكل النهائى الذى اتخذه أحد الملامح السلالية نتيجة للملاءمة التطورية . فلو أردنا أن نعيد تشكيل وجه شخص ما لكى نحميه من البرد فسوف نصل فى النهاية إلى وجه الإسكيمو .

والبرد فى سيبيريا الآن قارس عنيف . أما فى الطور الجليدى فكانت طبقات الجليد تحيط بها وتتخللها ولكن دون أن تكسو كل أرضها ؛ بل بقيت هناك بقعة عارية من الأرض تمكن صيادو الحيوانات فى العصر الحجرى القديم من المعيشة فيها — مع ارتداء الملابس المناسبة — ولكنهم لم يكونوا يستطيعون الخروج منها . فهناك إذن كانت تتمثل عملية الانتخاب والصراع

من أجل البقاء بطريقة يثلج لها صدر داروين نفسه . لقد ظل الناس طيلة آلاف السنين معرضين لخطر تجمد الوجه والعيون والتهابات الجيوب الأنفية والالتهاب الرئوى . ومن المسلم به أن البرد لم يقض عليهم جميعا بل عمل على العكس على تطوير وجوههم بالتدريج بحيث أصبحت أشبه بالقناع الواقى ، فلقد زاد انخفاض الحاجبين وتسطحهما مما ساعد على ضمور الجيوب الموجودة فوق العينين — وهى تعتبر دائما من مناطق الخطر — واختزنت محاجر العينين مزيدا من الشحم حول العينين ، كما أن تكوين طبقة الجلد البارزة كان بمثابة وقاية إضافية ضد العمى الذى ينشأ عن الثلج وضد الصقيع . كذلك أصبحت عظام الوجنتين أعرض وأكثر نتوءا أو « ارتفاعا » ، وساعد ذلك على حماية العينين وجانبى الأنف الذى انخفض هو ذاته واستطال وضاق (كما هى الحال عند الإسكيمو) . وقد أدى هذا التغير ، وكذلك تكاثر الشحم على الوجنتين ، إلى وقاية مسلك الهواء فى الأنف ، وإلى حفظ الجيوب داخل الخدين . وأخيرا فإن مساحة الجلد التى تتعرض للتجمد ولهجمات البرد القارس تكون أقل ما يمكن فى الوجه المسطح العريض . يضاف إلى هذا كله أن الشوارب أصبحت أكثر خشونة وتناثرا ، وقد يكون من الأفضل ألا يكون للمرء لحية إطلاقاً ، حتى لا تتدلى من لحيته قطع الجليد التى تتكاثف عليها من تنفسه .

فنحن نزعم إذن أن ذلك الوجه الخاص الذى يكاد يكون علامة مميزة للسلالة المغولية ظهر تحت ظروف قاسية ، فهو يعتبر نعمة فى حالة البرد الجاف القارس ، ولكن لا يبدو أنه يسبب أية متاعب فى أنواع المناخ الأخرى . ومن المؤكد أنه لا توجد ظروف قاسية أخرى تكفى لتغيير ما أحدثه البرد . ولذا كان ذلك الوجه صالحاً تماماً للتصدير بمجرد أن انحسرت الثلاجات ، وبذلك انتشرت تلك السلالة المغولية المتميزة نحو الجنوب حتى وصلت إلى المناطق المدارية ذاتها حاملة معها معالم وجهها التى كانت تمنحها

بقدر للشعوب الأصلية التى اتصلت بها وتزاوجت معها . وقد ظلت سيبيريا وكوريا هما موطن ذلك الوجه ، ولكن الصينيين استحدثوا منه أشكالا أقل وضوحا وتميزا ، كما أنه ينتشر فى كل أنحاء آسيا . والواقع أنه يعتبر خاصة مميزة لبعض الشعوب المدارية فى الفلبين وبورنيو ، وإذا استثنينا عظام الوجنتين العريضة على العموم ، فإن ملامح الوجه المختلفة (الأنف الأفطس والوجه المفرطح المستدير وكذلك طيات العين ، ثم عظام الحجاجات الرقيقة) توجد — ولكن بدرجة أقل شيوعا — بين الهنود الحمر ، ولكنها تظهر بكل قوتها عند الإسكيمو وبذلك تميزهم فيزيقيا عن بقية أهالى أمريكا .

ولكن إذا كان بعض البيض يزدادون شقرة ، وكان المغوليون أيضا يؤكدون خصائصهم المغولية طيلة السنوات الخمس والعشرين ألفا أو الخمسين ألفا الماضية ، فإنه يحق لنا أن نتساءل عما إذا كانت هاتان السلالتان أقوى شبهاً فى الماضى إحداهما بالأخرى ، أو أن نبحث على الأقل فى أصل نشأتهما . أما فيما يختص بالسلالة المغولية ، فإننى أعتقد أن الأصل الأول الذى نشأت منه كان شيئاً أقرب إلى الهنود الحمر الذين يتميزون بالشعر الأسود المسترسل وبالعيون البنية الداكنة والوجوه العريضة كما يتميزون عادةً بالجباه الضخمة وأحيانا بالأنوف البارزة ، ولكن قلما تظهر عندهم تقاطيع الوجه المغولى فى قمة تطورها . وتتفاوت نماذج الهنود الحمر فى الأمريكتين تفاوتاً كبيرا بحيث يصعب تصنيفهم سلاليا ، وإن كانوا بالتأكيد أقرب إلى السلالات المغولية الآسيوية منهم إلى أية سلالة أخرى . ومن السهل أن نتصور أنه كان يقيم فى آسيا فى أواخر العصر الحجرى القديم شعب قريب الشبه بهم ، كان يتألف من زمر صغيرة تعيش على صيد الحيوان — على ما يفصل الأستراليون والبوشمن والجماعات الأورينياكية — فعبر فريق منهم مضيق بيرنج إلى أمريكا ، بينما حاصرت الثلوج فى سيبيريا الفريق الآخر ، وخضعت وجوههم لذلك التطور السريع .

وثمة بعض حقائق تسوغ قيام مثل هذه التخيلات . من ذلك أنه لا تزال توجد فى جنوب آسيا والتبت على الخصوص شعوب كثيرة تشبه الهنود الحمر شبها قويا ، أو على الأقل لا تظهر فيها الملامح «المغولية» بشكل واضح. ويمكن اعتبارها فروعا لذلك الشعب القديم ولكنها لم تخضع للهجرات ولا لعملية الانتخاب . ومن ذلك أيضا الجماجم الثلاث التى عثر عليها فى الكهف العلوى فى شوكوتين Choukoutien بالصين — وهى نفس مجموعة الكهوف الموجودة فى الموقع رقم ١ ، أعنى كهف إنسان بكين ولكنها ترجع فى هذه الحالة إلى العصر الحجرى القديم الأعلى . وإحدى تلك الجماجم تبدو أقرب إلى الجماجم المغولية ، والمعتقد أن الثانية تشبه جماجم السلالات المتزنجة بينما تمتاز الثالثة — وهى جمجمة ذكر ضخم — بوجود حجاجات غليظة وفك كبير ولكنها تكاد تختلف كثيرا عن جماجم الأوروبيين فى العصر القديم الأعلى أو جماجم بعض قبائل الهنود الحمر . إلا أننى لا أستطيع أن أتصور — مثلما يفعل بعض زملائى — وجود أى نوع من العرف بين السلالات فى ذلك الكهف أو حدوث التزاوج بين الشعوب المختلفة فى العصر الحجرى. وكل ما أستطيع أن أراه فى تلك الجماجم هو الصورة العامة غير المحددة التى تتخذ أشكالا متغيرة والتى قد يحتفظ أفرادها ببعض أوجه الشبه مع النماذج السلالية الأخرى كالمتزنجين ، على ما يظهر بشكل واضح فى مجموعة من جماجم الهنود الحمر عثر عليها فى إحدى القرى الحديثة . واعتقادى هو أن سكان الكهف العلوى هم من الهنود الذين كانوا يستوطنون الصين فى ذلك الحين .

ومحاولة رد المغوليين إلى سلالة تشبه هنود أمريكا تجعلهم بدورهم أقرب إلى الجنس الأبيض ، ولكنها لا تجعل من البيض والهنود شيئا واحدا. فلا يزال هناك اختلاف بين الاثنين ، ولكننا لا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك . فنحن نعرف الشعوب البيضاء منذ بداية العصر الحجرى القديم

الأعلى حين وصلت إلى أوروبا ، ولم تكن صورتها حينذاك أكثر بداءة فى الواقع من صورتها الحالية . ويبدو أنها جاءت من غرب آسيا أو من الشرق الأدنى . ولكن إذا صح هذا فإنه لا يعنى أنها كانت توجد فى ذلك الجزء من آسيا فقط،أو أنها كانت مجرد أحد طرفى سلسلة من الشعوب ذاب طرفها الآخر تدريجيا فى « الهنود » .

ذلك لأن هناك علامات واضحة على وجود شعوب « بيضاء » تماما فى الشرق الأقصى . وإحدى هـــذه العلامات هى الإينو Ainu وهم السكان القدامى للنصف الشمالى — على الأقل — من اليابان . والإينو سمر الوجوه ولكن شعرهم غزير وملامحهم « بيضاء » بلا جدال . وثمة علامات أخرى عند بعض الشعوب التى يبدو أنها انحدرت من أصول سلالية مختلطة — ويدخل فيها العنصر الأبيض — كما هى الحال عند اليابانيين وكثير من الجماعات فى جزر الهند الشرقية ثم على الخصوص عند البولينيزيين فى كل الجانب الشرقى من المحيط الهادى بين هاواى ونيوزيلنده والذين جاءوا أصلا من جنوب آسيا . وعلى ذلك يبدو أن الشعوب البيضاء توغلت فى الشرق الأقصى فى شمال الهند وفى الجبال ، ولعلها وصلت إلى جنوب المنطقة التى كان يتردد عليها أسلاف الهنود والمغوليين ، وربما كان ذلك قبـــل أن تنتشر تلك الشعوب الأخيرة هناك بشكل كاد يقضى تماما على البيض الشرقيين .

ولا نكاد نعرف شيئا عن ماضى السلالات البشرية قبل ذلك . والوسيلة الوحيدة لزيادة معرفتنا به هى البحث الأركيولوجى الطويل الشامل الذى قد يحقق بعض الاكتشافات الموفقة . فقد نستطيع الحصول على معلومات كثيرة جدا من جمجمة واحدة فقط إذا عثر عليها فى الظروف والملابسات الملائمة . ومن المعروف أن إحدى السلالات البيضاء كانت تعيش فى منتصف الحقبة الجليدية الأخيرة فى مكان ما من غرب آسيا ، ومن الجائز جدا أن

تكون السلالات المغولية التى تشبه الهنود قد عاشت هى أيضا فى ذلك الوقت ، وإن سكان أستراليا الأصليين كانوا يقطنون جنوب آسيا بل وربما أستراليا ذاتها . وقد يمكن القول بأن السلالة المغولية الخاصة — التى نسميها عادة بالسلالة النموذجية والتى تتميز بالوجه المفرطح — كانت آخذة فى التكوين منذ ذلك الوقت ، وأنها أوفدت ممثليها فى العالم الجديد بين الإسكيمو فقط ولكن بعد أن سبقتها إلى هناك جماعات الهنود الرئيسية الذين تتميز قسمات وجوههم بالرقة . أما عن الزنوج والمتزنجين فلا نعرف شيئا على الإطلاق .

ولا جدال فى أن حركة الشعوب المستمرة هى أحد الأسباب الرئيسية التى تجعل من الصعب تحديد طريقة ومكان نشأة السلالات . فالنماذج السلالية الرئيسية لم تنتقل مرة واحدة فحسب لتستقر بعد ذلك فى أماكنها الحالية، بل إن التغيرات الثقافية وتقلبات المناخ كانت تضطرها إلى الانتقال من حين لآخر . ومن السفه أن نغفل تلك التغيرات المعقدة التى أدت فى بعض الحالات بغير شك إلى إحلال شعب على شعب آخر على ما حدث فيما يبدو للنياندرتاليين الأواخر نتيجة لوفود موجات متتابعة من الأوروبيين فى العصر الحجرى القديم الأعلى . ولا جدال أيضا فى أن المناخ قد ساعد بطريقة ما ، بل وشجع جماعات الصيادين المتشابهة على الانتقال عبر ما يعرف الآن باسم مضيق بيرنج إلى أمريكا الشمالية . وقد بدأت هـــذه الحركة بعد أن غزا إنسان الكرومانيون أوروبا بقليل . ولقد رأينا كيف أن التأثيرات الأولى لثقافة العصر الحجرى الحديث قد انتشرت فيما بعد فى أوروبا قادمة من الشرق الأدنى ، ثم أعقبتها هجرات الزراع الدانوبيين الذين جلبوا معهم ثقافتهم الزراعية المتطورة وتمكنوا من استغلال الأرض بطريقة مختلفة وأكثر جدوى من أقوام العصرين الحجريين القديم والوسيط .

ولا بد أن يكون التقدم الثقافى قد فتح أمام الإنسان ميادين وآفاقا جديدة ، أو غير المناطق الريفية ذاتها حين مكن الإنسان استغلالها بطريقة

مختلفة وجديدة دون أدنى اعتبار للتغيرات المناخية مثل انحسار الجليد أو تراكم وامتداد الغابات أو انكماشها . ونحن نعرف أنه على الرغم من عظمة العلم الحديث فلا تزال هناك أجزاء فسيحة من العالم مستعصية علينا . فنحن لم نكد نتفوق على الإسكيمو فى إدراك فائدة المنطقة القطبية ، كما أن الأمم تتنافس فى امتلاك مساحات صغيرة من القطب الجنوبى دون أن تعرف هدفها من ذلك . ولا يزال الرى يبشرنا بامتلاك ناصية الصحراء ، كما أننا لا نزال قانعين بترك جانب كبير من الغابات المدارية فى أمريكا الجنوبية للهنود . وهذا ينطبق على كثير من الأراضى القريبة من القطب . فنحن لا نتوغل فيها إلا بقصد استغلال أماكن معينة فيها كأن نعثر على الفحم فى سبيتز برجن مثلا أو على اليورانيوم حول بحيرة الدب الأكبر ؛ ولكننا لا نعتبرها مواطن إقامة بمعنى الكلمة ، ولا ننفعل بها إلا كما ينفعل الصيادون مثلا بأجود الأراضى الزراعية ، أو كما ينفعل الصيادون والفلاحون بالمرافىء البحرية الطبيعية العظيمة أو بمراكز الفحم والحديد فى إقليم السار أو فى منطقة الغرب الأوسط الأمريكية .

وعلى ذلك يمكن القول عن ثقة ويقين بأن الهجرات والهجرات المضادة عرفت منذ العصر الحجرى القديم ، ولكنها زادت فى العصور الحديثة . وعلى أية حال فإن الشعوب « النيوليثية » فى العالم الحديث — ونقصد بذلك معظم القبائل المعروفة التى نزعم أنها بدائية — هى خلاصة كل تلك التطورات التى أشرنا إليها .

١١
آسيا والفلاحون الغربيون

أغلب الظن أن رواد جنوب غرب آسيا الذين وفدوا من الشرق الأدنى فى العصر الحجرى الحديث (وقد عثر أخيرا فقط على قراهم الأولى) ابتكروا ثقافة جديدة تتفق مع الحبوب والماشـــية التى كان تم تدجينها أو استئناسها منذ عهد غير بعيد. ولدينا بالطبع معلومات كثيرة عن بيوتهم التى كانت تبنى من الطين، ولكننا لا نستطيع أن ننقب بالمثل عن عادات الزواج عندهم مثلا، وإن يكن من السهل الاستدلال عليها. فالتماثيل الصغيرة التى عثر عليها فى كثير من الجهات (وكلها ترجع إلى عصر متأخر نسبيا) تبين لنا أنهم كانوا يرتدون ملابس بسيطة فضفاضة تتألف فى الأغلب عند الجنسين من إزار قصير يلف حول النصف الأسفل من الجسم وشال يوضع فوق إحدى الكتفين ويمر تحت الإبط الآخر، وأنهم كانوا يميلون إلى تزيين أجسامهم بمختلف الرسومات.

أما من الناحية الاجتماعية فالظاهر أنهم كانوا يعطون أهمية بالغة للذكور ولأهل الأب، وكان يتولى تصريف الأمور فيهم حكام أقوياء إن لم يكونوا مستبدين. ولسنا نعلم ذلك على وجه اليقين، إلا أن مثل هذه الأفكار كانت منتشرة فى عدد كبير من ثقافات الغرب، بل إننا نحن أنفسنا لا نزال ننظر إلى منح المرأة المساواة البسيطة على أنه من أنبل وأكرم ما حققته المدنية، وليس على أنه هو الشىء الطبيعى. كذلك نجد فى مجال الدين — إذا أمكن الحكم مما نعرفه عن النرويجيين واليونان والهنود — أن الثقافة القديمة كانت تعلى كثيراً من شأن فئة من المعبودات القوية المستمدة من مظاهر الطبيعة والتى كانت تميل هى ذاتها إلى أن تعيش فى شكل عائلة. وعلى أية حال فإنه

يمكن القول بأن نواة هذه المعتقدات وأمثالها ظهرت فى المراحل المبكرة من نشأة هذه الثقافة .

وقد أصبحت تلك الثقافة صالحة للانتشار بعد أن استكملت شكلها . وقد انتشرت بالفعل ووصلت — على ما رأينا — إلى مصر وشمال أفريقيا ثم إلى أوروبا بعد ذلك ، كما أنها استقرت فى أمريكا وأخذت تتغير بمرور الزمن محتفظة فى بعض الجهات بشكلها البدائى الساذج ، ولكنها تقدمت فى جهات أخرى بحيث أصبحت فى النهاية هى القالب الذى صبت فيه المدنية الأمريكية . ولكن هذا سبق للحوادث ، ولذا فقد يكون من الأفضل أن ننظر فيما حدث لها فى بقية أنحاء آسيا ذاتها .

الهند ونظام الطوائف

وقد رحلت هذه الثقافة إلى الهند أيضا ، ولكن من الصعب تتبع الطرق التى سلكتها ، لأننا لا نكاد نعرف شيئا عن عصور ما قبل التاريخ هناك . وسوف يضيف حل طلاسم تلك العصور معلومات كثيرة إلى ما نعرفه عن الماضى . ففى الهند التقى الشمال بالجنوب والشرق بالغرب ، وتمخض ذلك عن ظهور ثقافة متعددة الجوانب وقيام نسق اجتماعى يرتبط ارتباطا وثيقا بنظام الطوائف . وقد بلغ هذا النظام درجة من التعقيد تجعله يبدو الآن أسوأ أعداء نفسه .

والذى حدث بالفعل هو أن بعض البيض من بلاد فارس وما بين النهرين (أى إيران والعراق الحديثين) نزحوا بمحصولاتهم وحيواناتهم إلى غرب الهند حيث التقوا بشعوبها السمر المنحدرين من أصول مترنجة وشبه أسترالية ، والتى كانت لا تزال تعيش على القنص كالفيدا فى سيلان . وربما لم تكن هذه أول مرة يفد فيها البيض الغربيون بشكل من الأشكال ، ولكن سواء أكانت هذه الحركة هى بداية أم استمرارا لحركة سابقة ، فالشىء المؤكد هو أن الطرز السلالية امتزجت بعضها ببعض ، وانتهى الأمر بتغلب

وسيطرة السلالة البيضاء عليها ، وظهر بذلك نوع من التدرج من اللون الفاتح فى الغرب إلى اللون الداكن فى الشرق والجنوب .

وقد أدت الفلاحة ذاتها إلى إدخال أنواع جديدة من الحيوانات والطعام حلت محل القديمة . فقبل عام ٢٥٠٠ ق م . كانت هناك حضارة هامة فى أقصى الغرب ، أعنى فى وادى السند ، وكانت تؤلف — على ماسنرى فيما بعد — جزءا من حضارة جنوب غربى آسيا (الشرق الأوسط) ، ولكنها كانت تعرف بالفعل الفيلة والحيوانات المسنمة والجاموس والدجاج ، وقد وفدت كلها من الناحية الأخرى أى من الشرق . كذلك أخذت الهند تستخدم القطن بدلا من صوف الغنم كما عرفت الأرز وغيره من الحبوب . ولكن هل أدخلت هذه الأشياء ياترى على أيدى المهاجرين النيوليثيين أنفسهم بفضل خبرتهم بشئون التدجين ، أو هل وصل بعضها مدجنا بالفعل من جنوب شرقى آسيا ؟

وقد بلغت الهند الحديثة ، بكل ما حققته من تقدم فلسفى وفنى ، درجة من التعقيد لانستطيع معها أن ندرسها هنا برمتها . ولذا فسوف نقصر حديثنا عن طوائفها التى تؤلف نسقا اجتماعيا فريدا . وليس ثمة ما يدل على أن الطوائف — فى صورتها الحديثة على الأقل — عريقة فى القدم . وقد اعتقد البعض أنها ظهرت فى الأصل نتيجة لاختلاط السلالات ، أو أنها نشأت مع الجماعات الطوطمية فى العهود البدائية . وربما تكون الطوائف قد وجدت بالفعل فى مدن السند القديمة ، ولكن فكرة الطائفة تدين بظهورها — من الناحية التقليدية — إلى الآريين الذين غزوا الهند حوالى عام ١٤٠٠ ق.م ، وهم شعب همجى من سكان القرى وفدوا من إيران (وهى تماثل كلمة «آرى») بعد حضارة السند بزمن طويل . ويرجع الفضل فى معرفتنا هذا الشعب إلى ترانيم الفيدا ، وهى ذلك السجل العظيم الرائع الذى جعل للغتهم — اللغة السنسكريتية المبكرة — أهمية قصوى بين أقدم صور اللغات « الآرية »

أو الإندو أوروبية . (والواقع أن اكتشاف هذه العلاقة اللغوية كان هو السبب فى أن أصبحت كلمة « آرى » تطلق خطأ على إحدى السلالات المزعومة التى يذهب البعض إلى أنها قامت بتمدين اوروبا أثناء فترة غير محددة تماما وبطريقة غير معروفة . ولكن هذا هو المثال الكلاسيكى للخرافة التى تؤدى فائدة سياسية عظيمة) .

وقد ميز الآريون بين أربع طوائف هى : رجال الدين والحكام والمزارعون والخدم . وبذلك يكونون قد أسسوا النظرية التى تنادى بضرورة تقسيم الناس حسب مهنهم وأعمالهم . وليس من شك فى أن المهنة هى التى أدت فى العصور الأخيرة إلى ظهور كل هذا العدد الكبير من الطوائف الحديثة مثل طائفة الحمالين وطائفة السائقين . وإذا كنا لا نجد للآن طائفة المشتغلين بإصلاح أجهزة التليفزيون فسوف تظهر هذه الطائفة عن قريب . ومهما يكن من سبب ظهور الطوائف فى مبدأ الأمر فإن كروبير Kroeber يفسر وضعها الراهن بقوله :

« من الواضح أن التفسير العنصرى تفسير قاصر . صحيح أن الطوائف تمثل السلالة إلى حد معين ، ولكنها تمثل أيضا القوميات والقبائل والموطن المشترك والتمييزات الدينية والمهن والمستوى الثقافى .

فكل ما من شأنه أن يميز جماعة من الجماعات بشكل ما يكفى لأن يجعل منها طائفة فى الهند . وإذا تباينت الجماعات داخل إحدى الطوائف الموجودة فعلا فإنها تؤلف بدورها طوائف صغرى قد تنمو وتتطور فى النهاية إلى طوائف منفصلة تماما . فرجال الدين والكتبة وصيادو السمك والكناسون يؤلفون طوائف ، كذلك البارسيون ، وكذلك أيضا القبائل التى تسكن التلال والتى لا تزال تتمسك بعاداتها القديمة . فعشائر التودا الدرافيدية التى تعيش على لبن الجاموس مثلا تحتل مركزا اجتماعيا عاليا . فواضح إذن أن لدينا هنا نسقا جامعا شاملا ، أو نمطا لتنظيم المجتمع ، يضم كل أنواع الجماعات

فى شكلها الراهن . فالطائفة إذن طريقة للتفكير عمل الهندوس على تعميمها .

فالسر فى وجود الطوائف إذن هو أنها «نمط لتنظيم المجتمع» . ولا يمكن لأى سبب آخر أن نعطيها كل هذه الأهمية . وقد يبدو غريبا بالنسبة لنا ولأفكارنا أن نرى كيف يعيش الهندى سجينا فى الطائفة التى يولد فيها ، وكيف تعيش الطوائف ذاتها منعزلا بعضها عن بعض . فالظاهر أن غرضها الأساسى هو أن تحافظ على تميزها ، إذ يتعين على الرجل أن يتزوج من طائفته ذاتها وإلا عرض نفسه للطرد منها ، وهو أمر خطير ، كما يتعين عليه أن يراعى المطالب الشعائرية الخاصة بطقوس الطائفة وطهارتها والتى تشتد وتقسو كلما ارتفع مركزها . فالطائفة العليا يحرم عليها لحم البقر والخنزير وشرب النبيذ ، كما قد يتحاشى أفرادها كثيرا من أنواع الطعام الأخرى ، أو يتبعون طرقا خاصة فى طهوها ويخضعون لقواعد صارمة تتعلق بالنساء والزواج . فالمرأة تحيا فى عزلة تامة ، والأرملة لا تستطيع الزواج مرة أخرى ، والطلاق غير مسموح به على الإطلاق .

ويعيش أفراد الطوائف الدنيا عيشة أقل صرامة تبيح لهم أن يأكلوا أنواعا أكثر من الطعام ويقوموا بالأعمال التى يأنف منها الهندوس فى الطوائف العليا . كذلك هم أكثر تحررا فيما يتعلق بزواج الأرملة وما إلى ذلك ، كما أن العقوبات التى يفرضونها على الجانى أو المخطىء تكون أقل صرامة وقسوة . ولكن هذا التحلل ذاته يلقى على الطائفة شيئا من «الدناسة» ، لدرجة أن أفرادها قد يلوثون طعام الطوائف العليا الذين يشتغلون كخدم فيها بسبب الطعام الذى يحشرونه فى بطونهم .

ولذا كان لا بد لأفراد الطوائف العليا من أن يراقبوا عملية طبخ الطعام والذين يقومون بالطبخ . وقد يبلغ سلوك الطائفة الدنيا حدا من التحرر والإسراف ، أو قد تكون الدناسة التى تلحق بها آليا من المهنة التى تمارسها عالية بحيث تصبح منبوذة من المستويات العليا ، أى إنه تفرض

قيود على الاتصال بها خشية أن تعلق الدناسة بالشخص الأسمى مكانة ، وتضطره لأن يمر ببعض شعائر التطهير .

فكأن الطوائف تترتب فيما بينها تبعا لنظام تحدده التقاليد ، وفيه تدفع الطوائف العليا ثمن مكانتها الاجتماعية بمراعاة قواعد العرف وإنكار الذات إنكارا تاما . ولا تهيء الطوائف لأفرادها إلا منافذ قليلة ضيقة لا تتيح لهم الإفلات منها بسهولة ، وتزداد قسوة الآثار المرتبة على الخروج على الطائفة كلما كان مركزها عاليا . ولكن قد يطرأ تغير بسيط على مركز الطائفة ذاتها ، فقد يقضى مجلس إحدى الطوائف المحلية بتحريم زواج الأرامل وبأن تتصرف بطريقة معينة تحقق لها مستوى أعلى من الطهارة وبذلك تكفل لنفسها مركزا أسمى فى نظام الطوائف . ولكنها لا تكاد ترتفع كثيرا من هذه الناحية نظراً لتقيدها بالتقاليد وبمركز الطائفة ذاتها فى الجهات الأخرى .

وقد يبدو انغلاق الطوائف على نفسها أشبه شىء بالصراع من أجل تحقيق العزلة التامة لكل منها .

ولكن المجتمع الذى يستطيع أن يفتت نفسه بالفعل إلى أجزاء صغيرة منفصلة هو مجتمع غريب شاذ . والواقع أن نظام الطوائف الهندية نشأ لكى يحقق — على العكس من ذلك — أجزاء يستطيع أن يتلاءم بعضها مع بعض بطريقة مجدية نافعة . صحيح أنه يحدد الأجزاء تحديدا واضحا دقيقا، ولكنه — وهذا هو الوجه الثانى للمسألة — يعين موضع كل جزء من تلك الأجزاء ووظيفته . فلكل طائفة مهنها الخاصة التى تملك الحق فى ممارستها ، وهى مسائل مقررة راسخة بدرجة تتمناها لنفسها اتحادات العمال . وسواء أكانت الطائفة تمارس فلاحة الأرض أم الخدمة فى المنازل أم غسل الملابس أم صنع الفخار أم سبك الحديد أم حلاقة الشعر ، فإنها خليقة بأن ترث الحق فى أداء تلك الخدمات ، بل وأن ترث العملاء أيضاً ، وبخاصة من بين

أفراد الطائفة العليا التى تملك الأرض(١) . والواقع أن هذه الطائفة الأخيرة تعتبر بمثابة المحور الذى يدور حوله النظام كله ، فهى تستفيد إلى أبعد حدود الاستفادة من خدمات الطوائف الأخرى ، وفى مقابل ذلك تمدها بالطعام (علاوة على المعاملات المالية) كما تمنحها حق الانتفاع بالأرض وما إلى ذلك وهكذا يؤدى كل فرد عمله الخاص المعين دون أن يطمع أبدا فى القيام بأى عمل آخر ، وبذلك يسير الأمر كله فى انسجام وتوافق دقيقين .

فهذه إذن طريقة لتنظيم المجتمع ، ولكنها تغالى بعض الشيء فى توكيدها للوحدات الاجتماعية (الطوائف) التى تعتمد عليها . وهى طريقة غريبة بالنسبة لنا نحن لأنها لاتهيء للفرد أى مجال لتنظيم حياته أو تغيير وضعه ، كما أنها تنكر على المجتمع كله أية فرصة للتقدم بتمكين طبقات الشعب — واحدة بعد الأخرى — من أن تحقق مطالبها الخاصة وتوجه قواها وجهات جديدة مثمرة فى الوقت الذى تتفاعل فيه كلها معا ، على ما يحدث فى مجتمعاتنا . فنسق الطوائف إذن يبدو — فى أسوأ صوره — نسقا استاتيكيا جامدا ؛ أما فى أحسن صوره فإنه يقضى بانحصار كل مظاهر الحياة فى الطائفة وحدها وهو بذلك يعكس الفلسفة الهندية التى لا تقدر التغير بقدر ماتهتم بالقدر المحتوم . فلكل امرىء وضع معلوم يرضى به كما يرضاه الناس له باعتباره المكان الصحيح الذى يلائمه والذى يوفر له الطمأنينة الاجتماعية والشخصية التى نفتقدها فى المجتمعات الأخرى حيث تعتبر مهنة الفرد من شئونه الخاصة .

وهذا يتيح لنا فرصة طيبة لإصدار بعض الأحكام ، ولكننا لن ننتهزها

---

(١) يجد القارىء عرضا ممتازا لهذا النسق فى الفصل الذى كتبه موريس أوبلر Morris Opler وردرا دات سنغ Rudra Datt Singh بعنوان "The Division of Labor in an Indian Village" وهو الفصل السابع عشر من كتاب A Reader in General Anthropology الذى أشرف على تحريره كارلتون س . كون .

هنا . والمسألة ببساطة تتلخص فى أن نظام الطوائف هو طريقة ناجحة لتنسيق المجتمع وإن كانت تختلف عن طريقتنا . وليس من شك فى أنها ظهرت بعد نهاية العصر الحجرى الحديث، ولكننى تعرضت لها هنا لأنها تتصل بإحدى المشكلات التى واجهتها الشعوب النيوليثية حين أدت وسائلهم الجديدة لإنتاج الطعام إلى زيادة حجم مجتمعاتهم فى آخر الأمر زيادة كبيرة جدا عما كانت عليه جماعات الصيد أو جماعات النمادين العاوية ، ونقصد بذلك مشكلة الحد من تضـــخم الجماعات الكبيرة والمحافظة على فاعليتها الاجتماعية والاقتصادية . وهذا هو معنى التنظيم الاجتماعى فى هذه المرحلة الجديدة .

الرعاة فى الصحراء ومناطق الاستبس

ونترك الهند لنعود إلى جنوب غربى آسيا وإلى العصر الحجرى الحديث، أى من حيث بدأنا . فنظام الزراعة الذى ظهر فى تلك المنطقة أخذ ينتشر بكل نباتاته وحيواناته إلى المناطق الأخرى ، ولكن الناس فى بعض أجزاء نطاق الحشائش الجاف الذى يمتد عبر أواسط آسيا وبلاد العرب (ثم إلى داخل إفريقيا) وجدوا فى آخر الأمر أن الأفضل لهم أن يعتمدوا فى معاشهم على الحيوانات لا النباتات . وبذلك ظهرت حياة الرعى كفرع خاص من تلك القاعدة النيوليثية . وقد حدث تطور مماثل فى بلاد العرب فى فترة متأخرة بعض الشىء ولكنه حقق نتائج باهرة .

كانت بلاد العرب أقل جفافا فى الماضى ، وكان جزء كبير منها يسكنه فلاحون يزرعون الأرض بانتظام كما هو الوضع حتى الآن . ويعيش بعض هؤلاء الفلاحين بالقرب من منطقة الحشائش حيث يمارسون الزراعة ، ولكنهم يتركون قراهم فى فصل الشتاء المطير ويتنقلون بقطعانهم من الغنم والماعز خلال منطقة الحشائش على حافة الصحراء ، بينما يقيمون هم أنفسهم أثناء ذلك فى الخيام . ولكن بعضهم ، وهم البدو ، يسكنون الصحراء ذاتها

فى معظم الأحيان ، وإلى هؤلاء تنصرف أذهاننا فى العادة حين نتكلم عن العرب .

ثقافات آسيا

وقد ذللت الإبل ذلك ، فقد استؤنست الجمال بعد الحيوانات الأصلية بوقت طويل . واستخدمها العرب فى عهود التوراة قبل القرن الثانى عشر قبل الميلاد . والآن أصبح الجمل هو سفينة الصحراء على ما سمعتم بلا ريب ، كما أصبح هو وسيلة النقل والتجارة . وقد وجه العرب البدو حياتهم بحيث أصبحوا يعتمدون من الناحية العملية اعتمادا مطلقا على الجمل . وكونوا بذلك ثقافة تستطيع أن تعيش فى منطقة الحشائش الفقيرة التى لا تلائم الزراع الآخرين ، بل وأن تنتقل عبر الصحراء الرملية ذاتها . وتقتصر منتجات البدو على الإبل وألبانها ، فيشربون اللبن ويبيعون الإبل ذاتها للشعوب التى تقيم خارج الصحراء ، إذ يمضون بينها شهرا أو نحو ذلك كل عام ، ويحصلون فى مقابلها على صنوف الطعام الأخرى كالغنم والحبوب والبلح والبن . ولكن توجد (أو كانت توجد) إلى جانب ذلك بنود أخرى فى الميزان الاقتصادى مثل فرض الإتاوات على القبائل والقرى الأخرى والإغارة على منتجعات غيرهم من البدو لسرقة الإبل والخيل .

ويوجد فى المتجمعات سباكون للحديد وعبيد، بل و بعض الباعة المتجولين، ولكن الحياة تدور حول الإبل التى تعتبر تربيتها مصدر لذة وفخار للرجل. أما لذته الأخرى فيجدها فى القتال والإغارة. ولا يكره البدو بحال أن يتعرضوا هم أنفسهم للإغارات، بل إنهم يحتفظون بعدد من الجمال البيض لأنها ترى بسهولة وعن بعد أكثر من الجمال العادية الرمادية، وبذلك تكون أقدر على جذب انتباه الأعداء وإغرائهم بالإغارة. ولكن هناك شيئا واحدا فقط له عندهم قيمة أعلى من قيمة الجمل وهو الحصان. فالخيل لا تصلح قط للسفر العادى فى الصحراء، وهذا معناه أنها تحتاج إلى كثير من العناية مما يزيد بالتالى من قيمتها، كما أنه لا يمكن الاستغناء عنها فى القتال والإغارات.

وهكذا كانت حياة البدو مهيأة وموجهة نحو مثلهم الأعلى وهو المقاتلة. فتعريض النفس للخطر، وإظهار الشجاعة، والتمادى فى نشوة النصر إلى حد أن يشرب الرجل من دم خصمه، كانت هى أقصى ما ينشده الرجل. وكان المجتمع البدوى يتبع النظام الأبوى، كما كان شيخ الجماعة أو القبيلة يشترط فيه أن يكون من قادة الحرب البارعين ويتمتع بسلطة قوية تقارب السلطة العسكرية.

ولقد ظهرت ثقافة رعوية أخرى أعم من ثقافة البدو بكثير وانتشرت فى سهول الحشائش ومناطق الاستبس من آسيا، وهى تشغل مساحة هائلة تمتد من أوروبا وموطن الفلاحة فى جنوب غربى آسيا حتى الصين. والفضل فى نشأة هذه الثقافة يرجع بلا نزاع إلى بعض الزراع الأولين الذين وفدوا من الشرق الأدنى، أو إلى الشعوب التى تعلمت الفلاحة هناك ثم لم تلبث لسبب من الأسباب أن انصرفت عن زراعة الحبوب وأولت كل اهتمامها للماشية. فليس المهم إذن هو اختفاء الزراعة من تلك المنطقة، إنما المهم هو ظهور نوع جديد من الثقافة الرعوية كان يدر على الناس أكبر ربح ممكن، كما يتمثل فى قدرتها الهائلة على الاحتمال وكذلك فى أهميتها التاريخية.

وربما كان ازدياد جفاف المناخ هو أحد أسباب نشأة هذه الثقافة، وربما

كان استخدام الحصان سببا آخر . فلم تكن الخيل من الحيوانات النيوليثية الأصلية . وليس من شك فى أن استئناس الحصان تم فى أواسط آسيا على أيدى الزراع الوافدين إليها . وقد استخدم فى الجر فى أول الأمر ثم أصبح يستخدم فى الركوب قبل عام ١٠٠٠ ق م. وربما يكون ذلك قد ساعد على إحلال مشكلات رعى الحيوانات الأخرى والانتقال وراء العشب ، مما أدى بدوره إلى ازدهار الحياة الرعوية ازدهارا كبيرا .

ولكنها حياة قاسية أيضا لا يقدر عليها إلا شعوب مثل المغول والقرغيز والقازاق . وتعتبر الخيل والغنم المصدرين الأساسيين للطعام عندهم ، ولكنهم يأكلون لحم الخيل فى المناسبات فقط بينما يعتمدون فى طعامهم اليومى على لحم الضأن . وكما يأكلون لحومها فإنهم يشربون ألبانها ويصنعون القمز Kumiss من لبن الفرس الذى يتركونه بعض الوقت فى قربة من الجلد بها قليل من القمز (التمر) القديم حتى يتخمر ويتحول إلى نوع من الجعة . ويمضى الناس الشتاء القارس فى مساكن دائمة محكمة ، ولكنهم يتركونها فى الربيع للبحث عن المراعى . فالحشائش الجديدة تجف بسرعة ، وبذلك يضطرهم البحث عن العشب الطرى إلى الحركة والانتقال المستمرين .

ومسكنهم الصيفى الذى يشتهرون به هو الـ « يورت yurt » ، وهو شىء أشبه بالخيمة المستديرة ، ويتألف من إطار خارجى مصنوع على هيئة شبكة يمكن أن تطوى . أو تجذب إلى الخارج وتنصب فى شكل دائرى ، وعدد من الأعمدة التى تربط كلها معا عند القمة وتشد إلى حلقة تستخدم لتصريف الدخان ، ويغطى ذلك كله بقطع من اللباد . وكأنما الناس كانوا يجدون صعوبة فى هدم وإقامة هذا المسكن فصنعوا منه نماذج أخرى أصغر فى الحجم كانوا يثبتونها فوق عجلات ، فكانت بذلك هى أولى المقصورات المتحركة . أما عن اللباد (ويستخدم أيضا فى الأحذية والقبعات) فإنهم يصنعونه من الصوف الذى ينشر ويبسط بانتظام على حصير من القش ويغطى بحصير آخر ، ثم يلف الجميع لفا محكما وتربط اللفة ، ويجلس فريقان

من صناع اللباد فى صفين متقابلين ويأخذون فى ضرب اللفة وركلها بأقدامهم جيئة وذهاباً لمدة ساعة أو نحو ساعة حتى يتلبد الصوف كله فى رقعة واحدة كبيرة .

وهذه الثقافة ، بكل صورها المبكرة ، تمثل بالضرورة قصة الأصقاع الداخلية من آسيا خلال الستة آلاف سنة الأخيرة تقريباً . وقد شارك فيها أنواع مختلفة من الناس ، ولكن لا يكاد يخامرنا شك فى أن أول من عرفها فى جنوب شرقى آسيا كانوا من البيض ، لأن الأسقوثيين Scythians الذين عاشوا حوالى القرن السادس قبل الميلاد – وقبله – كانوا من الشقر فعلا كما لاحظ عليهم ذلك اليونانيون . ومن الواضح أيضاً أن جحافل المتبربرين الذين أغاروا على حدود الإمبراطورية الصينية المبكرة قبل عام ٢٠٠٠ ق . م لم يكونوا من الجنس المغولى ، لأن الهون Huns الذين انحدروا منهم كانوا يشبهون الأتراك فى طراز اللغة والتركيب الجسمانى . ومهما يكن من شىء فقد ارتبطت هذه الثقافة بالمغول بمضى الزمن حتى أصبحوا فيما بعد أهم من يمارسها من الشعوب .
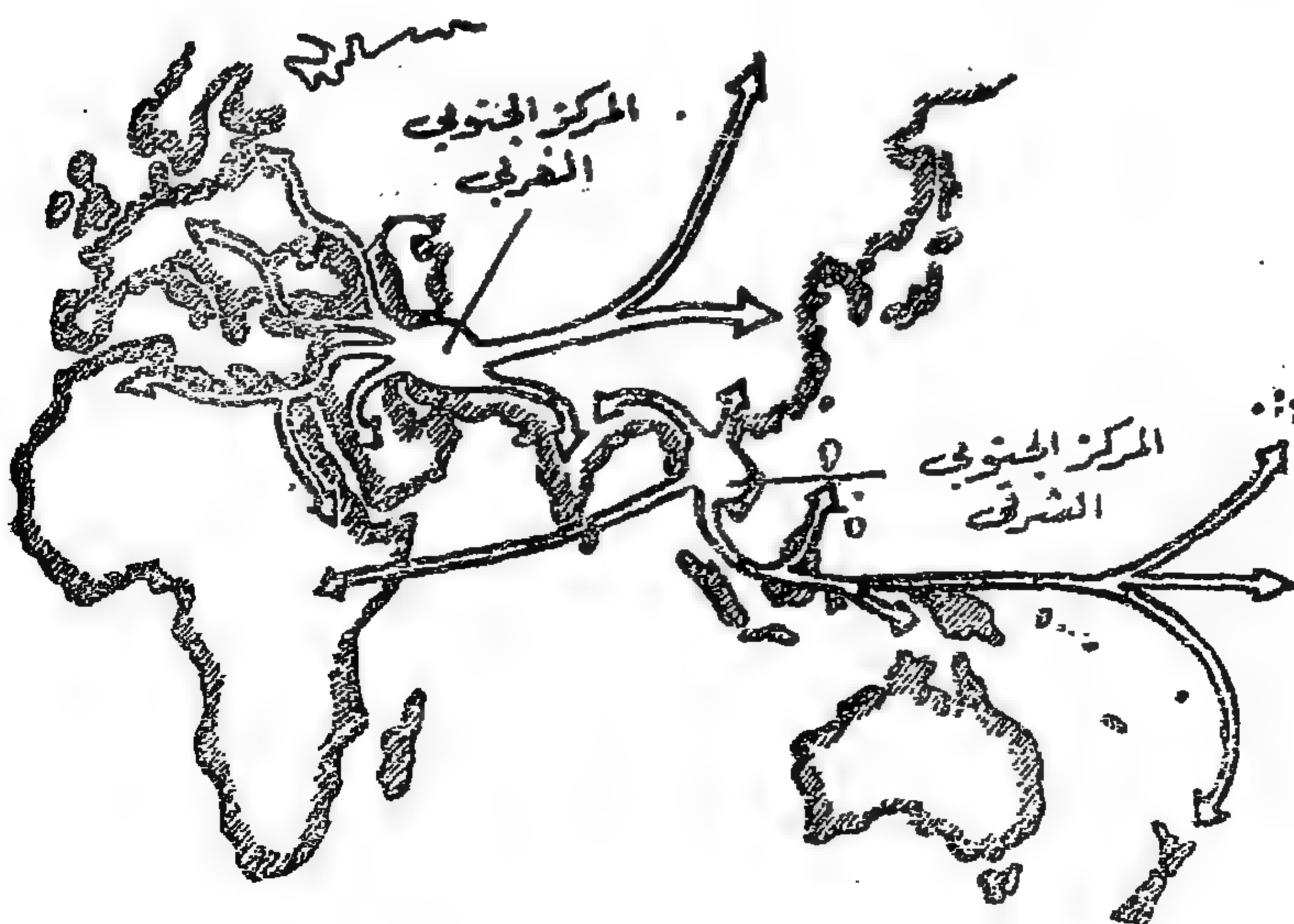
موطنا الفلاحة والثقافة النيوليثية فى العالم القديم وطرق انتشارها

والصفة الغالبة على هذه الثقافة — كغيرها — من الثقافات الرعوية الأكثر تقدما — هي الميل إلى الحرب . وقد لا يكون ذلك راجعاً إلى الحياة الخلوية وما تتطلبه من قوة ورجولة وشدة مراس ، بقدر ما يرجع إلى ميل الرعاة الرحل بطبيعتهم للحرب ، نظراً لقلة وتفاهة ممتلكاتهم ولعدم وجود ما يخشون عليه من الضياع ، ثم لتحركاتهم السريعة التي تغرى بالهجوم والعدوان ؛ وذلك على عكس الشعوب المستقرة التي تقتنى ممتلكات أكبر وثروات طائلة ، كما تتوافر لها بنوع خاص كل التسهيلات اللازمة للدفاع . ولذا فإن هؤلاء الرحل لم يقوموا بسد الثغرة فحسب بين الغرب والشرق الأقصى بل إنهم كانوا أيضاً مصدر تهديد دائم لكلا الجانبين لبضعة آلاف من السنين . فقد ظلت قبائل هيونج نو Hiung-Nu وغيرها من الجماعات المتبربرة تنزل صنوف العذاب والتنكيل بالصينيين طيلة عشرين قرناً حتى تمكن أباطرة الهان Hanفى آخر الأمر من مهاجمة بلادهم والتغلغل فيها بشكل أوقع الاضطراب فى صفوفهم واضطرهم إلى أن يتوجهوا شطر العالم الغربى . وكان الهون يمثلون طليعة تلك الشعوب فى أوروبا ، فإنهم فتحوا الباب أمام هجرات الأتراك والمغول نحو الغرب ومهدوا السبيل لحركات الغزو وقيام إمبراطورية المغول الواسعة تحت حكم أمرائهم . وكان أبطالهم من الرماة الفرسان يستخدمون أقواساً صغيرة مزودة بالأوتار ، وبذلك كانوا يمثلون نوعاً من الهجوم لا قبل للأوروبيين به . ومن حسن حظ الأوروبيين — ربما بسبب موت أتيلا وجنكيز خان فى الوقت المناسب — أنهم لم يقاسوا من هجمات الهون أكثر مما قاسوه بالفعل .

سكان سيبريا : الرنة والشامان

إلى الشمال من المناطق الفسيحة التى تقطنها قبائل الرحل ، وإلى ما وراء بحيرة بيكال ونهر عامور تمتد غابات سيبريا ثم سهوب التندرا الملاصقة للشواطىء القطبية . وهى منطقة لا تصلح لزراعات وحيوانات غرب آسيا .

والواقع أن بعض الشعوب حاولت إدخالها مثل الياكوتيين Yakuts الذين كانوا يعيشون فى وقت من الأوقات فى الجنوب ثم نزحوا شمالا أمام التوسع الصينى والروسى . ولا تزال الماشية موجودة عندهم ، ولكنهم يضطرون فى سبيل المحافظة عليها إلى أن يمسكوها داخل الحظائر طيلة فصل الشتاء ويتولوا إطعامها بأيديهم . ولم يعودوا يستخدمون الجياد قط وإن كانوا يحتفظون بجماجمها لاستخدامها فى طقوسهم واحتفالاتهم باعتبارها من مخلفات ومأثورات الماضى حين كانت الخيل تؤلف جزءاً هاما من ثقافتهم .

ولكن هذا لا يعنى أن فكرة التدجين ، أى تربية الحيوان من أجل اللبن واللحم واستخدامه فى الركوب ، لا يمكن إدخالها إلى تلك المنطقة حتى لو وجدت الحيوانات الصالحة لذلك . وقد وجدت هذه الحيوانات فعلا متمثلة فى غزلان الرنة التى تعيش فى سهولة ويسر فى هذه المنطقة الثلجية مثلما عاشت فى أوروبا فى الفترة المجدليفية . وبعبارة أخرى فإن تدجين الرنة يمثل بوضوح آخر حالة من الحالات التى ترتبت على اختراع تربية الحيوانات فى جنوب غربى آسيا . ففى أواسط القارة أمكن تدجين الخيول (وأبقار الياق yaks) علاوة على الحيوانات العادية المعروفة ، ولكن الفكرة ذاتها طبقت هنا تحت ظروف جديدة . وليس هذا هو كل شىء ، بل إننا نكاد نلمس سير العملية ذاتها . فقبيلة الطنغوز ـ وهى من أكبر القبائل الجنوبية ـ تملك قطعاناً من الرنة الأليفة ـ وهى تختلف فى المرتبة عن الرنة الوحشية ـ وتستمد منها اللبن واللحم كما تستخدمها فى الركوب وجر الزحافات . أما الشعوب التى تقطن الشمال (مثل الكورياك والشوكشى) فإن لديها قطعانا لم يتم تدجينها بعد ، وإن كانت تعتبر مع ذلك ملكا لها ، كما يحرص الناس على أن يحتفظوا بها قريبة منهم بحيث يمكن لهم قنصها للطعام إن استدعى الأمر ذلك . ثم هناك أخيراً بعض جماعات أخرى لا تجد حتى ذلك نفسه ، وإنما تعتمد فقط على القنص وصيد السمك .

فمعظم سكان سيبريا إذن يهتمون – بدرجات متفاوتة – بتربية الرنة . وتضم المنطقة خليطاً من الشعوب (إذ يدخل فى نطاقها مثلا الموطن الأصلى للجنس المغولى بمعناه الضيق) ، ولكنهم يتشابهون رغم ذلك فى بعض السمات الثقافية العامة . فإذا أسقطنا الرنة المستأنسة من اعتبارنا لوجدنا أن الثقافة الأساسية هناك هى ثقافة صيد رفيعة بكل ما تتطلبه من وجود المستعمرات السكنية الصغيرة والمعيشة فى الخيام ، أو فى البيوت الصغيرة المبنية من كتل الخشب أو المساكن الطينية التى يبنى جزء منها تحت سطح الأرض . وتتخذ الملابس فى تلك المنطقة التى لا تزال تتميز بقسوة البرد فى الشتاء من الفراء وجلود الرنة ، يخيطها الناس بعناية ويزينونها بنقوش ورسوم تطبيقية دقيقة ، ويراعون أن تكون محبوكة تماماً ولها سراويل طويلة واكمام. وقد أخذ الأوروبيون طريقة تفصيل ملابسهم من هناك ، فقد أدخلها إلى أوروبا الغزاة الوافدون من أواسط آسيا الذين كان بعضهم ينتمى بلا مراء فى الأصل إلى تلك الثقافة السيبيرية القديمة

أما الأهالى القدامى ، وهم الفريق الذى لا يمارس تربية الرنة ، فإنهم يسترعون الاهتمام بثقافتهم المادية وبوجود بعض أوجه الشبه بين صناعاتهم وأساطيرهم وما نجده فى أمريكا الشمالية ، مما قد يشير إلى قيام صلة غير معروفة تماماً بينهما فى عصر حديث نسبياً . ولكن حياتهم الاجتماعية تمتاز بالبساطة ، ولعل أطرف شخصية عندهم – بل فى المنطقة السيبيرية كلها – هو الشامان .

والشامان هو الرجل – أو المرأة – الذى يخاطب الأرواح ، وقد يقوم بتحضيرها فى جلسة خاصة مثلما يفعل الوسيط تماماً . ويقام الحفل فى بيت أو كوخ (يورت) بعد أن تطفأ كل الأنوار فيه ، ويتجمع الناس ويبدأ الشامان يضرب على طبل خاص ضربات خفيفة ولكنها سريعة متلاحقة ثم يأخذ فى الغناء ، وبعد فترة يتردد فى البيت صوت جديد لا يلبث

أن تتبعه أصوات أخرى ، لقد جاءت الأرواح ، وهذه أصواتها وهى تتحرك . وقد يتخذ بعضها هيئة حيوانات تتكلم بلغة الإنسان ، ولكن البعض الآخر قد ينطق بألسنة غير معروفة . ويستمر القرع على الطبل كما يستمر الغناء ، وتختلط الأصوات والأصداء ، ويقوم بعضها بتبليغ الرسائل ، بينما يجلس الحاضرون وقد تملكتهم نشوة عارمة ، وقد تند عنهم أحياناً بعض صيحات التشجيع فى اللحظات المناسبة . وأخيراً تأخذ الأصوات الغريبة فى الخفوت حتى تسكت وتهدأ تماماً ، ثم تضاء الأنوار فيظهر الشامان جالساً أو راقداً فى حالة ذهول تام .

وجزء من هذا العرض يعتمد على قدرة الشامان على الكلام من بطنه وإخراج الأصوات المختلفة وهو يتحرك فيما حوله . وجزء آخر يأتى من حالة النشوة أو الاهتياج التى يستثيرها هو فى نفسه والتى يعتقد أنها قوته الشامانية وليست مجرد حركات تمثيلية . والحق أن الشامانيين يجيدون فن الشعوذة ويقومون باستعراضات رائعة يعرضون فيها بعض فنون السحر العادى ؛ ولكنهم لا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مجرد ممثلين بارعين أو أنهم يخدعون الناس ، فهم يؤمنون بأفعالهم وبقدرتهم على الاتصال بالأرواح .

فالشامانيون فى سيبريا فئة من المحترفين لهم رسالة معينة لا يمكنهم التنصل منها . فقد تهبط الروح على الرجل (أو المرأة) وتأمره أن يصبح شامانا ، أراد ذلك أم لم يرد . وقد يبدو أن الناس يجاهدون للفوز بذلك المركز المرموق ، ولكن الواقع أن قليلين جداً هم الذين يتطلعون إليه ، وأن الذين ينشدونه أو يجبرون عليه هم فى الأغلب من الأشخاص الذين فشلوا فى تحقيق التوافق أو التكيف ، بالمعنى الذى نفهمه من هذه الكلمة ، نظراً لمعاناتهم من الكبت الشديد أو لطبيعتهم الهستيرية . وتعتقد إحدى القبائل أنه يمكن التعرف على الشامان منذ الطفولة من طبيعته التأملية وكثرة تعرضه للنوبات

وقد تمارس الشامانية فى بعض الأحيان كنوع من العلاج النفسي المتعمد على أساس أن السبيل الوحيد لعلاج بعض الأمراض أو التخلص من الحزن والغم هو أن يصبح المريض شامانا وأن يمارس عمل الشامان . ويبدو أن هذه هى وظيفة الشامانية بالنسبة لهم ، فهي تهيىء لهم مكاناً محترماً فى المجتمع ومتنفساً لسوراتهم الشاذة . فالشامان إذن شخص يتميز على غيره من الأفراد العاديين بأنه يتمتع بقوى شخصية خاصة ، وأنه يحيا حياة مليئة بالأخطار ، فمن الخطورة بمكان أن يتعامل المرء مع الأرواح أو يختلط بها أضف إلى ذلك أن لكل شامان قريناً من الحيوانات يمنحه القوة والحماية ولكنه قد ينقلب عليه فيفتك به . وأسوأ من هذا كله أنه قد يموت فيتسبب بذلك فى موت الشامان نفسه ، لأن للاثنين نفساً واحدة فقط مشتركة بينهما ويرتدى الشامان فى بعض القبائل السيبيرية كسوة مميزة عليها نقوش ترمز إلى قرينه الخاص وإلى الأرواح الأخرى التى تساعده ، كما قد تتدلى منها جدائل طويلة من الجلد لتتعلق بها الأشباح والأطياف الأقل أهمية وتنضم بذلك إلى بطانته .

وعلى أية حال فإن الشامان يبرز عن بقية المجتمع كالإبهام المؤلم . ويوجد هـــذا النوع من الشخصية بكثرة فى بقية أنحاء العالم فى المجتمعات البسيطة المماثلة كجماعات الصيد والقبائل « النيوليثية » الأقل تطوراً وكذلك القبائل التى تعيش عيشة وسطاً بين الإثنين . أما فى سيبريا فيعتبر الشامان هو الشخصية الدينية الوحيدة الهامة ، فهو الذى يحافظ على الانسجام بين هذا العالم ــ أى العالم المحسوس ــ وعالم الأرواح (لأنهم لا يعرفون عبادة الآلهة الكبرى) .

وللشامان أعمال خاصة تشغله طيلة الوقت . فحين يمرض شخص ما ويعزى مرضه إلى شرود الروح ، فإن الشامان ــ وهو الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يراها ــ يقوم بتعقبها حتى يردها ثانية . وعلى العكس من

ذلك حين يموت شخص ما ويتطلب الأمر تطهير « يورت » العائلة بصرف الروح التي فقدت جسمها وإرسالها إلى مثوى الأرواح فإن الشامان أيضاً هو الذى يتولى ذلك .

وهنا أيضاً يقوم الشامان ببعض الأعمال الرائعة الجريئة ، ولكنه يؤديها علناً فى هذه المرة ، إذ يقوم بأداء بعض الرقصات الدرامية يحاول أثناءها أن يقتنص الروح بوساطة طبوله وتقاراته ، ثم يلقنها بعد ذلك ما يجب عليها أن تفعله ويقودها حتى مدخل المثوى الذى تهبط فيه الأرواح السابقة ويتولى إقناع تلك الأرواح بأن تقبل الروح الجديدة بينها . (وهو فى أثناء ذلك يكون حاضراً بجسمه أمام الناس وبعيداً عنهم فى الوقت ذاته حيث يباشر تلك المهمة) . وقد تضطرب الأمور وتسوء فى القرية ، فيعقد الشامان إحدى جلساته الروحية ثم يسخر الأرواح لإنزال العقوبة بأفراد المجتمع . وبهذه الوسائل المختلفة يتمكن من التغلب على معظم المتاعب التى يتعرض لها المجتمع الصغير ، بفضل مقدرته على الاتصال المباشر ببعض القوى المعينة ويساعده على تحقيق ذلك بوجه خاص أنه يرد للجماعة كلها توازنها الانفعالى بإقامة تلك الحفلات الشعائرية المثيرة ، فهو إذن شخص نافع مفيد .

الوساس النيوليثى للصين

لقد بدأنا بالحديث عن إحدى القارات فانتهى الأمر بنا إلى الكلام عن رجل يلبس مئزراً من الجلد الرث ويضرب على دف . فلنرجع إذن إلى القارة . ولقد رأينا تدفق زراع الحبوب وارتيادهم الناجح لكل الأنحاء بما فى ذلك الهند ، ورأينا أن إحدى الشعب الخاصة التى تشعبت من هذا النمط من الحياة — وأعنى بها الرعى — نشأت فى الأغلب نتيجة لاستخدام الخيول فى الأصقاع الداخلية من آسيا ، بينما اعتمدت فى بلاد العرب على

الإبل . كذلك رأينا أن تلك الفكرة ذاتها – أى فكرة رعى الماشية – شقت طريقها إلى الصيادين البدائيين فى غابات سيبيريا حتى أصبحت الرنة هى العامل الأساسى فى حياة بعضهم – وليس كلهم . ويبقى بعد ذلك أمر واحد نشأ نتيجة للاكتشافات النيوليثية فى جنوب غربى آسيا ، ألا وهو تأسيس الصين . فقد كانت الزراعة هناك تتبع فى الأصل ذلك الطراز ذاته .

تمتد الصين الحديثة جنوباً حتى الهند الصينية ، وشمالا عبر منشوريا ، وهى ترتبط فى الذهن بفكرة الأرز والشاى والحرير . أما الصين الأصلية فكانت إقليما صغيراً يقع إلى الشمال فى باطن القارة حيث ينحنى النهر الأصفر انحناءته الكبيرة الواسعة . وهذه الإمبراطورية التى نشأت فى الأزمنة التاريخية تمتد جذورها فى الماضى إلى عصور الأساطير والآثار وأخيراً إلى أحد مراكز الفلاحة فى العصر الحجرى الحديث . والظاهر أن ما حدث هو أن الطراز الأصلى للفلاحة فى جنوب غربى آسيا أخذ يتقدم على امتداد الطريق عبر الطرف الجنوبى لمنطقة الاستبس والتركستان الصينية الروسية (سينكيانج Sinkiang) وذلك قبل أن تتقدم حياة الرعى وتزدهر . وقد تم ذلك حين كانت المنطقة أقل جدباً عما هى عليه الآن . ومن الجائز أن تكون الفلاحة انتشرت أو نقلت على أيدى بعض الشعوب البيض نظراً لأن انتشار المغول فى الاتجاه المضاد فى آسيا حدث على ما يبدو فيما بعد .

ومهما يكن من شىء فقد وصلت هذه الثقافة – ولما تكد – فى آخر الشوط إلى أسلاف الصينيين من المغول الذين يشبهون الطنغوز ، فتقبلوها وصاغوا لأنفسهم منها صورة خاصة . ولا بد أن تكون زراعة القمح (لأن الأرز لا يزرع هناك) جاءت من الغرب ، أما الذرة العادية التى تعتبر أم أنواع الحبوب المبكرة فالأغلب أنها كانت تنمو برية ثم استنبتت بسرعة نتيجة لإدخال زراعة القمح والشعير . وليس ثمة شك أيضاً فى أن الماشية جاءت من الغرب ، ولكن الصينيين – على العكس من سكان الشرق

الأدنى وقبائل الرحل فى أواسط آسيا — كانوا يأنفون دائماً من شرب اللبن ، بل إنهم كانوا على العكس منهم أيضاً — شديدى الولع بالخنازير التى كانت رغم وجودها منذ بداية العصر الحجرى الحديث فى الغرب تعتبر حيوانات « قذرة » بشكل مزعج فى نظر الثقافات المتأثرة بالشرق الأدنى — وذلك باستثناء أوروبا .

وكان الصينيون الأوائل يبنون بيوتهم من اللبن (وقبلها كانوا يقيمون فى المغارات) . ولكن بيوتهم كانت من طراز مختلف عن بيوت جنوب غربى آسيا . وكان إيمانهم بالآلهة ، كما كان نظام الأباطرة وحياتهم العائلية تشترك فى الطابع العام مع الغرب ، وإن ظل لها مع ذلك شخصيتها الصينية المتميزة . ولم تكن الصين تعيش فى عزلة كما قد يتبادر إلى الذهن ، وذلك لازدهار التجارة ووسائل الاتصال عبر آسيا كلها فى جميع العصور ، ولكنها كانت بعيدة نائية بحيث كان التبادل يتم على مراحل . والواقع أنه كان لثقافتها دائماً طابعها القومى المستمد من الأقاليم الجنوبية وكذلك من الغرب الأقصى ومن القبائل الرحل . إن ما نراه هنا فى البداية هو طفل آخر من أطفال الشرق الأدنى إبان العصر الحجرى الحديث ، ولكنه طفل بعيد ، بل ومتميز سلاليا عن بقية الأطفال ، كما أنه أخذ ينمو ويكبر بطريقته الخاصة .

١٢
الفلاحون فى المحيط الهادى وفى الشروح

فى أقصى الجنوب الشرقى من آسيا تقع الهند الصينية وبورما وسيام ومن خلفها جزر الإنديز والفلبين وفرموزا . وهى كلها منطقة غابات مدارية وأمطار غزيرة ، ولكنها ليست قريبة من بقية آسيا كما تظهر فى الخريطة : فحدودها مع الصين والهند وعرة قاسية ، وهذه أيضاً هى حال المناطق الداخلية فى الجزر . ولذا لم يكن من السهل الوصول إليها (ويكفى أن نتذكر هنا طريق بورما إلى الصين) . وقد أدت هذه الوعورة ذاتها مع كثرة ما بها من قمم الجبال ووديان الأنهار إلى عزل سكانها وتفتيتهم إلى جماعات محلية صغيرة .

ولقد شهدت هذه المنطقة نشوء ونمو ثقافة أخرى مغايرة تماماً لنسيج الثقافات النيوليثية التى سادت بقية أرجاء آسيا . ولست أعنى بهذه الثقافة المتميزة الحضارة التى عاشت خلال الألفى سنة الأخيرتين والممالك التى تكونت نتيجة لموجات التأثير الهائلة التى وفدت من الصين والهند وبلاد العرب . فى أوائل العهد المسيحى كانت المستعمرات الهندية — أو الدول التى تتبع النمط الهندى — آخذة فى النمو والازدهار على طول الطريق بين بورما وبورنيو ، وبعدها بألف سنة ظهرت الإمبراطوريات الكبرى فى سومطرة وجاوة ، واهتمت بتشييد كثير من المعابد الضخمة العظيمة وبسط تأثيرها ونفوذها شمالا إلى ما وراء الفلبين حتى فورموزا . وأدى ذلك إلى تأثر الحياة والفن فى إندونيسيا بالطابع الهندوكى . ثم جاء الإسلام متوجا لموجات التجارة والتوسع العربيين ، وحل — كدين — محل الديانة الهندوكية فى كل المنطقة المتحضرة تقريباً فى الجنوب (مثلما فعلت البوذية فى الشمال) وأدى إلى تقويض تلك الإمبراطوريات الواسعة .

كانت تلك الثقافة النهائية — وهى الثقافة السائدة الآن — من الثقافات الراقية التى تمتاز بوجود الدول الكبيرة ومعرفة الكتابة وتشييد المبانى الفخمة الرائعة . ومع ذلك فإن طبيعة الجبال والجزر الوعرة المنعزلة ساعدت الغابات والوديان بلا ريب على الاحتفاظ بمخلفات وبقايا الثقافات القديمة لبضعة آلاف من السنين ولكننا نستطيع أن ننزع أو نزيل طبقات تلك الثقافة الراقية لنكشف عن الماضى الذى يرقد تحتها .

الصيادون فى أدغال ملايسيا (١)

وإذا ثابرنا على عملية الإزالة والتنقيب إلى العمق المطلوب فسوف نصل إلى جماعات الرحّل وشبه الرحل التى تعيش على صيد الحيوانات فى الغابات وبخاصة جماعات المتزنجين الذين ينفردون بسكنى جزر الأندمان كما يعيشون فى المناطق الداخلية من شبه جزيرة الملايو وفى عدد من جزر الفلبين . ويستخدم المتزنجون القوس والسهم ويقيمون فى المآوى الصخرية والقرى غير الدائمة التى تتألف من أكواخ لا بأس بها وإن كانت ضعيفة متهالكة وربما كان الأندمانيون أسعد هذه الجماعات حظاً نظراً لوفرة سمك المحار والسلاحف المائية عندهم ؛ ولأن قراهم تفوق غيرها فى جودة البناء وفى طول الفترة التى يمضيها الناس فيها (بضعة شهور) ؛ كما أنهم يصنعون أيضاً نوعا رديئاً من الخزف . ومع أنهم يؤلفون الآن كل البقايا المتخلفة عن المتزنجين فإن ثمة ما يدل فى الآثار التاريخية على أنهم كانوا يعيشون فى الماضى فى أنحاء أخرى من المنطقة لم يعودوا يوجدون فيها الآن ، وأنهم اختلطوا بكثير من الشعوب الأخرى التى يُظن أنها امتصتهم تماماً . وتتمثل تلك الدلائل التى تنم عنهم فى صغر الحجم وسمرة البشرة والشعر الصوفى فى بورنيو وسومطرة والسيليبز وبخاصة فى أحد الجزر التى تؤلف مجموعة جزر تيمور Timor مثل جزيرة فلوريس Flores .

(١) Malaysia

بيد أن المتزنجين لا يؤلفون الطائفة الوحيدة التى تعيش على القنص . فهناك فرع آخر متميز يوجد بين عدد من الشعوب مثل الساكاى Sakai (سينوى Senoi) فى شبه جزيرة الملايو ، وجماعات الكوبو Kubu فى سومطرة (والتوالا Toala فى السيليبز ؟) ، وهم جميعاً من الصيادين الرحل الذين يستخدمون بنادق النفخ فى الصيد . ومن الصعب تحديد السلالة التى ينتمون إليها : فهم قصار القامة وإن كانوا أطول من المتزنجين وربما كان يجرى فى عروقهم بعض الدم المتزنج ، ولكنهم يبدون — بدلا من ذلك — أقرب إلى جماعات الفيدا الآخذة فى الانقراض من سيلان . وهذا معناه أنهم يشبهون البيض بعض الشبه ، ولكنهم أصغر منهم حجماً وأشد سمرة ، كما أنهم يشبهون أهالى استراليا بعض الشبه أيضاً ولكن شكل رءوسهم ووجوههم أقل بدائية . وربما كان فى وجود هذه الجماعات ما يوحى بأن جنوب شرقى آسيا كانت تسكنه سلالة بيضاء قديمة انقرضت تماماً .

الثقافة النيوليثية المجهولة فى جنوب شرقى آسيا

والشعوب الحالية التى ذكرتها تمثل كلها حالتين فقط من جماعات الجمع والقنص . وقد كشف علم الآثار عن كثير من ثقافات ما قبل العصر الحجرى الحديث وأوائل العصر الحجرى الحديث ذاته فى جميع أنحاء تلك المنطقة وذلك بالإضافة إلى بقايا ثقافات العصر الحجرى القديم المبكرة . ولكن معلوماتنا عن هذا كله قليلة فى الوقت الحاضر بحيث يصعب الخروج منها بشىء ذى قيمة . ومع ذلك فلو توقفت عملية الإزالة والتنقيب قبل أن نصل إلى نهاية ذلك العمق فسوف نجد لدى الشعوب المتأخرة من سكان الأجمات ثقافة نيوليثية بسيطة أدنى فى المستوى من الثقافات التاريخية ولكنها أرقى من ثقافة الصيادين .

وتنتشر هذه الجماعات فى كثير من الجهات ابتداء من جبال فورموزا والمناطق الداخلية من بورنيو حتى سلسلة الجزر الممتدة جنوبى سومطرة

ثم جبال بورما والهند الصينية . ولكن رغم هذا التبعثر فإن هناك بعض أوجه شبه قوية مما قد يوحي بوجود ثقافة موحدة تقوم على زراعة الحدائق التي تعد من السمات الأصيلة في تلك المنطقة . والناس أنفسهم ينتمون إلى الطراز المغولي رغم أن ملامحهم بدأت تذوب وتتلاشى في الطرز غير المغولية التي تشبه الهنود الحمر ، مع ظهور بعض القرائن المبهمة على وجود بعض الأصول البيضاء أيضاً . وليس ثمة ما يدل على وجود أي عنصر متزنج أو شبه متزنج . وفيما عدا ذلك فإن هذا الخليط الشنيع من الأسلاف المجهولين لا يكاد يفيدنا شيئاً عن عمر تلك الثقافة ولا عن زمن وصول العنصر المغولي الذي يسود الآن هناك ، والذي نستطيع أن نزعم أنه جاء بعدها جميعاً ، وأنه وفد من الشمال .

وتنتشر « ثقافة » هذه الشعوب الوثنية بين عدد كبير جداً من القبائل المختلفة دون أن تختص بأية قبيلة واحدة منها بالذات . ولذا فسوف أقتصر هنا على وصف الثقافة « النموذجية » فقط . وتعيش القرية في عزلة تامة بحيث تتولى كل أمورها بنفسها . وقد يعترف سكان تلك القرى ، بانتمائهم القبلي العام ، ولكن القبيلة ذاتها لا تتصرف كوحدة . ولعل أقصى ما يطمع الناس فيه هو أن يتركوا لحالهم ، وإن كانوا يشكلون خطراً بالنسبة للشخص الغريب . صحيح أنهم يرحبون به ، ولكن على شرط واحد هو أن يخاف جسده من ورائه ، لأن بلادهم هي موطن قنص الرءوس ، وهي عادة هامة ومتأصلة في المنطقة كلها ولا تشجع على قيام علاقات الجوار . ولذا كانت القرى في كثير من الجهات تتحصن تحصناً قوياً للذود عن نفسها كما قد تحفر الخنادق حولها أو تقيم بيوتها فوق التلال أو ما إلى ذلك بقصد الحماية .

ويشيد الناس بيوتهم المتينة من الأخشاب الثقيلة ويرفعونها في العادة فوق أعمدة لتكون بعيدة عن الأرض ، ويستخدمون للوصول إليها كتلة

من الخشب تعلق على شكل سلم يفضى إلى الباب عن طريق مصطبة أو ربما خلال فتحة فى أرضية البيت ذاته . وربما كانت الرغبة فى الدفاع هى السبب الأساسى لرفع البيوت ، ولو أنه فى مثل ذلك المناخ الرطب — حيث تمرح الخنازير فى الأرض حول البيوت فتحيلها إلى وحل وطين — يجد الإنسان راحته بلا شك فى البعد عن الأرض حتى فى أكثر الأوقات أمناً وسلاما . وفى بعض الجهات تنفرد كل عائلة بالسكنى فى بيت كبير متسع ، أما فى بورنيو فعلى العكس من ذلك تسكن العائلات فى شقق خاصة تتألف كل منها من عدد من الحجرات أو المخادع ويضمها كلها بيت واحد طويل تقيم فيه القرية برمتها . ويمتد بضع مئات من الياردات بحذاء شاطىء النهر بحيث يكون له رواق أو شرفة تمتد بطوله . ويعتبر هذا النوع من البيوت من الأعمال الرئيسية فى الهندسة وفن المعمار ، إذ ترتفع أرضيته حوالى عشرين قدما عن سطح الأرض ، كما أنه يتسع لخمسمائة أو ستمائة شخص .

بيد أن متانة بيوتهم وقوة بنائها لا تعنيان استقرار الناس وعدم انتقالهم على الإطلاق . ذلك أن طريقة تطهير الأرض وزراعتها تعتمد على قطع الأشجار والحشائش وإحراقها واستخدام عصا الحفر فى الغرس والزرع . ففى بورنيو مثلا تستنزف قوى كل الأراضى القريبة فيما لا يزيد عن

جنوب شرق آسيا والمحيط الهادى

عشرين سنة : وعندئذ يهدم الناس بيوتهم تماما ويقوضون الأعمدة من فوق الأرض ويفكون الأخشاب ثم يلقون بذلك كله — أو بما يمكن استخدامه منها — فى الماء ليطفو متجهاً مع التيار إلى موقع جديد . وقد استطاع الناس فى جهات أخرى التغلب على مشكلة الانتقال بأن وضعوا أيديهم على مساحات شاسعة جداً من الأرض الممتدة حولهم بحيث يتاح للأشجار المقطوعة الوقت الكافى لكى تنمو مرة أخرى فوق الرقعة التى زرعت أولا ، وبذلك تعود صالحة للزراعة من جديد .

أما عن محصولاتهم فكلنا نعلم أهمية الأرز فى شرق آسيا . ولكن ذلك النوع من الأرز الذى يحتاج إلى الرى وينمو فوق المدرجات أو المصاطب التى تعد لذلك الغرض على سفوح التلال ويستخدم فى إعدادها المحراث الذى تجره الجواميس هو محصول « متمدين » لا علاقة له بالثقافة التى نحن بصددها . وقد نجده عند بعض الشعوب الوثنية (فى الفلبين مثلا) ولكن من الواضح أنهم لم يعرفوه إلا فى زمن متأخر : شأنه فى ذلك شأن الحنطة الأمريكية وبعض أنواع الخضراوات الأخرى . أما الأرز الجاف فهو أقدم منه ، وهو يزرع كبقية الحبوب على سفوح التلال بدون حاجة إلى مدرجات . ولهذه المسألة أهميتها فى بعض الجهات مثل بورما العليا وبورنيو . أما الدخن — وهو من المحصولات القديمة فى الصين — فالظاهر أنه كان معروفا منذ القديم هنا أيضاً ، بل وأقدم من الأرز بنوعيه .

وأما الخضراوات التى تصلح أكثر من غيرها لهذه المنطقة — وليس من الضرورى أن تكون هى أهم الخضراوات إلا فى حالات نادرة ولكنها تزرع هناك بكثرة — فهى اليام والتارو التى تلائم الغابات الرطبة ، وبالطبع تختلف هذه النباتات الطرية فى طبيعتها اختلافا تاما عن الحبوب التى تزرع فى جنوب شرقى آسيا . ويعتبر ذلك من عيوبها لأنها لا تستطيع أن تعيش بعد حصدها مثلما تعيش البذور .

ولا تعرف هذه الشعوب سوى عدد قليل من الحيوانات المستأنسة إذا قورنت بالغرب . فالحيوانات الوحيدة التى عرفوها منذ أمد بعيد (باستثناء الكلاب دائماً) هى الدجاج الذى يعتبر من الحيوانات المتوطنة هناك ، وكذلك الخنازير التى يبدو أنها حيوانات متوطنة فى كثير من الجهات الأخرى ، لأنها كانت ضمن أفراد « الجوقة » فى جنوب شرقى آسيا فى العصر الحجرى الحديث . وربما يتبادر إلى الذهن أن الناس كانوا مضطرين — إزاء قلة ما يملكون من الحيوانات الأليفة — إلى الاعتماد كثيراً على البيض فى طعامهم ، ولكن الواقع أنهم يبدون فى ذلك نوعا غريباً من العناد والصلابة ، فقليلا ما يأكلون الدجاج أو البيض (والدجاج على أية حال لا يعطى كثيراً من البيض) وهم يشبهون فى ذلك الصينيين الذين لا يشربون اللبن . ومع ذلك فإنهم يهتمون بتربية الدجاج لاستخدامه على الخصوص فى تقديم القرابين واستخدام عظامه أيضاً فى التنجيم والعرافة . ولذا كان هؤلاء الوثنيون يعتمدون كثيراً على قنص الحيوان وصيد السمك لتوفير حاجتهم من اللحم . مستخدمين فى ذلك الحراب وبنادق النفخ ومجموعة متنوعة من الشباك وعدداً كبيراً من الأفخاخ الآلية التى تمتاز بدقتها وقوتها .

وفى ميدان الفنون والحرف تتوافر بعض الدلائل التى تشير إلى استعارة بعض الأشياء التى لم يكن لها وجود فى الأغلب حين ظهرت الثقافة « النيوليثية » لأول مرة . فلقد برعت هذه الشعوب فى تشكيل الحديد والنحاس وصنع السيوف وأدوات الزينة . ولكن يبدو أن استخدام المعادن ينتمى إلى مستوى أعلى من الثقافة ، وهذا معناه أنهم كانوا يعتمدون فى الأصل على الآلات الحجرية . كذلك يعتبر نسج الملابس من الأقطان التى يزرعونها بأنفسهم ثم صباغتها من الصناعات المنتشرة المتقدمة هناك . وتتألف ملابسهم الآن فى الأغلب من نقاب طويل أو « شملة » كبيرة بالنسبة للمرأة ، ومن مئزر يلف حول العجز وصديرية مفتوحة من الأمام بالنسبة للرجل . وتدلنا الجماعات الأكثر انعزالا على أى حال على أن الملابس كانت أقل

وأخف فى الماضى عما هى عليه الآن ، وأنها كانت تتخذ من القلف المصنوع من اللحاء الداخلى لأنواع معينة من النبات وبخاصة شجر توت الورق بعد أن يدق حتى يلين ويكتسب شيئا من المرونة والقدرة على التحمل . وليس فى الإمكان الآن بطبيعة الحال أن نعرف ما إذا كانت هذه الملابس المتخذة من لحاء الشجر ترجع بدورها إلى إحدى مراحل العصر الحجرى الوسيط ، ولكن هذه مسألة قليلة الجدوى . والشىء الذى لا مراء فيه هو أنها كانت تؤلف عنصراً فى الثقافة التى نتكلم عنها هنا .

وأياً ما يكن الأمر ، فقد كان سكان جنوب شرقى آسيا والشعوب الإندونيسية يحرصون منذ زمن طويل أشد الحرص على تزيين أجسامهم بنقوش ورسوم دائمة ، سواء أكانوا يسترون أجسادهم بالملابس أم يسيرون عراة . فالمرأة عند قبائل الكارن Karens فى بورما تشد رقبتها بأن تضع حول عنقها بعض الحلقات النحاسية المرتفعة . والمرأة عند الداياك Dyaks فى بورنيو تلبس حلقات مماثلة ، ولكن حول عجزها ، لتؤدى وظيفة المشد (الكورسيه) وهكذا . وفى كثير من الجهات يلف رأس الطفل — وهو لا يزال طرياً — بالضمادات والأربطة حتى يتخذ شكلا غريبا غير مألوف أو لكى يزداد تسطح الجبهة وفرطحتها وبالتالى تزداد درجة استدارة الوجه المغولى المستدير .

ولكن هذه كلها خصائص ومميزات محلية . ويعتبر الوشم على الجلد أكثرها شيوعا وقبولا بين الناس . والأهم من هذا كله هو محاولة تجميل الابتسامة بوسائل صناعية مثل برد الأسنان الأمامية بحيث تبدو مدببة أو تتخذ أى شكل آخر ، أو خلع عدد من الأسنان ، أو لصق بعض الرقائق المعدنية على اللثة للزينة . ومن هذا القبيل أيضاً صبغ الأسنان بلون داكن ثابت ، ويتوصلون إلى ذلك فى الأغلب بمضغ بعض جوز التانبول betel الذى يحدث تأثيراً مخدراً لطيفاً كالتدخين كما يصبغ الأسنان بلون خشب

(الجنة) . وآخر وسيلة من وسائل التجميل الشائعة فى كل المنطقة تقريبا هى مط شحمة الأذن عن طريق ثقبها ثم تثبيت بعض الأزرار أو الصمامات الكبيرة فيها .

الطبقة والعشيرة والعمل الجمعى

وتعيش هذه الأقوام فى عزلة اجتماعية ؛ وأقصى ما نجده عندهم هو بعض العلاقات غير العدوانية مع الجماعات الأخرى وبخاصة فى داخل القبيلة . فهم يتحاشون الاختلاط بغيرهم ويتزوجون من داخل القرية ، كما أن مشاكلهم الداخلية قليلة . ويوجد عندهم نوع من الرؤساء الذين لا يتمتعون على أية حال بكثير من السلطة ؛ وإنما هم أقرب إلى القضاة منهم إلى الحكام الأقوياء الذين نصادفهم فى كثير من ثقافات الجزء الغربى من العالم القديم . كذلك يوجد عندهم مجلس خاص يتولى إلى حد كبير تصريف شؤونهم . ويتميز البناء الاجتماعى لمجتمعاتهم المحلية بوجود الطبقات الاجتماعية وقواعد النسب والانحدار . ولكن هذين النظامين — كما يبدوان هنا — يختلفان عما نفهمه من هذه الألفاظ .

ويميز الناس فى كثير من الجهات بين الطبقات العليا وطبقة العامة والعبيد، ولكن الثروة — لا السلطة — هى أساس التفرقة بين الطبقات العليا والدنيا. « فأفضل الناس » — وهم يؤلفون نوعا من الأرستقراطية غير الرسمية — هم الذين يقيمون الولائم ويتمتعون بمنزلة اجتماعية عالية . إلا أن الأكفاء من العامة يفرضون سلطانهم ونفوذهم بشكل جلى فى المجالس وفى الشؤون العامة . وإذا كان ثمة اختلاف فى المظهر فإنه ينحصر فى اهتمام الطبقة العليا بأناقة الملبس والسلوك والوشم وما إليها ، بينما يعيش العامة عيشة أكثر تحررا وإسفافا .

ولن تجرؤ « القشرة » العليا على الترفع عن بقية الناس أو الاستهانة بهم . صحيح أنهم يعتبرون القادة الاجتماعيين لهم ، ولكن ذلك لا يتخذ مظهر

الصلف والاستعلاء ، كما أن حياتهم اليومية لا تختلف فى عمومها عن حياة الطبقة الدنيا . وتتألف طبقة العبيد من أسرى الحرب أو ذريتهم ، ولكنهم لا يشبهون «العم توم»(١) وإنما هم خدم غير مأجورين وإن كانوا لا يشترون ولا يباعون بل إنهم يعتبرون إلى حد كبير أعضاء فى العائلة . ثم إنهم بعد كل شيء لا يختلفون فى الأصل أو التراث عن أسيادهم ، فى تلك الثقافة البسيطة نسبيا .

وقد تحدث بعض الزيجات فعلا بين الطبقات المختلفة وإن كان ذلك ينطوى على مقامرة الشخص بمركزه ، كما أن المجتمع لا ينظر إليه عادة بعين الارتياح وعلى العموم فالمجتمع يتمتع بنوع معين من الديمقراطية سواء بالمعنى السياسى أو بالمعنى الذى نسىء نحن فيه عادة استخدام كلمة « ديمقراطى » لنقصد بها « متواضع » أو « يحب الاختلاط بالناس » .

وتوجد فى بعض أنحاء إندونيسيا طريقة أخرى لتقسيم المجتمع وذلك بحسب العشائر ، أى على أساس النسب أو الانحدار . ونحن أنفسنا نقسم إلى أسر (عائلات) ونتبع فى ذلك خط الذكور . وربما كانت هذه الطريقة هى إحدى الخصائص المميزة للثقافة العامة فى جنوب غربى آسيا . وقد رأينا من قبل أن فكرتنا عن العائلة تتخذ شكلا أكثر إحكاما فى نظام « العروق » و « العظام » السائد فى بلاد الريف . ولكن العشائر تمثل اتجاها آخر فى هذا المضمار، فهى لا تقيم وزنا كبيرا لروابط الدم الخاصة التى تقوم بين الأشخاص ، وإنما تقسم المجتمع المحلى بدلا من ذلك إلى عدد من الوحدات المتمايزة بحيث ينتسب الفرد إلى وحدة معينة منها بالذات باعتبارها عشيرة أبيه إذا كانت عشائر القبيلة أبوية ، أو عشيرة أمه إن كانت

(١) الإشارة هنا إلى رواية « كوخ العم توم » المشهورة . والمقصود بذلك أن العبيد هناك لا يحتلون المكانة الاجتماعية التى يحتلها زنوج أمريكا ولا ينظر إليهم بنفس النظرة التى ينظر بها الأمريكيون من البيض إلى مواطنيهم من الزنوج أو يجدون على أيديهم نفس المعاملة والتفرقة . المترجم .

العشائر أموية . ويعرف الفرد هناك جميع الأشخاص الذين تربطهم به روابط الدم والقرابة كما هى الحال عندنا تماما ، ولكن أقاربه من أفراد العشيرة يعتبرون بلا شك أكثر أهمية فى الحياة من غيرهم .

وتعتبر العشيرة كلها منحدرة من سلف واحد قد يكون بعيدا جدا ، كما ترتبط أفرادها بروابط وثيقة بحيث يعتبر أى فرد فيها أقرب إلى أى فرد آخر من نصف أقاربه الحقيقيين(١) . وتضم العشيرة بالطبع إخوة الشخص وأخواته وكذلك أبناء أعمامه من الدرجة الأولى (إذا أخذنا الضرب الأبوى) ولكنها لا تضم أولاد عماته لأن زوج العمة ينتمى إلى عشيرة أخرى ، وبذلك ينتسب أبناؤها إلى عشيرته . ويعرف أبناء العمة وكذلك أبناء الخال باسم « أبناء العمومة أو الخؤولة المتقاطعة » لأن الأم والخال ينتميان بالضرورة إلى عشيرة أخرى غير عشيرة الابن وأبيه(٢) .

ذلك لأن العشائر جماعات اغترابية (اكسوجامية) ، بمعنى أنه لا يصح للرجل أن يتزوج من عشيرته على زعم أن جميع نسائها هن أخوات له بالفعل ، وبذلك يعتبر الزواج منهن أدخل فى باب الزنى بالمحارم . فالعشائر تختلف

---

(١) المقصود هنا أن الرجل يعتبر أفراد عشيرته الأبوية — مهما كانت درجة بعدهم عنه — أقرب إليه من أقاربه عن طريق الأم الذين ينتمون إلى عشيرة أخرى . وهذا طبعاً فى النظام الأبوى ، والعكس يصدق على النظام الأموى. المترجم .

(٢) ليس هذا فى الواقع هو سبب التسمية ، إنما يستخدم الاصطلاح فى الكتابات الأنثروبولوجية نظراً لعدم تكافؤ حلقات الربط (من ناحية الجنسين) التى تربط الرجل بابن عمته أو بابن خاله . فالرجل يرتبط بابن عمته عن طريق الأب (وهو ذكر) من ناحية ، ثم أخت الأب أو العمة (وهى أنثى) من الناحية الأخرى . وهو يرتبط بابن الخال عن طريق الأم (وهى أنثى) ثم بأخى الأم أو الخال (وهو ذكر) . وهذا بعكس ما يطلق عليه اسم « أبناء العمومة أو الخؤولة المتوازية » مثل ابن العم وابن الخالة ، فهنا تتكافأ الحلقات الرابطة فى الجنس من كلتا الناحيتين، فالرجل يرتبط بابن عمه عن طريق الأب (ذكر) ثم أخى الأب أو العم (ذكر أيضاً) بينما يرتبط بابن خالته عن طريق أنثيين (هما الأم وأختها أى الخالة) المترجم .

إذن عن الطوائف الهندية التي هي جماعات إضوائية (اندوجامية) بتجنب المرء فيها الزنى بمحارمه ، ولكنه يتزوج من طائفته .

كذلك تختلف العشائر عن أنساق القرابة المعقدة التي يتبعها أهالي أستراليا الأصليون ، وإن كان هناك مع ذلك قدر معين من التشابه ، لأن العشائر يمكن أن تتطابق — بل إنها تتطابق فعلا — مع ذلك النوع من النسق. فالاستراليون يميزون بين أبناء العمومة أو الخؤولة المتقاطعة ، وأبناء العمومة أو الخؤولة المتوازية (أي أبناء الأخوين وأبناء الأختين) ، وكذلك تفعل العشائر . والأستراليون يحددون فئات كبيرة من الناس يحرم عليهم التزاوج وفئات أخرى يحل لهم أو حتى ينبغي لهم ذلك ، وكذلك تفعل العشائر . والواقع أن العشائر تكمن في الجهاز أو النظام الأسترالي ذاته . ولنحاول توضيح المسألة : إذا أردنا أن نحقق في مجتمعنا النظام الأسترالي ولكننا لجأنا في ذلك إلى تبسيط مصطلحات القرابة وتجميعها في فئات قليلة وأسقطنا بذلك كل المصطلحات الرائعة التي ننادي بها أقاربنا المختلفين وحددنا لكل منهم بدلا من ذلك قطاعا معينا في المجتمع نعتبره بمثابة أقارب له ، فإننا نصل إلى نظام العشائر(١). ولكن هذه بالطبع مجرد طريقة للتوضيح وليست نظرية .

فالعشيرة إذن هي سند الرجل وقوته . وتقوم بين العشائر علاقات واجبات متبادلة . ففي بعض جهات إندونيسيا مثلا يتعين على كل عشيرة أن تختار زوجاتها من عشيرة أخرى معينة بالذات ، وتتبادل معها أنواعا محددة من الهدايا التقليدية ، وفي الوقت ذاته تزوج فتياتها هي في عشيرة ثالثة ترتبط إزاءها أيضا بالتزامات من نوع مختلف . ويعد تبادل الهدايا من الأمور البالغة الأهمية هناك ، فهو ليس مجرد مظهر بسيط من مظاهر اللياقة الاجتماعية كما هي الحال عندنا .

---

(١) بتصرف قليل . المترجم .

وفى بعض الأحيان تتجمع العشائر فى وحدتين كبيرتين متقابلتين تؤلفان معا المجتمع المحلى ، وإلا فإن الجزء الأكبر المتوازن قد يظل بدون عشائر (ولكنه يتصرف كما لو كان ينقسم إلى عشيرتين بالفعل) . ويسمى هذان القسمان « نصفين » وبينهما فقط يتم الزواج . ويؤكد « النصفان » أهمية التبادل بين الوحدات الاجتماعية : ليس تبادل الأزواج والزوجات فحسب بل وتبادل الأشياء المختلفة ذات القيمة الرمزية ، وأيضا فالسكاكين التى ترمز إلى الرجولة مثلا تهدى فى نفس الاتجاه الذى يعطى فيه الأزواج ، بينما تهدى الملابس — وهى رمز الأنوثة — فى نفس اتجاه الزوجات(١).

والواقع أن « النصفين » يعبران عن فكرة عامة تدور حول انقسام الحياة — الروحية والاجتماعية على السواء — وعلاقتها بالكون عموما : فقد يرتبط أحد « النصفين » ببعض مبادىء معينة مثل الأرض والمظهر الخارجى للأشياء والشباب وساحل البحر ، بينما يرتبط « النصف » الآخر بالجوانب المقابلة ، أى بالسماء وباطن الأشياء والشيخوخة والجبال . ويتبادل الفريقان التجارة والهدايا تبعا لطقوس خاصة ، وبذلك يساعدان على استمرار سير الأمور ، نظرا لأنهما يعترفان بالقيم الاجتماعية والروحية المقررة ، ويحاولان توزيعها توزيعا صحيحا .

بل إن للفكرة الثنائية مقابل آخر أشد تحديداً يتمثل فى بعض الجهات فى وجود إلهين أحدهما للسماء والجبال وهو إله ذكر ، والثانى الأرض والبحر وهو إله أنثى . ولكن هذه الآلهة وأمثالها لا تحتل مركزا ملحوظا فى نسق الأفكار الدينية التى تسود فى هذه المنطقة والتى تتجه بدلا من ذلك اتجاهين آخرين : الأول نحو الاعتراف بمجموعات الأرواح والمعبودات الصغرى (التى ترتبط بكل أنواع الموجودات الطبيعية أو ببعض الوظائف والأدوار

---

(١) بمعنى أن كل عشيرة تهدى إلى العشيرة التى تختار منها زوجاتها السكاكين والأسلحة (رمز الرجولة) وتتسلم منها فى مقابل ذلك الملابس (رمز الأنوثة). المترجم .

المحددة مثل تخويف الأعداء وإرهابهم) والثانى نحو عبادة الأسلاف التى تنتشر انتشارا واسعا هناك .

وقد ترتب على عدم وجود الآلهة العليا المتميزة أن انعدمت العبادات العامة المحددة . إنما تنقسم الحياة الدينية إلى عدد من الأقسام أو « البنود » الصغيرة المتمايزة ، ولو كان لديهم كتاب للصلوات لبدا أقرب شيء إلى مصنف (كتالوج) روحانى . وأقصد بذلك أن الطقوس التى يمارسونها لها طابع عملى يلائم الظروف التى تقام من أجلها . فنى الفلبين مثلا توجد حشود كبيرة من المعبودات الصغيرة التى تبدو أشبه بالخبراء الفنيين الذين ينتظرون صدور الأوامر إليهم ليقوم كل منهم بأداء الشيء الوحيد الذى يجيد عمله . ونسبة كبيرة من الأرواح عبارة عن أمراض وأوبئة يجب اجتنابها أو إبعادها أو القضاء عليها . والشامان هو الذى يتولى هذه المهمة كما يزاول التطبيب والعرافة . فوظيفته تشبه فى أساسها وظيفة الشامان السيبيرى بما تشتمل عليه من(شطحات) وجلسات لتحضير الأرواح ، كما أنه يعتبر مسئولا عن التحكم — إلى حد ما — فى الأشباح وتوجيهها . ويمارس الناس إلى جانب هذا كله كثيراً من وسائل وفنون التنبؤ بالغيب وعمل التعاويذ التى يستطيع أى شخص أن يقوم بها ، بل ويقوم بها كل شخص بالفعل .

وإذا كان هناك أى عمل شعائرى واحد يمتاز به الناس على غيرهم فهو قنص الرءوس ، ومع أنهم يحتفظون بالرءوس القديمة ويجدون لذة فى الحصول عليها وامتلاكها فليس هذا هو السبب فى ممارستهم له . والواقع أن الأفراد لا يقومون فى العادة بقنص الرءوس ، إنما يتم ذلك خلال الإغارات المنظمة التى يشنونها على القرى المعادية والتى يكتفى الرجال أثناءها بقطع الرءوس المطلوبة فقط — من بين القتلى إذا أمكن — ويأخذون بقية الضحايا أحياء كعبيد .

ويكتسب الرجل من قنصه للرءوس كثيرا من المجد والشهرة ، ولكن الدافع إليه هو شهوة الدم، لأنه أقرب إلى العمل الدينى المقدس . وقد يكون متأثرا إلى حد كبير بفكرة الاستيلاء والاستحواذ على روح الميت والتحكم فيها كما لو كان القانص يحاول بهذه الطريقة أن يضمها إلى أسلافه وأجداده هو بدلا من أن تنضم إلى أسلاف القرية التى ينتمى إليها القتيل . وهذا بلا شك هو سبب مزاولة تلك العادة فى بعض الجهات ، إذ يكلم الناس الرأس بذلك ويخاطبونه بأسلوب ودى رقيق فيه دفاع واعتذار ثم يقدمون له شيئا من مشروبهم الوطنى . ولكن لنقف عند هذا الحد . فليس الرأس ولا صاحبه فى وضع يسمح لهما بالرد علينا .

ولكن إلى جانب ذلك قد يكون السبب المباشر لقنص الرءوس سببا شعائريا خالصا . فهو يمارس فى فرموزا مثلا من أجل الشعائر الخاصة بالأسلاف ، وفى بورنيو لإنهاء فترة الحداد على موت أحد الرؤساء ، وفى نياس Nias لمناسبة تولى الرئيس مهام منصبه، وفى الهند الصينية وغيرها من أنحاء المنطقة كخطوة تمهيدية للزواج . فهو أشبه إذن « بالخاتم » الرسمى الذى تختم به الوثائق والذى بدونه لا تعتبر الوثيقة صحيحة .

مشكلة البدايات

فكأننا نجد إذن فى الجنوب الشرقى من العالم القديم نمطا عاما من الثقافة لا يزال يحوطه الكثير من الغموض وإن كان يتمتع بدرجة عالية من الوحدة والاتساق ، كما أن لبعض القبائل التى تعيش على الأطراف الشمالية والجنوبية ثقافات مماثلة إلى حد بعيد . ومن الواضح أن ذلك النمط الثقافى ينتمى إلى طراز مستقل ومختلف تماما عن ثقافات غرب آسيا . ولكن هل معنى هذا أنه نتيجة للاكتشاف المستقل لمنافع وفوائد النباتات والحيوانات المستأنسة؟ يبدو أن الأمر كذلك . فأقدم النباتات التى عرفها الناس هناك (مثل التارو واليام وكذلك مجموعة الطلح والموز) هى أكثرها اختلافا وبعدا عن النباتات

الأصيلة فى الغرب ، كما أن ثمة ما يدل على أن استنباتها تم هناك منذ زمن بعيد .

أضف إلى ذلك أن العالم الجغرافى الأستاذ كارل صاور Pro. Carl Säuer يعتقد أن الإنسان توصل لأول مرة إلى استنبات وتدجين النباتات فى هذه المنطقة بالذات ، وأن شعوب العصر الحجرى الوسيط التى كانت تمارس صيد السمك وتعيش على طول شواطىء الأنهار وسواحل البحار فى جنوب شرقى آسيا كانت على درجة من الاستقرار (كما هو شأن بعض الهنود الحمر الذين سنتكلم عنهم فيما بعد) أتاحت لهم الفرصة للتدجين بقصد الإكثار من النباتات اللازمة لاستخراج سم السمك والحصول على الألياف التى تصنع منها الشباك والملابس . وكان هذا النوع من الزراعة يقوم على غرس الجذور والشتلات — وهى طريقة ساذجة للإكثار من النباتات الموجودة بالفعل — أكثر مما تقوم على إدراك الدورة الكاملة للنباتات التى لا يمكن أن تتكاثر وتتوالد إلا من البذور . أما فكرة بذر الحبوب فلم تكتشف — فى رأى الأستاذ صاور — إلا فى مرحلة متأخرة جداً حين انتقلت معرفة الزراعة إلى غرب آسيا حيث الوديان الفسيحة وسفوح التلال ، وحيث تعتبر الزراعة بطريقة رمى البذور أسهل من طريقة التعقيل .

ويمدنا هذا التأويل على الأقل بنظرية مقبولة عن تدجين واستنبات الجذور والفواكه فى جنوب شرقى آسيا . ولكن المسألة الآن هى إذا ما كان الأستاذ صاور مصيباً فى اعتقاده أن تأنيس الحبوب والماشية لم يتم فى الشرق الأوسط إلا نتيجة للمعرفة الوافدة من جنوب شرقى آسيا وأنه لم ينشأ نشأة مستقلة . وليس هناك الآن ما يدل على ذلك . صحيح أن جنوب شرقى آسيا كان أحد مراكز الابتكار والاختراع كما نشأ فيه — على أية حال — أحد الأنماط المعقدة لثقافة العصر الحجرى الوسيط . ولكننا نتساءل مرة أخرى ، من المسئول عن ذلك ؟ هل هم المغول ؟ أم السلالات المغولية المبكرة التى

تعرف غالبا باسم « الإندونيسيين » ؟ » أو إحدى السلالات السابقة على ذلك كالشعوب السمر البشرة مثلا ؟ ثم هل هناك طبقات أخرى من هذه الثقافة غير تلك التى أمكن الكشف عنها ؟ لا تزال هذه الأمور كلها مجهولة ، ومن الصعب على علم الآثار أن يكشف لنا الآن عن ذلك التاريخ مثلما بدأ يفعل بالنسبة للغرب . ولكننا نستطيع أن نحصل على مزيد من المعلومات لو توغلنا فى بعض المناطق الأخرى من المحيط الهادى الجنوبى .

الميلانيزيون : كرم الضيافة

بعد إندونيسيا ، وإلى الشمال والشرق من أستراليا — وهى القارة التى لم يفلح فى الوصول إليها إلا الصيادون (الأستراليون وإحدى السلالات المتزنجة) تقع ميلانيزيا أو الجزر السوداء . وربما كانت ميلانيزيا خليقة بقدر أكبر من التقديم والتعريف لو لم تكن مسرحا للعمليات الحربية فى المحيط الهادى . فقد شهدت أولى القواعد الأمريكية الحربية الأمامية فى جزر فيجى وفيوهبريدز وكاليدونيا الجديدة ، ثم الزحف البطىء الذى قامت به القوات الأمريكية من جوادالكانال عند أحد طرفى جزر سولومون عبر نيوچورچيا إلى بوجانفيل عند الطرف الآخر وضربها للقواعد اليابانية فى أرخبيل بسمارك ثم استيلاءها على جزر أدميرال وعلى جزء من بريطانيا الجديدة ذاتها . كما شاهدت فى آخر الأمر تقدم تلك القوات بطول الساحل الشمالى لغينيا الجديدة حتى استوات فى النهاية على هالما هيرا فى قلب إندونيسيا .

ولولا ذلك لكانت ميلانيزيا مكانا غير معروف على العموم . وهى فى جملتها بلاد غير صحية تزخر بكثير من الحشرات والأوبئة المدارية وبخاصة الملاريا . ولكنها رغم ذلك تعتبر من أشد أنحاء العالم صلاحية للدراسات البشرية . ولما كانت ميلانيزيا تتألف من عدد من الجزر التى يقع بعضها بالقرب من إندونيسيا بينما يضرب بعضها الآخر بعيدا فى المحيط ، لم يكن

من السهل على الثقافات أن تمتزج إحداها بالأخرى ، وذلك على العكس تماما مما يحدث فى سهول آسيا . وتتفاوت هذه الجزر تفاوتا كبيرا من حيث المناخ والشكل ، كما يمتاز بعضها بالسعة والامتداد (فغينيا الجديدة تغطى مساحة هائلة من الأرض) لدرجة أن سكانها — وبخاصة سكان الجهات المرتفعة الشديدة البرودة فى غينيا الجديدة — يمكن بسهولة اعتبارهم أقرب إلى سكان الجهات البعيدة عن البحر فى داخل القارات . أما سكان السواحل فيجيدون الملاحة فى العادة ، بحيث إن مياه المحيط التى قد تقف عقبة أمام الرحلات الطويلة تعتبر بمثابة ميدان فسيح يقومون فيه بنزهاتهم ورحلاتهم القصيرة .

وهذا كله معناه أنه حين بدأ الناس يفدون على تلك الجزر وتتابعت أفواجهم واحدا إثر الآخر استطاع بعضهم أن يحتفظوا بكيانهم الأصلى بأن استوطنوا الأماكن البعيدة المنزوية ، بينما امتزج البعض الآخر بالجماعات التى سبقتهم — أو لحقت بهم — فاستعاروا منها أو تبادلوا معها ، وتعرضوا لكل أنواع وأشكال التغير . فما نشاهده الآن هو النتيجة النهائية لهذا كله . ونحن جميعا نقدر ونرحب بالفرص التى تمكن لنا من حل طلاسم التاريخ ، ولكن قلما يتفق الناس على حلها بنفس الطريقة .

ومن الجلى البين أن أول الوافدين من السلالات الحديثة كانوا من الصيادين الأستراليين والمتزنجين . وربما كان الأستراليون أسبق فى ذلك ، إذ كان يتعين على تلك السلالات أن تخترق غينيا الجديدة أولا لكى تصل إلى أستراليا . وربما كانت غينيا الجديدة هى آخر بقعة وصلت إليها تلك السلالات فى ميلانيزيا نظرا لعدم توافر الصيد والطعام فى غيرها من المناطق . ويمارس سكان ميلانيزيا المعاصرون زراعة الحدائق ، ولكنهم زراع من الطراز النيوليثى بكل معانى الكلمة وتظهر بعض العلامات الدالة على أصلهم الأسترالى فى وجوه الكثيرين من سكان غينيا الجديدة وبريطانيا الجديدة وكاليدونيا

الجديدة . أما المتزنجون فإنهم يقيمون فى القرى التى يبنونها فى جبال غينيا الجديدة حيث يهتمون بالزراعة أكثر مما يهتمون بصيد الحيوان . كذلك توجد بعض الآثار الباهتة البالية التى تدل عليهم فى بريطانيا الجديدة ، وربما أيضا فى جزر نيوهبريدز إلى الشرق منها .

وتقدم لنا اللغات قصة مشابهة . ففى داخل الجزر الكبيرة ، وبخاصة الجزر الغربية القريبة من آسيا يوجد عدد كبير من اللغات المختلفة التى لا تقوم بينها صلة قوية واضحة وإن كان بينها مع ذلك شىء مشترك من ناحية الطراز (كما هى الحال أيضا فى لغات أستراليا) . أما السواحل والجزر الشرقية فإن لغاتها تنتمى كلها إلى مجموعة لغوية واحدة هى المجموعة الميلانيزية التى ترتبط بدورها بالعائلة الإندونيسية الكبيرة . والمعروف أن هذه المجموعة وفدت فى عصر أحدث . ولكن من الذى أتى بها ؟ من الجائز أنها لم تفد على أيدى قوم معينين بالذات ، إلا أنه يبدو أن السكان الذين جاءوا بعد ذلك كانوا أقرب إلى الزنوج الحقيقيين — مثل زنوج أفريقيا — على الرغم من وجود بعض العلامات التى تدل على أنهم تأثروا من اختلاطهم بالمغوليين إبان هجراتهم الصغرى الأخيرة .

وعلى ذلك فليس من السهل تبسيط الحقائق المتعلقة بميلانيزيا ، بل وليس من الأمانة فى شىء أن نحاول تبسيطها ، لأن ذلك معناه أننا سنهتم بتبيين أوجه الشبه بدلا من أن نوضح مظاهر التباين الخطيرة الصارخة . ولكن الإنصاف يقتضينا أن ننص على أن ثقافتها العامة انبثقت من ثقافة جنوب شرقى آسيا ، وأنها بلا ريب إحدى الصور المبكرة لتلك الثقافة . والمحصولات الرئيسية عندهم هى الجذور والفواكه . فهم لا يزرعون الأرز ، كما أنهم يعرفون اليام والتارو وعائلة الطلح والموز وكذلك شجر فاكهة الخبز ، وهى كلها نباتات مستوردة أو مجلوبة مثلما جلبت الخنازير . (ويحتفظ الناس بالخنازير للولائم ، وهى حيوانات غير اقتصادية لأنها تقتات بالتارو ،

ولذا فإنهم يتركونها فى العادة تعيش فى الخلاء ثم يقومون بقنصها) كما يزرعون (أو يجمعون) فى كثير من الجهات نباتات أخرى كثيرة مثل جوز الهند والبطاطا والقرع والساغ من فوق نخيله ، ثم إنهم يجيدون بعد ذلك فن الطبخ . وليس ثمة ما يضطر الناس إلى الانتقال بمساكنهم وقراهم نتيجة لاستنزاف قوى التربة . ولكن أسباب ذلك غير واضحة تماما (وربما كان السبب هو خصوبة الأرض أو اتباع الدورة الزراعية أو قلة كثافة السكان) .

وإقامة المنازل فوق الأعمدة ظاهرة شائعة هناك ، ولكنها ليست عامة . وتتألف الملابس فى العادة من نقاب من النباتات بالنسبة للمرأة ، ومئزر من لحاء الشجر يلف حول العجز بالنسبة للرجل ، وذلك حيث يلبس الرجال ما يمكن تسميته بالملابس على الإطلاق . والوشم نادر بينهم ، إذ لا نجده إلا عند أصحاب البشرة الفاتحة من الجماعات التى وفدت حديثا ، لأن الوشم على البشرة الداكنة هو مجرد تضييع للوقت . ولكن تزيين الجلد بعمل أنماط من الندبات أمر شائع مألوف؛ وقد يكون ذلك هو الفكرة التى تناظر الوشم . وعلى أية حال فإن الميل إلى تزيين الجسم عن طريق تشويهه — على ما يوجد فى جنوب شرقى آسيا — يظهر هنا أيضا بوضوح . فالرجل يثقب شحمة أذنه ويسلك فيها جسما ما ، كما أن كثيرين من الناس يثقبون أنوفهم ويثبتون فيها قطعة من العظم أو حلقة كبيرة من المحار .

وثمة روابط اجتماعية كثيرة تربط هذه المنطقة بجنوب شرقى آسيا . وللعشائر هناك أهمية بالغة نظراً لقوة تماسكها وتضامنها ، كما يظهر هناك فى العادة مبدأ انقسام القبيلة أو المجتمع المحلى إلى « النصفين » الاغترابيين . وتتبع العشائر فى العادة النظام الأموى [1]، والغالب أنها تؤلف جماعات

---

(١) بمعنى أن الانتساب فيها يكون فى خط الإناث matrilineal وحدهن دون الذكور. فالرجل ينتسب إلى عشيرة أمه ويرث خاله (وليس أباه) كما يورث ابن أخته (وليس ابنه)، على أساس هو أنه وأمه وأخته وابن أخته ينتمون إلى عشيرة واحدة، بينما ينتمى أبوه إلى عشيرة مختلفة كما ينتمى ابنه كذلك إلى عشيرة ثالثة هى عشيرة زوجته (أى والدة الابن). المترجم.

طوطمية بمعنى أنها ترتبط ارتباطا روحيا بأحـــد أنواع الحيوانات أو السمك أو الطيور . وتميل القرية إلى أن تتألف من بعض العشائر التى ترتبط معاً بأواصر القرابة ، إلا أن مكانة الرؤساء هناك أقل وأدنى حتى من مكانة الرؤساء فى إندونيسيا (وذلك باستثناء فيجى التى تقيع بولينيزيا من بعض الوجوه) . وأخيرا تظهر عندهم بشكل واضح جلى كثير من عناصر الحياة الإندونيسية الأخرى مثل حفلات التهادى والمباهاة بالثروة التى تساعد المرء على تقديم الهدايا وإقامة الولائم . وقد تكون النتيجة التى نحصل عليها من خلط هذه العناصر شيئا مختلفا عن الثقافة الإندونيسية ، ولكنه يحتفظ مع ذلك بالأفكار والقيم العامة . والشىء المحقق هو أن الولع بالمظاهر والشكليات يصبغ التصرفات الاجتماعية كلها فى ميلانيزيا .

ومن أفضل الأمثلة على ذلك نظام « حلقة الكولا Kula ring » الذى يمارس فى الجزر المواجهة لشرقى غينيا الجديدة . فى تلك الجزر يشتغل أعيان الرجال بالتجارة ، ويتخذون لهم شركاء فى الشمال والجنوب يتبادلون معهم الزيارات . وحين يذهب أحدهم لزيارة صديقه الذى يعيش فى الاتجاه الذى يتفق مع اتجاه حركة عقرب الساعة حول « الحلقة » ، فإن المضيف يحتفى بإهدائه سوارا من المحار الأبيض . ولكنه ليس كأى سوار آخر من المحار ، إنما هو سوار أهدى له هو نفسه من قبل من أحد أصدقائه فى ظروف مشابهة وله اسم خاص يميزه كما تداولته أيدى كثير من تجار الكولا الأشراف حول الحلقة .

وهذا هو الذى يرغب الناس فى الأخذ ، أو « العطاء » على الأصح ، لأن الغرض من الأخذ هو البذل والإنفاق . والرجل الذى يبدر منه ما ينم عن الرغبة فى الاحتفاظ بتلك الأشياء وتكويمها سوف يبدو أقرب فى غبائه إلى ذلك الأمريكى من نيويورك الذى عارض إجراءات شهر إفلاسه بأن ذكر ضمن أملاكه وعقاراته الولائم التى كان ينثرها فوق لونج

أيلاند Long Island . وهذه مسألة خليقة بأن نتذكرها دائماً . ولكن قبل أن يمضي وقت طويل تأتي اللحظة المناسبة لأن يقوم المعطى برد الزيارة إلى الرجل الذي سبق أن أعطاه السوار ، وهو يتوقع منه أن يرد إليه هديته ولكن في شكل قلادة من المحار أيضاً يكون لها على الأقل « قيمة » مساوية لقيمة السوار الذي أهداه هو ذاته له من قبل ، بمعنى أن يكون للقلادة اسم خاص وتاريخ يتعلق بانتقالها وتداولها بين أيدي التجار من ذوي المنزلة الرفيعة . ومن هنا كانت الأساور تتحرك فعلا أثناء انتقالها إلى مواطنها الجديدة في اتجاه مضاد لحركة عقرب الساعة ، أي في اتجاه مضاد للاتجاه الذي تنتقل فيه القلائد . وفي هذا بعض ما يذكرنا بالتناوب أو التبادل المتوازن — ولكن غير المتماثل — الذي يميز العلاقات بين العشائر « والأنصاف » في إندونيسيا .

والكولا في ظاهرها نوع من التجارة ، أما حقيقتها فشيء مختلف تماماً: إنها احتفال شعائري يراعى فيه بدقة بعض الآداب والأصول المتعلقة بالأوضاع الاجتماعية أكثر منها بالحياة الدينية . وتشغل الكولا مكاناً هاماً في مجال الاهتمامات والمصالح الاجتماعية للفريق الذي يقوم بالرحلة ، كما تعتبر مسألة حيوية بالطبع بالنسبة للمركز الاجتماعي للشخص الذي يشرف على الرحلة كلها ، وهو تاجر الكولا . إلا أن معاودة النظر فيها تكشف لنا من جديد عن خاصيتها التجارية . فعلى الرغم من أن الغرض من الرحلة — وهو الغرض الذي يفكر فيه الناس — هو التبادل الشعائري (تبادل الكولا) فإن كثيراً من التجارة العادية الهامة في السلع الاستهلاكية يتم بالفعل بين الجزر إلى جانب الناحية الطقوسية . كذلك تحتفظ الجماعات — وبخاصة الشركاء — بنمط من العلاقات الودية المفيدة التي تخفف من آثار الريبة والعزلة بين المجتمعات المحليـة في ذلك الجزء من

العالم(١) . وثمة ناحية أخرى غريبة وتدعو إلى العجب حقا فى الكولا ، وهى أنها تمارس فى كثير من الثقافات المتباينة (فى مختلف مجموعات الجزر) ولا يقتصر وجودها على ثقافة واحدة فحسب . إنها أشبه بأحد تخطيطات شومان الدقيقة الصغيرة ، أو أقرب شىء إلى الأمم المتحدة التى يسودها السلام والوئام .

وليست الكولا إلا وسيلة واحدة من وسائل التقـــدم الاجتماعى عن طريق الثروة ، وإقامة الحفلات . والميلانيزيون يفصحون عن ذلك الباعث بصراحة لا تتوافر حتى عندنا . فنى جزر سولومون يستطيع الرجل أن يرتفع فعلا بنفسه بجهوده الخاصة إن كانت لديه الهمة الكافية . وفى جواد الكانال يجد المرء الطريق أمامه معبدا والعمل ميسورا إذا أراد أن يصبح « موانيقامه mwanekama » (ومعناها ببساطة الشخص المهم أو صاحب المكانة) فهو يبدأ بالعمل على تنمية موارد الطعام عنده فيزيد من مساحة الحديقة التى يزرعها بأن يطلب إلى أقاربه أن يبذلوا له بعض العون فى أوقات فراغهم ويستجديهم المزيد من الخنازير الصغيرة ، وهذا نفسه يضاعف أعباء العمل عليه ليتمكن من توفير الطعام اللازم لها . وحين ينتهى من وضع خططه يعلن عن عزمه على بناء منزل كبير ، ويعتبر ذلك علامة على ما يدور بذهنه . وحينئذ يبدى الناس استعدادهم للمشاركة والمعاونة بسخاء تحت إشرافه وتوجيهه ، فيشرف مهرة البنائين مثلا على البناء ، ويتولى غيرهم القيام بالأعمال الشاقة الصعبة ، كما يشارك بقية الناس على العموم فى الأعمال الفرعية الأخرى مثل تمليط السقف بالطين والقش .

---

(١) يجد القارىء عرضاً وتفسيراً رائعين للكولا فى دراسة من أشهر الدراسات التى أجريت عن أحد الشعوب البدائية (سكان جزر التروبرياند) والتى كتبت حتى الآن ، وهى للأستاذ برونيسلاف مالينوفسكى B. Malinowski فى كتابه Argonauts of the Western Pacific.

فالناس يعرفون أنه حين يتم بناء المنزل فسوف تقام الولائم . وهذا ما يحدث بالفعل . والوليمة هي الشيء الذى تسرع له نبضات الميلانيزيين . ويأتى الناس على كل ما يقدمه لهم من طعام . ثم يصبح الصباح فتكون حاله كحال الصبي الصغير بعد أن يكون أحرق كل الصواريخ التى كان يلهو بها ولكنه يشعر مع ذلك بالرضا . لقد نفد الطعام من عنده ولكن بقى له البيت وحسن الجاه والصيت . وهذا يسهل عليه مهمة إقناع الناس بمساعدته وعقد الصفقات المجزية من الطعام أو المحار الذى يستخدم كنقود . وقد يضم إلى زوجاته زوجة أخرى جديدة — أو أكثر — تكون فى العادة أرملة فى مقتبل العمر . ويلقى على عاتق الزوجة أعباء وأعمال كثيرة ولكنها تفلح فى الاضطلاع بها بفضل خبرتها السابقة ، كما أنها تحمد حظها السعيد إن استطاعت أن تتزوج مرة أخرى — وبخاصة من (موانيقامه) — مما يعطى لها مكانة فى المجتمع . ويواصل (موانيقامه) الجديد السير فى سبيله ، فيقيم بعد ذلك حفلا راقصاً يفوق كل ما سبقه من حفلات ، وفيه تمد الموائد . وتقدم الهدايا لجميع أفراد المجتمع . فهذه إذن (صنعة) لا يقدر عليها إلا الرجل القوى النشيط . وقد يضطر إلى التراخى والتمهل من حين لآخر ، ولكن بعد أن يكون وطد مركزه بحيث يذكر له الناس دائماً خدماته العامة .

والواقع أن (الموانيقامه) هو الشخصية المهمة الوحيدة فى جوادالكانال . ويطلق على مثل هذا الشخص كلمة «مومى» فى بوجانفيل ، ولكنه يبدى شيئاً من الجد والاهتمام أكثر فى مباشرة واجباته كزعيم ورئيس اجتماعى . فهو يبنى منتدى عاما للجماعة كما يقيم الولائم التى تجذب إلى بلاطه الأتباع الذين يدينون له بنوع من الولاء الاجتماعى ويؤلفون حاشية خاصة به . وقد يقيم الحفلات لتكريم «مومى» آخر منافس له ، فيغدق عليه الهدايا على اعتبار أنه سوف يرد له هداياه بالمثل أو يفقد نفوذه . وقد يستمر ذلك بحيث يزيد كل منهما على الآخر حتى يفلس أحدهما ويلحقه العار .

إن الكرم ثعبان يرقد بين الخضرة »، أما الرجل العادى فيفوز منه بأمنية قلبه وهى الوليمة .

وفكرة إنشاء المنتديات فكرة شائعة فى كل أنحاء إندونيسيا وميلانيزيا، كما تعتبر فى جزر البانكس الواقعة شرقى جزر سولومون الوسيلة التى يحقق الرجل بها مركزه ومكانته . فالمنتدى الكبير يشتمل على عدد ضخم من الرتب الاجتماعية التى قد يظل بعضها شاغراً لفترة من الزمن . ويدفع الرجل ثمن ارتقائه من الحضيض إلى أعلى — حسب قدرته — بما يقدمه للأشخاص الذين يشغلون المراتب العليا من نقود المحار التى تشبه الخرز . وبالطبع يستطيع الأب الثرى أن يساعد ابنه مساعدة جليلة فى ذلك .

وإذا كان (الموانيقامه) يمثل رجل التخوم الذى يشرف بنفسه على تمهيد أرضه فإن « السوكوا Sukwe » فى جزر البانكس يمثل الثروة العارمة الباغية . فى هذه المجموعة من الجزر ذاتها توجد عادة أخرى تعرف باسم وليمة « الكولى — كولى Kole-Kole » ومعناها أن يضمن الشخص شيئاً ما أو يزكيه . وتتلخص فى أن يبالغ ذلك الشخص فى الإعلاء من القيمة الاجتماعية لذلك الشىء (إن كان منزلا مثلا) أو إبراز أهميته (إن كان الكفيل قد ارتقى إلى درجة أعلى فى نظام السوكوا) وذلك عن طريق إقامة وليمة رائعة لتكريمه بحيث تميزه تمييزاً دائماً على غيره من الأشياء التى من طبقته .

وكأنما لم تكفهم الرسميات فى أمور التجارة وفى التنافس الاجتماعى، فتمسكوا بها حتى فى منازعاتهم الحربية . فالعداء العام وضعف الروابط القبلية يجعلان من الطبيعى نشوب قدر معين من الإغارات والحروب بينهم . إلا أن هناك معارك أخرى متشابهة تنشب بين القرى كجزء من حياتها العادية على فترات معينة من الزمن وفى مكان معين بالذات .

ولكن حتى فى الحالات التى ينشب فيها الصدام نتيجة لأسباب أخرى مباشرة وليس بقصد تجديد العداء القديم — مثل الاتهام بممارسة السحر الأسود أو خطف امرأة (قد تكون هربت فى الحقيقة بمحض إرادتها) — فإن سلوكهم يعيد إلى الأذهان عهود الفرسان والفروسية . إذ قد يقوم المنادون بإعلان الحرب ، ويتفق الطرفان على اليوم والترتيبات اللازمة للاشتراك معا فى إعداد ميدان القتال للمعركة . وقد يكفى سقوط قتيل واحد لوقف القتال — على الأقل لذلك اليوم . وعلى أية حال فإنهم لا يعرضون بسوء للنساء والأطفال وبعض الأشخاص الآخرين . ولا يعتبر قنص الرءوس أو أكل لحوم الموتى من الأعمال الكمالية المتصلة بهذه الاشتباكات التقليدية ، وإنما هو يرتبط بالأحرى بالإغارات الغادرة التى يشنونها على الأغراب الحقيقيين . وينتهى الأمر بإعادة ترتيب الأمور بنفس العناية التى بدأت بها ، ويبدو على الناس أنهم خلصوا أنفسهم بذلك من كل مايشوبها من أحقاد وضغائن ومخاوف من السحر ، ولو لأجل معلوم .

ويحتل السحر وعمل الرقى مكانا بارزا فى نمط الأفكار الإعجازية عند الميلانيزيين . فالسحر الخاص بفلاحة البساتين مثلا يعتبر عنصرا ضروريا لنمو (اليام) فى حديقة الشخص ، أو ربما لإبطال مفعول الرقى التى يستعين بها الآخرون لجذب (اليام) من تلك الحديقة إلى حدائقهم هم . أما بقية الدين الميلانيزى فيتلخص فى كلمتين : الأشباح ، و« المانا » .

وكما يحدث فى إندونيسيا المجاورة فإن الأشباح والأرواح الشريرة الصغيرة — لا الآلهة — هى التى تسيطر على العالم الروحانى الخفى . وترتبط الأشباح فى كثير من الجهات بالجماعات السرية ، ويقوم الراقصون بتشخيصها وتمثيلها . وأما الفكرة الأخرى وهى « المانا » فعبارة عن ملكة أو قوة خاصة تحل فى الشىء فتعطيه صفات التعويذة . فقد تحل مثلا فى قطعة من العظام أو الحجارة التى يمكن استخدامها لزيادة المحصول فى الحديقة

أو لتساعد القارب على أن يمخر البحر . وقد يحملها المرء بين جوانحه ، مما يفسر تفوقه على غيره فى المهارة والقوة . فالمانا شىء ثابت لا يتغير . إنها أشبه بالكهرباء التى تسير الأشياء الأخرى أو تدفعها إلى العمل بطريقة أفضل تبعا لطبائعها .

البولينيزيون : المولد والسلطة والحق الإلهى للملوك

إذا تركنا ميلانيزيا وعبرنا خط التاريخ date - line فى منتصف المحيط الهادى فإننا نصادف ثقافات أخرى من ثقافات المحيط التى ترجع أصولها إلى العصر الحجرى الحديث فى جنوب شرقى آسيا وتظهر هذه الثقافة فى بولينيزيا التى تتألف من مجموعات متناثرة من الجزر تقع فى المثلث الذى تحده هاواى وجزيرة إيستر ونيوزيلنده ، ويسكنها شعب غامض غريب . فبينما يتميز الميلانيزيون بالبشرة السمراء يميل البولينيزيون إلى اللون البنى الفاتح الذى يجمع بين لون السلالات البيضاء والمغولية . وأهم من هذا كله أن ميلانيزيا يغلب عليها التنوع والتباين بينما يسود التجانس فى بولينيزيا . فاللغات تنتمى إلى طراز يرتبط ارتباطا وثيقا بالعائلة الإندونيسـيـة وكذلك بالمجموعة الميلانيزية الرئيسية . ويمكن أن نعتبرها مجرد لهجات فى اختلافاتها إحداها عن الأخرى . وتكاد الثقافة ذاتها تعكس مثل هذه الدرجـة العالية من الاطراد والانتظام ، وربما كان ذلك راجعا — إلى حد ما — إلى ما يتمتع به البولينيزيون من مهارة فائقة فى شئون الملاحة بحيث استحال المحيط الواسع الممتد إلى مجرد طريق مائى يصل بين الجزر النائية ، مما ساعد على قيام صلات وروابط متكررة ، ولكنه يرجع فى الأغلب إلى أنهم وفدوا من موطنهم الأول منذ زمن غير سحيق .

وقد جلبوا معهم فى قواربهم النباتات الأساسية التى تنمو فى جنوب شرقى آسيا . ويعد ذلك من أفضل الأمثلة التى تبين كيف أن أحد الشعوب النيوليثية وجد جنته ونعيمه فى تلك الجزر المدارية التى كانت تبدو مجرد

صحراء عارية فى أعين جماعات الصيد والجمع لقلة ما بها من القوت الطبيعى عن أن يفى بحاجات الناس . وقد أخذ البولينيزيون يستعيضون إلى حد كبير عن الخضراوات بجوز الهند وثمار فاكهة الخبز اللينة الطرية التى تشبه الكمثرى المدارية الكروية . ولما كان هذان النوعان من الطعام ينموان فوق الشجر فقد أتيح للناس أن يكرسوا جهودهم لصيد السمك ، واستخدموا فى ذلك وسائل كثيرة مختلفة حتى يملأوا ذلك الجانب من غذائهم . والواقع أن لديهم أنواعا أخرى كثيرة من الطعام — منها الطيور — كما أن معظم الجزر تعرف تربية الخنازير والدجاج .

ولكن الحياة ليست صعبة مريرة هناك ، ولذا كان الناس يجدون متسعا من الوقت للفن واللهو . ويبنى الناس بيوتهم الأنيقة من الخشب والحصير ويغطون سقوفها بالقش والطين ، ولكنهم لا يرفعونها عن الأرض إلا فى عدد قليل من الجزر حيث تقام على مصاطب من الحجارة أو من التراب . وكانت الملابس تتخذ فى الماضى من الطابة tapa ، وهو قماش رقيق مصنوع من لحاء الشجر ، ويعتبر من الصناعات الرئيسية هناك . كما كان الوشم والولع باستخدام الأزهار والريش وما إليها فى الزينة من الظاهرات الشائعة المألوفة ، فالماوورى من سكان نيوزيلندة مثلا كانوا يشقون فى جلد وجوههم خطوطا عميقة ملتوية يصبغونها بالألوان ، وتمثل هذه « الموكو moko » أقصى حالات التطرف فى تشويه الوجه عند البولينيزيين ، ولكنهم لم يكونوا يشوهون أسنانهم كما يفعل سكان الملايو ، أو يثبتون فى أنوفهم قطعا من العظام كما يفعل الميلانيزيون .

وقد بلغت تلك الطقوس الاجتماعية الذروة فى بولينيزيا فى بعض مظاهر معينة مثل تبادل الزيارات بين أعيان الرجال . إلا أن تنظيم المجتمع ذاته اتخذ اتجاها مخالفا لما نجده فى ميلانيزيا . فعلى الرغم من وجود العشائر فإن العائلة — بالمعنى المفهوم عندنا — كانت تعتبر مركز الحياة عندهم . وتتحدد

المكانة الاجتماعية هناك على أساس النسب والبكورة primogeniture ، أعنى التمسك بقدر الإمكان بمبدأ الابن الأكبر للابن الأكبر للابن الأكبر وهكذا. وتلعب المكانة الاجتماعية فى حياتهم دورا عظيماً خاصة وأن فكرة الطبقة التى كانت تسود جنوب شرقى آسيا خضعت لتحسينات وتطورات هائلة عندهم ..

فى ساموا Samoa كانت القرية أو الإقليم يخضع لحكم نوع من «مجالس اللوردات» يتألف من عدد من ذوى الألقاب المتوارثة . وكان النبلاء فى الشرق على أية حال ، وعلى رأسهم الملك ، يسيطرون على العامة ، بينما يشغل العبيد أدنى المستويات . وقد ساعد هذا التدرج التصاعدى على اتساع نطاق السلطة والنفوذ كما حدث فى هاواى وتونجا وفيجى حيث تمكن الملوك من غزو بعض الأقاليم الواسعة ، بل إنهم أخضعوا لحكمهم فعلا أرخبيلا كاملا . وكان هذا كله يجد له سندا من الدين ، لأن عبادة الأسلاف التى كانت معروفة فى جنوب شرقى آسيا ظهرت هناك فى ثوب جديد : فقد وصلت النسب البشرى بالنسب الإلهى على أساس أن الآلهة هى الأسلاف الكبرى للناس ، وأن الملك هو أسمى ذريتها فى الأرض ، ومنه تتسلسل بقية الخلق .

وإلى جانب ذلك كانت توجد فكرة المانا mana بالمعنى البولينيزى — وهى أكثر تهذيبا من الفكرة الميلانيزية . فلكل امرىء حظ معلوم من المانا يحقق بعضه بالمرانة والمهارة ولكنه يرث معظمه من أصله ونسبه ، بحيث يتمتع الملك بأكبر نصيب منها ، ولا يقل فى ذلك إلا عن الآلهة ذاتها . وقد يبلغ مقدار ما يتمتع به من المانا أن مجرد اتصاله برجل من إحدى الطبقات الدنيا يؤدى إلى استنزافها — أى تدنيس الملك — وموت الرجل الآخر لأن تكوينه أضعف من أن يتحمل تلك المانا الزائدة الإضافية . ولذلك كان الملك وغيره من أصحاب المراتب العليا يعتبرون « تابو tabu » — باختصار — أو « بوت boot » حسب التعبير البولينيزى . وهذا هو

١٣
جماعات الرعى والزراعة فى افريقيا

اعتاد الناس ، لأسباب يمكن حدسها ، إطلاق اسم « القارة المظلمة » على أفريقيا . أما الآن فقد كدنا نكتشف كل شبر فيها ، وقد أصبح واضحا أن ثروتها الطائلة من مخلفات ما قبل التاريخ كفيلة حين يتم الحفر والتنقيب عنها بأن تجعل أوروبا تبدو أمامها أشبه بصالة عرض ثانوية .

ولم تمدنا أفريقيا بأقدم ما نعرفه من الآلات فحسب ، بل أمدتنا أيضا بمجموعة من الصناعات الحجرية التى تماثل فى اكتمالها المجموعة الأوروبية ولكنها تفوقها فى التنوع . زد على ذلك أن القارتين كانتا متصلتين إحداهما بالأخرى وكان لهما اتجاهاتهما الخاصة فى تطوير أشكال وطرائق الصناعات الحجرية الأشولية والليفالوازية . ولكن ليس لدينا فكرة واضحة عن الشعوب التى كانت تهتم بتلك الصناعات أو علاقتها بالحاضر إلا فى جهتين اثنتين فقط من أفريقيا : فى الشمال ، حيث كانت تعيش فى العصر الحجرى القديم الأعلى شعوب تشبه أقوام الكرومانيون وذلك قبل أن تصل موجات اللاجئين البيض الأواخر الذين جلبوا معهم ثقافتهم النيوليثية على ما حدث فى أوروبا تماماً ؛ وفى الجنوب ، حيث كان البوشمن ينتشرون انتشارا كبيرا فى وقت من الأوقات ، وكان البوشمن لا يزالون يعيشون فى ماضيهم الأركيولوچى حين بدأت حركة طردهم وإبعادهم إلى موطنهم الصحراوى الذى يتكدسون فيه الآن . ولقد تكلمنا عن البيض وعن البوشمن من قبل ، وبين هذين الشعبين يعيش الزنوج الذين يشكلون لغزا هنا كعهدهم دائما .

والصحراء الكبرى — وهى امتداد حقيقى للصحراء العربية التى تقع على الجانب الآخر من البحر الأحمر — تقف عقبة كؤودا أمام الناس من بدائيين ومتمدينين . وقد كانت هذه عادتها دائما على الرغم من أنها

كانت تتمتع فى بعض الأحيان فى العصر الجليدى بنصيب أكبر من الخصوبة ولذا كان شمال أفريقيا يعيش فى عزلة عن بقية القارة ، بينما يرتبط على العكس ارتباطا وثيقا بأوروبا باعتبارها الشاطىء الآخر للبحر المتوسط . ولذا اضطرت أيضا جماعات الوافدين الذين جاءوا فى العصر الحجرى الحديث حاملين معهم ثقافة جنوب غربى آسيا إلى السير بمحاذاة ساحل البحر المتوسط. وقد استمر سير الحياة فى هذين الخطين المتوازيين على جانبى ذلك البحر لفترة من الزمن حتى اندحرت روما ودمرت قرطاجنة (فيما يعرف الآن باسم تونس) . ومنذ ذلك الحين انزوى شمال أفريقيا عن أوروبا المسيحية. وكان للعرب الغزاة تأثير هائل على البربر القدماء . ويعد ذلك أهم التطورات التى حدثت فى العصور التاريخية .

ثقافات ومناطق أفريقيا

أما بخصوص الاتصال بالزنوج جنوبى الصحراء ، فإن الصحراء لم تفتح

أبوابها إلا للإبل وجدها. ولقد وجد الجمل طريقه من آسيا إلى بلاد العرب في وقت أكثر تبكيراً ولكنه لم يصل إلى شمال أفريقيا إلا حوالى عام ٤٠٠ ميلادية، وعندئذ استقل بعض البربر — كما فعل البدو من قبل — إلى الصحراء وتألفت منهم عشائر الطوارق — ومعناها المغيرون — الذين يعيشون على تربية الإبل. وبهذه الوسيلة أخذت التجارة والعبيد ومن بعدهما التأثير العربي والدين تشق طريقها عبر الصحراء. ولكن حتى مع ذلك ظلت الغابات الممتدة في جنوب الصحراء وكذلك الشاطىء الغربي الذى لا يصلح للملاحة تقف حجر عثرة أمام الاتصال الحر بالزنوج.

ومع أن الصحراء كانت تشطر القارة شطرين فإن ذلك لا يعنى أن القسم الجنوبى منها كان يعيش بمعزل عن المؤثرات الأخرى. فالواقع أنه يوجد فى أفريقيا السوداء نوعان أساسيان من الثقافة «النيوليثية» يرجعان فى الأصل على ما يبدو إلى مركزى استنبات الطعام فى آسيا، وهما مركز الشرق الأدنى ومركز جنوب شرقى آسيا على الترتيب. ولعلكم تدركون أن هاتين الثقافتين تنتشران الآن فى بيئتين مختلفتين تماما هما الغابة وإقليم المراعى.

رعاة الماشية فى الشرق والجنوب

ولقد وصل البيض القدماء بماشيتهم وحبوبهم إلى شرق أفريقيا. ومن المحتمل أنهم ذهبوا إلى بلاد العرب من ناحية، وإلى أثيوبيا وقرن أفريقيا من الناحية الأخرى. ويظهر امتزاج السلالات واضحا فى إثيوبيا حيث يتمثل فى شكل الأنف وتدرج لون الجلد. وينتشر هذا العنصر الأبيض فى كل أنحاء القارة ولكن بدرجة أقل وضوحاً. أما الماشية والحبوب التى جلبوها معهم فقد امتدت إلى مناطق أوسع وربما صاحبها فى ذلك التغلغل بعض الأفكار الأخرى، ولذا كان رعاة الماشية ينتشرون انتشارا واسعا جدا فى كل المنطقة بين النيل الأبيض والطرف الجنوبى للقارة. ولو أتيح لكم زيارة تلك المناطق أو مشاهدة أحد الأفلام السينمائية التى تم تصويرها

في شرق أفريقيا فسوف تلاحظون مدى الاختلاف في مظهر الناس : فهناك الشعوب الفارعة كأعواد الفول مثل الشيلوك والدنكا والنوير النيليين؛ وهناك الماساى والناندى الذين يعيشون على صيد الأسود ؛ وهناك الواتوسى المغرمون بالرقص وغيرهم من قبائل منطقة البحيرات الذين يحبون التأنق والتزين ؛ ثم هناك القبائل الجنوبية الكبيرة كالزولو والباسوتو والبتشوانا . ولكنها كلها تخضع لنمط واحد كما هي الحال في إندونيسيا وميلانيزيا : فالأهالى يعيشون في قرى وكفور تتألف من بيوت مستديرة مبنية من اللبن ومغطاة بالطين والقش ، كما قد تقام حولها الأسوار لحمايتها من الأسود .

وينتظر المجتمع من الرجل أن يكون بطلا محاربا وأن يتقن الرماية بالحراب وأن يشتغل بالرعى ، وذلك لأن الماشية هي مركز الاهتمام هناك. ومع ذلك فلا يمكن اعتبار الناس رعاة مهرة كالآسيويين مثلا : فقد يخرج بعضهم للرعى لفترة معينة من السنة ولكنهم ليسوا من الرعاة الرحل بالمعنى الدقيق للكلمة . واللبن أهمية خاصة عندهم ولكنهم قليلا ما يأكلون لحم البقر إنما يحصلون على حاجتهم من اللحم عن طريق الصيد . والواقع أن الزراعة تفوق الماشية في الأهمية باعتبارها هي عماد الطعام . والمحصول الرئيسى هناك هو الصرغم ، وقد رأينا أنه من الحبوب القديمة جدا ، ولكن أدخلت بعض الحبوب الأخرى كالذرة من أمريكا وبعض الخضراوات العادية . ومع ذلك فلو قضى على أحدكم أن يعيش في شرق أفريقيا فمن الأفضل له أن يهتم بالبقر .

وليست الماشية مجرد دواب وبهائم بالنسبة لهم ، وإنما هي بالأحرى حيوانات مدللة ونقود . وفي بعض القبائل لا يعتز الرجل بشيء قدر ما يعتز ببقرته أو بثوره المفضل . وقد يصل هذا الشعور في بعض الأحيان إلى حد يستحق اهتمام الطبيب النفساني ، لأنها تملك على الناس كل مشاعرهم وتفكيرهم . فالماساى يستخدمون ألفاظا خاصة بالأشياء التي تتعلق بالماشية

تمييزا لها عن الأشياء العادية ، كما يوجد عند كثير من القبائل ذلك النوع من القانون الشعائرى الخاص الذى قد نجد له مثيلا فى « العهد القديم » عن تحريم أكل اللحم فى الوقت الذى يمكن فيه تناول أنواعا أخرى من الطعام . أما فى معظم أنحاء المنطقة فإن الماشية تحتل ببساطة مكانة عالية كنوع من الثروة التى يتوقف عليها المركز الاجتماعى للشخص إلى حد كبير. كذلك تلعب الماشية دورا فى حياة العائلة وبخاصة فى تدعيم رابطة الزواج على ما يتمثل فى العادة المعروفة باسم « اللوبولا lobola » .

واللوبولا هى ثمن العروس (أى المهر) الذى يدفعه الرجل من أجل زوجته . ولكن ينبغى لنا أن نتعمق قليلا فى فهم معنى هذه العادة قبل أن تأخذنا العزة ونغضب لما قد نعتقده نوعاً من شراء الزوجة . صحيح أن الشاب يدفع الأبقار إلى عائلة خطيبته ، وصحيح أيضاً أنه كلما زاد عدد الأبقار التى يدفعها كان ذلك أدعى لاغتباط تلك العائلة، ولكن أهل الفتى أنفسهم ليسوا على استعداد لأن يظهروا بمظهر « الرخص » أو أن يحصلوا على زوجة « زهيدة » لابنهم. فالمسألة تهم — سواء من ناحية الواقع أو المشاعر — العائلة كلها من كلا الجانبين، بمعنى أن عدداً كبيراً من أقارب الفتى يسهمون فى جمع (اللوبولا) كما أن عددا كبيرا من أقارب الفتاة يشاركون فى الاجراءات ، وذلك لأنه حيث يبلغ النظام أشد قوته فإن (اللوبولا) تعتبر عملية طويلة وتحويلا أساسياً فى الثروة وليست مجرد مساومة بالأبقار للحصول على فتاة صغيرة .

ويبدأ دفع الأبقار بالخطوبة ويستمر حتى الزواج . وقد يكون العدد المطلوب من الماشية كبيراً بحيث يتأخر إتمام الزواج عدة أعوام ، بل قد يستمر الدفع بعد الزواج حتى ينجب الزوجان . ولكن هذا لا يعنى أن كل فرد من أهل العروس سوف يصيبه شىء من البر . فالماشية هى ثروة العائلة — أى إنها ثروة اجتماعية تشبه القيمة الاجتماعية التى يحققها لأنفسهم الأفراد الذين يشتركون فى « الكولا » أو الذين يبتاعون بنقود المحار المراتب والدرجات فى الجمعيات السرية كما هى الحال فى ميلانيزيا . ولذا كان

لا بد من العمل على تنمية هذه الثروة واعتبارها المورد الذي يعتمد عليه شبان العائلة بدورهم في البحث عن زوجات لهم . وقد يضطر الفقراء في مختلف القبائل إلى دفع «اللوبولا» من الماعز أو حتى من الأدوات الحديدية، ولكن هذه الأشياء هي مجرد تقليد أو محاكاة ، كما أنها خالية من المعنى الذي تحمله الماشية .

ولو أدركنا القيمة الاجتماعية للماشية لرأينا أن « اللوبولا » ليست تعويضا بقدر ما هي رباط بين عائلتين . وهو رباط مستمر دائم ، أي إنه شيء أكثر من مجرد العلاقة بين العروسين نفسيهما . فالروابط بين العائلات هناك أقوى وأوثق مما هي عندنا ، وحين تخلق « اللوبولا » تلك الرابطة بين عائلتين فإنها تساعد في الوقت نفسه على دعم كل منهما أيضا من الداخل. فجوهر الزواج يقوم إذن في معظمه على الماشية ، وهذه هي النظرة الغالبة في شرق أفريقيا . وقد يكون في هذا القول شيء من المبالغة ، ولكن الواقع أن الزواج هو فرصة لدفع « اللوبولا » وليس العكس . فالزواج هو الذي يساعد على انتقال الماشية بين العائلات .

والوقائع ذاتها تؤيد ذلك ، فالزوجة عند الشيلوك لا تستطيع أن تطلق زوجها طلاقا بائنا ، إلا إذا ردت عائلتها الماشية له ، وإلا فإنه يحتفظ بالأولاد الذين جاءوا ثمرة لهذا الزواج . ولكنه يحرص من ناحيته على إرضاء أهل زوجته لأنهم يستطيعون مطالبته بالمزيد من الماشية إن مات شيء من الصفقة الأساسية . فاللوبولا « هي » الزواج ، والأطفال هم أبنـــاء الأشخاص الذين دفعوا اللوبولا . فإذا مات الزوج وتزوجت أرملته مرة أخرى اعتبر الأطفال الذين تنجبهم أبناء للزوج الميت[1] ، بل إنه ينتظر

(١) ليس هذا في الواقع (زواجا) بمعنى الكلمة ، لأن من شروط الزواج دفع «اللوبولا» التي يترتب عليها انتماء الأولاد إلى الجماعة التي قامت فعلا بدفعها . أما في الحالة التي يشير إليها المؤلف فالأمر لا يخرج عن السفاح للأرملة — باعتراف المجتمع — أن تعاشر أحد أفراد عشيرة الزوج لتنجب منه أولادا يحملون اسم الزوج الميت وليس اسم الوالد الذي أنجبهم . المترجم

منها — سواء تزوجت أم لم تتزوج — أن تنجب بعض الأطفال ، وقد يكون ذلك من أخي زوجها ، حتى « تربى البذرة » للزوج في قبره . وليس في هذا ما يدعو إلى الغرابة في الواقع ، لأن الزواج يظل قائماً بين نفس العائلتين بنفس الأقارب كما لو كان الزوج حياً . والشائع هناك أن تتزوج الأرملة من أخي زوجها وتظل محتفظة تقريبا بمركزها الأصلى . فاذا نظرنا إلى المسألة من زاوية (اللوبولا) لوجدنا أن الزواج الأصلى ظل قائماً لم يتغير ، أما إذا كانت الزوجة هي التي ماتت وبخاصة إذا لم تكن أنجبت على الإطلاق أو تركت عددا قليلا من الأطفال فإنه ينتظر من عائلتها — وهذا هو ما يقضي به الواجب — أن ترسل أختها إلى الزوج : نفس (اللوبولا) ونفس الزوج . وأخيراً (وليس هذا بالأمر النادر الحدوث لأنه يوجد في غرب أفريقيا أيضاً) فإن المرأة المتقدمة في السن وكذلك الأرملة ذات المكانة الاجتماعية قد تزيد وتدعم سلالتها بأن (تتزوج) هي ذاتها من فتاة صغيرة ، فتدفع لها (اللوبولا) ثم تختار لها من الرجال من ينوب عنها في إنجاب الأطفال من هذه (الزوجة) . وليس في هذا أيضا شيء غريب أو غير معقول إذا نظرنا الأمر من ناحية (اللوبولا) . ونستطيع أن نلاحظ ، بهذه المناسبة ، أن الوالد الحقيقي قد لا يكون هو الأب الاجتماعي للطفل على الإطلاق [٢] .

وقد تدهشون لذلك ، ولكنني لن أطالبكم باعتناق أية فكرة من هذه

---

(٢) الوالد الحقيقي genitor أو الفيزيقي أو البيولوجي كما يسمى أحيانا هو الذي أنجب الطفل فعلا سواء انتسب إليه الطفل بعد ذلك أو لم ينتسب . فدوره إذن مقصور على عملية الإنجاب وذلك بعكس الأب الاجتماعي pater الذي يعطى الطفل — سواء أكان هو الذي أنجبه أو أنجبه شخص آخر — له اسمه ومكانته الاجتماعية . والمهم عند هذه الشعوب وبخاصة شعوب شرق أفريقيا وبعض قبائل السودان الجنوبي مثل النوير هو الأبوة الاجتماعية ، وهذه يقررها (المهر) . بمعنى أن الشخص الذي دفع المهر يصبح آليا هو الأب الاجتماعي لكل الأطفال الذين تنجبهم زوجته منه شخصيا أو من غيره . (المترجم)

الأفكار ، كما لم أسبالكم من قبـــل أن تنقلبوا قردة أو أن تقلبوا نظام الطوائف الهندية . وكل ما أريد أن أبينه هنا هو أن الصلات القوية التى تقوم بين العائلات المهمة وكذلك استقرار الحياة الزوجية والروابط العائلية وبخاصـة بالنسبة للأطفال هى مثل أصلية كامنة فى النسق الاجتماعى عند شعوب شرق وجنوب أفريقيا ، وأن « اللونولا » تتخذ من القيمة الاجتماعية والاقتصادية للماشية وسيلة لتشجيع وتقوية النظام كله وتركيز الاهتمام عليه. بل إن هذا يحدث دون أن تتدخل العائلة رسمياً فى الزواج مثلما كان يحدث فى أوروبا فى القرن التاسع عشر مثلا فالأفريقيون يتركون للشباب أنفسهم فى العادة مهمة اختيار القرين ، كما أن عندهم كثيراً من العادات اللطيفة التى تتعلق بالمغازلة والخطبة والزفاف وتهدف إلى توكيد هذا الجانب الشخصى .

وليس هذا هو كل شىء . إذ توجد فى بعض المناطق « مدارس للزواج » وهى إحدى الصور التى يتخذها نظام إعداد الشباب لمرحلة النضج والرشد ، أو « شعائر التكريس » التى تمارس فى كثير من أنحاء العالم . وتتفاوت هذه الشعائر فى القسوة ونوع التوجيه من قبيلة لأخرى . ولكنها تمارس على الجنسين سواء فى مجتمعات أفريقيا الرعوية ، بينما تخضع الفتيات فى معظم أنحاء العالم لصورة مخففة منها فقط . فقبائل البافندا Bavenda فى جنوب أفريقيا يفصلون بين الجنسين عند البلوغ ويخضعون الجميع لنوع من التدريب الصارم العنيف على الأصول المتعلقة بآداب السلوك والحياة الجنسية ، ويفرضون عليهم الصوم والجوع والسهر والوقوف فى مياه النهر الباردة وأداء بعض الرقصات الشاذة الغريبة ، وقد يهصرون أصابعهم بعنف أو يضعون أيديهم فى رماد النيران الساخن ، كما يقذفون الفتية بكثير من الأشياء ، ويضطرون الفتيات إلى الزحف فوق الأرض على بطونهن على أساس أن الشقاء والمتاعب يظلان عالقين بالذاكرة . ثم يجتمع الفتية والفتيات مرة أخرى فيمضون معاً فترة أخرى من التعليم والتدريب تستغرق

بضعة شهور ويستخدم فيها بعض التصورات الرمزية عن معنى الزواج والسلوك المهذب . ويلقون أثناء ذلك كله كثيراً من المصاعب والعنف والارهاق . أما الزولو فإنهم يبدون قدراً اكبر من ضبط النفس . فلا يضربون فتيانهم وإنما يكلون إليهم بدلا من ذلك مهمة الإشراف على القرى لفترة معينة من الزمن حتى يتمرنوا بشكل مباشر على الطريقة الصحيحة لتصريف الأمور .

وعلى العموم فإن الفتية — بوجه خاص — يصادفون كثيرا من المتاعب والعذاب . إذ تجرى لهم عملية الختان فى العادة (وقد تخضع الفتيات أيضا لشىء من هذا القبيل) أو قد تقطع فى جباههم بعض الندبات والجروح العميقة أو تخلع بعض أسنانهم الأمامية وذلك بالإضافة إلى بعض الرسميات الكريهة الأخرى التى تقضى فى العادة بإرسالهم إلى الأدغال ليعيشوا فيها بمفردهم معتمدين على أنفسهم . أما الماساى ، وهم شعب ثائر عنيف يميل إلى الحروب والإغارات ، فقد استعاضوا عن التكريس على الأقل ببعض المظاهر التى يعتقدون أنها أقرب إلى قلوب الشباب . فحين تتألف زمرة من الفتيان الذين قاربوا سن الرشد فإنهم يدعونهم ينتقلون بين القرى لجمع الهدايا التى يقدمونها بعد ذلك إلى شيوخ القبيلة رجاء أن يأذنوا لهم بإقامة حفل « إمساك الثور » ثم يؤتى بثور أسود ، ويفد الفتية من كل فج للمباراة ، ويحاول كل منهم أن يتعلق بظهر الثور أو بقرنيه وأن يبعد أى شخص آخر عن الثور إلا إذا كان من العشيرة ذاتها فيساعده على ذلك . وقد يسقط عدد غير قليل من الجرحى ، كما أنه لا يوجد حد معين للفوز تنتهى عنده المباراة ولكنهم يتوقفون عن اللعب حين يشاءون ، ثم يذبحون الثور — إن ظل حيا حتى تلك المرحلة — ويأكلون لحمه ويتخذون من جلده خواتم يزينون بها أصابعهم . ويختن الفتية بعد ذلك فرادى وفى أوقات متفاوتة وبدون أى احتفال ، وهو أمر يؤذى الأم بقدر ما يؤذى الفتى

ذاته تقريبا ، لأن الناس يضربون الأم التى يصرخ ابنها من الألم . ويمضى الفتية بعد ذلك فترة تدريب وتمرين يهيمون أثناءها على وجوههم ثم يجتمعون معا من جديد ، فتحلق كل أم شعر ابنها كما يمنحه أبوه بعض السلاح .

وبذلك يصبح الفتية رجالا ويتكون عندئذ نظام آخر من نظم شرق وجنوب أفريقيا وهو نظام مراتب العمر أو طبقات المحاربين الأبطال . وتؤلف هذه الجماعة التى تشبه الجنود الاحتياطيين أصغر فرقة فى الجيش العامل من حيث السن . ويلبس المحاربون عند الماساى ويتزينون بطريقة تلفت الأنظار ، ويحرم عليهم الزواج ما داموا يشغلون تلك المرتبة ، إنما يعيشون فى قرية العزاب حيث تتردد عليهم أمهاتهم لإعداد الطعام لهم ، كما قد تعيش معهم الفتيات غير المكرسات . ولكن سلوك هؤلاء الفتيات أنفسهن لا يلبث أن يتخذ طابعا أكثر تحفظا بمجرد تكريسهن الذى يتم فى سن متأخرة — وقد يبدو أنه يتم بعد فوات الأوان، ولكن هذه هى القاعدة على أية حال . ولا يوجد هذا النسق عند الماساى وحدهم ، بل توجد أنساق مشابهة له عند كل القبائل التى تعيش فى تلك المنطقة . ويؤلف هؤلاء الفتية المكرسون أحدث جماعة من جماعات المحاربين الذين يوكل إليهم أمر الدفاع عن الوطن ، بينما تنتقل كل طبقة من الطبقات العليا إلى مرتبة أرقى، وبذلك يتغير مركزها الاجتماعى أو تتقاعد ، كما أن الرؤساء أو شيوخ القبيلة قد يختارون من إحدى هذه المراتب العليا بالذات . وهذا النسق هو ذاته الذى استغله شاكا chaka — نابليون الزولو البغيض — فى بداية القرن التاسع عشر لأغراضه الخاصة حين حول طبقات العمر — وهى نوع من جنود الرديف — بشكل مباشر إلى كتائب فى الجيش الذى استخدمه فى فتوحاته .

وليس للعزلة المحلية التى لاحظناها فى جنوب شرقى آسيا وجود فى هذه المنطقة ، لأن التجمعات القبلية التى تخضع لرئيس واحد أو لملك واحد هى القاعدة . وتعتبر العشائر وأنساق القرابة من أهم المميزات هنا . وقد

تقوم بعض العلاقات الاجتماعية بين العشائر المختلفة كما قد يعتبر شيخ إحدى تلك العشائر هو الملك بطريقة آلية . ولكن الوحدة المهمة هنا هي العائلة التي يشرف عليها رئيس خاص ، وتترتب العائلات في نظام صعودي مؤلفة القرى فالأقاليم فالقبائل التي يخضع كل منها لرئيس أعلى . وقد تغير العائلات أو الزعماء ولاءهم من رئيس لآخر ، ولهذه القدرة الحرة على تكوين التجمعات السياسية وتغييرها أهمية بالغة نظرا لأنها تؤثر في السياسات الاستعمارية . فبلاد الباسوتو Basutu الحديثة مثلا نشأت نتيجة لتضخم قبائل الباسوتو الأصلية بعد أن انضم إليها كثير من الحلفاء والمشايعين الجدد الذين كانوا يبحثون عن نقطة للتجمع وعن ملجأ يفرون إليه من الزولو أيام حكم شاكا . وليس من السهل أن نقول إذا ما كان لهذا النمط من العائلة الكبيرة التي تخضع لرئيس واحد أية علاقة بنمط العائلة في ثقافة الشرق الأدنى القديم إبان العصر الحجري الحديث .

وقد يكون للملك أهمية في الدين . وقد يكون هو نفسه ذاتا مقدسة . فالملك عند الشيلوك هو «صانع المطر» وسليل المعبود نياكانج Nyakang وتجسيده الحي (على ما كان يحدث في مصر) ، ولذا يجب ألا يترك ليهرم أو يشيخ أو يفقد حيويته حتى لا تتعذب الروح الإلهية التي تحل فيه . وليس هناك ما هو أبسط من ذلك ، إذ من السهل قتله أو دفنه في حائط الكوخ قبل أن يتقدم به العمر ، ثم البحث عن خليفة له من بين أفراد السلالة الملكية الذين يصلحون المهمة . وللملك في جنوب أفريقيا صلة بالزرع والمحصولات ، ولكن وظيفته تقتصر على الكشف والتنبؤ ، فهو الذي يحدد الوقت المناسب للزراعة ، وهو الذي يضمن صلاحية البذور وجودتها .

وفي منطقة المراعي السودانية التي تمتد إلى الغرب من شرق أفريقيا وإلى الشمال من جنوب القارة توجد عدة ثقافات مختلفة تعتمد كلها على الرعي

وعلى الزراعة ، كما يظهر بينها بشكل واضح قوى تأثيرات البربر والعرب والإسلام ، بينما يتمثل امتزاج الشعوب فى ظهور نظام للطبقات والطوائف يحتل الرعاة فيه مركز السيادة . ولكن القبائل هناك من كل نوع ولون : فبعضها أقرب إلى الجنس الأبيض بينما يغلب على البعض الآخر العنصر الزنجى ، وبعضها يتألف فى الأغلب من الرعاة الرحل بينما يتكون البعض الآخر من الزراع المستقرين ، وبعض هذه الشعوب يؤلف أمة واحدة كبيرة بينما يخضع البعض الآخر لحكم سلاطين يشبهون أمراء العصور الوسطى .

غابات الكونغو

إلى الجنوب من ذلك ، أى فى غابات ساحل غينيا وحول حوض نهر الكونغو ، توجد منطقة ثانية رئيسية من مناطق الزنوج التى تضم أيضا فى بعض جهات الكونغو ، جماعات الأقزام المتجولين الذين يعيشون على القنص . والزنوج لا يشتغلون بالرعى لأن الغابة تطرد الماشية ، ويساعدها فى ذلك ذبابة التسى تسى التى تحمل المرض ، ولكنهم يربون الماعز والخنازير والدجاج وبعض الغنم . فإذا احتاجوا بعد ذلك إلى مزيد من اللحم لجأوا إلى القنص . ولبعض القبائل خبراؤها المتخصصون فى الصيد ، بينما يترك البعض الآخر هذه المهمة للأقزام ثم يدفعون لهم فى مقابل اللحم السلع التى لا يستطيع الأقزام صنعها أو الحصول عليها بأنفسهم كالأدوات الحديدية والخضراوات التى ينتجها الزنوج .

والواقع أن المصدر الحقيقى للطعام عند الزنوج هو الحدائق التى تزرع فى الغابات بعد إزالة الأشجار بالقطع والإحراق ، ثم تفلح باستخدام الفأس . ويزرع الزنوج كثيرا من المحصولات والتوابل وغيرها ، كما أنهم يتقنون الطبخ كالبلانيزيين : وجانب كبير من محصولاتهم فى الوقت الحاضر يتألف من النباتات الجديدة مثل المانيوك والحنطة التى جلبت من أمريكا

(وكذلك الطباق) أو الأرز الذى أدخل إليهم من آسيا . أما النباتات القديمة الهامة فهى اليام والتارو والطلح التى جلبت على ما يبدو من جنوب شرقى آسيا . كذلك توجد عندهم — إلى حد ما — مزارع واسعة من جوز الكولا (وهو نوع هام من التوابل والمخدرات) ونخيل النبيذ ونخيل الزيت . ويظل الناس يستغلون هذه الأشجار حتى بعد أن ينقلوا قراهم وحقولهم إلى مكان آخر بوقت طويل .

وتتألف ملابسهم فى أبسط صورها من مئزر من لحاء الشجر يلف حول العجز بالنسبة للرجل ، ومن نقاب « نباتى » ينسج من سعف النخيل بالنسبة للمرأة . فهى تختلف إذن عن الملابس الجلدية التى يستعملها سكان شرق أفريقيا ، وهى بذلك تذكرنا بسكان ميلانيزيا . كذلك يقطعون أنماطا من الندبات فى جلودهم — وبخاصة فى الوجه — مثلما يفعل الميلانيزيون ، ويبردون أسنانهم بقدر معين ، كما يحبون قص شعرهم فى أشكال ورسوم مختلفة بحيث يبدو أشبه بالحدائق الصغيرة المنتظمة فى فروة الرأس .

وإلى جانب ذلك يجيد الزنوج نسج الملابس . والواقع أنهم صناع وفنانون مهرة فى كثير من النواحى . صحيح أنهم لا يهتمون بصناعة الفخار ولكنهم يمتازون فى الحفر على الخشب لدرجة أن تماثيل معبوداتهم والكراسى الصغيرة التى يصنعونها وطريقة الحفر الحر التى يتبعونها لم تجد طريقها فحسب إلى معارض الفن فى بلاد الغرب المتحضر ، بل إنها أثرت أيضا فى فن الرسم الغربى نفسه . كذلك هم يتقنون الشغل على الجلد والسعف (وكثير منهم يرتدون قبعات من السعف) والعاج . وأخيرا فإنهم يجيدون فن التخاطب باستخدام الطبول . وقد بلغت موسيقاهم الشعبية درجة عالية من التقدم .

ومن أكثر الفنون روعة عندهم الشغل على الحديد (والمعادن الأخرى) . ويعتبر زنوج أفريقيا أبرع الشعوب غير المتحضرة فى سبك الحديد

من الحديد الخام حتى النصال المصقولة المهذبة . صحيح أن سكان شرق أفريقيا يعرفون هذه الصناعة ، إلا أن ثمة ميلا غريبا عندهم للتباعد عن الحدادين باعتبارهم أقل منهم فى المكانة والمنزلة لدرجة أنهم قد لا يسمحون لهم بالزواج من بقية المجتمع ، وذلك على العكس من الاحترام الذى يتمتع به الحدادون فى الكونغو . ويعتبر الحدادون فى شمال أفريقيا أيضا فئة محتقرة ومستضعفة ، ويبدو أنهم جميعا من المتزنجين أيضا ، وهى ظاهرة قد يمكن ردها إلى استيراد العبيد الزنوج للقيام بالحدادة . كذلك يستخدم سكان الكونغو الحديد فى صناعة القوس والأسلحة ومنها « سكين الرمى » المخيفة ، وهى سلاح رقيق حاد يشبه السمكة النجمية ، وحين يقذف بها فإنها تشق طريقها إلى العدو وهى تدور حول نفسها بسرعة . وقد يبدو غريبا أن توصف هذه الثقافة الزنجية بأنها ثقافة نيوليثية (العصر الحجرى الحديث) بينما هى أقرب إلى « العصر الحديدى » نظرا لاستخدام الحديد فيها . ولكن ينبغى أن نتذكر أن كلمة «نيوليثى» تشير إلى نوع الاقتصاد وإنتاج الطعام ، أما الحديد فهو مجرد مادة تحل محل الحجر دون أن تحدث اختلافات أخرى فى الحياة . فالأقزام مثلا يستخدمون المدببات والسكاكين الحديدية ويحصلون عليها عن طريق التجارة ، ولكنهم — فيما عدا ذلك — يعيشون على أفضل تقدير فى المرحلة «الميزوليثية» (العصر الحجرى الوسيط) من مراحل الحياة .

ولا تختلف القبائل التى تعيش فى غابات الكونغو عن الرعاة الشرقيين فى أفكارهم الاجتماعية . فالمجتمعات المحلية أو القرى تميل إلى الصغر ، ومع ذلك فإنهم يعرفون « الملوك » والتجمعات الكبيرة ، كما يشبهونهم فى نوع العلاقات وفى دفع « المهر » قبل الزواج . ويبلغ النسق القانونى والقضائى عندهم درجة معينة من التعقيد ، إلا أن الناس فى كلتا المنطقتين يعتمدون اعتمادا كبيرا على الوسائل السحرية لتسوية المنازعات والقضايا الجنائية . فسكان الكونغو يستخدمون «أورداليا» السم حيث يقدم للمتهم السم الذى

سوف يصدر حكمه بالإدانة أو البراءة بأن يؤثر فيه — أو لا يؤثر — بحسب الحال ، أو قد يسوى الخصمان منازعاتهما المدنية عن طريق اختبار قدرة كل منهما على مقاومة تأثير السم لمدة أطول ، أو قد يقدم السم إلى دجاجة — ثم يوجه إليه — أى إلى السم الذى يعتبر وسيطا عاقلا وليس إلى الدجاجة — السؤال المطلوب الإجابة عنه ويطلب إليه فى احترام أن يقتل الدجاجة التى سوف يستقر فى جوفها إن كان الجواب بالإيجاب ، وعدم الإضرار بها إن كان بالنفى .

والعبادة الدينية الأساسية هناك هى تقديس الأسلاف ، وهى من نوع بسيط لطيف . كذلك يتم تكريس الشبان عن طريق بعض الشعائر العنيفة المرهقة ، ولكن بينما يهدف ذلك الإرهاق والتعذيب فى المنطقة الشرقية إلى التعليم والتهذيب ، فإنه يرتبط فى الكونغو فى الأغلب بالجماعات السرية التى ترتاب فى كل ما يدور حولها ، وتميل إلى الإرهاب ولا تتورع عن قتل أحد أعضائها الجدد وأكل لحمه من حين لآخر . وتمثل هذه الجمعيات الاختلاف القائم بين مناطق المراعى ومناطق الغابات ، ولكنها تمثل أيضا التشابه الموجود بين الكونغو وميلانيزيا (والشىء ذاته يمكن أن يقال عن أكل لحوم البشر) لأنها تهدف إلى تشخيص الأشباح واستخدام الإرهاب لإجبار الجماعة المحلية كلها على اتباع القانون ، وكذلك إخضاعها جزئيا لسلطان الجمعية التى تعتبر شيئا خارج النظم المألوفة والتى تشبه بعض النواحى جماعة الكو — كلوكس — كلان Ku-Klux-Klan القديمة .

وثمة مظهر آخر طريف فى حياة الكونغو ، وهو الأسواق . فالتجارة البسيطة نظام معروف بالطبع فى جميع أنحاء العالم ، والزنوج يمارسونها مع الأقزام . أما فيما بينهم فإنهم يعقدون الأسواق كل أربعة أيام (وهو الأسبوع العادى فى الكونغو) ويعرضون فيها السلع والطعام للبيع . وقد يدفع الثمن عينا فى شكل طعام أو زيت ، ولكن لديهم مع ذلك عملة حقيقية

تتألف من محار الكوزى الذى يجلبونه من المحيط الهندى ، أو من الفؤوس الحديدية . ويعتبر ذلك بداية لإدخال نوع جديد من التنظيم إلى التجارة ، وهو تنظيم مألوف لنا نحن . وذلك لأن عقد الأسواق معناه أن يحل النظام الثابت محل التبادل العشوائى . ويهدف هذا النظام الثابت بصراحة إلى الجمع بين المشترين والبائعين فى مكان واحد . فهو — كنظام تجاري — لا يعتمد على الصلف والادعاء الاجتماعيين اللذين تقوم عليهما حلقة «الكولا» .

ولن أحاول دفع التفرقة بين الاثنين إلى أبعد من ذلك . فوجود الأسواق فى مثل هذا المجتمع الزراعى البسيط لا يغير الثقافة تغييرا جوهريا عن الثقافات الأخرى المماثلة ، بل لعل الفرق بين هذه السوق وبين جلوس إحدى نساء هنود البويبلو لبيع الأوانى الفخارية على قارعة الطريق ليس كبيرا جدا . وثمة بعض الشعوب « النيوليثية » تقوم برحلات تجارية محددة أو تضع خططا أخرى للتجارة ، كما أن بعض الشعوب مثل سكان بلاد الريف أو البدو كانوا منذ وقت بعيد على اتصال بأنماط الحياة الأكثر تقدما . ومع ذلك فليست «السوق» بالكلمة التى يمكن استخدامها بالنسبة للثقافة الزراعية العادية عند البدائيين .

بعض علامات الاستفهام الأفريقية

ويكفينا هذا القدر عن منطقة الكونغو . ولكن ماذا نعرف عن ماضيها؟ إننا نتخبط فى الظلام إلى حد كبير كما هو الشأن دائما مع الزنوج . وقد يمكننا أن نربط بسهولة ثقافة شرق أفريقيا التى تعتمد على رعى الأبقار بالقاعدة النيوليثية فى الشرق الأدنى ، وذلك بفضل ما لدينا من معلومات عن الأزمنة التاريخية والمناطق المختلفة ، ولكن هل يمكننا أن نربط ثقافة الكونغو بثقافة جنوب شرقى آسيا؟ إن هناك بعض أوجه شبه قوية مع ميلانيزيا على الخصوص ، ولكن يجب أن نتذكر أن بعض هذه المشابهات يرجع إلى مجرد المصادفة ، أى بسبب الغابات ذاتها أو نوع الحياة . فعلى الرغم من أن اليام والتارو

والطلح والدجاج جاءت أصلا من الشرق فإن نجاحها في أفريقيا إنما يرجع إلى خصائصها الذاتية ، لأن منطقة الغابات المدارية هي نوع البيئة التي « تستطيع » هذه المحصولات أن تنتشر فيها .

ونكاد نجزم بأن هذه المحصولات ذاتها هي التي فتحت حوض الكونغو لأول مرة أمام الثقافة النيوليثية التي تقوم على زراعة الحدائق . ولكن فتحته لمن ؟ المعروف أن إحدى الثقافات الميزوليثية التي تمتاز بصناعة النصال الدقيقة المصنوعة من الحجارة الصغيرة وبوجود صنف رديء من الفخار ظلت قائمة في الكونغو لفترة طويلة من الزمن بعد أن ظهرت بالفعل الشعوب النيوليثية في السودان إلى الشمال . والظاهر أن تلك الثقافة الميزوليثية لم تندثر من الكونغو إلا قبل أن تفد إليه أقوام العصر الحديدي . فهل كانت تلك الثقافة خاصة بالأقزام ؟ وهل ظهر الزنوج هناك في وقت متأخر جدا ؟ أو هل كان الزنوج يعيشون فعلا في الكونغو من قبل ؟

والغالب أن صناعة الحديد وصلت من الشرق بعد ميلاد المسيح بوقت طويل . أما اليام والدجاج فقد وصلا قبل ذلك بكثير . فهل كان سبب دخولهما هو وجود علاقة قديمة بين زنوج أفريقيا وزنوج المحيط الهادى أو على الأقل بين ثقافة الكونغو وثقافة جنوب شرقي آسيا ؟ المعروف أن كلتا الثقافتين تهتمان بتربية الدجاج وتستخدمه كقرابين للتعرف على الغيب . كذلك يلبس الناس فيهما من لحاء الشجر والنقب « النباتية » المنسوجة من الأوراق ويهتمون بعمل الندبات على الجلد أو برد الأسنان ، ويولون كثيرا من العناية للجمعيات السرية الروحانية وتقديس الأسلاف .

ولكن ماذا يمكن استنتاجه من هذا كله ؟ الاحتمالات كثيرة جدا ، ولكن المعروف ضئيل جدا . وقد يحب بعضنا أن يقفز قفزا إلى النتائج الطريفة الجذابة ، ولكن إذا أردنا أن ننسب إلى الزنوج مهمة حمل الثقافة

بالفعل إلى أفريقيا فيجب أن نجعلهم يسلكون طريقا عمليا (غير الصحراوات) وأن يصلوا فى وقت معقول. وبقول آخر يجب أن ندخل فى اعتبارنا كثيرا من العقبات الصعبة والوقائع المجهولة. ولو كان كثير من العلماء فعل ذلك لما قدر لكثير من الكتب الرائجة أن تكتب على الإطلاق.

غرب أفريقيا وحضارة البنبطة

وأيا ما يكن مصدر هذه الثقافة النيوليثية فى الكونغو فقد مهدت بدورها لقيام صورة أخرى أكثر تقدما فى غرب أفريقيا. ولقد ازدهر السكان فى تلك المنطقة وزادت كثافتهم كما ظهرت بعض الأمم الكبرى التى امتدت فى السودان الجنوبى، وأشهرها الداهومى والأشانتى. وربما كان للاتصال القديم بالعرب الذين كانوا يجوبون الصحراء أثره فى ذلك، ولكنها مع هذا ثقافة زنجية تتألف من نظم متفرعة ومتطورة عن النظم الخاصة بمنطقة الغابة على العموم.

ولم تكن المسألة مسألة مخترعات مادية على الرغم من أن بعض الفنون كالنسج وتشكيل المعادن بلغت مستوى أعلى مما هى عليه فى الكونغو. وقد كانت الحياة اليومية تتبع النمط ذاته إلى حد كبير، ولكن تنظيمهم السياسى كان مختلفاً ومتميزاً. فقد كان ملك الداهومى حاكما مطلقا يتمتع بسلطات واسعة وتلتف به هيئة كاملة من الموظفين (وزراء وقواد وحكام وقضاة) كما كان يستعين بنوابه وبالرؤساء المحليين فى حكم البلاد.

وكانت الضرائب تجبى بعناية وانتظام من الجميع بما فيهم الملك نفسه، وهذه لفتة طيبة، وكان تقديرها يتم على أساس تعداد السكان (وكان يحتفظ بها فى مخازن الحصى) وإحصاء ممتلكاتهم الذى كان يتولاه فى السر عملاء الملك الذى كان يشرف بدقة على كل ما يدور فى مملكته بما فى ذلك حركة المسافرين بشكل يحسد عليه. كذلك كان الملك يحتفظ

بجيش عامل ألحق به كتائب «الأمازونيات» (الفتيات المحاربات) الشهيرة منذ مائتي سنة مضت . وقد نجحت حركات الغزو في ضم أجزاء هامة إلى مملكته . (وكانت كل «الأمازونيات» يعتبرن من الناحية الفنية زوجات للملك ، ولكن حياتهن كانت تنتهي في العادة بالموت قتلا لارتكابهن «الزنى»، والواقع أن قليلا منهن قابل الملك على الإطلاق . فقد كن مجرد فتيات مسترجلات يحببن الظهور في ملابس الجيش) .

وما زالت الثقافة الوطنية آخذة في النمو والازدهار . ومع أن الحياة لا تزال تتبع النمط القروي فقد كانت هناك — حتى قبل مجيء الأوروبيين — بلدان كثيرة تحولت فيما بعد إلى المدن الحديثة الموجودة الآن في المنطقة . كذلك تمتاز أسواقهم بدرجة عالية من الكفاية والتطور ، إذ تقام يوميا في كثير من الجهات تبعا لنظام معين مرسوم . (وأهم هذه الأسواق هي التي تعقد في اليوم الأول من أيام الأسبوع الأربعة ، ففيه تعطل جميع الشعائر الدينية، لأن الآلهة ذاتها تذهب للتسوق، وليس من اللياقة في شيء أن يذهب المرء لزيارتها دون أن تكون هي على استعداد للقائه) . وتستعمل في هذه الأسواق معايير ثابتة للقيمة والقياس ، كما كان يشرف عليها في الأصل موظفون لمنع الغش . كذلك تعرف أسواقهم نظام الجملة والقطاعي والاتفاق على السعر وقواعد الربح والتسويق التعاوني . وقد أدى هذا التنظيم العالي إلى تشجيع التجارة مما حدا بدوره إلى إتقان الصنعة أو الحرفة وإلى التخصص ، وبذلك تمكن الصناع من التفرغ تماماً لصياغة سلع معينة بالذات دون أن يحتاجوا إلى العمل في حدائقهم لتوفير حاجتهم من الطعام ، بينما انصرف الزراع إلى زراعاتهم لمد الأسواق ولاستهلاكهم الخاص على السواء .

كذلك توجد في بلاد الداهومي الآن رابطات للعمل التعاوني التي تضم الشبان، (فهم ليسوا شعبا خاملا كما أنهم يقدرون العمل الجيد المتقن)، تقوم بتنفيذ بعض أنواع معينـــة من العمل الجماعي مثل تمهيد وإعداد الحقول

الجديدة . بل إن عندهم جمعيات للتأمين المتبادل ، وهذه كلها تنظيمات تكشف عن مدى اتساع وامتداد المجتمع العامل .

وتعتبر المعابد دليلا آخر — وقد يكون دليلا أفضل — على مدى اتساع نطاق المجتمع . فالدين الغالب الآن عند الداهومى هو تقديس الأسلاف ، ويؤلف أسلاف الملك العبادة الشعبية فى الوقت الحاضر كما أنهم كانوا السبب فى ذبح كثير من القرابين البشرية فى الماضى . ولكن ظهر نوع من المعابد مخصصة لفئات معينة من آلهة الطبيعة وعائلات الأرض والسماء والرعد بحيث يمكن القول بأنها تشبه البانثيون عند الإغريق . وقد أنشئت هذه المعابد لصالح الذين يبحثون عن الإيمان والتعبيد فحسب كما هى الحال فى بعض الديانات الكبرى ، لا لتكون ملاذا عاديا يلجأ إليه الناس من أجل خير ونماء محصولاتهم أو لإضعاف شوكة أعدائهم . فهى ليست عبادات قبلية ، وليس هناك ما يضطر المرء إلى اتباعها أو الانتماء إليها . ومع ذلك فأتباعها يؤلفون نسبة كبيرة من السكان ويمر الأتباع بفترة تدريب أو إعداد تمثل الموت والبعث وتستغرق فترة أطول مما يستغرقه التعميد والتثبيت عند المسيحيين . والواقع أن هذه المعابد هى أصل ديانة « الفودو Voodoo » المختلطة فى هايتى (وكلمة Vodun فى لغة الداهومى معناها « إله ») وهى ديانة لا تقوم على السحر الأسود أو الشعوذة والدجل ، كما قد يظن بعض الناس .

فكأننا نجد إذن فى غرب أفريقيا عدة تحسينات وتعديلات لثقافة الزنوج من سكان الغابات . ولعل أهم هذه التعديلات هو ظهور الحكومات المتقدمة ، رغم أن بعض تصرفاتها تتسم بالهمجية والتعسف . فملك الداهومى مثلا كان يستطيع أن يفرض الضرائب بالطرق العادية ، ولكنه إلى جانب ذلك كان لديه فى وقت من الأوقات جهاز خاص من اللصوص كان يسهل

لهم الفرصة لمباشرة وظيفتهم ببعض الحيل الطريفة ، إذ كان يقيم حفلا خلويا لا يستطيع أحد بالطبع أن يتخلف عنه بل يحضره الجميع بحيث لا يتبقى أحد من الناس فى بيته . كذلك كان يستطيع أن يفرض الغرامات على كل من يخرق الأوامر الملكية التى كان يصدرها فى بعض الأحيان بقصد جمع الغرامات فقط ، كأن يحرم مثلا على الناس أن يلبسوا من نوع القماش الذى يلبسه هو ، ثم يرتدى فجأة أحد أنواع الأقمشة الشعبية الشائعة ويطلق جنوده عليهم قبل أن يذهبوا إلى بيوتهم لاستبدالها .

وحين أصف هذه الحكومات بأنها « على درجة عالية من التطور » فإنى أعنى أنها كذلك بالنسبة للمجتمع الذى نتكلم عنه ، على أساس أنها غيرت ذلك المجتمع من النمط القبلى إلى النمط القومى ، وبذلك جعلت من الممكن ضم أقوام آخرين إليها ؛ كما أضفت شيئا من الاستقرار الذى يساعد على اتساع وامتداد الثقافة والاقتصاد ، ولكن فى حدودها الخاصة دائما . وإذن فلا يمكن الهزء أو الاستخفاف بالحكومات والنظم فى أفريقيا الغربية ، وهى تمثل أقصى ما بلغته ثقافة الزنوج الوطنية — كما يفعل الجهلة من الساخرين . لقد قطعت هذه الحكومات والنظم مرحلة كبيرة فى طريق التقدم البشرى .

المجتمعات الجديدة

١٤
تنظيم المجتمع

كان أسلوب الحياة النيوليثى فتحا مبينا ، وهذا هو أقل ما يقال فيه . فلولاه ما كان لمعظمنا وجود الآن على الإطلاق . فقد دفع الصيادين الأوائل إلى الانزواء فى كل أنحاء العالم القديم ، كما ساعد على مضاعفة سكان الأرض عدة مرات نتيجة لتوافر القوت وإمكان الاطمئنان إلى وجوده وإنتاجه من مساحات أصغر من الأرض . وفى تلك الأثناء برزت لأول مرة إحدى المشكلات التى كانت كامنة من قبل ، وهى كيف يمكن تحقيق الانسجام بين هذه الجماعات أو الزمر ، وتعاونها معاً بطريقة مجدية لما فيه مصلحتها جميعا ؟ وبقول آخر : كيف يمكن تكوين « مجتمعات » من هذه « الجماعات » ؟

والمشكلة موجودة — ولكن بشكل بسيط أو بدائى — عند الصيادين وكذلك عند الرئيسات الأخرى ، لأن كل هذه الكائنات التى تقتات بما تقدمه لها الطبيعة تنتظم فى العادة فى شكل زمرة صغيرة جدا حتى تتمكن من مباشرة أمورها بنفسها وحل مشكلاتها عن طريق التعاون الطبيعى الناشىء عن الترابط المستمر الوثيق . ولكن ماذا تكون الحال بالنسبة للجماعات المحلية الكبيرة التى يصعب تحقيق التعاون الطبيعى فيها ؟ لابد فى هذه الحالة من توافر معين من البناء الداخلى . والشخص الذى يقنع بالإقامة فى بيت صغير جدا يستطيع أن يثبت فى الأرض بعض فروع الشجر فى شكل دائرى ليأوى إليها ، أما إذا كان يبغى شيئاً أكبر مما تستطيع أن تهيئه له تلك الفروع وحدها ، فلا بد له من الاستعانة حينئذ بأشياء أخرى كالطوب والحجارة والأخشاب ، فيؤلف بينها بطريقة منظمة حتى يحصل على بناء متماسك .

ولنضع المسألة فى صورة أخرى : لنفرض أنك تريد تكوين جيش قوامه مائة ألف جندى . قد تتمكن من « جمع » مائة ألف رجل بالفعل فتضعهم فى الملابس العسكرية ثم تسلمهم «أدوات المهنة » ولكن إذا وقفت عند هذا الحد فسوف يكون لديك حشد من الغوغاء وليس جيشاً نظامياً . ولن يلبث هذا الحشد أن ينقلب على نفسه ويتنازع الطعام الذى لا يعرفون كيف يوزعونه فيما بينهم ، ولن يصبح أداة فعالة صالحة يمكن الاعتماد عليها إلا إذا خضع للتنظيم البنائى ، بمعنى أن يكون لكل فرد فيه مرتبة محددة يعرفها هو كما يعرفها الآخرون . فمن يضع شريطين على كتفه مثلا يحظى بانتباه واحترام جانب كبير من هؤلاء الجنود ، بل الواقع أن فريقاً كبيراً منهم يأتمرون بأمره ويرتبطون به ارتباطاً قوياً فى البناء . ولكنه هو نفسه يسارع برفع يده إلى جبهته بالتحية إذا اقترب منه شخص يضع على كتفيه أوراق البلوط أو الطيور أو النجوم . فلكل فرد إذن رتبته أو مكانه الخاص ، كما أن له أدواراً معينة يؤديها — كأن ينفخ فى (البورى) نوبة الاستيقاظ — وهى أدوار ترتبط برتبته كما ترتبط بالسلوك المتوقع منه والذى يجب عليه هو شخصياً أن يحققه إذا أريد للبناء كله أن يظل قائماً ويؤدى الوظيفة التى وجد من أجلها .

وبالإضافة إلى تحديد الرتبة الخاصة بكل جندى من جنوده ، فإن أى جيش يقوم تنظيمه على تصور سليم يحاول تجميع أفراده فى وحدات متفاوتة فى الحجم يخصص بعضها للقتال ، والبعض الآخر للامدادات أو الأعمال الهندسية أو ما إلى ذلك ، كما تكون له طرقه التقليدية للعلاقات والاتصالات بين مختلف الوحدات . فمن غير المعقول أن يرسل لكل جندى على حدة خطاب يومياً بالتعليمات الشخصية ، وإنما يتولى البناء — على العكس من ذلك — المسائل العادية بطريقة روتينية حتى يمكن تحقيق التعاون المجدى ، ليس بين الأفراد فحسب ، بل وبين الأقسام الكبيرة أيضاً .

وعلى ذلك فالجيش يحدد لكل جندى رتبته ودوره المباشر ويوضح له ذلك بقدر الإمكان ، وهذا هو التنظيم البنائى فى أعلى مستوياته . وقد يبدو من المغالاة والعنت أن نطبق ذلك على الحياة العادية ، لأن الجيش تنظيم مصطنع وليس مجتمعاً قائماً بذاته . ومع ذلك فالمثال صالح وخاصة أن معظم المجتمعات فيها من البناء والتنظيم أكثر مما قد يبدو ، وهذا يصدق بوجه خاص على الشعوب والأقوام الذين تكلمنا عنهم لأن تنظيمهم الاجتماعى يتدخل فى توجيه حياتهم بشكل أوضح وأجلى مما يحدث عندنا .

ويبدأ هذا عند الرئيسات ذاتها . ولقد رأينا أنها تؤلف مجتمعات متماسكة . فالسعادين العاوية التى تؤلف مستعمرة واحدة يعرف بعضها بعضاً ويتمتع كل منها بمكانة خاصة معينة — وإن لم يكن عندها مصطلحات تشير لذلك (من حيث كونها أنثى مثلا أو ذكراً متقدماً فى السن أو طفلا صغيراً) — كما يؤدى دوره الخاص أيضاً فى المستعمرة (من حيث كونه أما مثلا أو مرشداً بين الأشجار أو مدافعاً يقوم بالعواء والنباح ضد الجماعات الأخرى ، أو حتى مجرد مراهق معجب بنفسه) . وعلى أية حال فإنها تدرك ما بينها من علاقات — إن صح هذا القول — بمعنى أن كلا منها يعرف مكانه ، ونوع رد الفعل الذى يصدر فى العادة من الأفراد الآخرين نحوه ، كما أنها لا تبدأ كل يوم فى تعرف إحداها على الأخرى من جديد . وهذا هو أبسط أنواع التنظيم على الإطلاق ، ولكنه لا يلبث أن ينمو ويتعقد عن طريق التفاعل المستمر بين أفراد المستعمرة .

ويرتكز هذا التنظيم ارتكازاً قوياً على تباين الأفراد واختلافهم من الناحية البيولوجية . فالسعادين — كالإنسان — تتمايز جنسياً منذ الولادة ، ويبلغ هذا التمايز ذروته عند البالغين . وهى تشبه الإنسان أيضاً فى كونها تولد صغيرة جداً ، ثم يتقدم بها العمر تدريجاً ، وتخضع أثناء ذلك لكثير من التغير . بل إن السعادين المتماثلة فى العمر والجنس تتفاوت عادة فى قدرتها

على السيطرة ، أى فى النفوذ الشخصى . وتكفى هذه الاختلافات لأن تهيء لأعضاء المستعمرة الفرصة للقيام بكثير من الأدوار الفردية .

ولا غرو فى أن هذه الاختلافات نفسها تفعل الشيء ذاته عند الإنسان . فالنساء يصبحن أمهات ، والأطفال يشبون عن الطوق ، والرجال يصيرون صيادين مهرة وهكذا . ولعل اقرب شبه إلى الأقسام البسيطة التى تنقسم إليها مجتمعات الرئيسات هو ما نجده عند الشعوب التى تعيش على الجمع والقنص ، إلا أن الفارق الماثل حتى فى هذه الحالة يتمثل فى عنصر الثقافة . فالشيء الذى قد يناظر فى المجتمع الإنسانى التعبير الحر عن هذه العوامل الطبيعية فى السلوك الاجتماعى لدى الرئيسات إنما يخضع للثقافة التى تصوغه فى أنماط ثابتة وتعطيه فى النهاية شكل النظم الاجتماعيـة . وهذا بالطبع هو السبب فى اختلاف المجتمعات البشرية إحداها عن الأخرى بعكس الحال فى مجتمعات السعادين العادية .

مثال ذلك أن الأعمال التى « يمكن » للمرأة القيام بها تتشابه فى كل أنحاء العالم ، ولكن ليس كذلك ما « ينبغى » لها أن تقوم به . فدور المرأه يختلف عن دور الرجل كل الاختلاف ، ولذا كان الاثنان يتعاونان معاً فى العادة . فالرجل عند الصيادين مثلا يقوم بقنص الحيوان ، بينما تمارس هى جمع الخضروات والإشراف على الأطفال الصغار — وهو ما ينتظر منها على أية حال . وتمتع الرجل بقدر أكبر من القوة العضلية لا يعنى أنه يقوم بنصيب أكبر من العمل . صحيح أننا نتوقع منه أن يتولى الأعمال التى تحتاج إلى كثير من المجهود كالقنص والحرب وتمهيد الأراضى البكر ، ولكننا نتوقع منه ، إلى جانب ذلك ، أن يترك للمرأة أعمال البيت المضنية التى لا تنتهى .

وتقوم المرأة بالأعمال المنزلية ولكنها لا تتولى الطبخ دائماً . وحين

ظهرت الفنون الأكثر تقدماً وتطوراً عند الشعوب النيوليثية لم تعد هناك أية قواعد تنطبق على كل أنواع الثقافات ، ومع ذلك فإننا لا نجد الرجل العادى فى أية ثقافة من هذه الثقافات يكرس كل همه وجهده لأعمال المرأة. العادة — ولكن ليست القاعدة — هى أن تقوم المرأة بصنع الأوانى الفخارية ونسج الملابس ، أما الرجل فإنه يصنع آلاته وأدواته الخاصة ويشغل المركز الأول فى المجتمع ويمارس الشعائر الدينية التى كثيراً ماتحرم منها المرأة ، كما هى الحال عند أهالى أستراليا . بيد أن مركز المرأة كله يتحدد على العموم تبعاً للثقافة ، بدلا من أن تحكم عليها الطبيعة بالشقوة والتعاسة كما هى حال أنثى الرباح .

وللسن تمييزاتها كذلك، وبخاصة عند الشعوب الأشد بداءة وتأخراً . فنى مرحلة النضج تصل قوى الرجل أو المرأة إلى الذروة ، ولكن بدلا من أن يتم ذلك ببساطة تلجأ معظم الثقافات — كما ذكرنا من قبل — إلى إعلان ذلك عن طريق شعائر التكريس المنيفة . وليس من الضرورى أن تتفق ممارسة هذه الشعائر والنضج البيولوجى أو الجنسى، لأن الغرض منها هو الاحتفال بالنضج الاجتماعى أكثر من أى شىء آخر . وبتقدم العمر تزداد العقول حكمة ورصانة وتهدأ العواطف وتثقل حركة الأبدان وبذلك تستطيع الجماعة كلها أن تفيد من تلك الرءوس المدبرة الحكيمة . ومن هنا كان تصريف الأمور فى الزمرة الأسترالية يلقى على عاتق الشيوخ كما تقضى به الأوضاع الثقافية . كذلك تعتبر السن هى العامل الرئيسى فى البناء الاجتماعى فى جزر الأندمان .

ويميل الأندمانيون — الذين يعيشون عيشة ناعمة نسبياً لا تتفق تماماً مع حياة القنص — إلى تبنى أبناء غيرهم من الناس ، ولذا كانوا يعاملون جميع الأطفال بطريقة واحدة . (وليس من شك فى أن

كثيراً من الأمهات فى الضواحى عندنا يشعرن بشعور مماثل من الحنو والعطف نحو جميع أبناء الجيران) . ومن هنا كانت فكرة الجماعات العائلية بالمعنى الدقيق للكلمة يشوبها شيء من الغموض . ويبدى الناس كثيراً جداً من الاحترام نحو كبار السن فيهم ويخاطبونهم بألقاب التبجيل ويعاملونهم كما لو كانوا آباء للجماعة المحلية كلها . وتتألف «الحكومة» هناك من الشيوخ من كلا الجنسين (وليس فى ذلك أدنى إرهاق لهم لأنهم يؤمنون بأنه لن يحدث ما يعكر صفو الحياة ، حتى إذا دب الخلاف بين الناس سارعوا هم بكل بساطة إلى الاختباء) . وقلما يستخدم الأندمانيون كلمة «أب» أو «أم» لأن عندهم ما يحل محلهما من ألقاب التبجيل . وبدلا من مصطلحات القرابة الشائعة كلمة «أخ» مثلا أو «أخت» يستخدمون بعض الصفات مثل «الأكبر» أو «الأصغر» أو «المتزوج» وما إلى ذلك . كذلك لا توجد عندهم على العموم أسماء لمعظم الأقارب ، وذلك نظراً لاهتمامهم البالغ بعامل السن ولجهلهم بنوع التنظيم أو السلوك اللذين يتمشيان مع فكرة الأقارب كما نتصورهم نحن .

ولا يعنى هذا أن الأندمانيين يمثلون مرتبة دنيا من البشر ، وإنما كل ما يعنيه هو أنهم يتمسكون — بشكل غير عادى — بالسن باعتبارها مفتاح البناء الاجتماعى ووسيلة التمييز بين الأفراد، وهو لا يعنى أيضاً أنهم يجهلون صلات القربى القائمة بينهم ، ولكن بينما نقول نحن فى إحدى النساء مثلا إنها «بنت خالى من الدرجة الثانية» وبينما يستخدم الأسترالى كلمة واحدة تشير إلى هذا كله بما فيه الجنس[1] ، فإن الأندمانى سوف يطلب إليك السكوت أو الإنصات حتى يستجمع شتات ذهنه، ثم يسرد عليك قصة طويلة عن زواج فلان بفلانة وعن أولادهما وهكذا . فهو يدرك العلاقة إذن ،

(١) فى قبيلة كراوا Karawa مثلا تستخدم كلمة Djibari أو كلمة Gogarlina تبعاً لما إذا كانت هى بنت ابن أخى جد الأم أو بنت بنته .

ولكن لغته وثقافته تعتبران ذلك كله أموراً قليلة الأهمية ، وذلك لأنهم يفعلون الأشياء بطرق مختلفة .

أما الشعوب التي تعيش في مجتمعات أكثر تطوراً من الأندمانيين وغيرهم من الصيادين ، أى المجتمعات «النيوليثية» ، فإنها خليقة بأن تستخدم أنواعاً أخرى من المراتب الاجتماعية علاوة على تلك التي ترتبط بالجنس والسن ، وأن تفيد أيضاً بشكل أوفى مما نسميه بالمركز أو الوضع الاجتماعي ، بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى . ففي جماعات السعادين كثيراً ما يتنازع (رباحان) مثلا على السلطة والسيادة ، ثم لا يلبث الوضع أن يستقر بفوز أحدهما على الآخر بعد قليل من التراشق بالنباح أو العواء أو بعد معركة قصيرة . وحتى عند الأندمانيين والأستراليين تجد أن أقدر الرجال يحظى بأكبر قسط من النفوذ إذا تساوت الأعمار بالطبع ، أما حيث تكون الرياسة وراثية أو حيث تجد طبقات اجتماعية أو طائفية فإن السيادة أو السيطرة الطبيعية تخف حدتها بفضل الإطار الثقافي الذى يعين لكل فرد مكانته الخاصة . إننا نطرى أنفسنا على مجتمعنا الديمقراطي ولكننا نعرف تماماً أن لمحل الميلاد وللعائلة التي ننتسب إليها دخلا كبيراً في تحديد وضعنا . فابن الحداد عند الماساى يصبح حداداً ويتزوج من ابنة حداد ، أراد ذلك أم لم يرده . وقد توجد عندنا حالات مماثلة . وهذا كله يتضمن الاعتراف بالمكانة الاجتماعية . ولكن قد تكون هناك أنواع أخرى من «الوضع» الاجتماعي تتوقف بشكل أقوى على الجماعة التي ينتمى إليها الفرد . (والمثل على ذلك هو أن كلمة yankee تشير في الأصل إلى سكان نيوإنجلند . ولكن اليانكى بالنسبة لسكان الجنوب هو أى شخص يأتى من شمال الخط الممتد بين ماسون وديكسون سواء أجاء من منيسوتا أم من بروكلين . وأما بالنسبة للإنجليز فاليانكى هو أى شخص يأتى من الولايات المتحدة بما في ذلك كارولينا الجنوبية) .

ومهما يكن من شيء فإن من أهم وظائف «الإتيكيت» مراعاة المراتب الاجتماعية المختلفة والمحافظة عليها. فكل فرد يحافظ على مكانته ويراعى فى الوقت ذاته مكانة الآخرين حتى لا ينجم أى ضرر أو أذى من التصادم غير اللائق بين مختلف المراكز الاجتماعية، فليس «الإتيكيت» فى أساسه أن يعرف الشخص كيف يمسك بالشوكة مثلا بطريقة تختلف عن الطريقة التى يمسك بها (المفك) — وإن كان هذا لا يرفع مكانته الاجتماعية — إنما «الإتيكيت» هو بالأحرى التصرف الذى يتلاءم مع النمط، وهو بذلك لا يحدد المرتبة الاجتماعية فحسب بل إنه يقويها أيضاً عن طريق مراعاة قواعده وأحكامه. ولنضرب لذلك مثلا بسيطاً مستمدا من اللغة الفرنسية وهو استخدام كلمة tu بدلا من vous. فكلمة tu تستخدم فى مخاطبة الأقارب أو الأصدقاء، أى الأشخاص المتماثلين فى المكانة، ولكنها لا تستخدم أبدا فى مخاطبة الأغراب، والواقع أن الدهماء يستخدمونها للسب والإهانة، والشيء نفسه يصدق على اللغة الألمانية وغيرها من اللغات. وتوجد فى اليابان وساموا وجنوب أفريقيا اختلافات كثيرة فى الألفاظ التى يجب استخدامها. فالرجل من العامة فى ساموا يستطيع أن يقول لصديقه مثلا: «هل استحممت؟»، ولكنه لا يجرؤ على توجيه مثل هذا السؤال الشخصى إلى رئيس العشيرة، وإنما يقول له بدلا من ذلك: «هل جسمك ناشف؟» وقد يمكن التعبير فى الشيء الواحد بخمس طرق مختلفة فى بعض الأحيان...[1]

وفى كل هذه المجتمعات التى أشرت إليها يوجد قدر كبير من التفاوت فى مراتب الأفراد مما يحتم التمسك بقواعد الإتيكيت. فالزولو وجيرانهم يقيمون وزناً كبيرا لاعتبارات السن والجنس والمكانة الاجتماعية، وينظرون بعين الاعتبار والاحترام لزوجات الرجال المرموقين عندهم، وينتظرون من الزوجة أن تبدى نحو حموها كثيرا من الأدب ومن الاحترام.

---

(١) يورد المؤلف هنا بعض العبارات للتدليل على مايقول، ويستخدم فى ذلك كلمات إنجليزية لن تؤدى الغرض منها إذا نقلت إلى العربية، ولذا آثرنا حذفها. (المترجم)

ويميز الفندا venda بين أربع درجات من الاحترام يعبرون عنها بوساطة الضمائر التى يستخدمونها فى حديثهم والتى تبدأ بضمير المخاطب المفرد إلى ضمير المخاطب الجمع إلى الغائب المفرد إلى الغائب الجمع . ويستخدم ضمير الغائب الجمع للرؤساء فقط . ويتحتم على المرء هناك أيضاً أن يقرن تحياته وكلامه ببعض الإشارات والإيماءات المهذبة ، كأن يجثو على ركبتيه أو يجلس القرفصاء أو يضم ساقيه إلى جانبه وذلك تبعاً لاختلاف مركز المتكلم والمخاطب والشخص الذى بدأ بالكلام . ويراعى الشخص المهذب أن ينصت فى تواضع إلى محدثه مع إبداء تعجبه باستمرار بأن يقول مثلا : «يا أسد ! » أو «يا عظيم !» وهى تماثل تماما قولنا : «يا سلام !» أو «لا ياشيخ!» . وتحرص الزوجة عند الزولو على التصرف بطريقة خاصة إزاء حمويها وعلى مخاطبتهما بأسلوب معين ، ويحتاج هذا منها إلى أن ترتدى ملابس معينة وأن تمتنع عن الأكل والمضغ أمامهما وألا تتفوه باسم أحدهما حتى بأية كلمة تحتوى على مقطع أو جزء منه ، بل وأن ترتب ألفاظها بطريقة غريبة كما لو كانت تتكلم اللاتينية .

ويطلق لينتون Linton على هذا النوع من المكانة الاجتماعية اسم المنزلة «الموروثة» تمييزا لها عن المنزلة «المكتسبة» ، وذلك لأنها تلصق بالفرد نتيجة لمولده أو لتدرجه الطبيعى فى الحياة . بيد أن «للاكتساب» — وهى كلمة ذات وقع جميل فى الأذن — ما يقابله فى الثقافات الأخرى . فقد يمتاز الرجل فى أشد الثقافات بساطة وتأخرا على غيره بفضل إحدى القوى الخاصة ، أو بمهارته فى الصيد مثلا ، وذلك على الرغم من أن الشامان أو الساحر هو الشخص الوحيد الذى يتمتع — من الناحية العملية — بمرتبة خاصة متميزة . وكلما صعدنا فى سلم الارتقاء ازدادت الامكانيات وأصبح من الميسور بالتالى أن يصير الرجل صانعاً ماهرا أو من رجال الدين أو من أصحاب الأملاك . فصانع القوارب أو «المهندس» الماهر فى بولينيزيا

يحقق كل ما يحتاج إليه من «المانا» من نفس النجاح الذى يحرزه فى عمله ، وبذلك يصبح فى الحقيقة «كاهنا» فى مهنته . أما المجتمعات المعقدة فإنها تعرف كل درجات ومراتب المكانة الاجتماعية التى نميز نحن بينها . فقد يوصف الرجل فى غرب أفريقيا مثلا بأنه «مهذب» أو بأنه «رجل ذو مبدأ» من تصرفاته وسلوكه فحسب ، بغض النظر عن حسبه أو نسبه .

المال هو كل شىء تقريبا

ولكن قد يتغير المركز الاجتماعى وبخاصة فى الثقافات المتوسطة عن طريق ما يمكن تسميته بحق «اقتصاديات الشهرة» ، بمعنى أن يعكف الرجل على جمع وتكديس فائض كبير من السلع المادية بحيث لا ينفقها إلا فيما يجلب له الصيت وحسن السمعة . وهذا أمر ميسور إلا لصيادى الحيوانات. فى استطاعتنا نحن مثلا أن نكوم العملة الصعبة الغالية لكى ننفقها بعد ذلك فى شراء سيارة كاديلاك أو إحدى لوحات ماتيس . وسوف تبدو السيارة جميلة رائعة وهى تتهادى فى الشارع ، كما أن النظر إلى اللوحة يبعث فى النفس كثيرا من المتعة الشخصية ، وذلك طبعاً بالإضافة إلى ما يثيره امتلاكنا لهذه الأشياء من أسى فى نفوس الآخرين . وقد نستطيع أن ننفق نقودنا فى الطعام الطيب أو فى الرحلة والسفر أو فى توفير أسباب الراحة الشخصية كأن نشترى مثلا جهازا للتدفئة ندفنه فى الحائط فلا نظهره إلا للتباهى حين نتكلم عنه أمام كل من يسوقه سوء حظه إلى تناول العشاء عندنا .

ولكن هذه الفرص كلها – ربما باستثناء الفن – لا تتاح لسكان القرى النيوليثية الذين يمكنهم الاستفادة من ثرواتهم وطاقاتهم وقدراتهم لكى يرفعوا من أقدارهم فحسب . ولقد سبق أن ذكرنا كثيرا من الأمثلة على ذلك . فقد رأينا أن الوسيلة لذلك عند سكان شرق أفريقيا مثلا هى امتلاك الماشية ، وفى بلاد العرب هى الخيول ، وليست الإبل ، على الرغم من أن الإبل هى قوام الحياة

هناك . أما فى ميلانيزيا حيث يقدر الناس هذه الأمور حق قدرها ، فإن الموانيقامه يستطيع عن طريق إقامة الحفلات أن يترجم — بطريقة مباشرة — طاقته البدنية إلى أعمال تذهب بعيدا بصيته وشهرته ، بينما يلجأ أعضاء « المنتدى » إلى إقراض نقود المحار نظير فائدة معينة ، وإلى تنمية ثرواتهم بشتى الطرق والوسائل ، حتى يستطيعوا دفع ثمن ارتقائهم فى المحفل . وتعتبر الكولا من أروع الأمثلة على ذلك ، لأن كل قيمة العقود والأساور تنحصر فيما تجلبه لصاحبها من صيت ولا شىء غير ذلك . وقد كان ذلك هو الشأن بالنسبة للنقود الحجرية المستخدمة عند الياب Yap فى جزر كارولينا ، وهى عبارة عن حلقات كبيرة كأحجار الرحى من الصعب صنعها ونقلها مما كان يعطيها بطبيعة الحال نوعا من القيمة والندرة ، حتى جاء أمريكى شرير ومعه شحنة كبيرة من أحجار الرحى الحقيقية المستعملة وكاد بذلك يهدم النسق كله .

وفى جزيرة بوناب Ponape — وهى إحدى جزر كارولينا — حالة رائعة تتمثل بأوضح صورها فى التنافس على زراعة اليام استعدادا للمهرجان الذى يقيمه الرئيس فى نهاية الموسم ، وفيه يعرض كل شخص أفضل ما أنتجه من ثمار اليام . ويمنح الرئيس لقبا من ألقاب التشريف للمزارع الذى يتكرر فوزه بالإضافة إلى ما يلقاه من إعجاب زملائه وثنائهم . ويبذل الناس جهوداً هائلة فى سبيل ذلك ، فيزرعون اليام الذى سيشتركون به فى العرض فى السر ، ويعنون بتربيته فى الخفاء ، ويرتضون الجوع على التهام الفرصة التى قد تتيح لهم الفوز ، ولكنهم يقيمون فى النهاية كثيراً من الحفلات و لولائم . ولكن الغريب فى الأمر هو أنه بمجرد أن يضع الناس ثمارهم للعرض فإن أخلاقهم تحتم عليهم أن يبالغوا فى إظهار التواضع ، فيحذر كل منهم من أن يبدر منه ما قد ينم عن الزهو أو الرضا أو الغبطة حتى لا تتناوله الألسنة الحادة وتنقلب كبرياؤه بذلك إلى ذلة وعار . فالرجل

الذى يعرض أكبر ثمار اليام وأضخمها يتعين عليه أن يقلب عينيه حوله فى براءة تامة ويعلن فى احتجاج أن الثمار التى يعرضها غيره من الناس أكبر بكثير مما يقوم هو بعرضه .

ويبلغ من شيوع هذه القاعدة السلوكية أن الرجل فى يوناب يتورع من أن ينسب لنفسه القدرة على إتقان أى عمل من الأعمال . وتستطيع أن تتصور الوضع بعد الحرب حين وفد رجال الإدارة الأمريكيون الذين نشأوا فى ثقافة تتطلب من الرجل أن يبالغ فى تقدير نفسه ومهارته ونجاحه إذا كان موظفاً مدنياً أو عسكرياً . حاول مثلا أن تقوم بتعبئة القوى العاملة فى يوناب ثم اطلب إليهم أن يتقدم العمال الذين يجيدون العمل بالمجرفة . وحينئذ ستجد أنه مهما بلغ من مهارة اليونابى المهذب فى استخدام المجرفة فسوف يحمر وجهه من الخجل ويقول : « إننى لو حاولت استخدام المجرفة فالأغلب أننى سأجرف بها إصبع قدمى » . فالعرف يقضى إذن بأن يكسب الرجل منزلته الاجتماعية بالعمل والمهارة ، كما أن الرغبة فى اكتساب تلك المنزلة هى التى تتحكم فى القيم الأخرى — وهى قيم مفيدة فى الأغلب — بحيث تصبح قانوناً كلياً للسلوك . والواقع أن هذا هو الذى يدفع إلى الاهتمام بالصناعة وتربية الماشية (كما هى الحال فى جزر سولومون أو فى أفريقيا) وإلى التنافس المنزه عن العداء ، وهو أمر نقدره نحن حق قدره ، ولكن قلما نمارسه .

القرابة : أهمية النسب

كان كلامى مقصوراً للآن على التمييزات الموجودة بين الأفراد فى داخل الجماعة ، أى عن الأشياء التى تحدد لهم — تبعاً للثقافة — الأدوار التى يؤدونها « والعلامات » التى يمكنهم اتباعها فى ثقة واطمئنان . ونتكلم الآن عن العلاقات الصورية التى تنشأ بين الناس على أساس القرابة والتجمعات العائلية .

وليست القرابة مجرد وشائج دم وعلاقات زواج ، فأنثى الرباح تعرف تماماً زوجها وأولادها ، إنما القرابة نمط ثقافى يقوم على هذه الوشائج والعلاقات ، ولكنها تختلف باختلاف الثقافات كما أنها أكثر تعقيداً فى العادة مما قد تظن لو أننا حكمنا عليها فقط من نمط القرابة السائد عندنا . ولقد رأينا أنساق القرابة المعقدة عند الأستراليين وعرفنا أنهم — على العكس منا — يميزون فى العادة تمييزاً قاطعاً بين أبناء العمومة (والخئولة) المتوازية والمتقاطعة بينما نحتاج نحن إلى شىء من التريث والتفكير قبل أن نقول إلى أى النوعين ينتمى أبناء عمومتنا وخئولتنا . ولكن مهما يكن من أمر هذه التعقيدات وذلك التباين فإن كل هذه الأنساق تؤدى وظائف معينة بالذات : فهى تزود المرء بالأقارب ، وتهدف إلى زيادة عدد أقاربه النافعين ، وتنظم سلوكه نحو أقاربه وسلوكهم نحوه .

وبقول آخر ، فإن القرابة توسع موارد الفرد من الناس . وقد يكون هذا هو آخر ما تظن أنك محتاج إليه ، ولكنك فريد فى ذلك . ويكفى لكى تفهم هذا أن تضع نفسك — لفترة قصيرة — موضع أهالى أستراليا ، ولقد حاولت فيما سبق أن أبين كيف أن هذه الشعوب توسع مواردها وتعوض ثقافتها الهزيلة بمهارتها الفائقة فى تعقب حيوانات الصيد والبحث عن الطعام على العموم . والواقع أنهم يذهبون إلى أبعد من هذا للتغلب على صعوباتهم ، فيعملون على توطيد العلاقات والالتزامات المتبادلة مع الزمر الأخرى عن طريق القرابة والتزاوج ، وبذلك لا يحس الرجل منهم بالغربة حتى حين يجد نفسه بين قوم لا يعرفونه ، لأنه يستطيع عن طريق تتبع أواصر القرابة من زمرته الأصلية أن يحدد علاقاته بجميع الناس ، وبذلك يشعر بالراحة والأمن كما يتجنب الوقوع فيما قد يسىء إلى غيره ، إذ سيعرف أى الرجال يعتبرون «إخوة» له ، وأى النساء يمكن له أن يعاملهن بغير كلفة وأيهن يحرم عليه ذلك .

فكأن القرابة تؤدى إذن إلى الاستقرار بين الأشخاص . ويقوى من معنى القرابة ، وكذلك معنى العائلة ، وجود بعض القواعد العامة ، وبخاصة (التابو) المفروض على مضاجعة المحارم ، أو ما يحسن تسميته بالتحاشى avoidance .

وليست مضاجعة المحارم أمراً محظوراً فحسب ، بل إن كل المجتمعات البشرية تنظر إليه بعين الخوف والارتياع ، ولا عبرة فى ذلك بالحالات الاستثنائية التى يسمح فيها بزواج الأخ من أخته (كما هى الحال عند ملوك هاواى وبيرو و مصر) . وقد نظن أن النفور من مضاجعة المحارم شعور غرزى ، ولكن الواقع غير ذلك ، لأن الشققة وغيرها من الرئيسات لا تنفر من ذلك الفعل ، كما أنه يوجد مع الأسف عند بنى الإنسان . والواقع أنه لولا وجوده لما كانت هناك قواعد مقررة ضده . والزواج من المحارم بعض الأضرار البيولوجية لأنه قد يؤدى إلى ظهور العيوب الوراثية المتنحية ، ولو أن الفكرة الشائعة بين الناس عن هذه المسألة ليست صحيحة كل الصحة ، والدليل على ذلك أن الشققة لم تنقرض تماما . والواقع أن ثقافتنا ذاتها هى التى تعلمنا وتلقننا بكل دقة أن ننبذ بقوة وعنف فكرة الاتصال الجنسى بالمحارم . والظاهر أيضاً أن ذلك التحريم (والتابو) هو أحد الابتكارات الاجتماعية الأساسية التى ابتكرها الإنسان .

ولم نقل بعد الكلمة الأخيرة عن الاتصال الجنسى بالمحارم ، ولكن الذى لا مراء فيه هو أنه قد يكون مصدراً كبيراً للبلاء فى أى مجتمع . فقد لا تستوى المجتمعات كلها فى تعقد أنساقها القرابية ، ولكنها تستوى فى إدراكها لوجود القرابة وفكرة العائلات . وقيام علاقات جنسية بين المحارم — وبخاصة الاتصال الجنسى المقيت بين الأخ وأخته — كفيل بأن يقضى تماماً على أى نسق للعلاقات . فكل المجتمعات تقريباً تميز — من الناحية الاجتماعية — بين الأم والحماة . وعلى ذلك فمحاولة إدماج الاثنتين

فى شخص واحد يعتبر خروجاً لا يغتفر على المعتاد والمألوف وخسارة واضحة لتلك العائلة . وليس من شك فى أن وشيجة القرابة بالنسبة للفرد سوف تنهار مثلما تنهار البالونة حين تخزها بأداة مدببة ، وإن مستقبل العائلة كلها يتعرض للخطر إذا لم يتزوج كل من الأخ والأخت من شخص آخر جديد ، ويعد هذا أيضاً خسارة فادحة للمجتمع ذاته .

ولننظر إلى ما قالته الأرابش Arapesh لمارجريت ميد Margaret Mead عن هذه المسألة بالذات . فالأرابش الذين يعيشون فى شمال غينيا الجديدة شعب غير عادى ، أو هو يتمتع بدرجة غير عادية من «الإنسانية» فى شعورهم إزاء زواج المحارم ، فهم لا يعتبرونه مسألة شاذة بشعة ، بل يعتبرونه أمراً محالا لأنهم لا يفطنون إلى وجوده ، وبالتالى لم يكادوا يفهمون الحكمة من سؤال مارجريت ميد عنـــه ، وكانوا يقولون لها : «كلا إننا لا نتزوج أخواتنا . إننا نتزوج أخوات الرجال الآخرين» . وتقول الدكتورة ميد فى ذلك :

«حين أخفقت فى الحصول على جواب أفضل أو على حالات للاتصال الجنسى بالمحارم ، أوعزت إلى الشبان أن يسألوا الشيوخ عن رأيهم فيمن يريد الزواج من أخته . وكادت الإجابات تتشابه : ما هذا ؟ ألا تريد أصهاراً ؟ إنك إذا تزوجت أخت رجل آخر وتزوج ثالث من أختك فسيكون لك صهران ، أما إذا تزوجت من أختك أنت فلن يكون لك أصهار . فمع من ستتزاور إذن ؟ ومع من ستتكلم ؟ ومع من ستخرج للصيد ؟ ثم هل أنت مجنون بحيث لا تريد لك أصهاراً ؟ . . . . فكأن الأرابش لا ينظرون إذن إلى الزواج من المحارم بعين الارتياع أو النفور من الغواية التى تكمن فى لحمهم بقدر ما يعتبرونه استخفافاً مزرياً بالبهجة واللذة اللتين يحصل عليهما المرء من زيادة عدد الناس الذين يستطيع — عن طريق الحب والزواج — أن يمنحهم محبته وثقته» .

ويمكننا بقليل من التفكير أن نتبين الآثار التى قد تخلفها مضاجعة المحارم فى أى نسق من أنساق التنظيم العليا كالعائلات الكبيرة أو العشائر . وعلى أية حال فإن النفور القوى العنيف من ذلك الفعل برهان واضح على أهمية القرابة وبناء العائلة فى كل أنحاء العالم .

والظاهر أن هذه الغاية ذاتها تجد لها تعبيراً فى نوع آخر من العادات الشائعة — وإن لم تكن عادة عامة كلية — وأعنى بها السلوك الخاص الذى يبديه الشخص نحو فئة معينة من أقاربه والذى يتخذ فى العادة شكل « التحاشى » وإن كان يتخذ فى أحيان أخرى على العكس من ذلك تماماً طابع الألفة والمزاح وحتى الخشونة فى المعاملة . ومن الغريب أن المظهر الأكثر شيوعا لذلك هو قاعدة التحـــاشى ، لدرجة أن الرجل عند بعض الميلانيزيين قد يتسلق إحدى الأشجار إذا رأى حماته . ولكن فى الأحوال الأخرى قد يقتصر الأمر على تجنب المرور بجوارها أو النظر إليها أو الكلام معها ، بل قد يكتفى فقط باتباع منتهى التحفظ والأدب معها كما هى الحال عند الزولو . وقد تراعى بعض الشعوب الأخرى أنواعاً مختلفة من التصرفات الخاصة وهذه الأمور كلها قد تنطبق على الحم وزوجة ابنه ، بل وقد ينتظر من الإخوة والأخوات أن يتحاشى أحدهم الآخر — بدرجات متفاوتة — حين يصلون إلى سن الرشد .

ولسنا نعرف تماما أسباب ذلك ، كما أننى لست مستعداً لأن أعتنق التفسيرات الفرويدية رغم كل ما أعرفه من كثرة النكات عن الحموات وانتشارها بيننا ، وهى نكات ممجوجة نظراً لما فيها من غل وخلوها من الدعابة اللطيفة ولجاجتها فى تصور الحماة كشخص بغيض أو خليق بالبغض . ويبدو أن قواعد التحاشى تدعم التابو المفروض على مضاجعة المحارم من عدة نواح ، كما أنها — أو القواعد المضادة ، أى قواعد الألفة — تحدد فئات معينة من الأقارب تعتقد أن من الأصوب ألا تصطبغ علاقاتهم الاجتماعية

بالطابع العادى المألوف خشية ما قد يترتب على ذلك من منازعات ومشاكل. فكأن التحاشى — أو الألفة — يزود هؤلاء الأقارب بنوع خاص من الإتيكيت ، يساعدهم على تحديد مراتبهم الاجتماعية الخاصة وعلى معاملة بعضهم بعضا .

الزواج مهم لكل إنسان

لو كان فى العالم رجل واحد وامرأة واحدة فقط لما كان هناك مجتمع نتكلم عنه ، ولما وجدت بالتالى كل تلك المشكلات التى سبق ذكرها . فقد كانا يستطيعان أن يباشر أحدهما الآخر — أى أن يتزوجا بالمعنى الذى تتزوج به الشققة — ويشبعا بذلك مطالب الجنس وينجبا أطفالا يقومان منهم مقام الوالدين ويشرفان على تربيتهم وإن كانت ستصادفهما كثير من المشكلات الرهيبة إن لم تكن لها ثقافة يسترشدان بها . وقد يستطيعان أيضاً تكوين وحدة اقتصادية بسيطة تتألف من الرجل وزوجته وتقوم بكثير من الأعمال التى تستهدف المصلحة المشتركة . فهذه فى الواقع هى الأمور التى من أجلها تنشأ العائلة الأساسية المؤلفة من الزوج والزوجة والأولاد . ولكن العائلة — بهذا الشكل الذى وصفته — ليست فى حقيقة الأمر إلا تصوراً مجرداً لأنها لا توجد قط بعيدة عن المجتمع . فالمجتمع البشرى يتطلب دائماً الزواج الرسمى — لا الزواج على طريقة الشققة — ثم يستخدمه بعد ذلك فى تشييد الوحدات الكبيرة . وهذا مظهر آخر للبناء الاجتماعى أو التنظيم الاجتماعى الذى أشرت إليه من قبل .

ذلك لأن العائلات المنعزلة بهذه الصورة ستكون عديمة الجدوى حتى عند الصيادين المتأخرين ، وذلك لأسباب اجتماعية واقتصادية معا . فلو مرض أحد الزوجين مثلا وعجز بالتالى عن أداء عمله المعتاد لتعرض القرين الآخر والأولاد لكثير من الضيق والعنت ، إن لم يجدوا من يمد إليهم

يد العون — وقد تضطر العائلة — فى بعض الثقافات — إلى أن تعيش بمعزل عن غيرها لفترة معينة من الزمن ، ولكن هذا يحدث فى الأغلب حين تكون موارد الطعام من الوفرة والكثرة بحيث يمكن لكل شخص أن يستمد منها قوته ومعاشه . وقد يكون هذا صحيحاً بالنسبة للشقة ، ولكن العادة أن الجماعة الصغيرة جداً — حتى عند السعادين العاوية — لا تستطيع الدفاع عن موطنها وبالتالى عن قوتها . وتتطلب حياة القنص من الأهالى فى أستراليا الكثير من المران والتدريب لتنمية المهارات التى يحتاج إليها الصياد فى عمله ، وهى مهارات قد لا تتوافر الأرملة الوحيدة . وعلى ذلك فبينما لا تتألف الزمرة عند صيادى الحيوانات من عدد كبير جداً من الأشخاص فإنها لا تكون من الصغر بحيث لا تضم إلا أسرة واحدة فحسب . وهذا يضاف بالطبع إلى ما نعرفه من أن الجماعة الأكبر تكون — على أية حال — أقدر وأكفأ ، وأن الإنسان حيوان اجتماعى .

والزواج ذاته يتأثر بمثل هذه الاعتبارات . فنحن نتمسك بشدة بالزواج المونوجامى ، بمعنى أننا نتزوج امرأة واحدة فقط، أو بقول أصح لا نجمع بين أكثر من زوجة فى الوقت الواحد . وبعض الثقافات تبيح للرجل الجمع بين أكثر من زوجة ، وعدد قليل منها يسمح للمرأة بأن تجمع بين أكثر من زوج ، وعدد أقل من ذلك يسمح بقيام نوع من زواج الجماعة . ولو أن فى هذا التعبير شيئاً من المبالغة ولا يعنى تماماً ما قد يفهم منه . وقد كتب الشىء الكثير عن الزواج وتطوره ، ولكننا سوف نغفل كل ما قيل ، ونكتفى بأن نقول عن «التطور» إنه مصيدة أو شرك .

وليس من شك فى أن لدينا أسباباً وجيهة — غير مجرد التفضيل وغير الدين — للتمسك بالمونوجامية فى مجتمعنا . وليس من شك أيضاً فى أن للشعوب الأخرى أسبابها الوجيهة كذلك لاتباع أنواع أخرى من الزواج. وهى ليست بالضرورة أشكالا «دنيا» فى تطور الزواج إلا بمقدار ما تعتبر

اللغات الأخرى « دنيا » ، لأنها لا تستطيع أن تقول مثلا trinitrotoluol ولقد ذكرنا من قبل أن مثل هذه النظم لا تتطور بمعزل عن بقية الثقافة ، إنما هى تلائم الثقافات التى تنتمى إليها . وحتى لو كانت تلك الثقافات أكثر بداءة وبجعة من ثقافتنا فلن يكون لذلك أدنى علاقة بتطور الزواج . وقد يبدو أن ثمة تناقضاً فى هذا القول ، والواقع غير ذلك(١) .

إنما النقطة الأساسية هى أن المونوجامية التى تلائمنا وتصلح لنا تماما قد تكون شرا وبلاء لو أنها فرضت على إحدى الزمر الاسترالية ، لأنها ستحرمها من إحدى الوسائل التى تصطنعها لرعاية العدد الزائد من النساء . فمن المستحيل على المرأة هناك أن تعيش إلى الأبد مع والديها لأن صيادى الحيوانات يذوون ويموتون فى سن مبكرة على أية حال ، ومن الصعب عليها كذلك أن تعيش مع أسرة أخرى بأى شكل من الأشكال إلا كزوجة شرعية .

وثمة أسباب مماثلة — وأخرى غيرها — تسوغ قيام البوليجامية (أو البوليجينية على الأصح : تعدد الزوجات) فى المجتمعات الأكثر

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى ما كان يزعمه علماء القرن التاسع عشر من أن المجتمعات البشرية المختلفة تمثل المراحل التى مر بهـا المجتمع الأوروبى فى تطوره ، وعلى ذلك فالنظم الاجتماعية السائدة فى تلك المجتمعات — ومنها نظام الزواج الذى يتكلم عنه هنا — تمثل بدورها المراحل التطورية التى مرت بها النظم الاجتماعية فى أوروبا . فالزواج المونوجامى (زواج الرجل من امرأة واحدة) هو أرقى أشكال الزواج وأعلى ما وصل إليه تطور العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة بينما الجمع بين أكثر من زوجة بالنسبة للرجل أو الجمع بين أكثر من زوج بالنسبة للمرأة أو زواج الجماعة (حيث يتزوج عدد من الرجال عدداً من النساء فى الوقت ذاته) هى أشكال أقل تطوراً من الزواج المونوجامى . وقد رفض علماء الاجتماع والأنثربولوجيا المحدثون هذه النظرية التطورية على أساس أن أى نظام اجتماعى إنما يرتبط ارتباطاً قويا ببقية الثقافة السائدة فى المجتمع ، كما أننا قد نجد الزواج المونوجامى (الذى يعتبر فى نظر التطوريين أرقى أشكال الزواج) سائداً عند بعض الشعوب البدائية مثل الأندمان لأن الأوضاع الثقافية والاجتماعية تحتم ذلك .
(المترجم)

رقياً . وليس المقصود بتعدد الزوجات أن يكون لكل رجل عدد من الزوجات ، ولكن المعروف أن عدد النساء يفوق دائماً عدد الرجال وبخاصة حيث يباشر الرجال الأعمال الخطرة أو يشتبكون فى الحروب . فتعدد الزوجات يقلل من عدد العوانس ، ويخفف فى الوقت ذاته من أعباء العمل فى البيت الذى يضم زوجتين .

الأقارب والعائلة والعشيرة

ولكن لنترك أشكال الزواج ونعد مرة أخرى إلى مسألة بناء المجتمع عن طريق تجميع العائلات . وقد تكون الغاية القصوى لهذا التجميع هى تكوين زمرة صغيرة فحسب بقصد تبادل المنافع ، إلا أن مسائل القرابة لا تلبث أن تتداخل — حتى عند صيادى الحيوانات — مما يؤدى إلى تكوين وحدات أشد تعقدا ، وكذلك ظهور بعض الخصائص التى زادت أهميتها وفائدتها على ما يبدو بازدياد حجم الجماعات نتيجة للحياة النيوليثية ، إذ يمتاز هذا النوع من المجتمعات — على ما رأينا من قبل فى آسيا وأوقيانوسيا وأفريقيا — بكثرة وتباين طرائق التنظيم الاجتماعى التى تنشأ من نفس القواعد التى تتبعها هذه المجتمعات ذاتها فى تجميع عائلاتها واختيار مواطن إقامتها .

وينطوى هذا على شىء من الجمود الذى يعتبر عنصرا أساسياً فى الحياة القبلية ، ولكن لا يمكن ملاحظته بسهولة فى حياتنا نحن القومية . صحيح أننا نعطى لقب الزوج دائماً إلى الزوجة والأولاد ولكن فيما عدا ذلك فإن العائلة تستطيع أن تعيش إما مع أهل الزوج وإما مع أهل الزوجة ، أو أن تذهب أينما شاءت . وقد يشتغل الرجل مع أبيه ليرث العمل من بعده ، وقد يتزوج من ابنة رئيسه فى العمل ليحل محله حين يفلح فى إقناعه بضرورة التقاعد . وخليق بهذا كله أن يبدو أقرب إلى الفوضى الشاملة فى

نظر المجتمعات غير الغربية . فالشعوب الأكثر بساطة تستمد كيانها من القواعد الخاصة بالنسب والوطن ، وليس من الضرورى أن تقف هذه القواعد معاً فى نفس الجانب (أى جانب الرجل والمرأة) دائماً . ويعتبر ذلك أحد أسباب التنوع فى التنظيم الاجتماعى[١] .

والنتيجة على العموم هى الاتجاه إما نحو العائلة المشتركة وإما نحو العشيرة . وليست العائلة المشتركة إلا عائلة كبيرة تتكون من عروق « البيوت » أو الأسرات التى يؤلفها الأب وأبناؤه ، أو جماعة من الإخوة (أو الأخوات وأزواجهن وأولادهن فى حالة الانتساب الأم) أو ما شابه ذلك من الجماعات التى قد يتسع نطاقها بحيث تشمل عدد أكبر من الأجيال ومن الأقارب . ومن الأمثلة على هذه الجماعة القرابية فكرة « العرق » عند سكان منطقة الريف ، حيث يتصرف « العرق » كوحدة متماسكة فى كثير من أوجه النشاط .

أما العشيرة فهى تجمُّع أكثر تطرفا وتعسفاً . إذ بينما تعتمد العائلة المشتركة على تتبع فروع العائلة إلى بعد معين لا تلبث أن تنقسم بعده إلى عدد من العائلات التى تماثلها ، فإن العشيرة تؤلف وحدة دائمة باقية . فإذا كانت عشيرتك أبوية patrilineal فإنها سوف تضم أباك وأعمامك وجدك وهكذا ، ولكنها تضم أيضاً أعضاء آخرين لن تستطيع بحال أن تتعقب وشائج الدم التى تربطك بهم . كذلك تضم أخاك وأختك ، ولكنها تحتم على الأخت أن تتزوج من خارج العشيرة وتنجب أطفالا ينتمون إلى عشيرة أخرى على

(١) فقد تتكون العائلة أبوية النسب والوطن بمعنى أن ينتسب الأولاد إلى عائلة أبيهم وتنتقل الزوجة للمعيشة مع أهل الزوج ، أو أموية النسب والوطن بمعنى أن يعتبر الأولاد أفراداً فى عشيرة الأم دون عشيرة الأب كما ينتقل الزوج ليعيش فى عشيرة زوجته . وقد تتكون أبوية النسب أموية الوطن ، أو أموية النسب أبوية الوطن . (المترجم)

الرغم من أنها هى نفسها تظل عضواً فى عشيرتك وتشارك فى أمورها [1].

أما إذا كان النسق أموياً matrilineal فسوف تنتسب حينئذ إلى عشيرة أمك التى يعد أبوك غريباً عنها. وتلقى مهمة الإشراف على شئون العائلة على عاتق الأم وأخواتها وإخوتها. ويعتبر الخال أهم شخص فى حياتك نظراً للمسئوليات الكثيرة التى يتحملها إزاءك ولأن تركته سوف تؤول إليك، بينما يعتبر الأب مجرد « إنسان لطيف » قد تخرج معه لصيد السمك ولكنه سيترك ممتلكاته لابن أخته الذى ينتمى — من دونك — إلى عشيرته. وعلى ذلك فإن نوع الأب الذى نعرفه نحن فى مجتمعاتنا ينقسم إلى رجلين، وهو نظام له بعض الفوائد والمحاسن. وقد تبدو هذه الحالة الخاصة على جانب من الفجاجة، ولكن هذا يرجع إلى أننا اعتدنا النظر إلى الأشياء بطريقة معينة. ومهما تكن الصورة الدقيقة لذلك النسق فهو نسق مطرد وخال من التناقض [2].

وسوف نتبين حالا الحكمة من الزواج الإكسوجامى — أعنى ضرورة زواج الرجل من خارج العشيرة حتى وإن لم تكن له ببعض نساء عشيرته إلا بعض روابط الدم البعيدة، فالواقع أن النسق كله سيبدأ فى التصدع

(١) الواقع أن هذا يصدق فقط على العشائر الطوطمية التى تحتم على الرجل أن يتزوج من عشيرة أخرى لأن الزواج داخل العشيرة يعتبر زنى بالمحارم، وقد كان المفهوم السائد عند علماء الأنثربولوجيا فى أوائل هذا القرن أن العشيرة — بالتعريف — هى وحدة إكسوجامية. ولكن تعدد الدراسات وتنوعها والاتصال بتنظيمات اجتماعية متباينة ساعد على توسيع مفهوم الكلمة فأسقط العلماء بذلك شرط الإكسوجامية. ولعل أفضل مثال على العشيرة غير الإكسوجامية هو عشائر البدو العرب التى تفضل الزواج الإندوجامى أى الزواج داخل العشيرة، بل وبين الأقارب الأقربين (المترجم)

(٢) الاشارة هنا إلى التمييزات التى يقيمها علماء الأنثربولوجيا بين الأب الفيزيقى الذى أنجب الطفل ويعرف فى الكتابات الأنثربولوجية باسم genitor والأب الاجتماعى الذى يعطى الشخص اسمه ومركزه فى المجتمع ويعرف باسم pater. وليس من الضرورى فى كثير من المجتمعات البدائية أن يجتمع « نوعا » الأب فى شخص واحد. وتعطى المجتمعات التى تعترف بهذا التمييز أهمية قصوى للأب الاجتماعى. (المترجم)

كما سينهار معه التنظيم الاجتماعى برمته إذا تزوج رجال العشيرة من نسائها . ومن قواعد العرف العامة التى تدعم هذا النوع من التنظيم (العائلة المشتركة أو العشيرة) تلك القاعدة المزدوجة التى وصفتها أثناء كلامى عن اللوبولا والتى تتمثل من ناحية فى نظام زواج الأرملة levirate الذى يقضى على الرجل بأن يتزوج من أرملة أخيه الميت ، ومن الناحية الأخرى فى الزواج من أخت الزوجة sororate الذى يحتم عليه أن يبنى بأخت زوجته الأولى (رغم أنها قد تكون على قيد الحياة) . وهذا يساعد — كما قلت — على استمرار الأمور فى وضعها الصحيح .

وللعشيرة — أو العائلة المشتركة — أهمية كبرى بالنسبة للفرد . فأعضاؤها هم أقاربها الحقيقيون بصرف النظر عن نوع المشاعر التى يحملها نحو ذوى قرباه الذين يرتبط بهم بروابط الدم فى العشائر الأخرى . فهو يشاركهم فى ممتلكاتهم ويهتم بشؤونهم ويمارس معهم نفس الطقوس الدينية ، وهم موضع ثقته ومستودع سره ، وهم عضده وقوته وملاذه الذى يذود عنه حين يحتاج إليهم .

فالطريقة التى تعمل بها الوحدات الاجتماعية التى من نوع العشيرة لتنظيم المجتمع تشبه الطريقة التى ينظم بها الجيش أفراده فى جماعات يمكن التحكم فيها بسهولة . فهى تدمج عددا من البيوت فى جماعة واحدة كبيرة محكمة لتستطيع أن تضطلع بكثير من الشؤون الاجتماعية والدينية وهى تحدد بذلك أدوارا معينة للعشائر بأكملها وتسمح بقيام العلاقات الاجتماعية بين مختلف العشائر مما يساعد بدوره على ربطها معا فى مجتمع وظيفى شامل . وتتزاوج هذه العشائر تبعا لقواعد الإكسوجامية ، وتنشأ بينها التزامات مشتركة متبادلة أو بعض أنواع السلوك الذى يرتكز على التناوب كالإهداء وإقامة الولائم كما هى الحال فى إندونيسيا ، أو حتى الدور الذى يجب أن تقوم به كل منها فى الطقوس العامة كما هى الحال عند هنود البويبلو . وتتحمل العشائر فى

العادة مسئولية الأفعال التي تصدر عن أعضائها ، وتهب العشيرة كلها لحماية أي فرد من أفرادها ، كما أن مسئولية الجرائم التي قد يرتكبها تقع عليها كلها كوحدة ، ولذا كان الفرد يعتبر مسئولا أمامها . فكأن العشيرة إذن هي التي تنظم وتنسق السلوك وتقر السلام .

ولكن إذا كانت الشعوب «النيوليثية» الحالية تتمتع بمثل هذه الدرجة من التنظيم الاجتماعي ، فلم لا نجد لدينا نحن إذن تنظيما أعلى من ذلك ؟ ولم انحدرنا إلى نسق الأسرة البسيطة الذي نهتم فيه أكثر ما نهتم بالاكتفاء بزوجة واحدة ؟ قد يكون الرد على ذلك متعلقا بوجود شيء معين بالذات في مجتمعنا تفتقر إليه الشعوب النيوليثية ، وهذا الشيء هو السياسة . فإذا كان التنظيم الأساسي للأسرة والقرابة عند الصيادين، وكذلك الاتفاق العام والقرارات التي يتخذها الشيوخ تبدو ملائمة متمشية مع سلوك الزمرة المتجانس، فإن التنظيم الاجتماعي الأكثر تعقدا عند سكان القرى وكذلك تباين المراتب الاجتماعية تؤدي جانبا هاما من العمل اللازم لتسيير وتوجيه المجتمعات التي يزيد حجمها على حجم الزمرة .

وليست العشائر ولا غيرها من أشكال العائلة الكبيرة هي الأقسام الوحيدة التي تدخل في البناء . فالطبقات الاجتماعية — كتلك التي نجدها في جنوب شرقي آسيا — وكذلك الطوائف الهندية تتفاعل معا وينجم عن تفاعلها نفس الأثر أو النتيجة . ولكن هذه الثقافات تفتقر في عمومها إلى النظم السياسية القوية . فمجالس كبار السن هي أهم سلاح تلجأ إليه بينما لا تعرف النصوص القانونية إلا في بضع جماعات قليلة ، كما هي الحال على الخصوص عند شعوب شمال أفريقيا وسكان إندونيسيا، بينما يتوقف إقرار العدالة في المجتمعات الأخرى على مصادفات الأورداليا وغيرها من ضروب العرافة . ويتمتع الحكام بدرجة من الكفاية والمهارة تعصمهم من الجنوح إلى الاستبداد .

وعلى النقيض من ذلك ، لا يوجد ما يضطرنا نحن — فى ظلال حكومتنا الدستورية المعقدة والقوانين التى تشرع للجميع وتدون حتى يراها الجميع أيضا — إلى الاتجاه إلى التنظيم الاجتماعى النيوليثى المغلق فى توجيه حياتنا وعلاقاتنا. كما أن نسقنا الاقتصادى الحر يتيح للعزب والعانس فرصة للعيش، وهذا معناه أننا ارتددنا وتدهورنا اجتماعياً من حالة كانت أكثر تعقيدا بلا ريب . ولعلنا لا نزال سائرين فى ذلك الطريق .

وقد نكون تمادينا فى ذلك إلى أبعد مما يجب ، وإلا فهل نشعر بالسعادة حقا حين نرى فى نسقنا الذى كان نسقا أبويا فى وقت من الأوقات أن مسز سميث تطلق زوجها مستر سميث وتعود إلى أمها مسز جونز ومعها ابنتها من زوجها الأول الصغيرة آليس روبنسون ؟ ليس لأولادنا من الطلاق « لو بولا » تحدد لهم وضعهم الاجتماعى ، وليست لهم عشيرة يرتبطون بها دائما ، كما أنه على الرغم من كل ما أحرزته المدنية من مجد وما توفره من متعة فإن مكانتهم الاجتماعية — كأشخاص — مكانة غير عادية وينقصها الراحة والهدوء والاستقرار .

١٥
معنى الدين

هل تعتبر الحياة كاملة إذا توافر الطعام وسادت الألفة ؟ قد يكون الأمر كذلك بالنسبة للسعادين، ولكن ليس للسعادين ثقافة قبل كل شيء، بينما يتمتع الإنسان بنصيب كبير جدا منها . ولقد ذكرنا أكثر من مرة أن الثقافة عبارة عن أنماط أو أفكار مجردة تتخذ شكل الموضوعات أو الأفعال العيانية المحسوسة ، ولكن بعد أن تمكن الإنسان من استعمال هذه الأنماط فإنه لم يعد حراً في أن يتبعها أو ينبذها ، بل أصبح مضطرا إلى التمسك بها واتخاذها وسيلة لفهم الكون كله . وقد أدى ذلك إلى ظهور الدين الذي يعد أشد جوانب الثقافة تجريدا وبعدا عن الحياة الحيوانية .

فالدين يمثل إذن أحد المستويات العليا في الثقافة . والواقع أن طبيعته الرمزية تضعه في مستوى أسمى بكثير من المستوى التكنولوجي أو المستوى الاجتماعي . فكثيرا ما يستخدم الإنسان في حل مشكلاته بعض الآلات البسيطة السهلة التي يمكن للقردة العليا أن تقلده في استعمالها (ويجب ألا يغرب عن ذهننا بالطبع أن الآلات ذاتها هي حصيلة بعض الأفكار المجردة) كما قد يستعين في معالجة البعض الآخر — كما هي الحال في مشكلة تربية الأطفال — ببعض القواعد العملية (وهي بلا شك أكثر تجريدا من الآلات) التي يتمسك بها لكي يعطي المجتمع شكلا أشد تحديدا . أما الأفكار المجردة فإن استخدامها كفيل بأن يكشف له عن أمور أخرى كثيرة تعجز بقية الحيوانات عن إدراكها ؛ وهي أمور لا تتعلق بأي موضوع شخصي محسوس .

مثال ذلك أن الحيوان قد يستشعر الجوع أو المرض ، أما الإنسان فإنه يدرك مقدماً معنى الجوع أو المرض ويعمل لهما حسابه ، وهذه مسألة

لا يمكن لمسها باليد مثلا أو إصدار أوامر معينة بشأنها أو الهبوط بها من حالتها المجردة ، وإنما يتعين على المرء ذاته أن يرقى بنفسه إلى مستواها مستعينا فى ذلك ببعض الأسلحة الثقافية ذات الطابع الرمزى . ولقد صادف الجنس البشرى فى معاناته لبعض الأمور — كالمرض والجوع — كثيرا من المشكلات التى يستحيل إخضاعها بقوة السلاح أو حتى بالتنظيمات والأحكام . ولذا لم يكن ثمة بد من مجابهتها بشيء ثالث هو الفلسفة والدين .

وثمة وجهات نظر عديدة لدراسة الدين ، إلا أننا سنتبع هنا المنهج الذى يتفق ودراسة الثقافة ، والذى يعزو للإنسان القدرة على النظر فى الكون وعلى تكوين أفكار مجردة عنه مثل فكرة « النهار » عن ساعات الضوء (وهو الأمر الذى تعجز عنه الحيوانات) ، كما أن له القدرة على إدراك مكانه الخاص فى ذلك الكون وفهم حاجاته ورغباته ، ولكنه فى الوقت ذاته يدرك تماما أن ذلك الكون ليس نسقا مرتبا وأنه لا يستجيب بشكل منتظم لهذه الحاجات والرغائب ، كما أن هناك فجوات واسعة يتعين عليه أن يملأها بشكل ما إذا أراد أن يوفر لنفسه عيشة آمنة طيبة . فالبوصة والصنارة مثلا تصلحان لملء الثغرة التى تفصل بينه وبين صيد البحر وتؤديان بالتالى إلى سد جوعه . كذلك المرض يجب مجابهته بمثل هذه الوسائل المؤكدة المضمونة حتى لا تتخلف عنه آثار وخيمة تحطم معنوياته تماما .

ولكن كيف يمكن فى هذه الحالة سد الثغرة للتغلب على المرض ؟ الواقع أن الإنسان يدرك المرض ليس كإحساس جثمانى فحسب ، بل وأيضا « كشيء » مجرد . كذلك الحال فيما يتعلق بالرغبة فى التخلص منه . فإذا أمكن تمثيل المرض فى شكل رمزى تستطيع المخيلة الإنسانية العادية أن تفهمه بسهولة — كأن نرمز له بالروح التى « تلبس » الإنسان أو بالطلسم الضار — وإذا أمكن بالمثل أن نرمز للحاجة الانفعالية للتخلص منه بنوع الشراب الذى تعافه الروح مثلا أو بتعويذة تبطل مفعول الطلسم الضار وترده إلى صدر

صاحبه ، فإننا نكون بذلك قد وضعنا الموقف فى صورة أو شكل يمكن معه معالجته . وقد تفشل الإجراءات التى تتخذها فى ذلك ولكن هذا لا يهم ، لأن النتيجة الأساسية هى إكمال نسق الأفكار أو الرموز المتعلقة بالموقف؛ أعنى سد الثغرة بحيث يمكن القضاء على الهم والقلق .

ولست أبغى من ذلك أن أرد الدين كله إلى معالجة الأمراض أو حتى أن أضع تعريفا شاملا للدين ، ولكننى أحاول فقط أن أبين طبيعة الدين الرمزية . وقد استخدمت الخوف من المرض كمثال فحسب فالدين أكبر من أن يكون وسيلة لحل المشكلات ، إنما هو بالأحرى وسيلة لإبراز العالم فى صورة يستطيع الإنسان أن يفهمها ويرضى بها . وقد أستطيع أن أزعم أن التقدم العقلى لدى الإنسان هو الذى مكن بل وحتم ظهور الدين كمجال أخير لتقدير العالم .

الأساطير: مستودع المثل العليا

وليس من السهل تعيين حدود دقيقة للدين . ولذا فقد يكون من الأفضل أن نتكلم عن « السلوك الدينى » بدلا من أن نتكلم عن « الدين » خاصة وأن الموقف الذى تقفه الثقافة إزاء أى اعتقاد أو أى فعل معين قد يكون هو العامل الذى يعطيه خاصيته الدينية . وقد يكفى أن نقارن فى هذا الصدد قصة ذات الرداء الأحمر Little Red Riding Hood والإنجيل . أما الأولى فهى عبارة عن قصة شعبية تدور حول بعض الأحداث الخارقة التى تتمثل فى وجود ذئب يستطيع الكلام والنطق . وقد نشعر بشىء من اللذة والسرور ونحن نقصها على الأطفال ، ولكننا لا نعتبرها قصة دينية لمجرد كونها غير طبيعية ، بينما يعتبر الإنجيل كتابا مقدسا بل ونواة الدين عند المسيحيين ، ولا أكاد أحتاج إلى أن أبين مدى ما يفرضه على الناس من تقديس واحترام .

فالكتابان يصلحان إذن لتمثيل الموقفين المتناقضين اللذين تقفهما

الثقافات المختلفة إزاء ما يمكن تسميته بوجه عام بالآداب الشعبية (الفولكلور). والأساطير التي تؤثر تأثيرا فعالا في حياة تلك الشعوب التي لا تهتم بتدوين آدابها ولكنها تحفظها مع ذلك حية عن طريق الرواية. وبعض هذه القصص لا يعدو أن يكون مجرد تخيلات لطيفة بينما يتضمن البعض الآخر علاوة على ذلك بعض القيمة الفلسفية أو بعض المبادىء الخلقية، ويدخل في هذا النوع القصص التي تدور مثلا حول أصل الأشياء، أو التي تحاول تفسير الأشياء الهامة، وبذلك تعلم الناس عن طريق الإيحاء أن يعظموا من شأن ثقافاتهم وتقاليدهم. كما تدخل فيه الأساطير التي تدور حول حوادث العنف أو الفحش والفجور، ولكنها لا تنسى في الوقت الذي يستمتع الناس بها أن تبرز لهم بشكل مباشر أو غير مباشر المعنى الخلقي الذي يتضمنه مثل هذا السلوك الخاطىء.

وقد يكون لبعض هذه الأساطير طابع ديني واضح. فقبائل الباكونجو Bakongo في أواسط أفريقيا مثلا يقصون أشياء كثيرة جدا عن نزامبي مبونجو Nzambi Mpungu — وهو الكائن الأسمى الذي خلق العالم وسن القوانين، والذي هو خير كله والذي يعاقب على فعل الشر كالحنث باليمين وقول الزور والزنى وعدم احترام الوالدين، ولكنهم مع ذلك لا يعرفون شكله ولا يعبدونه لأنهم يعتنقون عبادة الأسلاف.

ثم هناك أخيرا الأساطير المقدسة التي قد توجد جنبا إلى جنب مع بقية الأنواع الأخرى ولكنها تؤلف أساس الطقوس الشعائرية كما هو الأمر في بولينيزيا وأستراليا مثلا. وقد ساعد على بقاء هذه الأساطير التكرار والقيام بتمثيل أحداثها ويحمل الناس لتلك الأساطير نفس النظرة التي يحملها المسيحيون للإنجيل، بل إن تقديسهم لها يصل إلى حد الاحتفاظ بها سرا مغلقا على غير المكرسين من الشباب.

فكأن الأساطير والآداب الشعبية إذن وسائل يعبر بها الناس لأنفسهم

عن كثير من مثلهم العليا المشتركة . وقد نجد عندنا نحن روايتين تعالجان فكرة الصراع مثلا أو الشهوة أو الرعب ، ولكن بينما يعتنق أحد الكاتبين بعض القيم الخلقية التى يلبسها ثوب الأحداث بحيث تبرز قصته تلك القيم فى صورة قوية واضحة ، لا يكون للكاتب الآخر مثل هذه القيم ، وبذلك لا يقدم لنا فى كتابه سوى بعض الإحساسات الشهوانية الداعرة . وليس ثمة شك فى أن هذه القيم الخلقية التى تؤلف عنصرا هاما فى الثقافة والتى تبرز أثناء سرد الأسطورة هى التى تساعد على بقاء الأساطير وعلى استمرارها ، كما أن عملية السرد ذاتها هى التى أدت فى الماضى إلى اتجاه الأسطورة ذلك الاتجاه . ومن هنا كانت الأساطير هى المستودع الأساسى لفلسفة أى شعب من الشعوب . وقد يمكن وصف كثير من أنواع الأساطير بأنها أساطير دينية وليست فلسفية فحسب لو اعتبرنا الدين هو تسخير الرموز أو الإشارات الخارقة للطبيعة فى ملء الثغرات التى تتخلل فهم الإنسان للكون .

ومن المؤكد أن هذه النظرة سوف تدخل إلى مجال الدين كثيرا من أنواع النشاط التى لا نعتبرها نحن من الدين فى شىء . إلا أننا اعتدنا أن نفكر فى الدين على أنه شىء محدد تحديدا دقيقا كما هى الحال فى فكرة المسيحيين عن الله والكنيسة مثلا ، أو كما هى الحال فى الإسلام الذى ينافس المسيحية والذى يشابهها فى طابعه العالمى المتطور الناضج .

بيد أن المسيحية والإسلام هما دينان عالميان عظيمان أسهم الأنبياء والأولياء والفقهاء فى تطورهما ، كما أن لكل منهما أسفاره المقدسة وعقائده اليقينية وأفكاره القاطعة عن المروق والإلحاد ، فطبيعتهما تتعارض إذن مع طبيعة الأديان الوثنية المهوشة غير الواضحة ، وأقصد بذلك عبادات القبائل التى لا تتبع أحد الأديان الكبرى . ومع ذلك فلهذه العبادات الوثنية أهميتها بالنسبة لدراسة التاريخ البشرى وماضى الثقافة لكونها عبادات غير عالمية يقتصر وجودها على مجتمعات محلية تعيش فى مناطق محددة ، ولأنها

تشبع حاجات تلك المجتمعات الميزوليثية والنيوليثية عن طريق عملية الترقى الطبيعى ، وبذلك تبين لنا ماهية هذه الحاجات ووسائل إشباعها فى شكل عقائد وممارسات معينة يتكرر حدوثها المرة تلو المرة .

السحر : تسخير الأشياء

والسحر هو إحدى هذه الوسائل أو الطرق ، ولعله أبعدها عن الدين من جميع الوجوه . ولقد سمعتم عن السحر من قبل ، ولا شك فى أنكم تدركون أن المقصود به هنا ليس خفة اليد أو الأعمال التى تبدو لنا مدهشة أو عجيبة ، بل المقصود هو فعل الطلاسم وتأثيرها .

والسحر الأسود سحر ضار يمارس بقصد إلحاق الأذى بالآخرين ، أو على الأقل بقصد نفع شخص ما على حساب شخص آخر . ويوجد بيننا للآن نوع من السحر يعتمد على استخدام الصور ، بمعنى أن يصنع الساحر دمية ترمز إلى عدوه ويطلق عليها اسمه ، ثم يأخــــذ فى استنزال اللعنات عليها أو إيقاع الأذى والضرر بها ، بل إنه قد يطعنها بالسلاح لكى يقتلها أو قد يحرقها بالنار أو يسممها بأحد طلاسمه ، وبهذه الطريقة تتخذ رغبته فى الإيذاء شكلا رمزيا ولا تلبث أن تسرى إلى العدو نفسه عن طريق الدمية التى تمثله ، وحتى إذا أصابه مكروه أو أذى — حتى ولو كان يختلف عما كان الساحر يهدف إليه — شعر بأن ذلك الأذى إنما حدث نتيجة للسحر الذى مارسه .

ولكن إذا كان هذا العمل يتمتع بمثل هذه الدرجة من الشيوع والبقاء والاستمرار فقد يمكن استخدام هذا التأويل ذاته بالنسبة لصور الحيوانات المرسومة فى كهوف العصر الحجرى القديم وبخاصة تلك الصور التى تظهر فيها الحراب وقد انغرزت بالفعل فى أجسام الحيوان . إذ بمثل هذه الحيلة كان الصيادون يتحكمون فى الحيوانات ، وهى فى الغالب حيوانات برية —

— إما بقصد التمكن قدما من قتلها — إن أمكن هذا القول — أو بقصد استدراجها إليهم ، أو زيادة خصوبتها ، أو غير ذلك .

فاستخدام السحر لأغراض ضارة شريرة أمر شائع . فالأستراليون مثلا يشحذون فى السر قطعة من العظام بقصد تسليط السحر كشعاع الموت نحو الفريسة البعيدة ، وسكان منطقة الريف فى شمال أفريقيا يأخذون الطلاسم التى يكتبها لهم بدم الخفاش فقيه من غير ذوى المبادىء فينقعونها فى شراب الضحية أو يعلقونها فوق شجرة يعرفون أنه يمر بجوارها ، وهكذا . ولكن الشىء المؤكد هو أن الاعتقاد فى السحر أوسع انتشارا بكثير من ممارسة السحر بالفعل والعادة أن المرء يشغل نفسه بالتفكير فيما قد يدبره عدوه له أكثر مما يشغل نفسه بتدبير الخطط الوضيعة وتسديد الضربات نحو ذلك العدو .

أما السحر الأبيض فهو أكثر أهمية من الناحية العملية . ويتمثل ذلك فى التعاويذ الكثيرة التى يستعين المرء بها لإنجاز أعماله اليومية وتحقيق الأهداف التى يعجز عن أدائها بيديه هو وبآلاته . فالجماعات التى تعيش على قنص الحيوان مثلا يمارسون نوعا خاصا من السحر يساعدهم على تصويب السهام بدقة وإحكام نحو القنيصة وعلى إخفات أصواتهم وإخفاء تحركاتهم وعلى زيادة قوة البصر عندهم ، كما يساعد من الناحية الأخرى على تبلد الحيوان ذاته وبطء حركته . ويعتبر السحر الخاص بفلاحة البساتين من الممتلكات الرئيسية فى ميلانيزيا حيث لا يتوقع الرجل أن ينمو محصوله من نبات اليام نموا طبيعيا إن لم يستخدم لذلك الطلاسم الطيبة النافعة . وثمة أيضا سحر خاص بالحرب وسحر خاص بصيد السمك وثالث لصناعة الفخار وآخر للحب . والواقع أن تصنيف الصيغ السحرية التى توجد لدى أية قبيلة من القبائل قد يحتاج إلى مجلد كامل ، بل إننى أعتقد أننا لو حاولنا تسجيل الحيل والألعاب السحرية الصغيرة التى توجد عندنا نحن فسوف

ندهش لكثرتها ، إذ ليس بيننا من لم يرغب يوماً فى تحقيق المستحيل .

ولعل أهم نوعين من أنواع السحر فى كل أنحاء العالم هما السحر الخاص بالتداوى والعلاج، والسحر الخاص بالتنبؤ بالغيب ، والواقع أنهما جديران بذلك ، لأن المرض والشك هما دائما أشد وأقسى أسباب القلق الشخصى والاجتماعى ، وهذا نفسه هو السبب فى وجود المشتغلين بقراءة الكف وورق اللعب والعرافين والمنجمين وأمثالهم بيننا — ووجودهم نعمة من غير شك — كما أنه هو السبب فى أن الناس لا يزالون يقبلون كل أنواع طب الركة أو طب العجائز على الرغم من الطب الحديث بكل معلوماته الصحيحة الشاملة . وإذا كان الأمر كذلك — فهل يحق لنا أن نهزأ من الزاندى سكان الكونغو لأن الرجل منهم لا يجرؤ على أن ينتقل إلى القرية المجاورة إلا بعد أن يستخير «لوح الحك» (وهو أداة صغيرة تشبه لوح الويجا عند الأمريكيين)، بينما تحتاج الأمور الخطيرة إلى الاستخارة عن طريق تقديم السم إلى الدجاج؟ كذلك هل يحق لنا أن نهزأ بأسلافنا الأوروبيين الذين كانوا يحتكمون إلى أورداليا المصارعة مثلما يحتكم الأفريقيون الآن إلى أورداليا السم ؟ لقد كانوا يؤمنون إيمانا عميقا بأن عدالة القضية وحدها كفيلة بأن تنصر الشخص الطيب الضعيف على خصمه الشرير القوى الذى كان يستطيع لولا ذلك أن يسحقه بسهولة . وخليق بالفكر أن يتوه ويحتار بين وسائل التنبؤ وعملياته التى لا نهاية لها ، ولذا يحسن بنا أن نقف عند هذا الحد .

والشىء ذاته يمكن أن يقال عن سحر العلاج والتداوى أو التطبيب . ونحب أن نشير هنا إلى طريقة واحدة فقط شائعة شيوعا كبيرا ، وهى تخليص المريض من المرض وإزالة الأذى عن طريق المص ، وذلك بأن يضع المطبب فمه (أو أنبوبة) على موضع الوجع ويأخذ فى المص ثم يلفظ من فمه قطعة من الحجر أو العظام أو بعض الرماد أو قطعة من الفراء أو نحو ذلك ، علامة على أنه أخرج المرض من جسم المريض . والذين يعرفون

منا نوع الإحساس بالراحة والاسترخاء الذى يشعر به المريض حين يلقى طبيب الأسنان مثلا نظرة أخيرة على التجويف الذى كان يحفره فى أحد أسنانه، ثم يقول له وهو يلقى بالمثقب من يده «حسنا، لقد انتهى كل شىء» يستطيعون أن يفهموا ويقدروا شعور الرجل البدائى بالراحة حين تزول أسباب الألم، إذ سوف يبدأ جهازه بعد ذلك فى العمل على تحقيق الشفاء بطريقة طبيعية.

أما إذا كان المرض مميتا فلن يكون ثمة مهرب بالطبع، ولكنهم لا يهملون العلاج مع ذلك عساه ينفع ويجدى. ومن الملامح العامة للتطبيب عند الشعوب البدائية تناولهم الدواء مثلما نفعل نحن تماما. وقد يكون الدواء ناجعا إما لوجود علاقة ما بينه وبين المرض (فالنبات المعروف باسم بقلة الكبد liverwort مثلا له أوراق تشبه الكبد ولذا يعتبرونه نافعا فى أمراض الكبد) وإما لندرته وارتفاع ثمنه وإما لأسباب أخرى لا يعرفها العامة بالضبط. وقد تكون فائدة الدواء معروفة لنا نحن كما هى الحال بالنسبة لكثير من وسائل التطبيب البدائية. ولقد كان يبدو غريبا لو أن «الأهالى» أخفقوا فى اكتشاف هذه الأشياء عن طريق المحاولة والخطأ مثلما اكتشفوا الطباق والجعة والنبيذ، إلا أن هذه المسألة فى هذه الحالة تكون أقرب إلى المصادفة منها إلى الطب بالمعنى العلمى الدقيق. والواقع أن الذين يستخدمونها يعتبرونها نوعا من السحر الأكيد المفعول.

والواقع أن السحر يدخل عندهم فى باب العلم والدين معا، بينما نخرجه نحن من الاثنين على السواء. فالسحر يهدف إلى نفس الغايات العملية التى يهدف إليها العلم، ولكنه لا يحاول تقديم تفسيرات لعملياته، بل إنه يفترض وجود روابط خارقة للطبيعة يمكن تشبيهها بأسلاك التليفون تمتد فى الكون كله وتصل الأفعال بنتائجها، وإنه يمكن اكتشاف هذه العلاقات أو الروابط واستخدامها، وإن المسألة ليست أكثر غرابة من تحول الماء مثلا إلى جليد

حين تشتد برودة الجو . وجزء كبير من «منطق» السحر يقوم على مايسميه چيمس فريزر Sir James Frazer فى كتابه « الغصـــن الذهبي The Golden Bough » بقانون التعاطف Law of Sympathy (الشبيه ينتج الشبيه) . ولقد ذكرنا بعض الأمثلة لذلك من قبل ولكننا نضرب هنا مثلا آخر ، ففى غينيا الجديدة حين تخرج قوارب القرية فى رحلة بعيدة فى البحر يكلف بعض فتيات القرية بالجلوس صفا واحدا فوق لوح من الخشب فى أحد الأكواخ بحيث لا تصدر عنهن أدنى حركة اعتقاداً بأن ذلك يساعد القوارب على أن تجرى فى البحر فى ثبات ورسوخ . ومع ذلك فليس من الضرورى وجود هذا « المنطق » دائما ، لأن بعض السحر يحقق نتائجه بغير حاجة إليه . فنحن مثلا لانعرف تفسيرا لقولنا «أمسك الخشب» أو سببا لاعتقادنا فى أن قدم الأرنب تجلب الحظ ، وأن عظام ترقوة الطيور تحقق الأمانى والرغبات .

أما فيما يختص بالدين ، فإذا كانت الديانات السماوية ترى أن الدين يزودهم بفلسفة تقوم على الرضا بإرادة الله وقدرته المطلقة ، فقد يكون من السهل علينا أن نزعم أنه أسمى وأكرم من أن ينزلق إلى مستوى الخرافات والشعوذة التى يلجأ إليها البعض للتحكم فى الطبيعة بفعل الطلاسم والتعاويذ. ومن هنا كانت الديانات السماوية تحارب السحر فى غير هوادة ، لأنها تدرك مدى سطوته وسلطانه على الطبقات غير المتعلمة . أما الشعوب التى لا تملك مثل هذه الفلسفة فلا تعتبر السحر شرا ، والواقع أنها تستعين به نظراً لفقر وضحولة ثقافتها وتعتبره وسيلة مضمونة للتغلب على المشكلات التى لامناص من مجابهتها .

ويبلغ من صدق ذلك أن جانبا كبيرا من السحر البدائى سحر «شعبى» أو « عام » ، بمعنى أنه لا يمارس من أجل غايات خاصة كما هى الحال عندنا بل من أجل المصلحة العامة . وقد ترتب على ذلك ظهور وظيفة الساحر

المطبب الذى يلجأ إليه الناس وقت الأزمات ليكشف لهم عن علة انتشار الأوبئة مثلا أو حدوث الجدب أو للقبض على المجرمين بوساطة التنبؤ . فثمة إذن نوع من « الاعتماد الجمعى » على السحر يكاد يقرب من العبادة وإن لم يكن عبادة بمعنى الكلمة . مثال ذلك أن ملوك الدنكا سكان أعالى النيل — وهم أشباه آلهة — ينحصر واجبهم الرئيسى فى استنزال المطر أو الاستسقاء ، ولكن يوجد إلى جانبهم بعض السحرة المطببين الذين يشغلون منزلة أدنى فى المجتمع مهمتهم تقديم العون حين يلزم الأمر . ففى حالة الاستسقاء مثلا يمسك أحدهم بقربة مقطوعة يسكب منها الماء رمزاً على سقوط المطر ، ثم يسرع إلى بيته لكى « يحتمى من المطر » .

قوة الشامان والمتعوذ

والسحر قوة غير مشخصة . والمعتقد أن باستطاعة كل إنسان أن يستخدمه ولكن الساحر والمطبب خبيران فى ذلك فحسب، ولذا كانا يختلفان عن الشامان الذى يكتسب بعض القوى الخاصة التى تجعل منه شخصا فريدا متميزا .

ولقد سبق أن وصفنا المثال النموذجى للشامان كما يتمثل فى موطنه السيبيرى ، ولكن سيبيريا ليست هى المثوى الوحيد للشامان . فالنظام معروف فى مكان آخر بعيد — بين الزولو — حيث يعيش الشامان فى مناخ مختلف ويتميز ببشرة سمراء داكنة ولكنه يشبه فى بقية التفاصيل أخاه أو أخته فى سيبيريا (وذلك لأن الشامان قد يكون ذكرا أو أنثى) . وتمتاز شخصية الشامان بدرجة عالية جدا من التوتر، كما أنه سريع التعرض للأوهام والتخيلات وحالات السواد أو الملانخوليا . ويمر الشامان بفترة إعداد وتدريب مضنية يصطفى أثناءها أحد (الأرواح) فيتخذه قرينا له يستعين به على معالجة عصاباته، ولكن لايلبث الأمر أن ينتهى به إلى احتراف الرقص والعرافة ، مستعينا فى ذلك بقدرته على الاستبصار . ومن الجلى أن ممارسة

الشامانية توفر دائما الشخصية العصابية وسيلة ناجعة للتوافق ، كما تزود المجتمع البسيط فى الوقت ذاته بشخص مفيد نافع فى شكل عراف أو أحد رجال الدين الأقل أهمية .

فثمة تباين إذن — من الناحية المثالية — بين الشامان بأرواحه وقدرته على الاستبصار وشخصيته المتوترة ، وبين الساحر بكل حيله ومرانة وسلامة جسمه وعقله . ولكن هذا هو المثال فقط . والزولو يعرفون الفرق بين الاثنين ، لأن لديهم — على العكس من الشعوب الأخرى — كلا النوعين . وعلى أية حال ، فخليق بالشامان أن يعرف قدرا كبيرا من السحر العادى ، كما أن الثقافة ذاتها قد تتطلب من الساحر بعض الخصائص الفذة والقوى الشخصية التى يتمتع بها الشامان . ومن هنا كانت الشامانية تمارس كنظام معترف به فى كثير من الثقافات البدائية فى العالم ، وإن يكن بشكل أقل تطرفا منها فى سيبيريا وجنوب أفريقيا وبعض جهات أخرى قليلة .

وليس الشامان هو الشخص الوحيد الذى يتمتع بمثل هذه القوى الخاصة ، إذ ثمة نوع آخر من القوى هو قوة المانا mana التى تستطيع أن تحل فى الأشياء (كما هو الأمر فى ميلانيزيا) أو فى الإنسان (كما هى الحال فى بولينيزيا) . إلا أن تلك القوى الخارقة تتجلى بأجلى مظاهرها — بعد الشامان — فى المشعوذين witches أو على الأصح الاعتقاد فيهم ، إذ ليس للمشعوذين وجود فى الواقع . ومما يثير الدهشة حقا أن نجد فى كل أنحاء العالم — وبخاصة عند الأوروبيين والأفريقيين والميلانيزيين وبعض الهنود الحمر — اعتقادا شائعا فى أن باستطاعة بعض الأحياء من البشر أن يهاجموا بطريقة خارقة للمألوف جيرانهم الأبرياء ، وأن يتخذوا لأنفسهم قرناء من الحيوانات ، وأن يبدلوا صورهم وأشكالهم ثم يطيروا أثناء الليل للاجتماع بغيرهم من المشعوذين ، حيث يشتركون معا فى التهام أرواح ضحاياهم وأجسامهم .

وواضح أن هذا الاعتقاد هو أحد الأوهام الشائعة بين الناس ، وهو إسقاط طبيعي جدا على «شاشة» المخيلة لمخاوف الناس من الضغائن والأحقاد التي يكنها الآخرون لهم (وربما كانوا متأثرين في ذلك بضغائنهم هم وأحقادهم). لأن ماهية الشعوذة هي الاعتقاد في قدرة المشعوذ على إلحاق الأذى بالغير أو بأرواحهم بمجرد رغبته في ذلك ، وهي تختلف من هذه الناحية كل الاختلاف عن السحر الأسود . وتبين الدراسة العميقة أن كل القصص التي تدور عن المشعوذين، والتي تصورهم وقد وضعوا فوق النار آنية مملوءة بعيون حيوان النيوط newt وأصابع الضفادع وصوف الخفافيش وألسنة الكلاب وجسد طفل صغير غير معمد، وغير ذلك من «المشهيات» هي مجرد « اختراعات » ثانوية أضيفت إلى تهمة الشعوذة التي دفعت بالكثيرين إلى المشنقة في إنجلترا وسالم، أو إلى المحاكمة والتعذيب في أفريقيا .

وقد يكون للمشعوذ — أو المشعوذة — جارحة داخلية خاصة تمنحه هذه القدرة ، أو قد يكون ورثها بطريقة أخرى دون أن يكون له في الأمر حيلة . ففي الكونغو مثلا لا تعرف حقيقة المشعوذ — ويسمونه ندوكى ndoki — إلا عن طريق حالة القلق أو البرم التي تسيطر عليه ، ثم لأنه لا يمكن إغلاق عينيه بعد أن يموت ، وفيما عدا ذلك فإنه يستحيل على العين المجربة أن تفضحه أو تميزه من الرجل العادى ، ومع ذلك فإنه يستطيع أن يقتل غيره من الناس بمجرد نظرة خاطفة أو لمسة عابرة . بيد أن الطريق مفتوح أمام أى شخص تبلغ به طبيعته الشريرة حد الرغبة فى أن يصبح « ندوكى » ، وكل ما عليه حينئذ هو أن يبحث عن أحد الشيوخ ممن سبق لهم أن « فتحوا رؤوس الخفافيش » فيقدم له بعض الهدايا ليكسب صداقته ، وبعد عدة شهور من التقرب والتزلف يفاتحه فى الأمر قائلا « أريد أن أصبح رجلا ناضجا » ، فيرد الشيخ «ولكنك ناضج» فيقول له : « لست ناضجا حقا » ، ويغمز له بشدة . ويسأله الشيخ « من أهلك ؟ »

فيرد « عشيرة كذا » فيقول الشيخ « حسنا ، أحضر لى فلانا وسوف نأكله معا » ويوافق المريد ويستخدم الشيخ ضربا قويا من السحر يتحول الاثنان بمقتضاه إلى نملتين أو عنكبوتين ، ثم يدبان بالليل إلى فريستهما فيتسللان داخل أنفه ويمتصان دم قلبه ثم يقفلان راجعين وينقلبان إلى الصورة الآدمية فلا نكاد — لسوء الحظ — نميزهما عن غيرهما من البشر . هكذا يزعم الناس ، ومع أن أحدا لم يشاهد ذلك بالفعل إلا أنهم يعزون كل حالات الوفاة تقريبا إلى هذا النوع من الشعوذة ، ولذا كانوا يعتقدون بطبيعة الحال فى انتشار المشعوذين وكثرة عددهم .

وقد يبدو من الغريب أن نقحم موضوع الشعوذة فى مجال الحديث عن الدين ، خاصة وأنه ليس لها وجود على الإطلاق . ولكن الشعوذة تزود الناس فعلا بتأويل رمزى لبعض متاعبهم ومشكلاتهم العتيدة ، إذ مادام يمكن إلصاق التهمة بمشعوذ بعيد ، فإن ذلك يساعد على الأقل على إبعاد هذه التهمة عن الأصدقاء والأقارب . ومع ذلك فكثيرا ما تخلق الشعوذة فى المجتمع المحلى من المشكلات بقدر ما تحل ، إن لم يكن أكثر منه كما كانت الحال فى سالم . وربما كان الأزاندى فى الكونغو البلجيكى هم الشعب الوحيد الذى تمكن رغم مخاوفه العميقة من المشعوذين من الوصول إلى نسق من القواعد والآداب القانونية يكفل لهم التغلب على الآثار المدمرة الناتجة عن ارتياب الناس وشكوكهم فى ممارسة الشعوذة .

آلهة وعالم أفضل

ونحن نعتبر الشعوذة والشامانية والسحر أمورا خرافية ، إلا أنها تؤدى مع ذلك بعض الخدمات البسيطة للمجتمع بطريقتها البدائية الفجة . ومع أن الثلاثة توجد فى كل أنحاء العالم ، إلا أن الشامانيين والسحرة أقدر على العمل بما يتفق وحاجات الجماعات الصغيرة مثل الجماعات التى تعيش على قنص الحيوان ، ولذا كانوا يبرزون كشخصيات هامة فى مثل تلك الجماعات . ولكن

أين يمكن إذن أن نجد ما نسميه عادة بالدين ، أى عبادة الآلهة ؟ الواقع أن الدين يوجد لدى كثير جدا من الجماعات ، ولكنه يوجد بوجه خاص فى المجتمعات البشرية الأكثر رقيا والأكبر حجما، أو على الأقل فى المجتمعات الكبيرة التى تعرف حياة الزراعة والاستقرار .

ذلك أن لهذه المجتمعات المعقدة مشكلاتها المعقدة أيضا التى لا يتسنى للوسطاء والسحرة حلها . ومن الوسائل التى تعين المجتمع الدنيوى المحسوس على حكم نفسه تبعا لفلسفة خاصة به أن يحاول إعادة بناء نفسه فى شكل عالم آخر مثالى يمكن للناس أن يمنحوه كل اهتمامهم وولائهم ، وقد تكون هذه طريقة بسيطة جدا وساذجة لتفسير الآلهة ، إلا أنها تضع الآلهة فى الضوء الذى أفضل استخدامه هنا ، أعنى اعتبارها رموزا سامية وخارقة للمألوف يستطيع الناس عن طريقها أن يستكملوا فكرتهم عن الكون حتى يمكنهم التعامل معه .

وعلى هذا النحو نجد ميلا طبيعيا وإن لم يكن قاعدة عامة ، فى المجتمعات الأكثر تقدما الوصول إلى العبادة الأكثر رقيا ونضجا . والواقع أن هذه المجتمعات تعرف كل أنواع المعبودات أو الأرواح التى لا يختلف بعضها عن الشياطين والأطياف الدنيا الشريرة التى تهدد بالأذى والضرر ، وبذلك تكون أشبه بالمشعوذين من حيث إنها تسبب (وتفسر) المتاعب والأمراض . ولذا فالناس لا يعبدونها ، وإنما يكتفون باسترضائها ثم الابتعاد عنها . وبعض هذه الشياطين تستثيرها الدناسة والإهمال كما هو الأمر بالنسبة للجن فى شمال أفريقيا ، ولذا فإنها تقف فى صف الآلهة ، لأنها تعتبر حينئذ حافزا على السلوك السليم . ولكن هذا هو كل شىء ، لأن الحكمة من وجودها هى فرض عدد من النواهى فحسب . أما الأديان القبلية فالأغلب أن يكون لها آلهة بالمعنى الصحيح .

وهذا لا يعنى أن تلك الجماعات تعرف نوع التوحيد المنزه الخالص الذى

نعتنقه نحن، حتى وإن كان لديها بعض الإيمان بوجود كائن أسمى ؛ وذلك لأن مثل هذه المعبودات العليا أو الخالصة معروفة حتى إدى البوشمن دون أن تجد من الناس أى تقديس حقيقى عميق ؛ وبدلا من ذلك يتجه التفكير البشرى فى الثقافات الأكثر تقدما نحو الاعتقاد بوجود جماعة — أو أسرة — من الآلهة مثل آلهة اليونان أو الشعوب الشمالية أو الهندوس . ويدخل فى هذا القبيل آلهة الداهومى .

أما فى بولينيزيا حيث بلغ « اللاهوت » الوطنى درجة من الازدهار ، فكانت توجد سلسلة كاملة من الآلهة . فقد خلق الكون نفسه من العماء باستخدام مبادىء الوجود ، وهى الضوء والنفس والفكر ، ثم كانت أوائل الآلهة بعد ذلك : إله السماء (الآب) وإلهة الأرض (الأم) ، ومن أبنائهما ظهرت الآلهة الكبرى فى الديانة البولينيزية وهى تين Tane إله الضوء والرجولة والغابة ، وتو Tu إله القوة والحق والحرب ، ورونجو Rongo إله السلام والوفرة والمطر والطبيعة الخصبة . وتانجاروا Tangaroa الذى يتحكم فى المحيطات . والواقع أن للسماء والأرض أبناء مقدسين آخرين ، إلا أن الإنسانية انحدرت من صلب (تين) الذى خلق زوجته بنفسه وسواها من تراب (وهذا هو السبب فى أن المرأة مخلوق أرضى معتم وأدنى منزلة من الرجل) . ومن هذه الآلهة الأسلاف كان يتألف مجمع الآلهة التى تؤمن بها كل شعوب بولينيزيا ، وإن كانوا يضيفون إليها فى بعض الجهات معبودات أخرى أقل شأنا ، وذلك بعد أن أصبحت ذرية هذه الآلهة — وهى أسلاف البشرية العظام — آلهة ومعبودات فى بعض جزر المجموعة البولينيزية . وكانت عبادة هذه الآلهة تمارس فى المعابد وتصاحبها ترانيم تقليدية طويلة وابتهالات وأدعية موجهة للآلهة تتغنى بأمجادها السابقة مما كان يساعدها على تجديد قواها الروحية (المانا) لتؤدى وظائفها الخاصة من أجل الكون والبشر .

وكل إله من هذه الآلهة ، وغيرها فى المجتمعات الأخرى ، كفيل بأن يشرف على مظهر خاص من مظاهر الطبيعة والحياة ، فهى آلهة «متخصصة» ، يمكن تشبيهها فى ذلك بإحدى الحكومات — كحكومة الولايات المتحدة — حيث يلجأ المرء إلى وزير الزراعة مثلا فى الأمور المتعلقة بمصالح زراعته أو إلى وزير الصحة أو التعليم أو الخدمات العامة حين يرغب فى أن يكون له أطفال وهكذا . وبذلك أصبحت تلك الآلهة تشخص مشاغل الناس المختلفة وبالتالى أصبحت رموزا لتلك المشاغل . بيد أن هذا ليس هو كل خصائص الآلهة والأرواح ، فهى تمثل الديمومة والقوة والانطلاق من كل قيود الجسد الفانى ، ومن هنا كانت ترمز إلى الآمال والتطلعات الإنسانية أيضا ، وفى هذه الخاصية بالذات تشترك مع النفوس البشرية التى تمتزج على أية حال — بطريقة لاشعورية — بالأرواح والآلهة .

نفوس الناس ونفوس الطبيعة

والاعتقاد فى وجود النفس ظاهرة عامة فى الثقافة الإنسانية ، وهو فى ذلك يشبه الاعتقاد فى تحريم الاتصال الجنسى بالمحارم . فالإنسان شخصية باطنية، هى ذاته الحقيقية التى لاتستطيع أن تفارقه فى الأحلام، وهو لا يزال حيا، وهى فوق كل شىء لا تنحلل بالموت مثلما يتحلل الجسد، وإنما تنفصل عنه وتستمر فى الوجود ، ربما إلى الأبد أو لفترة معينة من الزمن (على الأقل ما دام الأحياء يتذكرون بوضوح حياة الميت وشخصيته) ، وبذلك أيضا أمكن للناس أن يجدوا وسيلة رمزية يتخلصون بها من خوفهم من انتهاء الحياة بل وفناء المجتمع .

وعلى ذلك فقد تتحول الأرواح إلى آلهة ، وهذا بالضبط هو ما يحدث فى عبادة الأسلاف . فقبائل الباكوبجو فى الكونغو يعترفون بوجود كائن لطيف هو « نزامبى مبوبجو » الذى خلق العالم ، كما يخشون هجمات ندوكى المشعوذ ، ويتقنون فنون السحر ويستعينون فى ذلك أحيانا بالبدود ، وتوجد

بينهم جمعية سرية عليا يتم التكريس فيها عن طريق سلسلة طويلة من الشعائر المخيفة المروعة التي تمثل الموت والبعث . أما دينهم الحقيقي فهو عبادة متواضعة تقتصر على أفراد (الأسرة) ويتجهون بها إلى موتاهم الذين يسكنون قرية الأسلاف التي تقع بالقرب منهم رغم وجودها تحت الأرض . ويعتبر الأسلاف الملاك الحقيقيين للأرض والحيوانات والنخيل . والمعتقد أنه لا يذهب إلى تلك القرية سوى الأخيار الطيبين الذين عاشوا حياة بريئة طاهرة وماتوا ميتة هادئة بعيدة عن العنف، بينما ينقلب الآخرون أرواحا هائمة ضارية . ويؤلف الموتى الأخيار مجتمع الأسلاف الذي يحرص أشد الحرص على استمرار الحياة ورفاهية الأحياء مادام هؤلاء يتبعون الصراط المستقيم، ويزورون المقابر لمناجاة موتاهم و تقديم القرابين(باكولو Bakulu) إليهم مؤكدين لهم أن الناس يبذلون قصارى جهدهم من أجل العيش، وأنهم يبتهلون إلى أسلافهم أن يذكروهم دائما وأن يرسلوا إليهم الصيد والحب الوفيرين ، وأن يدرءوا عنهم الأذى والمرض .

ومع أن الأحياء يألفون تماما تلك الأرواح التي كان أصحابها يؤلفون إلى عهد قريب طبقة الشيوخ في القرية، فإنهم يتوجهون بدعائهم إليهم في كثير من الاحترام والتبجيل وعن طريق شيوخهم فقط، وإذا كنا شبهنا المعبودات « المتخصصة » بالجهاز التنفيذي فإنه يمكن تشبيه الأسلاف بمجلس الشيوخ الذي يتألف من أعضاء متقدمين في السن عرفوا بالاستقامة كما أنهم يختارون بعناية فائقة، نظراً لما يتمتعون به من حكمة وعدالة وجلال، وما يمتازون به من رحمة وحرص على المصلحة الحقيقية للأفراد الذين يلوذون بهم . وعلى نمط هذا المجلس الوهمي يتصور الباكونجو وجود قرية أخرى تتمثل فيها كل عناصر ثقافتهم، إلا أنها تخلو تماما من شوائب الحياة وأدرانها ، ويحاولون أن يقتربوا هم أنفسهم من هذه القرية الفاضلة الكاملة . وقد يكون هذا تصورا مثاليا لوجهة نظرهم الواقعية ، إلا أننا نجد هنا على أية حال نوعا من العبادة يدور حول فكرة اجتماعية لا تتوافر في الشامانية أو السحر .

وقد نجد مثل هذه العبادة لدى الجماعات التى تعيش على قنص الحيوان، وإن لم يكن ذلك قاعدة عامة . وأفضل مثال لذلك هو النظام الطوطمى عند الأستراليين الذين يصلون أرواحهم بأرواح الطبيعة عن طريق الطواطم الأسلاف . وهذا نفسه يكشف لنا عن ناحية أخرى هامة من طبيعة الثقافة، وهى أن الثقافة الحقيقية كل متماسك وأنها لا تتجزأ فى الواقع إلى أقسام او أبواب متمايزة كل التمايز مثل باب « الاقتصاد » وباب « المجتمع » وباب «الدين» على ما نفعل فى دراستنا لها . صحيح أن للثقافة كل هذه الطبائع المختلفة إلا أنها تفيض إحداها على الأخرى متخطية كل الحدود والسدود التى نقيمها نحن .

وبينما نفكر نحن بمنطق أرسطو وهندسة أوقليدس، يفكر أهالى أستراليا بالطوطمية ، بل إنهم هم أنفسهم أرواح طوطمية متجسدة . فجتمعاتهم — أى عشائرهم وجماعاتهم الزواجية — تنتظم وتترتب بحسب الطواطم التى ينتمون إليها . فالماضى بالنسبة لهم هو قصة الطواطم الأسلاف، والحاضر هو معرفة الأماكن الطوطمية فى بلادهم ، والمستقبل هو استرجاع الماضى فى الطقوس التى تعيد تمثيل العهد الطوطمى للأساطير ، لتؤكد أن العالم سيظل يتابع نفس الطريق الطوطمى الذى قدر له أن يسير فيه . وليس هذا عبث أطفال ، إذ ليس البدائيون أطفالا بعد كل شىء . وميدان الأساطير واسع رحب ، قد يحتاج المرء إلى سنوات طويلة لكى يلم بجانب كبير منه ، كما أن الأناشيد والطقوس تلقى من الناس أعمق التقديس والاحترام . وكل هذا المزيج يزود الناس بفلسفة تشغل جانبا هاما من تفكيرهم، كما يستمدون منها كثيرا من الراحة وهدوء البال . ذلك أن الحاضر مشدود إلى عجلة الماضى، والإنسان مرتبط بالطبيعة ، والحياة وحدة متماسكة بفضل الطواطم .

١٦
الاختراع والتغير

قلنا إن الثقافة كل لا يتجزأ ، بمعنى أن ثقافة أى شعب من الشعوب تؤلف وحدة متماسكة ، وإذا كانت ثقافة أهالى أستراليا تضفى على حياتهم شيئاً من الوحدة ، فذلك لأن هذه الثقافة نفسها تؤلف وحدة فى ذاتها .

ولست أعنى هنا الوحدة المستمدة من المرحلة الثقافية أو من الظروف العامة التى تحيط بالثقافة ، فكل الجماعات التى تعيش على القنص تميل إلى حياة البداوة والترحال وإلى عدم الاحتفاظ بكثير من الممتلكات العادية ، كما تفتقر إلى المعابد ورجال الدين ، بينما تعتمد اعتماداً كبيراً على السحر . وهذا أمر طبيعى، لأن أسلوب حياتهم يحتاج إلى جل ذلك. فهم لا يستطيعون مثلا أن يعولوا شخصاً ينقطع تماماً للدين دون أن يضطلع بواجباته للحصول على قوته ، كما قد يحدث فى الشعوب التى تمارس الفلاحة . وليس من الغرابة فى شىء أن نجد الرعاة الذين يعيشون على تربية الماشية فى مناطق الاستبس بآسيا يقيمون فى بيوت خفيفة يمكن نقلها بسهولة ، كما يغلب على ثقافتهم طابع الاعتماد على اللبن والصوف .

وفيما عدا هذه التأثيرات الواضحة فإن كل ثقافة — أيا كان مستواها وموطنها — خليقة بأن يتوافر فيها قدر من الترابط والتجانس الداخليين . وعلى أية حال فليست هناك ثقافة تتألف من خليط من أشياء مختلفة غير متجانسة : كأن يستعمل النـــاس فيها ملاقط من الخشب وسكاكين من النحاس الأحمر وملاعق من الفضة ، أو كأن يكون الفن السائد فى فترة معينة ذا طابع دينى واضح فى الرسم وطابع تجريدى فى النحت . وقد بينت لنا روث بنديكت Ruth Benedict أنه يكاد يكون لكل ثقافة شخصية

متميزة خاصة بها ، بمعنى أن نظمها الاجتماعية وإدراكها للقيم تختار لنفسها اتجاهاً أو نزعة واحدة من بين مختلف النزعات الممكنة (كأن تنزع إلى العنف والاهتياج أو إلى التحفظ والحذر أو إلى العدوان والزهو)، وتعتبر الفرد الذى تتوافر فيه هذه النزعة هو الشخص الخليق بالإعجاب وحسن الجزاء بما يؤثر تأثيراً واضحاً فى السلوك العام للمجتمع كله .

مثال ذلك أن سكان دوبو Dobu ، وهى إحدى مجموعات الجزر الداخلة فى نطاق الكولا فى ميلانيزيا ، ينفردون عن بقية الأهالى هناك بشدة الحرص والبخل، وكذلك بالريبة التى تكاد تبلغ حد الهوس، ويتبعون أثناء شعائر الكولا مسلكا شائناً فيه كثير من التلاعب والمشاغبة ، فحين يحصل الرجل منهم على قلادة ثمينة، مثلا فإنه يوهم أكثر من شخص واحد من شركائه من الجانب الآخر بأنها سوف تنتقل إليه حين يرد إليه زيارته، وبذلك يتمكن من الحصول لنفسه على هدايا كثيرة من الأساور الممتازة التى تأتيه من الاتجاه المقابل على الرغم من أنه قد يعجز عن رد ما يساويها فى الوقت المناسب ، ولكنها ترفع من شأنه على أية حال وتعلى من صيته . ولا يثق الدوبو بغير أفراد عشيرتهم ، وهـــذه لا يدخل فيها الأزواج (أو الزوجات)(١) ، فهم لا يؤمنون بأن الزوج (أو الزوجة) كلاهما قادر على أن يظل مخلصاً لقرينه الآخر إن غاب عن عينيه . وكثيراً ما تستفحل الخلافات الزوجية نتيجة لتلك القاعدة الغريبة التى تقضى على الزوجين فى أول عهدهما بالزواج أن يعيشا سنة فى عشيرة الزوجة وأخرى فى عشيرة الزوج ، لأن ذلك يعطى أحد الزوجين فرصة للاطلاع على كل أسرار عائلته ويشارك فى كل ما يدور فيهامن همس وإشاعات ، بينما يظل الزوج الآخر بمعزل عنها ، ولكنه يقضى السنة كلها وهو يحسب ويقدر كيف

(١) وذلك على اعتبار أن الزواج هناك اغترابى يقضى على الرجل بأن يتزوج من خارج عشيرته.

ينتقم لنفسه حين يتغير المسكن ويتبدل الوضع . ويظهر هذا الاستعداد فى كل مظاهر الثقافة ، كما أن السحر الأسود ينتشر بينهم بشكل واضح .

وقد بذلت بعض الجهود لدفع هذه التأويلات خطوة أبعد من ذلك وافترضت على أساس من نظرية فرويد أن أفراد المجتمع يتم صبهم فى قالب واحد وتشكيلهم (وليس فقط إقناعهم عن طريق الأمثلة الثقافية) لتحقيق نوع معين بالذات من الشخصية . فعلة النموذج السائد للشخصية يمكن البحث عنها إذن فى تجارب الطفولة التى أملتها الثقافة ذاتها ، مثل الشدة التى يعامل بها الأطفال لكى يعتادوا البقاء فى المنزل وغير ذلك من التصرفات التى تجعلهم يشعرون بالطمأنينة أو القلق على العموم . ومن هنا أيضا ظهرت بعض المحاولات لوصف بعض الأمم الحديثة — ككل — بطابع موحد مما يعطينا سر شخصية « الإنسان » الروسى أو « الإنسان » الأمريكى بميوله المزعومة للالتصاق بالأم ونبذه الأب . ولكن معظم العلماء يعتقدون أن هذه الخطوة فيها بعض الاندفاع والمبالغة .

ولكن من الخطأ فى الوقت ذاته أن نلقى الطفل مع ماء الحمام كما يقولون ونغفل القوة الهائلة المسيطرة التى تتمتع بها الثقافة فى تحديد الطريقة التى يجب أن يتصرف بها الناس . ولست أعنى من ذلك بالطبع القواعد البسيطة التى تضعها الثقافة للزواج مثلا أو للنظم الأخرى الواضحة ، إنما أعنى النهج الذى ترسمه لهم . فمن المعروف مثلا أن الثقافة الغربية الحديثة تثير فى الناس دائما الرغبة فى « النجاح » و « التقدم » وتعلمهم أن يعجبوا بالشخص القوى القادر على الكفاح وعلى المنافسة . وليس من شك فى أن الإنسان يتمتع — باعتباره حيوانا له شخصية متميزة — بدرجة معينة من القدرة الطبيعية على التنافس وعلى الصراع . ومع ذلك فليست كل الثقافات الإنسانية تتطلب منه النجاح والتفوق على غيره ، بل إنها قد تقنع منه بالقدرة على المواءمة والتلاؤم فحسب .

وزيادة على ذلك فإن ثمة درجة معينة من الصراع بين المثل الثقافية فى المجتمع الغربى . والواقع أن فلسفة التنافس القوية التى يعتنقها الغربيون تساعد على انطلاق قدر هائل من الطاقة البشرية هى التى أوصلتهم إلى حالتهم الراهنة ، ولكنهم يحاولون فى الوقت ذاته أن يكبحوا جماحها بفلسفة أخرى قوية ترى مثلها الأعلى فى الحلم والوداعة وضبط النفس و «إدارة الخد الآخر» التى بلغ من تمجيد المسيحيين لها أن أصبحت تؤلف ماهية الدين المسيحى . وهكذا نجد أن الثقافة الغربية فيها الكثير من الدفع والضبط . ومهما يبلغ التنافس والصراع هناك بين الناس فإنهم يبدون فى الوقت ذاته جانب اللطف واللين وحسن النية حين يلتقى أحدهم الآخر وجها لوجه (وقد مكنت السيارات لهم أمر التنافس دون أن يضطر أحدهم إلى مواجهة منافسه ، إذ لم تستطع ثقافتهم أن تصل إلى قواعد معينة تحدد آداب السلوك للأشياء . وعلى ذلك فقد يعلن أحد مصانع السيارات الهامة مثلا أن آخر إنتاجه من السيارات قد «صمم وصنع بحيث يسبق كل السيارات الأخرى بغير استثناء» ، ولا يكتفى بالقول بأنها سيارة سريعة أو مريحة أو مأمونة ، وعلى ذلك فبمجرد أن يجلس المرء وراء عجلة القيادة ، فإن الجانب الآلى من ثقافته يجد المجال فسيحا أمامه ، ويقرر «القرد» الذى فيه أن يعبث قليلا ، فينسى تعاليم «العهد الجديد» وينطلق مسرعا على الجانب الأيسر من الطريق ناهبا الأرض ليرى مهارته وقدرته على تفادى الحوادث) .

ولكن على الرغم من هذه المفارقات فإن ثقافتنا تناقش وتبحث بالفعل وجود الموضوعات المهمة . والثقافات الأخرى تفعل الشىء نفسه ، ولكنها تكشف فى العادة عن قدر أكبر من التجانس بين موضوعاتها . وليس هذا هو كل شىء ، بل إن كل جوانب الثقافة ونظمها المختلفة تأتلف معا وتصطبغ بلون واحد . فالبويلا نسق متماسك وإن كان يتألف فى الوقت ذاته من عدة نظم أخرى . كذلك الحال فى الكولا ، فقد بين لنا مالينوفسكى بوضوح أنها

نسق متكامل معقد يتألف من عدد من النظم مثل الوضع الاجتماعى والطقوس السحرية والتجارة العادية والعلاقات الاجتماعية التى تربط الجزر بعضها ببعض ، وذلك على الرغم من أن الناس أنفسهم لا ينظرون إليها ككل متماسك بل كعدة مظاهر سلوكية تؤثر فيهم كأفراد . وهذا هو نوع الالتئام الذى تنزع إليه الثقافة ككل ، رغم أنها قد لا تحقق إلا جانبا منه فحسب ، وبدرجات متفاوتة فى مختلف فترات تاريخها .

ويجرنا هذا إلى الكلام عن العملية ذاتها أو الطريقة التى يتم بها ذلك الالتئام . فمن الواضح أنه لكى تتمكن الثقافة من أن تلائم بين كل أجزائها يجب ان يكون لها بعض القدرة على اختيار تلك الأجزاء ذاتها ، أى يجب أن تختار من بين الوسائل الصالحة لحل مشكلة ما الطريقة التى تتفق أكثر من غيرها مع بقية الملامح الثقافية ، وكذلك القدرة على تعديل أى جزء من تلك الأجزاء بحيث يتلاءم مع الأجزاء الأخرى . وهذا ينقلنا بدوره إلى موضوع تغير الثقافة وتقدمها .

وينبغى أن ندرك هنا أن التغير والتقدم ليسا شيئا واحدا . فبعض التغير تغير فحسب . (فالموضة) مثلا تتغير ، وقد تقل درجة الراحة التى توفرها الملابس بدلا من أن تزداد ، ويكفى أن نتذكر هنا (موضة) الخصر الضيق المعروفة بخصر الزنبور وعلماء الإيكولوچيا يعرفون أن أساليب صنع الفخار كانت تتغير بشكل مستمر خلال فترات طويلة من الزمن . ويقيم الأمريكيون وزنا كبيرا للتغير والتقدم اللذين يطرآن على الأشياء المادية، بينما لا تشاركهم الشعوب الأخرى فى ذلك الحب والإعجاب فأهالى أستراليا مثلا ينظرون بعين الريبة والحذر إلى أية نزعة نحو الاستقلال فى التفكير أو العمل ، ويفضلون أن يشتركوا معا فى اتخاذ قراراتهم مسترشدين فى ذلك بالماضى . يضاف إلى ذلك أن كل ثقافة تتضمن بعض القوى الخاصة التى تناوىء التغير، والتى تتمثل فى التعود الذهنى والجسمانى،

كما أن الناس يعتمدون فى حياتهم على ثقافتهم الخاصة التى نشأوا فى أحضانها والتى تحدد لهم الطرق التى يجب أن يتبعوها فى سلوكهم وفى أداء أعمالهم . وهذا أمر طبيعى ، لأن الثقافة هى الوسيلة التى يتعين عليهم اتباعها فى كل تصرفاتهم ، ولذا كان من الطبيعى أيضـــا أن يداخلهم شىء من القلق والاضطراب لو حدث ما يضطرهم إلى تغييرها .

ومهما يكن من شىء ، فإنه يجب أن نتذكر دائما أن الثقافة هى تلك الأنماط الذهنية التى تسود المجتمع ككل ، فهى ليست بذلك شيئا يوجد فى الكتب ، أو فى ذهن أى فرد واحد . وهذه الحقيقة تصدق فى كل الأحوال . فكل جيل يلقن الجيل الذى يليه ويعلمه ، ولكن كثيرا من الأشياء تضيع أثناء عملية التعليم ، لأن ما يتعلمه الإنسان قد لا يماثل تماما ما كان يرمى التعليم إليه ، ولا يمكن أن تبقى الثقافة جامدة لا تتغير إلا إذا كان كل شخص نسخة مماثلة تماما من غيره ، بحيث لا ينسى أى واحد منهم شيئا مهما صغر ، وبشرط ألا ينتابه الضجر والملل ، أو يداخله شىء من حب الاستطلاع أو تخطر على باله فكرة جديدة . وهذا مستحيل ، ومع ذلك فلا بد من أن تتسلل بعض التجديدات الطفيفة حيث لا يمكن لشخصين أن يتشابها تماما من كل الوجوه . وقد يرحب الناس بهذه التجديدات ، أو قد يقبلون وجودها بينهم فحسب . أو قد تمر دون أن يشعروا بوجودها على الإطلاق ولذا كانت طريقة نطق الكلمات (والموضة) مثلا تتغيران باستمرار . ولما كان الإنسان يتمتع ولا شك بشىء من الذكاء ، فلم يكن ثمة بد من أن تظهر عنده بعض الأفكار المهمة ، مما يؤدى إلى التغير والتقدم . وتجد الأفكار الجديدة طريقها إلى الجماعة بإحدى طريقتين : التفكير الذاتى أو الاستعارة من الجماعات التى تملك هذه الأفكار بالفعل . وتعرف هاتان الطريقتان بالاختراع والانتشار .

الاختراع : أو الجمع بين القديم والجديد

حين نذكر كلمة «الاختراع» ينصرف الذهن عادة إلى أشخاص من أمثال توماس إديسون ومن هم على شاكلته . ونحن نميل إلى الاعتقاد بأننا كنا نكافح ونصارع الحياة دون أن يكون فى أيدينا أحد الأسلحة الحيوية إلى أن زودنا بها أحد هؤلاء العباقرة . ولكن لن يقلل من قيمة المخترعين فى شيء أن نقول إن الثقافة ذاتها يجب أن تعطى مزيدا من الاعتبار فى هذا الصدد ، على أساس أن أى اختراع لابد أن يعتمد بشكل قاطع على ماهو موجود بالفعل . صحيح أن الاختراع يصبح أمرا حيويا بعد أن يتم اختراعه ، ولكنه لا يستطيع أن يظهر إلى الوجود إلا إذا كانت الثقافة ذاتها مهيأة له . وبغض النظر عن توافر المعرفة الضرورية فلا بد أن يكون الناس أنفسهم قادرين على تقبل ذلك الاختراع واستخدامه ، وإلا فلن يقدر له النجاح والبقاء . ومن ناحية أخرى فإنه إذا توافر المجال والحاجة لتلك المخترعات وتوافرت أيضا الموارد المناسبة فإنها تكاد تخترع نفسها بنفسها . وقد يكون من الصعب التدليل على ذلك فيما يتعلق بالثقافات البدائية ، وإن كان لبعض المخترعات ، مثل ظهور المغزل مع الحياة المستقرة ، دلالتها فى هذا المقام . ولكن تاريخنا نحن يبين ذلك بشكل أوضح . فنحن نعرف مثلا أن دافنشى Da Vinci وضع تصميمات عدد كبير من الآلات الطائرة ، ولكنه لم يستطع أن يتقدم إلى أبعد من ذلك لعدم وجود القوى اللازمة . وحتى لو أفلح فى تسيير تلك الآلات الطائرة لكان الطيران حينئذ يصبح مجرد لعبة بهلوانية نظرا لعدم وجود التسهيلات الملاحية أو التجارية التى تلابس الطيران الحديث . وكثير من الفكاهة والمداعبات التى نقرؤها فى كتاب A Connecticut Yankee in King Arthur's Court للكاتب الأمريكى مارك توين Mark Twain تدور حول هذه الفكرة بالذات .

ومن ناحية أخرى ، فكثيرا ما كان يحدث أن يتوصل شخصان

إلى اختراع واحد بعينه فى وقت واحد ، لا لشىء إلا لأن الجو العام كان مهيأ لذلك الاختراع . ولقد أفاض كروبير Kroeber[1] فى الكتابة عن موضوع الاختراع والثقافة برمته وجمع قائمة رائعة بالمكتشفات التى توصل إليها شخصان ، وأحيانا ثلاثة أشخاص ، فى بحر سنة واحدة مثل التليفون والتلسكوب وآلة التصوير والكوكب السيار نبتون. ولكن المثال الكلاسيكى هو قوانين مندل Mendel التى تصف طبيعة الوراثة الخالصة ، فهو لم يتوصل إليها عن طريق المصادفة والعرض أو نتيجة لهبوط الوحى عليه ، وهو فى الحام كما هى الحال فى قوانين أرشميدس ، بل إنه كان يعرف منذ البداية المشكلة التى كان يريد دراستها ، كما اختار بعناية النباتات التى أجرى عليها عملية التهجين واحتفظ بجداول إحصائية للنتائج التى أعطته الحل . لقد كان ذلك نموذجا للتجربة العلمية ، وقد أعلن النتيجة عام ١٨٦٥ ثم نشرها فى العام التالى. والواقع أنه لولا هذه الاكتشافات لما قدر لعلوم البيولوجيا والزراعة الحديثة أن تقوم . ومع ذلك فلم تكن لأعماله التى نشرت فى حينها أى تأثير على الإطلاق فى أيامه . وعلى الرغم من الاهتمام بكتابات داروين وبالتقدم الذى أحرزته البيولوجيا على العموم لم يكن العلماء الطبيعيون حينذاك مستعدين تماما للإفادة من تلك الاكتشافات . ولكن بعد أن نسى مندل بدأت البيولوجيا أخيرا تحاول اللحاق به . ففى عام ١٩٠٠ أعلن ثلاثة من العلماء من ثلاث دول مختلفة أنهم اكتشفوا لأنفسهم من جديد قوانين مندل . إذ بينما كان كل منهم يجرى تجاربه ، توصل عرضا إلى النتائج القديمة التى وصل إليها مندل من قبل وبذلك اعترف له بالأسبقية وبأنه هو الرائد . ومنذ ذلك الحين بدأ علم الوراثة والتناسليات الذى تأسس بهذه الطريقة يتقدم بثبات ليصبح مركز البيولوجيا . » وهكذا نجد أن قطعة الحجر التى ألقى

(١) Anthropology, p, 342; See also Ralph Linton, The Study of Man.

بها البناءون بعيداً أصبحت هى ذاتها رأس الزاوية » .

فثمة إذن اختراعات تهيأت لها الظروف المواتية ، وأخرى لم تهيأ لها الفرصة بعد ، وذلك طبعا علاوة على المخترعات التى قد لا ترى النور على الإطلاق مثل اختراع قبعة عالية تنفتح منها مظلة بمجرد الضغط على زر . وهناك أمثلة رائعة لمخترعين بدائيين توصلوا إلى اختراعات ملائمة فى الوقت الملائم مثل صناعة الفخار « الأسود فى أسود » الذى شاع استخدامه الآن (وهو عبارة عن فخار أسود لامع عليه نقوش سوداء غير لامعة) والذى ابتكره اثنان من هنود البويبلو فى سان أيلد فونسو San Ildefonso وهما جوليان وماريامارتينيه Julian and Maria Martinez. وقد يحسن أن نضرب بعض الأمثلة من الحضارة الغربية الحديثة ، وذلك لأن كثرة المخترعات المتشابهة التى ظهرت فى وقت واحد رغم البعد بين المخترعين تبرز أهمية الإطار الثقافى العام (ومن الخطل أن نعزو ذلك إلى التباثى أو الإحساس عن بعد)[1] .

ويتضح لنا مما سبق أن المخترعات تتبع سير الثقافة . وأن الفكرة التى لا تتلاءم تماما مع الأوضاع السائدة يكون شأنها شأن الطائر الذى يبيض فى عش لا وجود له . وخليق بالناس أن يتوصلوا إلى اختراعات لها دلالتها وخطرها عن طريق تحسين وتحوير الأشياء الموجودة بالفعل وليس عن طريق التأمل والتفكير فى أشياء صعبة التحقيق . ومن هنا كان معظم الاختراعات اكتشافات صغيرة ، بينما قد يحتاج الاختراع الكبير إلى عدد من هذه « الاختراعات التحسينية » الصغرى قبل أن يصل إلى درجة الكمال . ولقد رأينا من قبل كيف أن صناعة الفخار سبقها ظهور عدد كبير من الاكتشافات الفنية .

(١) — بتصرف . المترجم

وأخيرا فإن الاختراع الصغير قد يتحول فجأة ليصبح اختراعا أساسيا . لنفرض مثلا — وهذه مسألة ممكنة جدا نظرا لوجود الجهاز ذاته — أن القوس كانت فى الأصل أداة موسيقية صغيرة تستعمل فى العزف عن طريق إمساك أحد طرفيها بين الأسنان — مثل المارب اليهودى — وشد الوتر بالأصابع . وليس من شك فى أن أول شخص فكر فى أن يصنع منها سلاحا (وليس أول شخص استخدمها بالفعل فى قذف العصا أو قطعة من الحصى ، ولكن أول شخص أدرك معنى هذا الفعل) كان بلا نزاع أحد عظماء رجال عصره ، وهو نهاية العصر الحجرى .

وبعض الخطوات التقدمية الجريئة لا تكاد تعتبر بحال « اختراعات » مفردة بسيطة . فتهجين النباتات مثلا كان فى أغلب الظن عملية طويلة غير مقصودة وليس اكتشافا قائما بذاته . ثم من الذى اخترع السيارة ؟ أو مم تتكون ؟ هل من المحرك أو المركبة أو الوقود أو الإطارات أو الطرق الممهدة ؟ هذه كلها أشياء ضرورية كما تبين للذين حاولوا صنع السيارة منذ مائة وخمسين عاما وقد أحزنهم ذلك الاكتشاف ولكنهم اضطروا أخيرا للتسليم بالأمر الواقع واكتفوا بتركيب سياراتهم فوق قضبان وأسموها سككا حديدية . ومع ذلك فنحن ننظر الآن إلى السيارة وإلى عمليتى التدجين والاستئناس كما لو كانتا أشياء موحدة ونعترف بأنهما من أعظم الأشياء التى أسهمت فى إحداث التغير خلال كل التاريخ البشرى .

ومن السهل علينا أن نتتبع ظهور المخترعات المادية فى العصور التاريخية بل وأيضا فى عصور ما قبل التاريخ . فلو كانت أسرة مارتينيه مثلا عاشت قبل القرن التاسع عشر لكان من المحتمل أن يعتبر علماء الآثار أولى علامات طراز الفخار الذى يصنعونه — حين يعثرون عليها فى المواقع الأثرية — اختراعا جديدا . ولكن من الصعب دراسة أنواع المخترعات الأخرى . فالأديان مثلا كانت تظهر وتزدهر مرة بعد أخرى حين تتوافر لها التربة

الصالحة التى تستطيع أن تترعرع فيها . وهى تميل بالطبع لأن تتبع الأنماط القديمة المقبولة . ولقد كان الشرق الأدنى القديم ، والهند بوجه خاص ، دائم الاحتفاء بها ؛ بل إننا أيضا نبدى كثيرا جدا من التسامح إزاءها . صحيح أن تلك الديانة الغريبة الشاذة التى تسود كاليفورنيا والتى تقوم على عبادة أفروديت وارتداء جلود الأسود لم تلق كثيرا من النجاح بيننا ، ولكن أية عبادة أخرى تصف نفسها بأنها «مسيحية» خليقة بأن تزدهر عندنا حتى ولو كانت تأمر أتباعها بالتدحرج على الأرض وبالصراخ . إلا أننا نحن الأمريكيين محافظون كالعوانس فى الميدانين الاجتماعى والاقتصادى . فحين نقول مثلا عن مهندس أو عن أحد رجال الأعمال إنه مهتم بالتخطيط يتبادر إلى الذهن فوراً أنه رجل بعيد النظر ، أما حين نقول ذلك عن أحد الساسة الجدد فإن الذى يتبادر إلى الذهن هو أنه إنسان خيالى وخطر .

وهذا الميل لتفادى مجابهة الآراء الاقتصادية والاجتماعية الجديدة أو محاولة إحاطتها بهالة من العبارات السحرية ، قد يكون قويا واضحا فى ثقافتنا على أساس أننا ندرك قيمة نظمنا الراهنة ونقدرها . وليس فى هذا أدنى غرابة فى الواقع ، لأن النظم الاجتماعية « لاتخترع » مثلما تخترع الأشياء المادية . إنما تحدث التغيرات الاجتماعية إلى حد كبير بدون أى توجيه متعمد مرسوم ، وإن كان لابد من توافر عنصر الرضا أو الاتفاق العام بطريقة لا شعورية . فالنظم الاجتماعية هى التى تضع القوانين والدساتير لا العكس . وليس ثمة ما يدل على أن الأشكال الاجتماعية عند الشعوب البدائية تنشأ بوسيلة أخرى مخالفة . صحيح أنهم قد يقولون إن الآلهة أو الأسلاف الطواطم أمرت الأشياء أن تكون فكانت على ما هى عليه ، ولكن هذا هو أحد واجبات الدين .

وإذا كان أثر المخترعات فى الجانب الاجتماعى من الحياة لا يزال غامضا حتى الآن فيجب أن نلاحظ أننا نحن أنفسنا انحرفنا بشكل متطرف

نحو الجانبين العلمى والمادى . ولقد استطعنا لأول مرة فى التاريخ أن نسيطر تماما على الاختراع بعد أن كان ذلك يعتمد على المصادفة البحت . وقد ساعدت الجامعات والمعامل الصناعية الكبرى على تجميع وتركيز الأشخاص والوسائل الذين يحتاج إليهم الاختراع أو الاكتشاف . ويبدو أن زمن العبقريات المنعزلة المنقطعة التى تعيش فى ورشة صغيرة فى أعلى المنزل قد انقضى ، كما زال تماما عهد المخترعين من أمثال فورد وإديسون . وسوف يظهر دائما رجال عظماء كهؤلاء الذين ظهروا فى الماضى ولكنهم لن يعملوا فى عزلة وعلى انفراد . لقد اخترع إديسون الضوء الكهربائى ، أما التليفزيون الملون فقد تم اختراعه بطرق شتى وشاركت فيه مجموعات كاملة من الباحثين بحسب الحاجة . وهذا نفسه يصدق على القنبلة الذرية . ولقد شهدت السنوات الأخيرة ظهور مثل هذا التغيير فى ميدان الانتشار diffusion ذاته ، وذلك بعد أن اتخذنا من هذه العملية ، التى كانت تحدث تلقائياً ، عملا ومهنة نسميها فن الإعلان .

الانتشار أو الاستعارة

من الطبيعى أن يشغل الناس الذين يقومون بنشر الأفكار منزلة أدنى من تلك التى يتمتع بها الأشخاص الذين ابتكروا تلك الأفكار ، وذلك لأن الانتشار عملية اجتماعية أكثر منها عملا فرديا . ولكن من الخطأ ألا نعطى لهذا المصدر الرئيسى الثانى من مصدر النمو الثقافى ما يستحقه من اهتمام . ومقارنة الانتشار بالابتكار مسألة عقيمة كمقارنة الوراثة بالبيئة . ومع ذلك فللانتشار أهمية كبرى ، إذ لن يكون لأى اختراع كبير نفع أو فائدة إن لم ينتشر ويشع ، كما أن جانبا كبيرا من معناه يتوقف على مدى انتشاره وشيوعه . وقد لا يتاح لنا أبدا أن نعرف إذا ما كانت طريقة الشطف الليفالوازية اخترعت أكثر من مرة واحدة أثناء العصر الحجرى القديم الأدنى ، ولكننا نعلم علم اليقين أنها كانت شائعة فى جزء كبير من العالم ،

القديم ، كذلك نحن نعلم عن ثقة ويقين بأن استنبات الحبوب كان معروفا فى الشرق الأدنى ، وقد رأينا الطريقة التى انتشر بها . ويكفى أن نتذكر هنا أن الدين والكتابة والرياضيات انحدرت كلها إلينا من الشرق الأدنى لكى نفهم معنى الانتشار بالنسبة لحضارتنا الحالية .

ومن الناحية النظرية البحت فإن أى شىء يتم اختراعه قد ينتشر ويذيع فى كل أنحاء العالم . والواقع أن هذه المسألة بالذات هى إحدى المشكلات التى تظهر بشكل مستمر فى دراسة التاريخ غير المدون . فقد يوجد شيئان متشابهان تشابها كبيراً فى مكانين يبعد أحدهما عن الآخر بآلاف الأميال وفى ثقافتين متباينتين كل التباين . فهل حدث ذلك نتيجة للانتشار؟ من المهم فى هذه الحالة أن نحاول أن نعرف إذا ما كان هناك بعض الاتصال الفعلى أو بعض التجارة بين هذين الشعبين ، أو إذا ما كان كل منهما قد توصل بنفسه إلى ابتكار ذلك الشىء ذاته . ولكن من المهم أيضا أن نعتدل فى معالجة هذا الموضوع خاصة وأن عدداً كبيرا جدا من الكتاب ممن تسيطر عليهم فكرة الانتشار انساقوا وراء بعض أوجه الشبه بحيث كانوا يفسرون كل الحقائق الأخرى فى ضوء القضايا التى وضعوها هم أنفسهم ، وقرروا أن المسألة ليست مسألة انتشار فحسب، بل وهجرة أيضا . وقد أدت بهم هذه التخيلات إلى أن ينقلوا الهنود الحمر إلى بولينيزيا ، والبولينيزيين إلى أمريكا والماوريين إلى جزر إيستر ، والمصريين إلى آسيا فالمحيط الهادى فوادى أوهيو ، كما نقلوا سكان قارة أتلانتس المفقودة إلى كل بقعة فى العالم ظهرت فيها أدنى علامة من علامات الحضارة .

ولقد بذل علماء الأنثروبولوجيا كثيرا من الجهود لدحض هذه الاتجاهات الرومانسية المتطرفة بحيث بات من الصعب عليهم هم أنفسهم أن ينظروا إلى المشكلة نظرة رصينة هادئة ، وأصبحوا يتشككون أشد التشكك فى كل حالات الانتشار على نطاق واسع . وواضح أن الشىء الوحيد الذى يمكن

عمله هو أن نحكم على كل حالة فى ضوء ظروفها الخاصة لا أن تؤكد فكرة معينة نؤمن بها ، كأن نزعم مثلا أن هنود أمريكا هم قبائل إسرائيل العشر المفقودة . ومن الطريف أن الكتاب المتحمسين الذين يحاولون فى دراستهم تتبع الروابط والعلاقات بين طرفى العالم يتناولون فى العادة فى كتاباتهم موضوعات غامضة مثل ضرورة تقويض وهدم معابد « الآلهة البيض » والقصص الخرافية التى تدور حول هذه الآلهة أكثر مما يكتبون عن الموضوعات الأكثر تواضعا والتى تعتمد على الأدلة الواقعية المنطقية المستمدة من حياة الناس اليومية .

ولنأخذ على سبيل المثال بنادق النفخ التى تعتبر سلاحا صالحا للصيد فى الغابات نظرا لسكون الهواء هناك . ويحتاج استخدام هذه البنادق إلى نوع من السم القوى لأن السهم ذاته صغير لكن يمكن إطلاقه بدقة وإحكام (بشرط عدم إزعاج الفريسة بقدر الإمكان) وبقوة كبيرة إذا كانت البندقية ذاتها على درجة كافية من الطول وأمكن الاحتفاظ بها مستقيمة بغير تقوس . ويشيع استخدام بنادق النفخ فى جنوب شرقى آسيا بين السيمانج Semang والساكاى Sakai وبعض سكان شبه جزيرة الملايو وفى كثير من أنحاء إندونيسيا وبخاصة بورنيو (وإن كان شرلوك هولمز قام باستنباط خاطىء حين اعتقد أنها تستخدم فى جزر الأندمان) كما توجد أيضا فى غابات أمريكا الجنوبية . ويبلغ طول البندقية فى كل من هاتين المنطقتين حوالى عشر أقدام ، وهى تصنع من أطوال بسيطة مجوفة من الغاب الفارسى أو قد تصنع فى شكل قصبة داخلية تغلفها من الخارج أنبوبة اخرى حتى تقاوم الانحناء والتقوس ، أو قد تتخذ من قطعة من الخشب تشق طوليا إلى نصفين يجوفان ثم يعاد لصقهما . وتستخدم البندقية لإطلاق نوع من السهام الخفيفة التى تثبت إلى الأنبوبة بوساطة قطعة من القطن أو لباب النبات بعد ان يغمس طرف السهم فى السم (الذى يتخذ بخاصة من عصارة

نبات الإيبوه ipoh فى آسيا والكورارى curare فى جنوب أمريكا ، والاثنان يحتويان على مادة الاستركنين) والطريقة الوحيدة المتبعة فى إطلاق السهام هى أن تقرب البندقية من الفم ، ثم تطلق على القنيصة بالنفخ .

ولا توجد بنادق النفخ فى أى مكان آخر . وقد يعتبر ذلك برهانا قويا على أن جماعة من المخاطرين من أهل بورنيو ملأوا قاربا بهذه البنادق ثم أبحروا عبر المحيط الهادى إلى أمريكا ، أو إذا شئت فقد يدل على العكس من ذلك على أن بعض هنود الأمازون هم الذين ذهبوا فى الاتجاه المضاد . ولكن هل هذا ممكن حقا ؟ الواقع أنه ليس لسكان بورنيو من الوسائل ما يمكنهم من عبور المحيط الهادى كله ، ومع ذلك كان يتحتم أن يتم انتقال هذه البنادق نحو الشرق على مراحل وأن تظهر بالتالى فى بولينيزيا إن كان ثمة فائدة من نقلها على الإطلاق . بيد أننا نعرف أن الرياح فى بولينيزيا شديدة مما لا يسمح باستخدام السهام الصغيرة ، كما أن بولينيزيا خالية من السموم بل ومن الحيوانات التى تستحق القنص . ومع ذلك فلنفرض أن البندقية وصلت إلى أمريكا الجنوبية من الساحل الغربى . هنا سنجد أن الرياح سواء على الساحل أو على المرتفعات شديدة أيضا . كما أن المنطقة خالية من السموم ومن الحيوانات التى لا يمكن قنصها بوسيلة أخرى أفضل من القوس وعلى ذلك فإذا كان من العسير علينا أن نتصور أن أهالى بورنيو ذوى الثقافة البسيطة (لأن الشعوب ذات الثقافات الأكثر تقدما لا تستخدم بنادق النفخ) أمكنهم الوصول إلى حوض الأمازون فى فترة قصيرة من الزمن لا تتجاوز جيلا واحدا قبل أن ينسوا طريقة صنع بنادق النفخ واستعمالها ، فلن يكون ثمة مندوحة عن أن نفترض أن الناس كانت لهم المقدرة على اختراع هذه البنادق فى كل من شطرى العالم على حدة .

ولكن كيف نفسر أوجه الشبه الحديدة فى صنع هذه البنادق واستعمالها ؟ الجواب هو أن هذه المشابهات هى خصائص طبيعية لبندقية النفخ ، كما أنها

هى أفضل الطرق الطبيعية لاستخدامها . وقد تصادف وجود السم فى كل من المنطقتين . والواقع أن استخدام بندقية النفخ انتشر انتشاراً كبيراً فى كل من المركزين (وقد وصل إلى الإيروكوى Iroquois فى أمريكا) ، ولكن بينما هى تستخدم فى صيد النمور فى الملايو فإنها تصبح مجرد لعبة للتسلية أو أداة عادية لإطلاق السهام غير المؤذية حيث لا تتوافر السموم أو الغابات .

ولقد ثارت مناقشات طويلة حول بندقية النفخ ولكن ليس ثمة مايدل على أنه أمكن الوصول إلى نتيجة مقبولة سوى أنها اخترعت فى كل من المنطقتين على انفراد . ولو صح أنها عمرت المحيط الهادى كله فلماذا لم ترحل بالمثل بطول المحيط الهادى حتى غابات الكونغو ؟

ومن ناحية أخرى فإننا نعرف أن ثمة أشياء معينة كالطباق وحروف الهجاء انتشرت من مصدر واحد بالذات ، بل إننا نعرف تاريخها أيضا وأنه توزيعها يتفق تماما مع المنطق . وعلى ذلك فحين نجد مجموعة من الملامح المتشابهة عند سكان سيبيريا المبكرين وعند بعض قبائل الهنود الحمر فى الشمال الغربى (الذى لا يفصل بينهما سوى بحر بيرنج) ونجد أن هذه المشابهات تشتمل على نقطة معينة بالذات مثل سلسلة الأساطير التى يلعب فيها الغراب دورا رئيسيا ، فإنه يصبح من الصعب معارضة الرأى القائل بالانتشار .

ولكن ليست المشاكل كلها على هذه الدرجة من الوضوح والتحديد ، ولذا كان الانتشار يتطلب قواعد معينة . فن الواضح مثلا أنه كلما تقاربت القبيلتان اللتان تملكان نفس الشىء كان ذلك أدعى إلى القول بأنهما أخذتاه من نفس المصدر أو أن إحداهما استعارته من الأخرى . كذلك من الواضح أن كلما زادت الملامح المشتركة بينهما ازداد احتمال وجود اتصال بينهما عن طريق الانتشار . ولكن كلما زاد عدد التفاصيل والملامح التى يرجع وجودها

وارتباطها معا إلى عنصر الضرورة (كما هى الحال فى بندقية النفخ التى لا تصلح بغير السم وقطعة القطن التى يثبت فيها السم) ضعف الدليل على الانتشار، بينما على العكس من ذلك كلما ضعفت العلاقة الطبيعية بين مختلف التفاصيل (مثل الأحداث فى القصة أو التصميم فى العمل الفنى) قبل احتمال اختراع الشيء كله مرتين على انفراد .

وفى رائعة كبلنج المسماة Namgay Doola حين يلتقى الراوى فى جبال الهملايا بفلاح كثير الصخب والضجيج ذى شعر أحمر وهو يترنم بأغنية كان أبوه علمه إياها وهى نشيد لا يكاد يختلف فى ألفاظه وموسيقاه عن The Wearing of ths Green ، بلغت شكوكه حول موطن الأب حدا كبيراً جدا ، ولم يكن بحاجة بعد ذلك إلى أن يرى الصليب النحاسى أو شارة الفرقة القديمة . ومع ذلك فمن الصعب أن يحتاط الإنسان لكل شيء فيما يتعلق بالتاريخ الخفى المجهول للعلاقات والهجرات البشرية .

وأخيراً ، يجب أن تؤخذ فى الاعتبار طبيعة الملامح الثقافية ذاتها . فالأشياء المادية تنتشر بسهولة حيث يكون الاتصال سهلا ميسورا لكن مع بعض القيود ؛ فبنادق النفخ مثلا لا تنتقل عبر السهول ، والملابس الثقيلة المصنوعة من الفراء لا تهاجر إلى المناطق المدارية . أما الأفكار الدينية فإنها تنتشر وتسرى فى سهولة ويسر ، وكذلك حال القصص والأساطير لأنها متاع خفيف ، وذلك على العكس تماما من ملامح التنظيم الاجتماعى التى تبدو أصعب الموضوعات جميعا وأعصاها على الانتقال .

الثقافات تنتقى وتختار

والعلاقة بين الانتشار والتاريخ مسألة طريفة ، ولكن لنرجع إلى صلة الانتشار بالثقافة بوجه عام . ليس من شك فى أن الانتشار وسيلة أسرع من الابتكار أو الاختراع لبناء الثقافات . فلو ابتكر ثلاثة أشخاص مثلا

ثلاثة اختراعات مختلفة وتبادلوها فيما بينهم لكان معنى ذلك أن كلا منهم يحصل على فكرتين من هذه الأفكار الجديدة عن طريق الانتشار وعلى فكرة واحدة بطريق الابتكار . ومن الناحية النظرية البحت يمكن لأى اختراع أن يشيع وينتشر فى كل مكان ، إلا أن الانتشار لا يمتد كموجات الصوت فى جميع الاتجاهات بسرعة واحدة ، بل هو أكثر تعقيدا من ذلك ، كما أن الناحية الآلية فيه — وهى التى عالجتها منذ قليل — أقل أهمية من الناحيتين الاجتماعية والثقافية .

وتعتبر القدرة على تقبل الشىء الجديد عاملا هاما فى الانتشار وفى الابتكار على السواء . وربما كان للمنزلة الاجتماعية التى يشغلها المجتمع الذى يتوصل إلى الاختراع الجديد بالنسبة للشعوب التى تتأثر به وتتعرض له أهميته فى هذا الصدد أيضا .

فباريس مثلا لها شهرة واسعة فى عالم الأزياء ، ولذا كان الناس يتقبلون بطريقة آلية رأيها فى ذلك الموضوع فى كل عام لأن هذا هو الاتجاه الذى يتوقعون أن يبدأ منه الانتشار . وهذا بالضبط هو ما يحدث فى العالم البدائى . فجماعات الأرابش الذين يسكنون المناطق الجبلية فى شمال غينيا الجديدة يعتبرون أنفسهم أقواما متأخرين ومنعزلين فى التلال بالنسبة لأفراد القبيلة الذين يسكنون على الساحل الذى يعتبر طريقا طبيعيا لمختلف الاتصالات ، وبالتالى طريقا للانتشار ، ولذا فإن سكان الجبل ينزلون إلى الساحل ليتعلموا الرقصات التنكرية الجديدة ويدفعون لها ثمنا مرتفعا يقدمونه فى كثير من التواضع لمعلميهم من سكان الساحل ثم ينقلونها معهم فى فخر وكبرياء إلى الجبال . أما أن يبتكروا هم أنفسهم رقصة جديدة يحاولون بيعها لسكان الساحل فأمر لا يمكن أن يخطر لهم على بال بأية حال . ولا يكاد فن الإعلان الذى يقوم على الاستشهاد بآراء الناس يختلف عن ذلك فقد لا يرتفع ذوق أى نجم من نجوم السينما عن أذواق غيره من الناس

ومع ذلك يكون لرأيه — الذى يتقاضى ثمنا له — وزن كبير حين يعلن على غلاف إحدى المجلات مثلا عن جودة نوع معين من السجاير .

بيد أن هذه القدرة على التقبل تتوقف أساسا على الثقافة المستعيرة ذاتها ، مثال ذلك أن رقصة الشبح التى شاعت فى عام ١٨٩٠ بدأت عند جماعات البايوت Paiutes فى نيفادا وحملها المبشرون الهنود إلى عدد كبير من القبائل فى كل المنطقة الغربية . فأما فى شمال كاليفورنيا فقد كانت الرقصة معروفة فى عام ١٨٧٠ وبذلك لم تعتبر جديدة عليهم فى عام ١٨٩٠ ولم تصادف بالتالى أدنى نجاح بينهم . وأما فى أريزونا حيث تمتاز ثقافة قبائل الهوبى Hopi بطابع هادىء رصين يتميز بوجود دين كهنوتى ونظام من الشعائر المعقدة فقد بدت العبادة الجديدة التى تميل إلى الجموح والشامانية نوعا من السخف والهراء وبذلك لم تؤثر فيهم أيضا أى تأثير . وأما قبائل السيوكس Sioux سكان السهول قد كانوا يحسون قسوة المصير الذى ينتظر حياتهم الحرة الطليقة التى تعتمد على صيد الجاموس ، كما كانوا يشعرون بوطأة المرض والفقر اللذين كانوا يرزحون تحتهما فى المناطق الجديدة التى نقلوا إليها ، ولذا تقبلوا تلك الرقصة بنهم وتهوس ، خاصة وأنها كانت تبشر بعودة أسلافهم الموتى وفناء الرجل الأبيض كما كانت تشبه دياناتهم التقليدية التى تشجع انطلاق الانفعالات الجياشة . وكان ذلك أحد العوامل التى أدت إلى الاضطرابات التى قتل فيها زعيمهم المعروف باسم Sitting Bull وإلى موقعة الركبة المجروحة Wounded Knee . وعلى ذلك فقد انتشرت رقصة الشبح بسرعة هائلة فى خلال عام واحد فقط وأثرت فى مناطق واسعة أو حتى اكتسحتها اكتساحا . ولكن الملاحظ هنا أن أكبر شرارة تمكنت هذه الرقصة من إشعالها كانت فى منطقة بعيدة جداً عن موطنها الأصلى .

وهكذا نعود مرة أخرى إلى حيث بدأنا ، أعنى مسألة التلاؤم الداخلى

للثقافة .فالاختراع يزود الثقافة دائما بأفكار جديدة لتختار من بينها مايتفق مع طبيعتها العامة وتنبذ تلك التى قد تتباين معها . وهذا نفسه يصدق بدرجة أكبر على الانتشار . وعن طريق الانتقاء والاختيار تستطيع الثقافة المحافظة على تكاملها . أضف إلى ذلك أن السمة الثقافية الواحدة التى تنتقل من شعب لآخر (بمختلف الوسائل ومن ضمنها الحرب) قد تبدو مختلفة فى كل من هذين الشعبين تبعا لاختلاف ظروفهما العامة . فقد لا يختلف الرأى فيما يتعلق بحربة الصيد (الهاربون) مثلا ، أما صفيحة الجازولين سعة الخمسة جالونات فقد تستخدم لمساعدة الرمث على أن يطفوا فوق سطح الماء عند شعب آخر لا يعرف الجازولين . وهذا ينطبق أيضا على الأفكار الرئيسية التى يكاد يستحيل نقلها وتبليغها بمعناها الدقيق إلى مختلف الشعوب ، لدرجة أن المسيحية ذاتها خضعت لكثير من التعديلات الغريبة عند الجماعات البدائية التى اعتنقتها . ويكاد يكون من المؤكد أنه حين تدخل فكرة جديدة على إحدى الثقافات فإنها تتخذ شكلا جديدا مختلفا بحيث تتفق مع كل الأفكار القديمة التى تشتمل عليها هذه الثقافة . والمسألة هنا أيضا تشبه (موضة) باريس، لأن ما يظهر فى آخر الأمر فى شوارع مدينة من المدن قد لا يكون بالضرورة هو نفس ما أعلن عنه أحد بيوت الأزياء فى أول الأمر ، بل ذلك القدر الذى يلائم ويوافق شوارع تلك المدينة فقط . ومن أفضل الأمثلة على ذلك لباس البحر البيكينى الذى لم يكن مقبولا على الإطلاق فى هذا الجانب من المحيط ، اللهم إلا فى صور المجلات والجرائد .

التكامل : مثال من تانالو

وهكذا نجد أن الفكرة المنقولة يجب بعد قبولها أن تتكامل مع الثقافة التى قبلتها بحيث تتطابق معها تماما ، ولكن ذلك ليس هو أفضل دليل على اطراد الثقافة وثباتها لأن تكامل الثقافة ذاته يقتضى من السمة الجديدة أن تحدث فى محاولتها الاندماج موجات من التغير تسرى فى الثقافة كلها ،

على اعتبار أن السمات الأصلية تحاول أن تتكيف بدورها مع هذه السمة الجديدة . وبالطبع سوف يتوقف مايحدث على أهمية السمة الطارئة . وقد ذكر لنا لينتون Linton مثالا طريفا لذلك (١) .

أما المكان فهو جزيرة مدغشقر المجاورة لأفريقيا والتى تأثرت رغم ذلك بتأثيرات قوية وصلت إليها عبر المحيط الهندى من إندونيسيا ، وأما القبيلة فهى قبيلة تانالا Tanala التى درسها الدكتور لينتون بنفسه دراسة مباشرة ، واستطاع أثناء ذلك أن يجمع بعض الوقائع الطريفة التى حدثت هناك فى القرنين الماضيين . وقد كان النمط السائد فى حياة القبيلة هو ذلك النمط البسيط الذى وصفناه حين تكلمنا عن إندونيسيا : القرى المنعزلة التى تزرع الأرز الجاف باستخدام طريقة القطع والإحراق ، ثم الانتقال إلى مكان آخر مرة فى كل جيل تقريبا بعد استنزاف كل قوى التربة فى الأدغال القريبة . ومع أن التانالا كانوا ينتمون إلى قبائل كما هى الحال عند الإندونيسيين الأكثر بساطة فلم يكن لديهم تنظيم قبلى بالمعنى الدقيق للكلمة ، فقد كان الشيوخ وكبار السن يتولون تصريف أمور القرية بينما يقوم رئيس القرية بدور الوسيط بينهم فحسب .

وثقافة التانالا ثقافة بسيطة ساذجة إلى حد كبير ، إذ لم تعرف نظام الرق أو الطبقات الاجتماعية التى كانت توجد فى جنوب شرق آسيا أو حتى فوارق الثروة والملكية التى تصاحب نظام الطبقات ، وإنما كان الناس على العكس من ذلك يعيشون عيشة ديمقراطية بسيطة ، وإذا كان لديهم بعض الأفكار عن الملكية الخاصة فإنها لم تكن تنطبق على الأرض ، فحين كانوا يريدون إقامة قرية جديدة مثلا كان الشيوخ يقسمون رقعة من أرض الأدغال بين العائلات الكبرى التى تتألف منها القرية بحيث تنفرد كل عائلة بمزرعة خاصة بها ، فإذا ظهر بعد ذلك أن الأرض التى أعطيت لإحدى

---

(١) The Study of Man

العائلات لم تكن صالحة كان الشيوخ يتداركون الأمر فى العام التالى . ولذا كانت كل العائلات الكبيرة تتساوى عادة فى الموارد .

ثم وفدت عليهم بعد ذلك سمة جديدة هى زراعة الأرز المروى التى تتطلب وجود الأرض الرطبة ، ولكنها تغل محصولا أوفر من طريقة الزراعة الجافة ، ويكفى لفترة أطول من السنة . ولكن لما كانت كل عائلة كبيرة تزرع قطعة صغيرة فقط من قاع الوادى ذاته ضمن رقعة الأرض التى تفلحها بحيث لم تكن تكفى لتشغيل كل أفراد هذه العائلة كان الحل البسيط لهذه المشكلة هو أن ينفرد بيت واحد فى كل عائلة كبيرة بزراعة الأرز المروى ، ثم لم تلبث أن وفدت عليهم أيضا فكرة تمهيد المدرجات وهى الطريقة المتبعة فى الشرق بقصد زيادة مساحات الأرض التى تزرع بهذا النوع من الأرز وتحافظ عليها ، وبذلك عكفت البيوت التى تمارس الزراعة على إقامة المدرجات وتمهيدها ، وقد ساعد ذلك بطريقة لاشعورية على انفصال تلك البيوت عن العائلات الكبيرة التى كانت تنتمى إليها وتشترك معها دائما فى العمل فى شكل تعاونى . وعلى ذلك فحين كانت الأرض الجافة تفقد قواها كان معظم العائلة الكبيرة يقررون الرحيل ، بينما كان هذا البيت الذى تحمل متاعب ومشقة إقامة المدرجات يقرر التخلف والبقاء على أساس أن المدرجات والأرز المروى يمكن أن تستمر فى الإنتاج بغير توقف .

وهكذا نجد أنه حين كانت القرية تغير موطنها تبعا للنظام القديم فإنها كانت تنقسم إلى قسمين . وليس هذا هو كل شىء ، لأن المسألة لم تكن مجرد بقاء بعض العائلات الكبيرة وانتقال البعض الآخر ، مما كان يترتب عليه ظهور قريتين صغيرتين مستقلتين ولكنهما تشبهان القرية الأصلية ؛ بل إن العائلات الكبيرة ذاتها — وهى تؤلف الوحدات الأساسية — كانت تنقسم إلى عدد من البيوت ، كان بعضها يرحل إلى القرية الجديدة ، بينما يظل البعض الآخر مقيما فى مكانه .

ولكن ماذا حدث لظاهرة انعزال القرية ؟ لقد اكتشف أفراد كل بيت أن لهم — نتيجة لذلك — بعض الأقارب الأقربين فى القرى الأخرى فأخذوا يجتمعون معهم من أجل عبادة أسلافهم ، كما أن أنماط الزواج التى كانت تميل إلى تفضيل الزواج بين أبناء العمومة المتقاطعة بدأت تتغير ، مما أدى إلى قيام كثير من الزيجات بين القرى التى كانت تؤلف قبل ذلك وحدات أندوجامية . واستقرت القرى فى مواضعها فلم تعد تنتقل من مكان لآخر ، وأصبح لها نظام للدفاع والتحصين القوى اقتبسته من القبائل الأخرى بدلا من المتاريس البسيطة القديمة . وقد تغير نمط الحرب تبعا لذلك ؛ فبعد أن كانوا يكتفون بشن الغارات للاستيلاء على الماشية والنساء بدأوا يهدفون إلى أسر الأفراد واستعبادهم وبذلك ظهر الرق . وقد ساعدت زراعة الأرز المروى على تدعيم الرق بشكل لم يكن ميسورا حين كانوا يمارسون زراعة الأرز الجاف ، وأدى ذلك إلى ظهور الطبقات الاجتماعية ، لأن الأرض الممهدة فى شكل مصاطب أو مدرجات نتيجة للعمل الشاق الطويل أصبحت ملكية خاصة وليست مجرد شىء طارىء يشرف الشيوخ على توزيعه . وبذلك أصبحت الأرض ثروة يمكن استغلالها وفلحها بأيدى العبيد ، ولم تعد العائلة الكبيرة هى الوحدة الرئيسية ؛ بينما ازدادت أهمية العشائر التى كانت موجودة من قبل إلى أن تمكن أحد رؤساء العشائر الكبرى من أن ينصب نفسه ملكا يخضع لسلطانه الجزء الأكبر من إحدى القبائل المتمايزة التى تضم عددا من القرى القوية المترابطة اجتماعيا . وهكذا نجد أن الملك والطبقات والثروة والرق والقبيلة والقرية والتنظيم الاجتماعى ظهرت كلها — أو تغيرت طبيعتها — بعد أن طرقت زراعة الأرز المروى الباب واستقبلت أطيب استقبال .

وليست هذه السلسلة من العلل والمعلولات أمرا غريبا بحال بالنسبة للمشتغلين بدراسة المجتمع الغربى الحديث . فالتغيرات التى بدأت تدخل على حياتنا نتيجة لاختراع السيارة مثلا لم تنته بعد على الرغم من كثرة

مظاهر التغير التى حدثت حتى الآن . ولكن المسألة هى أنه لما كان التانالا يؤلفون مجتمعا صغيرا يشغل رقعة محدودة من الأرض فإنها تستطيع أن تبين لنا بشكل أفضل تاريخ هذه العملية برمته كما لو كنا ندرس هذه المشكلة فى المعمل . فهى تبين لنا بشكل رائع مدى تكامل الثقافة ومرونتها فى الطريقة التى استجابت بها للتغير حتى تحتفظ الثقافة بحياتها وطبيعتها . والواقع أن مثل هذه العمليات لم تبدأ فى الظهور بوضوح وجلاء إلا فى المجتمعات الكبيرة وفى المستوى النيوليثى ، إذ لم يكن عند الصيادين سوى قدر ضئيل جدا من التجديد والتغيير .

بيد أن تماسك الثقافة كثيرا ما يكون هو السبب فى انهدامها وتفككها وهذ هو التفسير الوحيد لما فعله الأوروبيون بالشعوب الوطنية . فقد تمكنوا بفضل الأسلحة والنقود من أن يفرضوا على ثقافات هذه الشعوب أمورا لم يكن فى استطاعتها أن ترفضها أو أن تتمثلها ، وبذلك تخلخل تكامل هذه الثقافات كما تحطمت ثقة الناس بأنفسهم . ولقد اندفع الأوروبيون (بحسن نية) إلى تحطيم المعبودات التى كانت بمثابة دعامة قوية تستند إليها تلك المجتمعات ، وحاولوا أن يحلوا محلها دعامة أخرى هى الدين المسيحى الذى يقوم عليه المجتمع الغربى . ولكن ترابط هذه الشعوب كثيرا ما كان يتنكب سواء السبيل بعد أن فقدت اتساق أسلوب حياتها القديم ، واضطر الناس بذلك إلى الاعتماد على غيرهم مما كان يترك أثرا غير صحيح بأنهم أقوام من المتوحشين الكسالى قليلى الحيلة . لم تكن هذه غلطة إنسان معين بالذات ، ولكنها جلبت الشقاء للجميع .

العالم الجديد

١٧
الأمريكيون الأوائل

فى الوقت الذى كان الصيادون فى فرنسا أثناء العصر الجليدى المتأخر يقبعون بجانب كهوفهم فى وادى فيزير يترقبون حيوانات الصيد ، كانت جماعات أخرى من الصيادين تتحرك فى الطرف البعيد من سيبيريا متجهة نحو الشرق بحثا عن الصيد . وقدحدث أثناء البحث والمطاردة أن اجتازت هذه الجماعات عنقا ضيقا من الأرض . ومن المحتمل أن الصيادين لم يلحظوا حينئذ أن الأرض الفسيحة قد ضاقت ضيقا شديدا ولم ينتبهوا إلى بعض أمور أخرى لم يكونوا يعرفونها فى ذلك الحين ؛ فهم لم يكونوا يعرفون مثلا أن ذلك الموضع الضيق من الأرض سوف تغطيه المياه حين يرتفع البحر وتذوب الثلاجات بعد ذلك بوقت طويل ، كما لم يكونوا يعرفون أنهم دخلوا عالما جديدا تماما يزخر بحيوانات الصيد مثل المستودون mastodons والماموث mammoths والخيول والجمال والبيسون ذوات القرون الطويلة وثيران المسك musk-oxen وبعض الكائنات الأخرى العجيبة مثل حيوان الرسيف sloth الضخم علاوة على العلك elk ووعول الوظ والكاريبو والغزلان ؛ وأخيرا فإنهم لم يكونوا يعرفون أنهم كانوا أول أناس يستوطنون أمريكا .

وليس من شك فى أن حياتهم لم تكن ناعمة هانئة ، فقد كانوا يصارعون البرد فى الوقت الذى كان الجليد فى الفترة الجليدية الرابعة يغطى جانبا كبيرا من آسيا وشمال أمريكا (وإن لم يكن قد غطى كل منطقة مضيق بيرنج أو سواحل آلاسكا) ، تاركا لهم بضعة ممرات قليلة يمكنهم الانتقال بوساطتها ، إلى القارة الواسعة التى تمتد من ورائها . وليس من شك أيضا فى أنهم كانوا زمرة منعزلة من جماعات الصيادين الذين كانوا ينتشرون حينذاك فى الشرق الأقصى

وأنهم كانوا ينتمون إلى ذلك الفرع المغولى الذى لم يطرأ على ملامح وجهه أى نوع من التغيرات ، إما لأنهم جاءوا فى وقت مبكر جدا ، وإما لأن المنطقة التى حدثت فيها تلك التغيرات الوجيهة والتى لا نعرف مكانها بالضبط، كانت بعيدة جدا عن أمريكا . ولكنهم كانوا على أية حال بداية لسلسلة طويلة من الجماعات الوافدة التى كانت تتباين ولا شك فى التفاصيل ولكن تتشابه فى الثقافة العامة ، والتى ظلت تجوب أنحاء أمريكا لعدة آلاف من السنين إلى أن ارتفعت المياه فى آخر الأمر وأصبح من المستحيل اجتياز مضيق بيرنج بدون الانتباه إلى ذلك . وهكذا انفصلت هذه الجماعات عن العالم القديم واستقرت فى العالم الجديد ، وبذلك أسدوا يدا كبرى لدراسة تاريخ البشرية لأنهم أخذوا يتبعون ويكررون فى الأمريكتين نفس الخطوات العامة التى سار فيها التقدم الثقافى فى العالم القديم .

ومن المستحيل أن نحدد الآن بالضبط متى دخل الإنسان أمريكا لأول مرة ، وإن لم يكن هناك شك فى أن العملية كلها توافق العصر الحجرى القديم الأعلى سواء من ناحية الزمن أو الطابع العام . فهى لا ترجع إلى عهد سحيق جدا . وعلى أية حال فلم نعثر للآن على ما يدل دلالة قاطعة على وجود الإنسانية فى أمريكا قبل الحقبة الجليدية الرابعة . أضف إلى ذلك أن الطريقة الراديوكربونية فى تحديد التواريخ تفيد أن الإنسان كان يعيش بلا أدنى ريب هناك قبل عام ١٠٫٠٠٠ ق . م (أى قبل العصر الميزوليثى فى أوروبا بوقت طويل) ، كما تدلنا أيضا على أن بعض المخلفات المادية التى ترجع إلى أدنى المستويات الثقافية والتى عثر عليها فى كهف سانديا Sandia Cave فى نيومكسيكو ترجع إلى حوالى عشرين ألف سنة مضت . وهذا أمر يثير الانتباه وإن لم يكن يثير الدهشة . وعلماء الآثار يرون أن ذلك التقدير مقبول ومعقول بالنسبة للهنود الأوائل ، بل إن منهم من يـ دهم إلى تاريخ أبعد من ذلك قد يصل إلى أربعين ألف سنة .

ومن المحتمل أن الأمريكيين الجدد ساروا فى أول الأمر بحذاء الساحل القطبي لألاسكا حتى عثروا على طريقهم نحو الجنوب بين الجبال التى كانت تغطيها الثلوج فى الغرب ومناطق الجليد اللورنسية العظمى التى كانت تمتد فى شرق كندا . وقد تم لهم احتلال نصف الكرة الأرضية كله بالتدريج ، ولم يحدث ذلك الاستيطان بشكل مطرد مستمر ، لأنه على الرغم من أن الصيادين أقوام رحل فإنهم لا يتجولون إلا فى المناطق التى يعرفونها والتى تلائم أسلوبهم فى القنص ، كما أنهم لا يتسرعون بالتوغل فى المجاهل الجديدة التى قد تقتضى منهم أن يغيروا طريقة حياتهم أو حتى الطعام الذى يعتمدون عليه ، وهذا فى حد ذاته دليل قوى على أن المهاجرين الهنود الأوائل وفدوا منذ زمن بعيد جدا ، لأن بعض الصيادين وصلوا بالفعل إلى أقصى أمريكا الجنوبية وكانوا يعيشون على لحم الخيل والرسيف ولاما جنوب أمريكا guanacos فى سنة ٦٦٨٩ ق.م (أو بعدها أو قبلها بحوالى ٤٥٠ سنة) . وقد أمكن تحديد هذا التاريخ بوساطة الطريقة الراديوكربونية من عظام الحيوانات التى خلفوها فى المكان الذى كانوا يوقدون فيه النار فى كهف پالى إيك Palli Aike ولم تكن هذه العظام أقدم المخلفات فى ذلك الكهف .

بل حتى قبل ذلك ، حدث ذات يوم حوالى عام ١٠٫٠٠٠ ق.م. أن كان أحد الهنود يطارد بعض حيوانات الماموث بالقرب من المستنقعات المحيطة بحافة البحيرة التى كانت تشغل حينذاك جزءا كبيرا من وادى المكسيك (وهى آخر أصل جليدى للبحيرة التى كانت الآزتك يعيشون حولها ، ولم يبق منها الآن إلا بعض آثار قليلة) . وقد سقط ذلك الهندى بطريقة ما فى الوحل ، أو لعله غرق فسقط على وجهه . والظاهر أن النسور نهشت جزءا من جسمه ، فقد عثر فى تبكسپان Tepexpan إلى الشمال الشرقى من مدينة مكسيكو على هيكله منكفئا على وجهه تحت التراب الذى يتكون منه قاع حافة البحيرة الآن ، كما عثر فى نفس هذه الطبقة الجليدية المتأخرة

بالقرب منه على اثنين من الماموث لقيا نفس المصير . وإذا كان هناك فى أول الأمر أدنى شك فى أن الرجل كان يعيش فى عصر واحد مع الماموث أو فى أن الهيكل البشرى لم يدفن عمدا بهذه الطريقة فى تلك الطبقة (وليس هناك ما يدل إطلاقا على ذلك) فقد تبددت هذه الشكوك فيما بعد حين عثر فى حفرة أخرى فى ايكستاپان Ixtapan على بعد ميلين اثنين وفى نفس الطبقة على بقايا عظام بعض حيوانات الماموث المذبوحة وإلى جانبها ستة أنواع من السكاكين والمديات الحجرية .

بعض مواطن وثقافات الإنسان القديم فى أمريكا

ويبدو أن هذه النهاية التعسة نفسها لحقت « بإنسان » منيسوتا Minnesota ، وهو فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها غرقت فى إحدى البحيرات عند حافة الثلاجة بالذات كما يستدل من القرائن . والظاهر أنها كانت ترقد بين الحصى فى البحيرة على عمق أبعد بكثير من عمق القبور ،

كما أن جسدها لم يكن فى وضع الجسد المدفون . وقد تم كشف الهيكل بطريق المصادفة البحت أثناء تعبيد الطريق وليس أثناء عملية تنقيب علمى . ولذا فقد اندثر تماما كل دليل عن العصر الذى كانت تعيش فيه، وهو العصر الذى كان يمكن استمداده من طبقات الحصى المنتظم فوق العظام مباشرة . وليس هناك سبب وجيه يمنع من أن تكون فتاة منيسوتا قديمة ، ولكن ينقصنا مثل هذا البرهان . والشىء نفسه يمكن أن يقال عن جمجمة پونين Punin التى عثر عليها فى إكوادور وعلى أشياء أخرى كثيرة يظن أنها قديمة . وقد تكون قديمة فعلا ولكن لا يوجد الدليل القاطع على قدمها .

وعلى ذلك فليس أمامنا الآن سوى إنسان تيكسبان . فماذا كان يشبه ؟ إنه يشبه الهنود الحمر وإن كان هذا يصدق على كثير من الآدميين الآخرين . وكل ما يمكن قوله هنا هو أن الكثيرين منهم كانوا ينتمون إلى نموذج واحد عام يتميز بطول الرأس وصغر حجم المخ وبروز الأسنان بروزاً خفيفا ولكن مع عدم وجود طابع سلالى خاص مميز . ومن المحتمل أن الخصائص « المغولية » كانت أقل ظهورا عندهم عما هى لدى الهنود الحاليين .

ولكننا لسنا بحاجة إلى اكتشافات كثيرة من هذا النوع لكى نبرهن على القدم . فهناك التاريخ الراديوكربونى لإنسان سانديا ، وذلك بالاضافة إلى عدة تواريخ أخرى أحدث يمكن التعويل عليها بدرجة أكبر . وقد عثر فى عدة أماكن على بعض الأحجار والآلات البدائية المصنوعة من العظام موجودة بجوار بعض الحيوانات المنقرضة أو تحت ظروف أخرى تشير إلى العصر الجليدى ، كما هى الحال فى الأحجار والآلات التى عثر عليها فى طبقات الشاطىء الكندى والتى ترجع إلى الحقبة التى كانت البحيرات فيها أوسع وأكثر ارتفاعا . وربما كانت هذه المكتشفات قديمة جدا بالفعل (فى حدود الطور الجليدى الرابع) ، كما أنها توحى على العموم بوجود ذلك الضرب من الصيادين الأوائل الذين كانوا ينتشرون بسرعة فى أنحاء القارة . ولكن المعلومات التى بأيدينا قليلة جدا بحيث لا تسمح لنا بتكوين صورة عامة .

ومهما يكن من شيء ، فقد بدأت بعض الثقافات الأخرى في الظهور حوالى عام ١٠٠٠٠ ق.م. أو قبل ذلك ، وهى ثقافات أكثر تحديداً وتتميز بوجه خاص باستخدام المديات الكبيرة الحجم ذات الحزوز أو الأخاديد التى تبدأ من القاعدة وتمتد بطول الجانبين ، وكانت تصنع بفصل شطفة كبيرة بمهارة فائقة ، ويعرف هذا المدب باسم «محزوز كلوفيس Clovis fluted»
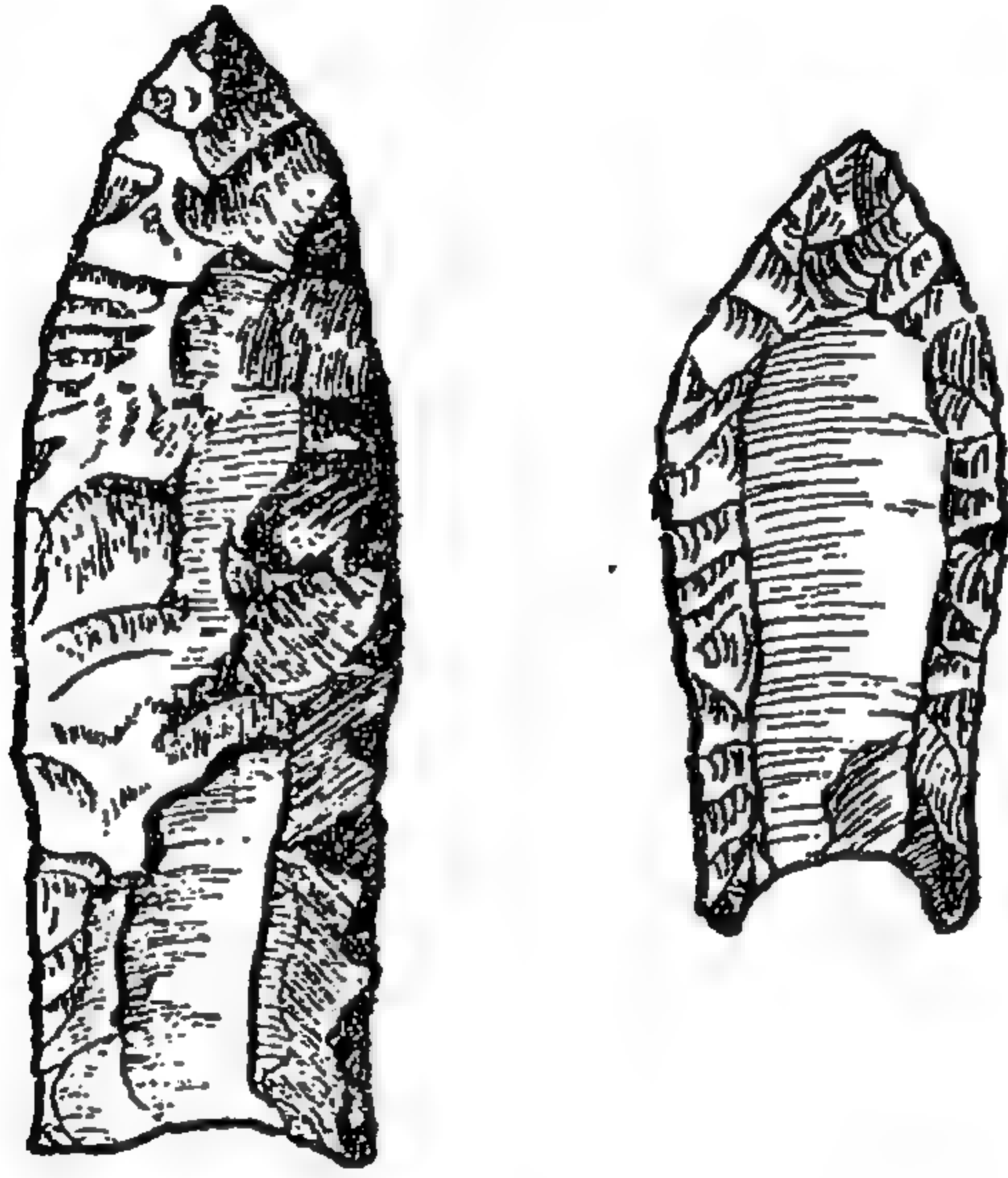
مدبب من طراز كلوفيس المحزوز — مدبب من طراز فولسوم

ويبدو أنه كان اختراعا أمريكيا وأنه كان منتشرا على نطاق واسع . ثم ظهرت حوالى عام ٨٠٠٠ ق.م. على الأقل ثقافة أخرى ازدهرت بشكل خاص فى منطقة السهول الكبرى ، وهى ثقافة صيادى فولسوم Folsom الذين ابتكروا نوعا من المدبيات المحزوزة الرشيقة ذات الرءوس العريضة ، وكانوا يقنصون حيوان البيسون التيلورى الذى انقرض منذئذ وذلك باستخدام قاذفات السهام والحراب . وحوالى عام ٧٠٠٠ ق.م. ساد أسلوب ثالث من المدبيات الطويلة المسحوبة الخالية من الحزوز ولكنها كانت تتميز بطريقة الشطف المتقاطع cross-flaking كما هى الحال فى طراز اليوما yuma ، وهى تذكرنا إلى حد ما بالثقافة السوليترية فى أوروبا ، وإن لم يكن ثمة علاقة بينهما بالطبع .

العصر الميزوليثى فى مريكا

وكان الجليد بدأ ينحسر فى ذلك الوقت كما كان المناخ الذى ساعد على وجود حيوانات القنص الضخمة يمر بتغيرات كثيرة فى مختلف الأماكن ، وكان كثير من الحيوانات ذاتها بدأ فى الانقراض ربما نتيجة لهذه التغيرات وإن كان من المؤكد أن الهنود أنفسهم عجلوا بها إلى الفناء والاندثار (وقد استمر الجليد والحيوانات فى أمريكا فترة أطول منها فى أوروبا) . والظاهر أن ما حدث للثقافة الميزوليثية فى وروبا جرى على ثقافات القنص ، فقد أخذت تتوطن فى أماكن معينة بالذات كما أن حيوانات القنص أخذت تتكمش فى العدد وفى الحجم . ولا بد أن يكون الهنود درسوا بدقة متناهية الموارد الطبيعية فى مختلف الأقاليم وأنواع النباتات التى يمكن جمعها ووسيلة الحصول عليها وطريقة إعدادها للأكل .

وثمة شاهد على ذلك فى المعلومات القليلة المفككة التى بأيدينا . فهنود الكوتشيز Cochise مثلا فى جنوب أريزونا ونيومكسيكو كانت لديهم ثقافة قديمة ترجع إلى بضعة آلاف من السنين وكانت تعتمد بشكل قاطع على جمع الخضراوات والبذور التى كانوا يطحنونها على ألواح من الحجارة . وهذه هى العملية التى أدت بلا شك إلى ظهور عدد كبير من ثقافات القنص والجمع الخاصين والمحليين فى كل أنحاء الأمريكتين ، مثل ثقافة الهنود الحدثين الذين استوطنوا منطقة الحوض العظيم بين جبال روكى وسييريا والذين كانوا يقتاتون بجوز البينون Pinôn nuts والبذور العشبية والنطاط ، وكذلك ثقافة الأهالى الوطنيون فى تيرا دلفويجو Tierra del Fuego التى سبقت الاشارة إليها حيث كانت جماعات الأونا Onas والياغان Yahgans يمارسون نوعين مختلفين تماما من الصيد (صيد المحار من الشواطىء فى مقابل قنص الحيوان على المرتفعات) فى نفس المنطقة . وربما كان الياغان توصلوا بمفردهم إلى اختراع القوارب . كذلك ظهرت فى عدة أماكن مختلفة

اختراعات وابتكارات وتعديلات صغيرة كثيرة ، وعلى ذلك فهناك حقاً ما يشير إلى العصر الميزوليثى فى أوروبا. والواقع أن أفضل ما يمكن وصف هؤلاء الصيادين الأمريكيين الأواخر به هو أنهم صيادون «ميزوليثيون» .

ولكن هذا كله لم يتناول للآن جانباً واحداً من القضية ، أعنى رواد العصر الحجرى القديم والثقافات التى انحدرت منهم . والواقع أن هناك سبباً آخر للكلام عن العصر الحجرى الوسيط الميزوليثى ، وهو سبب مستورد من الخارج وليس مستمداً من المنطقة ذاتها . فقد رأينا أن سكان أمريكا الأوائل تقدموا نحو دنياهم الجديدة فوق أرض صلبة وأن هذا هو ما فعلته من بعدهم جماعات أخرى كثيرة لفترة غير معروفة من الزمن . وقد حدث ذلك باستمرار وإن يكن على فترات متباعدة حتى ارتفعت المياه فى بحر بيرنج وغطت ذلك الجسر فى أواخر عصر البليستوسين . وهذا لا يعنى أن المضيق لم يعبره إنسان قط بعد ذلك ، وإنما يعنى فقط أن القوارب أصبحت الآن ضرورية وأن العابرين كانوا فى الأغلب ملاحين مهرة . ويعنى بدوره كذلك أن النمط اختلف من الهجرة إلى الاتصال والاحتكاك . فالجماعات التى كانت تنتقل على اليابسة أثناء القنص ثم تتوغل فى داخل القارة حل محلهم أقوام متعودون حياة الساحل والماء ، وبذلك كانوا يعبرون البحر بين كلا الساحلين دون أن يتوغلوا بالفعل فى أمريكا ، لا لشىء إلا أنهم بحكم ثقافتهم شعوب ساحلية . وهذا مجرد افتراض . ولكن هناك حقائق أخرى تدل على أن غالبية السكان انحدروا من تلك الجماعات التى وفدت فى عصر البليستوسين . ومن هذه الحقائق ظاهرة عدم وجود قبائل (إلا بين الإسكيمو) ، وهى ظاهرة تسود بلا استثناء شرق سيبيريا الذى تغلب عليه السلالات المغولية بشكل ملحوظ .

ومع ذلك وفدت أشياء أخرى جديدة . فقد عثر فى كل من منغوليا وآلاسكا على نوع خاص من النصال القزمية Microliths التى تكشف عن

كثير من أوجه التشابه ، وتعتبر هذه النصال من السمات المميزة للعصر الميزوليثى فى كثير من الجهات . والمعتقد أن نصال آلاسكا ترجع إلى حوالى عام ٤٠٠٠ق.م. ثم ظهرت بعد ذلك بقليل، أى قبل عام ٣٥٠٠ق.م . ثقافة أخرى جديدة تقوم على القنص فى أحراش النصف الشرقى من الولايات المتحده ، وتتميز بوجود أدوات حجرية تم صقلها باستخدام الخشب ، ويعتبر هذا أيضاً دليلا آخر على وجود علاقات مع آسيا . ثم استولى الإسكيمو بعد ذلك بفترة طويلة على الطرف الشمالى للقارة . ومن الواضح أنهم جاءوا هم أيضاً من آسيا مباشرة . وأخيراً فإن للهنود الحديثين الذين يعيشون على ساحل المحيط الهادى ثقافة ذات طابع خاص إلى حد ما ، ومع أنها ترتبط ارتباطاً قوياً بتلك المنطقة ذاتها إلا أن ثمة أوجه شبه كثيرة — وبخاصة فى الأساطير — تنم عن وجود نوع ما من الاتصال بآسيا أحدث بكثير جداً من هجرة الوافدين الأصليين . وهكذا نجد أن جزءاً كبيراً من أمريكا الشمالية كانت تسوده ثقافات تقوم على جمع الطعام وتكشف لنا عن دوافع مغايرة لما كان موجوداً فى العالم القديم ، رغم أنها ظلت متمسكة فى جملتها بطابعها الأصيل أثناء نموها وتطورها . ولكن قد يكون من الأفضل أن ندرس ثقافات الباسفيكى والمنطقة القطبية ومنطقة الإحراج كلا على حدة ، لأنها تتباين فيما بينها تبايناً كبيراً .

جامعو الطعام المحظوظون على الساحل الغربى

وسكان الساحل الباسفيكى ، الذين نبدأ بهم ، يخضعون للقاعدة القائلة بأن الجماعات التى تعيش على الجمع والقنص تحيا حياة البداوة والنجعة ، بل إنهم يطبقون هذه القاعدة فى كل نواحى حياتهم . وحتى الزراع يتبعون طريقة القطع والإحراق التى تضطرهم فى العادة إلى تغيير مواقع قراهم من حين لآخر ، ولكن الطعام كان يتوافر على طول الساحل بشكل تمكن الناس معه من أن يقيموا قرى «نيوليثية» الحجم وأن يستقروا فى مكان واحد بصفة دائمة . وقد ساعد ذلك بالطبع على قيام نوع من التنظيم الاجتماعى «النيوليثى».

أما فى كاليفورنيا ، فقد كان الكرن يعتبر أحد المحصولات الغذائية الرئيسية ، وكان البندق يوجد بكميات كبيرة ، ولذا كان من السهل توفيره للطعام وتخزينه ، وكل ما كان يحتاج إليه هو أن يطحن اللب وينقع لإزالة حامض التنيك منه ثم يستخدم بعد ذلك فى صنع الخبز . كذلك كان الناس يعيشون على سمك السالمون وعلى الأرانب والغزلان ، وقد بلغ من وفرة الطعام الطبيعى عندهم أنهم لم يمارسوا الزراعة رغم أنهم كانوا يعرفونها بلا شك بفضل الانتشار ، ورغم أنهم كانوا يزرعون بالفعل بعض الطباق . ومن الجائز أنهم كانوا ينفرون تماما من صناعة الفخار لسبب مماثل ، ولكنهم كانوا أمهر صناع العالم فى فن السعف ، فقد كانوا يصنعون سلالا من السعف المحكم الدقيق لدرجة أنها كانت تحفظ الماء ، كما كانوا ينتجون السلال المزخرفة المزينة بالريش والخرز ، بل إنهم كانوا يصنعون سلالا فى حجم حبة الحمص أو حبة البازلاء للتدليل على مدى براعتهم . وكانت نساؤهم يرتدين قبعات من السعف تلتصق برءوسهن ، ولكنهم لم يكونوا يتبعون فى ملابسهم التى كانت تصنع من الجلد زيا معينا بالذات ، كما لم يكونوا يعرفون صناعة النسيج أو غير ذلك من الفنون (ما عدا صناعة بعض النصال التى كانوا يشطفونها بدقة متناهية من الزجاج البركانى) . وكانوا يستخدمون القوس المقواة بالأوتار فى القنص ، كما كانوا يبنون مساكنهم من الطين ويقيمون جزءا منها تحت الأرض للطقس والمراسيم ، وهى تعد من أقدم أنواع المساكن . وقد كانت هذه القسى والمساكن منتشرة انتشارا واسعا فى سيبيريا . وقد عرفوا نظام الشامانية الذى كان يشبه النظام السائد فى سيبيريا ، وفيما عدا ذلك كان الدين يتألف من سلسلة طويلة من المشاهد التمثيلية والرقصات التى يمثلون فيها أساطيرهم . وكانت هذه الشعائر ، وكذلك الألعاب ، تشغل الناس طيلة فصل الشتاء بعد أن ينتهى موسم حصد البندق ، كما كانت تقوى العلاقات الاجتماعية بنفس الطريقة التى نجدها فى الولائم أو فى نظام الكولا فى ميلانيزيا .

وإلى الشمال من كاليفورنيا وعلى طول الساحل الشمالى الغربى حتى آلاسكا يمتد ساحل معقد من الخلجان والمضايق والجزر التى تنمو عليها غابات من الأخشاب الثمينة وبخاصة الشربين والتنوب. وتمتاز قبائل المنطقة كلها — ابتداء من قبائل الساليش Salish فى الجنوب ثم الكواكيوتل Kwakiutl والهايدا Haida حتى قبائل التلنجيت Tlingit فى الشمال — بثقافة واضحة المعالم وفن قوى متطور يتمثلان بجلاء فى صناعة الخشب. وتقطن هذه القبائل فى قرى يقيمونها قرب الساحل، ويسكنون فى بيوت كبيرة من الخشب لها سقوف هرمية، وينصبون فيها أعمدة طوطمية تقام إما فى أحد الأركان أو أمام البيت ذاته من الخارج، كما يستخدمون قوارب منحوتة من جذوع الشجر وتستطيع أن تحمل — أثناء الحرب — حوالى خمسين مقاتلا.

أما الآن، فإن الناس يشتغلون فى مصانع تعبئة الأغذية، وإن كانوا فى الوقت نفسه يقتاتون بفيض البحر وبخاصة سمك السالمون، كما يصطادون سمك القفندر Halibut والرنجة والبكلاه ويطهونها بطرق مختلفة إلى جانب كثير من السمك الصدفى والمحار. وقد لجأوا إلى تجفيف أو تدخين هذه الأطعمة ليتمكنوا من تخزينها بحيث تكفيهم طول العام، وهذا هو أساس الحياة المستقرة. كذلك كانوا يصطادون سمك الصيل Seals والبربوز Porpoises والحيتان كما كانوا يجمعون التوت البرى والدرنات التى تؤلف أهم الأطعمة البرية عندهم. وللحصول على الزيت كانوا يضعون كمية من الماء فى أحد القوارب القديمة ثم يلقون فيه بعض الأحجار الملتهبة حتى يغلى الماء فيلقون فيه بكميات كبيرة من الأولاشان Oolashan وهو سمك صغير الحجم.

ولهذه الثقافة غرائبها إذا قورنت بغيرها من ثقافات الهنود الحمر. فهى تحتوى على كثير من الأساطير التى تدور حول الغراب، كما أنها تعرف ستخدام القسى المعقدة وملابس الحرب المدرعة التى تصنع من أعواد

الخشب ، وهي كلها أشياء كانت توجد عند أهالى سيبيريا القدامى . إلا أنها تفتقر من الناحية الأخرى - أو تكاد - إلى كثير من الأشياء المألوفة الشائعة فى بقية أمريكا مثل أحذية المغسين Moccasins والأدوات الحجرية المشطوفة والتروس (وكذلك الزراعة ما عدا زراعة الطباق ؛ وصناعة الفخار التى يستبدلون بها صناعات السعف - كما هو الأمر فى كاليفورنيا - والأوانى الخشبية الممتازة) كذلك لها ملامحها الخاصة المميزة مثل القبعات ذات القمة المجدولة والقماش المصنوع من لحاء أشجار الشربين المندوف . وهذا كله يوحى بأن النمو والتطور فى هذه المنطقة الغنية بطبيعتها كانا عملية مستقلة بدرجة أكبر مما حدث فى كاليفورنيا نفسها ، وإن كانت تشير فى العادة إلى وجود بعض صلات محدثة مع العالم القديم يغلب على الظن أنها تمت عن طريق الجزر الألوسية . وعلى أية حال فإن عمليات الكشف والتنقيب لم تثبت أن هذه الثقافة كانت موغلة فى القدم .

وتمتاز الحياة الاجتماعية عند قبائل الساحل الشمالى الغربى ببعض النواحى الغريبة أيضا . فقد كان لديهم نسق طبقى قوى ونظام شبه إقطاعى يرتكز على بعض العائلات التى تحمل ألقابا معينة وتتخذ لها « شارات » تعلقها على النصب الطوطمية (وكلمة « طوطم » لا تصلح هنا تماماً) . وكان رؤساء هذه (الأسر) أقرب إلى النبلاء منهم إلى الزعماء الحقيقيين ، كما كانت تنضوى تحت رياستهم عائلات العامة والعبيد الذين يلتفون بهم ويوالونهم . وكان النسق الاجتماعى يحقق وظائفه - وبخاصة فى وسط المنطقة - عن طريق نظام البوتلاتش Potlatch الشهير على ما كان عليه الأمر فى الطرف الآخر من المحيط الهادى . والبوتلاتش حفل شعائرى يقيمه شخص مهم من ذوى المكانة فى المجتمع لتمجيد إحدى المناسبات التى لها أهمية خاصة بالنسبة للمجتمع ثم يتبادل مع غيره الهدايا أثناء ذلك . وقد كانت البوتلاتش تهدف - مثل قنص الرءوس فى جنوب شرقى آسيا - إلى إعلان تلك الأحداث وتبريرها حتى لا تمر كغيرها من الأحداث العادية .

فقد كان الرجل مثلا يقيم حفلا لمناسبة مولد طفل جديد له أو تسميته ، أو لمناسبة تقلده هو لقبا من ألقاب التشريف أو اتخاذه اسماً جديداً لنفسه أو لحدوث حالة وفاة . وفى أثناء الحفل يهدى ضيوفه بعض الأغطية الثمينة على زعم أن ذلك الحادث خليق بأن ينسى أو يمردون أن ينتبه إليه أحد إن لم يقم ذلك الحفل ، كما أن للهدية مغزى خاصاً ، إذ يتحتم ردها إلى صاحبها مع بعض الفوائد . وكان الشبان يحصلون على قروض من الأغطية بفوائد مخفضة (عشرة فى المائة مثلا) ثم يقرضونها لغيرهم لأجل قصير وبفائدة أعلى ، وبذلك كانوا يتمكنون من تكوين رأسمال خاص بهم . كذلك كان الرجل «يشترى» زوجته بإقامة حفل بوتلاتش لأبيها الذى كان يقدم ابنته فى مقابل ذلك . ولكى يتمكن الزوج من الاحتفاظ بزوجته كان يتعين عليه أن يجعل حماه مدينا له دائماً(١) . ولم يكن بالناس حاجة إلى تسجيل وتدوين كل هذه المسائل لأن البوتلاتش — كالكولا — كانت تشغل أكبر جانب فى حياتهم ، كما كان كل شخص يحرص أشد الحرص على تسوية حسابه .

ولكن ذروة النسق كله كانت تتمثل فى تبادل الهدايا بين النبلاء . وإذا كان العطاء فى نظام الكولا الميلانيزية يضفى على صاحبه شيئاً من بريق المجد فإن العملية كلها كانت تحكمها النوايا الطيبة والصداقة بين الطرفين . أما فى البوتلاتش فإن الرجل النبيل الغنى — ويساعده فى ذلك أتباعه — كان يجزل العطاء على أمل أن يعجز غريمه عن مقابلة التحدى ، فيهوى بذلك إلى المذلة والخزى . ولم تكن الولائم والحفلات سوى معارك يتراشق فيها

(١) — بقول آخر أبسط وأوضح ، كانت هدية البوتلاتش تعتبر كبديل للزوجة حتى إذا وقع طلاق أو انفصال كانت الزوجة تعود لأهلها الذين يردون الهدايا للزوج . ومادام الرجل يحفظ عليه زوجته تظل الهدية فى يد الأب الذى يعتبر مدينا للزوج بذلك ، لأن العادة أن يسدد دين البوتلاتش فى شكل أغطية — المترجم .

الخصوم بالهدايا وتنتهى بخلق هوة سحيقة بين الكبرياء والعار بشكل لا نكاد نستطيع تصوره . ففيها كانت تقدم أكوام من الأغطية والفراء ، بل ومن النحاس الأحمر — وهو أغلى ثمنا وأكثر قيمة — فى شكل ألواح مزخرفة من المعدن الخام المطروق على شكل T ، وكان لكل قطعة منها اسم خاص وقيمة تقليدية عالية مثل العقود والأساور فى نظام الكولا .

وكانت هذه النفائس تقدم كهدايا أو تحطم فى ازدراء أو يقذف بها فى الماء أمام ناظرى النبيل الغريم لمعرفة كيف يستجيب للتحدى وقد يرد على ذلك بأن يشعل النار فى أحد قواربه أو يقتل عددا من عبيده أو يرمى ما يملكه من قطع النحاس ؛ فإذا كان الرد على ذلك أيضا هو حرق مزيد من القوارب أو الزيت أو حتى إشعال النار فى البيت كله . فلن يكون لذلك أهمية ، بل لابد لذلك النبيل الذى يوجه إليه — ولجماعته — الهجوم ألا يلقوا بالا لذلك الحريق الصغير ، حتى ولو نالت ألسنة اللهب من ملابسهم . وقد كانت هذه المعارك والمبارزات تصاغ فى شكل أغنيات أو أقاصيص تسجل المجد الخالد للفائز ، فلا يجد الخاسر المهزوم مفرا من الانتحار .

فهذا إذن مجتمع لم يكن يعرف الطعام المستنبت ، ومع ذلك كان بناؤه يقوم على أساس التنظيم الطبقى العشائرى ، كما كان يمارس نظاما معقدا يتمثل فى البوتلانش التى كانت تشبه اللوبولا أو الكولا من حيث إنها تقف بجهود الأسرة وثروتها على المحافظة على سمعتها ومكانتها ، كما يتمثلان فى رئيسها . أما فى ميدان الدين فكان الشامان هو الشخصية المسيطرة وإن كان للجماعات السرية أهمية كبيرة . وكانت ترأس هذه الجمعيات أرواح حيوانية تشبه الطواطم ، ولم يكن يسمح بانضمام المريد إليها إلا بعد أن يمضى فترة معينة وحده فى الغابة يمتنع خلالها عن الطعام ويقوم بزيارة مثوى الأرواح ؛ ثم تقام بعد ذلك بعض الرقصات التمثيلية لكى تغريه بالعودة ، وفيها كان الراقصون يضعون على وجوههم أقنعة تمثل الروح الحيوانى الذى سيرتبط

المراد به والذى سوف ينقش بعد ذلك على النصب الطوطمية وعلى (شارات) النبالة الخاصة به والواقع أن فن هنود الساحل الشمالى تتمثل بأقوى وأروع صورها فى صنع الأقنعة الخاصة بهذه الطقوس .

الإسكيمو المدهشون

ويقدم لنا الإسكيمو مثالا ثانيا للثقافات الميزوليثية العظيمة التى تقوم على القنص . ويتكلم الإسكيمو لغة واحدة ويشغلون كل المنطقة الممتدة من ساحل آلاسكا الجنوبى حول المنطقة القطبية الأمريكية إلى جرينلند ولبرادور ، كما تعيش جماعات صغيرة منهم على الشاطىء السيبيرى . فهم يمثلون إذن (مع القبائل الألوسية التى تشبههم شبها قويا) كل تلك المنطقة من آسيا التى مر الهنود بها واستوطنوها لبعض الوقت . وليس الإسكيمو شعبا مستقرا كهنود الساحل الباسفيكى ، وإنما هم صيادون بمعنى الكلمة ، ولا مندوحة لهم بذلك عن أن يقوموا بهجرات موسمية قد تتخذ شكل جماعات صغيرة جدا فى بعض الأحيان . ولكن هذا لم يمنع من وجود بعض أماكن مزدحمة بالسكان مثل بلدة ايبيوتاك Ipiutak القديمة (وكانت تضم حوالى سبعمائة بيت) قرب Point Hope بآلاسكا حيث كانت حيوانات الصيد تتوافر بكثرة .

ويصطاد الإسكيمو وعول الكاريبو والغزلان والبط والأوز فى الصيف ، أما الثعالب والذئاب والدببة القطبية فإنها توجد باستمرار ، ولكنهم يعتمدون فى الحقيقة على ثدييات البحر كالحيتان وفرس البحر ، وأهم من هذا كله سمك الصيل ولعل الطابع الحقيقى لثقافتهم هو أنها تمكنهم من الحياة والتغلب على برد الشتاء وعلى الرغم من أن ثقافة الإسكيمو ثقافة ميزوليثية فإنها تسمو على ثقافات غيرهم من الجماعات التى تعيش على الجمع والقنص ، وتكشف عن قدر كبير من المهارة والذكاء ، كما تتميز عنها بقدرتها على تكييف الإنسان لتلك البيئة القاسية العنيفة ، وذلك بفضل الاختراعات الكثيرة

التي توصلت إليها . ولقد واجه الإسكيمو بالإضافة إلى البرد القاسى مشكلة فقدان الخشب تقريبا إلا من الأخشاب التى يحملها التيار إليهم .

ويعيش الإسكيمو فى مختلف الجهات فى بيوت من الحجارة أو من عظام الحوت أو من الخشب — إذا وجد — ثم تغطى بالطين ولكنهم يقيمون فى الخيام أثناء الصيف . ولقد سمعنا جميعا عن الإجلون igloo أو البيت الجليدى فى المنطقة القطبية الوسطى . والواقع أنه مأوى أفضل بكثير مما قد يبدو لنا ، إذ يحمى مدخله ممر خاص يدرأ عنه الريح ، بينما يبطن البيت ذاته من الداخل بالجلود التى تنشر فرق أشرطة من الجلد تمر خلال الجدران الجليدية بحيث يصبح البيت من الناحية العملية أقرب إلى الخيمة يحيط بها غلاف يعزلها تماما عن الخارج . وقد يكون الهواء فى الداخل رطبا ثقيلا ولكن ليس شديد البرودة . ويمتنع الإسكيمو عن إشعال النيران حتى لاتذيب البيت كله وتهدمه . وعلى أية حال فالخشب غير متوافر عندهم ، ولكنهم يحصلون على ما قد يحتاجون إليه للإضاءة والتدفئة والطبخ بإشعال ذبالة من الطحالب تغمس فى الزيت وتوضع فى إناء من الحجر الصابونى . وتعتبر الرطوبة من أخطر الأمور بالنسبة لهم ؛ فلو ارتدى المرء ملابس الخروج أثناء وجوده داخل البيت فإنها تتشبع بالرطوبة التى يحملها الهواء فى الداخل ثم تتجمد تماما حين يخرج مرة أخرى .

ويصنع الإسكيمو ملابسهم من الجلود والفراء بالطبع ، كما يلبسون فى الجو البارد رداءين بحيث يتجه الفراء فى الرداء الداخلى نحو الجسم ، بينما هو يتجه فى الرداء الخارجى إلى الخارج . وليست هذه ملابس بدائية بحال ، لأن الاسكيمو يحذقون فن التفصيل والحياكة إلى حد بعيد ، كما أنهم يزينون ملابسهم بقطع من الفراء ذات ألوان مختلفة . وتبلغ بهم الدقة فى ذلك أن الماء لا ينفذ من موضع الخياطة . وهذا هو ما يحدث حين يصنعون من أحشاء أمعاء الصيل ملابس واقية من الماء تكون أشبه بالجلد المشمع الذى يستعمله

البحارة . ويستخدمون هذه الملابس فى أثناء المطر للوقاية من المياه التى قد تصل إلى الكياك[1] Kayak أثناء التجديف . ومع هذه الملابس المصنوعة من جلد الكاريبو أو الصيل يستخدمون أحذية طويلة كما يلبسون الباركا[2] Parka التى قد تلحق بها قلنسوة تستخدم لتغطية الرأس أو لحمل الأطفال الصغار بحسب الحال . وربما كانت الباركا ترجع إلى العصور الباليوليثية . وعلى ذلك فالوجه هو وحده الذى لا يجد وقاية كافية ، وإن كانوا يستخدمون شرائح رفيعة من الخشب تقى أعينهم العمى بفعل بريق الجليد .

ويستخدم الإسكيمو القسى وقاذفات الحراب لقنص الحيوان كما يصطادون الطيور بقذف البولاس (انظر الفصل السادس) . ولكن السلاح المحبوب عندهم هو الهاربون الذى يتألف من عدة أجزاء ، وتصنع القصبة الرئيسية من الخشب الثمين وتنتهى بوصلة تلحق بها قصبة أخرى أمامية من العظام ويثبت فى طرفها رأس الهاربون ذاته . وتشد أجزاء الهاربون إحداها إلى الأخرى بشريط أو حزام من الجلد إلى أن يغوص رأس الهاربون فى جسم الحيوان فتنفصل الوصلة من القصبة الأمامية ، وبذلك لا تتحطم القصبة الخشبية أثناء صراع الحيوان ، كما ينحل الحزام أو الشريط الطويل المصنوع من الجلد غير المدبوغ والذى يربط إليه رأس الهاربون ، وبذلك تنفصل السن المدببة نفسها . ولما كان للهاربون كلاب أو خطاف على أحد جانبيه فقط فإنه يدور ويغوص فى لحم الفريسة حين يشد الحبل ، وبذلك يشتبك فى جسم الحيوان بقوة .

ويخرج الصياد فى الشتاء للصيد على الجليد ، فيبحث مع كلبه عن الفتحات التى تتخلل الجليد (وغالباً ما تكون مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج) والتى

(١) — الكياك : زورق يصنعه الإسكيمو من جلد الصيل . — المترجم

(٢) — الباركا : نوع من الملابس يشيع استخدامه فى آلاسكا وسيبيريا . — المترجم

لا بد أن يبرز منها سمك الصيل على فترات متقاربة متلاحقة لكى يتنفس . فإذا عثر الصياد على إحدى هذه الفتحات أدرك أن أحد سمك الصيل يوجد بالقرب منها تحت الجليد ، لأن الفتحة خليقة بأن تتجمد بسرعة إن لم يستخدمها الصيل باستمرار وانتظام . وكل ما عليه حينئذ هو أن ينتظر حتى يقذف الصيل المسكين بالهاربون ثم يسحبه بعد أن يكون قد أنهك قواه وهو يحاول التخلص من الهاربون . أما فى الصيف فإنهم يقذفون الصيل وفرس البحر بالهاربون من الكياك ، وبعد أن تشبك الخطاف فى الفريسة يكتفى الصياد بأن يتبعها ليمنعها من الهرب إلى أن تستنزف قواها ، ويستخدم فى ذلك عوامات منفوخة من جلود الصيل وجرارات تشبه الدفوف وتربط إلى حبل الهاربون .

وزورق الكياك ذاته قطعة رائعة من فن البناء والتكوين ، فهو يتألف من هيكل خفيف من الخشب والعظام ، ثم يكسى تماما بالجلد فى إحكام بحيث لا يبقى منه إلا فتحة بحجم وسط الشخص الذى سوف يتولى التجديف ، وبذلك يستطيع الإسكيمو أن ينقلب مع الزورق ثم يعدله فى الماء بوساطة المجداف دون أن يمتلىء الزورق ذاته بالماء . وليس فى هـــذا أدنى مشقة أو تعويق . والواقع أنها طريقة عملية لإنقاذ الحياة ، ولذا فإنهم جميعا يتقنونها . كذلك يستخدم الإسكيمو الزحافات التى تجرها الكلاب . وتعتبر قيادة الكلاب فى هذه الحالة مثلا آخر على مهارة الإسكيمو وبراعتهم وبخاصة على مدى إمكانهم المعيشة على المواد القليلة التى فى متناولهم ويمكن أن نضيف إلى ذلك أيضا أفخاخهم الشيطانية رغم ما فيها من بساطة . ويكفى أن نشير هنا إلى الفخ المعروف باسم « لقمة الذئب » ، وهو عبارة عن شريحة من عظام الحوت تشحذ من الطرفين ثم تثنى أو تلف وتثبت فى قطعة من اللحم المتجمد وتلقى على الأرض . ويأتى الذئب الجائع النهم فيزدردها دون أن يلوكها فى فمه أو يمضغها . ويلين اللحم فى جوفه ، فتسترد قطعة العظام شكلها الأصلى وبذلك يطعن الذئب نفسه من داخل .

ومع ذلك فللإسكيمو متاعبهم كما أن لهم شاماناتهم ، إلا أن لهم قدرة هائلة على الاعتماد على النفس وعلى التكيف فعلى الرغم من أنهم يعيشون على القنص فهم لا يستطيعون ولا شك أن ينقلوا معهم كل ممتلكاتهم حيثما ذهبوا كما يفعل البوشمن . والواقع أنهم استطاعوا أن يطوروا ثقافتهم إلى أقصى ما تسمح به بيئتهم الخاصة وربما كانت الخطوة التقدمية الوحيدة التي قد يستطيعون الإقدام عليها الآن هي أن يتجهوا نحو الجنوب ، ولكن أسلوب حياتهم نفسه يأبى عليهم ذلك .

وما زلنا نجهل أصل الإسكيمو ، ولكن المؤكد أنهم لم يفدوا إلى أمريكا منذ عهد سحيق جداً . وقد يمكن تتبع تاريخ ثقافتهم فى صورتها العامة (التى قد تخضع بعض مظاهرها لشيء من التغيرات خلال السنوات الألفين الماضية ، أى إلى أوائل العهد المسيحى . ولقد كشفت ثقافتهم منذ أيامها الأولى عن أسلوب خاص فى الفن تظهر فيه بعض التأثيرات الصينية الكلاسيكية ، كما أنها كانت تحتاج إلى الحديد الذى كانوا يجلبونه من الصين أيضاً لاستخدامه فى صناعات العاج (وقد استخدم الإسكيمو المحدثون النحاس الخام والحديد النيزكى الخام) . وربما كان الإسكيمو هم الشعب الوحيد من بين سكان أمريكا الذى ينفرد ببعض الملامح الوجهية التى تنتمى إلى الطراز السائد بين شعوب سيبيريا المغولية ذات الوجه المسطح رغم كل التغيرات التى طرأت عليه وهذا أيضاً يعزز الرأى القائل بأن الإسكيمو وفدوا إلى أمريكا فى عهد حديث . ومن هذه الناحية تتميز هجرتهم عن الهجرات الأخرى التى سبقتها ، على الرغم من أنهم أثروا ثقافيا فى بعض الهنود وبخاصة سكان الساحل الشمالى الغربى .

والواقع أن كثيرا من ملامح ثقافة الإسكيمو يوجد على طول الشاطىء الشمالى لسيبيريا . ولعل أفضل تفسير لما يمكن تسميته « بظاهرة الإسكيمو » على العموم ، هو أنها تبلورت كثقافة ساحلية واضحة من بعض العناصر

الميزوليثية التي وجدت في زمن متأخر على الساحل القطبي بشرقي آسيا ، وأنها عاشت في عزلة عن الثقافات الراقية في آسيا الوسطى والشرق الأقصى ، ولكنها ازدهرت في منطقة بحر بيرنج وأحرزت تقدما هائلا في أمريكا .

الأحراج : مركز الثقافة في أمريكا الشمالية

وعلى ذلك فمن الصعب أن نزعم أن نمط الحياة الذى كان يسود حتى عهد قريب بين الإسكيمو وبين هنود القسم الشمالي من المحيط الهادى نمط موغل في القدم ، ولكن يحتمل أن النمط الكاليفورني كان قديما جدا ، إذ تكثر فيه البقايا القديمة التي تنتمى في الأغلب إلى ثقافة تقوم على جمع البذور كما هي الحال بين نباش الكوتشيز في الجنوب الغربي » . وأيا ما يكن تاريخ الأطراف الغربية والشمالية للقارة ، فقد ظهر على ما ذكرنا من قبل نوع ثالث من الثقافة الميزوليثية في كثير من جهات الأحراج الداخلية في أمريكا الشمالية . وقد ظهرت هذه الثقافة في تاريخ أقدم من هذا بكثير ، وذلك بعد قدوم الجماعات التي كانت تعيش على قنص الحيوانات الكبيرة ، ولكن قبل عام ٢٥٠٠ ق . م . وتدين هذه الثقافة ببعض الأشياء لآسيا وإن كنا لا نعرف مدى هذا الدين . ومن الجائز أنها استمدت بعض العناصر من نفس الثقافة العامة التي كانت تسود الغابات الشمالية والتي أدت إلى ظهور الإسكيمو فيما بعد ، إذ تحتوى بقاياها على بعض السمات التي تشبه سمات ثقافة الإسكيمو . ولا بد أنها كانت البذرة الأولى التي انبثق منها كثير من ملامح الحياة عند الهنود المحدثين في أمريكا وفي كندا بنوع خاص .

وقد استطاع الناس في ذلك الحين أو بعده بقليل أن يصنعوا كثيرا من الآلات الحجرية المصقولة كالمقاشر والمقاور التي تستخدم في حفر الخشب وكذلك الأحجار المزخرفة الجميلة وأشياء أخرى غريبة (كالأثقال والسونكى) التي كان بعضها يستخدم لحفظ توازن قاذفة الحراب ، كما صنعوا القوس

التأثيرات التى يظن أنها وفدت من آسيا إلى أمريكا الشمالية ، والتأثيرات المضادة التى ظهرت فيما بعد من الثقافة النيوليثية الأصيلة فى الجنوب

الحجرية المسنونة التى كانوا يحفرون حول منتصفها حزوزا يثبتون فيها يد الفأس . كذلك كانت لديهم تشكيلة كبيرة من السكاكين والمكاشط والمدببات الحجرية والخطاطيف والإبر والمثاقيب التى كانت تصنع من العظام . وكانوا يخيطون ملابسهم من الجلود ، وكان طعامهم يحتوى على كثير من الخضراوات البرية كما كانوا يطحنون السكرن وغيره من الحبوب مثل الرجيد ragweed وحشيشة الخنزير pigweed وغيرهما على رحى من الحجارة[1]. والظاهر أنه كان لهم ولع خاص بطعام البحر لأنهم خلفوا وراءهم أكواما كبيرة من أصداف المحار على السواحل والأنهار بطول الطريق حتى فلوريدا ولويزيانا . وقد تمكن هؤلاء الهنود قبل عام ٢٠٠٠ ق . م . من إقامة شبكة عجيبة من السدود النهرية لصيد السمك حين ترتفع مياه نهر تشارلس وقت المد ، ولا تزال بقايا هذه السدود موجودة على عمق بعيد فى الغرين تحت خليج باى عند بوسطن حيث تظهر على هيئة عدد كبير من الحياض التى

(١) تصرف — المترجم .

تحتوى على ما يقرب من ٦٥,٠٠٠ وتقع فى مساحة لا تزيد على الفدانين .

وبمرور الزمن دخلت عناصر أخرى كثيرة إلى هذه الثقافة العامة التى عرفت فيما بعد بثقافة الأحراج . ومن أهم ما أضيف إليها صناعة الفخار والتى بدأت بداية ساذجة ثم ارتقت بعض الشىء . وتمتاز تلك الأوانى الفخارية فى العادة قاعدتها المخروطية أو المسحوبة (بدلا من أن تكون مسطحة) وبشكلها العمودى المستقيم على العموم ، وكانت جدرانها تزين ببعض الزخارف الخشنة التى كانت ترسم بتمرير حبل أو وتر عليها . ويمكن الاستدلال من طبيعة هذه الأوانى الفخارية التى تختلف عن صناعة الفخار فى المنطقة الوسطى من الأمريكتين وكذلك من العصر الذى ترجع إليه ، والأماكن التى وجدت فيها على أنها وفدت قبل عام ٣٠٠٠ ق.م. من آسيا حيث كانت صناعة الفخار تتبع أسلوبا مماثلا فى زخرفة الأوانى ، وذلك فى كثير من الجهات وبخاصة فى شرق سيبيريا وهذا معناه أن صناعة الفخار كانت معروفة هنا (بل وفى بعض المجتمعات الميزوليثية الأخرى) أى بين شعوب لم تكن تعرف الزراعة على الإطلاق ، ولكنها أدركت مع ذلك أن الفخار يصلح لطهو الحبوب البرية .

وقد استمرت هذه الإضافات إلى ثقافة الأحراج فى الشرق . ولكن النمط ذاته تغير بشكل ملحوظ بعد أن بدأت هذه الإضافات تفد فى الأغلب من الجنوب وليس من آسيا أو تنبع من الناس أنفسهم . وأول ما أدخل من هذه الناحية هو الزراعة التى تتمثل فى زراعة القرع العسلى والاسكواش والحنطة . وكان هذا هو أول ما يبشر بوصول المرحلة النيوليثية من موطنها الأمريكى فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ، وكان ذلك قبل عام ١٠٠٠ ق . م . ومن الأشياء الجديدة أيضاً التى ظهرت حوالى ذلك الوقت وقد تكون صاحبت الزراعة (وإن كان يحتمل أنها وفدت من آسيا) فن بناء الربى من الطين للدفن . والواقع أن الاهتمام بالموتى كان ظاهرة قديمة

فى ثقافة الأحراج . فقد كان الناس منذ زمن طويل يدفنون مع الميت ممتلكاته ، كما كان لهم ولع شديد بوضع كميات من المغرة الحمراء بجوارها أو رشها فوق محتويات القبر .

وقد بدأ الموتى فى ذلك الحين يلقون اهتماما خاصا نتيجة لفكرة جديدة قد تكون وفدت من الخارج أو نشأت محليا فى شرقى الولايات المتحدة . فقد كان الناس ينزعون اللحم أحيانا عن العظام التى كانت تدفن وحدها بعد ذلك ، كما كانوا يحرقون الجثة فى أحيان أخرى ، وفى كلتا الحالتين كان الدفن يتم تحت ربوة . فهنا إذن نجد « بناة الربى » الذين كان يحوطهم الغموض فى وقت من الأوقات والذين كان بعض ذوى الخيال يظنون أنهم عاشوا « قبل الهنود » . وكانت الربى فى أول الأمر مخروطية وبسيطة ، ثم ظهرت بعد ذلك أنواع أخرى عديدة تعتمد على الصنعة ، كأن تبنى على شكل تمثال كما هى الحال فى ويسكونسن[1] .
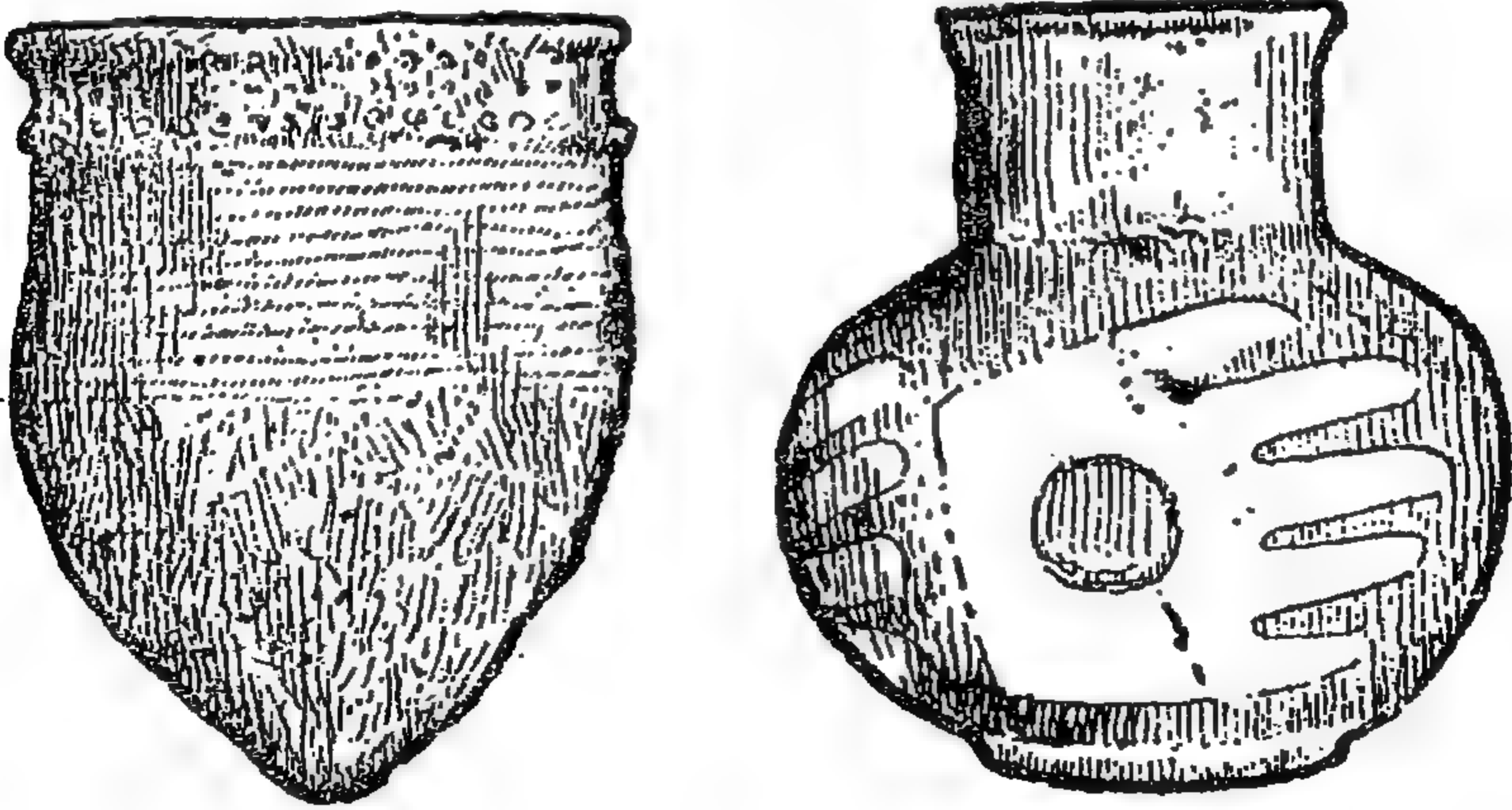
إلى اليسار وعاء فخارى من طراز الأحراج له سطح خشن ، وإلى اليمين وعاء فخارى آخر من طراز المسيسبى له سطح مصقول ومدهون .

وقد بلغت هذه العبادة ذروتها فى ثقافتى هوبول Hopewell وأدينا Adena

(١) — بشىء من التصرف . المترجم

فى المنطقة الوسطى من غرب القارة وبخاصة وادى أوهايو حيث كانت تعبر أصدق تعبير عن قدر هائل من الطاقة الفنية . لدرجة أنه كان من الصعب على بعض العلماء أن يتصوروا أنها نشأت من النمط العام السائد فى الأحراج . وقد كان الناس يصنعون بعض التحف الفنية الرائعة من النحاس والفضة والميكا والسبج ولآلىء النهر لكى تدفن فى القبور ، كما كانوا ينحتون التماثيل الصغيرة من الحجارة وكذلك غلايين تدخين الطباق المزينة ، وكلها تكشف عن مستوى رفيع جدا من الفن . ولم تكن الربا ذاتها أقل روعة من ذلك فى حجمها وفى طبيعتها . فرابية سيب Seip مثلا — وهى ليست أكبر الربا — احتاجت لملء حوالى عشرين ألف عربة من التراب نقلها الناس بالمقاطف . ومن الواضح أنهم كانوا يقيمون شعائر خاصة داخل تلك الربا ، كما تدل على ذلك بقايا الأدوات الخشبية التى وجدت على الأرض ، وكذلك الحفر التى كانت تستخدم فى حرق الجثث . وكانوا يتبعون عدة طرق للدفن مثل الدفن العادى وإحراق الجثة ودفن العظام وحدها ، وأحيانا الدفن فى سراديب من كتل الخشب . وكانوا يلجأون فى أحيان أخرى إلى طريقة غريبة للغاية ، فقد عثر فى رابية كيفر Kiefer مثلا على اثنتى عشرة جثة دفنت فى وضع يمثل أشخاصا يسبحون على شكل نجمة ، بينما دفنت ثلاث جثث أخرى وقد وضعت رءوسها بين سيقانها .

وتدل النفائس والكنوز (وهى تؤلف ثروة طائلة بالنسبة لمثل هذه الثقافة) وأعمال البناء وانتشار الثقافة ذاتها والتجارة اللازمة لجلب اللآلىء من النهر والمحار من الخليج من منطقة البحيرات العظمى والسبج من جبال روكى ، على أن المنطقة الشرقية من الولايات المتحدة مرت بفترة من الهدوء استتب فيها التنظيم السياسى ، ولكن لم يلبث ذلك كله أن اندثر ودخلت المنطقة كلها فى مرحلة خمول مؤقت .

أما فى منطقة السهول العظمى حيث ظهرت الزراعة البسيطة نتيجة

للتأثيرات الوافدة من هوبول فقد ظهرت لبعض القبائل أن الحياة شبه البدوية التى تعتمد على قنص الجاموس تحقق لهم رخاء أكبر من ممارسة الفلاحة البسيطة الساذجة ، فارتدوا بذلك إلى حياة الماضى . والواقع أن حياة هؤلاء الصيادين ازدهرت ازدهارا كبيرا بعد أن حصلوا على الخيول وتعلموا فن الركوب من الإسبان . وقد أصبحوا هم حكام تلك السهول وأخذوا يعتمدون على الجاموس فى معيشتهم بعد أن طرحوا الزراعة جانبا ، كما بدءوا يمارسون بعض حياة الحرب التى يعرفها البدو الرحل فى أواسط آسيا ، وبذلك أصبحوا يؤلفون فصلا عنيفا ملتهبا فى تاريخ أمريكا .

أما فى منطقة الأحراج الواقعة إلى الشرق ، فقد ظهر بعض الاتجاه إلى تجديد القديم وترميمه نتيجة لزحف نوع جديد من الثقافة من الجنوب ، وامتزاجه بالنمط القديم أو الحلول محله . ويتمثل ذلك فى منطقة البحيرات العظمى بوجه خاص . وقد جاء هذا الزحف من المناطق المدارية التى ظهرت فيها بوادر التقدم الأمريكى الأصيل . ولكن أصل هذا التقدم والطريقة التى انتشر بها يؤلفان قصة أخرى مختلفة عن تلك التى كنا نحكيها الآن .

نشأة الحضارة بين هنود أمريكا

وما نعرفه عن التاريخ القديم للإنسان فى أمريكا الجنوبية أقل بكثير جداً مما نعرفه عن أمريكا الشمالية. ولكن من الواضح أن قانصى الحيوانات وصلوا هناك أثناء حركة استيطان الأمريكتين على العموم، وأنهم استكشفوا إمكانيات الحياة فيها وثمة ما يدل فى كهف بالى إيك Palli Aike فى أقصى الجنوب من شيلى على أن جماعات الصيادين قاموا بسلسلة طويلة من عمليات الاستيطان بدأت أولاها منذ حوالى تسعة آلاف سنة واستمرت حتى مجىء قبائل الأونا onas الحاليين ، فى الوقت الذى كان زملاؤهم فى بعض المناطق الجنوبية الأخرى وكذلك فى القسم الجنوبى من أواسط البرازيل يعيشون عيشة البداوة البدائية دون أن يفيدوا شيئاً من مبتكرات الفترة الميزوليثية التى وفدت من آسيا ، أو حتى من الثروة الطبيعية فى كاليفورنيا والشمال الغربى لساحل المحيط الهادى .

بيد أن عمليات الكشف عن إمكانيات الحياة جاءت بنتائج طيبة فى المناطق الأخرى . فقد بدأ الناس يستأنسون النباتات البرية خلال ما يمكن تسميته بفترة الاستكشاف النيوليثى فى أمريكا ، لدرجة أنهم كانوا يزرعون حوالى مائة نوع مختلفة من الطعام قبل مجىء الإسبان وإذا كان الأوروبيون عملوا فيما بعد على نشر أفكارهم بسخاء فى بقية أنحاء العالم فيجب أن نذكر ما أخذوه من الهنود عن طريق الانتشار مثل الحنطة والبطاطس والبطاطا والفول والطماطم والطباق والشيكولاته والفانيليا والفول السودانى والأناناس والمطاط ، علاوة على بعض المأكولات التى يقدرها الخبراء فى فن الطعام مثل الأفوكادو والبباز والخرشوف والكاساڤا والشطة واللبان ، وكذلك بعض المكيفات مثـــل الكوكا وعرق الذهب ipecac والكورارى

والكسكارا (والكينين أيضا من أصل أمريكي ولكن الهنود كانوا يجهلونه ولم يستخدموه إلا بعد أن نقل الأوروبيون الملاريا إليهم) . وهذه هى الأشياء التى أصبحت مهمة بالنسبة لنا فقط . فقد كانت لديهم أشياء أخرى كثيرة جداً لم نأخذها عنهم .

وتبين لنا هذه القائمة الطويلة مدى كثرة أنواع النباتات التى أمكن استنباتها وبخاصة فى أمريكا الجنوبية ، مما تدل على أن فكرة الاستنبات كانت معروفة تماما لحقبة طويلة من الزمن ، وذلك لأن بعض هذه الأنواع ، وبخاصة الحنطة ، لم تؤخذ وتستنبت ببساطة ، بل مرت بعملية تحسين طويلة حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن . وقد أجريت دراسات علمية كثيرة حول أصل وتاريخ هذه النباتات المختلفة ، ولكننا لا نعرف الآن أين كان المركز الأول أو الأساسى للاستنبات .

والمعتقد أن الأطعمة الرئيسية كالحنطة والبطاطس ، بل ومعظم الأطعمة الأخرى ، نشأت أول ما نشأت فى أمريكا الجنوبية ، وإن كان هناك احتمال بأن القمح ينتسب إلى أمريكا الوسطى . والواقع أنه من الصعب أن نقول إن منطقة معينة بالذات كانت بمثابة « المعمل » الذى ظهرت فيه كل هذه الأنواع واحداً إثر الآخر ، ثم أضيفت إلى قائمة الطعام ؛ بل الأمر على العكس من ذلك تماما . بمعنى انه لو كانت إحدى هذه المناطق سبقت غيرها فى أحد الأنواع فلا بد أن المناطق الأخرى كانت بمثابة مراكز لاكتشافات وانتقالات أخرى . ومن الجائز أن تكون عملية الاستنبات عرفت فى الأصل فى أكثر من مكان واحد نظراً لكثرة النباتات وتوزعها على نطاق واسع ، بل يحتمل أيضاً أن يكون استنبات بعض الأنواع كالطماطم والاسكواش تم على انفراد فى كل من أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية .

وأخيراً ، فإن ثمة بعض الدلائل — التى تتفاوت فى القوة — على أن بعض النباتات كالقطن والقرع العسلى والبطاطا وجوز الهند كانت تزرع

فى الأمريكتين وفى بعض أنحاء العالم القديم (فى كل المنطقة بين بولينيزيا والهند) على السواء قبل ظهور كولومبس . وهذا يعنى أنها انتقلت من أحد نصفى الكرة الأرضية إلى النصف الآخر فى عصر سابق عليه . وهذه مسألة من أطرف المسائل وأكثرها إثارة للجدل ولكنها لا تكفى للتدليل بشكل قاطع على أن فكرة الاستنبات ذاتها وصلت إلى الهنود من الخارج ، وخاصة إذا نظرنا إلى المسألة كلها كوحدة متماسكة وأخذنا فى الاعتبار وجهة نظر الأهالى إليها . وحتى لو صح أن هذه النباتات عبرت المحيط الهادى ، فمن الجائز جداً أن تكون انتقلت من أمريكا إلى آسيا لا العكس . ولكن من الأفضل أن نترك المسألة عند هذا الحد ، ويكفى أن نقول إن الهنود قاموا بسلسلة طويلة من الاكتشافات النباتية الرائعة دون أن ندخل فى التفاصيل .

تبلور الثقافة النيوليثية فى أمريكا

ولا يزال العصر الذى ظهرت فيه هذه الأحداث المبكرة يحوطه الغموض والإبهام . وقد عثر فى Huaca Prieta على ساحل بيرو على ربوة كبيرة ترجع إلى حوالى ٢٥٠٠ ق . م . على أكثر تقدير ، ويبدو أنها تكونت من النفايات التى خلفها بعض الفلاحين البسطاء الذين كانوا يقتاتون بالقرع العسلى والفول ودرنات الكاتيل ، كما كانوا يزرعون القطن . وليس من شك فى أنهم كانوا يعرفون بالفعل الزراعة المستقرة كما كانوا يصطادون السمك ، ولكن هذه النفايات لا تحتوى على أى عظام حيوانية ، ولا على أسلحة للقنص ، كما أنهم كانوا يمارسون قليلا من النسج وإن كانوا يستخدمون أيضاً الملابس المصنوعة من لحاء الشجر .

بيد أن ثمة أمرين يثيران الدهشة والغرابة : الأول هو أن الفخار

بعدلم يعرف فى تلك المنطقة قبل عام ١٢٥٠ ق . م . ، والثانى هو أن الحنطة نفسها لم تظهر إلا بعد ذلك التاريخ ، ومهما يكن من شيء فإن هذه المنطقة الساحلية لم تكن قطعاً مركزاً لنشأة الأشياء ، بل كانت بسبب ارتفاعها مجرد مستعمرة منعزلة عن الشعوب القديمة التى كانت تزرع الحنطة . والمعروف أن الحنطة لا تنبت فوق ارتفاع معين ؛ والمعروف أيضاً أنها وصلت إلى نيويورك حوالى عام ١٠٠٠ ق . م . وإلى نيومكسيكو حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . ، وهنا نجد فى كهف باتBat Cave أقدم صورة تمثل سلسلة طويلة من السنابل الدقيقة الصغيرة فى حجم خنصر اليد ، وهى تشتمل على حبوب يضم كل واحدة منها غلاف من القش بدلا من أن تضم السنبلة كلها قنابة واحدة. ولما كانت الحنطة جاءت فى الأغلب إلى نيومكسيكو عبر المكسيك فلا بد أنها ظهرت فى موطنها الجنوبى قبل ذلك التاريخ بألف سنة على الأقل .

وواضح أن هناك أشياء كثيرة ما زلنا نجهلها عن هذه المسائل . فالظاهر أن عملية استئناس النباتات كانت قد ازدهرت فى مكان ما حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م . أو بعد ذلك ؛ وإنه كان أمام الإنسان عدد كبير جداً من المحصولات يستطيع أن يختار منها ما يشاء لاستنباته ، وإن العملية ذاتها ذاعت ذيوعاً كبيراً وأدت فى النهاية إلى تغلب ثلاثة أنواع من الطعام فى ثلاث جهات : البطاطس فى جبال الأنديز Andes ، والمانيوك فى غابات الأمازون ، والحنطة فى المكسيك وأمريكا الشمالية . أما فيما يتعلق بالفخار فإن السؤال المهم هوهل يمكن أن نعزو ظهوره إلى تأثر فخار أحراج أمريكا الشمالية بفخار آسيا ؟ من الثابت أن صناعة الفخار الآسيوية وصلت أمريكا فى وقت مبكر . ولكن الفخار الذى ارتبط بالثقافة النيوليثية الأمريكية فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية يختلف عن فخار الأحراج فى كل شيء تقريباً .

ومهما يكن من شيء ، ومهما يكن من تعقد وتشابك جذور وأصول الثقافة النيوليثية الوطنية فقد طورت ثقافة متميزة وأضافت إلى ثروة الحيوانية اللاما والخنازير الغينية (وكذلك الكلب الذي يرتبط بالإنسان ارتباطاً أبدياً والذي يبدو أنه جلب من آسيا) . إذ على الرغم من كثرة النباتات في الأمريكتين فقد كانتا فقيرتين فقراً شديداً في الحيوانات المستأنسة .

وقد خطت هذه الثقافة خطوات جبارة بعد عام ١٠٠٠ ق . م . ، فلم تعد صناعة الفخار مجرد صناعة معروفة ، بل إنها بلغت درجة عالية من الدقة التي تتمثل في بيرو مثلا في الأواني المصنوعة على شكل تماثيل وصور دقيقة لطيفة كان ينقش على بعضها رسوم الأقنعة أو الخضراوات كما كان بعضها يصنع على شكل قطة . وكان هذا التصميم الفني الأخير منتشراً انتشاراً واسعاً على الساحل الشمالي لبيرو . كذلك كان النسج على النول معروفا وإن لم يكن بلغ نفس الدرجة من التقدم التي بلغها فيما بعد ، كما كانت هناك

مثال لفخار بيرو وهو عبارة عن إناء أسود منحوت يرجع إلى أحد العصور المبكرة (عصر شافين؟)

فنون أخرى كثيرة من ضمنها الشغل على الذهب . وتضم شافين Chavin عدداً من الأبنية الدينية مما يدل على وجود بعض العبادات التي كانت تجذب إليها أعداداً كبيرة من الناس كما يدل في الوقت ذاته على تعقد البناء الاجتماعي

وقد بلغ الأهالى فى ذلك الحين درجة عالية من التقدم والبراعة فى ميدان الزراعة وإن ظلوا يعتمدون بعض الشيء على صيد السمك وقنص الحيوان . وبالإضافة إلى الفنون الأساسية والنظام الدينى الذى يعرف المعابد والكهنة هناك من القرائن ما يدل على أن المجتمع كان يعرف الطبقات الاجتماعية والمنشآت العامة الكبرى والحروب المنظمة وتقديم القرابين البشرية وأخذ الأسلاب للذكرى ، كما كانت له آلهته التى تعبد فى مناطق واسعة . ومن المحتمل أن يكون هذا النوع من الثقافة الذى ينتمى إلى أحد الطرز النيوليثية المتقدمة نشأ فى منطقة الأنديز الوسطى ثم انتشر عبر كولومبيا ومنها إلى المكسيك وأنه كان بمثابة الأساس المشترك فى هذه المنطقة التى تطورت منها الحضارات التالية .

الفلاحة على ضفاف الأمازون وربو جرانرى والمسيسبى

ومن الجائز أيضا أن هذه المنطقة كانت هى النبع الذى انسابت منه إلى المناطق الأخرى ثقافة أخرى أرقى كانت تخضع لبعض التغير فى انتقالها من منطقة لمنطقة . وقد وصلت هذه الثقافة مكتملة النضج والنمو إلى الشاطىء الشمالى لأمريكا الجنوبية ثم اتجهت بعد ذلك نحو جزر البحر الكاريبى حيث ساعدت على زيادة السكان فى تلك الجهات زيادة كبيرة وضمتها بذلك إلى المنطقة العامة التى ظهرت فيها الثقافة الزراعية المبكرة فى أمريكا . أما فى بقية المناطق فقد تدهورت الثقافة بعض الشيء ولكنها واصلت زحفها بطول الساحل الأطلنطى لأمريكا الجنوبية ، ثم دارت على عقبيها متجهة نحو حوض الأمازون وبذلك توغلت فى قلب الأدغال الاستوائية فى القارة . ولست أعنى بذلك أن الثقافة كان يتم نقلها بشكل متعمد مقصود ، ولكننى أريد فقط أن أقول إنها كانت تنتشر . ومن المؤكد أن تحركات القبائل ساعدت على ذلك الانتشار ، كما أنها كانت تكيف نفسها مع المنطقة التى تنتقل إليها . ومن المحتمل أن الثقافة لم تكن تنتقل كوحدة متماسكة ومع ذلك فإن ملامحها

الأساسية العديدة كانت توجد فى كل مكان . والظاهر أيضا أنها سلكت فى اتجاهها نحو الأمازون الطريق الطويل بدلا من أن تنحدر ببساطة من السفح الشرقى للجبال .

وقد خضعت هذه الثقافة لكثير من التبسيط فى منطقة الغابات . فهنود الأمازون يعيشون فى قرى متوسطة الحجم ويستخدمون القوارب فى تنقلاتهم ويعرفون زراعة الحنطة واليام والبطاطا وغيرها ، ولكن أهم محصولاتهم هو المانيوك السام (أو الكسافا)، وهى درنة تحتوى على حامض الهيدروسيانك الذى يجب على الإنسان أن يزيله منها قبل أن يزيل هو الإنسان من الوجود . ولإزالة الحامض تبشر الدرنة ثم تعصر لاستخراج ما بها من عصارة فى سلة أسطوانية يربط أحد طرفيها إلى فرع شجرة مثلا ، والطرف الآخر إلى رافعة؛ ويكفى ذلك للحصول على وجبة من الكسافا . ويستخدم هنود الأمازون طريقة القطع والإحراق فى الزراعة مما يترتب عليه انتقال القرية من حين لآخر ، كما يمارس الرجال كثيرا من القنص باستخدام القسى وبنادق النفخ . ولا يرجع اهتمامهم بالقنص إلى حاجتهم للحم، بل لأن ذلك هو نوع العمل الخليق بالرجال . ويعرف الهنود أيضا صناعة الفخار ونسج الملابس والشباك التى يستخدمونها للنوم عليها ؛ ولكنهم يضعون على أجسامهم من أدوات الزينة والأصباغ أكثر مما يضعون من الملابس . والحقيقة أن ذلك العرى هو من أهم ما يجذب إليهم الأنظار . كذلك يبالغون فى الوشم واستخدام الألوان ويثبتون أقراصا أو حلقات فى أنوفهم وشفاههم أو خدودهم . كما يحيطون سواعدهم بلفائف من السعف يجدلونها بشدة وإحكام ، ويكثرون من استخدام الريش وأجنحة الحشرات ذات الألوان المتعددة فى الزينة . ويصنع الجيفارو Jivaro من هذه الأجنحة عصابات تلف حول رءوسهم المنكمشة ، وهى طريقة خاصة بهم يعبرون بها عن ميلهم العام لقنص الرءوس للذكرى . ويعيش الهنود فى حالة حرب مستمرة ، كما أنهم يبنون قراهم فى عزلة إحداها عن الأخرى ويحكمون تحصينها .

وتمتاز النظم الاجتماعية والاقتصادية فى المنطقة الوسطى بالبساطة وعدم التعقد . وسكان الأمازون مشهورون بخاصة بشعائر التكريس القاسية التى يمر بها الشبان ، مثل الضرب المبرح بأعواد طويلة من الخيزران أو تعليق سلة صغيرة مليئة بالنمل اللادغ إلى أذرعهم بحيث لا يستطيعون حل الموضع الذى يلدغه النمل ، ونحو ذلك من الأشياء التى تستخدم أيضا كنوع من السحر الذى يرمى فى الوقت ذاته إلى تحقيق أغراض صحية (على اعتبار أنها تنشط الأجهزة الخاملة) . ولو اعتبرنا هذا الضرب من ثقافة الأدغال صورة مصغرة من ثقافة المنطقة الوسطى الكبرى لأمكن لنا بذلك أن نقارنها بالعلاقة القائمة بين ميلانيزيا وجنوب شرقى آسيا ، وأن نرى شيئا من التماثل العام فى الطبيعة وكذلك بعض نواحى الشبه القوية بين الأمازون وميلانيزيا (مثل قنص الرءوس أو استخدام بنادق النفخ) دون حاجة إلى افتراض وجود علاقة أو اتصال بينهما .

والظاهر أن أثر الثقافة الوسطى الأساسية فى أمريكا الشمالية كان مجرد أثر هامشى ولم يكن لها مناطق نفوذ مباشرة فلقد رأينا أن الحنطة وصلت إلى الجنوب الغربى من أمريكا الشمالية فى عهد بعيد جدا دون أن يؤدى ذلك فى الحال إلى ظهور شعب يعيش على الزراعة بصفة عامة . والواقع أن ذلك لم يحدث إلا فى تاريخ متأخر حوالى بداية العهد المسيحى بعد أن وصلت زراعة الحنطة المتطورة ونمط الحياة القروية البسيطة من المكسيك .

وقد حدثت حركتان تطوريتان فى وقت واحد ، تتمثل إحداهما عند الهوهوكام فى صحراء أريزونا ، وقد استمرت خاضعة لتأثير المكسيك ولكنها امتدت فى النهاية إلى قبائل البيما Pimas والباباجو Papagos الحالية ؛ وتتمثل الثانية فى ثقافة البويبلو Pueblos التقليدية ، وبمقتضاها تحولت الجماعات البسيطة التى كانت تعيش على صناعة السعف إلى شعوب مستقرة تسكن المحلات والكفور التى كانت تبنى من الحجارة والطوب النيء أيام

البويبلو ثم تطورت بعد ذلك إلى مدن تتألف كل منها من بيت واحد كبير (ربما بقصد الحماية من النافاهو والأباش، وهي قبائل كانت تعيش على القنص والحروب والإغارات، وقد وفدت من شمال غربي كندا) ثم امتدت بعد ذلك أيضا إلى البلدان الكبيرة الحديثة التي توفر كل حاجاتها بنفسها. وكان البويبلو، ولا يزالون، يصنعون أنواعا لا بأس بها من الفخار والنسيج كما بلغ الدين عندهم درجة من التطور بحيث كان يعرف نظام الكهنة، إلا أن ثقافتهم تعتبر رغم ذلك ثقافة ساذجة فجة إن هي قورنت بالثقافة الأصلية التي أنتجتها، فضلا عن الثقافة التي ازدهرت في المكسيك فيما بعد.

وقد وفدت طائفة أخرى من التأثيرات غير المباشرة إلى جنوب شرقي الولايات المتحدة من أمريكا الجنوبية، ويحتمل أنها جاءت عن طريق المكسيك وساحل الخليج معا ثم عبر البحر الكاريبي ذاته. وكانت الحنطة قد وفدت في عصر مبكر بالطبع يرجع إلى ما قبل العهد المسيحي، ومع ذلك ظهر تقليد ثقافي جديد بالفعل في الجنوب الشرقي يعرف على العموم باسم «نمط المسيسبي»، وهو النمط الذي اندفع نحو الشمال إلى منطقة الأحراج القديمة وتوغل فيها وكان السكان يعرفون بناء الربا ولكنهم كانوا يستخدمونها أولا لتشييد معابدهم فوقها وليس للدفن، كما كانوا يقيمون جدرانها بشكل رأسي أو عمودي ويجعلون لها سقفا مسطحا وليس على شكل قبة. وقد كبر حجم الربا بشكل واضح فيما بعد (وقت وصول الإسبان) كما هي الحال مثلا في ربوة كاهوكيا Cahokia في شرق سانت لويس.

كذلك كان سكان الجنوب الشرقي يعرفون صناعة الفخار ويتبعون فيها طرزا وأساليب كثيرة مختلفة، وكان فخارهم أقل خشونة من فخار الأحراج ومتميزا عنه تماما، لأنهم كانوا في العادة يستخدمون المحار لتليينه وتطويعه ويميلون إلى صنع الأواني العريضة ذات القاعدة المسطحة ويجعلون فيها نتوءات خارجية تشبه المقابض. كما كانوا يصنعون الصور والتماثيل. ومع

أنهم كانوا أقل اهتماما بالصناعات الحجرية من ثقافة الأحراج الأصيلة فإنهم حققوا فيها بعض النجاح . أما فى الفنون الأخرى فكانوا ينافسون شعب هوبول الغرب فى صناعة أدوات الزينة مثل عقود الودع وعصابات الرأس والأساور والخلاخيل والأحزمة المصنوعة من الخرز . وكذلك فى استخدام النحاس ولآلىء النهر والمحار العريضة . وقد برعوا أيضا فى صناعة النسيج واستعمال الريش . والواقع أن فنونهم استخدمت فى القرون الأخيرة بعض العبادات الطقوسية التى اقتبست فى الأغلب من المكسيك . وقد عثر فى مخلفاتهم وفى المحار المنقوش على أشكال تمثل أشخاصا يحملون شعارات أو شارات أنيقة ، بعضها على هيئة كائنات حيوانية بشرية معا ، وبعضها يمثل

نشأة وانتشار الثقافة الراقية فى أمريكا ، والمراكز التى بلغت فيها أقصى تطورها

رأس إله الموت ، والبعض الآخر يمثل كفا مفتوحة وعلى راحتها عين .

كان ذلك أعلى ما وصلت إليه ثقافة المسيسبي . ولكن التفكك العام والأمراض التي تفشت بعد مجيء الأوروبيين منعت الرجل الأوروبي من أن يفهم كثيرا من مظاهرها . ومع ذلك فقد أعجب الفرنسيون والإسبان بالتقدم النسبي الواضح في المدن الواقعة على طول الساحل الجنوبي وكذلك بمظهر زعمائهم ورؤسائهم . وقد شهدت منطقة الخليج ووادي المسيسبي أزهى عهود هذه الثقافة . ولكن بعض الأشكال المبكرة أو البسيطة من نمط المسيسبي توغلت في ويسكونسن (حيث تعتبر المدينة المحصنة في آزتلان أحد مراكزها الأمامية) واتجهت نحو أوهايو . أما في الشرق فإن قبائل الإيروكوي تعتبر هي الممثل التاريخي لتلك الثقافة ، مثلما تعتبر القبائل التابعة لمجموعة الألجونكين اللغوية ورثة ثقافة الأحراج .

حضارة الأنديز

ويكفينا هذا عن الثقافة « النيوليثية » في أمريكا . ولكن ماذا حدث ياترى في المنطقة الوسطى في السنوات الألفين الماضية ؟ باختصار ، بلغت الزراعة حد الكمال إذ استخدم الري وامتلأت قائمة الطعام ، وزادت كثافة السكان باطراد في المناطق الملائمة للسكنى ، وخطت المعرفة والهندسة والفنون خطوات واسعة وعم ذلك التقدم المنطقة الوسطى كلها . ولكن على الرغم من قوة العلاقات وزيادة وسائل الاتصال وانتشار المعرفة كانت هناك دائما درجة واضحة من التغاير والاختلافات المحلية في الأسلوب وفي الاستقلال الذاتي ، وتمخض ذلك في النهاية عن ظهور ثلاث حضارات في الأنديز ومنطقة المايا وسهل المكسيك ، وقد برزت هذه الحضارات بعد بداية العهد المسيحي وارتفعت كثلاث قمم عالية فوق الهضبة العامة التي تمثل الثقافة المتقدمة .

ولقد أحرز سكان الأنديز الذين يتركزون على ساحل بيرو والجهات

المرتفعة منها تقدما ملحوظا فى ناحيتين : الفنون الحرفية والسياسة . ومن الصعب أن نذكر فى مثل هذا الحيز الضيق ما يكفى لتعريفنا بطبيعة أعمالهم

إناء على شكل تمثال من الفترة المتأخرة فى بيرو

الفنية الفذة . فقد بلغت صناعة الفخار مستوى عاليا فى وقت مبكر ، وظلت محتفظة بتنوعها وحيويتها ، كما ابتكر سكان الساحل الشمالى أسلوبا طبيعيا متميزا ، فكانوا يصنعون الأوانى على هيئة الحيوانات أو الإنسان وما إلى ذلك من الأشكال بما فيها الرءوس البشرية التى كانت تبدو قريبة جدا من الصور الحقيقية أما القسم الجنوبى فقد أنتج أشكالا أكثر بساطة ولكن مع بعض الإسراف فى الرسم بالألوان . وكلا النوعين من الخزف كان يمثل جانبا كبيرا من حياة الناس أنفسهم . كما أن صناعة الفخار بعامة تبين لنا حدود الجماعات المختلفة فى مختلف العصور ، وكذلك مدى نفوذ وتحكم الدول الكبرى المتعاقبة .

وتحتاج صناعة المنسوجات إلى كتاب خاص بها ، لأن هنود الأنديز ابتكروا واستخدموا من فنون النسج المختلفة أكثر من أى شعب آخر على وجه الأرض ، فلديهم كل أنواع النسج الأساسية بالإضافة إلى كثير جدا

من الحيل التى لا يمكننا الإفادة منها الآن لتعذر صنعها بغير النول اليدوى . وكثير من أنواع النسيج ذات الألوان المتعددة كانت تصنع لكى تستخدم أغطية لموميات الموتى وليس للملابس العادية ولكنهم لم يكونوا يعرفون — بعكس الأوروبيين — فكرة الإسكيمو فى سيبيريا عن تفصيل الملابس عن طريق قصها وخياطتها ، ولذا كانت ملابسهم أشبه بقطاع مربعة من القماش تشبه أوراق اللعب فى قصة « آليس فى بلاد العجائب » . (وقد حدث هذا نفسه فى كثير من الأماكن الأخرى كما هى الحال فى الملابس التقليدية عند البويبلو) ولكنهم استطاعوا تعويض هذا النقص إلى حد كبير بتشكيل قطعة القماش ذاتها أثناء النسج . وقد صنعوا بعض الغزل الرفيع جدا من القطن أولا ثم بعد ذلك من الصوف وألياف نبات الماجى Maguey . ولا يسعنا إلا أن نتساءل هنا ماذا كان عساهم فاعلين بالحرير ؟ ومن حسن الحظ أن المناخ الجاف ساعد على بقاء بعض القماش المنسوج فى القبور . ولا يسعنى إلا أن أكرر أنها كانت من الجمال والروعة بقدر ما عليه هذا الوصف من الإيجاز .

وأخيرا ، فإن سباكة المعادن وصلت أيام الغزو الإسبانى إلى الحد الذى كان الناس معه يستخدمون البرونز فى صنع عدد من الأدوات والآلات التى تستخدم فى الحياة اليومية مثل الأزاميل وأطراف عصا الحفر . وكان استخدام النحاس الأحمر معروفا من قبل ، كما كانت الزخرفة بالذهب والفضة فنا قديما ، بل إن سكان اكوادور كانوا يشتغلون بالبلاتين ويصنعون الذهب الزخرفى المخرم .

أما الفن الرئيسى الأخير ، وهو فن العمارة ، فكان مرتبطا على ما يبدو بالتطورات الاجتماعية . فقد ظهر أحد المراكز الدينية الهامة — وهو مركز شافين Chavin — قبل العصر المسيحى ، ولكن يبدو أن القرون الأخيرة قبل عام ١٠٠٠ ميلادية شاهدت — على إثر بعض التغيرات المحلية

الضيقة — قيام بعض الاتحادات الكبرى والوحدات السياسية التى أدت إلى سيطرة ثقافة تياهواناكو Tiahuanaco بشكل عام بعد ذلك التاريخ . وتظهر هذه السيطرة بشكل واضح فى كثير من ملامح أسلوب الفخار وتصميم النسيج التى كانت منتشرة فى كل منطقة الأنديز لوسطى والتى تنتسب إلى المركز الدينى فى تياهواناكو ذاتها . وقد هجر ذلك المركز الذى كان يقع فى مكان مرتفع بالقرب من بحيرة تيتيكاكا Titicaca بحيث يشرف على حدود بيرو وبوليفيا . وترجع غرابة هذه المدينة ليس إلى ارتفاعها فحسب بل وأيضا إلى ضخامتها وأهميتها الظاهرة إلى بعض الخصائص المميزة مثل بوابتها المنحوتة من كتلة واحدة من الحجر .

وتشير كل الدلائل إلى أنها كانت مركزاً رئيسيا لإقامة الشعائر المتعلقة بأحد الأديان الذى سيطر على العبادة وعلى كل أنواع النشاط فى المنطقة كلها لفترة من الزمن ، ولكن لم يلبث نفوذ تياهواناكو الدينى — وغير الدينى — أن تبخر وتلاشى ليحل محله عدد كبير من الدول المتمايزة التى كانت تتمتع بتنظيم اجتماعى قوى رغم تفاوتها فى الحجم . وقد اهتمت هذه الدول ببناء المدن الكبرى التى كانت تقام على مساحات شاسعة من الأرض وتبنى فيها الخزانات وتشق الشوارع والطرق المستقيمة كما تبنى فيها المدافن وما إلى ذلك . ويدل شكل هذه المدن على أن حياة المدينة كانت فى ذلك الوقت مظهراً حقيقيا من مظاهر الثقافة ، وأن التنظيمات السياسية بلغت درجة معينة من التعقيد وكثيراً ما كان الناس يلجأون إلى الحروب لكى يفرضوا سلطانهم على غيرهم أو ليدافعوا عن ذلك السلطان وقد بلغ هذا الميل نهايته المنطقية على أيدى الإنكا وذلك قبل مجىء بيزارو Pizarro بما لا يزيد على قرن . فقد خرجوا من منطقتهم الخاصة حول مدينة كوزكو Cuzco وفرضوا سلطانهم ليس على الأنديز الوسطى فحسب ، بل وعلى اكوادور وشمال شيلى أيضاً .

والواقع أن شعب الإنكا كان شعبا مغموراً بعض الشيء بين دول العصور السابقة رغم أنهم ساروا فى نفس طريق التطور الذى سلكته الشعوب الأخرى ، ويذكر الإنكا أسماء اثنى عشر حاكما من حكامهم يزعمون أنهم انحدروا من الشمس ، ولكن إمبراطوريتهم ، بلغت أوج ازدهارها ثم انهارت خلال حكم الأباطرة الأربعة الأخيرين ولقد بدأ الإنكا يعملون منذ عام ١٤٤٥ فى عزم وتصميم أكيدين على إخضاع كل دول وقبائل المنطقة لنفوذهم ، ولجأوا فى ذلك إلى الدبلوماسية والحرب معاً . وقد تم لهم ما أرادوا وتمكنوا بذلك من توحيد منطقة فى حجم الولايات الأمريكية التى تشرف على المحيط الأطلسى، ونجحوا فى المحافظة عليها حتى جاء الإسبان بخيلهم وسلاحهم وقسوتهم التى لا تعرف الحدود فقتلوا أتاهوالبا Atahualpa آخر حكامهم ، وقوضوا بذلك البناء كله . وهذا أمر يثير الأسى والحسرة، ليس لمقتل أتاهوالبا فحسب ، بل وأيضا لأن الإنكا كانوا قد أخذوا بعض إمكانيات ثقافة الأنديز وشرعوا يطبقونها بهمة وعزيمة جديدتين . ولقد يكون من الطريف لو أتيح لنا أن نشهد نتائج ذلك .

ولم يكن لدى الإنكا أسلحة سرية وإنما هى الأسلحة القديمة ، ولو أن استخدام البرونز كان قد بدأ فى الظهور . بيد أنهم كانوا يعمدون إلى استخدام الفرق الصغيرة فى الحرب كما كان عندهم جيش نظامى مدرب تدريباً حسنا ويقوده ضباط من طبقة النبلاء . وكانت حروبهم عمليات عسكرية حقيقية وليست مجرد إغارات ؛ إذ كانوا يرسمون خطة الغزو ويفرضون الحصار ويبنون الطرق ويعملون على صيانتها ويحافظون على سلامة خطوط اتصالهم باستخدام العدائين ويشيدون القلاع (مثـــل موقع ماكشوبيكشو Macchu Picchu العجيب فوق قمة الجبل) وبخاصة حيث يكون الدفاع أمراً ضرورياً كما هى الحال ضد الجماعات المتبربرة المنيعة من سكان الغابة . فإذا شبت الثورة فى أحد الشعوب المستعبدة فإنهم كانوا ينتزعون بعض

أقسامه فينقلونها بعيدا ثم يجلبون من مكان آخر قوما آخرين أكثر ألفة ووداعة فيحلونهم محلها .

فلم تكن الأسلحة إذن هى التى مكنت الإنكا من الغزو والفتح وإنما الذى مكنهم من ذلك أشياء أخرى مثل الزراعة الراقية المتقدمة وما يتوافر عنها من فائض الطعام الذى هيأ لفنون السلم فرصة للازدهار والارتقاء قبل ذلك بوقت طويل ، كما يسر للإنكا مهمة إتقان فنون الحرب حين سهل لهم مهمة إمداد الجيش بالطعام (ذلك أن نصيبا معلوما من محصول الفلاحين كان يذهب إلى الكنيسة وإلى الدولة) ؛ أو مثل قيام مجتمع يقوم على نظام طبقى متطور حيث تنحصر سلطة التوجيه السياسى الشامل فى يد طبقة حاكمة ؛ أو مثل تقدم فن استخدام الحجارة فى تشييد القلاع والمدن . وهذا كله معناه فى النهاية إمكان تجنيد قوة هائلة من الأيدى العاملة وتسخيرها تبعا لخطة معينة يرسمها من بيدهم مقاليد الحكم .

وربما كان هذا هو الدافع الشعورى أو اللاشعورى لفتوحات الإنكا التى عملوا من أجلها على تغيير وتعديل جانب آخر من الأفكار الأساسية فى ثقافة الأنديز . فالرق مثلا كان فكرة قديمة جداً ولكن الإنكا لم يكتفوا بأسر العبيد وتسخيرهم لخدمة فئة قليلة من النبلاء أو الملاك ، وإنما كانوا يستعبدون مجتمعات بأكملها من الفلاحين والعمال العاديين بقصد إدماجهم تماما فى النظام الاقتصادى بحسب الحال . وقد نستطيع أن نعرف ذلك ببساطة بأنه نظام استعمارى إمبراطورى .

كذلك توصل الإنكا إلى فكرة الحكم والعمل الجماعى بمعناهما الصحيح ، فكانوا يوزعون العمال فى جماعات أو وحدات تتألف كل منها من عشرة أشخاص تحت إشراف رئيس للعمل (وقد يتفق هذا مع مفهوم القرية أو الناحية) ، وكل عشرة من هذه الجماعات أو الوحدات تؤلف وحدة

أكبر هي « القبيلة » وهكذا بالتدريج حتى نصل إلى الأقسام الأربعة الكبرى التي تتألف منها الإمبراطورية. وإذا كانت هناك بعض مخلفات أو بقايا الأسرة
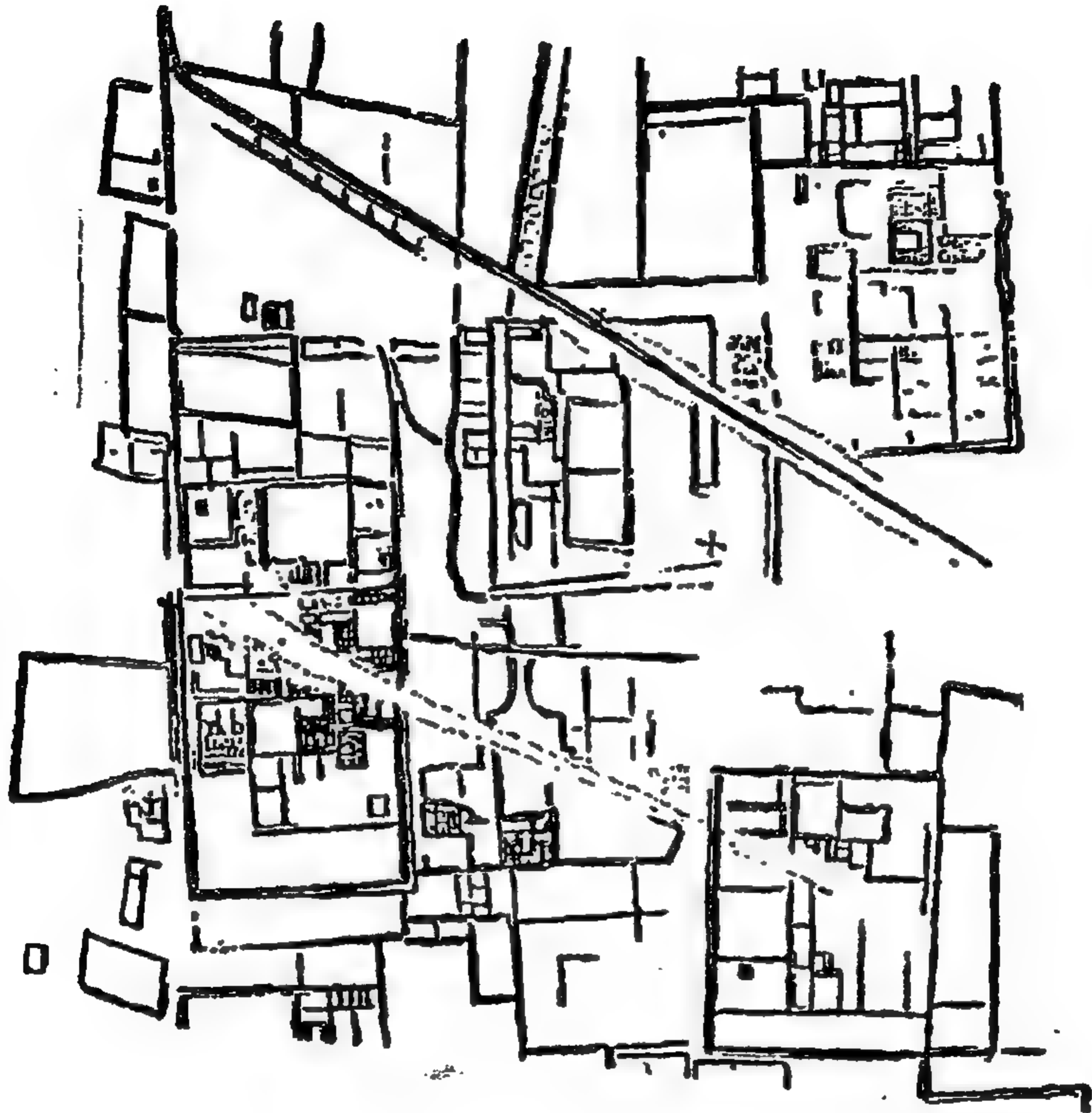
منظر جوي لجزء من خرائب شانشان . وتوحي طريقة تجمع المباني في أحياء تحيط بها الجدران بشكل منسق مرسوم بوجود سلطة سياسية منظمة قوية .

الكبيرة القديمة أو التنظيم الاجتماعي على أساس العشيرة فقد حل هذا النظام السياسي أو الاقتصادي الجديد محلها كتطور طبيعي للأشياء (وربما كان هذا النظام معروفاً قبل الإنكا كما يبدو من طريقة تخطيط المدن القديمة مثل مدينة شانشان) . وكانت كل مظاهر ومناشط الحياة مقسمة وموزعة بطريقة جامدة بالنسبة للعامة الذين كان يتعين عليهم أن يؤدوا ما يعهد إليهم به من أعمال ، كما كان يحرم عليهم أن يصنعوا أو يملكوا لأنفسهم أدوات

الترف . أما طبقة النبلاء فكانت تتألف من أقارب الحاكم أو من فلول حكام الدول المغلوبة .

وبذا كان فى الإمكان إخضاع الإمبراطورية كلها لأوامر شخص واحد . وهو نظام فعال بقدر ما هو مروع ومخيف ؛ ولكنه كان نسقا ناجحا بلا ريب . ولو نظرنا إلى بعض صور أعمال العمارة عند الإنكا لوجدنا أنها تتألف من كتل حجرية كبيرة مرصوصة بعضها فوق بعض بدقة وعناية ؛ ومن أفضل الأمثلة على ذلك قلعة ساخوامان Sacsahuaman التى اشتركت فى بنائها — على ما يقال — قوة قوامها ثلاثون ألف عامل ، ومع ذلك كان الحكام يجدون صعوبة أحيانا فى توفير العدد الكافى لها باستمرار . وليس من شك فى أن كثافة السكان كانت مرتفعة . فمدينة Cuzco كوزكو وضواحيها مثلا كانت تضم مائة ألف نسمة . ومع ذلك فقد كان للنسق نواحيه الضعيفة إذ كان يرتكز على التقسيم الطبقى الرأسى فقط كما كان يشبه تنظيمات النمل بشكل مبالغ فيه . وكانت النتيجة أنه حين سقط أتاهوالبا فى أيدى الإسبان انهارت الإمبراطورية كلها . لقد كان عصر الإنكا يمثل قصة عظيمة فى تاريخ الإنسانية ، ومن سوء الحظ أننا لا نعرف عنه إلا القليل جداً ، ولذا فليس ثمة معدى عن أن نعتمد على الجهود المضنية الجبارة التى يبذلها علماء الآثار ، خاصة وأن الإنكا لم يكونوا يعرفون الكتابة ، كما أن طريقتهم فى العد والإحصاء كانت فى غاية البساطة والسذاجة

المايا : عصا ريون وفلكيون

وقد تفوق عليهم فى هذه الأمور شعب المايا من سكان جواتيمالا ويوكاتان ، وهم يمثلون القمة الأخرى لما حققه أهالى أمريكا من أعمال فذة . وقد يبدو ذلك غريبا بعض الشىء فى ظاهره : إذا كان فى استطاعة سكان

يبرو أن يفيدوا فائدة كبرى من هذا النوع من المعرفة فى أمور التجارة والإدارة السياسية ، ولكن المايا وجهوا معلوماتهم فى الرياضيات والفلك وكذلك « الكتابة » لخدمة الدين ، بل إن فن العمارة الذى بلغ عندهم أعلى ذروة فى العالم الجديد كله كان يخدم هذه الغاية ذاتها .

ولقد رأينا كيف أن نفوذ بعض المراكز الدينية — وبخاصة تياهوانا كو — كان يصل أحيانا إلى مناطق بعيدة فى منطقة الأنديز وذلك قبل أن تصبح السياسة أداة للضبط والتوجيه فى الإقليم كله . وهذا الجانب من الثقافة هو الذى ساد عند المايا ، فقد مرت بلادهم بفترة أمن وسلام طويلة استغرقت عدة قرون . كما كانت تضم عددا من المدن التى تؤلف كل منها دولة مستقلة ، ولكنها تخضع كلها لنظام دينى واحد وهيئة واحدة من رجال الدين وليس لعدد من الحكام الدنيويين المتنافسين . ولسنا نقصد من ذلك أنهم لم يعرفوا الحرب ولا الأضحيات البشرية ، فقد تركوا لنا نقوشا تصور ذلك كما أن هذه الدول كانت تدخل أحيانا فى أحلاف دفاعية ، ومع ذلك كانت مدنهم تؤلف بالفعل مراكز للمعابد ولغيرها من الأبنية الدينية فى الوقت الذى كانت تخلو فيه تماما من التحصينات والاستحكامات ، كما أنها كانت هى القبلة الشعائرية التى تتجه إليها الأقاليم المجاورة والقرى الزراعية المتواضعة .

كان المايا يسكنون مكانا وسطا فى أمريكا الوسطى . وأثناء الفترة التى سادت فيها حضارتهم انتقل مركز الجاذبية أو التقـــدم والارتقاء من مرتفعات جواتيمالا فى الجنوب إلى الشمال عبر الأراضى المنخفضة فى جواتيمالا ذاتها حتى وصل فى نهاية الأمر إلى هندوراس ويوكاتان وجنوب المكسيك . وقد ظهرت مدنهم المشيدة بالحجارة لأول مرة فى الأراضى المنخفضة بعد عام ٣٠٠م وبلغت قمة روعتها أثناء العصور المظلمة فى أوروبا ، ثم طرأ عليها بعد ذلك شىء من التفكك والتدهور الذى لاندرى سببه

للآن . وأخيرا بدأت المرحلة النهائية قبل مجيء الإسبان بعدم عام ١٠٠٠ ميلادية ، وكان مركزها يوكاتان .

ومعظم الصور التى نراها تمثل مدينة تشيشن إتزا Chichen Itza بحصنها البسيط الجميل المقام فوق قمة أحد الأهرام ، وكذلك ملعب الكرة والمرصد ومعبد الأبطال الذى يحيط به « بهو الأعمدة الألف » الذى كان مسقوفا فى وقت من الأوقات . ولكن تشيشن ترجع إلى عهد متأخر وينعكس فيها خليط من التأثيرات المختلفة بما فيها الطراز المكسيكى . ويبدو أنها بنيت بطريقة عشوائية مرتجلة وأن عملية البناء استغرقت فترة طويلة من الزمن ولم تكن تتبع خطة محددة بالذات . وهناك مدن أخرى لا تقل عنها طرافة مثل مدينة تيكال Tikal القديمة التى توجد لسوء الحظ وسط الأدغال بحيث يصعب الوصول إليها . وتمتاز تيكال بمعابدها التى بنيت حول قلعة مركزية بحيث تتجه كلها نحوها كما أنها تعكس أسلوبا واحدا متميزا يميل ميلا قويا إلى المبانى المرتفعة على ما يظهر فى الأهرام وفى المعابد على السواء . وهناك أيضا مدينة كوبان Copan المشهورة بأعمدتها المنقوشة وبطريقها المدرج ذى السلالم ، ثم هناك مدينة بالنكه Palenque التى تقوم فى منطقة حجرية صعبة لكنها عرفت استخدام الملاط ، كما أن لها أسلوبا متحررا فى النحت تنفرد به عن غيرها إلى حد كبير ؛ فقد كان معظم مبانى المايا تشيد بالحجر الجيرى الذى كان يشكل باستخدام الآلات الحجرية .

فالمايا إذن كانوا مهندسين معماريين ، أما سكان بيرو فكانوا مجرد مقاولين . صحيح أن أهالى بيرو استخدموا بعض الزخرفة ، إما بالحفر وإما بالأرابيسك على الواجهة الطينية التى تغطى الجدران ، ولكن أبنيتهم كلها ، على اختلاف إتقانها ، كانت تقام من أجل أغراض معينة . وذلك بعكس المايا الذين كانوا — كالإغريق — يهتمون بالشكل الكلى العام لمبانيهم ، فكانوا يعرفون معنى التناسب والسيمترية ومناطق الزخرفة

وتوزيع الظل والضوء وما إلى ذلك ، وكانوا يقيمون معابد حقيقية (وليس مجرد أروقة أو أديرة للرهبان) فوق قمم الأهرام ويزينونها بنقوش على شكل أقنعة تمثل الأفاعي ، كما كانوا يكسون مبانيهم وأهرامهم من الخارج بطبقة من الحجارة . والأغلب أنها كانت تغطى بعد ذلك بالملاط وتزين بالصور والرسوم .

ولكن على الرغم من كل هذه المهارة الفنية كان المايا يفتقرون مثل بقية أهالى أمريكا إلى بعض مبادىء فن العمارة الصحيحة . فلم تكن الجدران مثلا صماء (كما هى الحال فى أبنية الإنكا) وإنما كانت مجرد واجهات تملأ بالحصى
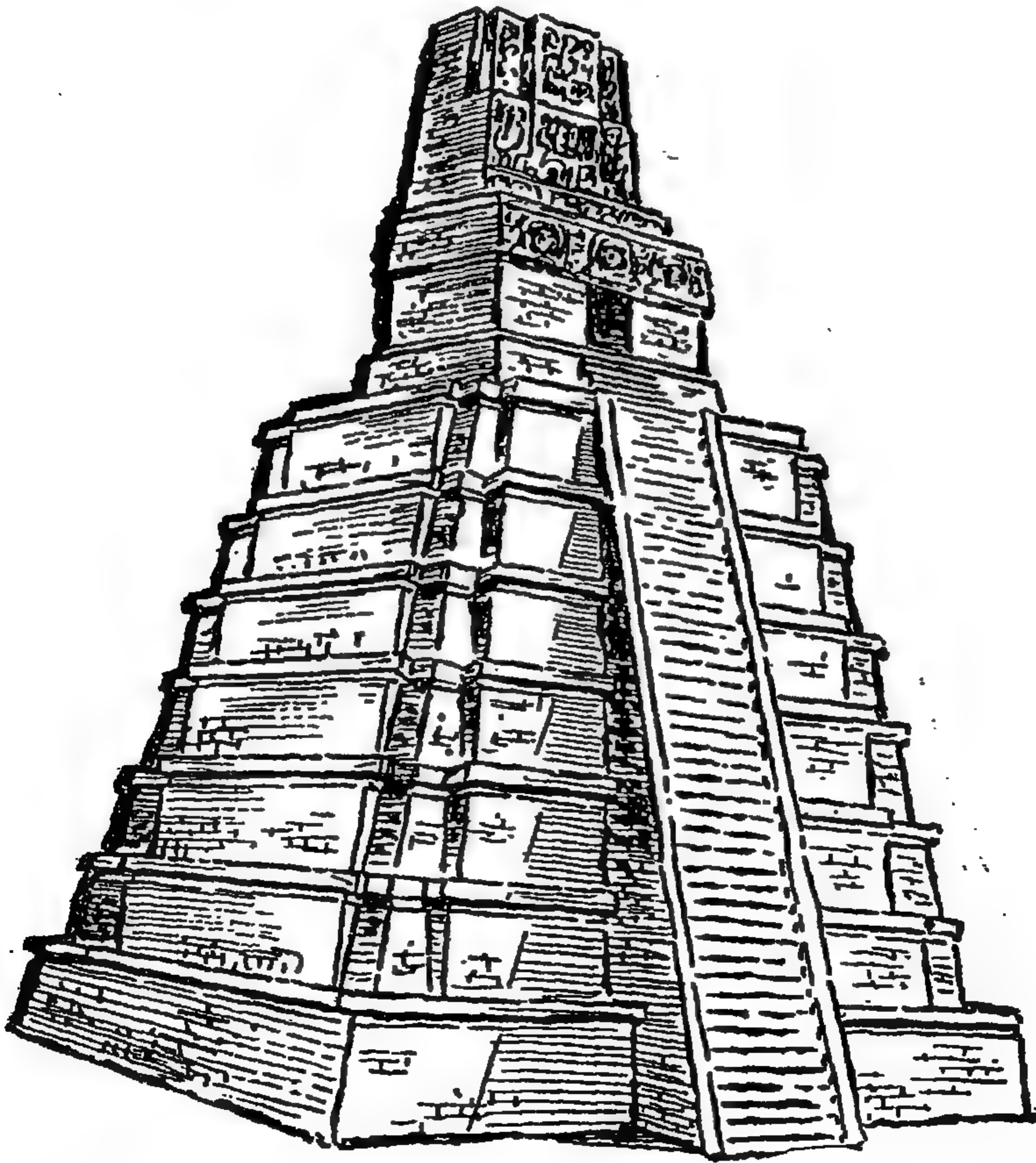
أحد المعابد الهرمية فى تيكال التى تعتبر من أقدم وأكبر مدن المايا ، وهى تتميز بأهرامها الشديدة الانحدار ومعابدها ذات السقوف المزركشة

والزلط . وزاد من ضعفها أن الأحجار ذاتها لم تكن تثبت بعضها إلى بعض أو ترص فى طبقات بعناية ودقة كما ينبغى أن يكون عليه فن رص الطوب. والأسوأ من هذا كله أن الأهالى لم يتوصلوا أبدا إلى طريقة إقامة العقود أو الأقواس التى لا ترتكز على دعائم (وإذا كانوا أقاموا عددا منها بالفعل فقد كان ذلك عن طريق المصادفة فقط) وإنما لجأوا بدلا من ذلك إلى العقود التى كانت تبنى بتركيب عدة أجزاء بحيث يرتكز كل منها فوق الآخر . وقد أدى ذلك إلى ثقل وزن الجدران وصغر حجم الحجرات وضعف البناء بوجه عام . وزاد الطين بلة أن جذور النباتات الكثيفة فى الأدغال امتدت وتشعبت فساعدت بدورها على تدمير وتخريب تلك المدن المتينة .

بيد أن الرياضيات كانت أكثر روعة من العمارة عندهم ، ويكفى أنهم ابتكروا فكرة الصفر ، أى الشىء الذى يدل على لاشىء ، وهو مفتاح مبدأ العد عن طريق ترتيب أوضاع الأرقام . ومن ثمة القدرة على كتابة أعداد كبيرة وعدها بسهولة ، وهو أمر كان ينقص الرومان أنفسهم . وليس من شك فى أننا كثيرا ما نضيق بطريقة كتابة التواريخ بالأرقام الرومانية . فسنة ١٩٤٨ تكتب بالشكل التالى MDCCCCXLVIII . ولم يعد الناس فى الغرب يلجأون إلى هذه الطريقة الفظة إلا على واجهات المبانى العامة من أجل الرونق فقط ، وكذلك تاريخ الترخيص بعرض أفلام السينما ، ربما لكيلا يدرك الناس أنها أفلام قديمة .

والعملية الذهنية التى تؤدى إلى حل هذا التاريخ الرومانى تسير كما يلى : « ألف واحدة ، خمسمائة واحدة ، أربع مئات ، خمسون تنقصها عشرة ، خمسة واحدة ، ثلاثة آحاد » أما فى الطريقة العربية المتبعة الآن والتى تقوم على النظام العشرى فإن ترتيب أو وضع الأعداد يدل ببساطة على مدى كبرها دون أن نحتاج إلى التعبير عن ذلك بالحروف الهجائية (كما هى الحال حين نكتب حرف M مثلا للدلالة على الألف). وعلى ذلك فنحن نقرأ

١٩٤٨ فى أذهاننا على أنها « ألف واحدة ، تسع مئات ، أربع عشرات وثمانية آحاد » وندرك مدى ابتعاد أى رقم منها عن العلامة العشرية الحيوية ، وإن كنا لانكتب هذه العلامة العشرية دائما . وترجع أهمية الصفر فى هذه الطريقة إلى أنه يبعد بالرقم عن العلامة العشرية غير المكتوبة حين يحتاج الأمر إلى ذلك . وهكذا نستطيع أن نكتب الرقم ١٠٠٠ (ألف) مثلا بكل دقة ، وفيه تدل الأصفار على أنه « لا توجد مئات ولا عشرات ولا آحاد ثم العلامة العشرية » .

وقد أصبح من السهل نتيجة لذلك كتابة أى رقم باستخدام العشرة ومضاعفاتها . وقداستخدم المايا مقادير أساسية مختلفة تصل إلى رقم عشرين وكانت خليقة بأن تبلغ ما بلغته طريقتنا من الوضوح والدقة لولا بعض الغموض الذى يلابس الرقم ١٨ أحيانا ، وذلك فى حالة حساب الأيام الذى كان يسير على المنوال التالى : ٢٠ كين Kin (يوماً) تؤلف وينال uinal واحدا ، و١٨ وينالا تؤلف طونا tun واحدا ، و٢٠ طونا تؤلف قاطونا Katunواحدا و٢٠ قاطونا تؤلف دورة واحدة (قوامها ١٤٤٠٠٠ يوم أى حوالى ٤٠٠ سنة) . وعلى ذلك فالتاريخ المدون على العمود رقم D فى كوپان Copan مثلا هو « ٩١٥٥٠٠٠ — ١٠ آهاو ٨ تشين » يعنى ٩ دورات و ١٥ قاطونا و٥ طونات ومجموعها كلها ١٫٤٠٥٫٨٠٠ يوم .

ولكن هذا جانب واحد من معنى هذا الكتابة على اعتبار أنها تسجيل للأيام ولفترات معينة من الأيام وليست تسجيلا للسنوات بالمعنى الذى نفهمه نحن من هذه الكلمة . وقد كان المايا يعرفون طول السنة الشمسية الحقيقية معرفة دقيقة جدا ، أو على الأقل بدقة أكثر مما كان عليه تقويمنا نحن حتى مائتى عام مضت ، ولكنهم لم يكونوا يستخدمونها بنفس الطريقة تماما ، فقد كانوا يستخدمون الشهر واليوم فى العد والحساب ، وهو شىء أشبه بنظام أسماء الأيام عندنا ، كما كان عندهم نظام آخر يقوم فى أساسه على

الدورة التى تتألف من ثلاثة عشر رقما وعشرين يوما لها أسماؤها وكلها تتعاقب واحدة إثر الأخرى ، بحيث إن اسم أى يوم معين لم يكن يحمل نفس الرقم مرة أخرى إلا بعد ٢٦٠ يوما . زد على ذلك أن السنة (المؤلفة من شهور) لم تكن تبدأ بيوم يحمل نفس الاسم إلا مرة كل ٥٢ سنة . وعلى ذلك ، فلو رجعنا إلى التاريخ الذى ذكرناه منذ قليل لوجدنا أنه يشير إلى اليوم الذى اسمه ١٠ آهاو ، وهو اليوم الثامن من (شهر) تشين . ولا يمكن أن يتكرر مثل هذا الارتباط — أعنى ارتباط يوم له اسم معين بيوم من أيام السنة — إلا مرة كل ٥٢ سنة .

ويبدأ تقويم المايا بيوم معين بالذات يرجع إلى مليون ونصف مليون يوم مضت ، وهو ٤ آهاو ٨ كومهو Cumhu ، ويشار إلى ذلك اليوم بخمسة أصفار فى كل تواريخهم . وأى تاريخ نموذجى عندهم يقرر ببساطة عدد الأيام التى انقضت منذ ذلك اليوم الثابت ، ثم يذكر بعد ذلك الاسم الصحيح لذلك اليوم المعلوم . وقد ساعدت هذه الطريقة إلى حد كبير على التأكد من صحة الكتابات والنقوش . ففى المثال السابق مثلا نجد أن التاريخ ٩١٥٥٠٠ (أو ١٫٤٠٥٫٨٠٠ يوم) يشير فى واقع الأمر إلى يوم معين هو ١٠ آهاو ٨ تشين (ولو أن ذلك اليوم يتكرر كل ١٨٫٩٨٠ يوما على أية حال) . وعلى ذلك فالتاريخ الذى يبدأ به تقويمهم فى الأصل ، وهو « صفر صفر صفر صفر صفر ٤ آهاو ٨ كومهو » يرجع إلى حوالى عام ٣٠٠٠ ق م . ولكن هذا لا يعنى بصفة قاطعة أن المايا وضعوا تقويمهم فى ذلك الحين ، بل الأغلب أن ثمة شيئاً فى نسقهم جعلهم بمجرد أن انتهوا إليه يختارون ذلك التاريخ الأسطورى وحده على الرغم من أن عدة دورات أخرى كانت تعمل فى وقت واحد معا . والحق أن كل التواريخ الواضحة عند المايا يعتورها شيء من الضعف فى الدورات الثامنة والتاسعة والعاشرة .

وتؤلف هذه التواريخ حوالى ثلث الكتابات والنقش ، ويبدو أن

الجزء الباقى يهدف إلى تحقيق وضبط هذه التواريخ ذاتها بطريقة لم نتوصل بعد إلى حلها . ومما يؤسف له أن هذه الكتابات لم تسجل تاريخ المايا أو أية معلومات عن كنوزهم وثرواتهم المخبوءة . وإنما تهتم بشىء واحد بالذات لا نعرف موضوعه تماما ، وإن كان كثير منها يتعلق فيما يبدو بمسألة موضع القمر فى هذا الشىء .

وحساب الأيام حساب واضح تماما ، ولذا يحق أن نتساءل : ما الذى يمنع من معرفة التاريخ الميلادى الدقيق لكل نقش من هذه النقوش ؟ السبب هو أنه حين جاء الإسبان فى أيام تشيشن إتزا كان المايا قد أصبحوا
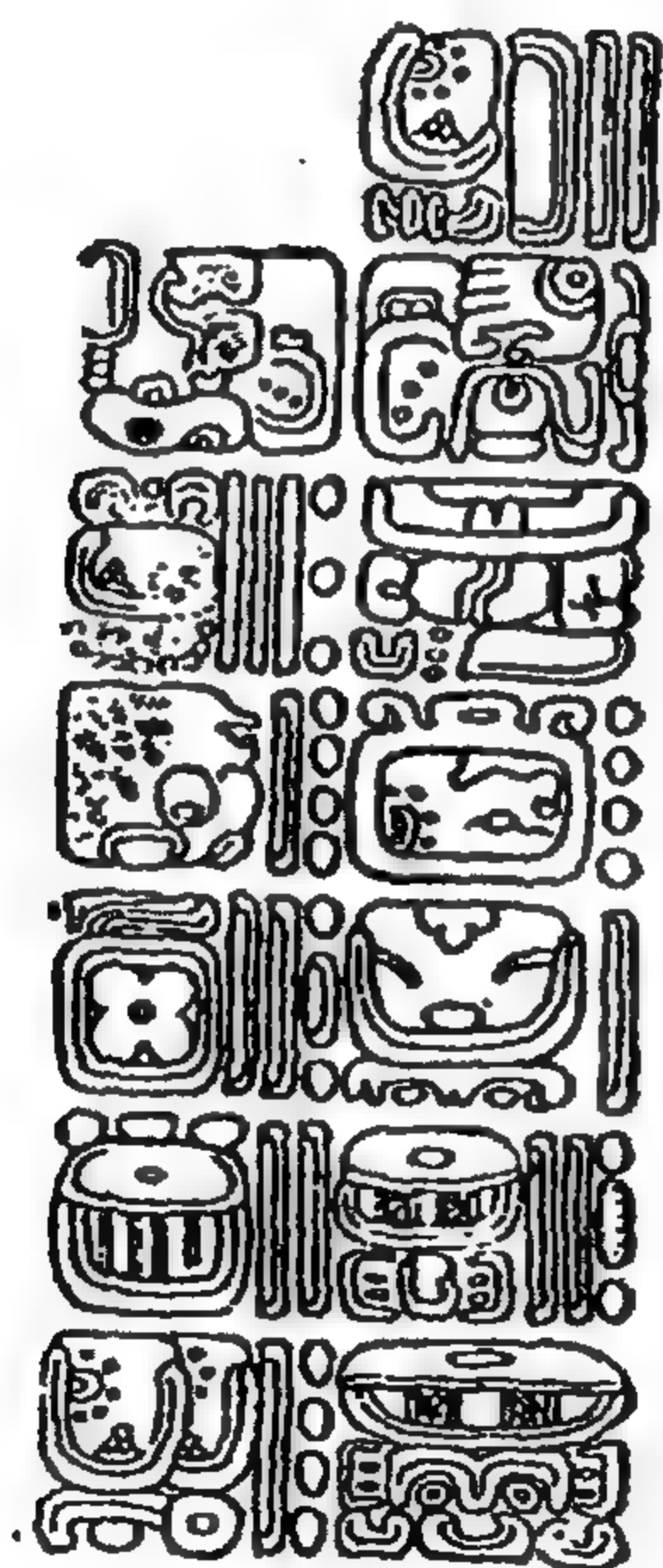
بعض النقوش فى نارنهو (عمود ٢٤) ، وهى تقرأ من اليسار إلى اليمين وإلى أسفل . وأول هذه النقوش « فى أعلى اليسار » للتعريف ، ويعنى أن النقوش التى ستأتى بعده عبارة عن « سلسلة ابتدائية » أو حساب يومى كامل « وتحتوى الأرقام على بعض العناصر الزخرفية الأخرى » بالإضافة إلى بعض نقوش أخرى معيارية تشير إلى الفترات الداخلة فى الحساب وهى ٩ يافطون و ١٢ قاطونا و ١٠ طونات و ٥ وينال و ١٢ كيناء أو : ١٢ ، ٥ ، ١٠ ، ١٢ ، ٩ » وهى تعنى حسابا يوميا مجموعه ١٢ ١ ١ر٣٨٦ر١ » وبين النقشان التاليان اسم اليوم الموافق لذلك التاريخ وهو ٤ إيب ٩ ياكس . أما بقية الرسم فعبارة عن كتابات تكميلية غير مفهومة تماما . وبالنسبة للأرقام فإن الخط يعنى ٥ والنقطة معناها واحد .

أشد إهمالا عن ذى قبل بحيث لم يعودوا يسجلون سوى الأقسام الصغرى من تلك التواريخ (كأن يكتبوا مثلا ٩٧ . فهل هذه تعنى ١٨٩٧ أو ١٧٩٧ ؟). ويضاف إلى ذلك أن الوافدين الجدد لم يهتموا — فى حماستهم المتدفقة لتحطيم الوثنية الصارخة هناك — بالتعرف على الدورة التقويمية (أوجزتها)، التى كان المايا حينئذ يحسبون فيها (ولو أن من المحتمل جدا أنها كانت صفر صفر صفر ٣—١١) وقد كتب الأب دى لاندا De Landa أفضل تاريخ عن المايا، ولكنه هو نفسه أحرق سبعة وعشرين مخطوطا من مخطوطاتهم (كانت مكتوبة على نوع من الورق خاص بهم).

ولسنا نعرف عدد المخطوطات الأخرى التى أحرقها رجال الدين، ولكن لا تزال هناك ثلاثة مخطوطات منها ، إحداها هى Dresdon Codex وهى وحدها تحتوى على ذخيرة هائلة من حساب المايا وتقديراتهم عن القمر وحركات الزهرة وربما المريخ أيضاً والمشترى وزحل ، كما تشتمل على بعض المسائل التى قد تبرر سلوك الإسبان مثل الإشارة إلى الكائنات الخارقة للطبيعة التى كانت ترتبط بالفلك البحت ، وتكشف عن طبيعة علمهم القائم على العرافة والوثنية .

اوئزتكة : هرص وعدوانه

وتتركز المنطقة الثالثة من مناطق الثقافة الراقية فى وادى المكسيك الذى تتوسطه بحيرة تسكوكو ، وهى مثال آخر لقدرة أهالى أمريكا على الابتكار فى الميدانين السياسى والاجتماعى ، كما أنها هى المنطقة التى أبدع الإسبان فى وصفها . يضاف إلى ذلك أنها هى الثقافة الأمريكية الوحيدة التى لا تزال تعيش بقوة وحيوية فى تقاليد إحدى الأمم الحديثة ، وهى المكسيك .

وقد نشأت هذه الثقافة فى الأصل من بلدة ريفية ، وهى تشبه فى ذلك

ثقافة بيرو ، كما أنها سلكت سبيلا مماثلة إلى حد ما . ومع ذلك فقد كانت هذه الثقافة المبكرة — حتى وهى فى مرحلة التكوين — أكثر تقدما ورقيا من ثقافة هنود البويبلو الحاليين . فقد أنتجت أول التماثيل الخزفية الصغيرة التى توجد بكثرة فى المكسيك ، كما شرعت فعلا قبل العهد المسيحى فى إبراز وتطوير الملامح الشعائرية للعصور التاريخية (ويتمثل ذلك فى ابتكار تقويم أبسط من تقويم المايا وبناء الأهرام والاعتقاد فى وجود إله المطر المدعو تلالوك Tlaloc) .

وقد بلغت هذه الثقافة ذروتها فى الفترة التيوتيهواخية Teotihuacan (عند التولتك Toltecs) . وقد سميت باسم المدينة العظيمة التى كانت تقع إلى الشمال الشرقى من مدينة مكسيكو . وتمتاز هذه المدينة بوجود شارع طويل يؤدى إلى « هرم القمر » كما كان يتوسطها « هرم الشمس » الذى كانت تحف به المعابد الصغيرة المبنية على شكل ربوات ، وكذلك القلعة التى تضم عدداً كبيراً جداً من الروابى التى تنفرد إحداها بذلك الطراز المشهور من الأفاريز المكونة من نقوش تمثل الثعبان الطائر وفراشة الأوبسيدان . وهكذا نجد أن خصائص الحضارة المكسيكية كانت قد نمت وتبلورت قبل عام ألف ميلادية ، إذ نجد فيها بوادر الآلهة التى ظهرت فيما بعد مثل الكواتزالكواتل Quetzalcoatl (وهو الثعبان الطائر نفسه) وغيره من الآلهة ، كما كانت الأهرام تبنى من الأحجار والملاط . كذلك ظهرت الكتابة باستخدام الصور والرسوم البسيطة ، فكلمة تشابولتبك Chapultepec مثلا كانت تكتب برسم النطاط Chapul واقفا فوق تل Tepetl . وهذا بالضبط هو معنى الكلمة . وقد بلغ فن الشغل على حجر اليشب وعلى المعادن والريش درجة عالية من التقدم . وهكذا يبدو أن ذلك العصر كان عصراً كلاسيكيا ناجحا استغرق فترة طويلة فى المكسيك كما كان عصر سلام ووئام حيث كانت المراكز الدينية تخدم مناطق واسعة فسيحة . ومع ذلك غزا

المحاربون المكسيكيون مدينة تشيشن فى بلاد المايا، وقد نقشت أخبار هذه الحرب على الأعمدة فى تلك المدينة .

كتابة ازتكية بالصور تمثل كلمة « تشابولتبك »

ولكن لم يلبث هذا كله أن تقوض وانهار ، وهو شىء أشبه بسقوط روما إلى حد ما . فقد بدأت الشعوب المتبربرة من قبائل تشيشيميكا Chichimeca تنزل إلى الوادى مثلما فعل القوطيون والفاندال وقد بهرتهم الثقافة الراقية . وقد تمت لهم الغلبة (فى عام ١١٢٢ على ما يقال) ولكنهم لم يلبثوا فى آخر الأمر أن التقطوا أجزاء تلك الثقافة لأنفسهم. وقد أقامت بعض هذه القبائل لها مدنا على شكل دول مستقلة حول بحيرة تسكوكو . وكان لإحدى هذه القبائل — وهى قبيلة تنوشكا Tenochca أو مكسيكا تاريخ قصصى طويل عن هجراتهم ورحلاتهم التى كانوا يصطحبون فيها إلههم هويتزيلوبوشتلى Huitzilopochtli وهم يبحثون عن مكان يقيمون فيه . وقد استطاعوا أن يتكهنوا بقرب استيطانهم حين شاهدوا نسراً يجثم فوق شجرة من أشجار الصبار وقد أمسك ثعباناً فى منقاره (أنظر علم المكسيك) وهكذا اضطروا فى النهاية إلى الاستقرار وإلى تأسيس مدينة تنوشتيتلان Tenochtitlan (وهى الآن مركز مدينة مكسيكو الحديثة) على الجزيرة القائمة وسط البحيرة .

ولكن الروايات التاريخية التى وصلت إلينا من القبائل الأخرى

تعرض القصة بطريقة مختلفة بعض الشيء ، فهى تروى أن التنوتشان أو الآزتكة وصلوا إلى شاطىء البحيرة الموجودة فى منطقة تشابولتبك الحديثة حوالى عام ١٢٥٠ ، فإنهم ذاقوا مرارة الهزيمة مراراً على أيدى الشعوب المعادية وبخاصة قبائل الكولهوا Colhua ، ومع ذلك فقد وقفوا فى إحدى المناسبات إلى جانب الكولهوا الذين تنازلوا لهم بعد ذلك عن إحدى بنات زعيم من زعمائهم لكى تؤسس لهم سلالة ملكية خاصة بهم . ولكن الآزتكة قدموها ــ بقصر نظرهم ــ قرباناً لآلهتهم ، ومن ثم اضطروا
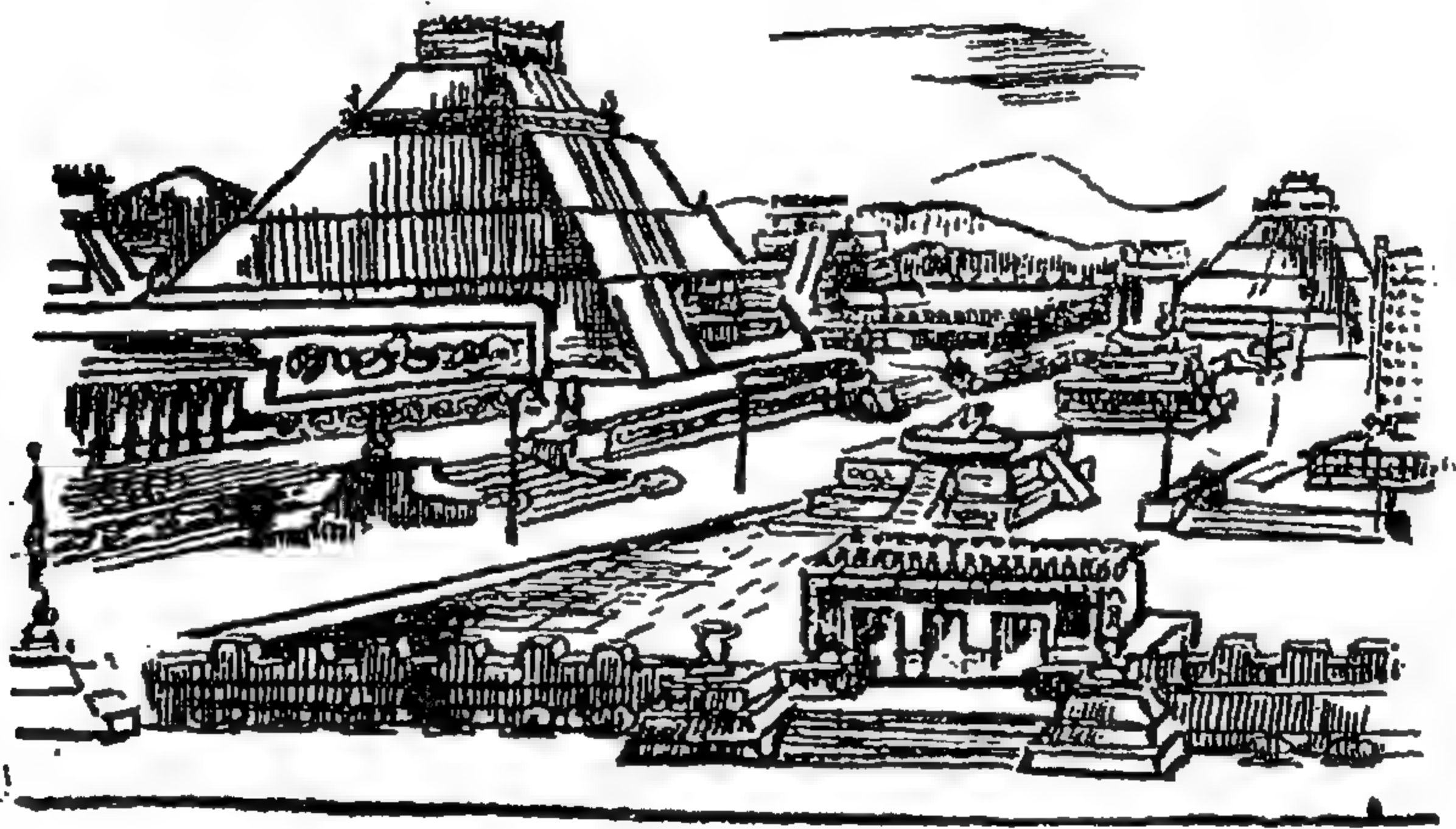
منظر لوسط مدينة مكسيكو (حيث توجد الكاتدرائية حالياً) ، وهو يعطينا فكرة عن شكل المدينة أيام مونتزوما . ويبدو قصر مونتزوما إلى اليسار ويليه الهرم الأكبر ومعبدا هويتزيلوبوشتلى إله الحرب وتلالوك إله المطر . وأمام القصر يظهر حجر المصارعة المستدير ويليه معبد كواتز ــ الكواتل الدائرى ، وإلى يمينه يظهر جزء من آلة ضخمة لتهشيم الجماجم ، والمنظر مأخوذ من صورة للرسام اجناسيو ماركينا Ignacio Marquina

إلى الفرار من نقمة الكولهوا والالتجاء إلى البحيرة ، وذلك فى عام ١٣٢٥ . وقد استطاع الآزتكة أن يحرزوا هناك كثيراً من التقدم والنجاح بحيث استطاعت مدينتهم بعد مائتى سنة فقط أن تمد نفوذها إلى المدن الأخرى ، إما بوساطة الحرب العدوانية وإما بعقد المحالفات . بيد أن الآزتكة لم يعملوا على إدماج هذه الشعوب فى أمة واحدة مثلما كان يفعل الإنكا ، بل كانوا

يكتفون بإخضاعها لولائهم وفرض الجزية عليها عن طريق شن الحروب أو التهديد بها . وقد فعلوا ذلك فى جزء كبير جدا من المكسيك على الرغم من أنهم لم يكونوا مسيطرين تماما على المدن القوية المجاورة لهم على البحيرة ذاتها . وقد خاض كورتيز وجماعته القليلة فى عام ١٥١٩ ذلك البحر المتلاطم من الكبت والكراهية والخيانة والأحلاف المفككة ، واستطاع ذلك الإسبانى العجيب أثناء حروبه ضد الأزتكة أن يجعل من كثير من القبائل التى هزمها حلفاء له .

ولقد أعجب هو ورجاله إلى أبعد حد بمدينة مكسيكو وبفنون الأزتكة وصناعاتهم ، وراعتهم العظمة والفخامة الباديتان فى بلاط مونتزوما والاحترام الذى قوبلوا به ، ولم يقلل ذلك من ارتياعهم من كثرة الضحايا البشرية وكذلك المعابد الوثنية التى كانت تشرف على المدينة من قمم أهرامهم فى الزوكالو Zocalo . وقد وجد الإسبان التجارة هناك منظمة تنظيما دقيقاً وأن مدنهم الرئيسية بها أسواق وطرق ممهدة تشرف الحكومة على صيانتها كما وجدوا أنهم يتخذون من بعض السلع أداة للتعامل كالنقد (مثل الأقمشة والحنطة وثمار الكاكاو) وذلك بالإضافة إلى السلع الأخرى التى كانت تأتيهم بصفة مستمرة كجزية تدفعها القبائل الخاضعة لنفوذهم والتى كانت تسجل بالصور فى سجل ثابت خاص بالجزية . وكانت الجزية تشمل الريش والملابس الملونة والذهب والبخور . والواقع أن التجار كانوا يؤلفون طبقة مهنية تتمتع بقدر من الحظوة والامتياز ، كما كانوا فى الوقت ذاته يعملون عيوناً للحكومة يرشدونها إلى نوع السلع التى ينبغى أن تؤدى بها الجزية ، ويدلونها على أفضل طرق الإغارة والهجوم على القبائل الأخرى . ولكى يقرن الأزتكة إهانة أعدائهم بالإيذاء كانوا يمنحون هؤلاء العملاء الحصانة الديبلوماسية وينكلون بكل من يمسهم بسوء .

وقد كانت الحكومة ذاتها تتألف من جهاز حافل من الموظفين كما كان

هناك نظام قانونى شامل وجهاز للعدالة. ولكن أسلوب الحياة لم يكن مفروضا أو موجهاً توجيها كاملا كما كان عليه الأمر فى إمبراطورية الإنكا، وإن كان هناك بعض الأفكار الصارمة القاسية. فلم يكن يسمح مثلا بشرب خمر البلكوه Pulque لغير الشيوخ، أو بمضغ اللبان لغير الفتيات الصغيرات والعاهرات. وكانت الحياة السياسية بلغت درجة من التقدم والنضج رغم وجود بعض آثار البناء القبلى القديم فى المجتمع، وكان التنظيم الحربى يرتكز على العشائر التى ظلت محتفظة بشيء من الأهمية، بل إن «الإمبراطور» نفسه كان قائداً حربيا ينتخب من بين رؤساء الحرب العشائريين. وكان النظام يمر بعملية تغير سريع ليصبح الإمبراطور حاكما قوياً له الكلمة العليا حين جاء الإسبان.

وتعتبر هذه آخر الثقافات الراقية التى كانت بسبيل الازدهار فى أمريكا حين وضع الأوروبيون حدا لنموها وارتقائها. ولكن هل كان لهذه الشعوب — أو لأسلافها — فى أمريكا الوسطى والجنوبية أية علاقات مع العالم القديم، وبخاصة عبر المحيط الهادى قبل وصول كولمبوس؟ هذا سؤال قديم مزمن. فثمة كثير من المماثلات الغريبة فى الثقافة البسيطة مثل وجود بندقية النفخ. ومن الأمثلة على ذلك تلازم وجود نوعين من النباتات المبكرة (هما القرع العسلى والقطن) على الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية بعد عام ٣٠٠٠ ق.م بقليل، وهما من مجموعة النباتات الصغيرة التى كانت تزرع على ما يبدو منذ عهد بعيد جدا فى آسيا وفى أمريكا على السواء. ولكن ليس هناك ما يدل على أن جزر بولينيزيا — التى كان لا بد من عبورها — عرفت الحياة البشرية قبل العهد المسيحى (ومن المحتمل أن جزر هاواى لم تكن مأهولة بالسكان قبل عام ٨٠٠ ميلادية). وكثير من العلاقات التى يفترض بعض العلماء وجودها أمور خيالية محضة، بينما البعض الآخر يثير الحيرة والارتياك. ولكنه جدير بأن يفحص بجد وعناية مثل سلسلة المشابهات التى توجد بين التصميمات الفنية فى معابد الهندوس والمايا فى المكسيك.

ومهما يكن من شيء فثمة بعض الاعتبارات التى يغفلها فى العادة الذين يفضلون الحلول الرومانتيكية على الحلول الأقرب إلى الاحتمال والمنطق. وأول هذه الاعتبارات هو أن التتابعات الأركيولوجية فى أمريكا تبدو كأنها عملية ارتقاء طبيعية أصيلة طويلة لم تخضع لأية تأثيرات غريبة مفاجئة وبذلك لم تطرأ عليها أية تغيرات ملموسة . والاعتبار الثانى هو أن الشيء الذى أمكن اختراعه مرة يمكن اختراعه مرة أخرى فى مكان آخر . ثالثاً : هل كان البدائيون يغامرون بالقيام برحلات على أكبر جانب من الخطورة لـكى ينقلوا ثقافتهم إلى غيرهم من الشعوب ؟ ثم هل كانت هذه الشعوب تتقبل تلك الشحنات الثقافية بقبول حسن ؟ (ومن غير المحتمل أن تكون الرحلات العارضة التى يجوز أن يكون البدائيون قاموا بها تركت أى أثر واضح) . وأخيراً ، هل حاول هؤلاء العلماء حين ينظرون إلى الخريطة ويتخيلون مثل هذه الرحلات أن يتصوروا حقامعنى عبور آلاف الأميال فى البحر المضطرب الثائر فى قارب — أيا كان نوعه — فضلاً عن عبوره فى قارب بدائى ؟ إن رحلة كونتكى لا تعطينا بحال الجواب كله .

وقد يكون ذلك كله حدث بالفعل ، ولـكن ماذا عسى أن يكون معناه بالنسبة للأمريكتين ؟ إن كل ما تدل عليه الشواهد والبينات التى جمعها العلماء الذين اهتموا بهذه المسألة هو أن المحيط الهادى الشرقى كان يقف حائلا هائلا فى وجه الإنسان ، حتى أفلح البولينيزيون أولا فى اجتيازه ، وأن هنود أمريكا هم أنفسهم الذين بنوا الثقافة التى ساعدت على وجود الأزتـك والمايا والإنكا .

المدن والبرونز - الخطوة الثالثة

١٩
مهد الحضارة فى آسيا

من المحتمل أن يعطينا الحفر والتنقيب فى أمريكا فى يوم من الأيام صورة وافية عن الثقافة التى نشأت من حياة القنص . والواقع أننا نعرف الآن بشكل واضح أن تدجين النباتات واستئناسها على أيدى الهنود ساعدا بفضل الرى على التقدم باستمرار واطراد من البدايات البسيطة إلى إنتاج الطعام بطريقة تنم عن الكفاية ، كما أن القدرة على إنتاج نفس كمية الطعام مع بذل نصف المجهود فقط أدت فى النهاية إلى ظهور مرحلة جديدة بالفعل فى حياة المجتمع هى مرحلة الحضارة أو المدنية .

وقد تكون هناك تعريفات عديدة للحضارة أو المدنية ، ولكننا نكتفى هنا بالقول بأنها « وجود المدن » بكل ما تتضمنه هذه العبارة من معان . فهى تتضمن مثلا توافر الطعام من المناطق الريفية المجاورة بما يكفى حاجة المدينة ، وتوافر وسائل النقل لجلب ذلك الطعام ، ووجود الأسواق وبالتالى ممارسة التجارة عموما وما يتطلبه ذلك من وجود السلع التجارية . كذلك تعنى وجود صناع متفرغين يشتغلون بكل شىء ما عدا الطعام ، كما أنها تتضمن قيام نظم سياسية جديدة تشتمل على جهاز حكومى رسمى لا يقتصر نفوذه على المدينة وحدها بل يمتد أيضا إلى المناطق الريفية التى ترتبط بها بحيث يؤدى ظهور هذه النظم الجديدة إلى تفتت التنظيم المحلى القديم الذى تقوى فيه رابطة القرابة على حساب العلاقات السياسية . ثم هى تعنى فى العادة وجود نظام دينى واسع الانتشار تصبح فيه المعبودات الكبرى آلهة للمجتمع كله وليس مجرد معبودات قبلية . وهذا ما كان بسبيل الحدوث عند الأزتك .

ويقول آخر : إن ظهور الحضارة معناه أن المناطق الريفية تتخذ لنفسها

قبلة تتجه إليها . ذلك أن الحضارة لا تعنى المدن وحدها مع بقاء القرى الزراعية على حالتها « النيوليثية » البسيطة الساذجة ، وإنما تعنى بالأخرى ظهور المدينة كبؤرة للحياة الريفية ، أى أنها تشمل القرى التى لم تعد منعزلة، أو تعيش عيشة الاستكفاء كما هى الحال فى قرى ميلانيزيا أو إندونيسيا حيث يشتغل كل السكان بالفلاحة بصرف النظر عما قد يمارسونه من أعمال أخرى فى وقت فراغهم . وأخيرا فإن الحضارة معناها الدول لا القبائل .

ولقد رأينا أن الداهومى فى غرب أفريقيا كانت لهم حضارة بسيطة وأن الهنود الحمر وصلوا فى ثلاث مناطق على الأقل إلى مستوى أعلى وأسمى رغم ما كان يعترض سبيلهم من عوائق وعراقيل ، ورغم أنهم فشلوا فى الوصول إلى بعض الاختراعات والابتكارات . ولكن هذا فى حد ذاته كفيل بأن يبرز براعة ما نجحوا فى تحقيقه . فقد كانت اللاما هى أفضل حيوانات النقل عندهم . واللاما حيوان أشبه بالجمل ، ولكنه جمل ضئيل الحجم واهن القوى ضعيف الظهر وليس له سنام ، ومع ذلك فإنها أفضل من لاشىء . وعلى أية حال فلم تكن اللاما معروفة فى غير أمريكا الجنوبية . وقد يكون هذا هو السبب فى أن الهنود لم يستخدموا العجلات فى النقل وهذه صعوبة أخرى كانت تعوق وسائل النقل ، ولذا اضطروا إلى الاعتماد على الإنسان نفسه فى حمل الأشياء ، وبذلوا جهودا جبارة للتغلب على هذه العوائق فمهدوا الطرق واستخدموا العدائين لتيسير الاتصال ودربوا جيوشهم على أن يعيشوا بعيدا عن الأرض بقدر الإمكان[١] . وكانوا قد بدأوا فقط يستخدمون المعادن استخداما صحيحا كما كانت الكتابة لا تزال فى بداية نشأتها عند المايا والمكسيكيين .

ومع ذلك فإن التغير الاجتماعى العظيم كان قد بدأ بالفعل وقامت

---

(١) — على اعتبار أن معظم تنقلاتهم أثناء الحروب والإغارات تم عن طريق الأنهار . (المترجم)

إمبراطورية الإنكا كحقيقة واقعية بغض النظر عن وجود أو عدم وجود الكتابة . وقد حدث مثل هذا التغير فى العالم القديم ولكن المزايا الفنية الهامة التى كان يتمتع بها العالم للغزاة الأقوياء الذين يقتلون كل تطور أو ارتقاء قبل أن يكتمل وينضج، مكنت للحضارة وللحياة الحضرية هناك أن تسيرا فى طريقهما لتصلا بين الحياة النيوليثية التى كانت تسود فى عام ٦٠٠٠ ق.م. والحياة التى نحياها نحن الآن .

وقد حدث ذلك فى الشرق الأوسط وهو نفس المركز النيوليثى القديم لمنطقة جنوب غربى آسيا . وقد يكون من الصعب تحديد الموقع والمكان بنفس الدقة التى حددنا بها مواقع تلك المراكز فى العالم الجديد . ولكن يبدو أنه كان هناك ــ كما هى الحال فى العالم الجديد أيضا ــ منطقة أو قاعدة عامة للثقافة النيوليثية الراقية التى ازدهرت فى شكل حضارة فى بعض الجهات مثل وديان الأنهار فى بلاد ما بين النهرين (العراق) ومصر والهند .

أساس العصر البرونزى

من المعروف أن الناس فى العصر الحجرى الحديث كانوا يعيشون على حواف وديان دجلة والفرات والنيل وأنهم بدأوا يستقرون فى الوديان ذاتها فى وقت كانت فيه قيعان تلك الوديان عبارة عن مستنقعات تنمو فيها الأعشاب الكثيفة بشكل كان يتعذر معه فلحها ، وإن كانت وفرة المياه هناك جعلت الزراعة مثمرة إلى أبعد حد ، وبخاصة حين كانوا يستخدمون الرى . وفى «العصر النحاسى» ، وهو فترة متأخرة عن العصر الحجرى الحديث تقدمت فيها الحياة بفضل استخدام بعض الآلات النحاسية ، استطاع بعض السكان المستقرين الوصول إلى قاع وادى دجلة والفرات فى بلاد مابين النهرين ، ولكن الأهم من ذلك هو أنه بين عامى ٤٠٠٠ ق.م. و ٣٠٠٠ ق.م. أمكن استخدام بعض المخترعات البالغة الأهمية والتى كانت فى الحقيقة بمثابة الأساس بالنسبة للمجتمع الجديد .

وقد بلغت هذه الحضارة التى سادت الشرق الأدنى أوج ازدهارها حوالى عام ٣٠٠٠ ق م. وهذا تاريخ تقريبى يمكن اعتباره بمثابة نقطة تحول، كما يمكن تسميته أيضا بداية « العصر البرونزى » وهو اصطلاح قديم كان يرتبط فى الأصل باستخدام المعادن ولكنه يستخدم حاليا للحضارة التى كانت لا تزال فى دور التكوين إبان العصر النحاسى، تماما مثلما تطلق أحيانا كلمة « نيوليثى » على العصر الحجرى الحديث بقصد الإشارة إلى سكنى القرى وإنتاج الطعام. ولقد تجاوز العالم القديم منذ عام ٣٠٠٠ ق.م. أعلى مستوى وصل إليه العالم الجديد، وأخذت أقدام الحضارة تثبت وترسخ فى كل المنطقة الممتدة بين مصر والهند. ولكن ماذا كان يحدث يا ترى قبل ذلك مباشرة؟

كان قاع الوادى فى بلاد ما بين النهرين عند رأس الخليج الفارسى قد ارتفع منذ عهد قريب فقط عن مستوى البحر حين هبط الناس لأول مرة من المرتفعات فى بلاد فارس جالبين معهم ما يعرف باسم ثقافة أوبيد Ubaid وأخذوا يجففون المستنقعات ويشيدون المدن والبلدان. وقد ظهرت المدن وطليت جدرانها الطينية وأصلحت كما ارتفعت الربا ارتفاعا كبيرا وذلك بعد أن استوطن السومريون جنوب بابل واستقر الأكديون فى شمالها.

ولم يلبث أن ظهر أول اختراع عظيم، وهو تسخير قوة الدواب لتحل محل العضلات البشرية. وقد استخدمت الدواب فى ناحيتين رئيسيتين هما الحرث والنقل. والمعروف أن الزراعة النيوليثية تستخدم عصا الحفر أو الفأس سواء كان ذلك فى أمريكا أو أفريقيا أو ميلانيزيا أو فى أوروبا النيوليثية. فإذا أمكن للإنسان أن يستخدم حيوانا كالثور مثلا فى جر فأس كبيرة فإنه يستطيع ليس فقط أن يزرع مساحة أكبر من الأرض، بل وأن يتم الحرث بطريقة أفضل كما يصل إلى طبقات أعمق من التربة وبذلك

تزداد كمية الطعام التى ينتجها الفلاح الواحد زيادة كبيرة .

كذلك إذا استطاع الإنسان أن يستخدم الثور فى جر العربات فإنه يصبح من السهل عليه أن ينقل كل ذلك الطعام الزائد من المزرعة إلى المدينة وأن يستفيد أيضا بمختلف الطرق من سهولة النقل التى أصبحت ميسرة بعد اكتشاف العجلات . والواقع ان الثيران استخدمت أولا فى جر

خريطة تبين المراكز الكبرى للحضارة المبكرة فى العالم القديم وبعض المدن الهامة (ويظهر فيها موقعا جارمو والفيوم النيوليثيان)

الزحافات على الأرض اليابسة قبل أن يبتكر العجل ، ثم ظلت تقوم بهذه المهمة فى الأغراض الطقوسية مثل جنازات الملوك . أما المركبات وعربات الحرب التى تجرها الثيران أو الحمير (إذ لم تكن الخيل لتستخدم حينذاك كما لم يكن ركوبها معروفا) فقد ظهرت قبل عام ٣٠٠٠ ق.م . ثم استخدمت العجلة فى الحال للإسراع فى صناعة الفخار وذلك بإدارة العجلة أثناء تشكيل الفخار ، وإن لم يكن من الصعب أن نعتبر ذلك من الابتكارات التى هزت العالم . لم يلبث الإنسان أن سخر لنفسه قوة أخرى غير بشرية ، وهى المراكب الشراعية التى كانت معروفة بكل تأكيد فى البحرين المتوسط والأحمر قبل عام ٣٠٠٠ ق.م .

وثمة تقدم كبير آخر يتمثل فى صناعة المعادن . فمن المؤكد أن أول

استخدام للمعادن كان هو النحاس المطروق على البارد كما حدث فى أمريكا (وكما وجد فى المقابر المصرية قبل عهد الأسرات). ولم يكن النحاس يستخدم بكثرة فى بلاد مابين النهرين فى أقدم العصور، ولكنهم لم يلبثوا أن عرفوا طريقة صب النحاس المصهور فى القوالب، ثم اتبعوا بعد ذلك طريقة الشمع المفقود فى الصب، فكان الموضوع يصنع أولا من الشمع ثم يغلف بالطين ويحرق فيصبح الطين صلبا بينما يذوب الشمع فى الوقت نفسه تاركا وراءه قالبا مجوفا، ويكسر هذا القالب وينزع بعد أن يصب فيه المعدن المصهور. كذلك توصل الناس قبل ٣٠٠٠ق.م. إلى أن إضافة مقدار ١٠ إلى ١٥ فى المائة من القصدير إلى النحاس تجعل البرونز، وهو سبيكة أسهل فى الصب من النحاس (الذى كثيرا ما يولد فقاعات من الأكسجين فى القالب المجوف) علاوة على كونها أشد منه صلابة بعد أن يتم صنعه. وهذا هو السبب فى أن البرونز وليس النحاس الخالص كان هو المعدن الذى استخدم فى الصناعة طيلة حقبة كاملة من تاريخ الإنسان.

وصناعة المعادن حرفة معقدة نسبيا كصناعة الفخار، وهى لا تحتاج من الإنسان إلى أن يعرف الأماكن التى يمكن العثور فيها على الركائز فحسب، بل وأن يكون لديه أيضا وسيلة ما (مثل الكور) يحصل بها على حرارة تبلغ حوالى ١٢٠٠° مئوية حتى يمكن صب المعدن، وكذلك قوالب وآلات عديدة مختلفة لتشكيله. وقد كان لذلك الكشف بعض الآثار المعقدة. وربما لم تكن الآلات المعدنية ولا المحراث ولا العجلة ضرورية على الإطلاق بالنسبة لحضارة لا تزال فى سبيل التكوين، فقد عاش المكسيكيون بدونها. أما هنا فى الشرق الأدنى فإن استخدام المحراث والعجلة أدى إلى فتح أبواب التجارة بينما فرضت المعادن التجارة فرضا. ذلك أن طمى الوادى لم يكن يحتوى على أى معدن خام على الإطلاق ولذا كان لابد من جلب الركائز من الخارج مثلما كانت الحجارة تجلب فى أولى الفترات المبكرة،

وفى الوقت ذاته أصبح للمعدن الأهمية الكبرى لأنه ييسر للإنسان الحصول على أسلحة أشد فتكا وأبلغ أثرا من الحجارة . فالسكين الحجرية قد تتحطم أثناء القتال ، أما المعدن فهو أشد صلابة ويمكن أن يكون له نصل أكثر حدة ورهافة كما يمكن شحذه أو صبه من جديد إن احتاج الأمر إلى ذلك . كذلك يمكن سبكه فى أشكال جديدة كالسيوف أو الزرد مما لا يمكن صنعه من الحجر . صحيح أن الأزتك كانوا يصنعون سيوفا بتارة من غير المعدن تشبه مضرب الكريكيت ويجعلون لها حدا من نصال حجر الأوبسيدان ، ولكن من السهل جدا أن نتصور مدى تفوق جنود كورتيز بزردهم ودروعهم كما يمكن أن نلمس مثل هذا التفوق فى الجنود المسلحين بأسلحة من البرونز إزاء الأسلحة الحجرية التى لم تكن على مثل جودة أسلحة الأزتك .

وهكذا نجد أن سكان بلاد ما بين النهرين فى عصر ما قبل البرونز وفى العصر البرونزى ذاته كانوا يختلفون كل الاختلاف عن الشعوب النيوليثية فى أنهم كانوا يعتمدون اعتمادا مطلقا على التجارة للحصول على النحاس ، وأهم من ذلك القصدير الخام الذى يوجد فى جهات قليلة فقط من العالم . ويدلنا التاريخ على أن مثل هذه الشعوب خليقة بأن تعمد إلى القوة إذا لزم الأمر لتؤمن من تجارتها الحيوية . وهذا بالضبط هو ما فعله سكان بلاد ما بين النهرين . ونستطيع أن نتصور أثر ذلك فى امتداد واتساع مجتمع المدينة . ولم تكن المعادن مهمة فحسب بل إنها كانت عالية الثمن أيضا ، ولذا كان استعمالها مقصورا فى أول الأمر على الطبقات الحاكمة ومن أجل الأغراض الحربية فقط . ولم تكن تستخدم فى الحياة اليومية مما زاد من أثر الفوارق الطبقية .

سومر وبابل : المعابد والامبراطوريات

وقد استفادت مدن ما بين النهرين القديمة — مثل كيش Kish وأور Ur وإريش Erech من هذه الأشياء واستغلتها فى تطورها ونموها . فبعد

أن كانت المبانى تقام من الفروع المضفورة ثم تغطى بالطين ، بدأت تبنى من اللبن كما ظهر استخدام العقود الحقيقية فى بعض المقابر المبكرة فى أور . ولم تلبث المعابد أن أصبحت تؤلف مظهرا أساسيا بارزا فى المدينة . ففى منتصف تلك الفترة التكوينية تقريبا كان فى إزيش مثلا معبد طوله ٢٤٥ قدما وعرضه مائة قدم ، كما أقيمت فى إريش ذاتها وفى غيرها من المدن عدد من الزقورات Ziggurat (مثل زقورة بابل التى تعرف باسم برج بابل) .
والزقورة هرم مدرج أو رابية تبنى على شكل مصاطب بحيث تبدو أشبه بعدد من الصناديق المصفوفة إحداها فوق الأخرى ، ويشيد فى قمتها معبد صغير أو « بيت » الإله ويبنى له سلم يمر خلال السقف حتى يتسنى لإله المدينة أن يهبط من السحاب حين يشاء . وقد كانت هذه المعابد — حتى فى الزمن المبكر — تفصح عن مدى الثراء العريض الذى كان يتمثل فى التحف الثمينة والذهب والزخارف المصنوعة من الأخشاب المستوردة والطوب المزجج اللامع .

وهذا يدل فى الواقع على أن المعابد كانت بؤرة الحياة الاجتماعية . فقد كانت الآلهة تسوس الناس وتحكمهم عن طريق الكهنة كما كانت لها أملاكها الخاصة . وكانت المعابد أشبه شىء بالجمعية أو النقابة إذ كانت تملك مساحات واسعة من الأرض تقوم بتأجيرها للناس وتقرض البذور للفلاحين وتجبى الضرائب وتقوم على العموم بكل مهام الدولة . وعلى ذلك كان رجال الدين والآلهة هم العصب المركزى الذى تكونت حوله حياة المدينة ، وفى ذلك كانت سومر تشبه بلاد المايا . ولم تكن المعابد تقنع بإدارة ممتلكاتها بطريقة تعود عليها بالربح فحسب ، بل كانت أيضا تصنع أدوات الترف والسلع للسوق ، كما كان لها عمال خصوصيون يقومون بزراعة أراضى المعبد ورعى ماشيته ونسج الملابس وصنع الجعة والخبز (فكان لأحد المعابد فى لجش Lagash مثلا واحد وعشرون خبازا خاصا به) .

وهكذا نجد أن المعابد كانت تسيطر على الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية وتوجهها، وهو عمل ضخم. وقد أدت متطلبات الإدارة — كما حدث فى الأمريكتين إلى حد ما — إلى ظهور مجموعة ثانية من الاختراعات أو الابتكارات الهامة بالنسبة للحضارة وهى فنون القياس وكذلك الرياضيات والكتابة. والقياس معناه بالطبع التقدم أو الانتقال من استخدام الوسائل التقريبية السهلة إلى استخدام المعايير الثابتة. وقد فعل السومريون ذلك فى كثير من المجالات. فالذراع عندهم كانت تبلغ حوالى ١٩½ بوصة وكانت تنقسم إلى ٣٠ «إصبعا»، وهذا يبين لنا المصدر الأول الذى استمدوا منه فكرة قياس الأبعاد القصيرة. وقد تبدو هذه مسألة بدائية ساذجة، ولكنهم أيضا قسموا الدائرة إلى ٣٦٠ درجة والدرجة إلى ٦٠ دقيقة
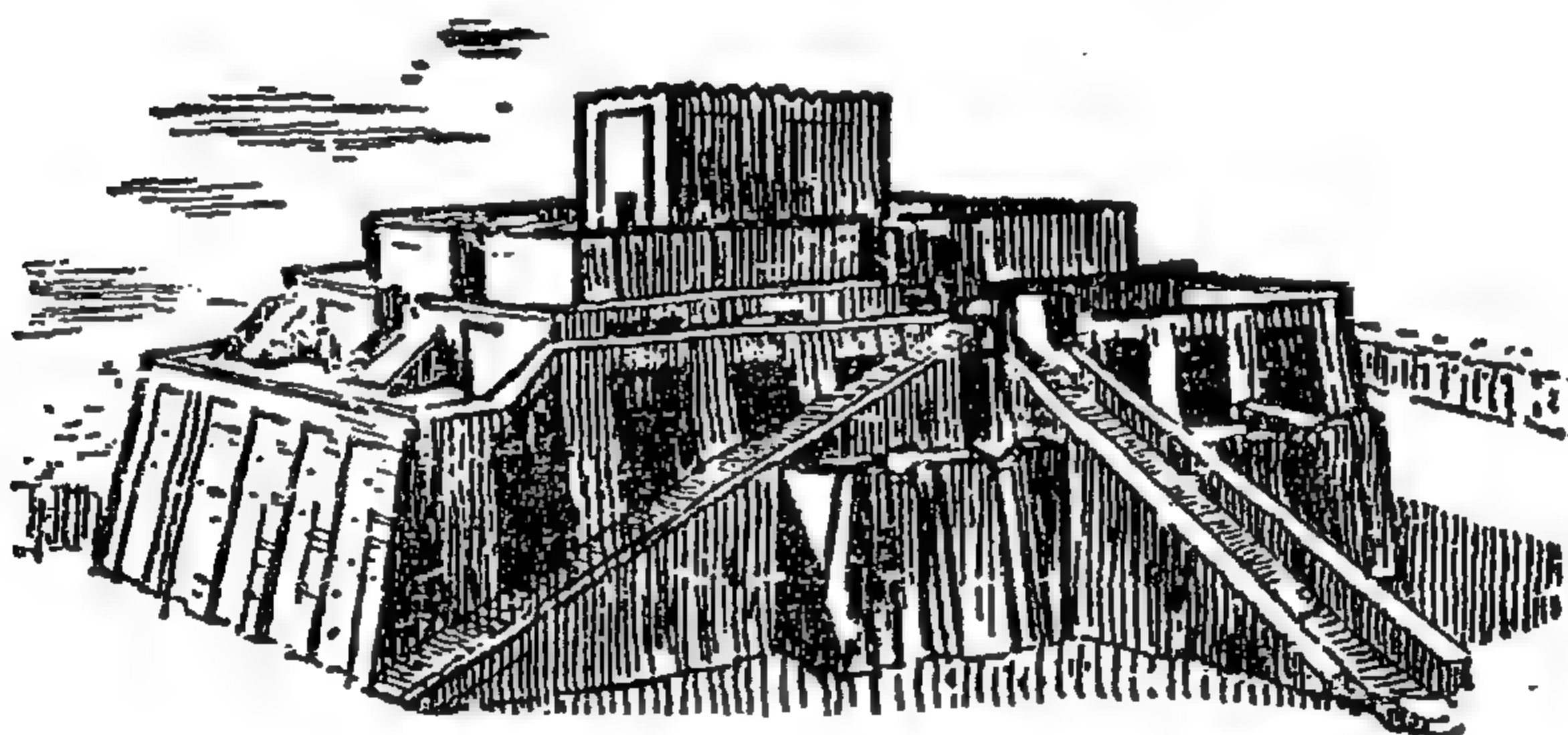
زاقورة أور Ur كما كانت تبدو فى الأغلب

وما زلنا نتبع هذا التقسيم للآن. كذلك كانت عندهم وسائل لقياس المساحات والأوزان وفيها كانت المينا mina (١٦⅛ أوقية) تنقسم إلى ٦٠ شاقولا shekels. وتكشف لنا هذه الأرقام المختلفة عن نظام العد عندهم وهو النظام الستينى الذى يحتوى على علامات للأرقام ١، ١٠، ٦٠ ومضاعفات الستين. وكان ذلك نسقا لجأ بعض الشىء فى بدايته، كما كان يتبع فى بعض الحالات الطريقة الرومانية التى تقوم على الطرح كما هى الحال فى العدد الرومانى IV الذى يعنى خمسة ينقصها واحد أى أربعة (٥ — ١ = ٤).

وترجع عمليات المحاسبة الأولى عندهم إلى حوالى عام ٣٣٠٠ ق . م. وكانت تتناول كل أنواع القروض وإيجارات الأرض وتقديرات الأيدى العاملة وما إلى ذلك . كذلك كانت الرياضيات تهتم بنفس النوع من المشكلات العملية مثل تقديرات الحجوم ، ولكنها كانت تتقدم بمضى الزمن بخطا واسعة نحو معالجة موضوعات أخرى جديدة مع استخدام الجداول والمعادلات ، ثم توصلوا بعد ذلك بوقت طويل إلى استعمال الكسور . وكان السومريون يتحاشون هذه المشكلة فى البداية بتقسيم المعايير المستخدمة فى الأوزان والأطوال إلى أقسام فرعية كثيرة جداً . وقد تجنب المايا الكسور باستخدام المعادلات التى كانت تلائم أغراضهم الفلكية كأن نقول مثلا « إنه يقطع ياردتين فى ثلاث خطوات » بدلا من أن نقول « إنه يقطع ⅔ ياردة فى الخطوة الواحدة » .
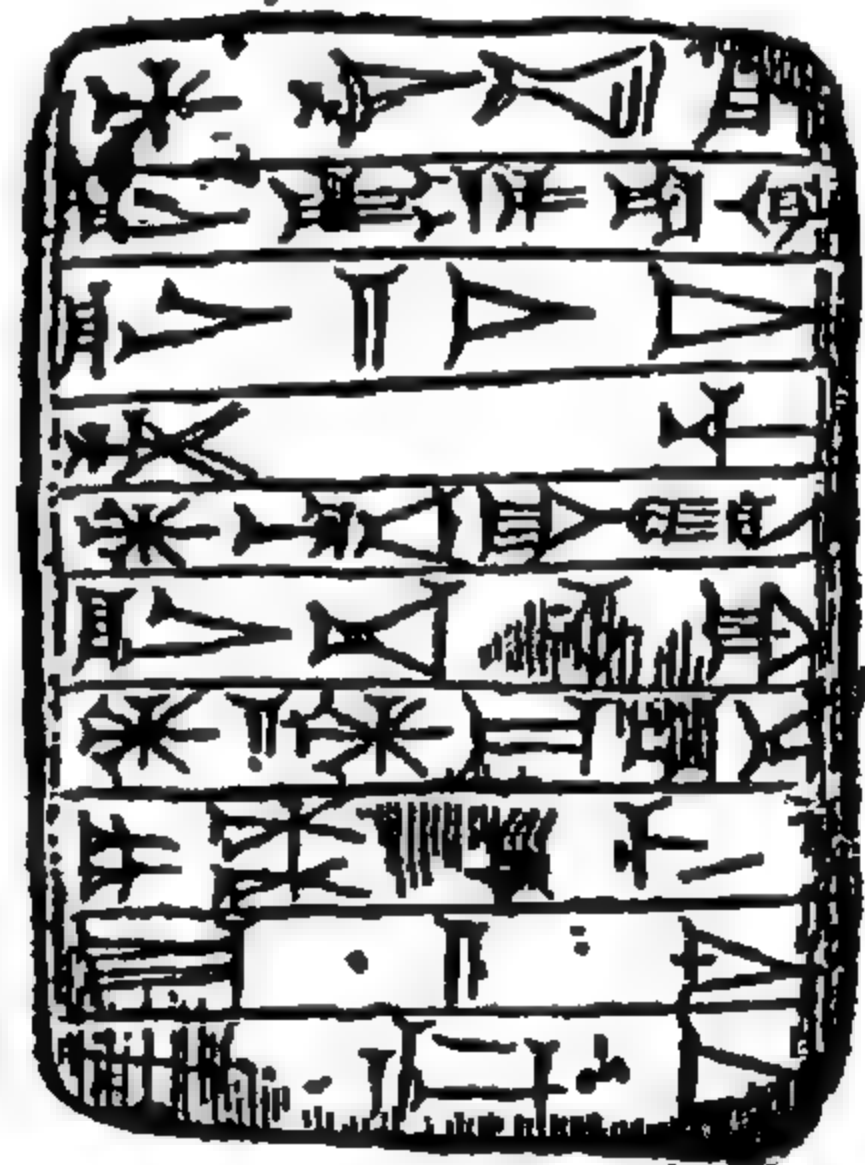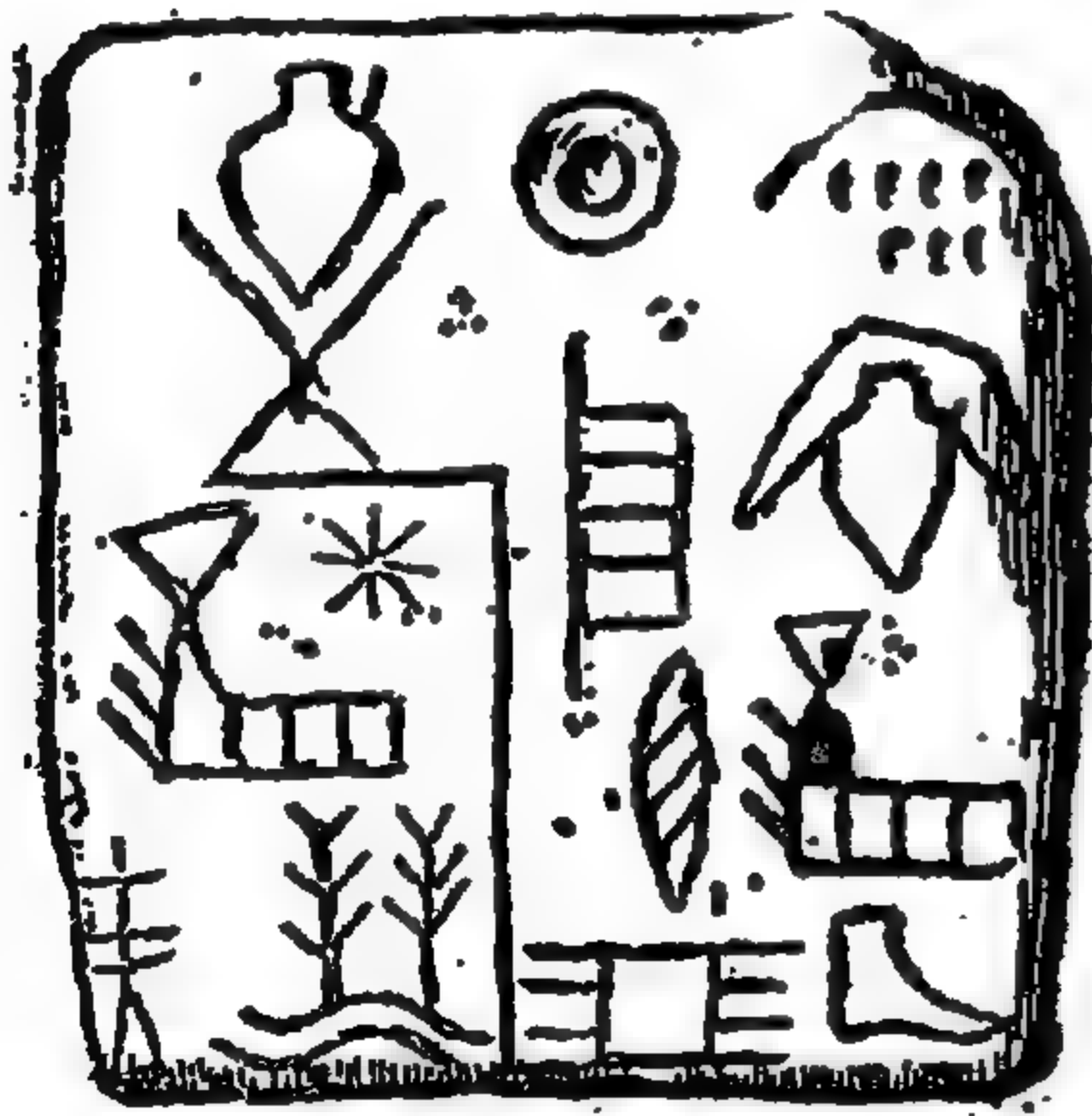
مثالان للكتابة السومرية : إلى اليسار نقوش تصويرية ، وإلى اليمين كتابه مسمارية من الحقبة السومرية المتأخرة . أما الكتابة المسمارية التى نراها عادة فى الكتب فإنها من بابل وترجع إلى فترة أكثر تأخراً من هذا .

أما الكتابة فقد بدأت باستخدام الصور كما هو شأنها فى كل مكان ، ثم استخدمت العلامات للدلالة على أشياء معينة بالذات (الحروف الرمزية ideographs) ، أى إنها أصبحت كتابة رمزية أكثر مما تعتمد على الصور. وكانت هذه الحروف ترسم فى أول الأمر على الطين اللزج ولكنها أصبحت

فيما بعد تحفر فى الطين بوساطة عصا ذات طرف مدبب على شكل الإسفين بحيث كانت الرموز تبدو على هيئة تركيبات من الإسفينات الصغيرة كما هو شأن الكتابة الصينية تماما التى تتركب من عدد من اللمسات بالفرشاة (وقد استخدموا أيضا رسوما مستديرة ولكنهم نبذوها بعد فترة وجيزة) . وشكل الإسفين هو الذى أعطى هذا الخط المشهور اسمه الذى يعرف به وهو « الخط المسمارى » . والواقع أنه لا يوجد فى بلاد ما بين النهرين شىء أكثر من الطين والطمى ، ومن حسن الحظ أن الناس كانوا يشكلون الطين والطمى على شكل ألواح مستطيلة ثم يكتبون عليها ، وكثيرا ما كانوا يحرقونها بعد ذلك . ولذا بقيت لنا نماذج كثيرة جدا من هذه الكتابة تشمل طرق تعليم الخط ذاته بل ونماذج من خط التلاميذ — وهذه مسألة لها أهميتها وفائدتها — بل وهناك أيضا مجموعات من الكتابات القديمة ترجع إلى عصور تالية كانت محفوظة فى « متاحفهم » . ومهما يكن من شىء ، فحوالى عام ١٥٠٠ أو ١٠٠٠ ق.م .كان سكان تلك المنطقة يعتبرون الألواح التى كتبت فى عام ٢٠٠٠ ق.م . أو ما قبلها أشياء قديمة وينظرون إليها مثلما ننظر نحن إلى آثار روما القديمة .

ولكننا نتكلم هنا عن أقدم الكتابات . فقبل عام ٣٠٠٠ ق.م . أصبح لحروف الكتابة أصوات وليس مجرد معان فحسب ، أى إنها صارت حروفاً صوتية، وبذلك أصبح فى الإمكان استخدامها بدلا من المقاطع فى كتابة الكلمات الجديدة كما هو الشأن مثلا حين نريد أن نكتب كلمة «before» الإنجليزية فنرسم صورة نحلة bee مع الرقم ٤ (4) . ومن الأسباب التى أدت إلى ذلك أن الخط السومرى بدأ يستعمل فى كتابة الأسماء الأكدية. فقد كانت اللغة الأكدية لغة سامية بعكس لغة سومر (التى لا نعرف أصلها) ، وعلى ذلك فإن العلامات التى كان لها معان وأصوات فى اللغة السومرية كانت تفقد معناها الخاص حين تستعمل لكتابة الحروف الصوتية فى تلك

اللغة الأجنبية . وعلى أية حال فإن هذه الكتابة كانت قد تطورت وتقدمت في ذلك الحين بحيث أصبحت تشتمل على ٢٠٠٠ علامة .

وهذا يؤدى بنا إلى الوقوف بأحد الأبواب العريضة الكبرى المؤدية إلى الحاضر . فقد كان العمل الشاق تم وانتهى حوالى عام ٣٠٠٠ق.م . فحياة المدينة التي ترتكز على توافر الغلات الزراعية ووجود حكومة قادرة على تصريف الأمور القومية وتستعين في شئونها الإدارية بالكتابات والرياضيات كانت قد اكتملت ونضجت وبلغت حد الإثمار ، كما أن الآلات المصنوعة من البرونز وكذلك عربات الحرب التي تجرها الحمير زودت الناس بالقوة اللازمة لحكم المدينة والدفاع عنها . لقد كان ذلك بداية العصر البرونزي ، وفيه أصبح الإنسان مهيأ لخوض غمار الحياة التي نعرفها ولتكوين المجتمعات الكبيرة التي لا يحدها شيء .

وإذا تغاضينا عن الشكوك التي تدور حول دقة بعض التواريخ أمكن أن نزعم أن ذلك كان بداية التاريخ . وعلى أية حال فإن بلاد ما بين النهرين بدأ يكون لها تاريخ ، إذ بدأت المدن التي تخضع لنفوذ المعبد في الظهور وأصبح إله المدينة هو الملك ، وكان يحكم عن طريق « إيشاكو » أو الكاهن الأعلى والحاكم التنفيذي الذي يمارس سلطانه باسم الإله . وبمرور الزمن أصبح هؤلاء الحكام ملوكا مستقلين ، بل وكثيرا ما كانوا يرفعون أنفسهم إلى مصاف الآلهة . وهكذا أصبح لمدن سومر وأكد أسرات ملكية بعد عام ٣٠٠٠ ق م . وتكشف لنا المقابر الملكية المبكرة في أور بكل ثرواتها وكنوزها (من الضحايا البشرية والأقداح والأوعية والخوذات المصنوعة من الذهب وكذلك الحلى وقيثارة الملكة شوباد والحمل والغابة المصنوعة من الذهب وأحجار اللازورد) عن سلطة هؤلاء الحكام الأفراد وقوتهم .

ومن الصعب تحديد التواريخ التى حكم فيها هؤلاء الملوك الأوائل ، لأن فترات الحكم التى تسجلها الوثائق طويلة بشكل غير معقول ، كما أن الأسرات المالكة ذاتها انتحلت لها فى الحال أسلافا يصعب التصديق بوجودهم وكانوا يزعمون أنهم وجدوا قبل الطوفان الذى وصفوه فى سجلاتهم بأنه مصيبة كبرى حلت بالأرض قبل عصر الأسرات مباشرة (ويحتمل أن الطوفان كان فيضانا هائلا غمر الوادى كله نتيجة لهطول أمطار غزيرة وهبوب رياح شديدة وكذلك ارتفاع مياه الخليج الفارسى بشكل غير عادى) . وتبدو حياة هؤلاء الأسلاف الأوائل الأبطال فى الإصحاح الخامس من سفر التكوين قصيرة جدا إن هى قورنت بما ورد فى سجلات سومر ، إذ نجد عندهم قائمة بثمانية (أو عشرة) ملوك من حكامهم قبل الطوفان يصل مجموع حكمهم إلى ٢٠٠ر٢٤١ ، ٠٠٠ر٤٥٦ سنة على الترتيب .

وأيا ما تكن دلالة ذلك فقد تتابع الملوك والحكام واحداً بعد الآخر ، وكانت المدن الدول تتحارب فيما بينها فى بداية الأمر وتفرض إحداها سلطانها من حين لآخر على الأخرى حتى جاء سرجون Sargon ، ملك أكد السامية التى تقع إلى الشمال ، حيث كان يحكم من عاصمة ملكه التى لم تكتشف بعد فهزم الطاغية السومرى لوجا لزيجيسى Lugalziggisi حاكم إرك Erech وهدم أسوار المدينة ذاتها وأخضع بلاد سومر ووصل إلى شواطىء الخليج الفارسى حيث غسل يديه غسلا طقسيا فى مياه البحر كحاكم على سومر وأكد .

وقد احتفظت هذه الامبراطورية الصغيرة بتماسكها لفترة من الزمن ، بل إنها مدت فتوحاتها غربا أيام نارام ـ سن Naram—Sin ولكنها لم تلبث أن تفككت بفعل الإغارات والهجمات العديدة ضدها . وفى غمرة الفوضى التى نجمت عن ذلك تدفقت عليها من الجبال الشرقية شعوب جوتيوم Gutium المتبربرة الذين استولوا على الحكم لمدة تزيد على مائة

سنة . فهنا إذن نجد بوادر إحدى العمليات التى كانت تكرر نفسها المرة تلو المرة خلال التاريخ ، وهى ظهور أحد المراكز المتحضرة الذى يعمل فى دأب على نشر ثقافته على نطاق واسع حتى يجذب فى آخر الأمر انتباه الشعوب المتبربرة التى تسكن على أطرافه والذين لا يملكون ما يخشون عليه من الضياع فيغيرون عليه مستخدمين من نفس أسلحة ذلك الشعب المتحضر ويوقعون به الهزيمة ، ثم ينتهى بهم الأمر إلى أن يصبحوا هم أنفسهم جزءا من العالم المتمدين . لقد حدث ذلك فى المكسيك مع التشيتشميكا ، وأغلب الظن أنه حدث فى بيرو ، ومن المؤكد أنه ظاهرة أساسية فى تاريخ الصين .

ثم تمكنت بعض مدن سومر من أن تسترد استقلالها فأعادت تشييد معابدها وقصورها ، وازدهرت الحياة فى لجش وأور واريش من جديد ، وأسست أور امبراطورية عاشت فترة قصيرة ، ولكن لم يلبث أن ظهر خطر بربرى جديد من العموريين Amorites الذين كانوا يسكنون المنطقة الشمالية الغربية من أعالى الفرات وكذلك من العيلاميين Elamites الذين يسكنون التلال الشرقية . فقد زحفت تلك الأقوام وأسقطوا آخر أسرات أور وكونوا أسرتين حاكمتين فى مدينتى إيسن Isin ولارسا Larsa ، وكانت كل منهما تدعى حكم سومر وأكد . وأخيرا تأسست أسرة عمورية أخرى فى بابل حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . استطاعت خلال مائة عام أن تثبت فى حزم وقوة نفوذ الإمبراطورية البابلية التى كانت تمتد حتى نينوى فى الشمال ، وبذلك اختفت سومر وأكد القديمتان من الوجود ، بل إن اللغة السومرية لم تعد تستعمل واندثرت تماما . وكان الحاكم المشهور فى ذلك الحين هو حمورابى الذى استطاع — بالإضافة إلى ما حققه من أعمال أخرى كثيرة — أن يجمع ويقنن شرائع سومر القديمة فى قانونه العظيم الذى يحمل إسمه وأن يفرضه على المملكة كلها . وقد استطاع حمورابى أيضا أن يمد حدود

مملكته ، وعمل على تنمية التجارة كما أدخل بعض التعديلات على الدين (فقد رفع مثلا مركز ماردوخ Marduk إله بابل) ووضع خطة مرسومة لمستقبل المدينة .

ولكن هذا لم يكن يعنى استمرار أو هــدوء حكم بابل لبلاد ما بين النهرين . فقد تجددت الغزوات بعد ثلثمائة عام ، إذ جاء الحيثيون Hittites أولا من الغرب (وكانوا يتكلمون لغة هندوأوروبية قديمة) فنهبوا المدينة وخلفوا وراءهم إمبراطورية متداعية . ثم جاء قوم آخرون يشبهونهم وهم الكاسيون Kassites فاستولوا على مقاليد الملك واستمروا فى الحكم لفترة تزيد على خمسمائة سنة، ويحتمل أن يكونوا هم الذين أدخلوا الحصان. وكانت آشور خلال هذه القرون قد نمت وترعرعت فى الشمال الغربى ومن ورائها دولة الحيثيين التى كانت تتاخم أراضى مصر فى فلسطين . وكانت آشور أيضا تشن الحروب والإغارات على بابل على فترات متقاربة وإن كانت هذه الإغارات تأتى أحيانا من الجانب الآخر . وهكذا كانت الإمبراطوريات تنمو وتكبر حتى انهارت الإمبراطورية الأشورية قبل عام ٦٠٠ ق . م واندثرت إلى الأبد على أيدى أعدائها ، بينما مرت بابل بفترة إحياء أو نهضة قصيرة استمرت حتى غزا الميديون والفرس فى النهاية كل المنطقة الممتدة بين بلاد اليونان والهند .

الاختراعات التحسينية فى العصر الحديدى

وهذا تاريخ مليء بدخان الحرب ، ولكنه شهد أيضا بعض الخطوات الجبارة فى فنون السلم . ويأتى فى مقدمة ذلك اكتشاف معدن جديد هو الحديد . صحيح أن بعض الأدوات كانت تصنع من الحديد النيزكى قبل ذلك بوقت طويل ، ولكن يجب أن ننظر إلى هذه الأدوات على أنها مجرد غرائب لا تدل على معرفة حقيقية بالحديد ، ولذا كانت معرفة الحديد اختراعا جديدا تماما من الناحية العملية . فعملية سبك الحديد البدائية

تختلف اختلافا كليا عن صهر النحاس ، وعلى ذلك فهى لم تأت كخطوة طبيعية من صناعة النحاس والبرونز. إذ بدلا من أن ينصهر الحديد فى شكل سائل لامع قابل للصب فإنه يظهر (من كل ذلك الخليط الذى يؤلف الحديد الخام ، وفى درجات حرارية أكثر انخفاضا إلى حد ما) فى شكل سبيكة إسفنجية قذرة يشوبها بعض الكدر ولكن يمكن طرقها فيما بعد لتشكيلها بحسب الطلب . (والواقع أن عملية صهر الحديد وصبه فى درجات حرارة مرتفعة ظهرت لأول مرة فى الصين بعد بداية العهد المسيحى بزمن طويل).

ويبدو أن سبك الحديد عرف فى منطقة بعيدة تقع إلى الشمال من بلاد مابين النهرين ، فى أرمينيا ، ربما حوالى عام ١٤٠٠ ق . م . ولكن هذه المعرفة انتشرت بسرعة فى المائتى سنة التالية لأن الناس بدءوا فى ذلك الحين يقدرون قيمة المعادن حق قدرها ويدركون أن الحديد يفضل البرونز من عدة وجوه (وإن لم يكن له نفس المظهر) ، كما أن ركيزته توجد بوفرة وفى أماكن أكثر من ركائز النحاس أو القصدير وقد زاد انتشاره فى العصر الحديدى ، وإن كان من الصعب أن نعتبر ذلك بداية لعصر عظيم جديد بالمعنى الذى كان عليه العصر البرونزى .

وظهرت فى ذلك الحين أيضا ابتكارات أخرى تهدف إلى تحسين وتهذيب الاختراعات الموجودة بالفعل . وكما أن حياة المدينة المبكرة عرفت استخدام النحاس الذى أدى فى العصر البرونزى إلى استخدام البرونز ، كذلك عرفت بعض طرائق بسيطة للعـــد والقياس والكتابة لم تلبث أن تطورت بشكل ملموس حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م . فقد كان السومريون يعرفون العد عن طريق الوضع ، بمعنى أن وضع الرقم نفسه كان يدل دلالة واضحة على قيمته وهل هو يشير إلى ٦٠ مثلا أو إلى الواحد الصحيح أو إلى الكسر . وأما اختراع الصفر — وهو يعد بمثابة اللمسة الأخيرة فى ذلك كله — فلم يتم إلا بعد عام ١٠٠٠ ق . م. أى قبل أن يصل

إليه المايا ببضعة قرون (وقد توصلت الهند إلى نفس الاختراع بعد المايا ببضعة قرون أيضاً) .

وقد أصبحت فكرة المقاييس أكثر ضبطاً وثباتا وبخاصة بعد ظهور فكرة المدفوعات فى التجارة . فقد كانت الفضة تستخدم أداة للتبادل ، وكانت قيم السلع تقدر بشواقل Shekels من الفضة مما دفع المعابد إلى إصدار ألواح من الفضة دمغت عليها أوزانها مع شهادة المعبد بصحتها ، وهكذا لم تعد ثمة حاجة إلى وزن الفضة فى كل عملية من عمليات التبادل . وقد أصبحت ألواح الفضة بذلك شيئا له قيمة كأداة صالحة وملائمة لأعمال طبقة التجار ، ولكن لم يكن من اليسر على كل إنسان أن يحملها فى جيبه كما أنها كانت تختلف فى القيمة التى تحملها إحداها عن الأخرى . وأخيراً ظهرت فى أقصى الغرب من تركيا فكرة رائعة هى صياغة الفضة فى نقود صغيرة جدا أو متشابهة تماما حتى يمكن إنفاقها بمقادير صغيرة كما يمكن لكل إنسان أن يمتلكها .

كذلك خضعت الكتابة لعملية تبسيط موفقة . ولقد قام السومريون بعمل رائع لإنشاء نسق للكتابة عندهم، ولكن حتى بعد أن تغيرت العلامات عندهم من الحروف الرمزية الخالصة لكى تمثل الأصوات أيضاً ، ظلت كتاباتهم تستخدم بضع مئات من تلك الحروف الرمزية . والواقع أنها لم تتجاوز ذلك أبدا وإنما وقفت عند نفس المرحلة التى وقفت عندها الكتابة الصينية . وكان الكتبة يؤلفون طبقة متميزة تحيط نفسها بهالة من الغموض كما كانوا يحتاجون إلى مرانة وتدريب طويلين ، شأنهم فى ذلك شأن أطباء اليوم . ولكن الكتابة انتشرت رغم ذلك ثم أحرزت فى آخر الأمر تقدمين رائعين على شواطىء البحر المتوسط . فحوالى عام ١٥٠٠ ق . م . أخذ شخص ما فى رأس شمرا بسوريا تسعا وعشرين من العلامات السومرية وجعلها تمثل فقط الأصوات البسيطة الأساسية (وليس المقاطع) ونبذ بقية العلامات

التى كانت تقدر بالمئات والتى كانت لا تزال موجودة بكل معناها الرمزى. وكانت هذه حروفا هجائية حقيقية يمكن للإنسان أن يتهجى بها أى شىء . صحيح أنها كانت تختلف عن حروفنا الأبجدية، ولكن حوالى عام ١٢٠٠ ق.م. ظهرت فى مكان ما من فينيقيا مجموعة جديدة تماما تتألف من اثنتين وعشرين علامة استخدمت فى الغرض ذاته ، وكانت هذه هى الحروف الهجائية التى تفرعت منها كل الأبجديات المعروفة فى التاريخ : الإنجليزية والعبرية والعربية والهندوسية وغيرها .

وهكذا يمكننا أن نعتبر العصر الحديدى فى الشرق الأدنى بمثابة القمة التى وصلت إليها بعض أسس وأصول العصر البرونزى ، والتى اتخذت فيها هـــذه الأسس والأصول نفس الصورة التى نعرفها اليوم . فقد صنعت الأدوات العادية من المعدن الرخيص ، واتخذ المـال شكل النقود ، بينما تحولت الكتابة إلى حروف أبجدية يستطيع أى طفل أن يتعلمها . وقد قضت هذه التبسيطات على الامتيازات التى كان يحتكرها رجال الحرب والملوك والتجار والكتبة ، وقربت كثيراً من الحضارة لعامة الناس ، وقللت إلى حد كبير الفوارق الطبقية التى كانت هى القاعدة فى العصر البرونزى .

شعب الهارابا فى غرب الهند

ولكننا توغلنا الآن فى العصور التاريخية . فلنرجع إذن على أعقابنا للنظر إلى التفرعات الحضارية الأخرى فى آسيا، ويتمثل أحد هذه التفرعات فى إحدى الإمبراطوريات العظيمة العتيقة التى شملت وادى السند كله فى أقصى الغرب من الهند . والمحتمل أن هذه الإمبراطورية استمرت ألف سنة من عام ٢٥٠٠ ق . م . أو قبلها . ثم نبذت بشكل ما من التاريخ لمدة تربو على الثلاثين قرناً إلى أن سلطت عليها أضواء المعرفة مرة أخرى منذ حوالى جيل واحد فقط .

وقد سبق هذه الإمبراطورية ظهور القرى التى كانت تعرف استخدام البرونز والحديد وذلك فى المنطقة بين السند غربا وبلوخستان[1]. وقد حدث ذلك بلا ريب فى زمن معاصر لمدن سومر المبكرة ، لأن ثمة بعض صلات ضعيفة فى أسلوب صناعة الفخار (ولا بد أن المنطقة كانت أقل جفافا مما هى عليه الآن ، ويحتمل جداً أن تكون حدود الأمطار الموسمية تحركت منذ ذلك الحين مبتعدة عنها نحو الشرق) . وبعد نشوء هذه الثقافات القروية ببضعة قرون ظهرت حضارة متجانسة كانت تؤلف بلا شك عالما واحدا يضم عددا من المدن الواقعة على طول السند ولكنها خضعت لنفوذ مدينتين متشابهتين إلى أبعد حدود التشابه، وهما هارابا فى البنجاب فى الشمال وموهنجودارو التى تبعد عنها بحوالى ثلثمائة وخمسين ميلا فى الجنوب . وترجع جذور حضارة الهارابا ولا ريب إلى سكان القرى الأكثر بساطة وإن كانت تعرضت فى الوقت ذاته أيضاً لبعض المؤثرات الأساسية من مصدر آخر هو بلا جدال بلاد مابين النهرين أو فارس . أما كيف امتزج هذا كله مكونا الحضارة الجديدة ولماذا ظهرت هذه الحضارة على تلك الصورة الكاملة الناضجة فى كل تلك المنطقة الواسعة المترامية الأطراف، فإنها لا تزال أمورا غامضة . ومهما يكن من شىء فلم تصل أعمال الحفر والتنقيب بعد إلى أعمق المستويات فى موهنجودارو . فعلى الرغم من ازدياد جفاف المناخ فقد ارتفع منسوب المياه الجوفية .

وقد عرف الناس زراعة القمح والشعير والقطن والبلح كما كانوا يعرفون الماشية المسنمة، وذوات القرون القصيرة والجاموس والغنم والفيلة والخنازير والدجاج ، وهى قائمة تدل على وجود علاقات وروابط قوية مع بقية بلاد الهند ، وعلى أن المناخ كان أقل جفافا بالفعل (وقد وجدت أفراس النهر والنمور أيضاً) . كذلك كان الناس يعرفون صناعات البرونز

---

(١) توجد دراسة ممتازة لهذه النقطة والنقط التالية فى كتاب:
Stuart Piggot: Prehistoric India

والنحاس والرصاص والذهب والفضة ، شأنهم فى ذلك شأن السومريين ، ولكن بينما كان السومريون يقيمون مدنهم من اللبن ويشقون شوارعها بغير انتظام أو تخطيط ويبنون الجدران والأسوار الجديدة فوق القديمة بلا أدنى اعتبار ، كان سكان مدينتى السند يتبعون على مر القرون خطة دقيقة فى شق الشوارع ، كما كانوا يستخدمون الطوب الآجر فى البناء ، وبذلك ظلت تفاصيل أساسات المبانى واضحة بحيث يمكن فحصها الآن . وكانت بيوت الأغنياء ذات حجم معقول وتقام فيها سلالم من الطوب الآجر تؤدى إلى الطابق الثانى ، وكانت سقوفها ترفع على دعائم من الخشب كما كانت تزود بحمامات تفرغ فى أنابيب مدفونة فى الجدران وتصب فى قنوات وبالوعات تحفر عبر الشارع أو أسفل منه . أما الجدران الخارجية فكانت عبارة عن واجهات غير بارزة من الآجر ، ولم يكن لها نوافذ تطل على الشوارع الضيقة مما يدل على ميلهم للعزلة والتستر . ويمكن القول بأنه لم تكن للمنازل أبواب أمامية ، بل كان لها فقط أبواب خلفية لأن مدخل البيت كان فى العادة بسيطا ومتواريا . ويبدو أن جزءا كبيرا من الجدران الداخلية كان يغطى بالملاط .

وبعض البيوت التى من هذا القبيل كانت أقرب إلى القصور ، وكان يلحق بها عدد من الحجرات الصغيرة التى كانت تخصص للحراس أو الخدم . ولكن كانت هناك بيوت من نوع آخر أكثر انتشاراً يتألف كل منها من حجرتين وتبنى كلها فى شكل صفوف متراصة وتخصص لسكنى العمال . وربما كانت هناك بعض المعابد ، ولكننا لم نتعرف عليها أو لم نكتشفها بعد . (وثمة احتمال بوجود معبد مطمور بأسفل أحد المعابد البوذية الحديثة فى موهنجودارو) . ولعل أشهر المبانى التى يمكن رؤيتها هناك هى صوامع الغلال وأحد الحمامات الكبرى المزودة بمقصورات الغسل وحوض مركزى للاستحمام ؛ وربما كان ذلك هو أصل حوض الاستحمام الشعائرى الموجود فى المعابد الهندوكية) .
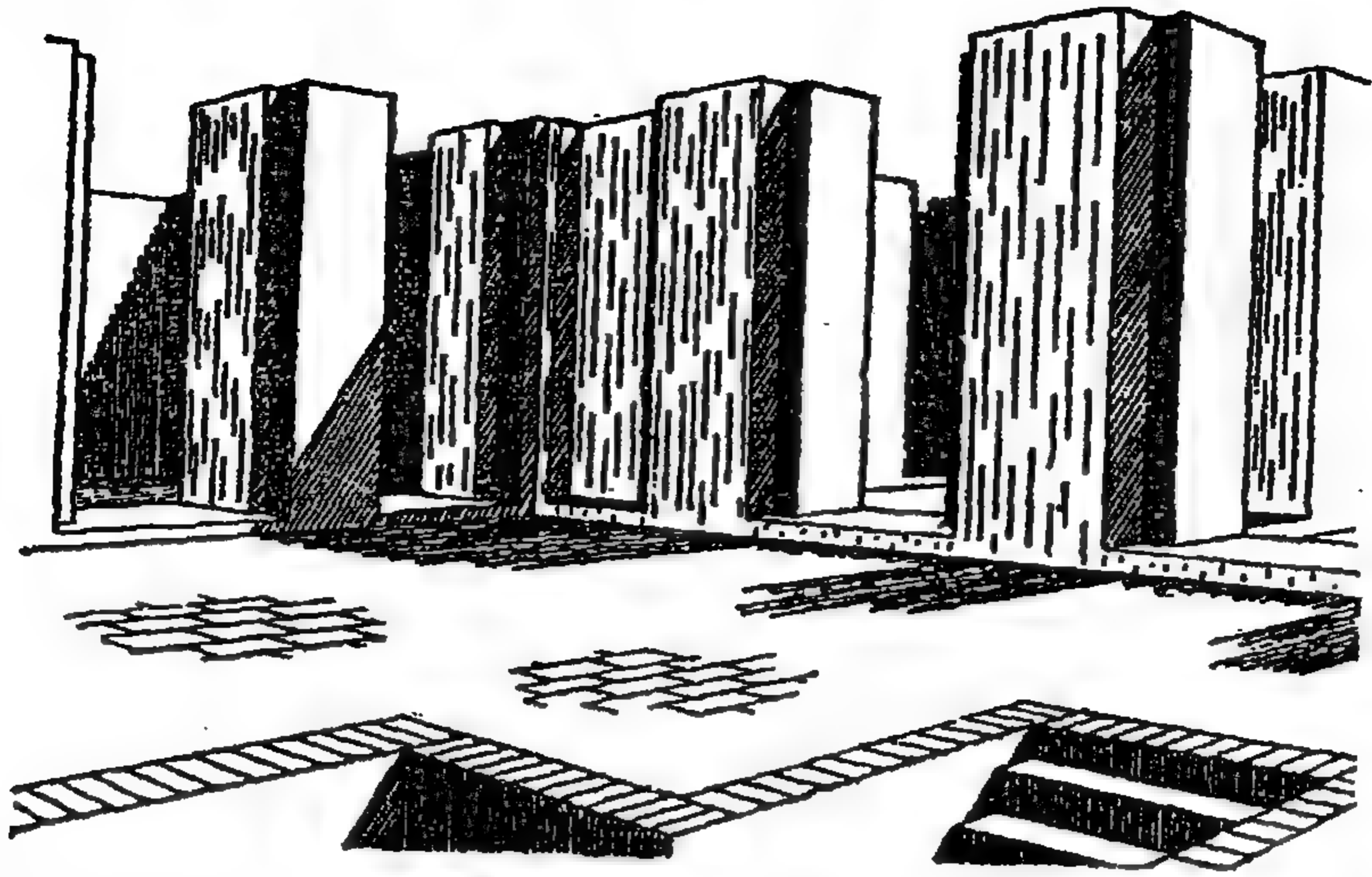
منظر تكوينى لقطاع فى الحمام الكبير فى موهنجودارو ولكن بدون سقف . وتوجد حجرات الغسل فى مؤخرة الصورة ، ويظهر فى المقدمة خزان المياه والسلالم المؤدية إليه.

ومن الغريب أنه لم يعثر على أية كنوز ملكية أو على مقادير كبيرة من أدوات الترف ، وإن كانت هناك بعض مجموعات خاصة من الحلى المصنوعة من الذهب والأحجار شبه الكريمة ، كما وجدت بعض التماثيل الصغيرة وكثير من الدمى المصنوعة من الطمى والتى يحتمل أنها صنعت لأغراض دينية . وتعكس هذه التماثيل وكذلك الأختام ، بعض الصفات والملامح الحيوانية التى تمتلكها الآلهة، وكذلك التشخيصات المبكرة لبعض آلهة الهندوس ذاتها مثل المعبود شيفا . ولكن هذه التماثيل ينقصها كثير من الروعة التى نجدها فى كنوز المعابد أو المدافن الملكية فى بلاد ما بين النهرين ، وإن كانت المدن ذاتها تمتاز بالجلال والفخامة .

ونحن ندين بمعلوماتنا عن السومريين إلى ألواحهم وكتاباتهم . كذلك كان للهاراپا كتاباتهم المتطورة تماما والتى تختلف كل الاختلاف عن الكتابة السومرية وإن كان يحتمل أنها استلهمتها وتأثرت بها بوجه خاص ، خاصة وأنها جاءت فى عصر متأخر عليها بكثير . ولا بد أنهم كانوا يكتبون على كثير من المواد ، وقد بدت كتاباتهم متقدمة لدى ظهورها لأول مرة ،

ولكنهم كانوا يكتبون على الطمى فقط حين كانوا يريدون دمغ الأوانى بالأختام . والواقع أن كل ماتبقى لنا من هذه الكتابة هو تلك الأجزاء الصغيرة المتناثرة ، بينما لا يزال الخط ذاته سرا مغلقا . وعلى ذلك فنحن لانعرف شيئا غير ما نراه بأعيننا من تلك الخرائب .

والشىء الذى يثير الدهشة عن هذه الثقافة كلها هو رتابتها واطرادها ثم بعض نواحيها المملة الجافة . فليس فيها أى تحوير هام فى الأسلوب أو فى الطراز ، بل ولا حتى فى حجم الطوب الآجر فى مختلف المحلات والكفور . وهذا الاطراد الرتيب ، وكذلك تخطيط الشوارع بشكل ثابت لا يتغير ، وطريقة إسكان العمال فى صفوف من المساكن لم يتولوا هم أنفسهم بناءها ، تدل على وجود شىء من التوجيه أو الضبط السياسى العملى القوى الذى ربما كان يتركز فى شخص الملك الكاهن (كما هى الحال فى ملوك سومر) الذى كان يشرف على العمارة وتنظيم العمل وجمع المحصول ودرسه وتخزين الحبوب ، وربما كان الأكثر غرابة وإثارة للدهشة من ذلك هو الرتابة فى الزمن ، أى فقدان التغير وخضوع المبانى للتخطيط الأصلى للشوارع . وليس من المألوف أن تجد مثل هذه الدرجة العالية من الاستقرار والثبات فى مثل ذلك التتابع الثقافى الطويل .

وأخيرا انهارت الحضارة كلها . وآخر ما عثر عليه من بقايا ومخلفات هو بعض الأكواخ الساذجة التى بنيت فوق أنقاض هارابا ذاتها . وثمة دلائل كثيرة تشير إلى حدوث إغارات وغزوات شنتها الأقوام المتبربرة من الغرب . وبلغت هذه الإغارات الذروة على أيدى الآريين حوالى عام ١٥٠٠ ق.م . والمحتمل أنهم هم — ولغتهم الهندو أوروبية — كانوا يمثلون جانبا من حركة توسعية عامة للقبائل التى تتكلم اللغات الهندو أوروبية والتى كانت توغلت من قبل فى بابل غربا . وعلى أية حال فإن أناشيد الفيدا تمجد تاريخ وآلهة هذه القبائل ، وليس تاريخ شعب الهارابا الذى ازوى

بذلك من الذاكرة بفعل الغزاة الفاتحين .

انطباع ختم من موهنجودارو ، وعليه مثال من خط وادى السند

وهذا لا يكاد يعنى بالطبع أن ثقافة مدن السند العظيمة نضبت تماما ، أو أن ثقافة الهارابا لم تؤثر فى الحياة الآرية والدين الآرى ، بل وحتى فى طبيعة آلهة الآريين ذاتها حيث إن هذه كلها انتقلت آخر الأمر إلى الثقافة الهندية التى ظهرت فى تاريخ لاحق ، إذ لابد أن يكون الهارابا تركوا نوعا من التراث ، بل إن الخرائب والأنقاض ذاتها تشير إلى وجود بعض أفكار هندوسية أخرى كالمحافظة الشديدة والطهارة الشعائرية . ويكفى فيما يتعلق بهذه المسألة الأخيرة أن نشير إلى الأعداد الكبيرة من الأقداح الفخارية التى وجدت محطمة حول الآبار والتى يبدو أنها كانت تستخدم للشرب مرة واحدة فحسب كما هو الأمر فى الهند الحديثة .

بدء الأسرات فى الصين

وأياً ما تكن التأثيرات التى أثارت الحضارة وبعثتها فى بلاد ما بين

النهرين والهند فإنها وصلت أيضا إلى الصين بعد ذلك ببضعة قرون، فقامت مدنية مماثلة هناك . ولا جدال فى أن هذه التأثيرات سلكت نفس الطريق الذى سلكته الروابط النيوليثية فى زحفها نحو انحناءة النهر الأصفر فى شمال الصين . فهناك نجد أن معظم بلاد الصين مر بسرعة خلال عصر برونزى أيام أسرة شانج Shang التى ترد أصلها إلى عام ١٧٦٦ ق . م . ، وإن كان
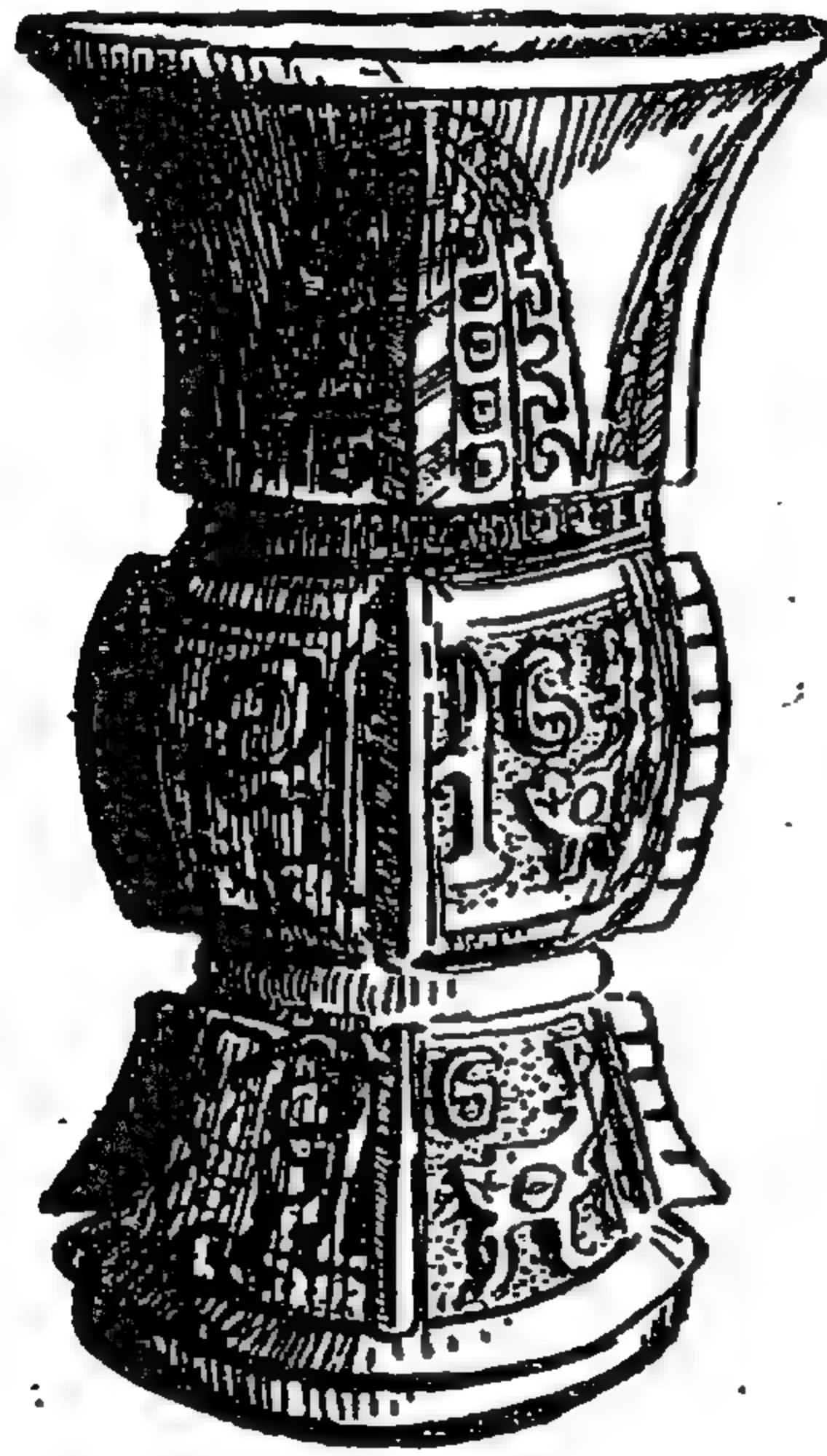
زهرية من البرونز من أسرة شانج

يظن أنها بدأت بعد ذلك بحوالى مائتى سنة . وكان استخدام العجلة فى صنع الفخار قد عرف بالفعل، وكذلك استخدام النحاس ، كما أن الأوانى البرونزية الكبيرة المحلاة بزخارف فاقعة ولكنها بسيطة والتى كانت تصنع أيام هذه الأسرة، كانت بلغت درجة عالية من الجودة والإتقان ، بل إنها تعد من أعظم الأعمال الفنية فى العالم .

وقبل أسرة شانج ظهرت أسرة هسيا Hsia الخرافية التى يعزون إليها
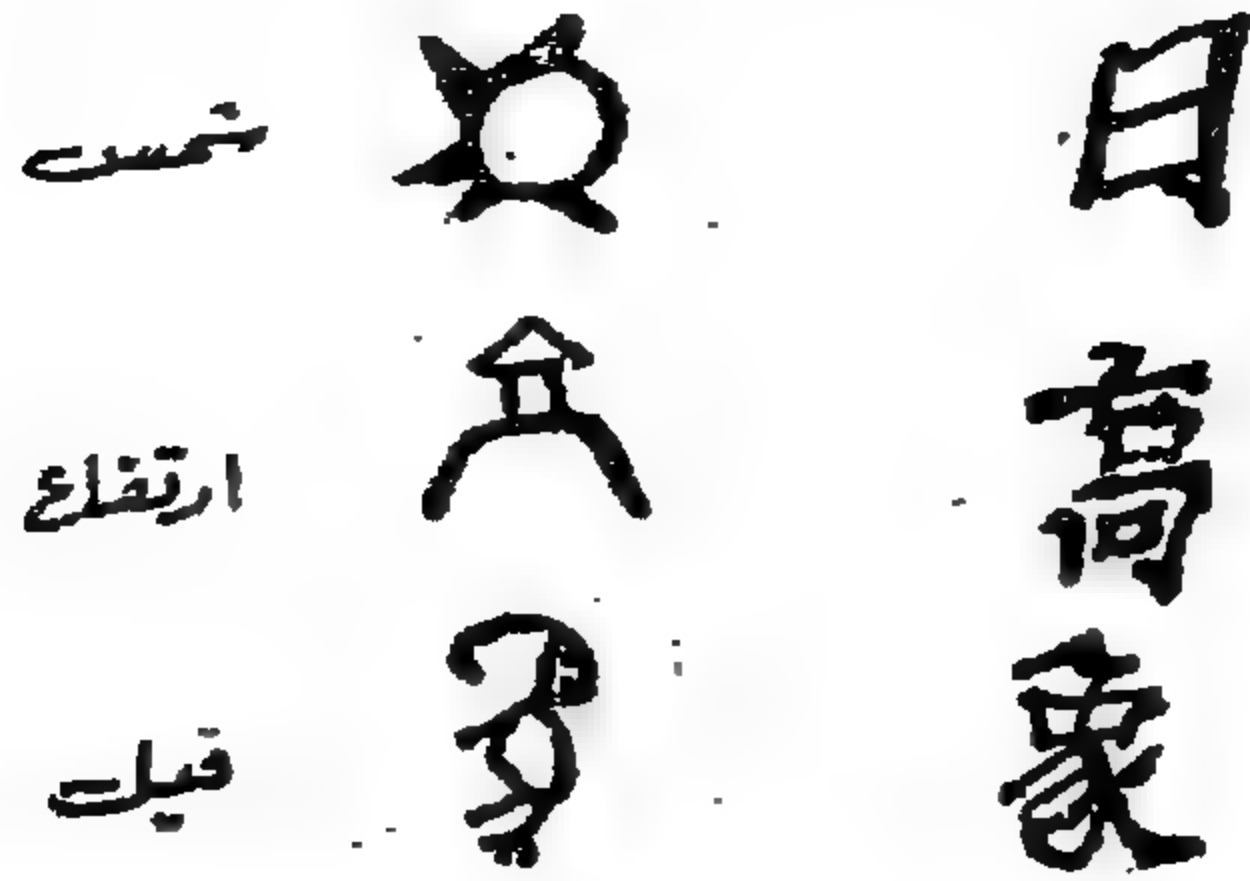
حروف صينية من مرحلة مبكرة وما يقابلها بالحروف الحديثة . فقـد كانت فـكرة « الارتفاع » مثلا يعبر عنها قديما برسم برج فوق تل مرتفع فأصبحت « تـكتب » الآن برسم بضع لمسات سريعة بالفرشاة

الفضل فى ابتـكار حساب جديد للزمن ويزعمون أن الإمبراطور الـكاهن كان على عهدها يتولى مهمة قراءة وصية السماء مستعينا على ذلك بدراسة الفلك . ولذا كان الحكام من تلك الأسرة يشرفون على حضارة مدنية ، كما كان عندهم جيش منظم تنظيما جيداً وحاشية مترفة منعمة ، وكانوا يدفنون فى مقابر فخمة رائعة ، كما كانت تدفن معهم القرابين البشرية والحيوانية مما يذكرنا بسومر ومصر . وربما كان ظهور الـكتابة اختراعا وطنيا يرتـكز على فـكرة مستوردة . وقد عرفت الـكتابة أولا على عظام الـكهانة [١] oracle bones وعظام الـكتف لدى بعض الماشية وعلى أصداف السلاحف التى كانت تسخن حتى يظهر فيها نمط من التشققات والشروخ التى يمكن قراءتها بعد ذلك كأوراق الشاى . (وتعرف قراءة عظام الـكتف باسم التنجيم بوساطة عظام الـكتف Scapulimancy وهى

(١) يطلق اسم «عظام الـكهانة» على مجموعة كبيرة من العظام وأصداف السلاحف التى كان ينقش عليها بعض الأدعية والتوسلات للأرواح لـكى تنبىء الناس عن حظوظهم وعما ينتظرهم فى حياتهم اليومية من خير أو شر . وقد كشفت عظام الـكهانة بطريق المصادفة ، فقد كانت تباع فى مخازن بيع العقاقير فى الصين حتى أدرك بعض الصينيين أن الـكتابة المنقوشة عليها قديمة جدا ، فاهتم العلماء بجمعها وفك طلاسمها . وكانت هذه العظام تمسح وتصقل قبل الـكتابة عليها ، كما أن تسخينها كان يحدث بعض التشققات التى يحاول العرافون أو الـكهان تفسير مدلولها . (المترجم)

طريقة قديمة للتنجيم والعرافة فى الشرق الأقصى، كما مارسها السيبيريون أيضا على ألواح كتف غزلان الرنة. ويمكن اعتبار الحروف التى كانت تنقش على هذه العظام الأصول الأولى للكتابة الصينية الحديثة. والواقع أنها ظهرت مبدأ الأمر فى عهد أكثر تبكيرا، وكانت ترسم على شكل صور، ثم تطورت بالتدريج بحيث أصبحت تؤلف غالبية «الحروف» الصينية (ولكن ليس الحروف الأبجدية)، وكانت تمثل خليطا من الأفكار والأصوات، كما هى حال الكتابة المسمارية السومرية.

وأخيرا فقد أباطرة شانج عطف السماء فحلت محلهم أسرة شو Chou (١١٢٢ ق.م. أو بعدها) التى كانت فى ذلك الوقت تحكم إحدى الدول الصغيرة فى الغرب. ولقد تقدم نظام الحكم الصينى على أيديهم، كما امتدت إمبراطوريتهم بطول النهر الأصفر حتى البحر ثم نحو الجنوب. ويعد هذا بداية للامتداد الذى وصل بعد ذلك ببضعة قرون إلى حدود الصين الحالية. وكانت الحظوظ تتقلب بالإباطرة كما كانت الأسرات تتساقط وتتهاوى لتظهر بدلا منها أسرات أخرى تأتى فى العادة من الدول الغربية شبه المتبربرة، ولكنها كانت دائما تتمكن من إيجاد مركز للسلطة والنفوذ تلتف حوله الصين ككل.

وكما كان يحدث فى أقدم العصور، كانت الصين بعيدة جدا عن الغرب بحيث لم يكن يصل إليها إلا المنبهات أو المثيرات والأفكار الأساسية أكثر من يصل إليها من الأشكال والصور الثقافية الكاملة، وذلك على الرغم من أن حضارتها فى العصر البرونزى كانت تشبه فى جملتها حضارة الغرب فى ذلك العصر. والواقع أن الثقافة الصينية منذ بدء ظهورها كانت تسلك دائما طرقا خاصة بها حتى حين كانت تتعرض لتأثيرات جديدة (مثل الحديد). فالثقافة الصينية إذن ثقافة متميزة كما أن المخترعات الصينية (كالورق والطباعة) جعلت الغرب مدينا للصين بدوره.

وكان الصينيون يوجهون دائما نصيبا كبيرا من اهتمامهم لفنون وأساليب الحكم . فسقوط أسرة شانج وظهور أسرة شو صيغت فى قالب قصة خرافية تدور حول الاضطهـــاد الإمبراطورى والانحلال الخلقى اللذين استبدل بهما التحرر والأخلاقية والنظام الإقطاعى المعتدل . وإذا عرفنا أن كونفوشيوس — وهو مثال صالح طيب من مكيافيللى — كان يهتم اهتماما خاصا بالحكومة وأن التعليم الصينى القديم كان يوصل عن طريق الدراسة والاختبارات الطويلة إلى المناصب الحكومية فلن ندهش كثيراً حين نعرف أن أباطرة الهان (٢٠٦ ق . م . إلى ٢٢٠ ميلادية) كانوا يجربون بالفعل كثيرا من الحلول التى تبدو لنا الآن حلولا حديثة لمسائل مثل الإعانات الزراعية ومشكلات الضرائب والفزع المالى .

وتستحق اليابان منا بعض الاهتمام ، لا لأنها كانت مهداً للحضارة بل لأنها تستقبل الحضارات وتستوعبها . والواقع أن لليابان نوعاً من الخبرة المتخصصة فى هذا المجال ، إذ لما كانت اليابان تتألف من عدد من الجزر — شأنها فى ذلك شأن بريطانيا — فقد مارست عملية الالتقاط والاختيار ، فكان باستطاعتها منذ أصبح لها كيان كأمة أن تتبنى أو ترفض عن عمد وعن إرادة ، وظلت كذلك حتى ذاقت طعم الغزو لأول مرة فى عام ١٩٤٥ . ومن سوء الحظ أن عصر ماقبل التاريخ فى اليابان لا يزال تحوطه الغيوم والسحب ، ولكن الواضح أنه لا يمتد بعيداً جدا فى أعماق الماضى ، ومن المحتمل أنه لا يرجع إلى أبعد من ثلاثة أو أربعة آلاف سنة قبل المسيح ، أى إلى إحدى الفترات الميزوليثية المتأخرة بقدر ما نعلم .

وهناك بعض بقايا ومخلفات تحتوى على بعض الأوانى الفخارية وترجع إلى نفس البداية الأولى (فى عصر جومون Jomon) التى سبقت ممارسة الزراعة وتربية الحيوان . وتكشف هذه البقايا كما تتمثل فى صناعة الخزف الضفيرى والبيوت المحفورة فى الأرض وصناعة العظام عن وجود تأثيرات من شمال سيبيريا ، وكذلك عن ممارسة الزراعة وتربية الماشية فى أواخر ذلك

العصر ويحتمل أنهما وصلا من كوريا . ثم ظهرت بعد ذلك فى الجنوب ثقافة نيوليثية تعرف باسم ثقافة يايوى Yayoi التى زحفت نحو الشمال . ولا جدال فى أن الإينو البيض White Ainus هم الذين ابتكروا بعض مراحل ثقافة چومون ، ولكن هل كانوا ينفردون بها دون غيرهم ؟ من المؤكد أنهم كانوا يشغلون فى وقت من الأوقات معظم اليابان ، ولكن هل كان شعب يايوى منغوليين من كوريا ثم امتزجوا بعض الامتزاج بالإينو ، وفى الوقت نفسه دفعوا بهم نحو الشمال ؟ ثم من أين جاءت بعض الخصائص الغريبة التى تميز الحياة اليابانية مثل الوشم وبناء البيوت الخفيفة فى مثل ذلك المناخ البارد وغير ذلك من الأمور التى يبدو أنها وفدت من إندونيسيا ؟ .

ولقد « استورد » البرونز الصينى إلى ثقافة يايوى ، ولكن اليابان لم يكن لها عصر برونزى قط ، إنما وصل شعب ياماتو Yamato ومعهم بدلا من ذلك الحديد والحصان (ولو أن الخيل كانت معروفة هناك قبل ذلك) حوالى عام ٢٠٠ ميلادية ، فأسسوا أمة اليابان كما أسسوا الأسرة المالكة الوحيدة التى عرفتها اليابان على الإطلاق . وقد تطور تنظيمهم العشائرى واتخذ شكل نظام إقطاعى حربى قوى ، وظلت اليابان تستمد الأفكار الجديدة من القارة مثل زراعة الأرز واستخدام المحراث والديانة البوذية . والواقع أنها أرسلت فى القرن السابع الميلادى لجنة إلى الصين للبحث عن الأفكار الجيدة واقتبست منها ماشاء لها الاقتباس ، ثم فعلت نفس الشىء فى القرن الماضى حين ارسلت البعوث إلى انجلترا والمانيا والولايات المتحدة وذلك بعد أن قاوموا الاتصال بالأوروبيين لفترة من الزمن حتى درسوا حقائق الموقف ووقائعه . وهذه الحركة التى تقوم بها الثقافة ككل لمقابلة الانتشار فى أكثر من منتصف الطريق هى شىء فريد من الناحية العملية .

٢٠

مصر وكريت وبدايات أوروبا

يزحف الحضارة البطىء نحو الغرب أخذت فترة ما قبل التاريخ فى أمريكا وأوروبا تقترب من نهايتها . وقد كانت مصر هى الموطن الأول لتلك الحضارة فى منطقة البحر المتوسط . والحق أن اليونان وروما تميلان إلى اعتبار مصر هى أم الحضارة ، ولكن لا شك فى أن مصر ذاتها كانت تعتمد على مصادر أقدم وتشترك فى ذلك مع سومر ، بل إنها ظلت بعد ذلك تعتمد بشكل مستمر على الشرق الأدنى وعلى بلاد ما بين النهرين ، ومع ذلك كان لمصر شخصيتها المتميزة ، وليس ثمة ما يدل على أن الكتابة ونظام الفراعنة لم يكونا أصيلين فيها رغم أن الفكرة الأساسية للكتابة كانت مستمدة من سومر . ولما كانت مصر تقع فى أحد أركان أفريقيا وتتألف فى معظمها من واد ضيق تمتد الصحراوات على جانبيه فإنها كانت أكثر انعزالا من بلاد ما بين النهرين عن الغزاة الدخلاء .

ولقد ذكرنا أنه كانت لمصر قبل عام ٤٠٠٠ ق.م. ثقافة نيوليثية غنية فى حوض الفيوم ، وأنه ظهر بعد ذلك ضرب من ثقافة العصر النحاسى — وهى ثقافة ما قبل الأسرات — فى وادى النيل نفسه . وقد أمكن التعرف عليه من الجبانات وليس من القرى . فى هذه الجبانات كان كل ميت يزود ببعض المتاع المنزلى وبعض أدوات الزينة ثم يدفن الجسد جاثيا فى حفرة بسيطة فى الأرض ، وقد عثر على مقادير كبيرة من الفخار المتقن الصنع ، كما كان يدفن مع الرجال بعض الأسلحة ، بينما يوضع مع المرأة صندوقها الخاص بمختلف أدوات الزينة وبخاصة المشط وبعض المسحوق الأخضر اللون الذى يستخدم فى تلوين جفن العين ولوحة حجرية صغيرة يصحن عليها هذا الدهان الملون . كذلك وجدت بعض الأدوات النحاسية التى

أصبحت فيما بعد تصنع عن طريق عملية الصب المحكمة المنتظمة .

ولا بد أن هذه القرى كانت تنمو وتكبر على امتداد النيل فى الدلتا ، وأن ثقافتها وحياتها الاجتماعية كانت أكثر تعقيدا مما نظن . ثم بدأت الأسرات حوالى عام ٣١٠٠ ق م . ، وقفزت الحضارة فجأة إلى الوجود . والواقع أن حياة الفلاحة البسيطة الساذجة التى لم يدخل عليها أى تهذيب جديد ظلت من نصيب عامة الناس . أما الشيء الجديد حقاً فكان هو الفرعون الذى احتل القمة ، وكذلك الفنون والعلوم الناشئة التى كانت تحيط به وببلاطه . وإذا أمكن لنا أن نشبه المجتمع السومرى المبكر بقورة بحيث يحتل المعبد أو الملك منها موضع قالب الطوب الصغير الذى يمثل القمة ، وتشغل طبقات النبلاء والأشراف وذو الحيثية موضع القوالب التى تليه إلى أسفل ، بينما يحتل عامة الشعب مكان أكبر هذه القوالب عند القاعدة ، فإنه يمكن تشبيه المجتمع المصرى المبكر بالمسلة حيث لا يوجد سوى العمود المركزى الذى يمثل الفرعون والحكام والذى يرتفع عالياً من القاع أو القاعدة التى تحتلها بقية السكان .

وربما كان هناك بالفعل بعض الترابط بين المدن والقرى.ولكن مينا — وهو أول الفراعين — فتح مصر كلها ومنحها وحدة لم تكد تتخلى عنها بعدها أبدا. وقد أسس هو وخلفاؤه المقاطعات الإدارية الثابتة فى مصر (النومات Nomes) وفرض شعائر جديدة كانت تعتبر الفرعون — ابتداء من مينا نفسه — ليس فقط سليل أوزيريس وحورس (الإله الصقر) بل وأيضا تقمصا للجانب الإلهى فيهما . وكذلك التجسد الحى للملك مينا نفسه الذى وحد القطرين . ولم يعط الفرعون لمصر الوحدة فقط ، بل منحها الإدارة التى تتمثل فى المحافظة على الأمن فى الداخل والدفاع عن الوادى ضد الإغارات الخارجية والاهتمام بالمشروعات العامة ، والإشراف على الرى وتنظيمه ، ومراقبة فيضان النيل.وقد أدى ذلك كله إلى زيادة قدرة الأرض الإنتاجية زيادة كبيرة .

ولكن هذا عاد فى معظمه بالنفع على الفرعون أكثر مما عاد على الشعب ، لأن الفرعون كان يأخذ ذلك الخير معه إلى العالم الآخر . فقد تحولت الحفرة البسيطة التى كانت تتخذ قبرا فى عضور ما قبل الأسرات إلى قبر أكثر عمقا ثم إلى غرفة للدفن تبنى تحت الأرض . بل إن المقابر الملكية فى أبيدوس على عهد أولى الأسرات كانت عبارة عن « شقق » صغيرة مدفونة . وكان يدفن مع الميت الطعام وأدوات الزينة والأدوات النحاسية على ما كانت عليه الحـــال من قبل ، ولكنهم زادوا عليها أيضاً الذهب والفيروز واللازورد وغيرها من النفائس . وبازدياد الاهتمام بالموتى حاول المصريون المحافظة على الجسد (وكانت الموميا هى الجسد « الجديد » الذى لا يفنى ، أى أوزيريس نفسه بعد بعثه إلى الحياة) . وأخذت الثروات التى تدفن مع الملك تكثر وتزداد حتى شملت الخدم وأحيانا نماذج مصغرة « لبيت الأسرة » بكل مايشتمل عليه من بساتين ومساكن وماشية وما إليها مع بعض الأمتعة العادية .

ولم يلبث المصريون أن أقاموا فوق حفرة القبر مصطبة ، وهى ربوة مسطحة متوسطة الحجم تبنى من الطين أو الحجارة وتضم بعض الحجرات فى الداخل . وأخيرا بنيت الأهرام فى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة أيضاً حوالى عام ٢٦٠٠ ق . م . ولم يشيد المصريون مثل هذه الانشاءات العظيمة مرة أخرى بعد ذلك ، ولكن القبور المحفورة بما تحتوى عليه من كنوز ظلت قائمة خلال تاريخ مصر .

وكان هذا كله ، وبخاصة بناء الأهرام ، عملا هائلا ضخما ، ولذا كانوا يشرعون فيه فى حياة الفرعون . وكان إنجازه يستغرق بضع سنين ، ولم يكن يتولى إنشاء « حانوتى » يقيمه مرة واحدة عند وفاة الملك . أما الطعام الذى كان يزرع فى مصر فإن الفلاحين كانوا يأخذون منه ما يكفى لسد رمقهم ثم تستولى الحكومة على الباقى . وكان جزء كبير من ذلك الطعام

يتحول إلى عمل لأنه كان يحمل من الممكن اقتطاع مائة ألف رجل من العمل فى الأرض وإطعامهم أثناء قيامهم بقطع كتل الحجارة ونقلها ، بينما يوجه جزء آخر منه إلى وجهات أخرى تخدم نفس الغاية[1] . فقد كانت البعوث تخرج للتجارة للحصول على الخشب والذهب والنحاس ومختلف أنواع الخيرات التى لا توجد فى وادى النيل ، ثم تحول هذه الثروة كلها بعد ذلك إلى أدوات للزينة والترف على أيدى أعداد كبيرة من الصناع . وكانت هذه الخلاصة المستوعبة لكل تلك المقادير من ثروة البلد توضع فى القبر مع الملك الميت . وهكذا نجد أنه فى الوقت الذى كان الفلاح العادى يؤلف جزءاً من أمة متحضرة متمدينة تعرف جباة الضرائب وحكام الأقاليم ظلت حياته اليومية تشبه إلى حد كبير الحياة فى العصور النيوليثية ، لأن حظه من الحياة لم يتغير ، كما أنه ظل يستخدم — ولفترة طويلة بعد ذلك — الآلات الحجرية .

بيد أن مصر عرفت أشكال الحضارة منذ البداية . ومع أن البرونز لم ينتشر تماماً قبل الأسرة الثامنة عشرة ، أى بعد عام ١٥٨٠ق . م . فقد كشفت صناعة النحاس عن معرفة وثيقة بالمعادن فى عصور ما قبل الأسرات . كما أن وجود نفس الفنون ونفس نوع الحكومة والمدن المتقدمة التى وجدت فى بلاد ما بين النهرين ووادى السند يجعلنا نفترض أن العصر البرونزى بدأ فى نفس الوقت ، أى قبل عام ٣٠٠٠ق.م. تقريباً ، حين بدأت الأسرات .

وقد بلغت الرياضيات عندهم درجة من التقدم ، فقد كانت تعالج مسائل مثل مساحات الأرض ومشكلات حجم الأهرام ومقدار العمل والمواد اللازمة لذلك . وتبين بردية Rhind الذى ترجع إلى عام ١٧٠٠ق.م.

---

(١) بتصرف . (المترجم)

والتى يبلغ طولها ١٨ قدما كيف يمكن أداء كثير من المشكلات العملية بطرق تقدير وحساب أصعب من الطرق التى نلجأ إليها نحن ، ولكنها طرق صالحة ومجدية على أية حال . وقد ظهرت الكتابة فى شكل متطور فى الأسرة الأولى متمثلة فى الخط الهيروغليفى المشهور الذى يستخدم الصور الصغيرة ، وكانت علامات ذلك الخط صورا صوتية إلى حد ما فى ذلك الوقت ، أو مزيجا من الأصوات والرموز . وقد ظلت النقوش الهيروغليفية تستخدم حتى ظهر معها بعد قليل صيغة مبسطة من نفس العلامات وهى الخط الهيرى hieratic لتسهيل الكتابة . وكان المصريون قد توصلوا فى زمن مبكر أيضاً إلى حروف هجائية تتألف من ٢٤ حرفا تمثل الأصوات البسيطة فقط ، ولكنهم وقعوا فى خطأ يؤسف له، وهو أنهم اكتفوا بإضافة هذه الحروف إلى ما كان لديهم من قبل وبذلك فإنهم لم يخترعوا، الحروف الأبجدية بالفعل .

مثال من الكتابة المصرية مبيناً بالخط الهيروغليفى (إلى أعلى) والخط الهيرى المبسط (وترجمته « ماهو العدد الذى نشير إليه؟ »)

ولكنهم كانوا أكثر توفيقاً فى مسألة التقويم . وثمة عدة طرق واضحة بسيطة لحساب الزمن ، فنحن نلاحظ مثلا أنه فى كل أربع وعشرين ساعة يحدث تعاقب للضوء والظلام نسميه يوما ، وأنه فى كل حوالى تسعة وعشرين يوما يمر القمر بكل أطواره ويظهر مرة أخرى فى شكل هلال جديد وقت الغروب ، ثم هناك أخيرا تتابع الفصول الذى يستغرق ٣٦٥ يوماً وجزءا — أو كسرا — من اليوم ، وإن لم يكن لهذا التتابع علامات

على مثل هذه الدرجة من الوضوح . وتسبب هذه الكسور من الأيام كثيرا من المتاعب ، فهي تمنع « الشهور » القمرية من أن تكون أقساما دقيقة للسنة ، كما تمنع الأيام من أن تكون أقساما دقيقة واضحة للشهور أو للسنة على السواء . ومع ذلك فإن القمر الجديد شيء واضح ظاهر لكل إنسان لدرجة أن الناس كانوا يلجأون إليه دائما بطريقة رسمية أو غير رسمية لتقسيم السنة . وحتى المايا الذين كانوا يفهمون الاختلافات والتناقضات فهماً دقيقاً والذين قسموا السنة تقسيما تعسفياً إلى اثنى عشر شهرا فى كل منها ثلاثون يوماً وأضافوا إليها (شيئاً آخر) من خمسة أيام فى الوقت الذى كانوا يستخدمون لكتابة التواريخ حسابا يعتمد على اليوم فقط ، يبدو أنهم كانوا يشعرون رغم ذلك بضرورة تتبع القمر أيضاً .

إلا أن المصريين كانوا أقل احتفالا واهتماما بالتواريخ الطويلة الأمد . والواقع أنهم كانوا يبدأون فى عد السنوات من جـــديد كلما تولى الحكم فرعون جديد (وهذا هو السبب فى عدم تثبتنا من التواريخ القديمة) وإنما كانوا بدلا من ذلك يهتمون أولا وقبل كل شيء بقياس السنة ذاتها قياساً دقيقاً حتى يعرفوا مواعيد فيضان النيل . وقد توصلوا إلى ذلك بأن أسقطوا القمر من حسابهم واعتمدوا على النجوم ، فكانوا يبدأون السنة باليوم الذى تسبق فيه الشعرى Sirius (كوكبة الكلب) الشمس بحيث يمكن رؤيتها وهى ترتفع فى الشرق قبيل القمر ، وذلك فى الخامس عشر من يونيو ، وهو يوم قريب من زمن الفيضان ، وبذلك أغفلوا القمر وقسموا السنة التى تشتمل على ٣٦٥ يوماً إلى شهور تعسفية مثلما فعل المايا ، بل إنهم تبعوا المايا فى نفس الغلطة التى أبعدتهم فى الوقت ذاته عن السنة الحقيقية (بدلا من أن يصححوا كل أربعة أعوام بسنة كبيسة على ما نفعل الآن) وبذلك أعطونا نوع التقويم الذى نستخدمه نحن .

وكانت المملكة القديمة التى تتألف من الأسرات الست الأولى عصراً

زاهرا مجيدا بالنسبة لمصر . فقد شهدت توحيد البلاد وكذلك نظام الحكم والدين الجديدين وانتشار الكتابة والعلم (وقد يرجع ظهورهما إلى عهود سابقة على الأسرات ولم نعرفها بعد) كما شهدت بناء الأهرام . وأخيراً تفككت الحكومة حوالى عام ٢٥٠٠ ق . م . وتمرد الكهنة والأمراء على سلطة الملك وأقاموا أسرات حاكمة محلية .

وبضعف سلطة الملك انتهى العصر الذى كان الفرعون فيه يملك وحده كل شيء ويحكم بوساطة موظفين وحكام ينوبون عنه ويختارهم من بين أفراد الأسرة المالكة ذاتها . وقد تباطأت حركة التقدم الفنى ، ولكن الشعب المسكين البائس قام بثورات حقيقية ، وبدأ بعد ذلك يتمتع ببعض مباهج الحياة ويتطلع إلى التعلم ثم الوظيفة ، بينما ضاعت هيبة البلاء . وحين توحدت مصر مرة أخرى فى عام ٢١٦٠ ق . م . فى عهد المملكة الوسطى تحت ملوك طيبة فى الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة كانت العامة بمقتضى « القوانين العادلة » يتمتعون بحقوقهم الجديدة وبحياة أهنأ وأرغد . وقد أدخل البرونز فى النهاية وأصبح أوزيريس — باعتباره قاضى الموتى — يؤلف الدين القومى ، وحل بذلك محل عبادة حورس القديمة الأضيق أفقاً .

ومنذ عام ١٧٨٨ ق . م . ظهرت عقبة أخرى اتخذت هذه المرة شكل الغزو من آسيا على أيدى الملوك الرعاة ، أو الهكسوس الذين أدخلوا الخيل والعربات الحربية لأول مرة . ولكن ملوك الأسرة الثامنة عشرة من المصريين تمكنوا أخيرا من طردهم بعد عام ١٥٨٠ق . م . وأسسوا الدولة الحديثة ، ولم يقنعوا بذلك، وإنما اكتسحوا فلسطين وسوريا وأخضعوهما ، ويعتبر ذلك أكبر امتداد لمصر ، إذ أصبحت بمقتضاه قريبة جدا من سكان بلاد ما بين النهرين الأواخر وكذلك شرقى البحر المتوسط بوجه عام .

وتتميز قبور هذه الأسرة فى مصر بدرجة عالية من الروعة والفخامة .

وفى أواخر أيامها نبذ الملك إخناتون — زوج نفرتيتى — عبادة آمون (الذى كان أصبح الإله الرئيسى لمصر) وغيره من الآلهة بما فيها أوزيريس وأمر بعبادة آتون ، وهو مظهر آخر لإله الشمس رع ، ونصب نفسه كبيرا للكهنة . وبذلك أنقص عدد رجال الكهنوت الأقوياء وجردهم من أملاكهم وأمسك هو بزمام الدين فى يديه لكى يعلى ويرفع من سلطة النظام الملكى . ولم يرض الناس عن ذلك ، ولذا وجد زوج ابنته وخليفته توت عنخ آمون نفسه مضطرا « لإصلاح الإصلاح » وإرجاع الآلهة القديمة . ولكن حتى بعد هذا التسليم والإذعان فإنه لم يجد مفرا من أن يدفن إخناتون سرا ، بل إنه هو نفسه دفن فى مكان سرى وقام خليفته بطمس كل ما سجل عنه . وبهذه الطريقة لم يصل إلينا إلا قليل جدا من المعلومات عن توت عنخ آمون بينما كاد قبره يسلم تماما من اللصوص وأصبح بذلك أهم وأغنى ما عثر عليه علماء الآثار المصرية فى زمننا .

وفى عام ١٣٥٠ ق . م . كانت أيام مصر العظيمة قد انقضت وانتاب الملكية ضعف شديد مرة أخرى ابتداء من الأسرة التاسعة عشرة ، بينما قويت شوكة رجال الدين إلى أن انهار الحكم الوطنى أمام الغزاة الذين جاءوا من ليبيا والنوبة والحبشة وأخيرا من آشور وفارس واليونان وروما ، وإن كانت تتخلل ذلك فترات عارضة من الحكم الوطنى . وكما حدث فى سومر نجد أنه فى الوقت الذى كانت مصر تعتبر واحدة من ثلاثة مراكز صغيرة احتضنت العصر البرونزى ، كانت الحضارة قد أصبحت من ذكريات الماضى وضاعت فى غمرة الحرب وتحت أقدام الإمبراطوريات التى كانت تمتد وتتسع فى الشرق الأدنى .

بحر إيجه : الشعوب المينوية والميسينية

ومع ذلك أثرت مصر فى أوروبا . صحيح أنها لم تترك لنا أشياء كثيرة بطريق مباشر ولكنها كانت بؤرة للتجارة والمعرفة فى الغرب ، إذ كانت

تجذب الحضارة فى ذلك الاتجاه كما أسهمت مع بلاد ما بين النهرين فى إيقاظ وتنبيه الساحل الشرقى وجزر البحر المتوسط . وكانت قبرص — وهى تقع فى مواجهة سوريا — غنية جدا بالنحاس بحيث أطلق اسمها عليه [1] ثم لم تلبث أن أخذت تستفيد من تصديره . أما السيكلاد Cyclades فى بحر إيجه — وهى تخلو تماماً من البقايا النيوليثية كما أن أرضها لا تصلح للزراعة — فقد كانت فى العصر « النحاسى » و « البرونزى » مزدحمة بالسكان الذين حققوا كثيرا جدا من التفوق والنجاح ، إذ كانوا ينتجون النحاس والرخام والأوبسيديان وغيرها من المواد . فهذه إذن ثقافة غنية قامت من لا شىء

مدن بحر إيجه فى العصور المينوية والميسينية

نتيجة للتجارة مع الأقطار الغنية وذلك فى أول عهد البحر المتوسط بالتجارة . بيد أن أهمية السيكلاد أخذت تتضاءل بينما ازدهرت جزيرة كريت إلى جنوبها وأصبحت هى همزة الوصل بين الشرق والغرب .

(١) على اعتبار أن النحاس كان يسمى فى الأصل « معدن قبرص » . المترجم

صورة تكوينية لجزء من قصر مينوس فى نسوس بجزيرة كريت

ولا جدال فى أن موقع كريت الممتاز هو الذى أعطاها أهميتها فى ذلك الوقت . فهى تقع بين مصر واليونان وتركيا ، أى فى ملتقى الطرق الرئيسية حينذاك بين أفريقيا وأوروبا وآسيا . وأهم من ذلك أنها كانت تقع على الطريق التى تمر بها تجارة القصدير من أوروبا جنوبا عبر غرب اليونان ، وكذلك الطرق التى تمر بها تجارة النحاس من قبرص إلى الغرب مما جعلها مركزا لتجارة البرونز . وكانت فى كريت حرفة نيوليثية قديمة هى تربية الماشية التى ظلت تمارس إلى ما بعد عام ٣٠٠٠ ق . م . حين بدأت طور استخدام النحاس فى حضارتها المينوية الطويلة . ونحن لا نتكلم هنا عن أحد مهود الحضارة بل عن إحدى مدارسها ، فلم تكن حضارتها من الحضارات التى نمت فى أحد الوديان ، بل هى حضارة بحرية كانت تقوم على التجارة ، وكانت مدنها الكثيرة تتجه من اجل معاشها نحو الموانى أكثر مما تتجه نحو الأراضى الزراعية . وقد كانت تصدر الزيتون والنبيذ والقماش والمصنوعات البرونزية والحلى فى مقابل الحبوب والمعادن . فلما ازدهرت بفضل التجارة بدأت تستورد الأفكار أيضا وتعيد صياغتها وتشكيلها لنفسها .

وقد استفاد الكريتيون فى الطور الأول من الذهب والفضة كما استخدموا

النحاس ، وبنوا منازل كبيرة الحجم كانت تتألف فى الأغلب من طابقين أو ثلاثة . وقد بدأ استخدام البرونز حوالى عام ٢٤٠٠ ق.م. أو بعدها . ثم اتسعت التجارة كما كبر حجم المدن ، حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . تقريبا بدأت تظهر المبانى ذات الجدران الضخمة مثل القصر المشهور فى نسوس . ولكنهم لم يكونوا يبنون أسوارا حول هذه المدن لحمايتها ، ولعل السبب فى ذلك هو أن كريت كانت دولة بحرية . وقد دمرت هذه القصور فى المدن الكبرى فجأة حوالى عام ١٨٠٠ ق . م . فهل حدث ذلك نتيجة لإحدى الغزوات التى لا نجد ما يدل على حدوثها على الإطلاق ، أو بفعل زلزال توجد عنه كثير من العلامات فى الماضى والحاضر على السواء[1] ؟ وقد أعيد بناء القصور ووسعت وشهدت كريت أزهى عصورها بين عامى ١٧٠٠ و ١٤٠٠ ق . م . فقد كانت مصر أيام الهكسوس أضعف من أن تنافسها أو حتى تشاركها فى التجارة . وظلت كريت تتاجر بوجه خاص مع الشرق الأدنى ومع اليونان حتى تمكن سكان اليونان من الاستيلاء على مدنها للمرة الأخيرة حوالى عام ١٤٠٠ ق. م . وخربوا قصورها تماما .

وهذه كلها أحداث غامضة مبهمة أمكن التعرف عليها فقط عن طريق الحفر والتنقيب كما هو الشأن فى حضارة وادى السند . ذلك أن المينويين كانت لهم كتابتهم الخاصة التى تقوم على العلامات البسيطة الفجة وعلى النقوش التصويرية التى ترجع إلى الطور النحاسى ، وهم يشبهون فى ذلك سكان وادى السند . وقد عاش جزء كبير من هذه الكتابة ، ولكن لم يمكن حل الخط نفسه حتى عام ١٩٥٢ . وقد تكشف قراءته فى المستقبل عن أن معظم هذه الكتابات يدور حول أمور تتعلق بالتجارة . وعلى ذلك فنحن لا نعرف شيئا مؤكداً للآن عن التواريخ والملوك ، بل إننا لا نعرف شيئا كثيرا عن السياسة وعن المجتمع . وكل ما يمكن أن نذكره هنا هو أنه كان يوجد

---

(١) يقصد أن كريت منطقة زلازل . المترجم .

كتابات مينوية • أما العلامات التى فى الصف العلوى فهى مكتوبة بالخط الهيروغليفى الذى يبين طبيعتها التصويرية . وأما العلامات التى فى الصف السفلى فهى بالخط المعروف باسم linear A ويظهر منها انها عبارة عن تبسيطات للهيروغليفية

عدد من القصور الفخمة الرائعة مما قد يوحى بوجود حكام على جانب كبير من العظمة والمهابة ، بينما تشير المخلفات الأخرى ، فيما يبدو ، إلى أن عامة الناس لم يكونوا يعيشون عيشة الفقر والحرمان تحت حكم طاغية مستبد ، وإنما كانوا تجارا وعمالا ناجحين يسكنون المدن ويحصلون على نصيبهم كاملا من خير البلد وثروته ، ولعلهم كانوا أسعد الناس حظا فى العالم فى ذلك الوقت . وتذكر لنا الوثائق المهن المختلفة التى كانوا يمارسونها فقد كان هناك الملك والحجاب وصناع الأسلحة وصانعو القسى والعبيد وأصحاب الأملاك والمستأجرون وصانعو القوارب وعمال أرصفة الموانى والتجار وملاحظو الحمامات (من الإناث) وغير ذلك كثير .

« فرسكو » مينوى يمثل لعبة الوثب فوق ظهر الثور

وجانب آخر من القصة نجده فى الأختام الكثيرة ورسوم الفرسكو (الصور والنقوش الجصية) وغيرها من أعمال الفن التى تتيح لنا الفرصة

لدراسة الحياة الكريتية حتى وإن كنا لا نستطيع أن نقرأ عنها . فنحن نعرف مثلا أن ملابس النساء كانت تتبع طرزا وموضات متطورة جدا ولم تكن بدائية لجة بأية حال ، إذ كانت تتألف من نقاب واسع هفهاف ولكنه يضيق عند الخصر (موضة خصر الزنبور) ومن صديرية لم تكن تعجز فقط عن تغطية الصدر بل كانت تتعمد الكشف عنه . أما الرجال فكانوا يكتفون بارتداء قطعة من القماش تلف حول الوسط ، كذلك نعرف عن ألعابهم وبخاصة مصارعة الثيران بطريقة مثيرة أو على الأصح لعبة الوثب فوق الثور ، وفيها يبدو أن المصارع كان يطوق قرنى الثور الهائج بذراعيه ثم (ينطر) جسمه فوق ظهر الحيوان وقد ينقلب فى النهاية فوق مؤخرته .

ولكن أروع ما يجذب الانتباه فى الفن هو أسلوب الفن ذاته ، فهو أسلوب حر جديد زاه وملىء بالحيوية وفيه روح تختلف تمام الاختلاف عن فنون بلاد ما بين النهرين التى تدور حول الملوك وفيالق الجيش ، كما يختلف عن النقوش الجنائزية والدينية الرصينة فى مصر . وتكشف هذه الفنون عن بعض الأفكار عن المعبودات مثل الأفعى المؤلهة ، ولكنها لم تكن تقف نفسها على المـــلوك والأمراء ، وإنما كانت تعرض بدلا من ذلك كل نواحى الحياة البشرية والحيوانية بشكل طبيعى فيه قوة وحيوية ، ولكن بأسلوب خاص متميز . ومن الجائز أن تكون فنونهم اعتمدت فى أيام بدايتها الأولى على الفن المصرى ، ولكن بينما تظهر النقوش المصرية جامدة وخالية من الحركة تبدو رسوم كريت مليئة بها ، وقد كانت هذه الرسوم هى بداية ومصدر أول فن يونانى ، وهذا هو نفس ما توحى به . ولعل أهم ما تدل عليه هذه الرسوم هو استقلال المينويين عن آسيا ومصر ، كما أنها تبرز حضارتهم كأول حضارة أوروبية قاموا هم أنفسهم بنقلها من مصادرها فى الشرق إلى كريت قبل أن تظهر فى أوروبا ذاتها وتثبت أقدامها هناك .

وقد تمت عملية «غرس» الحضارة أو تثبيتها على خطوتين . وسوف أنهى قصة هذا الكتاب بالكلام عن الخطوة الثانية . أما الخطوة الأولى فهى نقل مبادىء الثقافة إلى اليونان . فقد كان لجنوب اليونان ثقافة ترجع إلى العصر النحاسى فى البحر المتوسط ، وكان سكان هذه المنطقة يشبهون سكان السيكلاد المجاورة ، ولكنهم بدأوا يستخدمون البرونز بعد ذلك . وحوالى عام ٢٠٠٠ق . م . أخذت القبائل الأخرى التى كانت تعرف البرونز تجد طريقها إلى أوروبا بوساطة الطرق الشمالية ، لم يلبث بعض هذه الأقوام المحاربة أن انحدروا بعد ذلك بقليل إلى اليونان وفتحوها . وهؤلاء هم الآخيون Achaeans الذين كانوا يتكلمون لغة أغريقية عتيقة . وقد خضع الآخيون طيلة القرون التالية لتأثيرات كريتية قوية ، كما كانت ملابسهم وفنهم وثقافتهم تلتزم (موضة) وأسلوب كريت ، ولكنهم فى الوقت الذى كانوا يعملون فيه على تطوير هذه الحضارة المماثلة ، فإنهم ظلوا محتفظين باستقلالهم .

وكانت هذه هى الثقافة الميسينية التى سميت بذلك الإسم نسبة لقصر وقلعة ميسين اللذين يحتمل أنهما كانا ملكا لأجاممنون Agamemnon ، مثلما يحتمل أن يكون قصر بيلوس Pylos هو قصر نسطور Nestor وذلك نظراً لوجود القصرين فى نفس المكانين تقريباً اللذين حددهما هوميروس . وكانت قبور الملوك تزخر بالذهب والحلى النفيسة البراقة ، كما عثر فى القصور على كثير من ألواح الطين مكتوباً عليها بخط محور من الخط المينوى ، ويبدو أن هذا الخط الذى يعرف باسم Linear B كان خطوة فى سبيل تحقيق الكتابة اليونانية ، كما يبدو أنه مقتبس من الخط الأصلى الذى اخترع لكتابة اللغة الكريتية المجهولة . وهذا الخط (أى Linear B) هو الذى أمكن قراءته . وتذكر لنا هذه الألواح بعض المعلومات عن الحياة الآخية والمينوية المتأخرة وعن الفنون والحرف ، كما أنها تسجل أسماء بعض معبودات اليونان.

الكلاسيكية مثل أتنا بارثينوس Athena Parthenos وبوسيدون Poseidon وديونيزيوس Dionysius وغيرها .

وقامت بلاد اليونان وانهارت كريت ؛ وبذلك أصبح التابع سيدا والسيد تابعاً . والدلائل قوية على أن الأمراء الأواخر فى نسوس بجزيرة كريت قبل عام ١٤٠٠ ق . م . كانوا من اليونانيين الآخيين الذين كانوا يباشرون الحكم بالفعل ، وأن الخط المستخدم فى اليونان (أى Linear B)
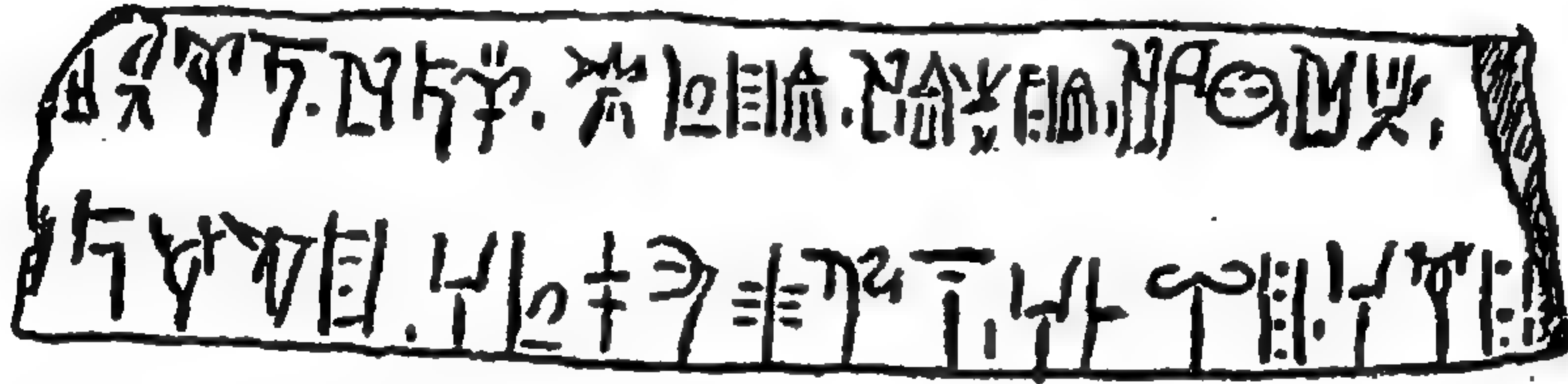
لوح مكتوب بالخط المسمى Linear B وقد عثر عليه فى نسوس . وهو عبارة عن قائمة جرد إحدى عربات الحرب . ويحتمل أن ترجمة اللوح — وهى تبدأ بالسطر الأسفل أولا (ولتشمل جزءاً ناقصاً عند الطرف) تقول : « (عربة خيل) مدهونة باللون الأحمر ومزركشة ومزودة بالزمام . و(عريش) العربة مصنوع من خشب التين وبه تعشيقات من القرن ولكن البتنو pte-no مفقودة » (والله يعلم ما هى هذه البتنو)

فرض نفسه وحل محل الشكل الآخر المعروف باسم Linear A والذى كان خاصاً بكريت . ومع ذلك فقد استمرت ثقافة كريت بغير توقف أو انقطاع . وبصرف النظر عمن كان يجلس على عروشها ، الى أن حدث ذلك الحريق الذى دمر القصور نهائياً حوالى ١٤٠٠ ق.م . ومن المحتمل جدا أن يكون ذلك حدث أثناء إحدى الحروب بين اليونانيين بعضهم ببعض ؛ وفيها قام الآخيون المنافسون من بلاد اليونان ذاتها بإسقاط الملوك الآخيين الذين كانوا يحكمون بكريت . واستمرت ثقافة الجزيرة لبعض الوقت ولكنها كانت تتدهور ببطء . ومع ذلك فقد ظل الصناع الكريتيون والنفوذ الكريتى يؤثرون فى اليونان ، وإن كان العامل الأساسى المينوى قد تحطم وهجرت القصور للخراب والدمار .

أوروبا الغربية : معرض جانبي للعصر البرونزى

وهكذا ورثت اليونان ما أسسته كريت فى مبدأ الأمر . وقد ظلت اهتماماتها موجهة نحو بحر إيجه ، كما ظلت تميل ميلا واضحا للحرب . وقد أخذ اليونانيون يمدون نفوذهم وسلطانهم إلى أن وقعت الحرب ضد إقليم طروادة الذى كانت له نفس بدايات اليونان . ولكن كيف كانت الحال فى بقية أوروبا ؟

لقد تركنا أوروبا فى الفصل التاسع ، وهى تمر بالمرحلة النيوليثية المتأخرة حين كانت الثقافة المغليثية التى تتميز بالآثار الحجرية الضخمة تنتشر بطول الساحل الأطلسى . ويحتمل أن تكون هذه الثقافة المغليثية قد ارتبطت بثقافة عصر النحاس فى إسبانيا ، وهى الثقافة التى لم يتح لها أبدا أن تصل إلى كثير من أنحاء أوروبا . وذلك لأنه فى الوقت الذى وصلت فيه مثل هذه التأثيرات عبر البحر المتوسط كانت الأقوام التى تستخدم البرونز مثل الآخيين أنفسهم قد وفدوا إلى أوروبا من الجنوب الشرقى ثم استقر أحد هذه الشعوب فى إيطاليا فى تيراماري Terramare ، وهى قرى محصنة كانت تتألف من مساكن على شكل عمائر عالية . أما فى شمال وغرب أوروبا فقد كانت الأوضاع أكثر استقرارا وهدوءا وانتشر استخدام البرونز ببطء استغرق عدة قرون .

ولم يحدث استخدام البرونز سوى قليل من التغير . وقد اهتم سكان البحيرات السويسرية به اهتماما شديدا ، ولكنهم بدأوا ببساطة باستخدام الآلات البرونزية التى كانوا يفقدونها على أية حال فى الماء مع غيرها من الآلات والأدوات دون أن يدخلوا أية تعديلات لها قيمتها ودلالتها على الثقافة النيوليثية . والواقع أن فتح أوروبا كان يجب أن يتم خلسة وبهدوء بوساطة التجارة الجنوبية التى كانت تنشد القصدير من كورنوول وبريتانى ، والعنبر

من ساحل البلطيق . وقد احتفلت انجلترا بدخولها العصر البرونزى بأن غيرت روابى الدفن من الشكل البيضاوى إلى المستدير ، وذلك حين وفدت عليها جماعات كبيرة من منطقة الرين جالبين معهم نوعا متميزا خاصا من الخوابى الفخارية ، وربما كانوا يحملون ايضا تلك الفكرة الدينية التى أدت إلى تشييد ستونهنج Stonehenge وبعض آثار أخرى من ذلك النوع الغريب نفسه .

وقد أمكن بطريقتين مختلفتين رد تاريخ ستونهنج إلى حوالى عام ١٤٨٠ ق.م. ولكن ربما كان هذا التاريخ ذاته أقدم بعض الشىء من بداية العصر البرونزى فى بريطانيا . ومهما يكن من شىء فقد ظلت أوروبا « ريفية » إلى حد كبير ، وهذا هو أقل ما يمكن أن توصف به . فلقد تمكنت بلاد ما بين النهرين ومصر من أن تكونا لهما حضارات قبل عام ٣٠٠٠ ق.م. دون أن تكون لهما معرفة بالبرونز ؛ بل إن مصر ظلت تفتقر إليه لمدة أطول من ذلك . وحين عبر البرونز القنال الإنجليزى بعد ذلك بألف سنة أو أكثر ، كانت بلاد ما بين النهرين قد شهدت بالفعل قيام وانهيار الإمبراطوريات عدة مرات ، ومع ذلك كانت أوروبا متشبثة بالحياة القبلية ، بل إنها ظلت بغير حضارة لعدة قرون بعد ذلك حتى نهاية العصر الحديدى . ولم يظهر فيها ما يشبه — ولو من بعيد — دول المدينة . كما أن كثافة السكان كانت تزداد ببطء وبالتدريج فحسب ، وكذلك الحال بالنسبة لاهتمامهم بالتجارة . وأخيرا جدا بدءوا يحيون حياة ساذجة فى مدن صغيرة متمايزة .

كذلك لم يكن هناك تنوع كبير فى الثقافة . ولقد تغيرت المصنوعات البرونزية ذاتها وتحسنت حين تعلم الناس صناعة المعادن . وكانت « بلط » الحرب والسيوف والخناجر هى أهم هذه المصنوعات . ولكن البرونز كان يستخدم أيضا فى صنع أشياء أخرى كثيرة ويستعمل للزينة وبخاصة صنع الأساور والدبابيس الإبرة والدبابيس المشبك . وقد افتتن الأوروبيون

بهذا الاختراع الأخير لعدة قرون فاهتموا بصنع دبابيس المشبك العادية والمزخرفة لاستخدامها بلا ريب لشبك وتثبيت العباءات فى مواضعها .
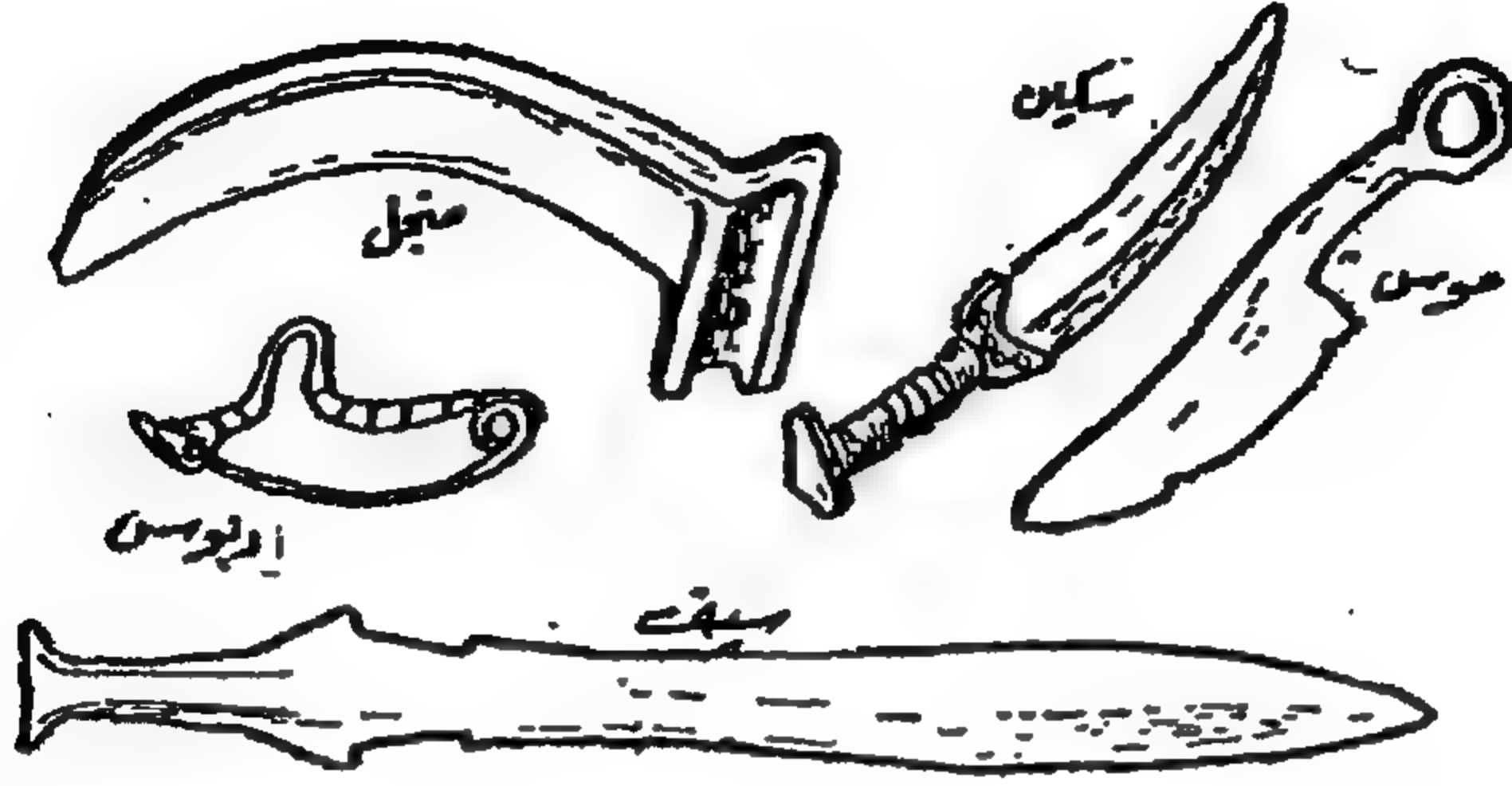
بعض المصنوعات من العصر البرونزى فى أوروبا

وتوجد الأدوات البرونزية فى أماكن السكنى المألوفة فى مستودعات القمامة (المقلب) بكميات أقل منها فى المدافن ، وبنوع خاص فى الكنوز المدفونة ، ولعلها كانت تنتمى إلى الأغنياء أو التجار . وبعض هذه المجموعات الأخيرة كانت تضم بضعة آلاف من القطع . وتوحى هذه الاكتشافات بأن ثمن البرونز كان مرتفعا كما هى الحال فى بلاد ما بين النهرين تماما ، ولذا لم يكن فى متناول عامة الناس ، وإنما كان يستخدم بدلا من ذلك فى تسليح الأغنياء والنبلاء ، وبالتالى فى زيادة سلطانهم على المجتمع على العموم . ويبدو أن القبور التى عثر فيها على عربات حربية كاملة تؤيد هذا القول . وإذا كان الميسينيون قد أفلحوا فى تقليد المينويين ومحاكاتهم ، فإن الأوروبيين فى العصر البرونزى لم يبلغوا تلك المنزلة على الإطلاق ، وقد يكون من الإطراء لهم أن نسميهم « فلاحين » ، لأنهم لم يكونوا حتى يقفون على أبواب مجتمع متحضر . وقد كانت ايرلندة من أكثر مناطقهم ازدهارا ، فقد كان الذهب ينقى هناك من الشوائب ويصاغ فى قلائد جميلة ورقيقة .

ثم جاء العصر الحديدى ، فأما فى الشرق الأدنى فقد كان ذلك عصرا

ارتقت فيه حياة عامة الناس بفضل تقدم بعض الأفكار الجديدة الصالحة مثل سك العملة واستعمالها للمال ، وابتكار حروف أبجدية يمكن لكل إنسان أن يستخدمها ، ثم تخفيض سعر المعدن تخفيضا محسوسا والحصول بالسعر الجديد المنخفض على معادن أجود وأفضل . وأما فى أوروبا فإن العصر الحديدى ساعد أيضا على انخفاض سعر المعدن ،مما أدى إلى تيسير اقتناء السيوف ووضعها فى أيد كثيرة جديدة . ولست فى مركز يسمح لى بالقول إذا ما كان عامة الناس قد أدركوا فى الحال مافى ذلك من روعة وجمال .

ولكن هذا نفسه أدى إلى ظهور الخطوة الثانية — بشكل بدائى — نحو غرس الحضارة فى أوروبا . إذ بينما كان الميسينيون الآخيون فى بلاد اليونان لا يزالون يذكرون انتصارهم على كريت ويشخصون بأبصارهم إلى حكم بحر إيجه وتراثهم المينوى فى الفن والثقافة ، هاجمهم من الخلف الدوريون Dorians الذين كانوا يستخدمون الحديد . وقد حدث ذلك بعد عام ١٢٠٠ ق م . وبعده بقليل هبط على إيطاليا شعب آخر مماثل هم شعب الفيلانوفان Villanovans ، وقبل أن يمضى وقت طويل جاءت جماعة ثالثة مشابهة هم الهولشتات Hollstatt النمسويون فنشروا الحديد والحرب فى كثير من أنحاء أوروبا . ولم يكونوا على درجة من الثقافة أعلى وأفضل من أقوام العصر البرونزى . لقد كانوا يعرفون الحديد وكانوا يسيرون فى طريق التقدم ، ولكن هذه هى كل الاختلافات الرئيسية . فقد كانوا بعيدين تماما عن الحضارة ، كما أنهم لم يشيدوا سوى القرى وعدد قليل من القلاع . ومع أنهم كانوا يتخذون بعض الآلات ، وبخاصة السيوف من الحديد، فإنهم كانوا يصنعون معظم أدوات الزينة من البرونز .

ولسنا نعرف تماما كيف وصل الحديد إلى أوروبا الوسطى والبلقان ، أو إلى أى حد يرجع الفضل فى وجوده إلى الفتوحات الجديدة أو إلى مجرد

التطبيق الفنى (التكنيك) . ولكن الدوريين زحفوا إلى اليونان من الشمال وهاجموا الآخيين بعنف ، وكان الآخيون قد أقاموا ثقافتهم المسينية من مصادر مينوية وبدءوا سيرهم من نفس الثقافة التى هدموها بأيديهم . أما الدوريون فقد أعملوا السرقة والنهب وهدموا الثقافة الميسينية القائمة وأزالوها تماما هى وآثارها التى ظهرت فى الثقافة المينوية ، وبذلك مرت بلاد اليونان بعصر مظلم. ولكن هذا لم يكن يعنى النهاية ، بل الظلام فقط . وإذا كان «السجل الميسينى » قد أغلق، فإن ذلك كان أشبه بما حدث للتولتك ، على اعتبار أن الثقافة لم تندثر طبعا . والذى حدث هو أن المتبربرين « اغتصبوا » — كعادتهم — الثقافة الأكثر رقيا أولا ثم « تزوجوها » بعد ذلك . وعلى هذا فبالرغم من الطريقة الشاذة الغريبة التى واجهوا بها الحضارة فقد ربط الدوريون فى الحقيقة اليونان بأوروبا ، وحققوا بذلك الخطوة الثانية ، وبدأ تأثير اليونان يظهر فى بقية أوروبا كما ظهرت تأثيرات شرقية جديدة فى اليونان ، وحين انقشع الغبار وصفا الجو عكفت اليونان على حضارتها الخاصة العظيمة، ثم جاء من بعدها حضارة روما التى شيدها أقوام يرجعون إلى العصر الحديدى والبرونزى .

وهذه نهاية تاريخ الإنسان قبل أن تعرف الكتب . أما فيما يتعلق بأوروبا، وبخاصة الجزء الذى يؤلف تراث أمريكا ، فلا يزال الأمر يحتاج إلى شىء من الترتيب والتوضيح ، فبينما كانت اليونان تزدهر وروما تبنى مجدها كان الغرب تحتله الشعوب التى تتكلم الكلتية والتى ترجع إلى العصر الحديدى المتأخر (التين La Téne) الذى يتميز بفنونه الغنية والدبابيس المشبكية المعقدة وحياة المدن النامية ومساكن البحيرات الجديدة فى بولندة وايرلندة .

وكانت هذه الشعوب الغالية تتألف من قبائل بسيطة ساذجة ، ولكن باتساع الإمبراطورية الرومانية خضعوا للفتح فابتعدوا بذلك عن أفكارهم

القبلية . وقد تغيرت حياتهم من النمط القديم الذى كانت القبيلة فيه تؤلف كل المجتمع وبذلك لم يكن قتل أى شخص من خارج القبيلة يعتبر جريمة ، فأصبحوا يخضعون جميعا لقانون واحد ودولة واحدة هما قانون ودولة روما . وعلى ذلك فقد أنهى الرومان العصر الحديدى الأوروبى البسيط . وقد عارضت بعض القبائل قيصر وقاوموا عملية التقدم المنظمة ، ولكنهم هزموا على أيدى الرومان فى فرنسا فهربوا عبر القنال إلى إنجلترا كبداية لبعض أطوار العصر الحديدى النهائى هناك ، وبذلك انتكسوا من التاريخ إلى ما قبل التاريخ . وتستطيع أن تدرس آثارهم أو أن تقرأ عنهم فى كتاب قيصر الذائع المشهور ، ولكن هذا كتاب آخر ، وإذا أردت أن ترجع إلى مثل كتابات قيصر القديمة فيجب أن تقول وداعاً لى ولقصتى .

كلمة ختامية

يزعم علماء التاريخ أن فى استطاعتنا أن نخرج من الماضى بكثير من العظات والدروس ، ولا يملك الرجل العادى إزاء هـذا الزعم سوى أن يغوص فى جعبته ليبحث عن بعض الأسباب والمعاذير التى قد تعفيه من مشقة الإجهاد الذهنى ، ثم يطلع علينا من جديد وهو يهتف « التاريخ لايعيد نفسه » . وهو قول يماثل فى الغباء والسخف الزعم القائل بأن « الصاعقة لا تصيب نفس المكان مرتين » . فالمؤكد أن القولين يتمتعان بقدر واحد من الصحة والصدق . وربما كانت الصاعقة لاتصيب الشىء ذاته مرتين ولكنها تعرف على أية حال الأشياء التى تحب أن تصيبها . ولذا كانت تصيب بناية الإمباير ستيت Empire State Building كلما هبت إحدى العواصف الرعدية . وإذا كان التاريخ لايكرر نفس الدور بنفس الدقة فذلك راجع إلى أن الثقافة المتغيرة تغير الموقف كله . ولكن هذا لم يمنع أحد الساسة المؤرخين مثل تشرشل من أن يتنبأ بما ستفعله بريطانيا فى المستقبل مما فعلته فى الماضى .

فهل نستطيع أن نتعرف بالفعل حياة الأجيال القادمة عن طريق إسقاط الماضى على المستقبل ؟ ولكن قبل أن نذهب إلى هذا لابد لنا من أن نتساءل : ماهى الاتجاهات والميول العامة التى كانت تسود الثلاثين أو الأربعين ألف السنة الماضية التى انقضت منذ ظهور الإنسان الحديث على هذا الكوكب ؟ لقد ظل الإنسان يعيش عيشة التجوال معظم هذه الفترة وهو يبحث عن القوت وعن الطعام حتى طرأ على حياته تغيران هامان .

فأما الأول فيتمثل فى تمكن الإنسان من السيطرة على الطعام والتحكم فيه . وقد يسر له ذلك سبيل العيش فى جماعات قبلية تعيش فى قرى مستقرة ، وأن يهتدى إلى ابتكار وسائل معينة استطاع بها أن يقوى روابطه الاجتماعية

مع غيره من الناس بسهولة ويسر . وكان ذلك إيذانا بظهور حضارة العصر الحجرى الحديث. وأما التغير الثانى فهو عصر البرونز وفيه استطاع الناس أن يأتلفوا معا فى جماعات كبيرة تعيش فى المدن توطئة لتكوين الدول . وقد تم ذلك عن طريق تطوير الفلاحة ومصادر الطعام والعمل على تقدمها وتحسينها ، وساعد على ذلك بطريقة ثانوية ظهور بعض الاختراعات الأخرى ، وبخاصة تسخير الحيوانات كمصدر للقوى ، إلى جانب كونها مصدرا للطعام .

فهل حدث تحول آخر يشبه هذا التحول العظيم منذ ذلك الحين ؟ وهل لانزال نحن نعمل ونجاهد فى سبيل تحسين الأسس التى تقوم عليها كل حياتنا والتى ظهرت إبان العصر البرونزى فى الشرق الأوسط حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م . ؟ إذ لاشك أن هناك فترة من الزمن تقدر بعدة آلاف من السنين كانت الاختراعات تتوالى فى أثنائها بكل بساطة واحداً بعد الآخر لكى تصقل وتهذب فيما بعد على سطح تلك الماسة الخام الخشنة التى تمثل الحضارة الناشئة . وقد أدى ذلك إلى ظهور النقود والكتابة والعلوم البسيطة الساذجة ، كما ترتب عليه أيضاً ظهور اليونان وروما ، وأدى فى الوقت ذاته تقريبا إلى قيام الديانات الكبرى . ولقد قامت المسيحية بدعوة كل من له أذنان إلى المشاركة فى تكوين مجتمع واحد ، على الأقل فيما يتعلق بالعقائد والأخلاق . وبذلك نجد أنه إلى جانب كل ما تعنيه المسيحية فإنه ينبغى أن نعتبرها أحد تلك التطورات التى أدت إلى تقدم الحضارة واكتمالها وذلك فى الوقت الذى كانت الحضارة ذاتها تتقدم من تلقاء نفسها بالفعل . والحق أن المسيحية قامت بدور أكبر من هذا بكثير ، لأنها كانت أشبه بمصرف دولى للايداع ، حفظت فيه الثقافة وقت أن كانت الحضارة ذاتها تعانى بعض الكساد فى العصور الوسطى .

ومن الجائز أن نكون دخلنا الآن بالفعل فى « عصر » جديد ،

ولو أننى أفضل أن أحتفظ لنفسى بحق الانتظار ألفين أو ثلاثة آلاف سنة أخرى حتى أتأكد تماما من ذلك . وقد يكون من العسير أن نحدد الآن الملامح الأساسية لذلك « العصر » ، كما أننا نفتقر إلى اسم يصلح له تماما ، ولو أن معظمنا يسميه عصر الثورة الصناعية . وقد ظهرت بوادر ذلك العصر بنشأة العلم الحديث ابتداء من القرن السابع عشر الذى ساعدنا على فهم الطبيعة بطريقة صحيحة فهماً مكتملا لأول مرة .

وقد تبدو المسألة كما لو كان الناس ينظرون فى الماضى إلى عدد من الأجزاء الصغيرة المتناثرة فيرون كلا منها على حدة دون أن يدركوا أنها تأتلف جميعاً لتكون صورة واحدة كبيرة ، ولكن بعد أن تم تركيب أول قطعتين فى موضعهما، وبينما كانت عملية تجميع الصورة لاتزال تسير باطراد ، ولد العلم نفسه . وهكذا أخذت مغاليق الطبيعة تتفتح وتنهار ، وعكف الناس على ممارسة الكشف والاختراع، وبذلك تخلصوا من التخبط القديم فى ظلمة الكيميا القديمة .

وكان من أهم النتائج اكتشاف أنواع جديدة من القوى التى تستمد ليس من العضلات ، بل من الارتكاسات الجزيئية ، وأعنى بذلك البخار والبترول والبارود . ولقد قرأنا جميعاً فى المدرسة عن الآلات التى تم اختراعها مثل آلات جنى القطن وحلجه ودواليب الغزل والقاطرات التى كانت تدار باليد أو بقوة الماء فحسب . ولكن الشىء الجوهرى أو الأساسى الذى يميز هذا العصر بحق هو الطاقة الهائلة المستمدة من الطبيعة فى شكل الفحم أو البترول أو الأنهار ، لأنه حتى لو افترضنا أنه أمكن استخدام الآلات بالفعل قبل اكتشاف البخار مثلا ، لكان شأنها شأن العربة أو المحراث فى الشرق الأوسط القديم اللذين كانا يستلزمان وجود الثيران لكى يظهر معناهما الحقيقى .

وعلى ذلك فقد ينتهى الأمر بأن يصبح اسم « العصر الذرى » تسمية

ملائمة وليس مجرد كلمة تتردد فى الكتابات الصحفية ، لأن من السهل أن نعتبر أنفسنا تمر خلال فترة تكوينية شبيهة بالعصر النحاسى فى بلاد مابين النهرين ، حيث كانت تجرى التجارب والاخـــتراعات التى أدت إلى قيام الحضارة فى صورتها الكاملة الناضجة إبان العصر البرونزى بمعناه الدقيق . فلقد أجرينا نحن أيضا التجارب ، وتعمقنا فى علم الطبيعة والكيمياء ، كما توجد عندنا السبائك والمعدات التى تصنع الآلات . ولقد عرفنا توصيل القوى إلى الأشياء التى نريد تشغيلها ، ويستوى فى ذلك تشغيل مثقب طبيب الأسنان ، أو تسيير البوارج الحربية . فهل بعـــد ذلك بداية لدخولنا فى المرحلة الحقيقية التى تقوم على القوى الذرية لا على القوى الجزيئية ، وعلى الآلات التى تدير الآلات الأخرى مثلما تصنعها ؟ الواقع أن كل هذه الأمور تتراءى الآن فى الأفق . فلدينا الآن آلات حاسبة إلكترونية لها ذاكرة عجيبة ويمكن اعتبارها بداية للعقل الآلى . كما أن باستطاعة أى شخص يملك المال الكافى أن يكون فى مطبخه على الأقل آلة يمكنها أن تأمر نفسها بأن تتوقف عن عملية الغسل وتبدأ عملية التجفيف .

ومهما يكن من شىء فقد أسلمنا أنفسنا وأذهاننا بالفعل لمثل هذا المستقبل . فمنذ بضع سنين قطع بعض الأطفال الأشقياء الأسلاك الكهربية التى تمد منطقة كاب كود Cape Cod بالتيار الكهربى ، فارتبكت الحياة تماماً هناك . فقد وجد معظم الناس أنفسهم بدون ماء لأن الطلمبات تعطلت وتوقفت ، كما عجزوا عن الحصول على ما يلزمهم من البنزين لتوقف المضخات عن العمل ، ولكن لم يكن لذلك أهمية كبرى على أية حال ، لأن الذين كانوا يستطيعون استخدام سياراتهم لم يجدوا إشارات المرور الضوئية التى تمنعهم من التصادم ومن أن يقتل بعضهم بعضا ، بل لم تكن هناك أية إضاءة فى الشوارع ولا فى الكنائس أو المسارح أو المطاعم ، مما اضطر الناس إلى تناول طعامهم بغير طهى على الرغم من أن بيوتهم مزودة بالأفران

الكهربية . ولقد كان الأطفال الصغار عرضة للإصابة بالنزلات المعوية والمغص لو لم تقم أمهاتهم بتدفئة اللبن لهم فى مراكز الشرطة حيث توجد مولدات كهربية خاصة ، كما استطاع رجال الشرطة كذلك أن ينقذوا حياة السكان من كثير من أمراض العصر الحجرى الحديث حين أشرفوا على تخزين الأمصال واللقاحات بعد أن توقفت الثلاجات فى مخازن الأدوية . ولكن مع ذلك كله فقد رجعت الأبقار بالقرب من Hyannis كل الطريق إلى العصر الحجرى القديم ، إذ تعطلت آلات حلب الماشية وأخذت الأبقار تخور بشكل يثير الإشفاق حين كادت ضروعها تصل إلى درجة الانفجار ، وقد وقف الناس عاجزين حولها يغمرهم الأسى ، ذلك لأنهم كانوا يجهلون تماما طريقة حلب البقرة باليد .

فهذا إذن هو المستقبل الذى يتشكل الآن أمامنا . ولكننا نستطيع أن نتنبأ فى ثقة واطمئنان عن المجتمع بأنه سوف تكون هناك حكومة عالمية ، وستكون الولادة عسرة بلاشك نظراً لكل تلك الثقافات العديدة التى لابد من التوفيق بين خلافاتها . وقد لا تتحقق كل آمال ومخاوف أنصار « العالم الواحد » والمتشبهين بالملك كانيوت Canute ، ولكن إذا كان هناك أى ميل واضح فى الثقافة فإنه الميل للسير فى هذا الطريق ، وإذا كانت الدول تتابعت فى بيرو وبلاد ما بين النهرين الواحدة تلو الأخرى ، وهى تزداد فى الحجم فى أثناء ذلك ، وإذا كانت الأمم فى أوروبا استطاعت أن تسير ولو لفترة من الزمن نحو تكوين الإمبراطوريات مثل روما وإمبراطورية المجر والنمسا والإمبراطورية البريطانية ، فإن تقلص المسافات ونمو الاقتصاديات الضخمة وتقدم المواصلات ساعدت كلها على انتشار الأنباء حول العالم كله بأسرع مما كانت الأخبار تنتشر فى القرية الواحدة فى العصر النيوليثى . وهذا يسهم بلا شك إسهاما كبيراً فى دفع هذا الميل فى ذلك الاتجاه .

وأرجو ألا يسأل القارىء عن متى يحدث ذلك ، أو عن شكل الحكومة العالمية . فكل ما فى استطاعتى أن أؤكده هنا هو أن مشكلاتنا الاجتماعية ستكون أصعب من مشكلاتنا الآلية . فثقافتنا لها ولع شديد بالمهندسين ، وسوف تعمل بكل ما فى وسعها لكى تطهو أحلام المستقبل فى مطبخ الحاضر ، ولو أننى أعتقد أن أهم الاكتشافات فى المستقبل ستكون فى ميدان البيولوجيا وليس فى ميدان الهندسة . ولكن إلى أى حد يمكن أن نتكهن بذلك ؟ وإذا كان الانتقال من الفلاحة الأولى إلى الحضارة المدنية الأولى احتاج إلى ثلاثة آلاف سنة ، وإذا كان الانتقال من هذه الحضارة الأولى إلى الثورة العلمية والصناعية الحديثة احتاج إلى حوالى خمسة آلاف سنة أخرى ، فكيف نستطيع بعد ذلك أن نتخيل حياتنا المستقبلة إلا على أنها تمجيد وإعلاء لما هو موجود وقائم الآن بالفعل ، وأن ذلك سوف يستلزم بضعة آلاف أخرى من السنين ؟

ذلك أننا لانستطيع أن نتكهن بالاتجاه الجديد الذى سيكون هو مفتاح الحقبة التى ستأتى بعد « العصر الذرى » . وهل كان باستطاعة قانصى الحيوانات مثلا أن يتنبأوا بظهور الزراعة ؟ وهل كان بإمكان الزارعين الأوائل أن يتنبأوا بقيام العصر البرونزى ؟ ثم هل كان فى مقدور السومريين أن يتخيلوا الكهربا ؟ وقد يستطيع المرء أن يتخيل لنفسه العالم المثالى الجديد الذى يصبو إليه ، لأن الثقافة تتغير تغيراً كبيراً من ألف سنه إلى ألف تالية ، ولكنه لن يستطيع أن يتنبأ مقدماً بشكل العالم فى المستقبل البعيد بأكثر مما يعرف متى ستمر السحابة التالية .

الدراسة الصحيحة

ومع ذلك فليس من وظيفة التاريخ الأساسية أن يقوم بمثل هذا النوع من التنبؤ أو التكهن ، فالانصراف عن دراسة الإنسان نفسه ، والانشغال بدلا من ذلك بالتطلع إلى مستقبل يقوم على الآلات والمعدات والأجهزة ،

أمر تافه حقير إذا نحن قارناه بمحاولة فهم الحاضر عن طريق دراسة الناس والنظم معاً ، لادراسة كل منهما على حدة . فالثقافة عبارة عن أرجوحة دوارة ، ولكن مهما تبلغ الأرجوحة من الجمال والرونق ، فالشيء الحقيقي فيها ليس هو الآلة، وإنما هو شعور الناس الذين يركبونها وأحاسيسهم في الوقت الذي تزداد سرعتها . فالإنسان على أية حال أكثر ثباتا واطرادا من الثقافة ، لأنه يتغير بيولوجيا ببطء شديد ، بعكس الثقافة ذات الطبيعة الزئبقية المتغيرة .

وثمة مسألة تستحق منا بعض العناية والاهتمام ، وهي أن نفس النوع من البشر عاش عدة آلاف من السنين وهو يمارس قنص الحيوان ، فلما جابهته الفلاحة فجأة بمشكلة اجتماعية جديدة هي ضرورة المعيشة في جماعات كبيرة أثبت أنه قادر تماماً على ذلك ، وأن في استطاعته أن يؤلف أنماطاً جديدة من التنظيم الاجتماعي . ومن الغريب أنه في الوقت الذي كانت الثقافة تنمو وتتقدم استطاع أوساط الناس أن يتابعوا ويسايروا المخترعات الجديدة التي بلغ بعضها درجة عالية من التعقيد . فمن كان يظن ذلك منذ عشرة آلاف سنة فقط ؟ والواقع أنه حين نستطيع في آخر الأمر أن نفهم كيف أتيح للإنسان أن يصل إلى درجة من الذكاء أعلى بكثير — على مايبدو — مما يستلزمه نوع الحياة التي كان يحياها ، فسوف ينكشف لنا في المحل الأول سر خطير من أسرار تطور الجنس البشري . ومع ذلك فليس هذا شيئاً فريداً في ذاته ، لأن قردة الشمبانزي أيضا تبدو ذكية بدون داع بالنسبة للحياة التي تحياها . ثم لماذا تتميز الرئيسات العليا على معظم الحيوانات بقدرتها الفائقة على رؤية الألوان ؟ هل يرجع ذلك إلى ضعف حاسة الشم عندها ؟ إننا نجد أنفسنا هنا أمام بعض الزيغ أو الانحراف الذي تنطوي عليه عمليات التطور ، والذي يبدو أن الحظ يلعب دوراً كبيراً فيه .

ولكن إذا كنا لانعرف حتى الآن كل شيء عن التطور فذلك لا يعفينا

من أن نحاول فهم الطبيعة الإنسانية فى ضوء التطور . حقا إن هناك من لا يزال يشعر بأنه من الخسة واللؤم أن نقول إن الإنسان تطور من بعض الحيوانات البسيطة ، بل وتسوؤه هذه الفكرة ويضيق بها ضيقا شديدا . ومع أن أصحاب هذه النظرة يتناقصون الآن تدريجيا ، فلا شك فى أن موقفهم يرجع إلى عدم قدرتهم على أن يتصوروا الإنسان حيوانا دون أن يكون فى الوقت ذاته فظا دنيئا . وليس من شك أيضا فى أننا سنكون أسعد بالاحين لا تعود فكرة التطور تثير فينا أى نوع من الحرج أو الشعور بالتأذى ، وحين يقبلها الناس بهدوء مثلما يقبلون فكرة دوران الأرض حول الشمس ، وهى فكرة كانت كفيلة فى وقت من الأوقات بأن تقود أصحابها إلى محاكم التفتيش .

ذلك أن الحياة الحيوانية فيها نصيب كبير من النبل وأن الإنسان حيوان نبيل . وأرجو ألا يضحك القارىء من هذا القول . فلقد وصل الإنسان إلى ما هو عليه الآن خلال نيران التجربة التطورية التى كانت تزيد طيلة الوقت من صلاحيته وملاءمته للعالم الذى يعيش فيه والإمكانيات التى يقدر عليها جسمه وعقله (وهما من نوع خاص بالرئيسات دون غيرها من الكائنات) . فالتراث الحيوانى الذى يكمن وراءه يصل إلى بليون أو بليونين من السنين . وهو تراث طيب ممتاز ، وخليق بالمرء أن يفخر به . كذلك يتمتع الإنسان ببنية قوية سليمة رغم ما بها من تعقد . كما أنه يسلك سلوكا طبيعيا لا شذوذ فيه ، اللهم إلا إذا كان هو المخلوق الشاذ العجيب فى مملكة الحيوان ، وهو زعم لا يكاد يجد ما يسنده . فالإنسان ينحدر انحدارا شرعيا من أرقى صور الحياة وأسماها ، ووجوده ليس مسألة سريعة أو عابرة ، فهو يتمتع بصحة جيدة ويعمر طويلا فى الأرض كما أنه قادر على التكيف ، بل إنه متلائم تماما بالفعل مع كل ما يحيط به . هذا بالاضافة إلى أنه يعيش فى محيط ثقافى من شأنه أن يسخر بقية الطبيعة لصالحه ولخدمته .

ويجب أن نعترف بأن هذا الوجود ليس وجودا خاليا من المصاعب ومنزها عن الشوائب. فالإنسانية تتعرض من حين لآخر لحالات شديدة من عسر الهضم الثقافي. ويبد أن الوقت الحاضر هو إحدى هذه المناسبات. فالثقافات تتلاطم وتتصادم، وبذلك يضيع ذلك الانسجام الذي كان يمكن لأي منها أن تحققه لو تركت وشأنها. فالأوروبيون مثلا يحرمون على الإندونيسيين قنص الرؤوس مما أدى إلى اهتزاز الثقافة الإندونيسية وتخلخلها. والغربيون أيضا يقدمون للشرق الأوسط نظاما اقتصاديا يقوم على البترول. ففي أي ثقافة من الثقافات التي تتغير بسرعة فائقة كما هو شأن الثقافة الغربية نجد أن العناصر الجديدة المرنة تزاحم العناصر القديمة التي جفت ويبست، وتضغط عليها حتى تحطمها أو تضطرها إلى أن تغير طبيعتها وإن لم تغير اسمها، وهو ما يحدث في الأغلب.

ولكن ما هو وضعنا نحن من هذا كله؟ وما نصيبنا من الحضارة؟ وهل نحن جميعا متحضرون أو بعضنا فقط؟ إننا نستطيع أن نصف إحدى الثقافات بأنها ثقافة «متحضرة» أو «متمدينة» إذا كانت تعرف المدن ويقوم نظامها الاقتصادي على التجارة الواسعة، وإذا كان بعض الناس الذين ينتمون إليها يشعرون أنهم —كأفراد— ينتمون في الوقت ذاته إلى العالم كله، بمعنى أن يكون ولاؤهم ومسئوليتهم نحو الثقافة الإنسانية ككل. ومع ذلك فقد يكون من أفرادها من يمكن وصفهم بأنهم «نيوليثيون»، ليس لأنهم يمارسون الفلاحة، بل لأنهم يشعرون بالولاء نحو القبيلة الصغيرة أو الجماعة الضيقة التي ينتمون إليها، وليس نحو المجتمع ككل، كما أنهم لا يحسون بالراحة والطمأنينة إن وجدوا أنفسهم في أوساط غريبة. ثم هناك أخيرا تلك القردة «والنسانيس» الاجتماعية الذين يتجهون بولائهم نحو أنفسهم فقط.

وليس من شك فى أن هذا كله يرجع إلى حد كبير إلى تفاوت التعليم والتنشئة ، فقد تكون هناك حضارة عامة تضم بالفعل كل الأشخاص المتحضرين . ولكن هذا لا يمنع من وجود اختلافات بين الناس ، بل وبين الإخوة ، تنشأ عن نوع الترابط الذى يتم عن طريق المصادفة والعرض بين ذلك العـــدد الهائل من المورثات « الجينات » التى تدخل فى تكوين الفرد . وليس ثمة مفر من وجود هذا النوع من الاختلاف دائماً لأن له طبيعة بيولوجية ، وبالتالى فليس ثمة مناص من أن يكون بعض الناس أكثر قابلية للتعلم وأكثر قدرة على الابتكار من البعض الآخر .

ولكن هل يعنى هذا أنه منذ كان إنسان بكين يدق على الصخر الأشياء التى يريد كسرها أخذت مطالب الحياة البشرية تكثر وتتعدد وترتقى بارتقاء الذكاء الإنسانى والمقدرة البشرية حتى وصلت حداً أصبحت تعتبر معه عبئاً شديداً على الأفراد الذين يقفون فى أسفل سلم الارتقاء ؟ صحيح أن أجهزة المطبخ تبدو كما لو كانت فى حاجة إلى امرأة متخصصة فى الهندسة لتشغيلها ، ولكن فيما عدا ذلك فإن الحياة اليومية تزداد فى البساطة وتدنو تدريجياً من المرحلة التى سوف يكفى الإنسان فيها أن يضغط على أحد الأزرار فينجز كل ما يريده دون أن يتعرض هو لمتاعب الآلات على الإطلاق . وقد يكون فى ذلك ما يشجع بعض الحمقى والأغبياء عندنا على التهكم والسخرية من الشعوب المتأخرة التى تستطيع بلا جدال أن تضغط مثل أى واحد منا على تلك الأزرار ؛ لو كان عند هذه الشعوب أزرار يضغطون عليها .

كلا ، فإذا كانت ثقافتنا تضع عبئاً على الأشخاص الذين يشغلون الطرف الآخر القاصر أو العاجز ، فإن هذا يتمثل بلا ريب فى تعقيدات الحياة

الاجتماعية والسياسية التى يستقل كل شخص فيها بوجهة نظره الخاصة فى كل شىء ، بصرف النظر عن مدى تدهور أو تأخر أخلاقه إلى المجتمع الكبير ليعيش فيه ذلك أن مشكلات الناس تتطلب الآن القدرة على التفكير وعلى تحمل المسئولية ، وهى أمور يحتقرها ويهزأ بها (النسانيس) الذين يعيشون بيننا ويعتبرونها شعارات الفلاسفة والمصلحين . ولكن الحقيقة البسيطة هى أنه بعد مليون من السنوات بدأت الثقافة تندفع فى سبيلها إلى الأمام وتسبق كل القدرات الذهنية والاجتماعية والطبيعية التى يمتلكها الإنسان . ويبدو أنها لن تترفق بنا . والأغلب أننا سوف نستعين بكل ما لدينا من إمكانيات عقلية فى الوقت الذى نرجو فيه أن نتمكن من تطوير وتنمية قدرات وملكات أخرى أقوى وأفضل ، ولكن هذا لن يتحقق إلا بعد مضى وقت طويل .

وربما كنا نحتل الآن النقطة المركزية فى كل العلاقات القائمة بين الثقافة والحيوان الذى نشأت عنه هذه الثقافة . فهل يعنى هذا أننا نسير بسرعة نحو الفوضى ؟ وهل سينتهى بنا الأمر إلى أن نقع فريسة للأشياء التى قمنا نحن بصنعها ؟ لا يبدو هذا محتملا ، خاصة وأن هناك درعين قويتين إلى حد كبير نحتمى بهما من هذا المصير .

فأما الأولى فهى قدرة الإنسان الهائلة على التعلم وعلى الإفادة من ثقافته . وهناك بالطبع أشخاص لهم قوى عقلية محدودة أو متدهورة ، ولكن ليس هناك ما يدل دلالة قاطعة على أن معظم الناس اقتربوا من الحد الذى تعجز بعده قدراتهم عن العمل ، أو أنهم وصلوا إلى نهاية قدرتهم على الاستجابة للثقافة عن طريق التعليم الصحيح والسعى المتواصل . صحيح أن الإنسان قد تبهره المهارة اليدوية الفائقة التى قد يكتسبها بعض الناس ، أكثر مما تبهره درجة التفكير الجلى المنظم التى يستخدمونها بالفعل (والتى

تختلف عن القدرة على الحديث المنمق الذى يستعين فيه المرء بالألفاظ الجوفاء والتعابير المحفوظة والأفكار السابقة) مما قد يذكرنا بالشمبانزى التى تمتاز بقدرتها على الحركة السريعة والنشاط واليقظة فى كثير جدا من النواحى، ولكنها تعجز تماما عن أن تنطق أبسط الكلمات. ولكن الخوف والارتياع من التفكير الصحيح قد يكونان ناشئين عن نوع الثقافة والتعليم وليس عن القصور فى القدرات والملكات.

وأما الثانية فهى تلك الإمكانيات الهائلة التى تتمتع بها الثقافة، وكذلك كل تلك الأمور التى يتعين علينا أن نعملها والتى لم نمسها حتى الآن. فلقد حاولت مئات القبائل والدول كثيرا من الحلول لكل مشكلة من المشكلات التى عرضت لها. ومع ذلك فلا تزال هناك حلول أخرى كثيرة لم تخرج بعد للنور، ولكنها قد تصادف القبول لو أتيحت الفرصة لتجريبها.

وقد يحسن بنا أن نفحص فى هذا الضوء أحد نظمنا الكبرى: ففى الوقت الذى كانت أوروبا تتقدم أثناءه من بربرية العصر الحجرى نحو الحضارة والمدنية واجهتها مشكلة العثور على بعض العناصر التى تساعد على قيام مجتمع كبير متماسك. وقد أسهمت روما فى ذلك بفكرة القانون والرعوية اللتين يخضع لهما كل الأفراد. وقدمت المسيحية لأوروبا نظاما عاما مشتركا من المثل والمعرفة الإنسانية، ثم توصلت الشعوب الشمالية بعد ذلك إلى فكرة الحكومة النيابية الدستورية. وليس الدستور الأمريكى نفسه والنظم القائمة عليه إلا جهازا اجتماعيا وسياسيا ضخما لم يظهر مصادفة واتفاقا، بل نشأ عن تبلور كل ذلك التراث الذى انحدر إلينا عن نظام الحكم الذاتى فى المجتمع الحر المستنير واشترك فى وضعه فئة من الناس الذين يعرفون تاريخ بلادهم معرفة وثيقة وبعض المثاليين العمليين الذين يفهمون ثقافتهم فهما دقيقا.

ولننظر إلى الطريقة التى يعمل بها هذا الدستور فى حدود ألفاظ الثقافة

إنه يشجع مختلف الجماعات على التعاون والتفاعل بطريقة مثمرة بحيث يؤلفون مجتمعا متماسكا كالمجتمع الأمريكى ، حيث لا تنحصر الزعامة أو المجد فى شخص واحد بالذات أو مجموعة معينة من الناس ، ولكنه لا يضمن قيام فردوس للعمال وإنما يطلب من الجميع أن يبذلوا جهودهم لتحقيق نوع من التوازن الذى يلائم بوجه عام الزمن الذى يوجد فيه ، ولكنه يتغير حين يقتضى الأمر ذلك .

كذلك هو يعترف بوجود بعض الحقائق الأساسية فى التغير الثقافى التى تظهر من تفاعل الاتجاهات التحررية والمحافظة . فالدستور الأمريكى لا يذكر — ولو من بعيد — نظام الحزبية ، ومع ذلك فإنه يعمل بطريقة تكفل استخدام كل قوى الابتكار والتحرر بشكل دائم مع ضمان عدم ركون قوى الاستقرار والمحافظة إلى الهدوء والركود . والواقع أن هذه القوى الأخيرة يكمن فيها نوع من مقاومة التغير التى قد تبدو أحيانا قصيرة النظر ولكنها ضرورية مع ذلك للتأكد من أن أى تغير فى الثقافة لن ينشأ نتيجة للثورة بل نتيجة للتطور ، وبذلك لا يترتب على ظهور العناصر الجديدة حدوث تصدعات خطيرة فى البناء القديم ، ولكنه لا يسمح فى الوقت ذاته لقشرة البناء القديم الخارجية أن تحول دون إضافة العناصر الجديدة حين يكون ثمة حاجة إلى هذه العناصر للوصول إلى توازن جديد .

وهكذا نجد أن نظمنا القديمة مكنت لنا عن طريق مراجعتها من حين لآخر أن نقيم مجتمعاً كبيراً جداً . ولا تزال فى نفس الوقت تهيىء للفرد الحرية والرفاهية الاقتصادية . وهذا أمر رائع . ولقد بلغت نظمنا الدستورية درجة كبيرة من التعقيد ، كما أنها نظم وعرة شائكة إلى حد كبير . فتكوين المجتمعات الكبيرة أمر من أشق الأمور ، ومع أن دول العصر البرونزى واليونان

كانت أصغر بكثير جداً فلم تتمتع شعوبها بمثل هذه الحرية التى يتمتع بها الأمريكان . ولسنا بحاجـــة إلى أن نبين إلى أى حد يعتبر النظام الديكتاتورى بدائيا بالنسبة لذلك . فهو نظام مستعار من الإنكا ، وهو بذلك يرجع إلى الفصل الأول من الحضارة ، وليس إلى آخر هذه الفصول وأحدثها ، كما أنها تفتقر إلى إدراك طبيعة التغير الاجتماعى التى تعترف بها الحكومة الديمقراطية .

والعبرة من ذلك هى أنه يجب أن نحتفظ بولائنا لثقافتنا ، وأن نفهم ما تفعله هذه الثقافة من أجلنا ، وأن ندرك أننا يجب أن نقف بجوارها أو نسقط معها . ولا بد للثقافة من أن تتطور وإلا ماتت ، كذلك لاتزال الثقافة متماسكة مثل قطع الأرضية (الباركيه) ، وأن التغير السليم هو الذى يحدث ببطء ، وليس أمام المرء إلا أن يشارك فى ذلك كله ، كما أن أكثر المجتمعات نجاحا هو ذلك الذى تتطلب ثقافتـه أفضل ما عند الناس وتستجيب بدورها إلى أفضل ما عندهم . فالإنسان والمجتمع والثقافة شىء واحد. إنها بمثابة التوائم السيامية الثلاثة التى يجب أن تموت معا وليس كل منها على حدة وانفراد . والقول المأثور « اعرف نفسك » معناه فى الحقيقة معرفة هذه الأشياء الثلاثة جميعا . وكما يقول اللورد تويدزميور Lord Tweedsmuir فى مقال له بعنوان « The Other Side Of The Hill »

إن العقل المتفتح المرن الذى يؤمن بضرورة التغير ويمكف فى صدق وإخلاص على تفهم الظروف الجديدة هو من أهم الأمور التى تدل على أن الإنسان لم يخلق عبثاً ، والذين يعتنقون هذا الرأى يعملون كل ما فى طاقتهم للتوفيق والملاءمة بين هذه التغيرات والأسس الجوهرية المستمدة من الماضى . أما الذين يرون فى الماضى شيئا ميتا جامدا فيتحتم عليهم الوقوف بكل قواهم

فى جانب الثورة والطفرة . وأما الذين يعتبرون الماضى هو القالب الذى يصاغ فيه الحاضر والمستقبل وأن له القدرة على التشكل فى صور مختلفة دون أن يفقد شيئا من قوته وإمكانياته ، فينظرون إلى الماضى دائما بعين الريبة والشك ، ولكنهم يبذلون جهدهم مع ذلك لكى يفهموه ويتعلموا من دروسه، ويتجنبوا الطرق القصيرة المباشرة التى ان تؤدى إلا إلى طريق مغلق مسدود .

تذييل

بقلم المؤلف

لقد حاولت فى هذا الكتاب أن أصوغ من التراث الإنسانى قصة واحدة مترابطة. ولم أكن أقصد ببساطة إلى أن أكتب مقدمة للتاريخ أتحدث فيها عن الإنسان القديم أو أصف بعض النظم البدائية لمجرد الوصف والسرد. كذلك لم أكن أهدف إلى التمييز والفصل بين خصائص الإنسان الفيزيقية ونظمه الاجتماعية، وإنما كنت أحاول على العكس من ذلك أن أربط بينها جميعا لكى أخرج بشىء مفهوم عن ماضينا أقدمه للقارىء الذى قد يود أن يلم — بشكل عام جدا — بهذا الموضوع.

ومحاولة تقريب هذه المسائل للأذهان وتوضيحها بالقدر الذى تسمح به معلوماتنا لا تعنى استعراض كل ما نعرفه عنها، وإنما تعنى انتقاء واختيار بعض المعلومات فحسب، والعكوف على إبراز بعض الانطباعات التى قد تكون ناقصة ولكنها لا تنافى الحقيقة مع ذلك، ثم وضعها أمام القارىء لكى يبدى رأيه فيها. ولهذا تكلمت مثلا عن أهمية العشائر الكلاسيكية فى ميلانيزيا، وبعض أجزاء ماليزيا، وعارضتها مع أنساق القرابة الأسترالية الشديدة التعقيد. وإذا كنت أغفلت الكلام عن بعض أنساق القرابة التى لا تقل عنها فى الروعة، والتى توجد فى جهات أخرى مثل بعض أنحاء ميلانيزيا، وربما فى جنوب شرقى آسيا أيضا، فسبب ذلك هو رغبتى فى أن أجنب الصورة التى رسمتها ليس خطر التشويه بل خطر الغموض الذى قد يكون أسوأ وأنكى فى بعض الأحيان. وليس من شك فى أن هناك كثيراً جداً من الاستثناءات والاضطرابات والتناقضات التى لا تنتهى، وهى كلها عناصر ضرورية فى الثقافة، وضرورية أيضا فى دراسة الثقافة. وليس من شك أيضا فى أن تعمد إغفال الاستثناءات أمر لا يمكن التسامح

فيه مجال فى الكتابات المتخصصة . أما حين تحاول استخلاص النتائج وإبعادها عن ميدان التخصص وإبرازها للقارىء العام الذى يريد أن يعرف شيئا عن طبيعة الانثربولوجيا وميدانها فإن التأويل الواعى مع التركيز يصبحان أمرا واجبا لا يمكن اجتنابه .

ولقد استخدمت فى إعادة تركيب التاريخ التأويلات المحافظة، ومع أنى كنت أقترح أحيانا — ولكن ليس دائما — بعض التأويلات الأخرى المعقولة، فإننى أعتقد أن الأفكار التى عرضتها فى هذا الكتاب تقع فى عمومها قريبا من مركز الجاذبية لآراء زملائى فى الوقت الحالى. وخليق بمثل هذه التأويلات أن تكون أقل إثارة للاهتمام والانتباه من التأويلات التى يخرج علينا بها من حين لآخر بعض الخياليين الذين يقدمون لنا تفسيرات شخصية لأصول الحضارة — مثلا — ويطلعون علينا بكتب ومؤلفات يدافعون فيها عن وجهة نظرهم ويوجهون فيها الطعنات للعلماء المتخصصين ولأفكارهم وآرائهم التى يزعمون أنها مجرد أهواء عتيقة ومتعفنة . ولكن الواقع هو أن العلماء المتخصصين يضطرون فى العادة إلى التزام الموقف المحافظ — شأنهم فى ذلك شأن من يدافع عن الموسيقى الكلاسيكية ضد موسيقى الجاز — نتيجة للمعلومات الكثيرة التى لديهم عن هذا الموضوع وكذلك إدراكهم لوجود كل تلك الاستثناءات التى أغفلتها فى هذا الكتاب ، وليس لرغبة منهم فى أن يتآمروا ضد الكتاب الهواة وضد قدرتهم على الفراسة والتشوف .

وأرجو أن يكون فى ذلك ما يكفى لتفسير إغفالى كثيراً من الموضوعات وقلة الحواشى التى تشير إلى الحالات الاستثنائية مثلا أو إلى المراجع والمصادر. ولكننى أود أن أعترف بالفضل لكل الكتاب الذين اعتمدت على أفكارهم وعلى معلوماتهم وأرجو أن يتمكنوا من التعرف عليها وأن يقبلوا شكرى . وقد قام بعض زملائى بقراءة أجزاء متفرقة من الكتاب وبذلوا — مشكورين — الكثير من النصائح القيمة ، ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أنهم يوافقون على

كل ما جا في الكتاب، وإنني اعترف اعترافا حارا بفضلهم وهؤلاء هم السادة
D.W. Ames, D.A. Baerreis, C. W. M. Hart, M.L. Barnett, G Herzog, E.A Hooton, P. MacKendrick, and H.L. Movius, Jr,
وأخيراً فقد قامت زوجتي وأمي وابنتي وابني في كثير من الأحيان وعلى أفضل وجه ممكن بدور الخنازير الغينية، وقد صمدوا تماما للتجربة، ولذا أتوجه لهم جميعا بشكري وحبي .

قائمة المصطلحات

A

Abbevellian	الأبيڤيلية
Ability	قدرة
Abnormal	شاذ ، غير سوى
Abnormal behaviour	السلوك الشاذ
Aborigines, Australian	سكان استراليا الأصليون
Abortion	اجهاض
Abortive	مبتسر ، متعجل
Abrasion	القشط ، الحك
Abrasives	السواحج ، مواد الحك
Abscission	البتر ، القطع
Absolute	المطلق ، المستبد
Absolute existence	الوجود المطلق
Absolute affirmation	الثبوت المطلق
Absolutism	مذهب السلطة المطلقة
Absorption	امتصاص
Abstract	مجرد
Abstraction	تجريد
Absurdity	المحال (عقلا)
Acacia	السنط
Acanthodian	الشوكيات
Accelerating factor	عامل مسارع
Acceleration	التسارع
Acceptability (in diffusion)	التقبل (فى ظاهرة انتشار الثقافة)
Accident	عرض
Accidents, Historical	أحداث تاريخية
Accidental properties	الصفات العرضية
Accessory groups	الجماعات الثانوية أو التابعة
Acclimatization	تاقلم ، تنوخ
Accretion	تزايد
Acculturation	تكيف ثقافى
Acephalus	لاراسى (بغير راس)
Achaeans	الآخيون
Acheullian Culture	الثقافة الاشيلية

English	العربية
Acheullian period	الفترة الاشيلية
Achieved (status)	(المنزلة الاجتماعية) المكتسبة
Acid, Tannic	حامض التنيك
Acidic	حمضى
Acidic lavas	حمم حمضية
Acorn	الترن (ثمرة البلوط)
Acoustic phenomena	الظواهر الصوتية
Acquired	مكتسب
Acquisitions	مكتسبات
Acquittance	الابراء
Acromegaly	تضخم الاطراف
Act	فعل
Action	فعل
Activities	مناشط (جمع نشاط)
— Social	مناشط اجتماعية
Adamantine (lustre)	(بريق) الماسى
Adaptation, Social	التكيف الاجتماعى
Adhesion, Social	التشايع الاجتماعى
Adjustment	توافق ، تعديل
—, Ceremonies	شعائر التوافق
—, Psychological	التوافق النفسى
—, Physiological	التعديل الوظيفى
Adobe	الطوب (اللبن) النىء
Adolescence	المراهقة
Adolescent	المراهق
— ceremonies	طقوس المراهقة
Adoption	التبنى
Adultry	الزنا (بين المتزوجين)
Advance	تقدم
—, Evolutionary	التقدم التطورى
Adze	مقشرة
Aesthetic	جمالى
Aesthetics	علم الجمال
Aesthetic experience	تجربة جمالية
Affinage	تنقية المعادن
Affines	الاصهار
Affinity	روابط المصاهرة
Affluent (society)	(المجتمع) المترف أو الموسر
Afrikaner	الافريكان (فى جنوب افريقية ، من أصل هولندى)
Agate	اليشب ، العقيق
Age	عمر ، عصر
Age-grades	مراتب العمر

Age-mates	زملاء العمر
— Reptiles	عصر الزواحف
— Vertebrates	عصر الفقاريات
Age of Mammals	عصر الثدييات
Age-regiments	الفرق الحربية القائمة على أساس العمر (فى شرق أفريقية)
Age-sets	طبقات العمر
Agent	الفاعل
Agglomeration	تجميع ، تكويم ، تكديس
Agglutination	تعجين ، التحام
Aggregates	أكداس
Aggregation	جمع ، حشد ، تكدس
— process	عملية التكدس
Aggression	عدوان
Agnates	الاقارب العاصبون (فى خط الذكور)
Agnatic kin	» »
Agnation	مبدأ القضية
Agnostic	لا أدرى
Agnosticism	اللا أدرية
Agrarian	زراعى (فلاحى)
— reform	الاصلاح الزراعى
Agronomy	علم الزراعة
Aim	هدف ، غرض
Aim contents	محتويات الهدف
Alabaster	المرمر
Albinism	المهقة ، البضيض ، الشقرة الزائدة
Albino	أمهق ، اشقر
Alchemy	الكيما القديمة
Allegiance	ولاء
Alliance	تحالف
Alloy	سبيكة
Alluvial	طمبى ، غرينى
Alluvium	طمى
Almanac	تقويم
Alpaca	أنبكة (حيوان فى امريكا الجنوبية)
Alteration	تبديل ، تحويل
Alternation	تعاقب
Altruism	ايثار ، غيرية
Amalgamation	ادماج
Amber	كهرمان
Ambergris	عنبر
Ambigus, necleus	النواة المبهمة

Ambivalence	ازدواج
Amethyst	الجمشت
Amitate	العلاقة بين العمة وابنة الاخ
Amitolocal	الاقامة مع العمة
Ammonite	انمونى (صدف حفرى)
Amphibians	البرمائيات
Amphibiology	علم البرمائيات
Amulet	تميمة ؛ تعويذة
Analogy	تمثيل (فى المنطق)
Analysis	تحليل
—, Functional	تحليل وظيفى
—, Structural	تحليل بنائى
Anaphrodisia	المجفر (فقدان الشهوة الجنسية)
Anatomical	تشريحى
— evidence	ادلة أو قرائن تشريحية
Anatomy	تشريح
—, Comparative	تشريح مقارن
Ancestor	السلف
Ancestor worship	عبادة الاسلاف
Animal spirits	أرواح حيوانية
Animism	الانيميزم ، المذهب الحيوى (عند تايلور)
Animistic (theology)	(اللاهوت) الحيوى
Antagonism	تصارع ، تعارض
Antarctic pole	القطب الجنوبى
Antarctic zone	المنطقة المتجمدة الجنوبية
Anteater	آكل النمل
Antedeluvian	قبل الطوفان
Antelope	ظبى ، تيتل
Anthropoids	اشباه البشر
Anthropoid apes	القردة البشرية
Anthropological	انثربولوجى
Anthropology :	الانثربولوجيا (علم الانسان)
Analytical	التحليلية
Applied	التطبيقية
Cultural	الثقافية
Evolutionary	التطورية
Functional	الوظيفية
Genetic	النشوئية
Historical	التاريخية
Industrial	الصناعية
Physical	الطبيعية
Psychological	النفسية

Social	الاجتماعية
Structural	البنائية
Anthropomorphism	التشبيهية
Anthropophagy	آكل لحوم البشر
Anticline	طية محدبة (جيولوجيا)
Antidote	ترياق
Antigens	مولدات مضادة
Antimony	الانتيمون ، حجر الكحل
Antinomy	مناقضة
Antipathy	كراهية ، نفور
Antiquary	العالم الأثرى
Antique	عتيق
Antler	وعل
Antler implements (tools)	الادوات المصنوعة من قرن الوعل
Apathy	تبلد
Apes	القردة العليا
Aphides	المن ، الذباب الاخضر
Apotheosis	التأليه
Apparatus	جهاز
Apparitional (soul)	(النفس) المترائية
Application	تطبيق
Apprehension	التصور الساذج
Appreciation	تقدير
Approbation	مشروعية
Approximation	تقريب
A priori	قبلى
Aprosexia	تشتت
Arabesque	الارابيسك (النسق العربي فى الزخرفة)
Arachnidae	العنكبوتيات
Arbitrary	تحكمى ، تعسفى
Arbitration	تحكيم
Arboreal	شجرى
— animals	الحيوانات الشجرية
Archaean era ; Archaea	الدهر الاركى ، الزمن البدائى
Archaeology	علم الآثار
—, Prehistorie	علم آثار ما قبل التاريخ
Archaeopteryx	المخيخات القديمة
Archaeornithes	الطيور البائدة
Archaeozoic	الدهر الاركى
Archtypes	النماذج البدائية
Argil	أرجيل ، صلصال
Argillaceous	الارجيلى

Argument	برهان ، حجة
Armadillo :	المدرع (حيوان)
fairy	السعلاني
fleecy	الصوفاني
giant	العملاق
hairy	الشعراني
pigmy	القزم
shaggy	الاشعث
Arrangement	ترتيب
—, Chronological	الترتيب الزمني
Arsinatherium	الوحش الارسنوى
Art, Cave	فن الكهوف
Art, Formative	الفن التصويرى
—, Paleolithic	الفن الپاليوليثى (فن العصر الحجرى القديم)
—, Primitive	الفن البدائى
Arts of Articulation	الفنون الكلامية
— gesticulation	الفنون التصويرية
— modulation	الفنون الصوتية
Artesian (wells)	(آبار) ارتوازية
Arthropoda	المفصليات
Articulata	»
Aryan	آرى
Aryans	الآريون
Asceticism	الزهد
Ascribed (status)	(المنزلة الأجتماعية) المتوارثة
Ascription	الارجاع ، النسبة
Asexual	لاجنسى
Aspiration	طموح
Asse	الأص (ثعلب افريقى)
Assembly	جمعية ، تركيبة
Assimilation, Cultural	التمثيل الثقافى
Association	هيئة ، رابطة
Association of ideas	تداعى المعانى
—, Areas of	مناطق التداعى
—, Brain areas of	مناطق التداعى فى المخ
Assumption	دعوى
Assumptions, Cultural	الافتراضات الثقافية
Astrology	تنجيم
Astronomy	علم الفلك
Asymmetry	اللاتناظر
Atevism	وراثة الصفات عن الأسلاف
Atheism	الحاد

Atom	ذرة
Atomism (in social enquiry)	التذرير (فى الفحص الاجتماعى)
Atmosphere	الغلاف الجوى
Attraction	الشد
Attributes	صفات
Auditory (sensation)	(الاحساس) السمعى
Auguration	عرافة ، كهانة
Aurignacian period	الفترة الاورنياكية
Austral	جنوبى
Australian Aborigines	سكان استراليا الأصليون
Australoid	الجنس الجنوبى ، السلالات الجنوبية
Australopithecus	الانسان القردى الجنوبى
Authority, Political	السلطة السياسية
—, Religious	السلطة الدينية
Automatisms	الآليات
Autonomy	الاستقلال الذاتى
Auto-suggestion	ايحاء ذاتى
Avoidance	تحاشى
Avoidance relationships	علاقات التحاشى
Avunculate	العلاقة بين الخال وابن الأخت
Avunulocal residence	الاقامة مع الخال
Awareness, Social	الفطنة الاجتماعية
Axioms	بديهيات
Axiomata Media	المبادىء الرابطة
Axis (of fold)	محور الطية
Axis of symmetry	محور التماثل
Azilian	الطبقات الازيلية

B

Baboon	الرباح
Backbone	الصلب ، العمود الفقرى
Bacteria	البكتريا
—, Parassitic	الجراثيم الطفيلية
Bacteriology	البكتريولوجيا ، علم الجراثيم
Bala limestone	الحجر الجيرى البالوى
Barbarism	مرحلة البربرية
Barbary ape	قرد المغرب
Bark cloth	قماش من لحاء الشجر
Bacillus	عصية (أحياء)
Badger	عناق الارض

Barkhan	برخان ، كثيف رملى على شكل هلال
Barnacle	حلزون (محار)
Barrier	حاجز
—, beach	حاجز حجرى
—, social	حواجز اجتماعية
Barter	مقايضة
Barysphere	الغلاف الثقيل
Barreness	العقم
Basalt	البازلت
Bas-relief	النقش البارز
Base	قاعدة
Basic personality	الشخصية الأساسية
Basilisk	البازلسك ، الثعبان الملكى
Basketry	صناعة السعف
Beagle	البيجل ، كلب لصيد الأرانب (اسم الباخرة التى أبحر عليها داروين)
Beaker	الخوابى الفخارية
Beaver	الجارود ، كلب الماء
Beds	طبقات ، قيعان
—, Current	طبقات التيار
—, False	طبقات كاذبة
Bedrock	صخر أصم
Behaviour	سلوك
Behaviourism	المدرسة السلوكية
Beliefs	معتقدات
Benevolence	احسان
Bergman's rule	قاعدة برجمان
Betel nut	ثمار البتل
Betrothal	الخطوبة
Bias	انحياز
Bifurcation	تشعب
Bigamist	ذو الزوجتين
Bigamy	الزواج من اثنتين
Bigamous	متزوج من اثنتين
Bigotry	التطرف فى الدين
Bilateral	ذو الجانبين
Bilaterallia	ثنائية الجوانب (أحياء)
Bipolar	ذو القطبين
Bipolar cells	الخلايا المتقطبة
Bisexual	مزدوج الجنس
Bison	البيسون ، الجاموس الوحشى فى أمريكا
Black buck	الظبى الأسود الهندى

Black magic	السحر الأسود
Bladder	المثانة
Bladder worm	الدودة المثانية
Blades	نصال ، أسلحة
Blade-bone	لوح الكتف
Blasphemy	التجديف فى الدين
Blood, circulation of	الدورة الدموية
Blood brotherhood	أخوة الدم
Blood fend	عداوة الدم
Blood groups	فئات (فصائل) الدم
Blood sacrifice	أضحية الدم
Bloodwealth	فدية ، دية
Blow-gun	بندقية النفخ
Bolas	البولاس
Bone-tools	الآلات المصنوعة من العظام
Boomerang	عوجاء (عنـــد أهالى أستراليا الأصليين)
Botanical	نباتى
Botanist	عالم النبات
Botany	علم النبات
Bough, Golden	الغصن الذهبى (كتاب فريزر)
Boulder	صخرة
Bovidae	البقريات
Brachiation	أرجحة (القردة)
Brachium	عضد
Breadfruit	ثمرة الخبز (فى جزر البحار الجنوبية)
Breed	نسل ، سلالة
Brideprice ; bridewealth	المهر
Brontosaurus	العظايا الراعدة
Bronze Age	عصر البرونز
Burial ceremonies	مراسيم الدفن

C

Cachalot	حوت العنبر (من الثدييات المائية)
Cacops Aspidophorous	المدرعات الكالحة الوجه (بائدة)
Cactus	صبار
Cadaster	تقييم (للعقارات)
Cadastral	تقييمى
— survey	المسح التقييمى للأراضى
Cainozoic	الدهر الكينوزى (دهر الحيـــــاة الحديثة)
Cairn	البناء المهرم
Calabash	اليقطين ، نوع من القرع

Calcareous	الكلسى ، الجيرى
— rocks	الصخور الكلسية
— sandstone	الحجر الرملى الجيرى
Calciferous	الكلس
Calcification, Calcination	التكليس
Calculation	الحساب ، التقدير
Calendar	تقويم
Calligraphy	فن الخط
Callous	لحاء الشجر اليابس
Cambrian Period	الحقب الكامبرى
Cameleon	الحرباء
Camelidae	الابليات
Canine teeth	الأنياب
Cannibalism	أكل لحوم البشر
Capacity	قدرة ، مقدرة
Capitalism	الرأسمالية
Capricornus	برج الجدى ، مدار الجدى
Caracal	العناق (من اللواحم)
Caravan	قافلة
Carbides	كربيدات (من صور الكربون)
Carbon	كربون
Carbon deposits	رواسب كربونية
Carboniferous limestone	الحجر الجيرى الفحمى
Cardamon	حبهان
Cardiac	القلبى (من القلب)
Caribou	الكاريبو (وعل امريكى)
Carnivora	اللواحم (من الثدييات)
Carnivorous	آكل اللحم
Carnivorous marsupials	الجرابيات اللاحمة
Carpal	رسغى
Carpal bone	عظام الرسغ
Carving	النحت
Case-study	دراسة الحالة
Cast iron	الحديد الزهر
Cast steel	الصلب المسبوك
Caste	الطائفة (فى الهند)
Casting	السبك
Castration	اخصاء
Catarrhine Family	الفصيلة المتقاربة الخياشيم (نسانيس العالم القديم)
Categorical imperative	الأمر المطلق
Categorical judgment	الحكم المطلق

Category	مقولة ، طبقة ، فئة
Caterpillar	يسروع
Cattle complex	مركب الماشية (فى أواسط افريقية)
Cattle plague	طاعون الماشية
Causality	العلية ، السببية
Causation	تسبيب
Cavitas, cavity, cavum	تجويف
Cebus	الحودل (من السعادين)
Cedar	الأرز
Celestial	سماوى
Celibacy	العزوبية
Cell	خلية
Cellular	خلوى ، متعلق بالخلية
Cellular division	انقسام خلوى
Cenozoic Era	الدور الحيوانى الحديث (الشينوزوى)
Census	احصاء السكان
Cephalasis	المدرع الراسى (من الفقاريات)
Cephalic	الراسي (نسبة الى الراس)
Cephalic Index	النسبة او الدليل الراسى
Cephalochordate	راسى الحبل (حيوان)
Ceramics	صناعة الخزف
Ceratodus	القرنية الأسنان
Cercariae	المتذنبات (الحيوانات المتذنبة)
Cercocebus	الذيال (من السعادين)
Cercopithecidae	القردوحيات (من السعادين)
Cercopithecus	قردوح
Cerebellum	مخيخ
Cerebral	مخى
Cerebral cortex	اللحاء المخى
Cerebrum	المخ
Ceremonies	مراسيم
Certainty	اليقين
Cervical	عنقى
Cervical ganglion	العقدة العنقية
Cervical vertebrae	الفقار العنقية
Cervix	العنق
Cetus	القيطوس ، سبع البحر
Chance	المصادفة أو الاتفاق
Change :	التغير :
—, Cultural	الثقافى
—, Social	الاجتماعى

Chaos	انعماء
Character	خلق
—, National	الخلق (الطابع) القومى
Charm	تعويذة ، طلس
Cheiroptera	الخفاشيات
Chellean Period	الفترة الشيلية
Chelonia	السلحفائيات
Chief	زعيم ، رئيس
—, Native	الزعماء الوطنيون
Chiefship, Chieftainship	الرياسة
Chimpanzee	الشمبانزى
Chip	شظية
Chisel	منحت (ازميل)
Chondrosomes	الأجسام الغضروفية
Chondrus	غضروف
Chordata	الحبليات
Chorioid, Chorionic	مشيمى
Chorion	المشيمة
Chromosomes	كروموسومات ، صبغيات
Chronological	زمنى
— Age	العمر الزمنى
— Arrangement	الترتيب الزمنى
Chronology	علم التأريخ
Cicisbeism	نظام الأزواج الثانويين
Cilicious	صوانى
Circumcision	ختان
Circumference	محيط الدائرة
City-state	دولة المدينة
Civilisation	حضارة ، مدنية
Clan	عشيرة
Class	طبقة
— conflict	الصراع الطبقى
— distinction	التمييز الطبقى
— Social	الطبقة الاجتماعية
— stratification	التفاوت ، أو التدرج الطبقى
Classification	تصنيف
Classificatory	تصنيفى
— kinship terms	مصطلحات القرابة التصنيفية
— system of kinship	نسق القرابة التصنيفى
Clavicle	ترقوة
Clay	طفل ، صلصال

Cleavage	الانشقاق
Clients	الموالى
Clitoris	البظر
Closed society	المجتمع المغلق
Coagulation	تخثر
Coalescence	التئام
Coalition	تآلف
Coaptation	تطابق
Cobblestones	حصباء
Coccyx	العصعص (فقرات فى الذنب)
Code	القانون
Codification	التقنين ، التشريع
Coding	عملية الترميز (فى البحوث الاجتماعية)
Coefficient :	معامل :
of correlation	الارتباط
of reliability	الثبات
of validity	الصدق
Coercion	القسر ، القهر
Coercive power	قوة الالزام
Cognition	ادراك
Cognitive state	الحالة العقلية الادراكية
Cohabitation	المعاشرة
Coherence	الالتئام
Coherent	ملتئم
Cohesion	تماسك ، التصاق
Cohesive	تماسكى
Coincidence	التلاقى فى الزمان او المكان
Coliac	الجوفى
Coliac ganglion	العقدة الجوفية
Colic	المغص
Collaboration	معاونة ، مشاركة
Collar-bone	ترقوة
Collateral	المناظر ، المجانب
Collaterals	الاقارب المجانبين (مثل الأعمام)
Collective	جماعى ، جمعى .
— representations	تصورات جماعية (دور كايم)
— responsibility	مسئولية جماعية
Colloidal solutions	محاليل غروية
Colonnade	البهو ذو الأعمدة
Colour bar	الحاجز اللونى
Colour discrimination	التمييز العنصرى بحسب اختلاف اللون

Coloureds	الملونون
Colubridae	الحفائيات (من الحيات غير السامة)
Columbidae	الحماميات
Combustion	الاحتراق ، الاشتعال
Communication	الاتصال
Communication process	عملية الاتصال
Communication, Mass	الاتصال الجمعى
Communism, Primitive	الشيوعية البدائية
Community :	مجتمع محلى :
Primitive	بدائى
Rural	ريفى
Urban	حضرى
Commutation	تخفيف العقوبة
Comparative :	مقارن
method	المنهج المقارن
studies	الدراسات المقارنة
Comparison	المقارنة
Compensation	تعويض
Competence	أهلية ، جدارة
Competent	حاذق ، مقتدر
Competition	منافسة
Compilation	الجمع والتنسيق
Complex, Culture	مركب ثقافى
Components, Social	المكونات الاجتماعية
Comprehensiveness	الشمول
Compulsion	اجبار ، اكراه
Computation	عد ، تقدير
Conceit	غرور ، غطرسة
Concentration	تركيز
Concentric	متراكز ، متحد المركز
Concepts	مفاهيم
Conchiferous	صدفى ، محارى
Conchology	علم المحاريات
Concrete	عيانى ، مشخص
Concommitant	ملازم ، مصاحب
— variation	تغير مصاحب أو اقترانى ، التلازم فى التغير
Concubinage	نظام المحظيات
Concubines	المحظيات ، السرايا
Condition :	ظرف :
Alternative	تبادلى
Contingent	توافقى

Contributory	مساعد
Necessary	ضروری
Sufficient	کاف
Configurations (of culture)	صيغ (الثقافة)
Conflict, Social	الصراع الاجتماعى
Conformity, Social	التواؤم الاجتماعى
Conglomerates	مجمعات (آثار وجيولوجيا)
Congregation	حشد ، جمع
Congruity	مطابقة
Conjectural (history)	(التاريخ) الظنى أو التخمينى
Conjugal (family)	(العائلية) الزواجية ، أى العائلة الصغيرة
Conjuration	التعزيم (فى السحر)
Connate	باطنى ، وراثى
Consanguinity	روابط الدم
Consensus, Social	الاجماع ، التوافق الاجتماعى
Consensus of opinion	اجماع الرأى
Consensus omnium	اجماع عام
Consistence	اطراد ، الخلو من التناقض
Constancy	الثبات
Constitution	بنية ، تكوين
Constraint, Social	الالزام الاجتماعى
Contact, Cultural	الاحتكاك الثقافى
—, Social	الاحتكاك الاجتماعى
Contagious magic	السحر الاتصالى
Contemplation	تأمل
Content	مضمون
Content analysis	تحليل المضمون
Contingent	حادث أو ممكن
Contiguity	تجاور
Continuity	استمرار
—, Cultural	الاستمرار الثقافى
— description	الدراسة الوصفية الطويلة المدى
Contract, Social	العقد الاجتماعى
Controls	ضوابط (فى المناهج)
Control group	جماعة ضابطة
Control, Social	الضبط الاجتماعى
Convention	اتفاقية
Conventional art	الفن التقليدى
Convergence of cultures	تقارب الثقافات
Cooperation	تعاون
Coordination	تناسق

Coral, Stony	المرجان الصخرى
Core	النواة (فى الأركيولوچيا)
Cord-marked	الزخرف الضفيرى
Correlation	ترابط
Corrugated iron	الحديد المموج أو المجعد
Corrugation	التجعيد ، التمويج
Corrosion	تآكل
Corruption	فساد ، تحريف
Corselet	زرد
Cortex cerebri	لحاء المخ
Cortical	قشرى
Corythosaurus	العظاية المخوذة
Cosmic	كونى
Cosmic dust	التراب الكونى
Cosmos	الكون
Cosmological	الكونى
Cosmology	علم الكون ، أو العلم الطبيعى
Cosmozoa	جراثيم كونية
Cotylosauria	العظايا ذات التجويف الحقى
Couvade	الكوفاد
Cranial	جمجمى
Craniology	علم الجماجم
Craniometer	جهاز قياس حجم الجمجمة
Cranium	الجمجمة
Crannogs	مساكن البحيرات القديمة (فى اسكتلندة وايرلنده)
Creation	خلق ، ابداع
Creative type	نموذج ابداعي
Cremation	احراق الجثة
Creodonta	القرميات
Creodont Carnivora	اللواحم القرمية (من الثدييات)
Cretaceous era	الزمن الطباشيرى
Crevasse	انصدع (فى الانهار الجليدية)
Crime	جريمة
Criminology	علم الجريمة
Criterion	محك
Cromagnon	انسان كرومانيون
Cross-breed	السلالة المهجنة
Cross-cousin marriage	الزواج المتقاطع بين أبناء العمومة أو الخؤولة
Crossing	تهجين
Crowns, Teeth	تيجان الاسنان

Crust	قشرة
Crustacea	القشريات
Cryptogram	الكتابة الرمزية
Cryptology	علم اللغة الرمزية
Cults	عبادات
Cultural :	ثقافى
— anthropology	الانثربولوجيا الثقافية
— expression	التعبير الثقافى
— relativity	النسبية الثقافية
— remains	البقايا الثقافية
— survivals	المخلفات الثقافية
— symbiosis	التكافل الثقافى
— values	القيم الثقافية
Culture :	ثقافة
— area	منطقة ثقافية
— centre	مركز ثقافى
— contact	الاحتكاك الثقافى
— growth	الملامح الثقافية
— traits	النمو الثقافى
—, Diffusion of	انتشار الثقافة
Culturology	علم الثقافة
Cuneiform	مسمارى
Cuneiform writing	الخط المسمارى
Cupping	الحجامة
Cupping glass	قدح الحجامة
Cusp	تاج السن
Cuspid	الناب
Custom	العرف
Customary law	القانون العرفى
Cuttle-fish	سمك الحبار
Cut-worm	اليسروع الاكال

D

Dance, Ghost	رقصة الشبح
Darwinism	الداروينية ، مذهب داروين فى التطور
Data	بيانات ، حقائق
Data collection	جمع البيانات
Dating, Archaeological	تحديد التواريخ الاركيولوجية
Deactivation	تثبيط
Decentralisation	لامركزية
Decerebration	نزع المخ

Decimal	النظام العشرى فى العدد
Decimalisation	اتباع النظام العشرى
Decimals	الكسور العشرية
Defection	التنقية
Degeneration of cultur	انتكاس الثقافة
Deism	مذهب التألية
Deities	معبودات ، أرباب
—, Specific	أرباب نوعية
Delict	ذنب ، خطأ
—, Private	الأخطاء أو الذنوب الخاصة
—, Public	الأخطاء أو الذنوب العامة
Delinquency	جناح
Delinqent	الجانح
Delphinus	الدلفين (من الثدييات البحرية)
Demeanour	سيرة
Demography	ديموجرافيا ، علم السكان
Demons	شياطين ، عفاريت
Demonstration	برهان
Demotic	اللغة الديموتيقية
Density of contracts	كثافة الاتصالات
— of population	كثافة السكان
Density, Social	الكثافة الاجتماعية
Dental	السنى
— arch	القوس السنى
— cavity	التجويف السنى
— drill	مثقب الاسنان
Denudation	تعرية
Deposits	ترسيبات
Descent	أصل ، نسب ، انحدار
Descent groups	الجماعات التى تقوم على أساس روابط الانحدار
Descriptive kinship terms	مصطلحات القرابة الوصفية
Design	تصميم
—, Representative	التصميم الممثل
Determinants, Social	المحددات الاجتماعية
Determination	الجبر
Determinism	الحتمية أو مذهب الجبر
Deterioration of cultures	تدهور الثقافات
Deterrent	رادع
Detribalisation	تهدم النظام القبلى
Deuterogamy	الزواج ثانية بعد وفاة الزوجة الاولى
Development	ترق ، نمو ، تنمية
Deviation	انحراف

—, Standard	الانحراف المعيارى (فى المناهج)
Devonian Period	الفترة الديفونية
Diachronic studies	دراسة الموضوعات التى حدثت فى أزمان مختلفة
Diagnosis	التشخيص (فى البحث العلمى)
Dialects	لهجات
Dialectic materialism	الجدلية المادية
Dicephalous	مزدوج الرأس
Dichotomy	القسمة الثنائية
Differentiated society	المجتمع المتفاضل
Differentiation, Society	انتفاضل الاجتماعى
Diffusion of culture	انتشار الثقافة
Diffusionists	الانتشاريون ، أتباع نظرية الانتشار
Digital	اصبعى ، الجزء الامامى من القدم
Digits	اصابع
Dilaceration	تمزيق
Dilapidation	تخريب
Dillydolly	تسكع
Dilution	التخفيف بالماء
Diluvial Formation	التكوين الطوفانى
Diluvium	الغرين الطوفانى
Dimensions, Social	ابعاد اجتماعية
Dimensional equation	المعادلة البعدية
Diminution	تصغير ، تقليل
Dinoceras	المهول القرن
Dinosaurus	الديناصوز ، العظاية المهولة
Dinothere	الدنثير (من الثدييات البائدة ذوات الخراطيم)
Dipus	يربوع (من القواضم)
Direct rule	الحكم المباشر
Discrepancy	التباين ، التنافر
Discrimination, Racial	التمييز العنصرى
Disintegration	تفكك ، انحلال
Disorder	اضطراب ، إختلال
Displacement	نقل ، ازاحة
Disruption	تمزق ، تصدع
Dissection	تقطيع ، تشريح
Distance, Social	البعد أو التفاوت الاجتماعى
—, Spacial	البعد المكانى
Distinction, Class	التمييز الطبقى
Distribution, Territorial	التوزيع الاقليمى
Divergence of cultures	تباعد الثقافات
Divination	العرافة

Divine :	الالهى
— command	الأمر الالهى
— justice	العدالة الالهية
— intelligence	العقل الالهى
— providence	العناية الالهية
Division of labour	تقسيم العمل
—, Sexual	تقسيم العمل بحسب الجنس
Divorce	طلاق
Doctrine	نظرية
Documents	وثائق
Doliehocephalic	الرأس المستطيل
Dolmen	دولمين (آثار قديمة)
Dolomite	دولوميت (حجر جيرى مغنيسى)
Domestication	استئناس ، تدجين
Dominance	سيطرة
Dominant trends	الاتجاهات السائدة او المسيطرة
Dorsal (vertebrae)	(الفقار) الظهرية
Drift	النهير الثلجى
Driver ant	النمل الزحاف
Drumlin	التل الجليدى
Dryopithecus	قرد الشجر
Duality	ثنائية
Dug-out	الزورق المحفور من الشجر
Dump	مستودع القمامة (مقلب)
Dual organisation	التنظيم الثنائى
Duel	المبارزة
Dynamics, Social	الديناميات الاجتماعية
Dysphoria, Social	النفور الاجتماعى

E

Earthenware	الاوانى الخزفية
Echinodermata	الشوكيات (حيوانات بحرية)
Ecology	الايكولوجيا ، علاقة الانسان بالبيئة
Economic development	تنمية اقتصادية
Ecosystems	انساق بيئية
Ecstasy	الجذب الصوفى
Ectogenesis	النشوء او التكوين الخارجى
Edaphosaurus	عظاية الارض (زواحف بائدة)
Edentata	الدرداوات (من الثدييات)
Effect	المعلول

Egalitarianism	مذهب المساواة
Ego	الذات ، الانا
Egoism	أنانية
Egyptology	علم الآثار المصرية
Emanation	الفيض ، الصدور
Emancipation	التحرير
Emasculation	اخصاء
Embalment	تحنيط
Embodiment	تجسيد
Embryology	علم الاجنة
Embryonic	جنينى
Emigration	نزوح (مهاجرة)
Empirical	تجريبى
Empirical data	حقائق التجربة
Empiricism	المذهب التجريبى
Emotions	انفعالات وجدانية
Enactments	اوامر ، تشريعات
Enclave communities	المجتمعات المحلية المحصورة
Endogamy	زواج داخلى
Energism	مذهب الطاقة
Energy	الطاقة
Entombment	الدفن
Entomology	علم الحشرات
Entozoa	الحلميات (من الطفيليات)
Entozoology	علم الحلميات
Environment	الوسط (البيئة)
Eoanthrop	انسان الفجر
Eocence	العهد الايوسينى ، عهد الفجر الحديث
Eohippus	الحصان الاول ، حصان الفجر
Eoliths	الاحجار الفجرية
Eolithic period	عصر الاحجار الفجرية
Eos	الهة الفجر (ايوس)
Eozoic	عصر الفجر الحيوانى
Epigraphy	علم قراءة النقوش
Epipalaeolithic	ما فوق العصر الحجرى القديم
Epistemology	نظرية المعرفة
Equation	مضاهاة
Equations	المعادلات
Equlibrium, Social	التعادل أو التوازن الاجتماعى
Equity	مبدأ العدالة الطبيعية
Equivalent forms	الصور المتكافئة

Equivalence	التكافؤ
Erinaceidae	القنفذيات
Erosion	تعرية
Essence	جوهر ، ماهية
Essential property	صفة جوهرية
Eternity	الأبد
Ethnic (groups)	(الجماعات) السلالية
Ethnic psychology	سيكولوجيا الشعوب
Ethocracy	حكم السلالة ، انحصار الحكم فى سلالة واحدة
Ethnogeny	علم نشوء السلالات
Ethnography	الاثنوجرافيا
Ethnology	الاثنولوجيا
Ethology	علم العادات
Etiology	علم تتبع الاسباب
Eudemonism	مذهب السعادة
Eugenics	علم تحسين النسل
Euphoria, Social	التلاؤم الاجتماعى
Euthenic	تحسين ظروف المعيشة
Evidence	بينة
Evolution	تطور
Evolution, Emergent	التطور المفاجىء
Evolutionary anthropology	الانثربولوجيا التطورية
Evolutionism	المذهب التطورى
Exact sciences	العلوم المضبوطة او الدقيقة
Excavation	الحفر ، التنقيب
Exchange	المبادلة
—, Marriage by	زواج التبادل
Existence	الوجود
Exocoetidae	الخطافيات (من الأسماك)
Exogamy	زواج خارجى أو اغترابى
Experience	خبرة
Experiment	تجربة
Experimental	تجريبى
Expiation	تكفير
Explanation	تفسير
Explication	توضيح ، شرح
Exploratory studies	دراسات استطلاعية
Expression, Cultural	التعبير (الثقافى)
Extended family	العائلة الممتدة
External	خارجى
External occurrence	عرض خارجى

External perception	الادراك الظاهر
External objects	الاعيان الخارجية

F

Fable	خرافة ، قصة خيالية
Face validity	الصدق الظاهر
Facet	السطح العظمى ، سطح البلورة
Faction	العصبة
Factors, Social	العوامل الاجتماعية
Faculty	ملكة
Faith	ايمان
False	كاذب
Falsehood	الكذب
Falsification	تكذيب
Family ;	العائلة :
Elementary	الاولية
Compound	المعقدة
Conjugal	الزواجية
Extended	الممتدة
Matriarchal	الامية (نسبة الى الأم)
Nuclear	النواة
Patriarchal	الابوية
Families, Linguistic	العائلات اللغوية
Fantasms	اطياف
Fatalism	القدرية
Father-right	حق الاب
Feathered serpent	الافعى المريشة (المكسيك)
Fecundity	خصوبة
Femoral	فخذى
Femur	عظم الفخذ
Ferruginous	حديدى
Fertilization	اخصاب
Fertilizers	مخصبات
Feticide	قتل الجنين
Fetish	البد ، الفتش
Fetishism	التعلق بالبدور ، الفتشية
Feud	عداوة
Fictitious (kinship)	(القرابة) المتخيلة او الوهمية
Field work	الدراسة الحقلية

Figuration	التشكيل ، التشكل
Figurines	التماثيل الصغيرة
Filing of teeth	برد الاسنان
Final purpose	العلة الغائية
Finality	مبدأ العلية الغائية
Finite	متناه
Finitude	التناهى
Fir	شجرة التنوب
Fire-arrow	السهم النارى
Fire-bars	الطوب النارى
Fire clay	الطين النارى
Fire drill	الزناد ، أداة توليد النار
First cause	العلة الأولى
First principle	المبدأ الاول
Fishes, Age of	عصر السمك
Fission	انشقاق
Fission and Fusion	مبدأ الانشقاق والالتحام
Fissipara	الانقساميات (كائنات تتولد عن طريق الانقسام)
Flagrante delicto	فى حالة التلبس بالجريمة
Flake	شطفة
Flaking	الشطف
Flake tools	الادوات المشطوفة
Flight arrow	السهم البعيد المرمى
Flint	صوان ، ظران
Flint chipping	تشظية الصوان
Fluctuation	تقلب
Fluid	عصارة
Fluited	محزوز (به حزوز)
Flying lemur	الصعبور الطائر (من السعادين)
Focused (interview)	(المقابلة) البؤرية (فى البحث العلمى)
Foeticide	قتل الجنين
Foetus	جنين
Fold	طية
Folklore	فولكور ، الآداب الشعبية
Folkways	العادات الشعبية
Folsom culture	ثقافة فولسوم
— Man	انسان فولسوم
— point	مدبب أو مسنون فولسوم
Forbea ; forebear	السلف ، الجد
Fore ordination	التدبير الازلى
Forensic	شرعى ، قضائى

— medicine	الطب الشرعى
Foresight	تبصر
Foretooth	السن الامامية ، الرباعية
Formal sociology	علم الاجتماع الصورى
Formalism	الصورية
Formative arts	الفنون التصويرية
Formulative studies	دراسات صياغية
Fornication	الزنا (بين غير المتزوجين)
Fortuitism	المذهب الاتفاقى او العرضى (أى القائل بأن التطور يحدث عن طريق المصادفة)
Fossil (s)	حفرى ، حفريات
Fossil Man	الانسان الحفرى
Foundry	سباكة
Fraction	كسر
Fragment	جزء ، شظية
Fratricide	قتل الأخ
Free Thinkers	المفكرون الاحرار
Fresco	الفريسكو . الصور الجصية على الجدران
Friction	الحك ، الفرك
Frigid zone	المنطقة المتجمدة
Frontales	عظام الجبهة
Frustration	تأزم ، حبط
Fulcrum	مفصل
Function, Social	الوظيفة الاجتماعية
Functional	وظيفى
— analysis	التحليل الوظيفى
— anthropology	الانثربولوجيا الوظيفية
Functionalism	النزعة الوظيفية
Funeral (ceremonies)	(الطقوس) الجنائزية
Fungi	الفطريات
Fungiferous	فطرى
Fusion	التحام

G

Galaxy	المجرة
Gametes	امشاج
Gang	زمرة ، عصبة
Gastric	معدى (من المعدة)
Gastronomy	نهم
Gathering	حشد

Gekkonidae	الوزغيات
Gemeinschaft	مجتمع محلى
Gemination	ازدواج ، تضعيف
Gemine	التوامان (فى الفلك)
Genes	مورثات ، جينات
Genealogical	نسبى (مختص بالانساب)
— method	الطريقة النسبية
Genealogist	الخبير فى الانساب ، النسابة
Genealogy	شجرة النسب ، سلسلة النسب
Genera (pl. of genus)	اجناس (جمع جنس)
Generalisation	تعميم
Generation	جيل ، تولد ، تكون
Generic ideas	المعانى الكلية
Genesis	سفر التكوين
Genet	الرباح (من اللواحم)
Genethliac	علم قراءة الطوالع
Genetic	تكوينى ، نشوئى
Genetics	علم الوراثة
Genetic anthropology	الانثربولوجيا النشوئية
Genital	تناسلى
Genital curpuscles	جسيمات تناسلية
Genus	جنس
Genus proximum	الجنس القريب
Gibbon	الشق (من السعادين)
Gingerbread	خبز الزنجبيل
Glacial	جليدى
— epoch	العصر الجليدى
— era	الزمن الجليدى
Glaciations	ثلاجات
Glaciers	انهار الثلج
Gladiators	المصارعون الرومان
Glands	غدد
Gnosticism	مذهب الأدرية
Gnostics	الادريون
Gorilla	الغوريلا
Gourd	يقطين ، نوع من القرع
Granite	جرانيت
Granivora, Granivorous animals	الحيوانات آكلة الحبوب
Gravity	الجاذبية
Grazing	الرعى
Group	جماعة ، زمرة

Group consciousness	الشعور الجمعي
Group, Marginal	جماعة هامشية
Group marriage	زواج الجماعة
Group mind	العقل الجمعي
Group parenthood	الأبوة الجمعية
Grouping	تجمع
Growth of culture	نمو الثقافة
Guanaco	غوناقة (لاما جنوب أمريكا)
Guardian spirit	الأرواح الحارسة
Guidance	توجيه
Guild	الطائفة الحرفية
Gynecocracy	حكومة النساء
Gypsies	الغجر

H

Habit	عادة
Habitant	قاطن
Habitat	موطن
Habitation	مسكن
Habitual	معتاد ، تعودى
Habituation	اكتساب العادة
Haematocrya	الفقاريات الباردة الدم
Haematotherma	ذوات الدم الحار
Hagiocracy	الحكومة المقدسة
Halcyon	المازوى (طير كبير يعيش على صيد السمك)
Hamadryad	الرباح اليمانى (من السعادين)
Hamadryas	الرباح اللبدى
Hamites	الحاميون
Hamitic	الحامية
Hamito-Nilotics	النيليون الحاميون
Handicrafts	الحرف اليدوية
Harmonic	منسجم ، متوافق
— analysis	التحليل التوافقى
— components	المركبات التوافقية
Harmony	انسجام ، توافق
Harp	القيثارة ، الهارب
Harpoon	حربة صيد السمك
Haruspicy	كهانة ، عرافة
Head-hunting	قنص الرءوس
Headman	رئيس ، شيخ

Heartburning	ضغينة
Heathen	وثنى
Heathenism	عبادة الأوثان
Hedonism	مذهب اللذة
Hegemony	رياسة ، سيادة (وبخاصة فى الدول الاتحادية)
Heidelberg Man	انسان هيدلبرج
Herbivorous	آكل العشب
Hereditary	متوارث
Heredity	وراثة
Heritage	تراث
Heterogeneity	تغاير
Heterogenous	متغاير
Heteronomy	مذهب السلطات الخارجية
Heterosexuality	جنسية غيرية
Heuristic method	طريقة الكشف (وبخاصة فى التعليم والتربية حيث يقوم التلميذ بالكشف عن الاشياء بنفسه)
Hierarchy	تدرج أ وتسلسل (فى المراتب)
Hieratic script	الخط الهيراطيقى
Hieroglyphics	الكتابة الهيروغليفية
Higher primates	الرئيسات العليا
Hipbone	عظمة الفخذ
Hipgirdle	قوس الحوض
Hip joint	مفصل الفخذ
Hippohoscidae	الشعراوات (من الحشرات)
Hippopotamus	فرس البحر
Historical method	المنهج التاريخى
Historiography	تأريخ
History	التاريخ
—, Conjectural	التاريخ الظنى أو التخمينى
—, Hypothetical	التاريخ الافتراضى
Holistic studies	الدراسات الكلية الشاملة
Holocene	الدهر الهولوسينى ، العهد الحديث كل الحداثة
Homicide	القتل
Hominid, Hominidae	البشر
Hominoidea, Hominoids	الآدميات
Hominivorous	آكل لحم البشر
Homo Sapiens	الانسان العاقل
Homo Neanderthalenses	انسان النياندر
Homo Rhodensienses	انسان روديسيا
Homogeneity	تجانس
Homogeneous	متجانس

Homology	تناظر
Homosexuality	الجنسية المثلية
Homotype	متشابة الطراز
Horde	حشد
Horned cairns	الهرمات المقرنة
Horoscapy	كشف الطوالع
Horticulture	فلاحة البساتين
Howling monkey	العواء (من سعادين أمريكا)
Humanities	الانسانيات
Humenes	عضد ، عظم العضد
Hybrid	هجين
Hybridism	تهجين
Hydrology	علم المياه ، وبخاصة المياه الجوفية
Hydrosphere	الغلاف المائى
Hygiene	علم الصحة
Hypergamy	المغالاة فى تعدد الزوجات
Hypocondria	توهم المرض
Hypothesis	الفرض (العلمى)
Hypothetical history	التاريخ الافتراضى

I

Iacchus	الاياكوس (سعدان افريقى بائد)
Ice Age	العصر الجليدى
Iceberg	جبل الجليد
Ichneumon	النمس
Ichthyosaurus	العظاية السمكية
Ideals	مثل
Ideation	التمثيل العقلى
Identification	توحد
Identity	هوية
Ideograph	الحروف الرمزية
Ideography	الكتابة الرمزية
Idolatry	عبادة الاوثان
Igloo	الاجلون ، بيت الجليد عند الاسكيمو
Igneous	نارى ، بركانى
Igneous rocks	صخور بركانية
Iguanidae	الاجوانيات (من العظايا الامريكية)
Illegal	غير قانونى
Illegitimacy	اللاشرعية
Illegitimate	غير شرعى

Illicit	محرم ، محظور
Illusion	خداع
Imagination	مخيلة
Imitation	محاكاة
Imitative magic	السحر التمثيلي (عن طريق المحاكاة)
Immigration	الهاجرة
Immigrants	الوافدون
Immortality	الخلود
Immunity	حصانة ، مناعة
Imparity, Social	التفاوت الاجتماعي
Imperial mammoth	الماموث الامبراطوري
Impersonal relations	علاقات لا شخصية
Impetus	باعث ، منبه
Implementation	انجاز
Implication	تضمين
Implicit	ضمني
Imploration	ابتهال ، توسل
Impotence	العنة
Impulsion	اندفاع
Impurity	نجاسة
Inalienability	عدم امكان انتقال ملكية الشيء أو التنازل عنه
Inarticulate	اللامفصليات
Inauspicious	نحس ، شؤم
Inbreeding	توالد داخلي
Incantation	رقية ، تعويذة
Incarnation	تقمص
Incest	الزنا بالمحارم ، مباضعة المحارم
Incentive	باعث
Incision	قطع
Incisive teeth, incisors	الأسنان القواطع
Inclination	ميل ، نزعة
Incorporeal (property; intangible)	ممتلكات لا مادية
Indemnity	تعويض
Indices, Body	مقاييس الجسم (في الانثربولوجيا الطبيعية)
Indifference	عدم الاكتراث ، لا مبالاة
Indigenous populations	الأهالي الوطنيون
Indigo	النيلة
Individual	الفرد
Individuality	الفردية
Individuate	مستفرد
Individuation	افراد

Indo-Aryan	انهندوآرية
Indo-European Languages	اللغات الهندو أوروبية
Indulgence	انغماس ، اغراق
Indus Valley (civilisation)	(حضارة) وادى السند
Industrial	صناعى
Industrialisaion	تصنيع
Indtustry	صناعة
Inevitability	حتمية
In extenso	بدون اختصار ، بكامله
Infallible	معصوم ، منزه
Infanticide	قتل الاطفال ، الواد
Infidelity	الحاد ، خيانة
Infinite	لا متناه
Infiniteness, Infinity	لا نهائية
Inflections	الاعراب فى اللغة
Informant	أخبارى (فى الدراسات الاجتماعيــة الحقلية)
Infraction	انتهاك الحرمة ، التعدى
Infusoria	النقعيات (من الاحياء الدنيا)
Ingenerate	غير المولد
Inheritance	تركة ، ميراث
Inhibition	كبت ، كف
Inhumation	الدفن
Initiation ceremonies	شعائر التكريس أو التأهيل
Initiative	مبادأة
Inlaid-work	ترصيع ، تلبيس
Innate	فطرى
Innate ideas	الأفكار الموروثة
Innovation	ابتكار ، تجديد
Inoculation	تلقيح ، تطعيم
Inorganic	لا عضوى
Inquest, Inquiry	استقصاء
Inscriptions	نقوش ، كتابات
Insecta	مملكة الحشرات
Insectorium	مربى الحشرات
Insectivora	آكلة الحشرات
Insemination	اخصاب ، تلقيح صناعى
Insight	استبصار
Inspiration	الهام
Instauration	ترميم
Institution, Social	نظام اجتماعى
Insulation	عزل

Insulator, Electric	عازل كهربائى
Intangible property	أملاك لا مادية
Integral	كامل
Integrated	متكامل
Integration ;	التكامل :
Functional	الوظيفى
Social	الاجتماعى
Structural	البنائى
Integrity	تماسك ، كمال
Intellect	العقل
Intelligence	ذكاء
— tests	اختبارات الذكاء
Intensive studies	دراسات مركزة
Interaction	تفاعل
Interbreeding	تهجين
Intercourse, Sexual	علاقات جنسية
Interdependence	اعتماد متبادل
—, Functional	تساند وظيفى
Internal	باطنى ، داخلى
Internal perception	التأمل الباطن
Internal struggle	الصراع الداخلى
Interests	اهتمامات
Interglacial stage	الفترة الدافئة التى تقع بين اى دورين جليديين
Intermarriage	تزواج
Intermittent generations	الأجيال المتقطعة (مثل الاجداد والاحفاد)
Interpretation	تاويل
Interracial	بين السلالات
Intervertebral	بين الفقارات
Interview :	مقابلة (فى البحوث الاجتماعية) :
Depth	متعمقة
Focused	بؤرية
Non-directive	غير موجهة
Repeated	متكررة
Standardized	مقننة
Intestines	أمعاء
Intrinsic	ذاتى
Intrinsic factors	عوامل ذاتية أو أصلية
Intrinsic value	القيمة الذاتية
Introspection	استبطان
Introversion	انطواء

Intuition	حدس
Innersion	ارتكاس ، انقلاب الى الضد
Invertebrata	اللافقاريات
Invariant relations	علاقات ثابتة
Invocation	ابتهال ، توسل
Involuntary	لا ارادى
Ipecac	عرق الذهب
Iron Age	العصر الحديدى
Ironware	مصنوعات حديدية
Irradiation	اشعاع
Irrationalism	القول بخوارق العادات
Irregular	غير منتظم
Isolates, Social	جماعات منعزلة
Isolationism	الإعتزالية
Isthmus	برزخ

J

Jackanape	نسناس (من السعادين)
Juculidae	الجرابيع (من القوارض)
Jade	حجر اليشب
Java Man	انسان جاوة
Javan Rhinoceros	الكركدن الجاوى
Jaw	الفك
Jaw teeth	الاضراس ، الطواحن
Jellyfish	قنديل البحر (سمك هلامى)
Jericho	أريحا (مدينة)
Joint	مفصل ـ مشترك
Joint action	العمل المشترك
Joint family	العائلة المشتركة
Joint property	الملك الشائع
Joking relationships	علاقات المزاح
Jomon Period	عصر جومون (فى اليابان)
Jooming	حرق الحشائش الطفيلية
Judgment	حكم
Judicatory	قضائى
Judicature	سلطة قضائية
Judicial	قضائى
Judiciary	محكمى
Jural	قانونى
Jurassic Period	الحقب اليوراسى ، الحقب الجورى

Juridical	شرعى ، قضائى
Jurisprudence	علم الفقه
Jurisprudent	فقيه
Justice	عدالة
Justification	تبرير
Juvenile	حدث
Juvenile delinquency	جناح الأحداث
Juxtaposition	رص

K

Kabyles	القبائل ــ فى الجزائر
Kafuan culture	الثقافة الكافية
Kaffirs	الكافير (اسم يطلق على الأهالى فى بعض جهات جنوب افريقية)
Kageran (damp phase)	الطور الكاجيرى الرطب
Kamasian damp phase	الطور الكامازى الرطب
Kassites	القاسيون
Katabolism ; Catabolism	انتقاص ، الأيض (أحياء)
Kayak	الكاياك ــ زورق الاسكيمو
Kebbie	هراوة
Keilor skull	جمجمة كيلور (استرالية)
Kin	الأقارب
Kingship	الملكية
—, Divine	الملكية الالهية
Kinsfolk	الأهل
Kinship	قرابة
—, Classificatory	قرابة تصنيفية
—, Descriptive	قرابة وصفية
— nomenclature	مصطلحات القرابة
— system	نسق القرابة
— terminology	مصطلحات القرابة
Kinsmen ; Kinswomen	أقارب عاصبون
Kitchen middens	مخلفات أوقمامة المطبخ (رواب ترجع الى العصر الميزوليثى وما بعده)
Kith	الأنسباء
Knuckle	المفصل بين سلاميات الأصابع
Knuckle bone	السلامية (عظمة بين كل مفصلين من مفاصل الاصبع)
Kraal	الكرال (قرى جنوب افريقية)
Kula ring	حلقة الكولا
Kulturkreis	الدائرة الثقافية (نظرية)

L

Labour	العمل
— Distribution of	توزيع العمل
— Division of	تقسيم العمل
— Organisation of	تنظيم العمل
Labyrinth	التيه
Lacertidae	العظائيات (بائدة)
Lactation	افراز اللبن
Lactatic acid	حامض اللبنيك
— fermentation	تخمر لبنى
Lacustrine	بحيرى (ما يعيش فى البحيرات)
Lag, Cultural	تخلف ثقافى
Lag tooth	ضرس العقل
Lake dwellers	سكان البحيرات
Llama	اللاما
Lamarckism	مذهب لامارك فى التطور . اللاماركية
Lance	رمح
Lancehead	راس الرمح
Lancelet	الحريب (حيوان)
Land-ownership	ملكية الأرض
Land tenure	حيازة الأرض
Land vertebrates	انفقاريات البرية
Laniaries	نواجذ ، أنياب (عند اكلة اللحوم)
Lapidescence	تحجر
Lapidification	تحجير
Lapidose	حجرى
Lapis lazuli	اللازورد
Larva	يرقة
Larynx	حنجرة ، حلق
Latidentate	عريض الأسنان
Latissimo condyloidens	عضلة اللقمة العريضة (فى الجانب الداخلى من العضد)
Lava	حمم بركانية
Law :	القانون :
Customary	العرفى
Modern	الحديث
Natural	الطبيعى
Primitive	البدائى
Law of conservation of energy	قانون عدم فناء الطاقة
Law of equivalence	قانون التكافؤ

Laws of motion	قوانين الحركة
Leadership	زعامة ، قيادة
Legacy	تراث
Legal	قانونى
-- procedures	اجراءات قانونية
— sanctions	جزاءات قانونية
— system	نسق قانونى
Legend	خرافة
Legislation	تشريع
Lemur	الليمور (من الرئيسات) ، الصعبور
Lemuroidae	الليموريات ، الصعبوريات
Lesbianism	السحاق
Levalloisian culture	الثقافة الليفالوازية
Levirate ; Leviratic marriage	الزواج من أرملة الاخ
Life cycle	دورة الحياة
Ligeance	ولاء
Lignivorous	آكل العشب
Limb	طرف ، عضو
Limb, Pectoral	الطرف العلوى أو الأمامى
—, Pelvic	الطرف الاسفل أو الخلفى
Lineage	بدنة
Lineal	خط الانحدار
Linear	خطى ، طولى
Linguistics	علم اللغات
—, General	اللغويات العامة
Linguistic Anthropology	الأنثروبولوجيا اللغوية
Litigation	مخاصمة ، مقاضاة
Liverwort	نبات بقلة الكبد
Livestock	حيوانات داجنة
Lobola	المهر (فى جنوب افريقية)
Lobster	سلطعون ، سرطان بحرى
Locality	موقع اقليمى ، محل
Long barrow	الركام المستطيل
Loin	الصلب ، القطن
Loin cloth	مئزر
Loneliness	الوحدة
Looms	أنوال
Lost wax method	طريقة الشمع المفقود ، التفريغ الشمعى
Lower Beings	الأحياء الدنيا
Lower Paleolithic	العصر الحجرى القديم الادنى
Lower Silurian era	الزمن السيلورى الأدنى

Lower Triassic era	الزمن الطرياسى الأدنى
Lower Vertebrates	الفقاريات الدنيا
Loxomma	المنحرف العينين (كائن بائد)
Loyalty	ولاء
Lubrication	تزبيت ، تشحيم
Lumbar	قطنى ، صلبى
— cord	النخاع أو الحبل القطنى
-- curve	التجويف القطنى
— vertebrae	الفقار القطنية
Lumbricalis	العضلة القطنية

M

Macacus ; Macaque	الكاك (سعدان أسيوى)
Machiavellism	الميكيافيلية (فى السياسة)
Macrocosm	العالم الكبير ، الكون
Macro-sociology	الدراسة الاجتماعية الشاملة أو للمجتمع الكبير
Madagascan	مدغشقرى (من جزيرة مدغشقر)
Magdalenian period	الفترة المجدلينية
Magic :	السحر :
Black	الاسود
Contagious	الاتصالى
Sympathetic	الانعطاف
White	الابيض
Maglemosian culture	ثقافة ماجلموز
Mainspring	دافع ، باعث
Maintenance (of social structure)	دعم (البناء الاجتماعى)
Malachite	اللاخيت
Malacology	علم الرخويات
Malacostraca	الصدفيات ، المحاريات
Maladjustment	عدم التوافق
Malediction	السبه ، اللعن
Malefactor	المذنب ، المخطىء
Malevolent	الحقود
Malleable cast iron	الظهر الطاوع
Malleable iron	الحديد المطاوع
Malnutrition	سوء التغذية
Mammal	ثديى
Mammalia	الثدييات
Mammalian	ثديى
Mammology	علم الثدييات

Mammals	الحيوانات الثديية
Mammary glands	الغدد الثديية
Mammoth	الماموث (من أسلاف الفيلة)
—, Imperial	الماموث الامبراطورى
Man-ape	الانسان القرد
Mana	قوة المانا الروحية (عند البولينيزين)
Mangle	مصقلة ، آلة الصقل
Mania	جنون
Manifestation	مظهر ، مجلى
Manioc	انيوق ، المانيول (نبات استوائى)
Manipulation	المهارة اليدوية
Mankind	الجنس البشرى
Manners	أخلاق
Manual	يدوى
— work	العمل اليدوى
Marble	رخام
Marginal area	منطقة هامشية
— groups	جماعات هامشية
— rites	شعائر الهامش (من شعائر المرور أو الانتقال)
Marmoset	القشة (من السعادين الأمريكية الصغيرة)
Marriage :	الزواج :
by exchange	زواج التبادل
Cross-cousin	بين أبناء العمومة أو الخؤولة المتقاطعة
Endogamous	الداخلى أو الاندوجامى
Exogamous	الخارجي أو الاكسوجامى
Group-	زواج الجماعة
Leviratic	من أرملة الأخ الميت
Matrilocal	والاقامة عند أهل الزوجة
Parallel-cousin	بين أبناء العمومة أو الخؤولة المتوازية
Patrilocal	والاقامة عند أهل الزوج
Preferential	المفضل
Prohibited	المحرم ، الممنوع
Sororal	من أخت الزوجة المتوفاة
Marsupialia	الجرابيات (من الثدييات)
Marxism	الماركسية
Mask	قناع
Mass education	تعليم الجماهير
Mass-interview	مقابلة جماعية (فى البحث الاجتماعى)
Mass-observation	ملاحظة جماعية (فى البحث الاجتماعى)
Mastodon	المستودون ، الحلمى الأسنان (حيوان بائد)
Masturbation	استمناء

Mat-marked	الزخرف الحصيرى
Mater familias	رئيسة العائلة
Material culture	الثقافة المادية
Materialism	المذهب المادى
—, Dialectic	المادية الجدلية
Matri-class	العشيرة الأموية
Matriarchal	أموى
Matriarchate	حق الأم
Matriarchy	النظام الأموى
Matricide	قتل الأم
Matrilineality	الانتساب الى الأم
Matrilocality	الزواج والسكن عند أهل الزوجة
Matrimony	الحالة الزواجية
Matronymic groups	الجماعات الأموية
Maturation	نضج
Maturity	نضج
Matwork	صناعة الحصير
Measurement of attitudes	قياس الاتجاهات
Mediation	توسط ، وساطة
Mediator	وسيط
Megacephalic ; Megacephalous	الكبير الراس
Megalith	المغليث ، المناضد الصوانية الضخمة
Megalithic culture	الثقافة المغليثية
Meganthropus	الانسان القردى الضخم
— Palaeojavanicus	انسان جاوه القردى البدائى الضخم
Mendel's law	قانون مندل (فى الوراثة)
Menhir	المنهير (من الأحجار الصوانيـــــةالضخمة)
Menstruation	الحيض
Mental adjustment	التكيف العقلى
Mental habits	العادات العقلية
Mental process	عملية عقلية
Mercury	عطارد ، زئبق
Mesocephalic	متوسط الرأس
Mesolithic	العصر الميزوليثى ، العصر الحجـرىالقديم الأوسط
Mesozoic	الزمن الحيوانى الأوسط ، دهر الحياة الميزوزوى (الوسطى)
Metabolism	التمثيل الغذائى
Metalwork	صناعة المعادن
Metamorphosis	المسوخ
Metatarsal	المشطى (الجزء الأوسط من القدم)
Metazoa	الحيوانات الكثيرة الخلايا
Meteor	نيزك ، شهاب

Meteoric	نيزكى
— iron	حديد نيزكى
Method	طريقة ، وسيلة
Methodology	منهج البحث العلمى
Metopic	جبهى (من الجبهة)
Microcosm	العالم الصغير (الانسان)
Microliths	نصال قزمية
Micro-sociology	الدراسة الاجتماعية المركزة للمجتمعات الصغيرة
Migrant	مهاجر
Migration	هجرة
Milieu	وسط
Military associations	الجماعات الحربية (فى شرق افريقية بخاصة)
Milpa agriculture	الزراعة القائمة على القطع والاحراق
Mind, Group	العقل الجمعى
Minnesota Man	انسان (فتاة) مينسوتا
Minoan civilisation	الحضارة المينوية
Miocene	العهد الحديث الأوسط ، العهد الميوسينى
Miscegenation	امتزاج السلالات البشرية
Misogamy	كراهية الزواج
Misogyny	كراهية النساء
Missing link	الحلقة المفقودة
Missionary	مبشر
Mobility, Social	الحراك الاجتماعى
Mobilization of groups	تجنيد الجماعات
Modification	تعديل
Moieties	اتحادات العشائر الأسترالية
Mole (s)	الخلد ، الخلدان
Molecule	جزىء
Mollusca	الرخويات
Mongol	المغول
Mongolian	مغولى
Mongoloid	شبه المغولى
Monkey	سعدان ، نسناس
Monoclonius	وحيد القرن
Monocracy	حكم الفرد
Monogamy	الزواج الأحادى أو المونوجامى
Monogenism	أحادية الاصل ، انحدار البشر جميعا من أصل واحد
Monogeny	التوالد من خلية واحدة
Monogyny	الزواج بامرأة واحدة
Monopoly	احتكار
Monotheism	توحيد

Moose	الموظ ــ الوعل الأمريكى
Moraine	الركام الثلجى
Morality	الأخلاقية
Moropus	البطىء الخطى (حيوان بائد)
Morphology	مورفولوچيا ، دراسة التشكل الاجتماعى
Morsel	جزلة
Mortuary rituals	الشعائر الجنائزية
Mother right	حق الأم
Motives	بواعث
Mounds	الروابى ، المتاريس
Mousterian period	الفترة الموستيرية
Mulatto	خلاسى (مولد من أبوين من لونين مختلفين)
Multiplicity	كثرة ، تعدد
Multiracial	متعدد السلالات
Mummification	تحنيط
Mummy	موميا
Musk ox	ثور المسك
Mutation	طفرة ، تغير فجائى
Mutual aid	العون المتبادل
Mycology	علم الفطريات
Myth	أسطورة
Mythology	ميثولوچيا ، دراسة الأساطير

N

Naming customs	عادات التسمية
Narrative	الرواية الشفهية
Nascent	نشوئى
Native	أهلى ، وطنى
Native authorities	السلطات الوطنية أو الأهلية
Nativism	الفطرة
Nativistic movements	الحركات الأهلية
Nativistic revivalism	احياء التراث الأهلى
Natufian culture	الثقافة الناتوفية
Natural	طبيعى
— causation	العلية الطبيعية
— religion	الدين الطبيعى
— science	العلم الطبيعى
— selection	الانتخاب الطبيعى
Naturalistic pantheism	مذهب وحدة الوجود الطبيعى
Nature worship	عبادة الطبيعة

Nautilus	سمك النوتى
Navel ; Umbilicus	السرة
Ndoki	ندوكى (المشعوذ فى الكونغو)
Neanderthal Man	انسان النياندر
Neanthropic	السلالات البشرية الجديدة
Nebula	سديم
Necessity	ضرورة
Needs :	حاجات :
Basic	أساسية
Biological	بيولوجية
Organic	عضوية
Social	اجتماعية
Negation	السلب
Negrillo	الزنجى القزم
Negrito	متزنج
Negro	زنجى
Negroids	السلالات الزنجية
Neighbourhood	جيرة
Neocene	العصر الثلثى الحديث
Neoliths	الأحجار الحديثة
Neolithic Age	العصر الحجرى الحديث
Neozoic Age	العصر الحيوانى الحديث
Neural	عصبى
Neurology	طب الأعصاب
Neurosis	عصاب
New-Darwinism	الداروينية الجديدة
Newt	النيوط ، سمندل الماء
Nilatics	الشعوب النيلية
Nilo-Hamites	النيليون الحاميون
Nomad ; Nomadic	بدوى
Nomadism	بداوة
Nomes	النومات ، القاطعات الادارية ، فى مصر قديما
Nomenclature	تسمية
—, kinship	مصطلحات القرابة
Non-literate peoples	الشعوب المتأخرة
Nordic	النوردية (سلالة)
Norm	معيار
Norm, Social	معيار اجتماعى
Normal	سوى
Normative	معيارى
Normative science	العلم المعيارى

Notungulata	اللاظلفيات (ثدييات عاشبة بائدة)
Nuclear	نووى
— family	العائلة النواة أو البسيطة
Nucleus (pl. Nuclei)	نواة
Numeration	العد
— by position	العد عن طريق ترتيب وضع الارقام
Nurture	تربيب
Nutrition	اغتذاء

O

Ontology	الانطولوچيا ، مبحث الوجود
Ophidia	فصيلة الثعابين
Ophthalmia	الرمد
Opinion, Public	الرأى العام
Opossum	الأوپسوم (من الثدييات الكيسية)
Opportunism	الانتهازية
Opportunist	انتهازى
Opposition	تقابل ، معارضة
Oppression	اضطهاد
Opulence	وفرة ، خصب
Oracles	الكهان ، المتنبئون
Orangutan	انسعلاة (من القردة العليا)
Orbit	مدار
Ordeal	الامتحان الالهى
—, Poison	التحكيم باستخدام السم
Order	نظام ، طريقة
Ordovician rocks	الصخور الاوردوفيشية
Organ	عضو
Organic	عضوى
Organic solidarity	التماسك العضوى
Organising principles	المبادىء المنظمة
Organism	الكائن العضوى
Organisation, Social	التنظيم الاجتماعى
Orientation, General	الاتجاه العام
Origin	أصل
Origin of Species	أصل الأنواع (كتاب داروين)
Originality	أصالة
Ornithology	علم الطيور
Ornithomancy	زجر الطير ، التطير ، التفؤل بالطير
Ornithopodae	الطيرية الأرجل (من العظايا)

Orthocephalic	مستقيم الرأس
Oscillation	تذبذب ، تأرجح
Ossis	العظم
Ossivorous	آكل العظم
Ostealopids	العظمية الحراشف (من الأسماك)
Ostensible	الظاهر ، البادى
Ostensine facts	الوقائع الملموسة أو البادية
Ostracism	النفى ، النبذ ، الابعاد
Ostracoderm	الصدفية الجلد
Otter	القندس ، ثعلب الماء
Outcastes	المنبوذون (فى الهند)
Ownership	الملكية
Oysters	المحار

P

Paca	الباكه (حيوان أمريكى من القواضم)
Pagan	وثنى
Paganism	وثنية
Palaeomastodon	المستادون القديم
Paleanthropic	السلالات البشرية القديمة
Pale-ethnology	الاثنولوجيا القديمة ، علم السلالات القديمة
Paleoliths	الأحجار القديمة
Paleolithic Man	انسان العصر الحجرى القديم
Paleontography	دراسة الحفريات
Paleontology	علم الحفريات
Paleotheres	الوحوش القديمة
Paleozoic	دهر الحياة القديمة
Paleozoology	علم الحيوان القديم (الحيوانات البائدة)
Palmistry	قراءة الكف
Pampalaeozoic	الدهر الاقدم (الپامپا ليوزوى)
Pantheism	وحدة الوجود
Papyrus	بردية
Parallelism	مذهب التوازى
Parasites	الطفيليات
Parasitic	طفيلى
Parenthood	الوالدية
—, Physical	الأبوة الطبيعية (الفيزيقية)
—, Social	الابوة الاجتماعية
Participant observation	الملاحظة عن طريق المشاركة
Pastoralism	الرعى
Pastoralist	الراعى

Paterfamilias	رئيس العائلة
Paternal	أبوى (فيما يختص بالسلطة)
Patricians	النبلاء
Patrilineal family	عائلة أبوية (من حيث الانحدار فى خط الذكور)
Patrilocal family	عائلة أبوية (من حيث الاقامة معاهل الزوج)
Pathological	باثولوچى ، مرضى
Patria Postestas	حق الأب
Patriarchate	حق الأب
Patrilineality	الانتساب ، الى الأب
Patrilocality	الزواج والسكنى عند أهل الزوج
Patronage	معاضدة ، الولاية على
Pattern	نمط
Patterns of culture	انماط الثقافة
Peasantry	الحالة القروية
Pebble	حصى ، حصباء
Pebble tools	آلات حصوية
Pedigree	أرومة
Pegmatite	صخور البجماتيت
Pelvis	عظام الحوض ، الحوض
Pelvic	حوضى
Penal law	قانون العقوبات
Penalty	عقوبة
Penance	تكفير ، كفارة
Penitence	توبة
Percept	المدرك الحسى
Perception	الادراك الحسى
Perennial	دائم ، مستمر
Perfection	الكمال ، التمام
Period, Geological	الحقب الجيولوچى
Perjury	شهادة الزور
Permian Period	الحقب البرمى
— formation	التكوين البرمى
Peronius tertius	العضلة الشظية الثالثة
Perpetuation	دوام ، استمرار فى الوجود
Perplexity	حيرة
Persecution	اضطهاد
Perseverence	مثابرة
Personification	تشخيص
Persuasion	اقناع
Phantasy	خيال
Phantom	طيف

Phase	طور
Phenomenon (pl. a)	ظاهرة
Phenomenal existence	الوجود الظاهرى
— world	العالم الخارجى
Phenomenalism	مذهب الظواهر
Philology	فقه اللغة
Phobia	الخوف
Phratry	اتحاد العشائر (فى استراليا) . البطن
Physical Anthropology	الأنثربولوجيا الطبيعية او الفيزيقية
Phytophagous	آكلة النباتات (من الحيوانات)
Pictographs ; Picture writing	الكتابة التصويرية أو الكتابة بالصور (مثل الهيروغليفية)
Pilot group	جماعة تجريبية
Pilot project	مشروع تجريبى
Pilot study	دراسة استطلاعية
Piltdown Man	انسان پلتدون
Pithecanthropus	أنسان جاوه ، الانسان القرد
Pithecus	السعدان
Pithecoidae	السعدانيات
Placentalia	المشيميات
Placoids	الحيوانات المصفحة
Planning, Social	التخطيط الاجتماعى
Plasticarts	الفنون التجسيمية
Platyrrhine Family	الفصيلة الفطساء الأنوف (نسانيس العالم الجديد)
Plebeians	العامة
Pleistocene	البلايستوسين ، العهد الأحدث
Plesiosaurs	أشباه العظايا
Pliocene	البلايوسين ، العهد الحديث المتأخر
Pliopithecus	الكثير القردية (شق العهد الحديث الأوسط)
Plutonic rocks	صخور جوفية
Points	مدببات ، مسنونات
Polarity	استقطاب
Political system	نسق سياسى
Pollination	التلقيح
Pollution	تدنيس ، نجاسة
Polyandry	زواج المرأة بأكثر من رجل فى وقت واحد ، البوليانْدرية
—, Archaic	البوليانْدرية العتيقة الزائلة
—, Fraternal	زواج الاخوة من امراة واحدة
Polygamy	الزواج التعددى
Polygyny	الجمع بين أكثر من زوجة
Polytheism	تعدد الآلهة

Potlatch	نظام البوتلاتش
Position, Social	المكانة الاجتماعية
Positive	وضعي
Positivism	الفلسفة الوضعية
Postulates	مسلمات
Pottery	صناعة الفخار
Precept	قاعدة قانون
Pre-cambrian	ما قبل العصر الكامبرى
Pre-chellean	ما قبل الفترة الشيلية
Predecessors	الأسلاف ، الأجداد
Predominance	التسلط
Pre-eminence	التفوق والاستعلاء
Preferential (marriage)	(الزواج) المفضل
Pregnancy	الحمل
Prehistoric (archaeology)	علم آثار ما قبل التاريخ
Prehistory	ما قبل التاريخ
Prelogical	العقلية السابقة على المنطق
Premises	المقدمات
Premolars	الأضراس الطاحنة الأمامية
Prenatal	قبل الولادة
Prestation	نظام الهدايا الملزمة
Priesthood	كهنوت
Primacy	اولوية
Primal	الأولى (أولى طبقات العصر الحجرى القديم)
Primaries	القوادم (ريش فى أطراف أجنحة الطير)
Primary period	الدور البدائى
Primata ; Primates	الرئيسات (أرقى الثدييات)
Primitive	بدائى
Primogenitor	الجلد الأول
Primogeniture	حق الابن الأول
Primordial	الأولى ، الأصلى
Primitive Era	دهر بدء الحياة
Principal	رئيس
Principle	مبدأ
Proboscidae	الخرطوميات
Procedures	اجراءات
Process	عملية
Profane	مدنس ، دنيوى
Profession	مهنة ، حرفة
Progeny	ذرية
Prognostic type	نموذج تنبؤى (فى البحوث الاجتماعية)

Progress تقدم
Progressive تقدمى
Prohibition منع ، تحريم
Project مشروع
Projection اسقاط
Promiscuity الاباحية الجنسية
Proof دليل ، برهان
Propagation ذيوع
Property الملك
Proprietary ; Proprietor المالك
Propliopithecus القرد المصرى البائد
Frostitution دعارة
Protectorates محميات
Protoglodytes سكان الكهوف الأوائل
Prototypes مثل
Protozoa أواليات ، بروتوزوا
Pseudopodia الزوائد الكاذبة
Pseudo science العلم الزائف
Pterodaetyls الزواحف المجنحة
Puberty (rites) (شعائر) المراهقة
Punishment عقاب
Pygmies الاقزام

Q

Quakers = The Friends الكويكرز ، جماعة الاصدقاء
Quality الكيف
Quanta الكوانتا
Quantitative method الطريقة الكمية (التى تعتمد على الاحصائيات)
Quantity الكم
Quaternary الدور الرباعى
Questionnaire استخبار
Quetzal الكوتزال (طائر مكسيكى)
Quicksand الرمل السياح

R

Race السلالة
Race discrimination التفرقة العنصرية
— distinction التمييز العنصرى
— suicide انقراض السلالة
Racial سلالى

— traits	ملامح سلالية
Racialism	التعصب العنصرى
Racism	العنصرية
Racoon	الراقون (حيوان من اللواحم)
Radiance	لمعان ، تألق
Radiant	مشع
Radiation	اشعاع
Radical	جذرى ، راديكالى
Radioactivity	نشاط اشعاعى
Radiolaria	الشعوعيات (من الحيوانات الدنيا)
Ragweed	نبات الرجيد
Rain-maker	صانع المطر (فى بعض شعوب وسط أفريقيا)
Rain-making	استسقاء (صنع أو استنزال المطر)
Ramification	تشعب ، تفرع
Random	عشوائى
Random movements	حركات عشوائية
Randomization	اختيار عشوائى (فى البحوث الاجتماعية)
Range	مدى ، مرمى
Range of kinship	مجال القرابة
Ranidae	الضفدعيات
Rank, Social	الرتبة ، المكانة الاجتماعية
Ransome	فدية
Rate	معدل
Ratification	التصديق على ...
Ratio	النسبة
Rational	عقلى
Rationalism	تسويغ ، تبرير
Rattlesnake	الأفعى المجلجلة
Reaction	ارتكاس ، رد الفعل
Reality	الحقيقة ، الواقع
Realisation	التحقق
Reason	العقل
Reasoning	استنتاج
Recession	تنح (انحسار ، تراجع)
Recessive Character	الصفة المتنحية
Reciprocity	تناوب
Reckoning	حساب ، تقدير
—, Time	حساب الزمن
Reclamation, Land	استصلاح الأراضى
Recompense	جزاء
Reconstruction	اعادة تركيب

Recruitment	تعبئة
Rectum	المستقيم (فى التشريح)
Recurrent	معاود
Recurrent migration	الهجرة المعاودة أو المتكررة
Redskin	الهندى الاحمر
Reformation	اصلاح
Refugee	لاجيء
Refuse	نفاية ، فضلات
Region	اقليم ، منطقة
Regional	اقليمى
Regression	تراجع ، نكوص
Regression, Cultural	التراجع الثقافى
Regular	منتظم ، رتيب
Regulation	تنسيق
Rehabilitation	تأهيل
Reincarnation	تقمص
Reindeer	غزال الرنة
Rejuvenation	تجديد الشباب
Relation, Social	علاقة اجتماعية
Relationships, Social	صلات أجتماعية
Relative	نسبى
Relativity	النسبية (نظرية)
Relaxation	استرخاء
Relics, Cultural	المخلفات الثقافية
Religion	الدين
Religion, Natural	الدين الطبيعى
—, Primitive	الدين البدائى
Religious	دينى
— authority	السلطة الدينية
— institutions	نظم دينية
Remains	مخلفات
Remorse ; Repentence	الندم
Renovation	تجديد (أو ترميم)
Renunciation	نبذ ، كفران
Repression	صد ، كبت
Reptiles	زواحف
—, Age of	عصر الزواحف
Reptilia	الزواحف
Representations	تصورات
—, Collective	التصورات الجماعية
Response	استجابة
Responsibility	مسئولية

—, Collective	المسئولية الجماعية
Restoration	ترميم
Resurrection	البعث
Retaliation	ثأر
Retragradation	تدهور
Retribution	جزاء
Retrogression	تقهقر ، نكوص
Revenge	انتقام
Reversion ; Ativism	ارجعى (وراثة الصفات عن الأسلاف)
Rhino ; Rhinoceros	كركدن
Rhinocerotidae	الكركدنيات
Rhythm	ايقاع
Rinderpest	طاعون الماشية
Rites	شعائر
Rites de passage	شعائر الانتقال أو المرور
Ritual	شعائر
Ritualism	شعائرية
Rodentia	القواضم
Rotifers	السجليات
Ruddle	المغرة الحمراء
Rudimentary	أثرى ، عسنى
— organs	الأعضاء العسنية
Ruminant	حيوان مجتر
Ruminantia	المجترات
Rural	ريفى
Rural communities	مجتمعات ريفية محلية
— sociology	علم الاجتماع الريفى

S

Sacerdotal	كهنوتى
Sacral	عجزى (نسبة الى العجز)
—, Vertebrae	الفقار العصعصية
Sacred	مقدس
Sacrifice	أضحية ، قربان
Sacrilege	تدنيس (للمقدسات)
Sacrum	العجز
Sadism	سادية
Saint	قديس ، ولى
Sample :	عينة :
Controlled	مقيدة
Purposive	متعمدة

English	Arabic
Random	عشوائية
Stratified	طبقية
Sanctions :	جزاءات :
Negative	سلبية
Positive	ايجابية ، فعالة
Sanctity	قداسة ، طهارة
Sandstone	الحجر الرملى
Sanguine	دموى
Sanguinity	روابط الدم
Sapiens, Homo	الانسان العاقل
Satisfaction	اشباع ، ارضاء
Sauria	العظائيات
Saurian	عظائى
Sauralophus	العظاية ذات العرف
Savagery	مرحلة التوحش
Scarification	حجامة
Sceptics	الشكاك
Scepticism	الشك
Schedule :	أستمارة البحث
— Observation	استمارة الملاحظة
— Rating	استمارة التقدير
— Evaluation	استمارة التقييم
Scheme	صورة تخطيطية
Science, Social	العلم الاجتماعى
Scope	مجال
Scrapper	محت ـ مقشرة
Sculpture	النحت
Scyphozoa	القدحيات (من الحيوانات الدنيا)
Scythians	الاسقوثيون
Sea-calf	عجل البحر
Sea-cow	بقرة البحر
Sea-crab	سرطان البحر
Sea-dog	كلب البحر ـ الفقمة
Sea-eagle	عقاب البحر
Sea-gull	النورس
Sea-maid ; Mermaid	جنية البحر (فى الاساطير)
Sea-nymph	عروس البحر الحورية (أساطير)
Sea-otter	القندس البحرى
Sea urchin	قزم البحر
Seal	سمك الصيد
Secession	انفصال
Seclusion	اعتزال ـ انفراد

Secretion	افراز
Secret societies	الجمعيات السرية
Secular	دنيوى ، زمنى
Security, Social	الضمان الاجتماعى
Sedentary life	حياة الاستقرار
Sedentarisation (of nomads)	توطين (البدو)
Sedimentary	رسوبى
Sedimentation	ترسب
Seepage	تسرب الماء فى الأرض
Segment	قسم ، شذرة
Segmentary	انقسامى
— system	نسق انقسامى
Segmentation	الانقسام
Segregation	العضل
Seism	هزة زلزالية
Selachii	الغضروفيات
Selection :	الانتخاب :
Natural	الطبيعى
Sexual	الجنسى
Social	الاجتماعى
Self-assertion	تحقيق الذات
Self-central	ضبط الذات
Self-denial	نكران الذات
Self-sacrifice	بذل النفس
Self-subsistence	المتقوم بذاته
Self-sufficiency	الاكتفاء الذاتى
Semblance	المشابهة
Semites	الساميون
Semitic	اسامى
Sensation	احساس
Sensory stimuli	مؤثرات حسية
Sentiment	عاطفة
Sepulture	لحد ، قبر
Settlement	توطن ، مستعمرة
Sex	الجنس
Sexual	جنسى
Sexuality	الجنسية
Sham-fighting	المشاجرة التمثيلية
Shaman	الشامان
Shamanism	الشامانية
Shekel	شاقل (وزن قديم فى سومر)

Shrew	الزباب (حيوان من الحشريات)
Siamang	السـيامنج (من القـردة البشرية الصغيرة)
Sib	العشيرة
Sibling	الاخ أو الاخت (الشقيق)
Significance	دلالة
Silurian	الأحجار السيلورية
Siluridae	السيلوريات (من الأسماك)
Similarity	مشابهة
Simultaneous	متزامن ، فى الوقت ذاته
Sin	اثم ، خطيئة
Sinanthropus	انسان بكين (انسان الصين)
Situation, Social	موقف ، مكانة اجتماعية
Skate	القوبع (من ثعابين السمك)
Skeleton	هيكل عظمى
Skull	جمجمة
Slavery	الرق
Sledge	زلاقة
Sloth	الرسيف ، الكسلان (من الدرداوات)
Sloth bear	الدب الرسيف أو الكسلان
Snaggletooth	السن البارزة
Snail	الحلزون (من الرخويات)
Soapstone	معدن حجر الصابون
Social	اجتماعى
Socialism	اشتراكية
Socialization	تطبيع اجتماعى
Social sciences	العلوم الاجتماعية
Societal	مجتمعى (نسبة الى المجتمع)
Society	مجتمع
Sociology	علم الاجتماع
Solidarity	تماسك ، تضامن
Solitude	عزلة
Somatic	جسمى
Soothsaying	تنجيم
Sorcery	السحر الضار
Sororate ; Sororal marriage	الزواج بأخت الزوجة المتوفاة
Soul	النفس
—, Apparitional	النفس المترائية
—, Ghost	النفس الشبح
Space	الفضاء
Spatial distance	البعد المكانى
Species	النوع

Specific	نوعى
Specification	تعيين ، تخصيص
Specimen	نموذج
Spectrum	طيف
Speculation	النظر العقلى
Spell	رقية ، تعويذة
Sperm	المنى
Spermatic cord	الحبل المنوى
Spinal column	العمود الفقارى
Spine	الصلب ، الفقار
Spirit	الروح
Spiritual	روحانى
Spiritualism	الروحانية
Splint bone	عظم الشظية
Spontaneous	تلقائى
Spruce	التنوب
Squirrel	السنجاب
Stability	الإستقرار ، الثبات
--, Emotional	الاتزان الانفعالى
Stage	مرحلة
Standard	معيار ، منسوب
Standardization	تقنين
Starvation	مجاعة
State	الدولة
Statesman	سياسى
Static	أستاتيكى ، ساكن
Statistics	الاحصاء
Status	المنزلة الاجتماعية
Stegosaurus	العظاية المصفحة
Stereotype	نمط
Stimulation	تنبيه
Stimulus	منبه ، مثير
Stone Age	العصر الحجرى
Stoneware	الخزف الطلى
Strain	توتر
Strata	طبقات جيولوجية
Stratification, Social	تفاوت اجتماعى ، تدرج
Stratum	طبقة جيولوجية
Strife, Social	الصراع الاجتماعى
Structural	بنائى
— Analysis	التحليل البنائى

-- Anthropology	الانثربولوجيا البنائية
Structure	بناء
—, Social	البناء الاجتماعى
Struggle, class	الصراع الطبقى
—, Social	الصراع الاجتماعى
Subjective	ذاتى
Subjugation	اخضاع
Sublimity	الجلال
Submission	خضوع
Subsistence	المعاش
Substance	جوهر
Substratum	طبقة تحتية
Substructure	أساس ، دعامة (البناء التحتى)
Succession	تتابع
Successor	خلف
Suggestion	ايحاء
Supernatural	خارق للطبيعة ، اعجازى
Superorganic	ما فوق العضوى
Superstitions	خرافات
Supplication	توسل ، ابتهال
Survey	مسح
Survey, Social	مسح اجتماعى
—, Specialized	مسح متخصص
Survivals	مخلفات او بقايا
Survival of the Fittest	البقاء للاصلح
Symbiosis	تكافل
Symbiotic relationships	العلاقات التكافلية
Symbolic	رمزى
Symbolism	الرمزية
Symmetry	مضاهاة
Sympathetic magic	السحر الانعطافى
Sympathy	المشاركة الوجدانية ، تعاطف
Synchronic	متزامن
Synchronism	التزامنية
System	نسق ، جهاز
Systematic	مطرد

T

Taboo	تابو ، محرم
Tadpole	الشفدع
Taenndae	الشريطيات (ديدان)

Talent	موهبة
Talion	قصاص
Talisman	طلسم
Tamarin	الطمارين (من السعادين الأمريكية)
Tannic acid	حامض التنيك
Tanning	الدبغ
Taoism	الطاوية (من الأديان الصينية)
Tapa	طابة (قلف نوع من الشجر تصنع منه الملابس)
Tapworm	الدودة الشريطية
Tapir	بقر النهر البرازيلى
Tarsal	الرسغى (الجزء الخلفى من القدم)
Tarsier	السفل (من الرئيسات الشجرية)
Tarsioids	السفليات
Tattoo	وشم
Taungs	قرد تونجس البشرى
Tantology	تكرار المعانى
Taxonomy	تصنيف (فى الاحياء)
Technical	فنى
Technique	صنعة ، التطبيق الفنى
Technology	التكنولوچيا
Teething	تسنين
Teknonymy	مناداة الرجل بالاشارة الى ابنه أو ابنته (أبو فلان أو أبو فلانة)
Teleology	الغائية
Telic	غائي
Temperament	مزاج
Temple	معبد ، صدغ
Temporal bone	العظم الصدغى
Temporary	مؤقت
Temptation	اغراء
Tendency	ميل ، نزعة
Tension	توتر
Tenure	حيازة
Term	لفظ ، حد
Terminology	المصطلحات
Terrane	مكونات جيولوجية
Territorial distribution	توزع اقليمى
Territory	اقليم
Tertiary	ثلثى
— period	الحقب الثالث
Testimony	دليل ، شهادة

Theology	اللاهوت
—, Animistic	اللاهوت الحيوى
Theoretic	نظرى
Theory	نظرية
Thermal ; Thermic	حرارى
Thigh	فخذ
— bone	عظم الفخذ
Thunderbolt	صاعقة
Thunderstone	الحجر النيزكى
Thunderstorm	عاصفة رعدية
Thyme, Wild	الصعتر البرى
Thyroid gland	الغدة الدرقية
Tide	المد
Tideland	الارض التى يغمرها المد
Titan	عملاق ، مارد
Titanosaurus	العظاية الماردة ، الطنسور
Title	لقب
Tood	الضفدع البرى
Tolerance, Religious	التسامح الدينى
Toleration	قوة التحمل
Tongs	ملقط ؛ جفت
Tonus	توتر عضلى
Tools, Stone	آلات حجرية
Topaz	التوباز ، الياقوت الاصفر
Torero	مصارع الثيران
Torment	تعذيب ، ايلام
Tornado	اعصار
Torrent	سيل
Torrid zone	المنطقة الحارة
Tort	العطل او الخطأ
Torture	التعذيب
Total structure	البناء الكلى
Totem	طوطم
— clan	عشيرة طوطمية
— stage	الطور الطوطمى
Totenism	الطوطمية
Tournament	العاب الفروسية
Trachodon	الشعث الأسنان
Trachyte	تراخيت (صخور بركانية)
Traditions	التقاليد
Traditional societies	مجتمعات تقليدية
Trait, Cultural	سمات ثقافية

Transgression	الإنتهاك ، التعدى
Transhumance	انتقال الحيوان موسميا للرعى فى المرتفعات
Transition	تحول ، انتقال
Transitory period	فترة انتقالية
Transmigration	الحلول
Transparency	شفافية
Tree-ring calender	التقويم بحلقات الشجر
Trespass	التعدى
Trespasser	مذنب ، متعد
Trial	محاكمة
Trial and error	المحاولة والخطأ
Triassic period	الحقب الطرياسى ، الحقب الثلاثى
Tribal	قبلى
Tribalism	النظام القبلى
Tribe	قبيلة
Tribesmen	اعضاء القبيلة
Tribunal	محكمة
Tributary	رافد (للنهر)
Tribute	جزية
Triceratops	الثلاثى القرون
Tribolites	الحيوانات الثلاثية الفصوص (بائدة)
Troglodyte	سكان الكهوف
Tropic	المدار
Tropical	مدارى
Tropism	انتحاء
Tuaregs	الطوارق (قبائل بربرية فى شمال افريقية)
Tumulus	ركام القبور
Turquoise	الفيروز
Twinning	الجدل ، الفتل
Twinned, Twisted	مبروم
Type	طراز
Tyrannosaurus	العظاية الجبارة
Tyranny	استبداد ، طغيان
Tyrant	طاغية

U

Ultimogeniture	توريث الابن الأصغر
Umbilical	السرى
— cord	الحبل السرى
Unanimity	اجماع

Unauspicious	مشئوم
Uncertainty	الشك ، عدم اليقين
Unconditioned	مطلق ، غير مشروط
Unconscious	لاشعورى
Underage	قاصر
Undergrowth	رتم ، النموات التحتية
Unguis	حافر ، ظفر
Ungular	حافرى ، ظفرى
Ungulata	الاناعيم
Unicellular	أحادى الخلية
Unicorn	وحيد القرن
Unification	توحيد
Uniform	مطرد ، على وتيرة واحدة
Uniformity	اطراد
Unilateral	ذو الجانب الواحد
Unilineal	فى خط واحد
— evolution	التطور فى خط واحد
Union	اتحاد
Unity	وحدة
Universal	كلى
Universe	الكون
Unsociable	محب للعزلة
Unsubstantial	غير المادى
Untouchables	المنبوذون (فى الهند)
Ural-altaic	الاوالتية (فصيلة لغوية)
Urban	مدنى ، حضرى
— communities	مجتمعات محلية حضرية
— sociology	علم الاجتماع الحضرى
Urbanisation	تحضير
Urdu	اللغة الاردية
Usufruct	حق الانتفاع
Usufructuary	صاحب حق الانتفاع
Usurpation	اغتصاب
Uterines	ذوو الأرحام
Utiliterian	نفعى
Utiliterianism	مذهب المنفعة
Uxoricide	قتل الزوجة

V

Vaccination	تطعيم
Vaccine	لقاح ، طعم
Vacillation	تراوح ، تذبذب
Vacuum	فراغ
Vagina	مهبل
Vaginal	مهبلى
Valid	صحيح
Validity :	صحة ، صدق :
Concurrent	تلازمى
Experimental	تجريبى
Face	ظاهرى
Predective	تنبؤى
Values, Social	القيم الاجتماعية
—, System of	نسق القيم
Vampire	مصاص الدماء ، القولق (من الخفافيش)
Variables	متغيرات
Variations	تحويرات
Variety	ضرب
Vassal	تابع
Vassalage	تابعين ، عبودية
Venereal diseases	امراض تناسلية
Vengeance	انتقام
Verification	محقق
Verisimilitude	مشاكلة
Vermes	الدوديات
Vermin	دودة
Vernacular	(اللغة) الدارجة ، بلدى ، وطنى
— diseases	الأمراض المتوطنة
Version	صيغة
Vertebra	فقارة
Vertebrae	فقارات
Vertebral column	العمود الفقارى (الصلب)
Vertebrata	الفقاريات
Vertebrates, Age of	عصر الفقاريات
—, Higher	الفقاريات العليا
– , Lower	الفقاريات الدنيا
Vertebration	التفقر
Vikings	المغيرون من أهل الشمال
Violation	استباحة ، انتهاك
Vitalism	المذهب الحيوى

Volcanic	بركانى
— rocks	صخور بركانية
Voluntary	ارادى ، اختيارى
Vow	نذر

W

Walrus	الفظ (حيوان بحرى)
Washout	ازاحة
Water nymph	حورية الماء
Wax (Lost wax method)	شمع (طريقة الشمع المفقود)
Weavebird	طائر الخياط
Weaving	النسج
Webfoot	القدم المكففة (التى تتصل أصابعها بغشاء)
Welter	حمأة ، وحل
Wergild	الفدية (فى القوانين الانجلو سكسونية والجرمانية)
Whole, Social	الكل الاجتماعى
Wisdom	الحكمة
— tooth	ضرس العقل
Wiseacre	مدعى الحكمة
Wishbone	ترقوة الطير
Witch	المشعوذ أو المشعوذة
Witchcraft	الشعوذة ، العين الشريرة (عند الأزاندى)
Witch-doctor	الطبيب الساحر ، المطبب
Worship	عبادة
Worship ancestor	عبادة الأسلاف
Wrong	خطأ ، ضرر
Wrongdoer	مخطىء ، آثم ، مذنب

Y

Yam	درنات اليام

Z

Zenith	السمت
Zero-point	نقطة الصفر (فى التغير الاجتماعى)
Zoogeography	التوزع الجغرافى للحيوان
Zoolatry	عبادة الحيوان
Zoological	حيوانى
Zoologist	عالم الحيوان
Zoology	علم الحيوان
Zoometry	علم قياس الحيوان

فهرس

(ب)

(ت)

(ث)

(م)

(ن)

(هـ)

الإشــــراف اللغــــوى : حسام عبد العزيز

الإشــــراف الفنــــى : حسن كامل

التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد

هذا عمل نادر فى تميزه، فهو من أهم الكتب فى مجاله وهو: الأنثروبولوجيا الفيـزيقيـة أو الطبيعيـة **Physical Anthropology**، والتـى أصبحـت تسمى مـؤخـرا بالأنثروبولوجيـا البيولوجيـة **Biological Anthropology** وسبب هذا التميز أن مؤلفه يعد واحدا من أكبر علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية على الصعيد العالمى، كما ظل كبيرهم على الإطلاق لعدة عقود فى الولايات المتحدة إبان القرن الماضى. وهو متميز أيضا لأن مترجمه كبير علماء الأنثروبولوجيا العرب الأستاذ الدكتور أحمد أبوزيد.

يشمل هذا الكتاب جزءا كبيرا يدور حول نشأة الإنسان الأول ومظاهر حضارته وفنونه فى عصور ما قبل التاريخ، كما يتناول بالدراسة مظاهر الحياة والتقدم البشرى فى مجتمعات قائمة الآن بالفعل سواء فى أمريكا وأفريقيا وأستراليا، وبهذا يميل المؤلف إلى القول بأن هذه المجتمعات ذاتها تمثل المراحل الأولى للإنسانية نظرا لبدائيتها وتأخرها.

فالكتاب فى حقيقته دراسة لنشأة الإنسان والمجتمع البدائيين وتطورهما، وتحليل لبعض النظم الاجتماعية البدائية، وبذلك هو أقرب إلى الأنثروبولوجيا العامة بفرعيها الفيزقى والاجتماعى منه إلى ما قبل التاريخ. وقد المؤلف فصلا طويلا للهنود الحمر فى أمريكا ومظاهر ثقافتهم، وفع لدراسة المراكز الأولى للحضارة فى آسيا ومصر وكريت.

تصميم الغلاف: نسرين كشك